ميخائيل بولغاكوف



المُعلّم ومَرغريتا

ترجمة: هَڤال يوسف

منشورات الجمل

رواية

ميخائيل بولغاكوف

المُعلّم ومَرغريتا

رواية

ترجمة: هَڤال يوسف

منشورات الجمل

ميخائيل بولغاكوف: **المُعلّم ومَرغريتا**، رواية

ميخائيل بولغاكوف: **المُعلِّم ومَرغريتا**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: **هَڤال يوسف**

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Михаи́л Булга́ков: **Ма́стер и Маргари́та**

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الجزء الأول

. . . فمن تكون، إذاً، في نهاية المطاف؟
- أنا جزءٌ من تلك القوة التي تريد الشرّ دائماً،
لكنها تقترف دائماً الخير.

غوته، «فاوست»

الفصل الأول

لا تتحدّثوا أبداً إلى الغرباء!

في أصيل يومٍ ربيعيّ لم يُعرَف لحرّه مثيل ظهر في منطقة «بَتريَرشيه برُودي» في موسكو مواطنان: أحدهما، ويرتدي بذلة صيفية رمادية اللون، كان أصلعَ الرأس، قصير القامة، مكتنز الجسم، يحمل قبّعته الأنيقة بيده كما تُحمَل فطيرة، وعلى وجهه الحليق بعناية توضّعت نظارة هائلة الحجم ذات إطارٍ أسود معقوف، أما الثاني فكان شاباً عريض المنكبين، أصهب الشعر أجعده، يعتمر سيدارة «كاروه»[١] مائلة على قذاله ويرتدي قميص «كاوبوي» وبنطالاً مكرمشاً أبيض اللون وينتعل خفّين أسودين.

لم يكن الأول سوى ميخائيل ألكسندروفيتش بِرلُوز رئيس مجلس إدارة أحد أضخم الاتّحادات الأدبية في موسكو، يُدعى اختصاراً «ماسوليت»، ورئيس تحرير مجلة أدبية سميكة، وكان رفيقه الشابّ هو الشاعر إيفان نيكولاييفيتش بونيريف الذي يكتب بالاسم المستعار بيزدومني.

(١) تقليمتها على شكل مربّعات، وسنجد أن كوروفييف - فاغوت (من شخصيات الرواية) يرتدي قميصاً ذا مربّعات، لذا يسمّيه الكاتب «المربّعاتي»، ونحن أيضاً التزمنا بهذه التسمية أحياناً، حسب السياق، حتى لا نشير إليه بجملة كاملة.

حين بلغ الكاتبان ظلال أشجار الزيزفون، التي كانت قد بدأت بالاخضرار حديثاً، كان أول ما فعلاه أنهما هرعا إلى كشكٍ خشبيٍّ مطليٍّ بألوانٍ مختلفة كُتب عليه «بيرة وماء».

ينبغي أيضاً الإشارة إلى وجه الغرابة الأول في هذا المساء الأيّاري الفظيع، وهو أنه لم يكن هناك أحد، ليس عند الكشك فحسب بل وفي الممشى الموازي لشارع «مالايا برونّايا» برمّته. وفي تلك الساعة - حين بدا أنّ المرء لم يعد قادراً على التنفس، وكانت الشمس المغلّلة بضبابٍ جافّ تهوي إلى مكانٍ ما وراء «سادوفَييه كَلتسو» وهي تكوي موسكو بلهيبها - لم يأتِ أحد ليستظلّ بأشجار الزيزفون أو يجلس على مقعد، فقد كان الممشى خالياً.

- أعطيني نارزان. - قال برلوز.

- ليس عندنا نارزان. - أجابت المرأة التي في الكشك، ولسببٍ ما شعرت بالاستياء.

- هل عندكِ بيرة؟ - سأل بيزدومني بصوتٍ أبحّ.

- البيرة ستُجلَب في المساء. - أجابت المرأة.

- ماذا يوجد إذاً؟ - سأل برلوز.

- عصير المشمش، لكنه دافئ. - قالت المرأة.

- طيّب، هاتيه، هاتيه، هاتيه!...

نفث عصير المشمش رغوةً غزيرةً صفراء وفاحت في الجو رائحة صالون حلاقة. وما إن ارتوى الأديبان حتى بدأا يحزقان، فدفعا ما عليهما وجلسا على مقعد: وجهاهما باتجاه البحيرة وظهراهما باتجاه شارع «برونّايا».

هنا حدث أمر غريب آخر يتعلّق ببرلوز وحده، فقد توقّف عن الحزق فجأةً وأخذ قلبه يدقّ وهوى لهنيهة إلى ناحية ثم استوى في

مكانه وقد انغرزت فيه إبرةٌ مثلومة. استبدّ بِبرلُوز خوفٌ كان من الشدّة بحيث أراد أن يفرّ فوراً من «بتريرشيه» لا يلوي على شيء، هذا فضلاً عن أنّ خوفه كان بلا مبرر، فتلفّت حوله بضجر لا يدري ما الذي أخافه. امتقع لونه، فمسح جبينه بمنديل وفكّر: «ما بي؟ لم يحدث هذا لي من قبل قط.. قلبي يعبث.. لقد أُنهكت للغاية. حان الوقت لرمي كل شيء وراء ظهري والذهاب إلى كيسلوفودسك...»

في هذه اللحظة تكثّف الهواء القائظ أمامه وتنسّج من الهواء مواطنٌ شفّاف غريب المظهر: تعلو رأسه سيدارة «جوكيّة»[1] ويرتدي سترة «كاروه» ضيقة وقصيرة مصنوعة من الهواء... كان طول المواطن متراً ونيّف فقط، لكنه كان ضيق الكتفين ونحيلاً بشكل لا يُصدَّق، وكان وجهه - أرجو أن تلاحظوا ذلك- ينمّ عن السخرية.

لقد جرت حياة بِرلُوز على نحوٍ لم يعتد فيه الظواهر الغريبة لذا فقد ازداد وجهه امتقاعاً وحملق بعينيه وفكّر مضطرباً: «هذا مستحيل!...»

لكن ذلك لم يكن مستحيلاً للأسف، والمواطن القصير القامة، الذي كان يُرى من خلاله، كان يتمايل يميناً ويساراً أمامه دون أن تمسّ قدماه الأرض.

حينها تملّك بِرلُوز رعبٌ شديد إلى درجة أنه أغمض عينيه، وحين فتحهما ثانيةً كان كلّ شيء قد انتهى، فالسراب كان قد تبخّر و«المربّعاتي» اختفى، وفي الوقت ذاته انسحبت الإبرة المثلومة من قلبه. صاح رئيس التحرير:

- تفو، اللعنة! هل تعلم يا إيفان أنني كدت أُصاب بسكتة قلبية

---

(١) الجوكي هو الشوّار، وهو الذي يركب الدابة لاختبارها.

للتوّ بسبب الحرارة! بل حدث لي ما يشبه الهلوسة حتى. - وحاول أن يضحك ضحكةً ساخرة لكنّ الهلع كان لا يزال يتقافز في عينيه وكانت يداه ترتعشان. إلاّ أنه هدأ شيئاً فشيئاً وهوّى وجهه بمنديل ثم استأنف الحديث الذي قطعه شرب عصير المشمش قائلاً بشيءٍ من النشاط: «وبالتالي...»

عُرِف لاحقاً أنّ الحديث كان يتعلّق بيسوع المسيح. وفحوى الأمر أنّ رئيس التحرير كان قد طلب إلى الشاعر كتابة قصيدة طويلة معادية للدين من أجل كُتيّب المجلة الدوري. وقد ألّف إيفان نيكولايفيتش هذه القصيدة، وفي فترة وجيزة، لكنها لم تُرضِ رئيس التحرير على الإطلاق للأسف. فقد رسم بيزدومني الشخصية الرئيسة في قصيدته - أي يسوع - بألوان قاتمة جداً، وكان عليه إعادة كتابة القصيدة بأكملها من جديد حسب رأي رئيس التحرير. وها هو رئيس التحرير الآن يلقي على الشاعر ما يشبه المحاضرة حول يسوع لكي يبيّن خطأ الشاعر الأساسي. يصعب القول ما الذي ورّط إيفان نيكولايفيتش - أهي قوة موهبته التصويرية أم جهله التام بالموضوع الذي كان ينوي الكتابة عنه- لكنّ يسوع خرج في تصويره شخصاً حياً تماماً، وإن كان لا يثير الاهتمام. لكنّ بِرلُوز كان يريد أن يبرهن للشاعر أنّ الأمر الرئيسي لا يكمن في ما إذا كان يسوع شخصاً سيئاً أم جيداً، بل في أنّ يسوع هذا، كشخص، لم ينوجد في الدنيا قطّ، وأنّ كلّ ما يروى عنه ليس سوى اختلاقات وأساطير مبتذلة جداً.

تجدر الإشارة إلى أنّ رئيس التحرير كان شخصاً واسع الاطّلاع، وكان في حديثه يستشهد، ببراعة، بالمؤرّخين القدماء كفيلون الإسكندري المشهور، على سبيل المثال، أو يوسف فلافيوس الرفيع الثقافة الذي لم يذكر قطّ كلمة واحدة عن وجود يسوع. ومُبدياً سعة

تبحّره، أخبر ميخائيل ألكسندروفيتش الشاعر أيضاً - بالمناسبة- أنّ الموضع الذي يرد فيه الحديث عن صلب يسوع، في الفصل الرابع والأربعين من الكتاب الخامس عشر لـ«حوليات» تاسيت الشهيرة، ليس سوى تزويرٍ دُسَّ فيه لاحقاً.

والشاعر، الذي كان كلّ ما يُخبره به رئيس التحرير يُعدُّ اكتشافاً بالنسبة إليه، كان يصغي بانتباه إلى ميخائيل ألكسندروفيتش وهو يحدِّق فيه بعينيه الخضراوين اليقظتين، وكان يحزق فحسب بين الحين والآخر وهو يلعن شراب المشمش همساً.

أخذ بِرلُوز يقول:

- عموماً، ما من ديانة شرقية واحدة تخلو من عذراء عفيفة تلد إلهاً. والمسيحيون لم يأتوا بجديد، بل كذلك تماماً ابتدعوا يسوعهم الذي لم يوجد قط في حقيقة الأمر.

كان صوت بِرلُوز العالي يدوّي في الممشى الخالي، وكلّما توغّل أكثر في تلك المجاهل، التي يمكن فقط لشخص مثقّف جداً التوغّل فيها دون المجازفة بالتعرّض لفشل ذريع، كان الشاعر يتعرّف إلى المزيد فالمزيد مما هو ممتع ومفيد عن أوزيريس المصري، إله الخير وابن السماء والأرض، وعن الإله الفينيقي تمّوز، وعن مردوك، وحتى عن الإله فيسليبوسلا الرهيب الأقلّ شهرةً الذي كان الأزتيك في المكسيك يُجلّونه أكبر الإجلال في وقتٍ من الأوقات.

وفي اللحظة التي كان ميخائيل ألكسندروفيتش يروي فيها للشاعر كيف كان الأزتيك يصنعون تمثال فيسليبوسلا من العجين ظهر أول شخص في الممرّ.

فيما بعد، وبصراحة بعد فوات الأوان، رفعت هيئات مختلفة تقاريرها بخصوص أوصاف هذا الشخص، ولا يمكن للمقارنة بينها إلا

أن تثير الذهول. ففي التقرير الأول ورد أنّ هذا الشخص كان قصير القامة، وأنّ أسنانه كانت ذهبية، وأنه كان يعرج على رجله اليمنى. وورد في التقرير الثاني أنّ هذا الشخص كان هائل القامة، وأنّ تيجان أسنانه كانت من البلاتين، وأنه كان يعرج على الرجل اليسرى. وأورد التقرير الثالث، باقتضاب، أنّ هذا الشخص لم تكن لديه أي علامات فارقة.

لا بدّ من الإقرار بأنّ أيّاً من هذه التقارير لا يصلح لشيء.

بدايةً: الشخص الموصوف لم يكن يعرج على أيٍّ من قدميه، ولم يكن قصير القامة ولا هائل القامة بل كان، ببساطة، طويل القامة. وفيما يخصّ أسنانه، كانت لديه تيجان بلاتينية في الجهة اليسرى وذهبية في اليمنى. وكان يرتدي بذلة غالية رمادية اللون، وينتعل خفّين أجنبيين لهما نفس لون البذلة، ويعتمر «بيريه» رمادية مُميلاً إياها على أذنه، ويتأبّط عصا لها مقبض أسود على شكل رأس كلب. يوحي مظهره بأنه في الأربعين ونيّف. فمه ملتوٍ إلى حدٍّ ما. حليق الذقن بعناية. أسمر. عينه اليمنى سوداء واليسرى - لسببٍ ما- خضراء. حاجباه أسودان لكنّ أحدهما أعلى من الآخر. باختصار: أجنبي.

عندما مرّ الأجنبي بجوار المقعد الذي كان يجلس عليه رئيس التحرير والشاعر نظر إليهما مواربةً ثم توقّف فجأةً وجلس على المقعد المجاور، على مسافة خطوتين من الصديقين.

«ألماني»، فكّر بِرلُوز.

«إنكليزي»، فكّر بيزدومني، «ولا يشعر بالحرّ وهو يرتدي قفازين، عجيب!».

وراح الأجنبي يرنو إلى البيوت العالية المحيطة بالبركة بشكل مربّع، وبدا واضحاً أنه يرى هذا المكان للمرة الأولى، وأنّ المكان قد

أثار اهتمامه. فقد ثبّت نظره على الطوابق العليا التي كان زجاجها يعكس، على نحوٍ يعمي الأبصار، الشمس المنكسرة والغاربة إلى الأبد عن ميخائيل ألكسندروفيتش، ثمّ حوّل بصره إلى الأسفل، حيث بدأ زجاج النوافذ يقتم مع حلول المساء، وضحك ضحكةً ساخرة متساهلة، ثمّ ضيّق عينيه ووضع يديه على مقبض العصا وأسند ذقنه إلى يديه.

قال بِرلُوز:

- لقد صوّرت، يا إيفان، ولادة يسوع، ابن الله، على سبيل المثال، بشكل جيد وساخر جداً لكنّ النكتة هي أنّ مجموعة من أبناء الله قد وُلدوا أيضاً، حتى قبل ولادة يسوع، كأتّيس الفرّيجي مثلاً. قُصارى القول، لم يولد ولم يوجد أيٌّ منهم، بمن فيهم يسوع، وكان من الضروري أن تقوم بوصف الشائعات السخيفة المتعلّقة بهذه الولادة بدلاً من الحديث عن الولادة ذاتها، وعن مجيء المجوس مثلاً... وإلا تبيّن، تبعاً لقصتك، أنه قد وُلد فعلاً!...

هنا قام بيزدومني بمحاولة لإيقاف الحزق الذي كان يُعذّبه فحبس أنفاسه الأمر الذي جعله يحزق بصوتٍ أعلى وأشدّ ألماً. وفي هذه اللحظة بالذات قطع بِرلُوز حديثه لأنّ الأجنبي نهض فجأةً وتوجّه نحو الكاتبين اللذين نظرا إليه في دهشة. قال الأجنبي بلكنةٍ أجنبية لكن دون أن يشوّه الكلمات:

- اعذراني من فضلكما لكوني أسمح لنفسي، دون معرفة مسبقة... لكنّ موضوع حديثكما العلمي ممتع جداً بحيث...

وهنا خلع الأجنبي «البيريه» بأدب، ولم يبقَ أمام الصديقين إلاّ أن ينهضا وينحنيا مسلّمين.

«لا، الأرجح أنه فرنسي...»، فكّر بِرلُوز.

«بولوني؟..»، فكّر بيزدومني.

لا بدّ من إضافة أنّ الأجنبي أثار انطباعاً منفّراً لدى الكاتب منذ كلماته الأولى في حين أنّ بِرلُوز كان أقرب إلى الإعجاب به، ليس بمعنى الإعجاب فعلاً بل... كيف أُعبِّر عن ذلك... لعلّه شعر بالاهتمام.

- هل تسمحان لي بالجلوس؟ استأذن الأجنبي بتهذيب، فتباعد الصديقان لا شعورياً مفسحين له مكاناً بينهما، فجلس الأجنبي برشاقة بينهما وانخرط في الحديث فوراً.

- إن لم أخطئ السمع فقد تكرّمت بالقول إنّ يسوع لم ينوجد في الدنيا، أليس كذلك؟ سأل الأجنبي موجِّهاً إلى بِرلُوز عينه اليسرى الخضراء.

- كلا، لم تخطئ السمع، هذا ما قلته بالضبط. - أجاب بِرلُوز بلباقة.

- آخ، كم هذا ممتع! - هتف الأجنبي.

«تبّاً، وما شأنه هو؟» قال بيزدومني في سرّه وتجهّم عابساً.

- وأنت وافقت محدّثك على ذلك؟ - استفسر الغريب ملتفتاً يميناً نحو بيزدومني.

- مئة بالمئة! - أكّد بيزدومني الذي كان يحبّ أن يعبّر بتفاصح وبشكل مجازي.

- مدهش! - هتف محدّثهما المتطفل وقال وهو يتلفّت من حوله كاللص كاتماً صوته الخفيض لسبب ما: - اغفرا لي لجاجتي، لكنّي فهمت أنكما، علاوةً على ذلك، لا تؤمنان بالله؟ - وتصنّع عينين مذعورتين، ثم أضاف: - أقسم أنّي لن أخبر أحداً.

أجاب بِرلُوز مبتسماً ابتسامةً لطيفة من هلع السائح:

- أجل، نحن لا نؤمن بالله، لكن يمكننا التحدّث عن ذلك بحرية تامة.

ارتمى السائح على ظهر المقعد وسأل، بل زعق من الفضول:

- أنتما ملحدان؟!

- أجل، نحن ملحدان،- أجاب بِرلُوز مبتسماً بينما قال بيزدومني في سرّه بعصبية: «علقت بنا هذه الإوزّة الأجنبية!»

- ياه، يا للروعة! - صاح الأجنبي المثير للدهشة وراح يتلفّت برأسه ناظراً إلى أحد الأديبين تارةً وإلى الآخر تارةً أخرى.

قال له بِرلُوز بلباقةٍ ديبلوماسية:

- لا يثير الإلحاد دهشة أحد في بلدنا، فمعظم السكّان لدينا لم يعد يُصدِّق، بوعي ومنذ زمنٍ بعيد، الحكايات عن الله.

هنا قام الأجنبي بحركةٍ سمجة، فقد نهض واقفاً وشدّ على يد رئيس التحرير المبهوت قائلاً، في هذه الأثناء، الكلمات التالية:

- اسمح لي أن أشكرك من صميم قلبي!

- وعلامَ تشكره؟ - استفسر بيزدومني وعينهُ تطرف.

- على هذه المعلومة الهامة والمثيرة جداً للاهتمام لي كسائح - أوضح الأجنبي الغريب الأطوار وهو يرفع إصبعه دلالةً على الأهمية والخطورة.

ويبدو أنّ المعلومة الهامة هذه قد أثارت بالفعل انطباعاً قوياً لدى السائح لأنه راح يمرّ بعينيه على البيوت كأنه يخشى أن يرى في كلّ نافذةٍ ملحداً.

«لا، إنه ليس إنكليزياً. . .» فكّر بِرلُوز، بينما قال بيزدومني في سرّه: «أين تعلّم الكلام بالروسية بهذا الإتقان، هذا هو المثير للاهتمام!» وتجهّم ثانيةً.

سأل الضيف الأجنبي بعد ترددٍ مشوبٍ بالقلق:

- ولكن اسمحا لي بسؤالكما: فماذا نفعل بتلك البراهين على وجود الله التي عددها خمسة بالضبط، كما هو معروف.

أجاب بِرلُوز في أسف:

- للأسف! لا قيمة على الإطلاق لأيٍّ من هذه البراهين، وقد أودعتها البشرية الأرشيف منذ أمدٍ بعيد. إذ لا بدّ أن توافقني على أنّ أيّ إثبات لوجود الله أمر غير ممكن عقلاً.

هتف الأجنبي صائحاً:

- برافو، برافو! إنك تكرّر تماماً فكرة الشيخ القلق إيمانويل بهذا الخصوص. لكنّ الطريف هو أنه قام بدحض البراهين الخمسة كلها نهائياً، وبعد ذلك، كأنّما ساخراً من نفسه، أقام برهانه السادس!

فقال رئيس التحرير المثقّف وهو يبتسم بلطف:

- برهان كانط كذلك غير مقنع، وليس عبثاً قال شيللر إنّ أفكار كانط حول هذه المسألة لا يمكنها أن تقنع سوى العبيد، وكان شتراوس يسخر، ببساطة، من هذا البرهان.

بينما كان بِرلُوز يتكلم كان يقول في نفسه: «لكن من تراه يكون رغم ذلك؟ ولماذا يتكلم الروسية بهذه الطلاقة؟»

- يجب إرسال كانط هذا إلى سَلوفكي[1] لثلاثة أعوام على براهينه هذه!- هَدَر إيفان نيكولاييفيتش على نحو غير متوقّع أبداً، فهمس بِرلُوز في ارتباك:

- إيفان!

لكنّ الاقتراح بإرسال كانط إلى سَلوفكي لم يدهش الأجنبي فقط

(١) كان سجناً ومنفى في ذلك الحين.

بل أعجبه كثيراً حتى، وصاح وعينه اليسرى الخضراء المصوَّبة نحو بِرلُوز تلمع:

- بالضبط، بالضبط، هناك تماماً مكانه! وقد قلت له آنذاك على الفطور: «كما تشاء يا بروفيسور لكنك ابتدعت شيئاً غير مسبوق! لعله ذكي لكنه عصيّ على الفهم. سوف يهزأون بك».

جحظت عينا بِرلُوز وقال في سرّه: «على الفطور... عند كانط؟.. بِمَ يهرف؟». لكنّ دهشة بِرلُوز لم تربك الأجنبي وتابع كلامه متوجّهاً إلى الشاعر:

- لكنّ إرساله إلى سَلوفكي غير ممكن لأنه في مكانٍ أبعد من سَلوفكي بكثير منذ ما يزيد على مئة عام، وأؤكّد لك أنّ إخراجه من هناك مستحيل بأيّ شكلٍ من الأشكال!

- واأسفاه! - ردّ الشاعر المشاكس.

- وأنا آسف أيضاً! - أكّد الغريب وعينه تبرق ثمّ أضاف: - لكنّ السؤال الذي يؤرّقني هو: إن لم يكن الله موجوداً، فمن يُسيِّر حياة البشر ومجمل النظام القائم على الأرض بشكل عام يا تُرى؟

- الإنسان ذاته يُسيّرها،- تسرّع بيزدومني في الردّ محتدّاً من هذا السؤال غير الواضح تماماً والحقّ يُقال، فردّ الغريب برقّة:

- لكنّ التسيير، وأرجو عفوك، يحتاج، بصورة أو بأخرى، إلى خطة دقيقة، ولو لمدة معقولة، لذا اسمح لي بالسؤال: كيف للإنسان أن يحكم[1] إذا كان عاجزاً ليس فقط عن وضع أيّ خطة ولو لفترة قصيرة تافهة، لنقل لألف عام، بل ولا يمكنه ضمان غده هو حتى؟

---

(١) بمعنى يُسيّر، يُدير، يقود، يُشرف على.

وبالفعل،- وهنا استدار نحو بِرلُوز،- تخيّل أنّك، على سبيل المثال، بدأت تحكم وتتصرّف بالآخرين وبنفسك وبدأت تستطيب ذلك عموماً، كما يُقال، وفجأةً . . . لديك . . . كخ . . . ورم خبيث في الرئة. . . - وهنا ضحك الأجنبي ضحكةً خبيثة بتلذّذ كأنما أبهجته فكرة الورم الرئوي الخبيث، ثمّ كرّر هذه العبارة الطنّانة، مضيّقاً عينيه كقطّ: - أجل، ورم خبيث، وها قد انتهى حكمك! ولم يعد يعنيك مصير أحد سوى مصيرك أنت. ويبدأ ذووك بالكذب عليك، وأنت، إذ تشعر أنك لست على ما يرام، تهرع إلى الأطباء، ثمّ الدجّالين، وربما البصّارات كذلك، رغم أنك تدرك أنْ لا جدوى من هذا كله. وينتهي الأمر برمّته بشكل مأساوي: ذاك الذي كان يعتقد، حتى وقتٍ قريب، أنّه يحكم شيئاً ما يجد نفسه فجأةً راقداً بلا حراك في صندوقٍ خشبيٍّ، والذين من حوله، مدركين أنّ الراقد لم يعد ينفع لشيء، يحرقونه في موقد. بل هناك ما هو أسوأ من هذا: يتجهّز أحدهم للسفر فوراً إلى كيسلوفودسك،- وهنا حدّق الأجنبي في بِلُروز مضيّقاً عينيه،- وعلى الرغم من أنّ الأمر يبدو تافهاً لكنه لا يستطيع القيام به لأنه، لسببٍ لا يعلمه أحد، ينزلق فجأةً ويسقط تحت الترام! فهل ستقول لي إنه هو الذي أودى بنفسه؟ أليس الأصحّ التفكير بأنّ أحداً آخر قد تدبّر أمره؟ - وهنا انفجر الشخص المجهول ضاحكاً ضحكةً غريبة.

كان بِرلُوز يصغي بانتباهٍ كبير إلى حكاية الورم والترام المزعجة، وبدأت أفكارٌ مقلقة تقضّ مضجعه، وقال في نفسه: «إنه ليس أجنبياً، إنه ليس أجنبياً! إنه كائن غريب الأطوار. . . لكن من تراه يكون؟»

فجأةً قال المجهول موجّهاً كلامه إلى بيزدومني:

- أرى أنك تريد أن تُدخّن، ما نوع السجائر التي تُفضّلها؟

- وهل لديك أنواع منها؟ سأله الشاعر، الذي نفدت منه السجائر، بتجهّم.

- أيها تُفضِّل؟ كرّر المجهول.

- لنقل «ناشا ماركا»، ردّ بيزدومني بضغينة.

وعلى الفور أخرج المجهول من جيبه علبة سجائر وقدّمها لبيزدومني: «ناشا ماركا».

لم يستغرب رئيس التحرير والشاعر وجود سجائر «ناشا ماركا» بالذات في العلبة بقدر ما أثارت استغرابهما العلبة ذاتها، فقد كانت هائلة الحجم، ومن الذهب الخالص، وعند فتحها لمعت على غطائها ماسة مثلثة الشكل ببريقٍ أزرق أبيض.

هنا فكّر الأديبان على نحوين مختلفين. بِرلُوز: «لا، إنه أجنبي!»، وبيزدومني: «تباً! هه؟»

بدأ الشاعر وصاحب العلبة يدخّنان بينما امتنع بِرلُوز غير المدخّن.

قرّر بِرلُوز في نفسه: «يجب الاعتراض على كلامه كما يلي: أجل، الإنسان فانٍ، ولا جدال في ذلك، لكنّ القضية أنّ. . .»

لكن قبل أن يتسنَّ له النطق بهذه الكلمات بادر الأجنبي إلى الكلام:

- أجل، الإنسان فانٍ، لكنّ هذا ليس سوى نصف المصيبة. السيئ في الأمر هو أنه أحياناً يموت على حين غرّة، هنا تكمن الخدعة! وبشكل عام، ليس بمقدوره أن يقول ماذا سيفعل مساء اليوم.

«يا له من طرح سخيف للمسألة. . .» فكّر بِرلُوز واعترض قائلاً:

- لكن هنا مبالغة. فأنا أعرف بدقّة، إلى حدٍّ ما، ماذا سأفعل مساء اليوم. طبعاً إذا لم تسقط قرميدة على رأسي في شارع «برونّايا». . .

قال المجهول برزانة:

- لم يسبق قطّ أن سقطت قرميدة على رأس أحد بالمصادفة، وأؤكّد لك أنّ هذا لا يتهدّدك أنت بالذات، فأنت ستموت ميتة مختلفة.

سأل بِرلُوز بسخرية طبيعية تماماً، شاعراً أنه ينخرط في حديثٍ سخيف بالفعل:

- لعلك تعرف أيّ ميتة سأموتها؟ وهل ستخبرني؟

- بكلّ سرور، - ردّ المجهول، ثمّ أخذ يقيس بِرلُوز بنظره كأنما ينوي خياطة بزّة له، وغمغم من بين أسنانه شيئاً من قبيل: «واحد، اثنان... عطارد في البيت الثاني.. أفل القمر.. ستة - مصبية... مساء - سبعة...» ثم أعلن بصوتٍ عالٍ وبفرح: سيُقطَع رأسك!

حملق بيزدومني بحقدٍ وشراسة في هذا المجهول الوقح في حين ضحك بِرلُوز ضحكةً ساخرة وسأل:

- ومن بالتحديد سيقطع رأسي؟ الأعداء؟ الغزاة؟

- لا، امرأة روسية، كومسومولية. - أجابه محدّثه.

- هممم... - جمجم بِرلُوز الحانق من مزاح الرجل المجهول، - لكن عفواً، هذا ضعيف الاحتمال.

- وأنا أيضاً أرجو عفوك، - أجاب الأجنبي، - لكن هذا ما سيحدث. وبالمناسبة، أريد أن أسألك ماذا ستفعل مساء اليوم إن لم يكن سرّاً؟

- ما من أسرار. سأمرّ على بيتي في شارع «سادوفايا»، وبعد ذلك سوف يُعقد اجتماع في «ماسوليت» في العاشرة ليلاً، وسيكون برئاستي.

اعترض الأجنبي بحزم:

- لا، هذا لن يحدث على الإطلاق.

- ولماذا؟

أجاب الأجنبي وهو ينظر بعينين مزرورتين إلى السماء حيث كانت طيور سود تطير بصمت وقد استشعرت برودة المساء:

- لأنّ، لأنّ آنوشكا قد اشترت زيت عبّاد الشمس، ولم تشتره فقط بل دلقته أيضاً. لذا لن يُعقد الاجتماع.

حينها حلّ الصمت تحت أشجار الزيزفون، وهو أمر مفهوم تماماً. بعد هنيهة بدأ بِرلُوز الحديث وهو يحدّق في الأجنبي الذي يتفوّه بالهراء:

- عفواً، وما شأن زيت عبّاد الشمس هنا... وأيّ آنوشكا هذه؟

فجأةً بادر بيزدومني بالحديث، وواضح أنّه قرّر إعلان الحرب على محدّثهما غير المدعو:

- إليك ما شأن زيت عبّاد الشمس. ألم يصدف، أيها المواطن، أن كنتَ يوماً في مصح للمرضى النفسيين؟

- إيفان!.. - صاح به ميخائيل ألكسندروفيتش بصوتٍ خافت.

لكنّ الأجنبي لم يشعر بالاستياء قطّ وضحك بمرح وصاح، وهو يضحك، دون أن يحوّل عينه التي لا امتعاض فيها عن الشاعر:

- بل كنت، وأكثر من مرة. وأي مكانٍ لم أكن فيه! أشعر بالأسف فقط لأني لم يتسنَّ لي سؤال البروفيسور عن «الشيزوفرينيا». ولا بدّ أنك ستعرف عنها بنفسك يا إيفان نيكولاييفيتش!

- من أين تعرف اسمي؟

- أرجو عفوك يا إيفان نيكولاييفيتش، ومن لا يعرفك؟ - وأخرج الأجنبي من جيبه عدد الأمس من صحيفة «الجريدة الأدبية»، ورأى إيفان نيكولاييفيتش صورته في الصفحة الأولى، وأسفل منها أشعاره.

لكنّ دليل مجد الشاعر وشهرته الذي أفرحه البارحة فقط لم يفرحه قط هذه المرة.

قال إيفان مكفهرّ الوجه:

- عذراً، أريد قول كلمتين لرفيقي. هل يمكنك الانتظار دقيقة؟

قال المجهول:

- أوه، بكلّ سرورا فالمكان رائع هنا تحت أشجار الزيزفون، وأنا لست على عجلة من أمري على أيّ حال.

سحب الشاعر بِرلُوز جانباً وقال له هامساً:

- اسمع يا ميشا، إنه ليس سائحاً على الإطلاق، بل هو جاسوس. إنه مهاجر روسي تسلّل إلينا. اطلب أوراقه وإلاّ هرب...

- هل تعتقد ذلك؟ همس بِرلُوز بقلق، وقال في سرّه: «لكنّه محقّ!»

همس الشاعر في أذنه وهو ينظر مواربةً إلى المجهول حتى لا يهرب:

- صدّقني. إنه يتغابى لكي يحصل على معلومات. ألا ترى كيف يتكلم الروسية؟ هيا نوقفه وإلاّ هرب...

وجرّ الشاعر بِرلُوز من يده نحو المقعد.

لم يكن المجهول جالساً بل كان يقف بجوار المقعد ممسكاً بيده كتيّباً ذا غلافٍ رماديٍّ داكن وظرفاً سميكاً من ورقٍ حسن النوعية وبطاقة زيارة، وقال بوقار وهو ينظر إلى الأديبين نظرةً ثاقبة:

- اعذراني لأني نسيت تقديم نفسي في غمرة نقاشنا. هذه بطاقتي وجواز سفري ودعوة للقدوم إلى موسكو لتقديم المشورة.

ارتبك الأديبان. «تبّاً، لقد سمع كلّ شيء» قال بِرلُوز في سرّه وأشار بيده مومئاً أنْ لا حاجة لإبراز الوثائق. وحين كان الأجنبي يمدّ

يده بها إلى بِرلُوز تمكّن الشاعر من أن يرى على البطاقة كلمة «بروفيسور» مطبوعة على البطاقة بلغةٍ أجنبية، والحرفان الأولان من كنيته «ف» مزدوجاً. وبينما كان الأجنبي يضع الوثائق في جيبه غمغم رئيس التحرير بارتباك في هذه الأثناء:

- تشرّفنا.

وهكذا تجدّدت العلاقة بينهم وجلس الثلاثة على المقعد ثانيةً. سأل بِرلُوز:

- هل دُعيت إلينا بصفة مستشار يا بروفيسور؟

- أجل، بصفتي مستشاراً.

- هل أنت ألماني؟ استفسر بيزدومني.

- أنا؟... كرّر البروفيسور السؤال واستغرق في التفكير فجأةً، ثمّ قال: نعم، ألماني إذا شئت...

فعلّق بيزدومني قائلاً:

- إنك تتكلم اللغة الروسية بشكل رائع.

- أوه، عموماً أنا ضليع باللغات وأعرف عدداً كبيراً من اللغات، - أجاب البروفيسور.

- وما هو اختصاصك؟ سأل بِرلُوز.

- أنا أخصائي في السحر الأسود.

«تفضل»[1] رنّت هذه الكلمة في رأس ميخائيل ألكسندروفيتش، ثمّ سأل وهو يحزق: وهل... وهل دُعيت إلينا بموجب هذا الاختصاص؟

- أجل، دُعيت بموجبه. - أكّد البروفيسور وراح يوضّح الأمر:

(١) بمعنى «اللعنة» أو «ما هذه الكذبة!»، كما تُستخدم بالعامية.

- لقد عُثِر في المكتبة الوطنية هنا على المخطوطات الأصلية للأخصائي في السحر الأسود هربرت الأبريلاكي، من القرن العاشر، وُطلب مني تحقيقها لأني الأخصائي الوحيد في العالم في هذا المجال.

- آها! أنت مؤرّخ إذاً؟ سأل بِرلُوز باحترام وارتياح كبير.

- أجل، أنا مؤرّخ،- أكّد العالم ثم أردف دون مقدّمات: - سوف تحدث قصة شيّقة في «بتريرشيه برودي»!

ومرةً أخرى شعر رئيس التحرير والشاعر بأقصى الذهول، وأشار إليهما البروفيسور أن يميلا عليه، وحين انحنيا نحوه قال لهما هامساً:

- ليكن في علمكما أنّ يسوع قد وجد.

فردّ بِرلُوز مرغماً نفسه على الابتسام:

- لاحظ يا بروفيسور أننا نحترم معرفتك الواسعة لكنّ لنا وجهة نظر أخرى حول هذه المسألة.

أجاب البروفيسور الغريب الأطوار:

- لا حاجة لأيّ وجهات نظر! لقد وُجِد ببساطة وكفى.

- لكنّ هذا يحتاج إلى برهان ما... - بدأ بِرلُوز بالكلام.

- ولا حاجة لأيّ براهين كذلك،- أجاب البروفيسور ثم أخذ يتحدث بصوتٍ خافت وقد اختفت لكنته لسببٍ ما: - الأمر في غاية البساطة: في بردةٍ بيضاء...

الفصل الثاني

بيلاطس البنطي

في بردةٍ بيضاء بطانتها بلون الدمّ، في الصباح الباكر ليوم الرابع عشر من شهر نيسان الربيعي، خرج حاكم اليهودية بيلاطس البنطي إلى رواق الأعمدة الموصل بين جناحي قصر هيرودتس العظيم وهو يمشي بقرقعة كالفرسان.

كان الحاكم يكره رائحة عبير الزهور أكثر من أيّ شيء آخر في الدنيا، وكان كلّ شيء الآن ينبئ بيومٍ سيئ، فهذه الرائحة تطارد الحاكم منذ الفجر، وبدا للحاكم أنّ رائحة الأزهار هذه تفوح من أشجار السرو والنخيل في الحديقة، وأنّ هذه الرائحة اللعينة تمتزج برائحة الجلد والحرس. كذلك امتزجت رائحة الأزهار الدهنية هذه بالدخان المرّ الذي يشير إلى أنّ الطبّاخين في القطعات العسكرية قد بدأوا بإعداد طعام الغداء، والذي كان ينسلّ عبر الفسحة العلوية للحديقة من الأبنية الواقعة خلف القصر، حيث نزلت الكتيبة الأولى من فرقة الصاعقة الثانية عشرة التي واكبت الحاكم إلى أورشليم. أيتها الآلهة، أيتها الآلهة، علامَ تعاقبينني؟

«أجل، دون شك! إنها هي، هي ثانيةً، الشقيقة الفظيعة التي لا تُقهَر، والتي يتألّم نصف رأسي من جرّائها. لا دواء لها، ولا نجاة منها. سأحاول عدم تحريك رأسي».

كان قد أُعِدَّ مقعدٌ للحاكم على الأرضية الفسيفسائية قرب النافورة، فجلس الحاكم عليه دون أن ينظر إلى أحد ومدّ يده جانباً.

وضع أمين السرّ لفيفةً في هذه اليد بإجلال. وعاجزاً عن إخفاء تصعيرات خدّه جرّاء الألم رنا الحاكم، مواربةً وبشكلٍ خاطف، إلى ما كان مكتوباً في الرّقّ ثم أعاده إلى أمين السرّ وقال مجهداً:

- متّهم من الجليل؟ هل أرسلتم قضيته إلى مجلس الأربعة؟

- أجل أيها الحاكم. - أجاب أمين السرّ.

- وماذا قال؟

- رفض إعطاء رأيه في القضية ورفع حكم الإعدام الذي أصدره «السينيدرون»[1] إليك للمصادقة عليه. - أوضح أمين السرّ.

اختلجت وجنتا الحاكم وقال بصوتٍ خفيض:

- أحضروا المتهم.

وعلى الفور اقتاد جنديان شخصاً في السابعة والعشرين من العمر من فسحة الحديقة التي أسفل الأعمدة إلى الشرفة ووضعاه أمام مقعد الحاكم. كان هذا الشخص يرتدي ملاءةً[2] قديمة ممزقة زرقاء اللون، وتغطي رأسه عصابة بيضاء لها سير حول جبينه، وكانت يداه موثقتين وراء ظهره بحبل. كانت تحت عينه اليسرى كدمة، وفي زاوية فمه خدشٌ متخثّر. تأمّل المتّهم الحاكم بفضولٍ قلق.

ظلّ الحاكم صامتاً قليلاً ثم سأل بالآرامية بصوتٍ هادئ:

- أنت إذاً من يحرّض الشعب على هدم هيكل أورشليم؟

---

(١) مجلس كهنة اليهود، وقد تُرجم إلى العربية باسم «المجلس» في الأناجيل، وسنلتزم من الآن فصاعداً بهذه الترجمة.

(٢) الثوب اليوناني، وهو عبارة عن ملاءة تُلفّ على الجسم؛ تشبه ملابس الحجاج المسلمين.

كان الحاكم في هذه الأثناء جالساً كحجر، وشفتاه فقط تحرّكتا عند قوله هذه الكلمات، وكان جامداً لأنه كان يخشى تحريك رأسه الذي يلتهب بألمٍ جهنّمي.

خطا الشخص الموثق اليدين إلى الأمام قليلاً وشرع يقول:

- صدّقني أيها الإنسان الطيّب...

لكنّ الحاكم، دون أن يتحرّك أبداً كما في السابق ودون أن يرفع صوته، قاطعه على الفور:

- هل تدعوني أنا «الإنسان الطيّب»؟ أنت مخطئ. الجميع في أورشليم يتهامسون عني بأني غولٌ ضارٍ، وهذا صحيح تماماً، - ثمّ أضاف بالنبرة الرتيبة ذاتها: - إليّ بقائد المئة كريسوبوي.

بدا للجميع أنّ الشرفة قد أظلمت حين مثل أمام الحاكم قائد المئة مارك، الملقّب كريسوبوي، الذي كان يقود وحدة مئة من النخبة.

كان كريسوبوي أطول من أطول جندي في الفرقة بقدر رأس، وكان عريض المنكبين بحيث حجب كلياً الشمس التي لم تكن قد ارتفعت كثيراً بعد.

خاطب الحاكم قائد المئة باللاتينية:

- المجرم يدعوني «الإنسان الطيّب». أخرجه من هنا لدقيقة وأوضح له كيف يجب أن يكلّمني، لكن لا تشوّهه.

وشيّع الجميع، باستثناء الحاكم الجامد، بأنظارهم مارك كريسوبوي الذي أشار للمعتقل بيده أن يتبعه.

عموماً، كان الجميع يشيّعون كريسوبوي بأبصارهم أينما ظهر نظراً لطوله، والذين كانوا يرونه للمرة الأولى فلوجهه المشوّه أيضاً، حيث هشّمت هراوة جرمانية أنفه ذات مرة.

قرقعت جزمة مارك الثقيلة على الفسيفساء، وسار المقيّد خلفه

بصمت، وحلّ الصمت في الرواق. تناهى هديل الحمام في فسحة الحديقة قرب الشرفة، وكان الماء في النافورة أيضاً يغنّي أغنيةً لطيفة غير مفهومة.

ودّ الحاكم لو ينهض ويضع صدغه تحت دفق الماء ويجمد على هذا النحو لكنه كان يعرف أنْ حتى هذا لن يفيده.

بعد أن أخرج كريسوبوي المعتقل من الرواق إلى الحديقة انتزع سوطاً من يد جنديٍّ كان وقفاً قرب قاعدة تمثال برونزي ولوّح به برفق و«لَطَشَ» كتفي المعتقل. كانت حركة قائد المئة متهاونة وخفيفة لكنّ المقيّد انهار على الأرض مباشرةً وكأنّ قدميه قُطعتا، وتقطّعت أنفاسه وشحب وجهه وزاغت عيناه. رفع مارك الرجل في الهواء بيدٍ واحدة وبسهولة، ككيسٍ فارغ، وأوقفه على قدميه، وقال له بصوتٍ أخنّ، لافظاً الكلمات الآرامية برداءة:

- عليك أن تدعو الحاكم الروماني بـ«الوالي». لا تقل كلمات أخرى. هل فهمتني أم أضربك؟

ترنّح المعتقل لكنه تمالك نفسه وعاد اللون إلى وجهه والتقط أنفاسه وأجاب بصوتٍ أبحّ:

- فهمتك. لا تضربني.

وبعد هنيهة وقف أمام الحاكم ثانيةً.

صدر الصوت المنهك المريض:

- الاسم؟

- اسمي؟ - ردّ المعتقل في عجالة معرباً بكيانه كله عن استعداده للإجابة بوضوح وعدم إثارة المزيد من الغضب.

قال الحاكم بصوتٍ غير عالٍ:

- اسمي، أعرفه. لا تتظاهر أنك أغبى مما أنت بالفعل. اسمك؟

- يشوع، - أجاب المعتقل بسرعة.

- ألك لقب؟

- الناصري.

- من أين أنت بالأصل؟

- من مدينة «هامالا»، - أجاب المعتقل وهو يشير برأسه بأنّ هناك مدينة بهذا الاسم في مكانٍ بعيد، إلى يمينه، في الشمال.

- ومن تكون من حيث الدمّ؟

أجاب المعتقل بسرعة:

- لا أعرف بدقّة، فأنا لا أتذكّر والدي. قيل لي إنه كان سورياً...

- مكان إقامتك الدائم؟

- ليس لي منزل دائم، أنا أترحّل من مدينة إلى أخرى. - أجاب المعتقل بخجل.

- يمكن التعبير عن هذا باختصار أكثر، بكلمة واحدة: متشرّد، - قال الحاكم وسأل: ألك أقارب؟

- لا، ليس لي أحد. أنا وحيد في العالم.

- هل تعرف القراءة والكتابة.

- نعم.

- هل تعرف لغة أخرى غير الآرامية؟

- أعرف. اليونانية.

ارتفع الجفن المنتفخ قليلاً واستقرّت العين، المترقرقة بدخان الألم، على المعتقل بينما ظلّت العين الأخرى مغمضة.

بدأ بيلاطس يتحدّث باليونانية:

- كنت تنوي هدم الهيكل إذاً، ودعوت الشعب إلى ذلك؟

هنا انتعش المعتقل ثانيةً، وكفّت عيناه عن التعبير عن الخوف، وبدأ يتحدث باليونانية:

- أنا، أيها الإنسـ. . . - ولاح الهلع في عيني المعتقل لأنه كاد يزلّ في الكلام،- أنا، أيها الوالي، لم أنوِ في حياتي هدم الهيكل ولم أحرِّض أحداً قطّ على هذا العمل الأخرق.

لاحت الدهشة على وجه أمين السرّ المنحني فوق طاولة واطئة يسجِّل شهادته، فرفع رأسه لكنه سارع يحنيه ثانيةً فوق الرقّ. قال الحاكم بصوتٍ رتيب:

- يفد إلى هذه المدينة في العيد عددٌ كبير من مختلف الناس، بينهم السحرة والمنجّمون والعرّافون والقتلة، وقد يكون بينهم كذّابون. أنت، مثلاً، كذّاب. مدوَّن بوضوح: كان يحرّض على هدم الهيكل. هذا ما يشهد عليه الناس.

- هؤلاء الناس الطيبون،- قال المعتقل، وبعد أن أضاف على عجل: أيها الوالي، تابع: - ليسوا متعلّمين على الإطلاق وقد بلبلوا ما قلته. وعموماً بدأت أخشى أن تستمر هذه البلبلة وقتاً طويلاً جداً. وهذا كلّه لأنه يدوّن أقوالي بشكلٍ خاطئ.

حلّ الصمت. والآن أصبحت عينا بيلاطس المريضتان كلتاهما تنظران بتثاقل إلى المعتقل. ثم قال بنعومةٍ ورتابة:

- أُكرِّر لك للمرة الأخيرة: كفّ عن ادّعاء الجنون أيها الوغد. المكتوب عنك ليس بكثير لكنه كافٍ لشنقك.

قال المعتقل باذلاً كل ما في وسعه لإقناع الحاكم:

- لا، لا أيها الوالي. يتبعني. . . يتبعني شخصٌ مع رقٍّ من جلد الماعز يكتب عليه دون انقطاع، لكنني نظرت مرةً إلى هذا الرقّ

وشعرت بالهلع. يقيناً لم أقل شيئاً مما هو مكتوب فيه. توسّلت إليه: إحرق رقّك بحقّ الله! لكنه اختطفه من يدي وفرّ هارباً.

سأل بيلاطس بقرف وهو يلمس صدغه بيده:

- ومن يكون؟

قال المعتقل يشرح بطيب خاطر:

- متّى اللاوي. كان جابي ضرائب، وقد التقيته للمرة الأولى في فيفاجيا، هناك حيث تبرز زاوية بستان التين، وتحدّثت إليه. وقد عاملني بعداء في البداية، بل حتى أنه أهانني، أي ظنّ أنه يهينني حين نعتني بالكلب، - هنا ضحك المعتقل، - فأنا شخصياً لا أرى أيّ سوء في هذا الحيوان حتى أستاء من هذه الكلمة...

كفّ أمين السرّ عن الكتابة وألقى نظرة دهشة خلسةً، لكن ليس على المعتقل بل على الحاكم. وواصل يشوع الكلام:

- ... لكنه بدأ يلين وهو يستمع إليّ، وفي النهاية رمى المال على قارعة الطريق وقال إنه سيرافقني في تجوالي...

ضحكت إحدى وجنتي بيلاطس ضحكةً ساخرة، مكشّراً عن أسنان صفراء، والتفت بكامل جذعه إلى أمين السرّ وقال:

- آه يا مدينة أورشليم! أيّ شيء لا يسمع المرء فيها. هل تسمع: جابي ضرائب يلقي بالمال على قارعة الطريق!

لم يعرف أمين السر بِمَ يجيب فرأى أنّ من الواجب تكرار ابتسامة بيلاطس.

- وقال إنّ المال قد أصبح شيئاً بغيضاً من الآن فصاعداً، - فسّر يشوع أفعال متّى اللاوي الغريبة ثمّ أضاف: - وقد أصبح رفيقَ طريقٍ لي منذ ذلك الحين.

رنا الحاكم، الذي ظلّ على تكشيره، إلى المعتقل ثمّ إلى الشمس التي لا تني ترتفع فوق تماثيل الجياد في ميدان السباق المنتصبة بعيداً في الأسفل إلى اليمين، وفجأةً، شاعراً بعذابٍ مثيرٍ للغثيان، خطر له أنّ من الأسهل له أن يطرد هذا المجرم الغريب الأطوار عن الشرفة عبر لفظه كلمة واحدة فقط: «اشنقوه»، وأن يطرد الحرس أيضاً ويغادر الرواق إلى داخل القصر، ثمّ يأمر بتعتيم الغرفة ويرتمي على الفراش ويطلب ماءً بارداً، وينادي كلبه بانغا بصوتٍ شاكٍ ويشكو له أمر الشقيقة. وفجأةً برقت بإغواء فكرة السمّ في رأس الحاكم المريض.

راح الحاكم ينظر إلى المعتقل بعينين زائغتين، ولاذ بالصمت بعض الوقت محاولاً جاهداً تذكّر سبب مثول هذا المعتقل، بوجهه الذي شوّه الضرب ملامحه، أمامه في هذا الصباح الأورشليمي القائظ الذي لا يرحم، وتذكّر الأسئلة التي يتوجّب عليه طرحها والتي لا حاجة لأحد بها.

- متّى اللاوي؟ سأل الحاكم المريض بصوتٍ أبحّ وأغمض عينيه.

- أجل، متّى اللاوي، - تناهى إليه صوتٌ عالٍ يفاقم عذابه.

- لكن، رغم ذلك، ماذا قلت بالضبط للحشد في السوق بخصوص الهيكل؟

بدا لبيلاطس أنّ صوت المعتقل يخزه في صدغه ويسبّب له ألماً لا يوصف، وكان هذا الصوت يقول:

- قلت، أيها الوالي، إنّ هيكل العقيدة القديمة سينهار وسيُبنى هيكل الحقيقة الجديد. ولم أقل هذا إلاّ ليكون كلامي مفهوماً أكثر.

- لماذا إذاً، أيها الأفّاق، أثرت الفتنة بين الناس في السوق بحديثك عن الحقيقة التي لا تفقه فيها شيئاً؟ ما هي الحقيقة؟

وهنا فكّر الحاكم: «آه يا آلهتي! إني أسأله عمّا لا لزوم له في المحكمة... لم يعد عقلي يسعفني...» ومرةً أخرى تراءى له فنجان السائل القاتم. «السُّمّ، إليَّ بالسُّمّ!»

ومن جديد سمع الصوت:

- الحقيقة، قبل أيّ شيء آخر، هي أن رأسك يؤلمك، والألم من الشدّة بحيث أنك تفكّر في الموت لوهنٍ في روحك. إنك لست عاجزاً عن الكلام معي وحسب بل حتى يصعب عليك النظر إليّ. وأنا الآن أُعَدُّ جلاّدك رغماً عنّي، وهذا يحزنني كثيراً. إنك لست قادراً على التفكير في أيّ شيء وفقط تتمنّى أن يأتي كلبك الذي يبدو أنّه الكائن الوحيد الذي أنت متعلّق به. لكنّ آلامك سوف تنتهي الآن وسيزول ألم رأسك.

كان أمين السرّ ينظر إلى المعتقل محملقاً وقد توقّف عن الكتابة.

رفع بيلاطس إلى المعتقل عينين معذَّبتين ورأى أنّ الشمس قد ارتفعت عالياً فوق ميدان السباق، وأنّ شعاعها قد انسلّ إلى الرواق ويزحف إلى نعلي يشوع الباليين، وأنّ الأخير يحاول اتّقاء الشمس.

حينئذٍ نهض الحاكم عن معقده، وضغط على رأسه بيديه، ولاح الهلع على وجهه الحليق المصفرّ لكنه كبحه فوراً وغاص في مقعده من جديد.

في هذه الأثناء كان المعتقل لا يزال يتابع حديثه لكنّ أمين السرّ لم يعد يدوّن شيئاً وكان يحرص فحسب على ألا يفوّت شيئاً، وقد مطّ رقبته كإوزّة. قال المعتقل وهو ينظر إلى بيلاطس بمودّة:

- ها قد انتهى كلّ شيء، وأنا في غاية السرور لذلك. ولكنت نصحتك، أيها الوالي، بمغادرة القصر لبعض الوقت والتنزّه على الأقدام في مكانٍ ما في الضواحي، ولو في البساتين الواقعة على جبل

الزيتون. سوف تهبّ عاصفة،- وهنا استدار المعتقل ونظر إلى الشمس مضيّقاً عينيه،- لكن لاحقاً، في المساء. ستفيدك النزهة كثيراً، ولكنتُ رافقتك بكلّ سرور، فقد خطرت لي بعض الأفكار الجديدة التي أعتقد أنّها ستثير اهتمامك، وأحبّ مشاطرتك إياها، لا سيما وأنك تخلق انطباعاً بأنّك شخص ذكي جداً.

شحب أمين السرّ لحدّ الموت وأسقط الملفّ من يده، بينما تابع المقيّد الذي لم يسكته أحد قائلاً:

- المصيبة هي أنك منطوٍ على نفسك جداً، وأنك فقدت إيمانك بالبشر نهائياً. إذ لا بدّ أن توافقني أنه لا يجوز أن تمحض تعلّقك كلّه كلباً. حياتك تافهة أيها الوالي، - وهنا أباح المتكلم لنفسه أن يبتسم.

كان أمين السرّ لا يفكّر إلاّ في شيء واحد: هل يُصدّق أذنيه أم لا؟ وتوجّب عليه أن يُصدِّق. وحينئذٍ حاول أن يتصوّر أيّ شكلٍ مهول بالتحديد سيتّخذه غضب الحاكم الحادّ الطباع بعد وقاحة المعتقل المنقطعة النظير. وحتى هذا لم يستطع أمين السرّ تصوّره على الرغم من معرفته الجيدة بالحاكم.

حينئذٍ دوّى صوت الحاكم المحبط الأجشّ قائلاً باللاتينية:

- حلّوا وثاقه.

قرع أحد جنود الحراسة الأرض برمحه وناوله لجنديٍّ آخر، ثم دنا من المعتقل وحلّ وثاقه. رفع أمين السرّ الملفّ عن الأرض وقرّر ألاّ يدوّن شيئاً ولا يُدهَش لشيء في الوقت الراهن.

سأل بيلاطس باليونانية بصوتٍ خافت:

- اعترف، هل أنت طبيب عظيم؟

أجاب المعتقل وهو يفرك بغبطة رسغ يده القرمزي المكرمَش والمتورّم:

- لا يا أيها الحاكم، لستُ طبيباً.

فجأةً اخترق بيلاطس المعتقل بعينيه من تحت حاجبيه، وقد زال عنهما الغبش وظهرت فيهما الشرارات التي يعرفها الجميع، وقال:

- لم أسألك. لعلك تعرف اللغة اللاتينية أيضاً؟

- نعم أعرفها. - أجاب المعتقل.

عاد إلى وجنتي بيلاطس المصفرّتين لونهما، وسأل باللاتينية:

- كيف عرفت أنني كنت أريد مناداة كلبي؟

ردّ المعتقل باللاتينية:

- هذا بسيط جداً، مررت بيدك في الهواء،- وكرّر حركة بيلاطس،- كأنّما أردت أن تداعب، وشفتاك...

- أجل،- قال بيلاطس. صمت قليلاً ثم سأل باليونانية: - أنت طبيب إذاً؟

أجاب المعتقل بسرعة:

- لا، لا، لستُ طبيباً، صدّقني.

- حسناً. إذا كنت تريد إبقاء الأمر سراً، فليكن. فليس لهذا علاقة مباشرة بالقضية. أنت تؤكّد، إذاً، أنّك لم تدعُ إلى هدم... أو حرق أو إزالة الهيكل بأيّ وسيلة كانت؟

- أؤكّد لك، أيها الوالي، أنني لم أدعُ أحداً إلى أيّ عملٍ من هذا القبيل. هل أبدو معتوهاً؟

- لا، لا تبدو معتوهاً،- أجاب الحاكم بصوتٍ خافت وابتسم ابتسامةً مخيفة،- إحلف، إذاً، أنّ هذا لم يحدث.

سأل المعتقل بحيوية شديدة:

- بِمَ تريدني أن أحلف؟

أجاب الحاكم:

- لنقل، بحياتك، فهذا هو الوقت المناسب لتحلف بها، إذ عليك أن تعلم أنها معلَّقة بشعرة!

- لعلك تعتقد أنك أنت من علّقها أيها الوالي؟ - سأل المعتقل،- أنت مخطئ جداً إذا كنت تعتقد ذلك.

أرجف بيلاطس وقال من بين أسنانه:

- يمكنني قطع هذه الشعرة.

قال المعتقل وهو يبتسم ببشاشة ويتّقي الشمس بيده:

- وأنت مخطئ في هذا أيضاً. ألا توافقني أنه لا يستطيع قطع الشعرة إلاّ الذي علّقها؟

قال بيلاطس مبتسماً:

- هكذا إذاً، لم يعد لديّ شكّ الآن بأنّ النُّظّارة المتبطلّين في أورشليم قد تبعوك. لا أعرف من علّق لسانك في مكانه لكنه معلَّق بشكل جيد. بالمناسبة، قل لي: هل صحيح أنك دخلت أورشليم من بوابة «سوز» راكباً حماراً، يرافقك حشدٌ من الدهماء يهتف لك مُرحِّباً كما لو أنّك نبي؟ - وأشار الحاكم إلى لفيفة الرّقّ.

نظر المعتقل إلى الحاكم في حيرةٍ وقلق:

- حتى إنني ليس عندي حمار على الإطلاق أيها الوالي. وقد دخلت أورشليم عبر بوابة «سوز» بالتحديد لكن ماشياً، ولم يكن يرافقني سوى متّى اللاوي، ولم يهتف لي أحد بأيّ شيء، إذ لم يكن يعرفني أحد في أورشليم.

واصل الحاكم كلامه دون أن يحول نظره عن المعتقل:

- هل تعرف شخصاً باسم ديسماس، وآخرَ اسمه هيستاس، وثالثاً اسمه باراباس؟

أجاب المعتقل:

- كلا، لا أعرف هؤلاء الناس الطيبين.

- حقاً؟

- حقاً.

- والآن أخبرني لماذا تستخدم عبارة «الناس الطيبين» طوال الوقت؟ أتدعو الجميع على هذا النحو؟

- الجميع، ما من أشرار في الدنيا. - أجاب المعتقل.

قال بيلاطس ضاحكاً بسخرية:

- هذه أول مرة أسمع بهذا، لكن ربما تكون معرفتي بالحياة ضئيلة! يمكنك عدم مواصلة التدوين،- قال موجّهاً كلامه إلى أمين السرّ الذي كان قد كفّ عن الكتابة في كلّ الأحوال، ثم تابع يقول للمعتقل: - هل قرأت عن هذا في أيٍّ من كتب اليونان؟

- لا، بل توصّلت إليه بعقلي.

- وأنت تبشّر به؟

- أجل.

- إليك قائد المئة مارك، مثلاً، الذي لقّبه الناس كريسوبوي، هل هو إنسان طيب؟

قال المعتقل:

- أجل، إنه، في الحقيقة، إنسان شقيّ. فقد أصبح قاسياً وفظّاً منذ أن شوّهه الناس الطيبون. بودّي لو أعرف مَنْ قام بتشويهه.

ردّ بيلاطس:

- يمكنني إخبارك برحابة صدر، فقد كنت شاهداً عليه. الناس الطيبون انقضّوا عليه انقضاض الكلاب على دبّ. كان الجرمان قد ثبّتوا رقبته ويديه وقدميه، وكانت كتيبة المشاة قد حوصرت تماماً، ولو لم تقتحم كتيبة الخيّالة، التي كنت أنا من يقودها، جناح العدو لما

أُتيح لك، أيها الفيلسوف، التحدّث إلى كريسوبوي. وقد جرى هذا في المعركة قرب «إيديستافيزو» في وادي العذارى.

قال المعتقل شارداً فجأةً:

- أنا متأكّد من أنه سيتغيّر كلياً إذا تحدّثت إليه.

فقال بيلاطس:

- أعتقد أنّ قائد الفرقة لن يُسرّ كثيراً إذا ما فكّرت في التحدّث إلى أيٍّ من ضباطه أو جنوده. على كلٍّ، هذا لن يحدث لحسن الحظّ، وسأكون أول من يهتم بذلك.

في هذه اللحظة طارت سنونوة مندفعة إلى الرواق ودارت دورةً تحت السقف ثم انخفضت حتى كاد جناحها الحادّ يلامس وجه تمثالٍ نحاسيّ في المحراب وتوارت خلف رأس أحد الأعمدة. ربما خطر لها بناء عشّ هناك.

أثناء طيرانها تشكّلت في الرأس المشرق للحاكم، الذي أصبح صافياً أيضاً الآن، صيغةً كانت على النحو التالي: لقد درس الوالي قضية الفيلسوف الجوّال يشوع الملقّب بالناصري ولم يرَ فيها مقوِّمات الجريمة، وبشكل خاص لم يرَ أدنى علاقة بين أعمال يشوع وبين الاضطرابات التي حدثت في أورشليم مؤخّراً. فقد تبيّن أنّ الفيلسوف الجوّال مجنون. وبموجب ذلك لا يصادق الحاكم على حكم الإعدام الذي أصدره المجلس المصغّر بحقّ الناصري. لكن نظراً لأنّ أقوال الناصري المجنونة والخيالية قد تصبح سبباً لإثارة القلاقل في أورشليم فإنّ الحاكم سيقوم بنفيه من أورشليم وإيداعه السجن في «قيصرية ستراتون» في البحر الأبيض المتوسط، أيّ بالتحديد حيث مكان إقامة الحاكم.

ولم يبقَ سوى إملاء هذا على أمين السرّ.

خفق جناحا السنونوة فوق رأس الوالي مباشرةً ثمّ اتّجه الطائر نحو حوض النافورة وطار إلى الحرية. رفع الحاكم عينيه إلى المعتقل ورأى بجواره عموداً من الغبار الملتهب، ثم سأل أمين السرّ:

- هل هذا كلّ ما يتعلق به؟

- لا للأسف،- على غير توقّع أجاب أمين السرّ وناول بيلاطس قطعة رقّ أخرى.

سأل بيلاطس متجهّماً:

- وماذا هناك أيضاً؟

بعد قراءته قطعة الرقّ تغيّر وجهه أكثر. هل صعد الدمّ القاتم إلى رقبته ووجهه أم حدث له شيء آخر، لكنّ الاصفرار زال من جلده الذي أصبح أسمر اللون، وعيناه كأنما غارتا.

ربما كان الذنب، مرةً أخرى، ذنب الدمّ الذي تدفّق إلى صدغيه وراح يقرع فيهما لكنّ شيئاً ألمّ ببصر الحاكم. فقد تراءى له أنّ رأس المعتقل قد ذهب إلى مكانٍ ما وأنّ رأساً آخرَ حلّ مكانه، وكان يتوضّع على هذا الرأس الأصلع إكليلٌ ذهبيٌّ نادر، وكانت هناك قرحة دائرية على جبينه تنهش الجلد وقد طُليت بمرهم، وكان الفم غائراً ودون أسنان بشفة سفلية متدلية بنزق. بدا لبيلاطس أنّ أعمدة الرواق الوردية اللون وأسطح بيوت أورشليم البعيدة في الأسفل وراء الحديقة قد اختفت، وأنّ كلّ ما حوله قد غرق في خضرة الحدائق الكابريّة الكثيفة. كما حدث شيء غريب لسمعه أيضاً، وكأنّ في البعيد كانت أبواق تعزف عزفاً خافتاً متوعّداً، وسمع بوضوح تامّ صوتاً أخنَّ يمطّ كلماته بغطرسة: «القانون المتعلّق بإهانة الذات الملكية. . .»

مرّت متراكضةً أفكارٌ خاطفة مفكّكة وغير عادية: «هلكت!» ثم: «هلكنا! . .» وكانت من بينها فكرة ما، سخيفة تماماً، تتعلّق بخلودٍ -

ومع من؟! - محتومٍ ما. وقد أثار لديه الخلود، لسببٍ ما، كآبةً لا تُحتَمل.

طرد بيلاطس هذه الرؤيا بصعوبة وعاد ببصره إلى الشرفة، ومرةً أخرى تبيّن أمامه عينَيّ المعتقل. بدأ الحاكم الكلام ناظراً بغرابة إلى يشوع، وكان وجهه رهيباً رغم أنّ عينيه كانتا قلقتين:

- اسمع يا ناصري! هل قلت يوماً أيّ شيء عن قيصر العظيم؟ أجب! هل قلت؟.. أم... لم... تقل؟ - ومطّ بيلاطس كلمة «لم» أكثر من المسموح به في المحاكم وهو يرسل إلى يشوع بنظره فكرةً بدا أنه أراد الإيحاء بها إلى المعتقل الذي قال معلّقاً:

- قول الحقيقة يسير وعذب.

أجابه بيلاطس بصوتٍ حانقٍ مخنوق:

- لا تهمّني معرفة ما إن كان قول الحقيقة عذباً أم مزعجاً، لكن عليك قولها. لكن زِنْ كلّ كلمة تقولها إذا كنت لا تريد لنفسك ميتةً ليست حتمية فحسب بل وأليمة أيضاً.

لا أحد يعلم ماذا حدث لحاكم اليهودية لكنه سمح لنفسه بأن يرفع يده، كأنما يتّقي أشعة الشمس، ويرسل، من خلف هذه اليدّ، نظرةً موحية إلى المعتقل، ثمّ قال:

- أجبني إذاً، هل تعرف شخصاً اسمه يهوذا من قيريافا، وماذا قلت له عن قيصر بالتحديد، هذا إن كنت قد قلت له شيئاً؟

بدأ المعتقل يحكي القصة راغباً:

- لقد جرى الأمر على النحو التالي: مساء أمس الأول، قرب الهيكل، تعرّفت إلى شاب قال إنّ اسمه يهوذا، وإنه من قيريافا. وقد دعاني إلى بيته في «الضاحية السفلية» وقدّم لي...

سأل بيلاطس وقد ومضت في عينيه نارٌ شيطانية:

- وهل هو أيضاً إنسان طيب؟

فأكّد المعتقل:

- إنسان طيب جداً ومحبّ للاستطلاع، وقد أبدى اهتماماً عظيماً بأفكاري واستقبلني بترحابٍ بالغ...

- وأشعل لك القناديل... - قال بيلاطس من بين أسنانه بنبرة صوت المعتقل ذاتها والشرر يتطاير من عينيه في هذه الأثناء.

- بالفعل،- قال يشوع مندهشاً بعض الشيء لسعة اطّلاع الحاكم ثم تابع،- وقد سألني إبداء رأيي في الحكومة. وكان اهتمامه بهذه المسألة بالغاً.

سأل بيلاطس الذي أصبحت نبرة صوته يائسة:

- وماذا قلت؟ أم ستقول إنك نسيت ما قلت؟

قال المعتقل:

- من بين أمور أخرى قلت إنّ أيّ سلطة تُعتبر إكراهاً للبشر، وسيأتي وقت لن تكون فيه أيّ سلطة، سواء سلطة قيصر أم أيّ سلطة أخرى. وإنّ الإنسان سوف ينتقل إلى مملكة الحقّ والعدل حيث لن تكون هناك أبداً حاجة إلى أيّ سلطة كانت.

- وماذا أيضاً؟

- لا شيء، فحينها هرع أناس إليّ وبدأوا يقيّدونني ثم قادوني إلى السجن. - قال المعتقل.

كان أمين السرّ يخطّ الكلمات بسرعة على الرقّ محاولاً عدم تفويت أيّ كلمة. وعلا صوت بيلاطس المتقطّع الواهن:

- لم ولن توجد في الدنيا أبداً سلطة أعظم وأروع، بالنسبة إلى البشر، من سلطة الإمبراطور تيبيريوس! - ورمق الحاكم أمين السرّ والحراس، لسببٍ ما، بكراهية. - وليس أنت، أيها المجرم المختلّ

العقل، من يجادل فيها! - ثمّ صرخ بيلاطس: - فليخرج الحراس من الشرفة! - والتفت إلى أمين السرّ وأضاف: - دعني مع المجرم بمفردي، فهذه القضية تمسّ الدولة.

رفع الحرّاس حرابهم وغادروا الشرفة إلى الحديقة وهم يقرعون الأرض بأعقاب أحذيتهم المنعّلة بحركة منتظمة، وفي إثرهم خرج أمين السرّ أيضاً.

لم يخرق الصمت الذي ران على الشرفة لبعض الوقت سوى غناء المياه في النافورة. رأى بيلاطس كيف يفيض صحن المياه فوق الماسورة، وكيف تتكسّر حوافه، وكيف تتساقط المياه خيوطاً.

كان المعتقل أول من بادر إلى الكلام:

- أرى أنّ مصيبةً ستحدث من جرّاء حديثي إلى هذا الشاب الذي من قيريافا. لديّ شعور، أيها الوالي، أنّ سوءاً سيحلّ به، وإني أرثي لحاله كثيراً.

أجاب الحاكم ضاحكاً ضحكةً غريبة:

- أعتقد أنّ هناك أحداً آخر في الدنيا يجب عليك الرثاء لحاله أكثر من يهوذا القيريافي، والذي ينتظره مصيرٌ أسوأ بكثير من مصير يهوذا! وإذاً، فإنّ مارك كريسوبوي، الجلاّد البارد الدم، والناس الذين ضربوك على مواعظك كما أرى،- وأشار الحاكم إلى وجه يشوع المشوّه،- والمجرمين ديسماس وهيستاس اللذين قتلا مع شركائهما أربعة جنود، وأخيراً الخائن النذل يهوذا - كلّ هؤلاء الناس طيبون؟

- أجل، - أجاب المعتقل.

- وسيحلّ ملكوت الحقّ؟

- سيحلّ أيها الوالي،- أجاب يشوع في يقين.

- لنّ يحلّ أبداً! - فجاةً صرخ بيلاطس بصوتٍ مرعب جعل

يشوع يرتدّ إلى الخلف. على النحو ذاته، منذ عدة سنوات، في وادي العذارى، صرخ بيلاطس في فرسانه بالكلمات التالية: «قطِّعوهم! قطِّعوهم! فقد وقع العملاق كريسوبوي في أيديهم!» ثمّ رفع صوته الذي أوهنته الأوامر أكثر لافظاً الكلمات على نحوٍ بحيث تُسمَع في الحديقة: - مجرم! مجرم! مجرم!

ثم سأل خافضاً صوته:

- يشوع الناصري، هل تؤمن بأيّ آلهة؟

أجاب يشوع:

- هناك إله واحد، وأنا أؤمن به.

- صلِّ له إذاً، صلِّ بقوة! رغم أنّ،- وهنا وهن صوت بيلاطس،- هذا لن يساعدك.

ثمّ سأل بيلاطس بحزن دون أن يفهم ماذا يحدث له:

- ألك زوجة؟

- لا، أنا وحيد.

- يا للمدينة البغيضة،- فجأةً غمغم الحاكم لسببٍ ما وهزّ كتفيه كأنما يشعر بالبرد، ومسح يديه وكأنه يغسلهما،- الحقّ أنّ الأفضل لك لو أنهم ذبحوك قبل لقائك يهوذا القيريافي هذا.

على غير توقّع قال المعتقل راجياً والقلق بادٍ في صوته:

- لو أنك تخلي سبيلي أيها الوالي، فأنا أرى أنهم يريدون قتلي.

تشنّج وجه بيلاطس وصوّب إلى يشوع عينين ملتهبتين وقد احمرّت عروق بياضهما، وقال:

- هل تعتقد، أيها الشقيّ، أنّ هناك حاكماً رومانياً يمكنه إطلاق سراح شخص قال ما قلته؟ آه، أيتها الآلهة، أيتها الآلهة! أم تظنّ أني مستعدّ للحلول مكانك؟ إنني لا أشاطرك أفكارك! واستمع إليّ: إذا

تفوّهت بكلمة واحدة من الآن فصاعداً أو حدّثت أيّ شخص، فحذار منّي! أكرّر: حذارِ.

- أيها الوالي...

- اخرس! - صرخ بيلاطس وشيّع بنظرةٍ حانقة السنونوة التي دخلت الشرفة ثانيةً وهي ترفرف. وصرخ: - إليّ!

حين عاد أمين السرّ والحرس إلى أماكنهم أعلن بيلاطس أنه يصادق على حكم الإعدام الذي صدر عن المجلس المصغَّر في حقّ المجرم يشوع الناصري، فدوَّن أمين السرّ ما قاله بيلاطس.

بعد دقيقة مَثُل مارك كريسوبوي أمام الحاكم الذي أمره بتسليم الجرم إلى رئيس جهاز الأمن السرّي وإبلاغه، أثناء ذلك، أمر الحاكم بعزل يشوع الناصري عن المحكومين الآخرين، وكذلك منع فصيلة الأمن السرّي عن التحدّث إلى يشوع في أيّ شيء كان أو الردّ على أيٍّ من أسئلته تحت طائلة العقوبة القصوى.

بإشارةٍ من مارك أحاط الحرّاس بيشوع واقتادوه خاج الشرفة.

بعد ذلك مثُل أمام الحاكم شخص وسيم ممشوق القامة أشقر اللحية تتلألأ على صدره وجوه أُسودٍ وعلى عُرف خوذته ريش نسور، وعلى حمّالة سيفه أنواط ذهبية، ينتعل حذاءً ثُلاثي النعل ذا رباطٍ يصل إلى ركبته، وعلى كتفه اليسرى بردة أرجوانية ملقاة بإهمال. هذا الشخص كان قائد الفرقة. سأله الحاكم عن مكان تواجد الكتيبة «السيباستية» فأخبره القائد أنّ السيباستيين يضربون طوقاً حول الساحة أمام ميدان الخيل حيث سيُعلَن للشعب الحكم الصادر بحقّ المجرمين.

حينها أمر الحاكم قائد الفرقة بفرز سريتين من الكتيبة الرومانية. إحداهما، بقيادة كريسوبوي، يجب أن تخفر المجرمين والعربات المحمَّلة بأدوات تنفيذ الإعدام والجلاّدين أثناء التوجّه إلى «الجبل

الأقرع» وضرب طوقٍ حول قمّته عند بلوغه، والثانية عليها التوجّه فوراً إلى «الجبل الأقرع» وتطويقه دون إبطاء. ومن أجل هذه الغاية - أي حراسة الجبل- طلب الحاكم من قائد الفرقة إرسال فوج الخيّالة السوري للمساندة.

بعد أن غادر قائد الفرقة الشرفة أمر الحاكم أمين السرّ بدعوة رئيس المجلس واثنين من أعضائه وحرس هيكل أورشليم إلى القصر، وأضاف، أثناء ذلك، أنه يجب ترتيب الأمور بحيث يتسنّى له التحدّث إلى رئيس المجلس على انفراد قبل الاجتماع بهؤلاء جميعاً.

تمّ تنفيذ أوامر الحاكم بسرعة ودقّة، ولم تكن الشمس، التي تكوي أورشليم في هذه الأيام بقيظها غير العادي، قد اقتربت إلى سمتها بعد حتى التقى الحاكم والقائم بأعمال رئيس المجلس كبير كهنة اليهودية يوسف قيافا على الشرفة العلوية للحديقة، عند الأسدين المرمريين الأبيضين اللذين يحرسان الدرج.

كان الصمت مخيّماً في الحديقة، لكن أثناء خروجه من تحت سقف الأعمدة إلى الساحة العلوية للحديقة بأشجار نخيلها المنتصبة على جذوع هائلة كقوائم الفيلة، - الساحة التي انبسطت أمام الحاكم أورشليم والكريهة إليه برمّتها، بجسورها المعلّقة وقلاعها وبشكل خاص تلك الكتلة المرمرية العصية على الوصف التي لها حراشف تنّين ذهبية تقوم مقام السقف: هيكل أورشليم، - سمع الحاكم بسمعه الحادّ همهمةً خافتة تحلّق فوقها، بين الحين والآخر، أصواتٌ واهنة دقيقة، لا يُعرَف إن كانت أنّات أم صرخات، قادمةٌ من بعيد ومن الأسفل حيث يفصل الجدار الحجري الشرفات السفلية لحديقة القصر عن ساحة المدينة.

أدرك الحاكم أنّ حشداً هائلاً من سكّان أورشليم الذين هيّجتهم

الاضطرابات الأخيرة قد تجمّع في الساحة، وأنّ هذا الحشد ينتظر إصدار الحكم بفارغ الصبر، وأنّ باعة الماء المزعجين يصيحون وسط الحشد.

بدأ الحاكم بأن دعا كبير الكهنة إلى الشرفة للاحتماء من القيظ الذي لا يرحم، لكنّ قيافا اعتذر بتهذيب موضّحاً أنه لا يستطيع القيام بذلك، فألقى بيلاطس قلنسوته على رأسه الأصلع قليلاً وبدأ الحديث الذي جرى باليونانية.

قال بيلاطس إنه درس قضية يشوع الناصري، وإنه صادق على حكم الإعدام.

بالتالي، فإنّ حكم الإعدام، الذي يجب أن ينفَّذ اليوم، قد حُكم به على ثلاثة قطّاع طرق هم ديسماس وهيستاس وباراباس، إضافةً إلى يشوع الناصري هذا. الأولان، اللذان كانا ينويان تحريض الشعب على التمرّد على قيصر، قبضت عليهما السلطة الرومانية بعد قتال، وبالتالي هما من اختصاص الحاكم ولا شأن لهما هنا. أما الاثنان الآخران، باراباس والناصري، فقد قبضت عليهما السلطات المحلية وأدانهما المجلس. وبموجب القانون، وتبعاً للعُرف، يجب إطلاق سراح أحد المجرمَين بمناسبة عيد الفصح العظيم الذي يحلّ اليوم. لذا فإنّ الحاكم يريد أن يعرف أيّ المجرمَين ينوي المجلس إخلاء سبيله: باراباس أم الناصري؟

أحنى قيافا رأسه إشارةً إلى أنّ السؤال واضح بالنسبة إليه وأجاب: يطلب المجلس إطلاق سراح باراباس.

كان الحاكم يعرف أنّ رئيس الكهنة سوف يجيبه على هذا النحو بالذات لكن كان عليه إظهار أنّ هذا الجواب قد أثار دهشته، وهو ما فعله بيلاطس ببراعة كبيرة. فقد ارتفع حاجبا الحاكم في وجهه

المتغطرس، وحدّق مباشرةً في عيني رئيس الكهنة بدهشة، وقال بدماثة:

- أُقرُّ بأنّ هذا الجواب قد أدهشني، وأخشى أن يكون هناك سوء فهم.

أوضح بيلاطس أنّ السلطة الرومانية لا تتطاول على الإطلاق على حقوق السلطة الروحية المحلية، الأمر الذي يعرفه رئيس الكهنة جيداً، لكنّ الخطأ بيّن بجلاء في هذه القضية، وأن السلطة الرومانية معنية، بالطبع، بتصحيح هذا الخطأ.

بالفعل: جريمتا باراباس والناصري لا تُقارَنان من حيث الخطورة. فإذا كانت جريمة الثاني، وهو شخص واضح الجنون، هي أنه قال أقوالاً سخيفة فتنت الشعب في أورشليم وفي بعض المناطق الأخرى، فإنّ جرائم الأول أخطر بكثير، إذ فضلاً عن أنه سمح لنفسه بالدعوة صراحةً إلى العصيان فقد قام أيضاً بقتل حارسٍ أثناء محاولة اعتقاله. إنّ باراباس أخطر من الناصري بكثير.

بناءً على ما تقدّم يطلب الحاكم إلى رئيس الكهنة إعادة النظر في القرار وإطلاق سراح أقلّ المجرمَين أذىً، وهو الناصري دون شك. أليس كذلك؟

حدّق قيافا في عينيّ بيلاطس مباشرةً وقال بصوتٍ خافت لكن حازم إنّ المجلس قد درس القضية بعناية ويُبلِّغ الحاكم، مرة أخرى، نيّته إطلاق سراح باراباس.

- ماذا؟ حتى بعد التماسي؟ التماس الناطق باسم السلطة الرومانية؟ كرِّر للمرة الثالثة يا رئيس الكهنة.

فقال قيافا بهدوء: وللمرة الثالثة نعلمك أننا نريد إطلاق سراح باراباس.

لقد حُسم كلّ شيء ولم يعد هناك ما يتحدّثان بخصوصه. لقد رحل الناصري إلى الأبد، وليس هناك من يداوي آلام الحاكم الرهيبة التي لا دواء لها سوى الموت. لكن ليست هذه هي الفكرة التي تثير دهشة الحاكم في الوقت الراهن، فتلك الكآبة ذاتها التي داهمته في الشرفة كانت تخترق كيانه الآن. وقد حاول تفسيرها، وكان التفسير غريباً: بدا أمراً محيّراً للحاكم أنّ هناك ما لم يقله للناصري، وربما هناك ما لم يسمعه منه حتى النهاية.

طرد بيلاطس هذه الفكرة فطارت في لحظة كما ظهرت. الفكرة طارت لكنّ الكآبة ظلّت دون تفسير، والفكرة الخاطفة الأخرى: «الخلود... جاء الخلود...»، التي ومضت كالبرق وانطفأت فوراً، هي أيضاً لم يستطع تفسيرها. لم يفهم الحاكم «من الذي آن أوان خلوده؟» لكنّ فكرة هذا الخلود الملغز جعلته يشعر بالبرد تحت الشمس الحارقة. قال بيلاطس:

- حسناً، هذا ما سيكون.

وهنا التفت حوله، وأجال بصره في العالم المرئيّ له ودُهِش للتحوّل الحاصل: فقد ذبلت الشجيرة المثقلة بالأزهار، وذوت أشجار السرو التي كانت تحيط بالشرفة العلوية، وكذلك شجرة الرمان والتمثال الأبيض وسط الخضرة، بل والخضرة ذاتها، وطافت مكان هذا كلّه أجمة أرجوانية ما تتأرجح فيها الأعشاب المائية وتتجّه نحو مكانٍ ما، وبيلاطس نفسه تحرّك معها. كان يجرفه الآن، خانقاً وحارقاً إياه، الغضب الأشدّ هولاً، غضب العجز. تمتم بيلاطس:

- أشعر بالانقباض... أكاد أختنق.

وبيده الباردة الرطبة جذب بشدّة إبزيم ياقة البردة فسقط على الحصى.

- الجو خانق اليوم، هناك عاصفة مطرية في مكانٍ ما،- قال قيافا دون أن يبعد عينيه عن وجه الحاكم المحمرّ ومتنبّئاً بكلّ الآلام القادمة. «ياه كم هو مخيف شهر نيسان في هذه السنة!»، فقال بيلاطس:

- لا، ليس الجو الخانق هو السبب بل شعرت بالضيق بسببك يا قيافا،- وابتسم بيلاطس مضيّقاً عينيه وأضاف: - احترس يا رئيس الكهنة.

ومضت عينا رئيس الكهنة القاتمتان واصطنع الدهشة على وجهه بمهارةٍ ليست أقلّ من مهارة الحاكم قبل قليل، وأجاب بأنفة وبصوتٍ خافت:

- ما هذا الذي أسمعه أيها الحاكم؟ أتهدّدني بعد صدور الحكم الذي صادقت عليه بنفسك؟ هل يُعقَل هذا؟ لقد اعتدنا من الحاكم الروماني أن ينتقي كلماته قبل قول أيّ شيء. أرجو ألاّ يكون قد سمع حديثنا أحد أيها الوالي.

نظر بيلاطس إلى رئيس الكهنة وقال:

- مَنْ قد يسمع حديثنا في هذه اللحظة وفي هذا المكان؟ أتراني أشبه هذا العبيط الشريد الغرّ الذي سيُعدَم اليوم؟ هل أنا ولد يا قيافا؟ إني أدرك ما أقول وأين أقوله. الحديقة مطوَّقة والقصر مطوَّق بحيث لا يستطيع فأرٌ التسلّل إليه من أيّ شقّ! وليس الفأر فقط بل حتى هذا الذي، ما اسمه... الذي من قيريافا. بالمناسبة، هل تعرف شخصاً كهذا يا رئيس الكهنة؟ أجل... إذا تسلّل هذا الشخص إلى هنا فسيندب نفسه بمرارة، وأنت تُصدّق هذا بالطبع؟ فاعلم إذاً، يا رئيس الكهنة، أنك لن تشعر بالطمأنينة بعد الآن! أنت أو شعبك،- وأشار بيلاطس في اتجاه اليمين بعيداً حيث يتلألأ الهيكل فوق التلّ،- وأنا، بيلاطس البنطي فارس «الرمح الذهبي»، أقول لك هذا!

- أعرف، أعرف! - أجاب قيافا الأسود اللحية دون خوف وعيناه تلمعان، ثم رفع يديه إلى السماء وتابع قائلاً: - يعرف الشعب اليهودي أنك تكرهه أشدّ الكره، وأنك ستسبّب له آلاماً كثيرة، لكنك لن تستطيع إهلاكه أبداً! الله سيحميه! وسيسمع نداءنا قيصر الكلي القدرة ويحمينا من بيلاطس المُهلِك!

- لن تفعل أبداً! - هتف بيلاطس، وكان يشعر بالتخفّف أكثر فأكثر مع كلّ كلمة يقولها إذ لم يعد عليه التصنّع أكثر ولم يعد عليه تخيّر كلماته. - لقد شكوتني إلى قيصر كثيراً، وقد حانت لحظتي الآن يا قيافا. سينطلق الآن، على جناح السرعة، نبأ من عندي، ليس إلى عامل قيصر في أنطاكيا ولا إلى عامله في روما بل إلى كابريا ذاتها، إلى الإمبراطور ذاته، بأنكم، في أورشليم، تتستّرون على مجرمين مطلوبين وتحمونهم من الموت. وحينئذٍ ليس ماء بحيرة سليمان ما سأسقيه أورشليم، كما كنت أريد لخيركم، ليس ماءً! تذكّر كيف اضطررت، بسببكم، إلى إزالة التروس التي عليها الشعار الإمبراطوري عن الجدران، وإلى تسيير القوات والمجيء بنفسي لأرى ما يحدث لديكم! تذكّر كلمتي يا رئيس الكهنة. لن ترى بعد الآن كتيبة واحدة في أورشليم، لا! بل سترى حول أسوار المدينة فرقة «فولميناتوس» برمّتها وكتيبة الفرسان العربية، حينذاك ستسمع البكاء والأنين المرّ. وآنذاك ستتذكّر باراباس المُنجّى، وستندم على أنك أرسلت إلى الموت فيلسوفاً يبشّر بالسلام.

غطّت بقعٌ وجه رئيس الكهنة واضطرمت عيناه. ابتسم مكشّراً، كما فعل الحاكم، وأجاب:

- هل تُصدِّق، أنت نفسك أيها الحاكم، ما تقوله الآن؟ لا، إنك لا تُصدِّق. لا، ليس سلاماً ما حمله إلينا مغوي الشعب في أورشليم،

وإنك تدرك هذا جيداً أيها الفارس. أنت تريد إطلاق سراحه لكي يبلبل الشعب وينتهك حرمة الدين ويضع رقاب الشعب تحت سيوف روما! لكني، أنا رئيس كهنة اليهودية، لن أسمح بالإساءة إلى الدين وسأدافع عن الشعب ما دمت حياً! هل تسمعني يا بيلاطس؟ - وهنا رفع قيافا يده متوعِّداً: - أسمعتني أيها الحاكم!

صمت قيافا، وبدا للحاكم أنه يسمع ثانيةً هدير البحر المتدحرج حتى أسوار حديقة هيرودتس العظيم، وقد تصاعد هذا الهدير من الأسفل إلى قدمي الحاكم وصولاً إلى وجهه. وخلف ظهره، هناك وراء أجنحة القصر، كانت تُسمع الأبواق وهي تطلق إشارات الإنذار والقرقعة الثقيلة لمئات الأرجل وصليل الحديد. حينها فهم الإمبراطور أنّ فوج المشاة الروماني قد بدأ الخروج، وفقاً لأوامره، في طريقه إلى الاستعراض العسكري، المرعب للمتمردين وقطّاع الطرق، الذي يسبق الإعدام.

كرّر رئيس الكهنة بهدوء:

- هل تسمع أيها الحاكم؟ أتقول لي إنّ هذا كله، - وهنا رفع قيافا كلتا يديه فسقطت القلنسوة السوداء عن رأسه، - من أجل اللص المسكين باراباس؟

مسح الحاكم جبينه المبلل البارد بظاهر رسغه وأطرق إلى الأرض، ثم نظر إلى السماء، مضيّقاً عينيه، ورأى أنّ الكرة الحمراء تعلو رأسه تقريباً، وأنّ ظلّ قيافا قد تقلّص تماماً عند ذيل الأسد، فقال بصوتٍ لامبالٍ خافت:

- يكاد النهار ينتصف. لقد انشغلنا بالحديث في حين علينا المتابعة.

اعتذر الحاكم لرئيس الكهنة بعبارات أنيقة مهذّبة، وطلب إليه

الجلوس على مقعدٍ في ظلّ الماغنوليا ريثما يستدعي الآخرين اللازمين من أجل مشورة أخيرة مقتضبة، ويعطي أمراً آخر يتعلق بالإعدام.

انحنى قيافا بلطف، واضعاً يده على قلبه، وظلّ في الحديقة بينما عاد بيلاطس إلى الشرفة. وهناك أمر أمين السرّ، الذي كان في انتظاره، أن يدعو إلى الحديقة قائد الفرقة وخطيبها وكذلك اثنين من أعضاء المجلس ورئيس حرس الهيكل، الذين كانوا ينتظرون في التعريشة الدائرية حول النافورة على الشرفة السفلية للحديقة. ثم أضاف بيلاطس أنه سيخرج إليهم بنفسه، وابتعد إلى داخل القصر.

بينما كان أمين السرّ يعدّ لعقد الاجتماع كان الحاكم يلتقي، في غرفةٍ ظليلة تحجب عنها الشمس ستائر داكنة، شخصاً تُغطّي قلنسوة نصف وجهه على الرغم من أنّ أشعة الشمس ما كان لها أن تزعجه في هذه الغرفة. كان اللقاء قصيراً للغاية، حيث قال الحاكم لهذا الشخص بضع كلمات بصوتٍ خافت غادر الشخص بعدها في حين خرج بيلاطس إلى الحديقة عبر الشرفة.

هناك، بحضور كلّ الذين أراد رؤيتهم، أكّد الحاكم، بهيبةٍ وجفاء، أنّه يُصادق على حكم إعدام يشوع الناصري وسأل، بصورة رسمية، أعضاء المجلس عن المجرم الذي يريدون الإبقاء على حياته. بعد تلقّيه الجواب بأنه باراباس، قال الحاكم:

- حسناً جداً، - وأمر أمين السرّ بتدوين ذلك في المحضر فوراً، وشدّ بيده الإبزيم الذي رفعه أمين السرّ عن الأرض، وقال بفخامة: - حان الوقت!

حينئذٍ بدأ الحضور جميعاً ينزلون عبر الدرج الرخامي العريض بين جدران الأزهار التي تفوح بعطرٍ مخدِّر، نازلين، أسفل فأسفل، إلى

سور القصر، فالبوابة المؤدّية إلى الساحة الكبيرة المرصوفة ببلاطٍ أملس تُرى في نهايتها أعمدة وتماثيل مضمار أورشليم.

ما إن خرجت المجموعة من الحديقة إلى الساحة حتى صعدت المنصة الحجرية المشرفة على الساحة. نظر بيلاطس من خلال عينيه نصف المغمضتين وأدرك الموقف فوراً. المساحة التي عبرها لتوّه، أي المساحة الفاصلة بين سور القصر والمنصّة، كانت خالية لكن، بالمقابل، لم يعد بإمكانه رؤية الساحة أمامه، فالحشد كان قد التهمها، وكان ليغمر المنصة ذاتها وتلك المساحة الخالية لو لم تمنعه الصفوف الثلاثة من الجنود السيباستيين عن يسار بيلاطس وجنود كتيبة الاحتياط الإيثوريين عن يمينه.

وهكذا، ارتقى بيلاطس المنصة، قابضاً على الإبزيم بيده بصورة آلية ومضيِّقاً عينيه. ولم يكن الحاكم يضيِّق عينيه لأنّ الشمس كانت تحرقهما، لا! بل لأنه لم يكن يريد، لسببٍ ما، رؤية المحكومين الذين، كما كان يعرف جيداً، سيتمّ إحضارهم إلى المنصّة في إثره.

حين لاحت البردة البيضاء ذات البطانة الحمراء على الصخرة الحجرية فوق بحر البشر سفعت أذن بيلاطس، الذي أعمت الشمس بصره، موجة صوتية: «ها. .ا. .ا. .» وقد بدأت خافتة في البداية من مكانٍ ما في البعيد قرب ميدان الخيل وأصبحت كالرعد لبضع ثوانٍ ثم بدأت تخفت ثانيةً. قال الحاكم في سرّه: «لقد رأوني». لم تكد الموجة تصل إلى أدنى نقطة حتى بدأت تتصاعد ثانيةً فجأةً لتطغى على الموجة الأولى، وفي الموجة الثانية تعالى الصفير فوق الأصوات كما يعلو الزبد موج البحر، كما كان بالإمكان تمييز تأوهات نسائية متفرقة وسط الهدير. فكّر بيلاطس: «إنهم يقتادونهم إلى المنصّة. . . وسبب هذه التأوهات هو أنّ الحشد قد دهسهنّ أثناء اندفاعه إلى الأمام».

انتظر بيلاطس بعض الوقت مدركاً أن ما من قوة يمكنها إرغام الحشد على الصمت إلى أن يُفرغ ما يجيش في داخله ويصمت من تلقاء ذاته. وعندما حانت هذه اللحظة رفع الحاكم يده اليمنى فتلاشى صخب الحشد الأخير.

حينها ملأ بيلاطس صدره بالهواء الساخن قدر استطاعته وهتف صارخاً: - باسم الإمبراطور قيصر! - وطار صوته المتقطّع فوق آلاف الرؤوس. وهنا سفعت أذنه، عدة مرات، صرخة حديدية متقطّعة، ففي الكتائب هتف الجنود، وهم يقذفون الحراب والشارات في الهواء، بأصواتٍ مرعبة:

- عاش قيصر!

شمخ بيلاطس برأسه ودفنه في قرص الشمس مباشرةً. اضطرمت نار خضراء من تحت جفنيه ألهبت دماغه، وطارت فوق الحشد كلمات آرامية بصوتٍ أجشّ:

- لقد حُكم على المجرمين الأربعة، الذين اعتُقلوا في أورشليم لارتكابهم جرائم قتل وتحريضهم على العصيان وإهانتهم القوانين والمعتقدات، بموتٍ مشين: التعليق على الأعمدة! وسيتمّ تنفيذ العقاب الآن على «الجبل الأقرع»! المجرمون هم: ديسماس وهيستاس وباراباس والناصري. ها هم أمامكم!

وأشار بيلاطس بيده إلى اليمين دون أن يرى المجرمين لعلمه أنهم هناك، حيث يجب أن يكونوا.

ردّ الحشد بهديرٍ طويل كأنما دهشةً وارتياحاً. وبعد أن هدأ تابع بيلاطس:

- لكن سوف تتمّ معاقبة ثلاثة فقط منهم، فوفقاً للقانون والعُرف، إكراماً لعيد الفصح، وبموجب اختيار المجلس المصغّر، وبمصادقة

السلطة الرومانية، سيعيد الإمبراطور السَّمِح الكريم قيصر إلى أحد المحكومين حياته الحقيرة!

كان بيلاطس يصرخ بهذه الكلمات ويسمع، في الآن ذاته، كيف يحلّ الصمت العظيم محل الهدير. الآن لم تعد تبلغ أذنيه نأمة أو حسّ، بل حتى حلّت لحظة بدا فيها لبيلاطس أنّ كلّ ما حوله قد اختفى نهائياً. المدينة التي يكرهها ماتت وهو يقف وحيداً الآن يشخص إلى السماء، والشمس العمودية تلفحه. حافظ بيلاطس على الصمت قليلاً ثم بدأ الكلام صارخاً:

- اسم الذي سيتمّ إطلاق سراحه الآن أمامكم هو. . .

توقّف بيلاطس مرةً أخرى، ممسكاً عن ذكر الاسم، متفحّصاً ما إن كان قد قال كلّ شيء لأنه كان يعلم أنّ المدينة الميتة ستُبعَث بعد تلفّظه باسم صاحب الحظّ السعيد، ولن تعود هناك أيّ إمكانية لاحقاً لسماع أيّ كلمة. همس بيلاطس لنفسه دون صوت: هل هذا كل شيء؟ أجل، هذا كل شيء.

- الاسم هو. . .! وصاح مدوّياً بحرف «ر» فوق المدينة الصامتة: - باراباس!

حينها بدا له أنّ الشمس قد انفجرت فوق رأسه مصلصلةً وسكبت النار في أذنيه. وفي هذه النار اصطخب العويل بالزعيق والأنين والقهقهة والصفير.

استدار بيلاطس وعاد إلى درجات السلّم عبر الجسر دون أن ينظر إلاّ إلى المربعات الحجرية الملونة تحت قدميه حتى لا تزلاّ. كان يعلم أنّ القطع النقدية البرونزية وحبّات التمر تتطاير الآن كالبرد خلف ظهره على المنصة إلى درجة أنّ الناس، في الحشد الصاخب، يدهسون ويتسلّقون أكتاف بعضهم بعضاً لكي يروا المعجزة بأعينهم: كيف نجا

إنسان من براثن الموت بعد أن أصبح في قبضته! وكيف يحلّ جنود الفرقة وثاقه مسبّبين، دون قصد، ألماً حارقاً ليديه المخلّعتين أثناء التحقيق، كيف يبتسم، رغم ذلك، ابتسامةً بلهاء لا معنى لها وهو يئنّ مُجعِّداً وجهه.

كان بيلاطس يعلم أنّ الحراس، في الوقت ذاته، يقودون الثلاثة الآخرين موثقي الأيدي إلى السلالم الخلفية ليمضوا بهم في الطريق المؤدية إلى الغرب إلى خارج المدينة، إلى «الجبل الأقرع». لم يفتح بيلاطس عينيه إلاّ بعد أن أصبح خلف المنصة عارفاً أنه قد أصبح آمناً وأنه لم يعد بمقدوره رؤية المحكومين.

اختلطت الآن بتأوهات الحشد التي بدأت تهدأ صيحات المنادين الحادة التي كان بالإمكان تمييزها وهم يكررون، بعضهم باللغة الآرامية وآخرون باليونانية، كلّ ما قاله الحاكم على المنصة. فضلاً عن أنه تناهى إلى سمعه وقع متقطّع وسريع لحوافر تقترب وأصوات بوق كانت قصيرة ومرحة لسببٍ ما. وقد تجاوب مع هذه الأصوات أولاد راحوا يُصفِّرون من فوق أسطح المنازل في الشارع المؤدي من السوق إلى ميدان الخيل، وصيحات: «احترس!»

لكنّ الجندي الواقف في الرقعة الخالية من الساحة، والذي كان يحمل شارةً في يده، لوّح لهم بفزع، وحينئذٍ توقّف الحاكم وقائد الفرقة وأمين السرّ والحرس.

كان فوج الخيّالة يخبّ مسرعاً إلى الساحة ليتمكّن من عبورها، متجنّباً حشود الناس، إلى الزقاق المحاذي للسور الحجري الذي تنبسط عليه دوالي الكرمة، لكي يسلك أقصر الطرق إلى «الجبل الأقرع».

عندما حاذى قائد الفوج السوري، الصغير كصبيّ والأسمر

كخلاسيّ، الذي كان يخبّ مسرعاً، بيلاطس صرخ بكلامٍ ما واستلّ سيفه من غمده. جفل جواده الأدهم المتعرّق الحانق وانتصب على قائمتيه. أعاد قائد الفوج السيف إلى غمده وساط رقبة الجواد بالسوط وانطلق يعدو عبر الزقاق. وفي إثره، كلّ ثلاثة في صف، انطلق الفرسان، بأسنانهم اللامعة المكشّرة بمرح وقد ازدادوا سمرةً تحت العمائم البيضاء، في سحابةٍ من الغبار، ورؤوس رماحهم الخيزرانية الخفيفة تتقافز.

اندفع الفوج عبر الزقاق مثيراً غباراً بلغ عنان السماء، وكان آخر من مرّ أمام بيلاطس جنديّ على ظهره بوق يتوهّج تحت أشعة الشمس.

مضى بيلاطس متّقياً الغبار بيده ومقطّباً وجهه بعدم رضى، في طريقه مسرعاً باتّجاه بوابة حديقة القصر يتبعه قائد الفرقة وأمين السرّ والحرس.

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً.

الفصل الثالث

البرهان السابع

قال البروفيسور:

- أجل، كانت الساعة تقاربَ العاشرة صباحاً يا إيفان نيكولاييفيتش الموقّر.

مرّ الشاعر بيده على وجهه، كمن استيقظ من النوم لتوّه، ورأى أنّ المساء كان قد حلّ على «بتريرشيه برودي».

كانت مياه البحيرة قد اسودّت، وكان زروق خفيف ينزلق على صفحتها، وسُمعت من الزورق ضربات مجذاف وضحكات مواطنة ما. وعلى المقاعد في ممرات الحديقة ظهر أناس لكن، مرة أخرى، في جوانب المربع الثلاثة الأخرى وليس في الجانب الذي كان يجلس فيه أصحابنا.

بدت السماء فوق موسكو كأنّ لونها قد بهت، وكان البدر يُرى بوضوح تماماً في الأعلى لكنه كان أبيض ولم يكن قد أصبح ذهبياً بعد. بات التنفس أسهل بكثير وأصبحت الأصوات تحت أشجار الزيزفون ألطف: أصبحت ذات وقع مسائي.

فكّر بيزدومني بذهول: «كيف لم ألاحظ أنه قد لفّق قصةً كاملة في هذه الأثناء؟... فقد حلّ المساء! ربما لم يكن هو الذي قصّ القصة بل إنني غفوت وحلمت بهذا كله؟»

لكن يجب الافتراض، رغم ذلك، أنّ البروفيسور هو الذي روى الحكاية وإلاّ يتوجّب التسليم بأنّ بِرلُوز أيضاً قد حلم بالشيء ذاته لأنه قال للأجنبي باهتمام وهو يحدّق في وجهه:

- قصّتك ممتعة جداً يا بروفيسور على الرغم من أنها لا تتطابق إطلاقاً وقصص الأناجيل.

ردّ البروفيسور وهو يبتسم بتواضع:

- أرجو عفوك، فكلٌّ يغنّي على ليلاه، أما أنت فينبغي أن تعلم أنّ شيئاً مما هو مكتوب في الأناجيل لم يحدث في الواقع قطّ، وإذا اعتمدنا الأناجيل بوصفها مصدراً تاريخياً. . .

وضحك مرة أخرى بينما أُفحم بِرلُوز لأنّ هذا بالتحديد ما كان يقوله لبيزدومني حرفياً وهما يسيران في شارع «برونّايا» في طريقهما إلى «بتريرشيه برودي». فعلّق قائلاً:

- هذا صحيح لكنني أخشى أنّ أحداً لا يستطيع أيضاً تأكيد أنّ ما قصصته علينا قد حدث بالفعل.

- أوه لا، هناك من يستطيع تأكيد ذلك! - أجاب البروفيسور بمنتهى الثقة وقد بدأ يتكلّم بلغةٍ مكسَّرة، وفجأةً أومأ إليهما خفيةً أن يقتربا منه فانحنيا نحوه من كلا الجانبين، فقال لهما، لكن دون أيّ لكنة، ولا يعلم إلاّ الشيطان لماذا كانت تختفي حيناً وتظهر حيناً:

- فحوى الأمر. . . - وهنا تلفّت البروفيسور مذعوراً وقال هامساً،- هو أنني شخصياً كنت حاضراً أثناء ذلك كلّه. فقد كنت عند بيلاطس البنطي على الشرفة، وكذلك عندما كان يتحدّث إلى قيافا في الحديقة، وعلى المنصّة أيضاً، وإن متخفيّاً، متنكّراً كما يُقال، لذا أرجو ألاّ تتفوّها بكلمة واحدة أمام أحد، وحافظا عليه في سريّة تامة! . . هس س س!

ران الصمت، ثم سأله بِرلُوز، ممتقع الوجه، وبصوتٍ مرتعد:

- منذ متى... منذ متى أنت في موسكو؟

- لقد وصلت لتوي، في هذه اللحظة،- أجاب البروفيسور مرتبكاً. وفي هذه اللحظة فقط فطن الصديقان إلى التمعّن في عينيه كما ينبغي وتيقّنا من أنّ عينه اليسرى، الخضراء، بلهاء تماماً بينما اليمنى فارغة، سوداء وميتة.

قال بِرلُوز في سرّه بحيرة: «ها قد اتّضح كلّ شيء! إمّا أنه قد أتى إلينا ألماني مجنون أو أنه فقد عقله في «بتريرشيه» للتوّ. يا لها من قصة!»

أجل، لقد اتّضح كلّ شيء بالفعل: الفطور البالغ الغرابة عند الفيلسوف كانط المرحوم، والأقوال الحمقاء عن زيت عبّاد الشمس وآنوشكا، والتنبّؤات بأنّ رأسه سوف يُقطَع، وإلى ما هنالك... البروفيسور مجنون بالفعل.

وعلى الفور أدرك بِرلُوز ما يجب القيام به، فارتدّ إلى الوراء وغمز بيزدومني من وراء ظهر البروفيسور أن «لا تعارضه من فضلك»، لكنّ الشاعر المبلبل لم يفهم هذه الإشارات. قال بِرلُوز بانفعال:

- نعم، نعم، نعم، على أيّ حال، هذا كلّه ممكن! بل ممكن جداً، بيلاطس البنطي والشرفة وما إلى ذلك... وهل جئت بمفردك أم مع عقيلتك؟

أجاب البروفيسور بمرارة:

- وحدي، وحدي، أنا دائماً وحدي.

سأله بِرلُوز مستميلاً إياه:

- وأين أمتعتك يا بروفيسور؟ في «الميتروبول»؟ أين نزلت؟

أجاب الألماني شبه العاقل وهو يجيل عينه الخضراء في «بتريرشيه برودي» بضجرٍ واستغراب:

- أنا؟ ليس في أيّ مكان.

- كيف؟ و... أين ستقيم إذاً؟

- في شقتك. - أجاب المجنون دون تكلّف وعلى غير توقّع وغمز بعينه.

غمغم بِرلُوز:

- هذا يسعدني... يسعدني كثيراً، لكنك، بالفعل، لن تشعر بالراحة في بيتي... في حين أنّ «ميتروبول» فندق من الدرجة الأولى، غرفه رائعة...

فجأةً سأل المريض بمرح إيفان نيكولاييفيتش:

- وهل الشيطان أيضاً غير موجود؟

- والشيطان أيضاً...

- لا تعارضه! - همس بِرلُوز بشفتيه فقط موجِّهاً كلامه بإلحاف من خلف ظهر البروفيسور وهو يصرّ على أسنانه.

- لا وجود لأيّ شيطانٍ كان! - صرخ إيفان نيكولاييفيتش ليس بما يجب وقد ضاق ذرعاً بهذا الهراء كله،- يا لهذا العقاب! كفّ عن الهذيان.

هنا قهقه المجنون عالياً بحيث طارت حمامة عن شجرة الزيزفون التي تعلو رؤوس الجالسين، وقال وهو يهتزّ من الضحك:

- هذا مثير للاهتمام بالتأكيد. ما هذا الذي يجري عندكم؟ كلّما سأل المرء عن شيء يُقال له غير موجود! - وتوقّف عن القهقهة فجأةً وانتقل إلى الحزن المطبق، وهذا مفهوم تماماً في حالات المرض النفسي: - إذاً، تقصد أنه، رغم ذلك، غير موجود؟

برطم بِرلُوز خشية إثارة المريض:

- اهدأ... اهدأ... اهدأ يا بروفيسور، اجلس دقيقة هنا مع الرفيق بيزدومني ريثما أهرع إلى الناصية لأتّصل بالهاتف وسنوصلك بعد ذلك إلى حيث تريد، فأنت لا تعرف المدينة...

لا بدّ من الإقرار بأنّ خطّة بِرلُوز كانت صائبة: يجب أن يهرع إلى أقرب كشك هاتف ليبلّغ مكتب الأجانب بأنّ مستشاراً قادماً من الخارج يجلس في «بتريرشيه برودي» في حالة غير طبيعية بجلاء. بالتالي، لا بدّ من اتّخاذ الإجراءات وإلاّ قد تحدث سخافة مزعجة ما.

- تتصل؟ وما المانع، اتّصل،- وافق المريض بحزن وتوسّل بلهفة فجأةً: - لكن أتوسّل إليك، قبل الوداع، أن تؤمن بأنّ الشيطان، على الأقل، قد وُجِد! ولن أطلب منك أكثر من هذا. وليكن في علمك أنّ هناك برهاناً سابعاً على وجوده، وهو أصدق البراهين، وسيُقدَّم لك في الحال.

- حسناً، حسناً،- قال بِرلُوز بلطفٍ زائف ثم أومأ إلى الشاعر الحانق الذي لم تعجبه على الإطلاق فكرة حراسة الألماني المجنون وانطلق مسرعاً إلى مدخل «بتريرشيه» الواقع عند تقاطع شارع «بروناّيا» وجادة «يرمولاييفسكي». لكنّ البروفيسور، وكأنّه قد تعافى لفوره وانتعش، صاح في إثر بِرلُوز:

- ميخائيل ألكسندروفيتش!

ارتعد بِرلُوز والتفت إلى الخلف لكنه طمأن نفسه بفكرة أنّ البروفيسور لا بدّ أنه قد عرف اسمه واسم أبيه من بعض الصحف أيضاً، في حين أنّ البروفيسور صاح به وهو يضع يده على فمه على شكل بوق:

- هل تأمر بأن أطلب فوراً إرسال برقية إلى عمك في كييف؟

وارتعد بِرلُوز ثانيةً، إذ أنّى لهذا المجنون أن يعرف بوجود عمٍّ له في كييف؟ فهذا بالتأكيد لم يرد في أيٍّ من الصحف. هاهاا!! لعلّ بيزدومني كان محقاً، ولعلّ هذه الوثائق مزوّرة! يا له من كائن غريب الأطوار. الهاتف، الهاتف! يجب الاتّصال فوراً! وسرعان ما سيكتشفون حقيقة أمره! وواصل بِرلُوز الركض إذ لم يسمع المزيد.

وهنا، عند المخرج المؤدّي إلى شارع «برونّايا»، نهض عن مقعدٍ للقاء رئيس التحرير ذلك المواطن ذاته، الذي تشكّل أمامه آنذاك من القيظ الدهني، بكلّ تفاصيله. لكنه، هذه المرة، لم يكن من الهواء بل كان شخصاً عادياً، مجسَّداً، فتأمّله بِرلُوز بإمعان في الغروب الذي بدأ يحلّ ورأى أنّ له شاربين صغيرين، كريش الدجاج، وعينين صغيرتين ساخرتين وشبه ثملتين، وأنّ بنطاله «الكاروه» مشدود بحيث يُرى جورباه الأبيضان المتّسخان.

تراجع ميخائيل ألكسندروفيتش القهقهرى لكنه هدّأ نفسه بفكرة أنها مجرّد مصادفة حمقاء، وأنّه عموماً لا وقت لديه الآن للتفكير في هذا الأمر.

سأله الكائن ذو المربّعات بنبرة رجراجة:

- هل تبحث عن الباب الدوّار يا مواطن؟ من هنا من فضلك! سر باستقامة وستخرج إلى حيث تريد. هل لك بربع ليتر لمُرتِّلٍ سابق... يستردّ به عافيته... لقاء إرشاده! - قال الكائن وهو ينحني بشدّة ويخلع قبّعته على طريقة مروِّضي الخيل.

لم يعر بِرلُوز السائل والمرتّل المدّعي اهتماماً وهرع راكضاً إلى الباب الدوّار وأمسك بالمقبض. أدار مقبض الباب وهمّ بالخطو فوق قضبان سكة الحديد حين لفح وجهه ضوءٌ أحمر وأبيض: أضاءت في الصندوق الزجاجي كلمتا: «احذر الترام!»

وفي هذه الحظة كان الترام ينطلق مسرعاً، منعطفاً عبر مساره الجديد من جادّة «يرمولاييفسكي» إلى شارع «برونّايا». وبعد أن أنهى المنعطف وسار في المسار المستقيم أنارت الكهرباء داخل العربات وزأر الترام وزاد من سرعته.

على الرغم من أنّ بِرلُوز الحذر كان واقفاً في مكانٍ آمن إلاّ أنه قرر التراجع إلى خلف الحاجز. وفي هذه اللحظة انزلقت يده وأفلتت، وانزلقت قدمه منجرفةً، كما لو على جليد، على البلاطة المنحدرة إلى قضبان السكّة، وارتفعت القدم الأخرى إلى الأعلى، وأُلقي ببِرلُوز على قضبان السكّة الحديد.

حاول بِرلُوز التمسّك بأيّ شيء فسقط على ظهره وارتطمت نقرته بالبلاطة ارتطاماً خفيفاً ولحِق أن يرى القمر الذهبي في الأعلى، لكنه لم يعد يدرك أإلى اليمين أم اليسار. ثم تمكّن بِرلُوز من أن ينقلب على جنبه وأن يشدّ، بحركة عنيفة، رجليه نحو بطنه في طرفة عين، ويتمعّن، وهو ينقلب، في وجه المرأة - سائقة الترام- المبيضّ تماماً من الهلع، وفي عُصابتها الأرجوانية، والترام يندفع فوقه بقوة لا تُردّ. لم يصرخ بِرلُوز لكنّ الشارع برمّته من حوله ضجّ بأصوات نسائية رهيبة. شدّت السائقة الفرامل الكهربائية فانغرزت مقدّمة العربة في الأرض، وبعد ذلك مباشرةً تطاير زجاج النوافذ بقصفٍ ودويّ. حينها صرخ أحدهم، غير مصدِّق، داخل رأس بِرلُوز: «هل يُعقَل؟..» ومرة أخرى، وكانت الأخيرة، لاح القمر لكنه بات قِطَعاً، ثمّ أطبق الظلام.

غطّى الترام بِرلُوز، وانقذف تحت الحاجز الشبكي لممرّ «بتريرشيه»، على المنحدر المرصوف، شيءٌ دائريّ قاتم، وراح يتدحرج عن هذا المنحدر ويتقافز في شارع «برونّايا» المرصوف بالحجارة.

كان هذا رأس بِرلُوز المقطوع.

الفصل الرابع

المطاردة

خبت صرخات النساء الهستيرية، وصمتت صفّارات الشرطة، ونقلت سيارة إسعاف جثة بِرلُوز المقطوعة الرأس ورأسه المقطوع إلى المشرحة، كما نقلت سيارة إسعاف أخرى سائقة الترام الحسناء التي جرحتها شظايا الزجاج. أزال عمال النظافة، بمرايلهم البيضاء، شظايا الزجاج ونثروا الرمل على برك الدماء. أما إيفان نيكولاييفيتش فقد انهار على المقعد، متسمّراً مكانه، ولم يركض إلى الباب الدوار. وقد حاول النهوض عدة مرات لكنّ قدميه لم تطاوعاه. أُصيب بيزدومني بما يشبه الشلل.

اندفع الشاعر راكضاً نحو الباب الدوّار ما إن سمع الصرخة الأولى، ورأى رأس بِرلُوز يتدحرج على الرصيف الحجري، فجنّ جنونه من هذا المشهد إلى درجة أنه انهار على المقعد وعضّ على يده حتى سال الدم منها. بطبيعة الحال، نسي الألماني المجنون وحاول أن يفهم أمراً واحداً: كيف يمكن أن يحدث أنه كان يتحدّث للتوّ إلى بِرلُوز وبعد لحظة ها هو رأسه...

تراكض الناس المضطربون في الممرّ بجوار الشاعر وهم يصرخون بكلامٍ ما لكنّ إيفان نيكولاييفيتش لم يكن يفهم ما يقولون. فجأة تصادمت امرأتان قربه. كانت إحداهما دقيقة الأنف حاسرة الرأس،

وقد صرخت في أذني الشاعر مباشرةً تقول للمرأة الأخرى:

- آنوشكا، آنوشكانا! التي من شارع «سادوفايا»! هذه عَمْلَتها! فَقد اشترت زجاجة نصف ليتر من زيت عبّاد الشمس من البقالية وأوقعتها عند الباب الدوّار، ولطّخت تنورتها كلّها... وراحت تشتم وتشتم! وهذا المسكين، لعلّ قدمه انزلقت فسقط على قضبان السكة الحديد...

لم يعلق في دماغ إيفان نيكولاييفيتش من كلّ ما صرخت به المرأة سوى كلمة «آنوشكا»...

- آنوشكا... آنوشكا؟.. - غمغم الشاعر متلفتاً حوله بجزع، - عفواً، عفواً...

وارتبطت بكلمة «آنوشكا» كلمتا «عبّاد الشمس» ولسببٍ ما اسم «بيلاطس البنطي». استبعد الشاعر اسم بيلاطس وبدأ يعقد السلسلة ابتداءً من كلمة «آنوشكا». وقد انعقدت هذه السلسلة بسرعة كبيرة وأوصلته فوراً إلى البروفيسور المجنون.

اعذروني! فهو الذي قال إنّ الاجتماع لن يُعقَد لأنّ آنوشكا أراقت الزيت، وها هو لن يُعقَد! فضلاً عن أنه قال صراحةً إنّ امرأةً ستقطع رأس بِرلُوز؟ نعم، نعم، نعم! فسائق الترام كان امرأة؟! ما معنى هذا؟ ها؟

لم تعد هناك ذرّة شكّ في أنّ المستشار الغامض كان يعرف بدقّة شكل ميتة بِرلُوز المرعبة مسبقاً. حينها اخترقت فكرتان دماغ الشاعر: الأولى هي أنه ليس مجنوناً على الإطلاق، وأنّ هذا كله سخف!، والثانية: ألا يكون هو قد رتّب هذا كلّه؟!

لكن اسمحوا لي بالسؤال: كيف؟

- لا! هذا سنعرفه!

نهض إيفان نيكولاييفيتش عن المقعد، باذلاً جهداً كبيراً، واندفع عائداً إلى حيث كان يتحدّث إلى البروفيسور، فتبيّن أنّه، لحسن الحظّ، لم يكن قد غادر بعد.

كانت المصابيح لا تزال مضاءة في شارع «برونّايا»، وكان القمر الذهبي مضيئاً في «بتريرشيه»، وعلى ضوء القمر، المخادع دائماً، بدا لإيفان نيكولايفيتش أنّ البروفيسور كان واقفاً متأبطاً رمحاً وليس عصا.

كان المرتّل المنافق المتقاعد يجلس في ذات المكان الذي كان إيفان نيكولاييفيتش يجلس فيه قبل قليل. وكان الآن يضع على أنفه نظّارة بدا واضحاً أن لا لزوم لها، فقد كانت بعدسة واحدة، وحتى هذه كانت مصدّعة. ومن جرّاء ذلك أصبح المواطن ذو المربّعات كريهاً أكثر مما كان حين دلّ بِرلُوز إلى الطريق المؤدّية إلى السكة الحديد.

توجّه إيفان نحو الروفيسور بقلبٍ بارد، وتيقّن، وهو يتفرّس في وجهه، من عدم وجود أيّ مؤشرات على الجنون، ولم يكن لها وجود. سأله إيفان بصوتٍ مختنق:

- اعترف، من تكون؟

قطّب الأجنبي جبينه ونظر إلى الشاعر كأنه يراه للمرة الأولى، وقال بعدائية:

- لا تفهم... كلام روسي...

- إنه لا يفهم! - بادر المرتّل من مقعده على الرغم من أنّ أحداً لم يطلب منه شرح أقوال الأجنبي.

قال إيفان مهدّداً وقد شعر بالبرد في فم معدته:

- لا تتظاهر! فقد كنت لتوّك تتكلم الروسية بصورة رائعة. أنت

لست ألمانياً، ولست بروفيسوراً! أنت قاتل وجاسوس! أرني وثائقك!
- صرخ إيفان محتداً.

عوّج البروفيسور الغامض، بتقزّز، فمه المعوجّ أصلاً وهزّ كتفيه، فتدخّل المرتّل الكريه ثانيةً:

- ما لك تزعج السائح أيها المواطن؟ سوف تُحاسَب حساباً عسيراً على ذلك!

أما البروفيسور المريب فقد تصنّع الترفّع على وجهه واستدار وسار مبتعداً عن إيفان. أحسّ إيفان بالضياع، وقال للمرتّل وهو يشعر بالاختناق:

- هيه، يا مواطن، ساعدني على إيقاف المجرم! من واجبك القيام بهذا!

دبّت الحيوية في المرتّل فهبّ واقفاً وزعق بينما كانت عيناه تتقافزان بمرح:

- أين مجرمك؟ أين هو؟ المجرم الأجنبي؟ هذا؟ إذا كان مجرماً فإنّ أول ما ينبغي القيام به هو الصراخ: «النجدة!» وإلا سيفرّ. هيا، لنصرخ معاً! - وفتح المرتّل فاه.

امتثل إيفان المبلبل للمرتّل المهرّج وصرخ «النجدة» لكنّ المرتّل خدعه ولم يصرخ بشيء. وصرخة إيفان اليتيمة والمبحوحة لم تعطِ أيّ نتائج حسنة، فقد قفزت فتاتان جانباً مبتعدتين عنه وسمع كلمة «سكران». صرخ إيفان وقد تملّكه الغضب:

- هاهااا... أنت شريكه إذاً؟ ماذا تفعل، هل تسخر مني؟ دعني!

واندفع إيفان إلى اليمين فإذا بالمرتّل أيضاً يندفع إلى اليمين!

اندفع إيفان إلى اليسار وذاك السافل اندفع في الاتجاه ذاته. صرخ به إيفان مزمجراً:

- هل تتعثّر تحت قدميّ عمداً؟ سوف أسلّمك، أنت نفسك، إلى الشرطة!

وحاول القبض على اللئيم من كمّه لكنه أخطأه ولم يمسك بشيء عملياً، وكأنّ الأرض انشقّت وابتلعت المرتّل.

تأوّه إيفان وحدّق بعيداً فرأى المجهول البغيض قد أصبح عند مدخل الحديقة المؤدّي إلى زقاق «بتريرشيه»، فضلاً عن أنه لم يكن بمفرده، فقد انضمّ إلى المرتّل من هو أكثر إثارةً للريبة. لكنّ هذا لم يكن كلّ شيء، فقد تبيّن أنّ الثالث في المجموعة كان قطّاً ضخماً كخنزير، أسودَ كالغراب أو السخام، ذا شاربين هائلين كشوارب الفرسان، لا يعلم أحد من أين ظهر. وكان الثلاثة يسيرون في «بتريرشيه»، ناهيكم عن أنّ القطّ كان يمشي على قائمتيه الخلفيتين.

اندفع إيفان مسرعاً يطارد الأشرار لكنه سرعان ما اقتنع بأنّ اللحاق بهم سيكون صعباً جداً. فقد عبر الثُّلاثي الزقاق في لمحة عين ووجدوا أنفسهم في شارع «سبيريدونوفا». ومهما حثّ إيفان الخطى لم تكن المسافة بينه وبينهم تقصر قط. ولم يكد الشاعر يثوب إلى رشده حتى كان قد عبر شارع «سبيريدونوفا» الهادئ ليجد نفسه عند «بوابة نيتسكي» حيث ساء وضعه أكثر، فقد كان الشارع مزدحماً بالناس، واصطدم إيفان بأحد المارّة الذي راح يشتمه، فضلاً عن أنّ عصبة المجرمين قررت اللجوء إلى أسلوب المجرمين المفضّل: التفرّق.

فقد وثب المرتّل ببراعة كبيرة، وعلى الماشي، إلى الحافلة المنطلقة إلى ساحة «أربات»، وتوارى عن الأنظار. ركّز إيفان اهتمامه على القطّ مضيّعاً أحد الملاحقين، ورأى هذا القط الغريب يتّجه إلى

سلّم الترام البخاري (أ) المتوقّف في الموقف، حيث دفع بوقاحة امرأةً راحت تولول، وتشبّث بالدرابزين، بل حتى إنه حاول أن يمرّر «غريفينّيكاً»[1] إلى الجابية من خلال النافذة المفتوحة بسبب الجو الخانق.

أذهل سلوك القطّ إيفان إلى درجة أنه تسمّر دون حراك أمام متجر البقالة الذي في ناصية الشارع، لكنّ ما أثار دهشته أكثر كان سلوك الجابية التي ما إن رأت القطّ المتسلل إلى الترام حتى بدأت تصرخ بغيظٍ اهتزّ له جسمها:

- ممنوع ركوب القطط! ممنوع الركوب برفقة القطط! «بست» وإلاّ دعوت الشرطة!

لم يثر جوهر الأمر ذاته استغراب الجابية، ولا الركاب أيضاً: لا يتعلّق الأمر بأنّ قطاً يتسلّق الترام، فهذا نصف المصيبة، بل بأنه حاول أن يدفع ثمن التذكرة.

وتبيّن أنّ القطّ ليس قادراً على دفع ثمن التذكرة فحسب بل إنه حيوان مهذّب أيضاً. فعند أول صرخة للجابية كفّ عن المزاحمة وقفز عن السلّم وجلس على مقعد الموقف وهو يمسح شاربيه بالغريفينّيك. لكن ما إن شدّت الجابية الحبل وتحرّك الترام حتى تصرّف القطّ كما قد يتصرّف كلّ من يُطرَد من ترامٍ لا بدّ له، رغم ذلك، من ركوبه. فقد سمح للعربات الثلاث الأولى بالمرور ثم قفز إلى القوس الخلفي للعربة الأخيرة، وتشبّثت قائمته بأنبوبٍ بارز من جدار العربة، ومضى موفّراً، على هذا النحو، الغريفينّيك.

---

(١) الغريفين أو الغريفينيك: عملة نقدية روسية قديمة من أجزاء الروبل، وهي عملة أوكرانيا حالياً.

انشغل إيفان بالقطّ الشنيع حتى كاد يفقد أثر الشخصية الرئيسية بين الثلاثة - البروفيسور الذي، لحسن الحظّ، لم يلحق أن يتوارى عن الأنظار، فقد رأى إيفان «البيريه» الرمادية في الزحام في أول شارع «بولشوي نيكيتسكي» أو شارع «غيرتسن». وفي طرفة عين وصل إيفان إلى هناك لكن لم يحالفه التوفيق. فعلى الرغم من أنّ الشاعر حثّ خطاه وراح يركض، مصطدماً بالمارّة، إلا أنه لم يدنُ من البروفيسور سنتيمتراً واحداً.

وعلى الرغم من شدّة اضطراب إيفان إلا أنه شعر بالذهول من السرعة الخارقة التي تمّت بها المطاردة. إذ لم تمضِ سوى عشرين دقيقة حتى أعمت عينيّ إيفان نيكولاييفيتش أضواء ساحة «أربات» بعد أن عبر «بوابة نيكيتسكي». وبعد بضع دقائق أخرى وجد نفسه في زقاق معتم أرصفته ملتوية، حيث هوى على الأرض بقوة مهشّماً ركبته. ومرة أخرى وجد نفسه في شارع عريض مضاء هو شارع «كروبوتكين»، تلاه زقاق ثم شارع «أوستوجينكا» فزقاق آخر كئيب وقذر وشحيح الإضاءة. وهنا بالذات فقد إيفان نيكولاييفيتش نهائياً أثر من كان بأمسّ الحاجة إليه، فقد اختفى البروفيسور.

شعر إيفان نيكولاييفيتش بالحيرة لكن ليس لوقت طويل، فقد أدرك فجأةً أنّ البروفيسور لا بدّ أن يكون في المنزل رقم ١٣، وحتماً في الشقة رقم ٤٧.

اندفع إيفان نيكولاييفيتش إلى مدخل المبنى، وصعد مسرعاً إلى الطابق الثاني، وسرعان ما وجد هذه الشقة، فبدأ يقرع الجرس بإلحاح. لم يتوجّب عليه الانتظار طويلاً فقد فتحت له الباب طفلة في الخامسة من العمر، ومضت فوراً دون أن تسأل القادم شيئاً.

على جدار الممر الطويل المهمل إلى أقصى حدّ، والمضاء إضاءة

خافتة بمصباح صغير قائم في الركن تحت سقفٍ عالٍ مسودّ بسبب القذارة، كانت معلّقة دراجة هوائية بلا إطارات، وكانت هناك خزنة ضخمة مصفّحة بالحديد، وعلى رفٍّ يعلو المشجب كانت هناك قبعة شتوية تتدلّى أذناها الطويلتان إلى أسفل. وخلف أحد الأبواب كان صوتُ رجوليّ هادر يصرخ باحتداد، من جهاز راديو، بأشعارٍ ما.

لم يرتبك إيفان نيكولاييفيتش على الإطلاق في هذا الموقف غير المألوف، واندفع نحو الممر قائلاً لنفسه: «لقد اختبأ في الحمّام بالطبع». كان الممر معتماً، ورأى إيفان، وهو يخبط الجدران، خيط ضوءٍ خفيف أسفل الباب، فتحسس مقبض الباب وجذبه برفق، فانفصل المزلاج ووجد إيفان نفسه في الحمّام تماماً، وافترض أنّ الحظّ لم يحالفه.

لكنّ الحظّ لم يحالفه كما كان ينبغي! فقد لفح وجه إيفان دفء رطب ورأى، على ضوء الجمر المضطرم في السخّان، طسوتاً كبيرة معلّقة على الجدار ومغطساً ملطّخاً كلّه ببقع سوداء مخيفة من جرّاء تساقط الملاط. حسناً، في هذا المغطس كانت تقف مواطنة عارية يغطّيها الصابون وفي يدها ليفة. نظرت المرأة، مضيّقة عينيها، إلى إيفان المتسلّل، وكان جلياً أنها لم تتعرّفه في الإضاءة الجهنّمية، حيث قالت بصوتٍ خافتٍ وبفرح:

- كيروشكا! كفّ عن إزعاجي! ما بك، هل جننت؟... سيعود فيودور إيفانيتش الآن. انقلع من هنا فوراً! - ولوّحت بالليفة طاردةً إياه.

كان سوء الفهم واضحاً للعيان، وكان المذنب فيه إيفان نيكولاييفيتش بالطبع لكنه لم يشأ الاعتراف بذلك فصاح باستنكار: «يا للعاهرة!...»، ثم وجد نفسه، لسببٍ ما، في المطبخ. لم يكن هناك

أحد، وعلى الموقد كانت تقبع قرابة عشرة وابورات كاز مطفأة في المطبخ المعتم. وحده ضوء القمر، المنسلّ عبر نافذةٍ مغبرّة لم تنظَّف لسنوات، كان يلقي ضوءاً شحيحاً على ركنٍ فيه أيقونة مكسورة يعلوها الغبار وشبكة عنكبوت وتبرز من قفصها الزجاجي نهايتا شمعتين من شموع الزفاف. وكانت هناك أيقونة أصغر من الورق معلَّقة تحت الأيقونة الكبيرة.

الله أعلم ما الذي خطر لإيفان لكنه اختطف إحدى هاتين الشمعتين، والأيقونة الورقية كذلك، قبل أن يهرع إلى المدخل المعتم. وغادر الشقة مع هذه الأغراض، مغمغماً بكلامٍ ما، وشاعراً بالخجل والارتباك مما اختبره للتوّ في الحمّام، وهو يحاول، لاشعورياً، أن يخمّن من قد يكون كيروشكا السافل هذا، وما إذا كانت القبّعة المثيرة للقرف ذات الأذنين تعود له.

تلفّت الشاعر حوله في الزقاق الخالي الكئيب باحثاً عن الهارب، لكنه لم يكن موجوداً في أيّ مكان. حينها قال إيفان لنفسه جازماً:

- إنه على نهر موسكو بالطبع! هيا!

ربما كان يجب سؤال إيفان نيكولاييفيتش لماذا يفترض أنّ البروفيسور موجود على نهر موسكو بالتحديد وليس في مكانٍ آخر. لكن للأسف، لم يكن هناك من يطرح عليه هذا السؤال، فقد كان الزقاق المقرف فارغاً تماماً.

وخلال مدة قصيرة جداً كان بالإمكان رؤية إيفان نيكولاييفيتش على الدرجات الغرانيتية لمدرّج نهر موسكو.

خلع إيفان ملابسه وعهد بها إلى رجلٍ ملتحٍ لطيف المظهر كان يدخّن لفافة تبغ بجوار قميصٍ أبيض ممزّق وجزمة بالية محلولة الرباط. لوّح إيفان بيديه لكي يتبرّد قليلاً ورمى بنفسه في الماء. كان

الماء شديد البرودة إلى درجة أنّ أنفاسه احتبست، بل حتى راودته فكرة أنه قد لا يبلغ السطح. لكنه تمكّن من بلوغ السطح وبدأ إيفان نيكولاييفيتش، لاهثاً وناخراً وقد تكوّرت عيناه من الخوف، يسبح في الماء الأسود، الذي يفوح برائحة النفط، بين تمّوجات أضواء مصابيح الضفة المتكسّرة.

حَجَل إيفان على الدرجات نحو المكان الذي ترك فيه ثوبه بحماية الرجل الملتحي وتبيّن أنْ ليس الأول فقط قد خُطف بل الثاني أيضاً، أي الملتحي ذاته. إذ لم يكن قد بقي، في المكان الذي كانت فيه كومة الثياب بالذات، سوى لباسه الداخلي المخطّط والقميص الطويل الممزَّق والشمعة والأيقونة وعلبة عيدان الثقاب. ومحتداً بغضبٍ عاجز لوَّح إيفان بقبضته لأحدٍ ما في البعيد وارتدى ما تُرِك له من ثياب.

حينها أخذت فكرتان تؤرّقانه: الأولى هي اختفاء بطاقة عضويته في «ماسوليت» التي لم يفارقها من قبل قط، والثانية ما إن كان بإمكانه السير في موسكو دون عوائق وهو بهذا المظهر؟ فهو، رغم ذلك، يرتدي لباساً داخلياً. . . بالفعل، ما شأن الناس به، المهم ألاّ تحدث أي موانع أو تأخير.

نزع إيفان أزرار لباسه الداخلي عند الكاحل لعله بذلك يبدو شبيهاً ببنطالٍ صيفيّ، وتناول الأيقونة والشمعة وعيدان الثقاب وهو يقول لنفسه:

- إلى «غريبوييدوف»! إنه هناك دون أدنى شك.

كانت المدينة قد بدأت تعيش حياتها المسائية، فقد كانت الشاحنات تنطلق بسرعة، مصلصلةً بسلاسلها، وسط الغبار، وقد استلقى في عرباتها، فوق الأكياس، رجالٌ ما وبطونهم مشرئبة نحو الأعلى. كانت النوافذ كلها مفتوحة، وفي كلٍّ من هذه النوافذ كان

النور مضاءً خلف «أباجور» برتقالي، ومن كلّ النوافذ والأبواب والكوى والأسطح والعلّيات والأقبية والأفنية كان ينطلق زعيقٌ أجشّ لموسيقى «بولونيز» من أوبّرا «يفغيني أونيغين».

وقد تحققت مخاوف إيفان نيكولاييفيتش تماماً: فقد كان المارّة يلتفتون إليه ثم يشيحون بوجوههم. لذا قرر مغادرة الشوارع الكبيرة واللجوء إلى الأزقّة حيث الناس أقلّ لجاجةً، وحيث هناك احتمالات أقلّ لأن يتحرّشوا بشخصٍ حافي القدمين، مضايقين إياه بأسئلة عن سرواله الداخلي الذي أصرّ بعناد على ألاّ يغدو شبيهاً بالبنطال.

وهو ما فعله إيفان، فتوغّل في الشبكة السرية لأزقّة «أربات» وهو يتلمّس طريقه بمحاذاة الجدارن، متلفتاً حوله بذعر وملتفتاً خلفه كلّ دقيقة، مختبئاً، بين الحين والآخر، في مداخل الأبنية، متجنّباً إشارات المرور على مفارق الطرق والأبواب الفاخرة لدور السفارات.

وطوال طريقه الشاقّة كانت تعذّبه، لسببٍ ما، أوركسترا تدوّي في مكانٍ ما يرافقها صوتٌ أجشّ ثقيل يُنشد حبّه لتاتيانا.

الفصل الخامس

حدث في «غريبوييدوف»

كان البيت العاجيّ القديم ذو الطابقين يقع على البولفار الدائري في عمق حديقة ذابلة يفصلها عن الطريق سياج حديدي مزخرف. وكانت الساحة الصغيرة أمام البيت معبَّدة بالأسفلت، وفي أوقات الشتاء يتراكم فيها كثيب ثلجي مع مجرفة لكنها تتحول في الصيف إلى مطعمٍ صيفيّ تحت سقفٍ من قماش الأشرعة.

يُدعى البيت «بيت غريبوييدوف» على أساس أنه، في وقتٍ من الأوقات، كان مُلكَ عمّة الكاتب ألكسندر سيرغيفيتش غريبوييدوف. لكننا لا ندري ما إن كانت قد امتلكته بالفعل أم لا. بل حتى يُذكَر أنّ غريبوييدوف لم تكن له عمّة تملك بيتاً، على ما يبدو... لكنّ البيت كان يُدعى بهذا الاسم. فضلاً عن أنّ أحد كذّابي موسكو قال إنّ الكاتب المعروف قد قرأ مقاطع من مسرحيته «الشقاء بسبب العقل»[1] على عمّته هذه بالذات، وهي مستلقية على الصوفا في البهو الدائري ذي الأعمدة الواقع في الطابق الثاني. وعلى أيّ حال، الله أعلم ما إذا كان قد قرأ أم لا. ربما يكون قد فعل، لكن ليس هذا هو المهم!

(١) تُرجمت هذه المسرحية إلى العربية بعنوان «ذو العقل يشقى» لكن الترجمة الدقيقة لاسم المسرحية هي ما أوردناه.

المهم هو أنّ مالك هذا البيت الآن هو جمعية «ماسوليت»، وهي الجمعية التي كان يرأسها سيئ الحظ ميخائيل ألكسندروفيتش بِرلُوز إلى حين ظهوره في «بتريرشيه برودي».

على غرار أعضاء «ماسوليت» لم يكن أحد يدعو البيت «بيت غريبوييدوف» بل الجميع كانوا يقولون ببساطة «غريبوييدوف»: «البارحة احتجت ساعتين لأشقّ طريقي وسط الزحام أمام غريبوييدوف»، - «وماذا كانت النتيجة؟» - «حصلت على رحلة لشهر إلى يالطا» - «برافو!». أو: «اذهب إلى بِرلُوز، فهو يستقبل المراجعين من الساعة الرابعة حتى الخامسة في غريبوييدوف...» وهلمّ جرّا.

استقرّت «ماسوليت» في «غريبوييدوف» على نحوٍ ليس بالإمكان ابتكار أفضل وأكثر راحةً منه. وكلّ من يدخل «غريبوييدوف» يتعرّف لاإرادياً، قبل أيّ شيء آخر، إلى أخبار الفرق الرياضية، وإلى الصور الجماعية والفردية لأعضاء «ماسوليت» المعلّقة على جدران الدرج المؤدّي إلى الطابق الثاني.

على باب الغرفة الأولى في هذا الطابق العلوي تُرى كتابة بخطٍّ كبير «قسم صيد السمك والاصطياف»، وبجوارها مباشرةً صورة سمكة شبوط عالقة بصنّارة صيد.

وعلى باب الغرفة رقم (٢) كتابة غير مفهومة على الإطلاق: «رحلة فنية ليومٍ واحد. المراجعة لدى م. ف. بولوجنايا».

أما الباب التالي فكانت عليه عبارة موجزة لكنها بمنتهى الغموض هذه المرة: «بيريليغينو». بعد ذلك تبدأ عينا من يجد نفسه، بمحض الصدقة، في «غريبوييدوف» بالزوغان جرّاء الكتابات المزخرفة على أبواب العمّة المصنوعة من خشب الجوز: «التسجيل في الطابور

للحصول على الورق عند بوكليفكينا»، «الصندوق»، «الحسابات الشخصية لأصحاب السكيتشات». . .

بعد اختراق الطابور الطويل الذي تمتد نهايته إلى غرفة البوّاب في الأسفل يمكن رؤية كتابة على الباب الذي يتزاحم عنده الناس كلّ ثانية: «قضايا الشقق».

بعد مكتب «قضايا الشقق» تتكشّف للزائر يافطة فاخرة رُسمت عليها صخرة يعدو إلى قمتها فارسٌ يرتدي عباءة وعلى كتفه بندقية. وأسفل منها توجد أشجار نخيل وشرفة، وفي الشرفة يجلس شاب له ذؤابة شعر ينظر إلى مكانٍ ما في الأعلى بعينين بمنتهى الجرأة والحيوية ويمسك بيده قلماً. ثمّ كتابة: «إجازات تفرّغ كامل تمتد من أسبوعين (للقصة والقصة القصيرة) حتى عام واحد (للرواية والثلاثية). يالطا، سوك سو، بوروفويه، تسيخيدزيري، ماخينجاوري، لينينغراد (القصر الشتوي)». وأمام هذا الباب أيضاً كان يقف طابور، لكنه لم يكن زائداً عن الحدّ - قرابة مئة وخمسين شخصاً.

يلي ذلك، تبعاً للانعطافات الغريبة الشكل وطلعات ونزلات «بيت غريبوييدوف»: «إدارة ماسوليت»، «الصناديق رقم ٢، ٣، ٤، ٥»، «هيئة التحرير»، «رئيس ماسوليت»، «صالة البلياردو»، ومختلف الهيئات الفرعية، وأخيراً، البهو ذو الأعمدة ذاته الذي تنعّمت فيه العمّة بالاستماع إلى مسرحية ابن أخيها العبقري الكوميدية.

أيّ زائر تواجد في «غريبوييدوف» كان يدرك على الفور، إذا لم يكن غبياً تماماً بالطبع، مدى رغد عيش سعداء الحظّ هؤلاء - أعضاء «ماسوليت»، ويبدأ الحسد الأسود يتآكله فوراً، ويتوجّه إلى السماء مباشرةً بالعتاب الشجيّ لكونها لم تنعم عليه، عند ولادته، بموهبة أدبية لا يمكنه من دونها بالطبع حتى أن يحلم بالحصول على بطاقة

عضوية «ماسوليت» البنية اللون، ذات الحاشية الذهبية، التي تفوح منها رائحة جلدٍ غالي الثمن، والتي تعرفها موسكو كلها.

مَنْ يمكنه قول شيء دفاعاً عن الحسد؟ هذا الشعور ينتمي إلى الرذائل لكن، رغم ذلك، على المرء أن يضع نفسه مكان الزائر. إذ إنّ ما رآه في الأعلى، في الطابق العلوي، ليس كلّ شيء، بل هو أبعد من أن يكون كلّ شيء. فالطابق السفلي برمّته من بيت العمة كان مطعماً، وأيّ مطعم! الحق يُقال إنه كان يعدّ أفضل مطعم في موسكو. ليس فقط لأنه كان مؤلّفاً من قاعتين كبيرتين لهما سقفان مقبّبان مزخرفان بجيادٍ ليلكية اللون ذات أعرافٍ آشورية، وليس فقط لأنّ هناك مصباحاً مغطّى بشال فوق كلّ طاولة، أو لأنه لم يكن بمقدور كلّ من هبّ ودبّ دخوله، بل أيضاً لأنّ «غريبوييدوف» كان يبزّ أيّ مطعم آخر في موسكو بنوعية أطباقه، ولأنّ هذه الأطباق كانت تُقدَّر بأنسب الأسعار التي لا تثقل كاهل الزبائن على الإطلاق.

لذا ليس هناك ما يثير الاستغراب في الحديث التالي الذي سمعه يوماً كاتب هذه السطور المتناهية الصدق قرب سياج «غريبوييدوف» الحديدي:

- أين ستتناول العشاء يا أمفروسي؟

- ما هذا السؤال؟ هنا بالطبع يا فوكا العزيز! فقد همس لي أرشيبالد أرشيبالدوفيتش بأنّ وجبة اليوم عبارة عن أطباق من فراخ السمك الطازج. إنه طبق مذهل!

تنهّد فوكا النحيل، المهلهل المظهر، الذي على رقبته دمّلة، وقال للشاعر أمفروسي الهائل القامة، الوردي الشفتين، الذهبي الشعر، المنتفخ الخدين:

- إنك تعرف كيف تعيش يا أمفروسي!

فاعترض أمفروسي قائلاً:

- أنا لا أتمتع بأي براعة مميزة، بل هي رغبة طبيعية في العيش بشكل إنساني. قد تقول، يا فوكا، إنّ بالإمكان تناول فراخ السمك في «الكوليزيه» أيضاً. لكنّ طبق فراخ السمك ثمنه في «الكوليزيه» ثلاثة عشر روبلاً وخمسة عشر كوبيكاً بينما عندنا خمسة روبلات وخمسون كوبيكاً! عدا عن أنّ فراخ السمك في «الكوليزيه» تكون بائتة منذ ثلاثة أيام، فضلاً عن أنّ المرء في «الكوليزيه» لا يضمن ألاّ يتلقى على وجهه بقايا عنقود عنب يرميه أول شاب قادم من ممر مشاة «تياترالني». لا، أنا قطعاً ضد «الكوليزيه»، - دوّى صوت خبير الطعام أمفروسي في البولفار كله. - لا تحاول إقناعي يا فوكا!

قال فوكا مصأصئاً:

- لست أحاول إقناعك يا أمفروسي. يمكنني تناول العشاء في البيت.

فقال أمفروسي بصوته البُوقي:

- يا لك من مسكين! أتخيّل زوجتك وهي تحاول قلي فراخ السمك الطازج في المطبخ المشترك في البيت! هيء هيء هيء!... «أورفوار» فوكا! - وانطلق مسرعاً إلى الشرفة تحت المظلّة وهو يغنّي.

هوهووو... أجل، سقى الله تلك الأيام!.. إنّ سكّان موسكو القدماء يتذكرون «غريبوييدوف» الشهير! ما أطباق فراخ السمك المسلوقة هذه! هذا شيء تافه يا أمفروسي العزيز! وماذا عن الحفش، الحفش في المقلاة الفضية، وقطع الحفش المحشوة برقاب السرطان والكافيار الطازج؟ والبيض مع حساء الفطر في القدور الفخارية؟ وشرائح لحم الشحرور، ألم تعجبك؟ وبالكمأ؟ والسُّمانى على طريقة جنوة؟ وهذا كله بعشرة روبلات ونصف! ناهيك عن الجاز والخدمة

الراقية! وفي تمّوز، حين تكون العائلة كلّها في المزرعة وتجبرك شؤون أدبية عاجلة على البقاء في المدينة، على الشرفة، في ظلّ دوالي الكرمة الملتفّة، على بقعة ذهبية في سماط بمنتهى النظافة صحن حساء «برينتانيير»؟ هل تذكر يا أمفروسي؟ ولِمَ السؤال، فأنا أرى من شفتيك أنك تذكر. فما أطباق اللوز وفراخ السمك! وماذا عن الشنقب والبكاشين والدجاج البري والدجاج الداجن في أوانه والسُّمانى؟ ومشروب النارزان الذي يقرقر في الحلق؟! لكن يكفي هذا، فإنك تشرد أيها القارئ! اتبعني!..

في منتصف الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم الذي قُتل فيه بِرلُوز في «بتريرشيه» كانت هناك غرفة واحدة مضاءة في «غريبوييدوف»، في الطابق العلوي، حيث اجتمع اثنا عشر أديباً ينتظرون ميخائيل ألكسندروفيتش بفارغ الصبر.

كانوا يجلسون على الكراسي، وعلى الطاولات، وحتى على حافتي نافذتي غرفة إدارة «ماسوليت»، وكانوا يعانون بجدية من الجو الخانق، إذ لم تكن أي نسمة منعشة تدخل الغرفة من النافذتين المشرعتين. كانت موسكو تنفث الحرارة التي خزّنتها في الأسفلت خلال النهار، وكان واضحاً أنّ الليل لن يخفّف من حدّة الحرارة. كانت رائحة البصل تفوح من قبو بيت العمّة حيث مطبخ المطعم، والكلّ كان راغباً في الشرب، وكلهم كانوا ساخطين ومتوتري الأعصاب.

الكاتب الروائي بيسكودنيكوف، وهو شخص هادئ يرتدي ملابس أنيقة، ذو عينين فطنتين لكنهما متملّصتان في الآن ذاته، استلّ ساعته من جيبه. كان عقرب الساعة يزحف نحو الحادية عشرة. نقر بيسكودنيكوف بأصبعه على ميناء الساعة وأراه لجاره، الشاعر

دفوبراتسكي الذي كان جالساً على الطاولة ويؤرجح، من الضجر، قدميه في خفّين أصفرين لهما نعلان مطاطيان. قال دفوبراتسكي:

- على كلٍّ...

- ربما يكون الرجل قد توقّف في «كلازما»،- قالت بصوتٍ غليظ ناستاسيا لوكينيشنا نيبريمينًفا، وهي يتيمة أب من تجّار موسكو أصبحت كاتبة ومؤلّفة قصص معارك بحرية باسم مستعار هو «شتورمان جورج».

- عذراً! - بجرأة بدأ الحديث كاتب السكيتشات الشعبية زاغريفوف. - أنا أيضاً بودّي الآن لو أشرب شاياً على الشرفة بدلاً من أن أنسلق هنا. أليس الاجتماع في العاشرة؟

قالت شتورمان جورج، التي كانت تعلم أنّ فيلات القرية الأدبية «بيريلينغو» في «كلازما» موضع وجع الجميع، مثيرةً البرم:

- الجو لطيف الآن في «كلازما». لعلّ الحساسين تغرّد هناك الآن. يطيب لي دوماً العمل أكثر في الريف، لا سيما في الربيع.

قال الكاتب الروائي إيرونيم بوبريخين بسخرية ومرارة:

- للسنة الثالثة أدفع المال لإرسال زوجتي المصابة بتضخّم الغدّة الدرقية إلى هذه الجنة لكني لا أرى شيئاً في الأفق.

- هذا يتوقّف على الحظّ. - قال الناقد أبابكوف من على رفّ النافذة بصوتٍ جهوري.

ومض الفرح في عيني شتورمان جورج الصغيرتين وقالت، مُلطِّفةً نبرة صوتها الواطئ الأبحّ:

- لا داعي للحسد يا رفاق. ليست هناك سوى اثنتين وعشرين فيللا، ويجري الآن بناء سبع فقط، وعددنا في «ماسوليت» ثلاثة آلاف عضو.

- ثلاثة آلاف ومئة وأحد عشر شخصاً،- صحّح أحدهم الرقم من الركن.

- أترون! - تابعت شتورمان- فما العمل إذاً؟ طبيعي أنّ الأكثر موهبةً بيننا هم الذين حصلوا على فيلات...

- الجنرالات! - اقتحم السيناريست غلوخاريف المماحكة دون مواربة.

غادر بيسكودنيكوف الغرفة متظاهراً بالتثاؤب. وقال غلوخاريف في إثره:

- يعيش بمفرده في خمس غرف في «بيريليغينو».

- ولافروفيتش يعيش وحده في ست غرف،- قال دينيسكين بصوتٍ عالٍ،- وغرفة الطعام لديه مغطّاة بألواح من خشب البلوط!

- هيه، ليس هذا هو الموضوع الآن،- قال أبابكوف هادراً،- الموضوع أنها الحادية عشرة والنصف الآن.

بدأ الهرج وثار ما يشبه التمرّد. راحوا يتّصلون هاتفياً ببيرليغينو البغيضة فلم يقعوا على الفيللا المطلوبة بل وقعوا على لافروفيتش، وعلموا أنّ لافروفيتش قد ذهب إلى النهر، وقد أغاظهم هذا تماماً. ثمّ اتصلوا كيفما اتّفق بقسم الأدب الرفيع على الرقم الإضافي (٩٣٠)، ولم يجدوا أحداً هناك بالطبع. صرخ دينيسكين وغلوخاريف وكفانت معاً:

- كان بإمكانه أن يتّصل.

لكنهم كانوا يصرخون عبثاً فميخائيل ألكسندروفيتش لم يكن بمقدوره الاتّصال بأي مكان. فبعيداً، بعيداً عن «غريبوييدوف»، في قاعة هائلة مضاءة بمصابيح بقوة ألف شمعة، كان يستلقي على مناضد من الزنك من كان حتى فترة قريبة ميخائيل ألكسندروفيتش.

كان يغطّي جسد بِرلُوز العاري دمّ متخثّر، بيدٍ مهشّمة وقفصٍ صدريٍّ مسحوق، على المنضدة الأولى، وكان على الأخرى رأسه بأسنانه الأمامية المحطَّمة وبعينيه المفتوحتين الزائغتين اللتين لم يكن الضوء المبهر يخيفهما، وعلى الثالثة كومة من خرق خشنة.

كان يقف بجوار الجسد المقطوع الرأس بروفيسور الطب الشرعي، المتخصص في علم التشريح المرضي، ومساعده المشرّح وممثلو التحقيق ونائب ميخائيل ألكسندروفيتش بِرلُوز في «ماسوليت» الأديب جيلدبيين الذي استدعته بالهاتف زوجة بِرلُوز المريضة.

حضرت سيارة لإحضار جيلدبيين وذهبت به، مع المحققين، إلى شقّة القتيل أولاً (كان هذا في منتصف الليل تقريباً) حيث تمّ ختم أوراقه، وبعد ذلك ذهب الجميع إلى المشرحة.

وها هم الواقفون عند رفات المرحوم يتشاورون الآن: ما الأفضل أن يفعلوا: أيقومون بخياطة الرأس المقطوع بالرقبة أم يعرضون جسده في قاعة «غريبوييدوف» ويلفّوا، ببساطة، القتيل حتى ذقنه بإحكام بغطاءٍ أسود؟

أجل، ميخائيل ألكسندروفيتش لم يكن قادراً على الاتصال بأيٍّ مكان، وعبثاً تماماً امتعض وصرخ دينيسكين وغلوخاريف وكفانت وبيسكودنيكوف. وفي منتصف الليل تماماً غادر الأدباء الطابق العلوي ونزلوا إلى المطعم. هنا ذكروا ميخائيل ألكسندروفيتش بالسوء مرة أخرى في أنفسهم. فقد تبيّن أنّ كلّ الطاولات على الشرفة كانت مشغولة بصورة طبيعية، وتوجّب عليهم تناول العشاء في هاتين القاعتين الجميلتين لكن الخانقتين.

وفي منتصف الليل تماماً سقط شيء ما في إحدى هاتين القاعتين محدثاً دوياً وقرقعة وتناثر وتقافز. وفي اللحظة ذاتها صَدح صوت

رجولي حادّ بشجن على إيقاع موسيقى: «هلّلويا!». كان هذا جاز بيت «غريبوييدوف» الذائع الصيت. بدت الوجوه المغطّاة بالعرق وكأنها أشرقت، والجياد المرسومة على السقف وكأنّ الحياة قد دبّت فيها، والمصابيح وكأنها ازدادت إضاءةً، وفجأةً بدأت كلتا القاعتين بالرقص، وكأنهما أفلتتا من عقالهما، ولحقت بهما الشرفة أيضاً.

بدأ غلوخاريف أيضاً يرقص مع الشاعرة تمارا بولوميسيتس، ورقص كفانت، كما بدأ الروائي جوكولوف يرقص مع ممثلة سينمائية مغمورة ترتدي فستاناً أصفر اللون. وانخرط في الرقص أيضاً دراغونسكي وجيرداجكي ودينيسكين الضئيل الذي راقص شتورمان جورج العملاقة. وبدأت ترقص المهندسة المعمارية الحسناء سيميكينا غالّ وقد تشبّث بها شخص مجهول يرتدي بنطالاً أبيض من الكتّان. كما رقص أصحاب المكان وضيوفهم، الموسكوفيون والزائرون، الكاتب يوهان من كرونشتات وشخص على خده قُوبة بنفسجية اللون، اسمه فيتيا كوفتيك من روستوف، ويبدو أنه مخرج. ورقص أيضاً أبرز ممثلي قسم الشِّعر في «ماسوليت»، أي بافيانوف وبوغوخولسكي وسلادسكي وشبيجكين وأديلفينا بُوزدياك. كما رقص شبّان مجهولو المهن، بتسريحات شعرهم التي على طريقة «بوكس» وبأكتافهم المبطّنة بالقطن. وانخرط في الرقص رجلٌ ملتحٍ طاعن في السنّ وقد علقت بلحيته خصلة بصل أخضر، وكانت تراقصه عانس عجوز يتآكلها فقر الدم وترتدي فستاناً قصيراً من الحرير البرتقالي المجعّد.

كان النُّدُل، المتصبّبون عرقاً، يحملون كؤوس البيرة المتعرّقة فوق الرؤوس ويصرخون بأصواتٍ مبحوحة وبكراهية: «عفواً يا مواطن!» وفي مكانٍ ما كان صوتٌ يصدر الأوامر عبر مكبّر صوت: «كراسكي واحد! زوبريك اثنان! فلاكي هدايا حكومية!!» والصوت

الحادّ لم يعد يُنشد بل صار يولول: «هلّلويا!» وكانت قرقعة الأواني، التي تَحْدِرها الغسّالات إلى المطبخ عبر سطحٍ منحنٍ أملس، تطغى، بين الحين والآخر، على أصوات صنوج الجاز الذهبية. باختصار، كان جحيماً.

وفي منتصف الليل حدثت رؤيا في هذا الجحيم. خرج إلى الشرفة شخص وسيم أسود العينين خنجريّ اللحية يرتدي بذلة فراك وأجال في مملكته نظرةً جليلة. قال المضلّلون إنّ الوسيم، في وقتٍ من الأوقات، لم يكن يرتدي الفراك بل كان يتمنطق بحزامٍ جلديٍّ عريض تتدلى منه مقابض مسدسات، وإنّه كان يعصب شعره، الذي بلون جناح الغراب، بمنديلٍ حريريٍّ ورديّ اللون، وإنّ سفينةً ذات صاريتين تحمل علماً كالح السواد رُسم عليه رأس آدمي كانت تبحر في البحر الكاريبي تحت إمرته.

لكن لا، لا! كذب المشعوذون الغاوون، إذ ما من بحار كاريبية في الدنيا، ولا يبحر فيها قراصنة مخيفون، ولا تطاردهم سفن حربية، ولا يفترش دخانُ المدافع الموجَ. ليس هناك شيء من هذا، ولم يكن! أما شجرة الزيزفون الذاوية هذه فموجودة، موجود أيضاً الحاجز الحديدي الشبكي وهناك بولفار خلفه... والجليد يذوب في الأصيص، وتُرى على الطاولة المجاورة عينا أحدهم المحتقنتان بالدم كعيني ثور... هذا مخيف، مخيف... أيتها الآلهة، يا آلهتي، إليّ بالسمّ، بالسمّ!..

وفجأةً طارت مرفرفةً خلف الطاولة كلمة: «بِرلُوز!!». فجأةً همد الجاز وسكن، وكأنّ أحدهم قد لكمه بقبضته. «ماذا، ماذا، ماذا، ماذا؟!!» - «بِرلُوز!!!». وراحوا يقفزون في أماكنهم.

أجل، تصاعدت موجة حزن عند سماع الخبر المريع عن ميخائيل

ألكسندروفيتش. تململ أحدهم وصرخ بأنه لا بدّ الآن حتماً، هنا، قبل مغادرة المكان، من كتابة برقية جماعية ما وإرسالها دون إبطاء.

ونسأل: لكن أي برقية هذه، وإلى أين؟ ولماذا إرسالها؟ بالفعل، إلى أين؟ وما حاجته إلى أي برقية ذاك الذي قفاه المسطَّح يُسحَق الآن بين يديّ المشرِّح المطاطيتين، ذاك الذي يخز البروفيسور رقبته الآن بإبرٍ معقوفة؟ لقد لقي مصرعه، ولا حاجة له بأيّ برقية. الأمر منتهٍ، لن نثقل أكثر على مصلحة البرق.

أجل، قُتل، قُتل... لكن نحن أحياء!

أجل، طغت موجة من الحزن، لكنها استمرت فترة قصيرة ثم بدأت تنحسر، بل إنّ أحدهم كان قد عاد إلى طاولته وراح يحتسي الفودكا ويتناول «المازة»، خلسةً في البداية وعلناً بعد ذلك. بالفعل، هل نترك شرحات الدجاج تذهب سدىً؟ كيف نساعد ميخائيل ألكسندروفيتش؟ بأن نبقى جائعين؟ لكن نحن أحياء!

طبيعي أنهم أقفلوا البيانو بالمفتاح، وأعضاء فرقة الجاز تفرّقوا، وذهب بعض الصحفيين إلى صحفهم لكتابة النعوات. عُلِم أنّ جيلدييين قد وصل من المشرحة، وأنه استقرّ في مكتب المرحوم في الطابق الثاني، وعلى الفور سرت شائعة بأنه سيحلّ محلّ بِرلُوز. استدعى جيلدييين، من المطعم، كلّ أعضاء الإدارة الاثني عشر الذين سرعان ما عقدوا اجتماعاً في مكتب بِرلُوز وباشروا مناقشة المسائل التي لا تحتمل التأجيل والمتعلّقة بترتيب قاعة غريبوييدوف ذات الأعمدة، ونقل الجثمان من المشرحة إلى هذه القاعة، وإفساح المجال للوصول إليه، وغير ذلك من المسائل المتعلّقة بهذا الحدث الأليم.

كان المطعم يعيش حياته الليلية المعتادة، وكان ليعيشها حتى الإغلاق، أي حتى الساعة الرابعة صباحاً، لو لم يحدث شيء خارج

إطار المألوف كلياً أثار ذهول ضيوف المطعم أكثر بكثير من نبأ مقتل بِرلُوز.

كان الحوذية المناوبون عند بوابة بيت غريبوييدوف أول من بدأ بالهيجان، فقد سُمع كيف نهض أحدهم عن مقعده وصرخ:

- هيه! فقط انظروا!

على إثر ذلك، الله أعلم من أين، اتّقدت شعلة صغيرة عند السياج الحديدي وراحت تدنو من الشرفة. بدأ الجالسون إلى الطاولات ينهضون ويمعنون النظر ورأوا شبحاً أبيض يواكب الشعلة نحو المطعم. حين بلغ الشبح التعريشة تسمّر الجميع حول طاولاتهم وقِطع سمك الحفش في شوكهم وقد جحظت أعينهم. البوّاب، الذي خرج في هذه اللحظة من باب مشجب المطعم إلى الفناء كي يدخّن، أطفأ لفافة التبغ بقدمه وهمّ بالتوجه نحو الشبح لكي يمنعه من دخول المطعم لكنه، لسببٍ ما، لم يقم بذلك وتوقّف مبتسماً ببلاهة.

عبر الشبح فجوةً في التعريشة ودخل الشرفة دون عوائق. حينئذٍ رأى الجميع أنّه لم يكن شبحاً على الإطلاق بل كان الشاعر الذائع الصيت إيفان نيكولاييفيتش بيزدومني.

كان بيزدومني حافي القدمين، وكان يرتدي قميصاً ممزّقاً أبيض اللون، وقد شُبكت على صدره بدبوسٍ إنكليزي أيقونة ورقية صغيرة عليها صورة ممحيّة لقديس غير معروف، ولباساً داخلياً أبيضَ مقلَّماً. كان إيفان نيكولاييفيتش يحمل بيده شمعة زفاف مشتعلة، وعلى خدّه الأيمن خدوش حديثة العهد. كان يصعب قياس عمق الصمت الذي ساد الشرفة، وشوهدت البيرة تنسكب على الأرض من كأسٍ مائلة في يد أحد النُّدُل.

رفع الشاعر الشمعة فوق رأسه وقال بصوتٍ عالٍ:

- سلام يا أصدقاء! - ثم نظر تحت أقرب طاولة وقال بخيبة أمل: - لا، إنه ليس هنا!

وقد سُمع صوتان. أحدهما صوت غليظ دون شفقة قال:

- الأمر واضح. هذيان سكارى.

أما الصوت الثاني، وكان أنثوياً مذعوراً، فقد قال:

- وكيف تركته الشرطة يسير في الشوارع بهذا المظهر؟

وقد سمع إيفان نيكولاييفيتش هذا وأجاب:

- أرادوا مرتين إلقاء القبض عليّ، في «سكاتيرني» وهنا في «برونّايا»، لكني تملّصت منهم عبر السياج ومزّقت خدّي، كما ترون!

- وهنا رفع إيفان نيكولاييفيتش الشمعة وهتف: - يا إخوتي في الأدب! (كان صوته الأبحّ قد اشتدّ وأصبح أكثر حرارةً) اسمعوني جيداً! لقد ظهر! أمسكوا به فوراً وإلاّ سبّب مصائب لا توصف!

ارتفعت الأصوات من كافة الجهات:

- ماذا؟ ماذا؟ ماذا قال؟ من الذي ظهر؟

- المستشار! - قال إيفان،- وقد قتل هذا المستشار ميشا بِرلُوز للتوّ في «بتريرشيه».

حينها خرج الجميع معاً من القاعة الداخلية إلى الشرفة وتزاحموا حول شعلة إيفان. وسمع إيفان صوتاً هادئاً مهذّباً عند أذنه تماماً يقول:

- عفواً، عفواً، قل بدقّة أكثر، ما معنى قتله؟ من قتله؟

ردّ إيفان وهو يتلفّت حوله:

- المستشار الأجنبي، البروفيسور والجاسوس!

- وما كنيته؟ - سألوه في أذنه بصوتٍ خافت.

صرخ إيفان متململاً:

- هنا المشكلة! لو كنت أعرف كنيته! لم أتبيّن الكنية في بطاقة الزيارة. . . أذكر الحرف الأول فقط (ف)، كنيته تبدأ بالحرف (ف)! ما هذه الكنية التي تبدأ بحرف (ف)؟ - تساءل إيفان واضعاً يده على جبينه، وغمغم فجأةً: - ف، ف، ف! فا. . . فو. . . فاشنر؟ فاغنر؟ فاينر؟ فيغنر؟ فينتر؟ - بدأ شعر إيفان يهتزّ من شدّة التوتر. وهتفت إحدى النساء بشفقة:

- فولف؟

احتدّ إيفان غضباً وصرخ وهو يبحث عن المرأة بعينيه:

- حمقاء! ما شأن فولف هنا! فو، فو. . . لا! لن أتذكّر قطعاً! لكن هاكم ما سنفعل أيها المواطنون: اتّصلوا بالشرطة فوراً ليقوموا بإرسال خمس دراجات مع رشاشات للإمساك بالبروفيسور. ولا تنسوا أن تقولوا لهم إنّ اثنين آخرين كانا برفقته: شخص طويل ذو تربيعات. . . يضع نظارة أنفية عدستها متصدّعة. . . وقطّ أسود سمين. وفي هذه الأثناء سأقوم بتفتيش غريبوييدوف. . . فأنا أشعر أنه هنا!

وتولّى إيفان الهيجان، فدفع المحيطين وراح يلوّح بالشمعة، مريقاً الشمع على نفسه، وينظر تحت الطاولات. فجأةً سُمعت كلمة: «الدكتور!» وظهر أمام إيفان وجهٌ لطيف لحيم، حليق ومكتنز، يضع نظارة. بدأ هذا الوجه الكلام بصوتٍ مهيب:

- اهدأ يا رفيق بيزدومني! لقد أحزنك موت ميخائيل ألكسندروفيتش، بل ببساطة ميشا بِرلُوز الذي نحبّه جميعاً. ونحن جميعاً نفهم هذا جيداً. أنت بحاجة إلى الهدوء. سيأخذك الرفاق إلى الفراش الآن لتغفو وتتمالك نفسك. . .

قاطعه إيفان مكشّراً:

- هل تفهم أنّه يجب القبض على البروفيسور؟ وأنت تداهنني بحماقاتك! أبله!

- أرجو عفوك يا رفيق بيزدومني،- أجاب الوجه محمرّاً وتراجع القهقرى نادماً على تدخّله في هذه القضية.

- لا، قد أعذر أيّاً كان إلاّك،- قال إيفان نيكولاييفيتش بكرهٍ بارد.

عوَّج التشنّج وجه إيفان، ونقل الشمعة بسرعة من يده اليمنى إلى اليسرى، ولوّح بيده على اتِّساعها وصفع الوجه المتعاطف على أذنه.

حينها فطنوا إلى الانقضاض على إيفان... وانقضّوا. انطفأت الشمعة، والنظّارة التي انزلقت عن وجهه داستها الأقدام فوراً. أطلق إيفان صرخةً قتالية مرعبة سُمعت - ويا للفضيحة- حتى في الشارع، وبدأ يدافع عن نفسه. قرقعت الآنية المتساقطة عن الطاولات، وصرخت النساء.

بينما كان النُدُل يوثقون الشاعر بالمناشف كان يجري حديث بين قبطان السفينة والبوّاب. سأل القبطان ببرود:

- ألم ترَ أنه كان يرتدي سروالاً داخلياً؟

أجاب البوّاب وهو يرتعد:

- لكن يا أرشيبالد أرشيبالدوفيتش، كيف كان بإمكاني منعه من الدخول وهو عضو في «ماسوليت»؟

- ألم ترَ أنه كان يرتدي سروالاً داخلياً؟ - كرّر القرصان سؤاله.

فقال البوّاب محمرّاً:

- أرجو عفوك يا أرشيبالد أرشيبالدوفيتش، ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ فأنا نفسي أدرك أنّ هناك سيدات يجلسن في الشرفة.

- لا شأن للنساء هنا، فالأمر سيّان لهنّ،- أجاب القرصان وهو

يحرق، حرفياً، البوّاب بعينيه، - لكنه ليس سيّان للشرطة! لا يمكن لشخص أن يسير في ملابس داخلية في شوارع موسكو إلاّ في حالة واحدة فقط، إذا كان بمرافقة الشرطة، وإلى مكانٍ واحد فقط، هو قسم الشرطة! وعليك أن تعرف، إذا كنت بوّاباً حقاً، أنّ عليك البدء بالصفير، دون أن تضيّع ثانية واحدة، إذا رأيت شخصاً كهذا. هل تسمع؟

سمع البوّاب، الذي اختلّ عقله، دويّاً وصوت تكسّر الآنية وصرخات النساء من الشرفة. سأله القرصان:

- ماذا أفعل بك لقاء فعلتك هذه؟

اتّخذ جلد البوّاب لون مصابٍ بالتيفوس، وماتت عيناه. تهيّأ له أنّ الشعر الأسود، المفروق في الوقت الراهن، يغطّيه حريرٌ مشتعل. اختفت الصديرية والفراك وبان خلف الحزام مقبض مسدس. تخيّل البوّاب نفسه مشنوقاً على ظهر سفينة، ورأى، بأمّ عينيه، لسانه المتدلّي ورأسه الميت مائلاً على كتفه، بل حتى إنه سمع صوت ارتطام الأمواج بجوانب السفينة. ارتخت ركبتا البوّاب، لكنّ القرصان، في هذه اللحظة، شعر بالشفقة تجاهه وأخمد نظرته الحادّة.

- اسمع يا نيكولاي! هذه آخر مرة. لا نحتاج إلى بوّابين مثلك في المطعم، ولو عملوا دون مقابل. اذهب واعمل حارس كنيسة. - بعد قوله هذا أمره القبطان بدقّة ووضوح وسرعة: - استدعِ بانتيلي من البوفيه، وشرطياً. المحضر. سيارة. إلى مصحّ الأمراض النفسية. - وأضاف: - هيا اِصفر!

بعد ربع ساعة رأى الجمهور المذهول تماماً، وليس الذي في المطعم فقط بل وفي الشارع ونوافذ البيوت كذلك، والذي خرج إلى حديقة المطعم، كيف حمل بانتيلي والشرطي والنادل والشاعر روخين

شاباً ملفوفاً في قماط، كدمية، وأخرجوه من بوابة غريبوييدوف، وهو يسكب الدموع ويبصق جاهداً أن تصيب بصقته روخين بالذات، ويصرخ غاصّاً بدموعه:

- أيها الوغد!

أدار سائق الشاحنة المحرّك بوجهٍ يتّقد غيظاً. وإلى جواره كان حوذيٌّ يهيّج الجواد، سائطاً إياه بأعنّة ليلكية اللون، ويصرخ:

- ها أنا أنقل المجانين على جواد سباق...

كان الحشد يهدر من كلّ الجهات، مناقشاً هذا الحدث الذي لم يُرَ له مثيل من قبل. باختصار: حدثت مشاحنة خنزيرية شنيعة وشائنة أثارت فتنةً، ولم تنتهِ إلاّ بعد أن ابتعدت الشاحنة عن بوابة «غريبوييدوف» حاملةً المسكين إيفان نيكولاييفيتش والشرطي وبانتيلي وروخين.

الفصل السادس

شيزوفرينيا، كما قيل

حين دخل شخصٌ حادّ اللحية يرتدي رداءً أبيض قسمَ الاستقبال في عيادة الأمراض النفسية الشهيرة، التي أُنهي بناؤها منذ أمدٍ قريب على ضفة النهر في ضواحي موسكو، كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف صباحاً. كان الممرضون الثلاثة لا يرفعون أعينهم عن إيفان نيكولاييفيتش الجالس على الأريكة. وكان الشاعر روخين، البالغ الاضطراب، هنا أيضاً. كانت المناشف التي شُدَّ بها وثاق إيفان نيكولاييفيتش مكوّمة على الأريكة ذاتها، وكانت يداه ورجلاه طليقة.

حين رأى روخين الشخص الذي دخل شحب لونه وسعل وقال في وجل:

- مرحباً دكتور.

انحنى الدكتور لروخين لكنه لم ينظر إليه بل إلى إيفان نيكولاييفيتش. كان إيفان جالساً دون حراك تماماً غاضباً مقطّب الحاجبين، بل حتى إنه لم يحرّك ساكناً عند دخول الطبيب.

قال روخين هامساً خفيةً، لسببٍ ما، وهو يرمق إيفان نيكولاييفيتش في فزع:

- هاك يا دكتور، الشاعر المعروف إيفان بيزدومني... كيف أقول لك... نخشى أنه مصاب بهذيان السُكارى...

سأل الدكتور من بين أسنانه:

- هل شرب الكثير؟

- لا، لقد شرب لكن ليس إلى درجة...

- هل أمسك بجرذان أو صراصير أو كلاب سائبة؟

أجاب روخين وهو يرتجف:

- كلا، فقد رأيته البارحة واليوم صباحاً، وكان بصحة تامة...

- ولِمَ هو باللباس الداخلي؟ أأخذتموه من فراشه؟

- بل جاء إلى المطعم بهذا المظهر...

فقال الدكتور بارتياحٍ كبير:

- آها... آها... ولماذا هذه الخدوش؟ هل تعارك مع أحدهم؟

- لقد سقط عن السياج، وبعد ذلك ضرب أحدهم في المطعم... ثم ضرب شخصاً آخر...

- هكذا إذاً، هكذا إذاً - قال الدكتور، ثم استدار نحو إيفان وأضاف: - مرحباً!

- سلام أيها المؤذي! - أجاب إيفان حانقاً وبصوتٍ عالٍ.

ارتبك روخين إلى درجة أنه لم يجرؤ على رفع عينيه إلى الدكتور المهذّب. لكنّ الدكتور لم يشعر بأيّ استياء، بل خلع نظّارته بحركة بارعة مألوفة، ورفع صدريته، ووضع نظارته في الجيب الخلفي لبنطاله، وبعد ذلك سأل إيفان:

- كم عمرك؟

- اذهبوا عني إلى الشيطان بالله عليكم! - صرخ إيفان بفظاظة وأدار ظهره.

- لماذا غضبت؟ هل قلت ما يزعجك؟

أخذ إيفان يقول مهتاجاً:

- عمري ثلاث وعشرون سنة، ولسوف أرفع شكوى ضدكم جميعاً، وخاصةً أنت يا بيضة القمل! - خاصّاً روخين وحده بهذه العبارة.

- ومِمَّ تريد أن تشكو؟

أجاب إيفان بغضب:

- من أني، أنا الإنسان السليم، اختُطفت وزُجّ بي عنوةً في مستشفى المجانين!

هنا أمعن روخين النظر في إيفان وشحب لونه: لم يكن هناك أيّ جنون قطعاً في عينيه، فقد أصبحتا صافيتين، كما كانتا من قبل، بعد أن كانتا كدرتين في «غريبوييدوف».

فكّر روخين فزِعاً: «يا إلهي! إنه سويّ تماماً. يا له من سخف! لماذا جررناه إلى هنا إذن؟ إنه سويّ... سويّ... غير أنّ وجهه مخدوش...»

جلس الطبيب على كرسي أبيض بلا مساند وأخذ يقول بصوتٍ هادئ:

- لست في مستشفى المجانين بل في مصحّ، ولن يمنعك أحد من المغادرة إن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك.

رمقه إيفان مواربةً وبارتياب لكنه، رغم ذلك، غمغم قائلاً:

- الحمد لله! أخيراً وُجد شخص طبيعي واحد على الأقل بين هؤلاء البلهاء الذين أولهم ساشكا الغبي العديم الموهبة!

سأل الطبيب مستفسراً:

- من يكون ساشكا العديم الموهبة هذا؟

أشار إيفان إلى روخين بإصبعه الوسخة وأجاب:

- ها هو، روخين!

انفجر روخين ساخطاً وفكّر بمرارة: «هذا بدلاً من أن يشكرني على تعاطفي معه! هذه دناءة حقاً!»

قال إيفان نيكولاييفيتش الذي من الجلي أنه خطر له أن يفضح روخين:

- نفسيته نفسية إقطاعي نموذجي، وفضلاً عن أنه إقطاعي فإنه يتقنّع جاهداً بقناع بروليتاري. انظروا إلى سحنته الكئيبة وقارنوها بقصائده الرنّانة التي ألّفها بمناسبة الأول من أيار! هيء هيء هيء... «ارتفعي!» و«اخفقي!»... انظروا إلى ما في سريرته... إلى ما يقوله في سرّه هناك... ولسوف تُدهشون! - وضحك إيفان نيكولاييفيتش ضحكةً بمنتهى الشرّ.

كان روخين يتنفّس بصعوبة، وقد احمرّ لونه، ولم يكن يفكّر سوى بأنه قد أدفأ أفعى في «عبّه»، وأنه تعاطف مع من تبيّن - بالتجربة - أنه عدوٌّ لدود. والأهم أنه لم يكن قادراً على عمل شيء: أيتشاجر مع مريض نفسيّ؟!

سأل الطبيب الذي استمع إلى اتهامات بيزدومني باهتمام:

- ولماذا أحضروك، أنت بالذات، إلينا؟

- عليهم اللعنة، هؤلاء البلهاء! أمسكوا بي وأوثقوني بأسمالٍ ما وجرّوني إلى الشاحنة!

- اسمح لي بسؤالك: لماذا ذهبت إلى المطعم وأنت باللباس الداخلي فقط؟

- ليس هناك ما يثير الدهشة في ذلك. - أجاب إيفان - فقد ذهبت للسباحة في نهر موسكو فسرقوا ملابسي وأبقوا لي هذه النفاية! فهل أتجول في موسكو عارياً؟ لذا ارتديت ما توفّر لأني كنت مستعجلاً إلى المطعم... إلى «غريبوييدوف».

نظر الطبيب متسائلاً إلى روخين الذين غمغم في تجهّم:

- إنه اسم المطعم.

فقال الطبيب:

- آها، ولِمَ كنت مستعجلاً؟ هل كان لديك لقاء عمل؟

- للقبض على المستشار. - أجاب إيفان نيكولاييفيتش وتلفّت حوله بقلق.

- أي مستشار؟

- هل تعرف بِرلُوز؟ - سأله إيفان بنبرة ذات دلالة.

- أهو... الموسيقي؟

امتعض إيفان وقال:

- ما شأن الموسيقي هنا؟ آخ، نعم، لا ليس الموسيقي! إنه سميّ ميشا بِرلُوز!

لم يكن روخين راغباً في الحديث لكن توجّب عليه أن يشرح فقال:

- اليوم مساءً صدم الترام مدير «ماسوليت» بِرلُوز في «بتريرشيه».

- لا تهرف بما لا تعرف! - قال إيفان ساخطاً على روخين - أنا، وليس أنت، من كان حاضراً في أثناء ذلك! لقد دبّر سقوطه تحت الترام عمداً!

- هل دفعه؟

صرخ إيفان حانقاً من التشوش السائد:

- ما شأن «الدفع» هنا؟ أمثاله لا يحتاجون حتى إلى «الدفع»! باستطاعته القيام بأشياء، والعياذ بالله! كان يعلم مسبقاً أنّ بِرلُوز سوف يسقط تحت الترام!

- وهل رأى أحد سواك هذا المستشار؟

- هذه هي المصيبة، لم يره سوانا، أنا وبِرلُوز.

- طيّب. وما الإجراءات التي اتّخذتها للقبض على هذا القاتل؟ - وهنا استدار الطبيب وأومأ إلى امرأة ترتدي صدرية كانت تجلس إلى طاولة جانباً، فسحبت المرأة ورقةً وبدأت تملأ الفراغات في الجداول.

- اتّخذت الإجراءات التالية: أخذت شمعة من المطبخ...

- هذه؟ - سأل الطبيب مشيراً إلى شمعة مكسورة موضوعة على الطاولة بجوار أيقونة أمام المرأة.

- هذه هي بالذات و...

- والأيقونة لماذا؟

- نعم، الأيقونة... - احمرّ إيفان - لقد أخافته الأيقونة أكثر من أي شيء آخر، - وأشار بإصبعه مرةً أخرى نحو روخين، - لكنّ القضية هي أنّ المستشار، لنقلها بصراحة... يخالط قوى شريرة... لذا لا يمكن الإمساك به.

لسببٍ ما اتّخذ الممرضون وضعية الاستعداد ولم يعودوا يحوّلون أعينهم عن إيفان الذي واصل كلامه قائلاً:

- أجل، إنه يخالط قوى شريرة! هذه حقيقة مؤكّدة، فقد تحدّث إلى بيلاطس شخصياً. لا داعي للنظر إلي على هذا النحو! فأنا أقول الحقيقة! فقد رأى كلّ شيء: الشرفة وأشجار النخيل. قصارى القول: كان عند بيلاطس، وأنا أضمن صحة ذلك.

- طيب، طيب...

- وهكذا، يبدو أنني علّقت الأيقونة على صدري وركضت...

فجأةً دقّت الساعة دقّتين. نهض إيفان عن الأريكة وصاح:

- إي هيه! إنها الساعة الثانية وأنا أضيّع وقتي معكم! عفواً، أين الهاتف؟

فأمر الطبيب الممرضين:

- اسمحوا له ببلوغ الهاتف.

اختطف إيفان السماعة، وفي هذه الأثناء سألت المرأة روخين بصوتٍ خافت:

- هل هو متزوّج؟

- بل أعزب. - أجاب روخين فِزعاً.

- عضو نقابة؟

- نعم.

صرخ إيفان عبر سمّاعة الهاتف:

- الشرطة؟ الشرطة؟ أيها الرفيق المناوب، مُرْ حالاً بإرسال خمس دراجات نارية مسلّحة برشاشات للقبض على المستشار الأجنبي. ماذا؟ تعالوا لأخذي وسأذهب معكم بنفسي. يكلّمك الشاعر بيزدومني من مستشفى المجانين... ما عنوانكم؟ - سأل بيزدومني الطبيب هامساً واضعاً كفّه على السمّاعة ثم صرخ عبر السمّاعة ثانيةً: - هل تسمعني؟ ألو!... يا لقلّة الأدب! - زعق إيفان فجأةً وقذف السمّاعة ضارباً إياها بالجدار، ثم استدار نحو الطبيب فمدّ له يده مصافحاً وقال بجفاء: «إلى اللقاء!» وهمّ بالمغادرة. فقال له الطبيب وهو يحدّق في عينيه:

- عفواً، إلى أين تريد الذهاب في عتمة الليل، وبالملابس الداخلية؟... إنك لست على ما يرام، ابقَ عندنا!

- دعوني، - قال إيفان للممرضين المتجمّعين عند الباب ثم صرخ بصوتٍ مرعب: - هل ستدعونني أمرّ أم لا؟

ارتعد روخين، وضغطت المرأة على زرّ في المنضدة فقفزت إلى سطحها الزجاجي علبة لامعة وأمبولة ملحومة. نظر إيفان حوله بوحشية كمن وقع في فخّ وقال:

- هكذا إذاً! لا بأس، الوداع... - وقذف بنفسه عبر ستائر

النافذة ورأسه إلى الأمام. دوّت ضربة، لكنّ الزجاج المقاوم للصدمات خلف الستارة تحمّلها، وفي طرفة عين كان إيفان يتخبّط بين أيدي الممرضين. نخر وحاول أن يعضّ، وصرخ:

- يا للزجاج المركّب عندكم أيها الملاعين!... دعوني! دعوني أقول لكم!

لمعت الحقنة في يديّ الطبيب وشقّت المرأة كمّ قميص إيفان البالي بحركة واحدة وأمسكت بيده بقوة ليست أنثوية. فاحت رائحة الإثير، وخارت قوى إيفان بين أيدي الأشخاص الأربعة، فاستغلّ الطبيب الحاذق هذه اللحظة وغرز الإبرة في يد إيفان. ظلوا ممسكين بإيفان بضع ثوانٍ أخرى ثم أضجعوه على الأريكة.

- مجرمون! - صرخ إيفان ووثب عن الأريكة لكنهم أعادوه إليها ثانيةً، وما إن تركوه حتى وثب مرةً أخرى إلا أنه عاود الجلوس من تلقاء ذاته. لاذ بالصمت، ناظراً حوله بوحشية، ثم تثاءب فجأةً وابتسم بحقد.

- حبستموني رغم كلّ شيء، - قال إيفان وتثاءب مرةً أخرى، ثم استلقى فجأةً ووضع رأسه على الوسادة مسنداً خدّه على قبضة يده كالأطفال وغمغم بصوتٍ ناعس ودون ضغينة: - ليكن... جيد جداً... أنتم أنفسكم ستدفعون ثمن هذا كله. لقد أنذرتكم، فافعلوا ما بدا لكم! أما الآن فإن أكثر ما يعنيني هو بيلاطس البنطي... بيلاطس... - وهنا أغمض عينيه.

أمر الطبيب وهو يضع نظارته:

- حمّام، الغرفة المفردة مئة وسبع عشرة مع حراسة.

جفل روخين ثانيةً.. فقد انفتح بابان أبيضان دون صوت، وشوهد خلفهما رواق مضاء بمصابيح ليلية زرقاء. دخل من الرواق سرير على

عجلات مطاطية، أُضجع إيفان الهامد عليه، ثم خرج السرير إلى الرواق وانغلق الباب وراءه.

سأل روخين المذهول هامساً:

- هل هذا يعني أنه مريض فعلاً يا دكتور؟

- أوه، أجل. - أجاب الطبيب.

- وما به؟ - سأل روخين بوجل.

رنا الطبيب المتعب إلى روخين وأجاب بفتور:

- اضطراب في الحركة والكلام... هذيان... حالته صعبة حسبما يبدو... الأرجح شيزوفرينيا. ناهيك عن إدمان الكحول...

لم يفهم روخين شيئاً من أقوال الطبيب باستثناء أنّ أحوال إيفان نيكولاييفيتش سيئة كما يبدو، فتنهّد وسأل:

- وما له يتحدث عن مستشارٍ ما طوال الوقت؟

- لعله رأى أحداً أصاب مخيّلته المشوّشة بالذهول، أو لعله يهذي...

بعد بضع دقائق عادت الشاحنة بروخين إلى موسكو. انبلج الصبح وأضواء مصابيح «الكورنيش»، التي لم تكن قد أُطفئت بعد، لم يعد لها لزوم وكانت مزعجة. كان السائق حانقاً لأنه أهدر ليلته سدى، فانطلق بالسيارة بأقصى سرعته، فكانت تجنح عند المنعطفات.

وها هي الغابة تهبط منحدرةً لتبقى في مكانٍ في الخلف، والنهر يبتعد جانباً، وتندفع نحو الشاحنة أشياء شتى: أسيجة مع أكشاك حراسة وأكوام حطب، أعمدة شاهقة ذات صوارٍ رُكِّبت عليها بكرات، أكوام حصى، قطعة أرض خُدِّدت فيها أقنية. باختصار: كان هناك شعور بأنّ موسكو باتت على مرمى حجر، خلف المنعطف تماماً، تكاد ترتمي عليك وتطوّقك بذراعيها.

كان روخين يهتزّ ويترجرج، وكانت الجِذْمة التي يجلس عليها تحاول الانزلاق من تحته مراراً. كانت مناشف المطعم، التي ألقى بها الشرطي وبانتيلي، اللذان عادا قبله بالحافلة الكهربائية، إلى صندوق الشاحنة، تتطاير عبر الصندوق برمّته. وقد خطر لروخين أن يحاول لملمتها لكنه ركلها بقدمة وكفّ عن النظر إليها، وهو يهمس مغتاظاً لسببٍ ما: «فلتذهب إلى الشيطان! ما لي، حقاً، أدور حول نفسي كالأحمق؟»

كانت حالة روخين النفسية مرعبة. بات واضحاً أنّ زيارة «بيت الأحزان»[1] قد ترك فيه أثراً شديد الوطأة. حاول روخين أن يفهم ما الذي يعذّبه: هل هو الرواق، بمصابيحه الزرق، الذي علق بذاكرته؟ أم فكرة أن ما مصيبة في الدنيا أسوأ من فقدان العقل؟ نعم، نعم بالطبع، وهذا أيضاً. لكنّ هذا معروف. لا، هناك أمر آخر، فما هو؟ إنها الإهانة، هذه هي. أجل، أجل، الكلمات المهينة التي رماها بيزدومني في وجهه مباشرةً. والمصيبة ليست في أنها مهينة بل في أنها تشتمل على الحقيقة.

لم يعد الشاعر يتلفّت حوله بل راح يغمغم بكلامٍ ما، محدِّقاً في الأرضية القذرة الرجراجة، ويدمدم مقرِّعاً نفسه.

نعم، الشعر... إنه في الثانية والثلاثين! بالفعل، ماذا لاحقاً؟... ولاحقاً سوف يكتب بضع قصائد في السنة. - حتى الشيخوخة؟ - نعم، حتى الشيخوخة. وماذا ستحمل إليه هذه القصائد؟ المجد؟ «يا للهراء! لا تخدع نفسك على الأقل، فمن يكتب

(١) «بيت الأحزان»: مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، أو «مستفى المجانين».

قصائد رديئة لن يبلغ المجد أبداً. بِمَ هي رديئة؟ لقد قال الحقيقة، الحقيقة! فأنا لا أؤمن بشيء مما كتبت!...» - كان روخين يقول لنفسه بلا رحمة.

راح الشاعر يتمايل، مسمَّماً بنوبة انهيار عصبي، وقد كفّت أرضية الشاحنة تحته عن الاهتزاز. رفع روخين رأسه فرأى أنهم قد أصبحوا في موسكو، بل وكان الفجر قد انبلج، وكانت الغيوم تشعّ ذهباً، ولاحظ أنّ شاحنته تقف في طابور من السيارات الأخرى عند المنعطف المؤدي إلى البولفار، ورأى على مقربة منه شخصاً معدنياً ينتصب واقفاً على قاعدة، وقد أحنى رأسه قليلاً، وينظر إلى البولفار بلامبالاة.

انبثقت أفكار غريبة في رأس الشاعر المريض. وهنا نهض روخين واقفاً بكامل قامته في صندوق الشاحنة ورفع يده مهاجماً، لسببٍ ما، الشخص الحديدي الذي لم يمسّ أحداً بسوء، قائلاً: «هاكم مثالٌ عن حظٍّ حقيقي... أيّاً كانت الخطوة التي يخطوها في حياته، ومهما حدث له، فإنّ كل شيء كان يجري في صالحه ويزيد من مجده! لكن ماذا فعل؟ لست أفهم... هل هناك أي شيء مميز في هذه الكلمات: «عاصفةٌ في عتمة الظلام...»؟ لست أفهم!... حالفه الحظ، حالفه الحظ! - قال روخين مستنتجاً بصورة لاذعة فجأةً، وشعر أنّ الشاحنة أخذت ترتجّ، - أطلق، أطلق عليه النار ذاك الحارس الأبيض وهشّم فخذه فضمن له الخلود...»

تحرّك الطابور، وبعد دقيقتين لا أكثر دخل الشاعر، المريض تماماً بل والهرِم، شرفة «غريبوييدوف». كانت الشرفة قد أضحت خالية، وفي الزاوية كانت شِلّة ما تنهي احتساء مشروباتها، وفي وسطها كان عريف حفلات يعرفه يترنّح معتمراً قبّعةً وبيده كأسٍ من نبيذ «أبراو».

استقبل أرشيبالد أرشيبالدوفيتش، بترحابٍ كبير، روخين المثقل بالمناشف اللعينة التي تخلّص منها في الحال. ولولا تعرّض روخين لذلك العذاب المبرّح كله في العيادة والشاحنة لربما كان استمتع برواية كل ما جرى في العيادة، مزوّقاً روايته بتفاصيل مختلفة. إلاّ أنه لم يكن في وارد ذلك الآن، فضلاً عن أنه الآن، بعد معاناته في الشاحنة، ومهما كان ضعيف الملاحظة، أمعن النظر بحدّة في وجه القرصان للمرة الأولى وأدرك أنه، في الحقيقة، لا يعبأ بمصير بيزدومني على الإطلاق، ولا يشعر نحوه بأدنى شفقة، على الرغم من أنه لا يطرح أي سؤال حول بيزدومني، بل ويصيح «آي ياي ياي». فكّر روخين بغيظٍ انتحاريٍّ مستهتر: «عفارم عليه! حسناً يفعل!» ثم قطع حديثه بخصوص الفصام وسأل:

- هل لي بفودكا يا أرشيبالد أرشيبالدوفيتش؟...

اصطنع القرصان وجهاً متعاطفاً وهمس:

- فهمت... حالاً... - ولوّح للنادل بيده.

بعد ربع ساعة كان روخين يجلس وحيداً تماماً، منكبّاً على طبق السمك ويعبّ القدح تلو القدح، مدركاً ومقرّاً بعدم إمكانية إصلاح أيّ شيء في حياته وأنّ عليه النسيان وحسب.

لقد أهدر الشاعر ليلته بينما كان الآخرون في وليمة، وقد أدرك الآن استحالة استعادتها، إذ يكفي أن يرفع رأسه إلى السماء حتى يفهم أن الليل قد ولّى دونما رجعة. كان النُّدُل ينزعون الأغطية عن الطاولات على عجل، وكان للقطط المتسكّعة قرب الشرفة مظهرٌ صباحي. لقد انقضّ النهار على الشاعر لا يلوي على شيء.

الفصل السابع

الشقّة الصغيرة الرديئة

لو قيل لستيوبا ليخوديف صبيحة اليوم التالي ما يلي: «سيطلقون عليك النار إذا لم تنهض من الفراش في الحال يا ستيوبا!» لقال بصوتٍ ناعس لا يكاد يُسمع: «أطلقوا عليّ النار، افعلوا ما بدا لكم، لكني لن أنهض».

وليت الأمر كان يتوقّف على النهوض فقط، إذ بدا له أنه لا يستطيع فتح عينيه لأنه ما إن يفعل ذلك حتى يومض البرق ويمزّق رأسه أشلاء. كان جرسٌ ثقيل يطنّ في رأسه وتطوف بقعٌ بنيّة خضراء بين تفاحتي عينيه وأجفانه المغمضة، وكان، إضافةً إلى هذا كله، يشعر بالغثيان، وبدا له أنّ لهذا الغثيان صلةً بأصوات حاكٍ ملحاحٍ ما.

حاول ستيوبا أن يتذكّر لكنه لم يتذكّر سوى أنه، البارحة على ما يبدو، وفي مكانٍ يجهله، كان يحاول تقبيل سيدةٍ ما، وبيده منديل، حيث وعدها بزيارتها في بيتها ظهيرة اليوم التالي تماماً. وقد رفضت السيدة ذلك قائلةً: «لا، لا، لن أكون في البيت!» لكنّ ستيوبا أصرّ على موقفه قائلاً: «لكني، رغم ذلك، سآتي!».

لكن من تكون تلك السيدة، وكم الساعة الآن، وأيّ يوم في الشهر هذا اليوم، وأي شهر الآن، هذا ما لم يكن ستيوبا يعرفه على الإطلاق. والأسوأ من هذا هو أنه كان عاجزاً عن معرفة مكان

تواجده، فحاول أن يتبيّن النقطة الأخيرة على الأقل، لذا فتح جفني عينه اليسرى الملتصقين. كان هناك ضوء باهت في الغرفة شبه المعتمة. أخيراً تعرّف ستيوبا المرآة القائمة فأدرك أنه مستلقٍ في سريره، أي في سرير زوجة الصائغ السابقة، في غرفة النوم. وفي تلك اللحظة أصابته ضربة قوية على رأسه بحيث أغمض عينيه وراح يتأوه.

دعونا نوضح الأمر: استيقظ ستيوبا ليخودييف، مدير مسرح «فاريتيه»، صباحاً في منزله، في نفس الشقة التي كان يشغلها مناصفةً مع الراحل بِرلُوز، والتي تقع في مبنى كبير مؤلَّف من ستة طوابق، وتطلّ نوافذها على شارع «سادوفايا».

لا بدّ من القول إنّ الشقة رقم (٥) هذه تتمتع، منذ زمنٍ بعيد، بسمعةٍ إن لم تكن سيئة فغريبة في كل الأحوال. فحتى قبل سنتين كانت مالكتها هي أرملة الصائغ دي فوجيرييه، وكانت آنّا فرانسيفنا دي فوجيرييه امرأةً محترمة وعملية جداً في الخمسين من عمرها، وكانت تؤجّر ثلاثاً من الغرف الخمس لمستأجرين اثنين: كانت كنية الأول بيلوموت، على ما يبدو، بينما فُقدت كنية الثاني.

وقبل سنتين بدأت أحداث لا تفسير لها تجري في الشقة: أخذ الناس يختفون من الشقّة دون أن يتركوا أثراً.

مرةً، في يوم عطلة، حضر شرطي إلى الشقة واستدعى المستأجر الثاني (الذي فُقدت كنيته) إلى الردهة وقال له إنّ عليه المرور على قسم الشرطة لدقيقة كي يوقّع على ورقةٍ ما. فأمر المستأجر خادمة آنّا مرانتسيفنا القديمة المخلصة أنفيسا، في حال اتّصل به أحد، أن تقول إنه سيعود خلال عشر دقائق، وغادر برفقة الشرطي اللبق الذي كان يرتدي قفازين أبيضين. إلا أنه لم يعد بعد عشر دقائق، بل لم يعد على الإطلاق. وأغرب ما في الأمر أنّ الشرطي أيضاً اختفى معه، كما تبيّن.

أنفيسا التقية، أو - لنقلها بصراحة - المؤمنة بالخرافات، أعلنت مباشرةً لآنّا فرانتسيفنا القلقة جداً أنّ هذا سحر، وأنها تعرف جيداً من خطف المستأجر والشرطي، لكنها لن تقول اسمه في الليل. وكما هو معروف، ما إن يبدأ السحر حتى لا يعود هناك ما يوقفه.

لا يمكن وصف جزع وهلع مدام بيلوموت. لكن هيهات، لا هذا ولا ذاك استمرّ طويلاً. ففي الليلة ذاتها، وعند عودتها برفقة أنفيسا من المنزل الريفي الذي سافرت إليه على عجل لسببٍ ما، لم تجد آنّا فرانتسيفنا المواطنة بيلوموت في الشقة. وهذا ليس كل شيء، فقد كان بابا الغرفتين اللتين كان الزوجان بيلوموت يشغلانهما مختومين.

مرّ يومان على نحوٍ ما، وفي اليوم الثالث سافرت آنّا فرانتسيفنا، التي عانت الأرق طوال هذا الوقت، إلى المنزل الريفي، مرةً أخرى، على عجالة... هل هناك حاجة للقول إنها لم تعد ثانيةً!؟

ذرفت أنفيسا، التي ظلّت بمفردها، دموعاً غزيرة ثم أوت إلى فراشها في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. لا أحد يعلم ماذا حدث لها بعد ذلك، لكنّ سكان الشقق الأخرى قالوا إنهم كانوا يسمعون أصوات طَرْقات طوال الليل في الشقة رقم (٥)، وإنّ المصابيح الكهربائية ظلّت مضاءة حتى الصباح. وفي الصباح تبيّن أنّ أنفيسا مفقودة!

ظلّ الناس يردّدون لأمدٍ طويل شتى الأساطير عن هؤلاء المختفين وعن الشقة الملعونة، من قبيل، على سبيل المثال، أنّ أنفيسا الهزيلة والتقية هذه كانت تحمل على صدرها الأعجف خمساً وعشرين ماسة، تخصّ آنّا فرانتسيفنا، في كيسٍ صغير من الشاموا، وأنّ كنوزاً لا تُعدّ ولا تحصى لها شكل تلك الماسات ذاتها ونقوداً ذهبية من العهد القيصري قد عُثر عليها في عنبر الحطب في نفس المنزل الريفي الذي

سافرت إليه آنّا فرانتسيفنا على عجل. . . وروايات من هذا القبيل. إلاّ أننا لا نضمن صحّة ما نجهله.

أيّاً كانت الحال فإنّ الشقة لم تبقَ شاغرة ومختومة سوى أسبوع واحد، إذ انتقل إليها، بعد ذلك، الراحل بِرلُوز وزوجته وستيوبا هذا مع زوجته أيضاً. وطبيعي تماماً أنّ أموراً لا يعلم بها إلا الله بدأت تحدث ما إن استقروا في الشقة، حيث اختفت الزوجتان خلال شهر واحد، لكن ليس دون أثر. فقد زعم الناس أنهم رأوا زوجة بِرلُوز في خاركوف بصحبة معلّم باليه، بينما عُثر على زوجة ستيوبا في بوجيدومكا، حيث تمكّن مدير مسرح «فاريتيه» - حسبما لاكت الألسن - من تأمين غرفة لها، عبر معارفه الذين لا حصر لهم، بشرطٍ واحد هو أن لا تطأ قدماها شارع «سادوفايا» مطلقاً. . .

وإذاً، راح ستيوبا يئنّ. أراد استدعاء الخادمة غرونيا لتأتيه بالبيراميدون لكنه، رغم ذلك، أدرك أن هذه حماقة. . . إذ ليس لدى غرونيا «بيراميدون» بالطبع. حاول مناداة بِرلُوز فأنّ مرتين: «ميشا. . . ميشا. . .»، لكنه لم يتلقَّ جواباً، كما تدركون بأنفسكم. كان الصمت مطبقاً في الشقة.

حرّك ستيوبا أصابع قدميه فلاحظ أنه كان يرقد مرتدياً جوربيه، ومرّ بيده المرتعشة على فخذه ليتأكد ما إذا كان يرتدي بنطاله أم لا، لكنه لم يستطع تحديد ذلك.

أخيراً، حين رأى أنه قد تُرك وحيداً، وأن ما من أحد يهبّ لنجدته، قرر النهوض مهما تطلّب ذلك من جهود خارقة.

فتح ستيوبا أجفانه الملتصقة ببعضها فرأى، منعكساً في المرآة، شكل إنسان أشعث الشعر، ذي وجهٍ منتفخ مغطّى بشعر أسود قصير

وعينين جاحظتين، يرتدي قميصاً متّسخاً له ياقة وربطة عنق ولباساً داخلياً وزوجاً من الجوارب.

بهذه الهيئة رأى ستيوبا نفسه في المرآة، وبجوار المرآة رأى شخصاً غريباً يرتدي ملابس سوداء ويعتمر قبعة أسطوانية سوداء أيضاً.

جلس ستيوبا على السرير وحملق في الغريب قدر استطاعته بعينين محتقنتين بالدم.

خرق الغريبُ الصمتَ قائلاً، بصوتٍ أجشّ غريب وبلكنةٍ غريبة، الكلمات التالية:

- صباح الخير يا ستيبان بوغدانوفيتش البالغ اللطف!

مرّت لحظة صمت بذل ستيوبا بعدها جهداً مهولاً ليقول:

- ماذا تريد؟ - وصُعق هو نفسه إذ لم يتعرّف صوته، فقد لفظ كلمة «ماذا» بصوت «ديسكانت»[1] و«أنت» بصوت «باص»، أما «تريد» فلم يلفظها قط.

ضحك الغريب بمودّة وأخرج ساعة ذهبية كبيرة يزيّن غطاءها مثلثٌ ماسيّ ونقر عليها إحدى عشر مرة، ثم قال:

- إنها الحادية عشرة! مرّت ساعة كاملة وأنا أنتظر استيقاظك، فأنت حدّدت لي أن أكون عندك في العاشرة. . . وهاأنذا!

تلمّس ستيوبا البنطال على الكرسي قرب السرير وقال هامساً: عفواً. . . - وارتدى بنطاله ثم سأل بصوتٍ أبحّ: - قل لي من فضلك، ما هي كنيتك؟

كان ستيوبا يجد صعوبةً في الكلام، فمع كل كلمة يفوه بها كان يشعر بإبرة يغرزها أحدهم في دماغه مسبّباً له ألماً جهنمياً.

(١) ديسكانت: الصوت العالي الحادّ في الغناء الأوبرالي.

ابتسم الشخص المجهول وقال:

- كيف؟ أنسيت كنيتي أيضاً؟

- العفو... - قال ستيوبا بصوتٍ أبحّ، شاعراً أنّ الخُمار يهبه عارضاً جديداً، فقد بدا له أن الأرضية قد غارت إلى مكانٍ ما، وأنه سيهوي، في هذه اللحظة، إلى أعماق الجحيم ورأسه نحو الأسفل.

ابتسم الزائر بدهاء وشرع يقول:

- عزيزي ستيبان بوغدانوفيتش، لن يساعدك أي «بيراميدون» كان. اتّبع القاعدة الحكيمة القديمة: «وداوِها بالتي كانت هي الداء». الشيء الوحيد الذي سيبعث فيك الروح من جديد هو قدحان من الفودكا مع «مازة» حارّة وساخنة.

كان ستيوبا شخصاً ماكراً فأدرك، على الرغم من شدة مرضه، أنّ عليه الاعتراف بكل شيء مادام قد بوغت على هذا النحو، فقال ولا يكاد يحرِّك لسانه:

- بصراحة، لقد شربت قليلاً البارحة...

فقال الزائر وهو ينحّي كرسيه جانباً:

- لا تزد على ذلك!

رأى ستيوبا، وهو يحملق بعينيه، «صينية» صغيرة على الطاولة الصغيرة، وشيئاً ما في الطنجرة، وأخيراً فودكا في الدورق الصغير الذي يعود لزوجة الصائغ. وما أثار استغرابه، بشكل خاص، هو أنّ العرق كان يتصبّب من الدورق جرّاء البرودة، لكنّ هذا كان مفهوماً، فقد كان الدورق موضوعاً في وعاءٍ مليءٍ بالجليد. كانت المائدة معدّة إعداداً نظيفاً ومتقناً.

لم يدع الشخص المجهول لذهن ستيوبا أن يبلغ حدّه الأقصى، فسكب له بلباقة نصف قدح من الفودكا. فصأصأ ستيوبا:

- وأنت؟

- بكلّ سرور!

رفع ستيوبا القدح إلى شفتيه بيدٍ ترتعش، في حين عبّ الغريب قدحه دفعةً واحدة. قال ستيوبا معتصراً الكلمات وهو يمضغ قطعة كافيار:

- وأنت... ألا تتمزمز؟

أجاب المجهول وهو يسكب قدحين آخرين:

- شكراً، أنا لا أتمزمز أبداً.

أُزيل الغطاء عن الطنجرة فتبيّن أنّ فيها نقانق بربّ البندورة.

وها هي الغشاوة اللعينة تنقشع عن عيني ستيوبا وبدأت الكلمات تتوضح له، والأهم أنه تذكّر بضعة أمور، وبالتحديد أنّ الأمر قد حدث بالأمس، في مزرعة كاتب السكيتشات خوستوف، في سخودينا، وقد أخذه خوستوف هذا بنفسه إلى هناك بسيارة أجرة. بل وتذكّر أنهما استأجرا السيارة من عند فندق «ميتروبول»، وأنه كان هناك ممثل ما في حقيبته حاكٍ... أو ربما لم يكن ممثلاً. نعم، نعم، نعم، كان هذا في المزرعة! وتذكّر أيضاً أنّ الكلاب نبحت بسبب هذا الحاكي. إلاّ أن السيدة التي أراد ستيوبا تقبيلها ظلّت مجهولة... الله أعلم من تكون... يبدو أنها تعمل في الإذاعة، وربما لا...

على هذا النحو بدأ يوم أمس ينجلي شيئاً فشيئاً، لكنّ ستيوبا كان مهتماً باليوم أكثر من اهتمامه بالأمس، وخاصةً بظهور هذا الشخص المجهول في غرفة النوم، ومع الفودكا والمازة فوق هذا. ولن يكون أمراً سيئاً جلاء هذه المسألة!

- وإذاً، أرجو أن تكون قد تذكّرت كنيتي الآن!

لكنّ ستيوبا ابتسم بخجل فحسب وهزّ يده في حيرة.

- على كلٍّ! أشعر أنك قد شربت نبيذ «بورتفين» بعد الفودكا! عذراً، هل يجوز القيام بذلك!

فقال ستيوبا مستعطفاً:

- أريد أن أطلب منك إبقاء هذا الأمر سرّاً بيننا.

- أوه، طبعاً، طبعاً! لكنني لا أضمن خوستوف بطبيعة الحال.

- وهل تعرف خوستوف؟

- لقد لمحت هذا الشخص في مكتبك البارحة، لكنّ نظرة خاطفة واحدة إلى وجهه تكفي لكي يدرك المرء أنه وغد مشاكس وانتهازي متزلّف.

«هذا صحيح تماماً» قال ستيوبا في سرّه وقد أذهله هذا الوصف الصحيح الدقيق الموجز لخوستوف.

أجل، أخذ أمسه يتشكّل عبر تلاصق قطعه، لكنّ القلق، رغم ذلك، لم يفارق مدير «فاريتيه». المشكلة أن في أمسه هذا ثقباً أسود كبيراً، فستيوبا لم يرَ هذا الشخص المجهول بالذات في مكتبه بالأمس على الإطلاق.

- البروفيسور في السحر الأسود فولند. - قال الزائر بأهمية، مقدّماً نفسه، حين رأى ما يلقاه ستيوبا من مصاعب، ثم راح يروي كل شيء بالترتيب.

فقد وصل البروفيسور موسكو البارحة، قادماً من خارج البلاد، وجاء إلى ستيوبا مباشرةً واقترح عليه إقامة عروضه المسرحية في مسرح «فاريتيه»، فاتصل بلجنة العروض المسرحية في منطقة موسكو وأعدَّ الترتيبات اللازمة لهذا الأمر (هنا امتقع وجه ستيوبا وأخذت عيناه

تطرفان)، ثم تعاقد مع البروفيسور فولند على تقديم سبعة عروض (فغر ستيوبا فمه)، واتفقا على أن يحضر فولند إليه اليوم في الساعة العاشرة صباحاً لمناقشة التفاصيل... وها هو فولند قد أتى!

عند وصوله استقبلته الخادمة غرونيا التي أوضحت له أنها، هي نفسها، قد وصلت للتو، وأنها خادمة غير مقيمة، وأنّ بِرلُوز غير موجود في البيت، وأنّ على الزائر أن يذهب بنفسه إلى غرفة نوم ستيبان بوغدانوفيتش إذا كان يريد رؤيته، وأنّ ستيبان بوغدانوفيتش ينام بعمق إلى درجة أنها لن تأخذ إيقاظه على عاتقها. وحين رأى الفنان الحال التي عليها ستيبان بوغدانوفيتش أرسل غرونيا إلى أقرب حانوت لشراء الفودكا و«المازة» وإلى الصيدلية لشراء الجليد و...

- اسمح لي بدفع ثمن المشتريات. - حشرج ستيوبا المتهالك وراح يبحث عن محفظته.

- أوه، هذا أمر تافه! - قال الفنان الجوّال رافضاً سماع المزيد.

وهكذا أصبحت الفودكا «والمازة» أمراً مفهوماً، ورغم ذلك كان النظر إلى ستيوبا يثير الشفقة: فهو لم يكن يذكر شيئاً على الإطلاق فيما يخصّ العقد، ويقسم أنه لم يرَ فولند البارحة. صحيح أن خوستوف كان موجوداً، لكن فولند... لا.

طلب ستيوبا بصوتٍ خافت:

- اسمح لي بإلقاء نظرة على العقد.

- تفضّل، تفضّل...

ألقى ستيوبا نظرةً على الورقة، وشعر بالبرد في أوصاله، فكل شيء كان قانونياً: أولاً، توقيع ستيوبا اليدوي الأرعن! والحاشية المائلة في الخلف، التي تجيز منح الفنان عشرة آلاف روبل على الحساب من أصل خمسة وثلاثين ألفاً لقاء سبعة عروض، هي بخط يد

المدير المالي ريمسكي. ناهيكم عن توقيع فولند بأنه قد استلم العشرة آلاف هذه!

«ما هذا الذي يحدث؟!» فكّر ستيوبا التعِس، شاعراً بالدوار. هل بدأت ذاكرته تخونه خيانات مشؤومة؟ لكن، بطبيعة الحال، بعد إبراز العقد بات من غير اللائق إبداء المزيد من الدهشة. سأل ستيوبا الضيف أن يسمح له بالتغيّب لدقيقة، وركض إلى الهاتف في الردهة، مرتدياً جوربيه، كما كانت حاله. وفي طريقه صرخ باتجاه المطبخ:

- غرونيا!

لكنّ أحداً لم يردّ. حينها ألقى نظرة على باب مكتب بِرلُوز، الذي بجوار المدخل، فتسمّر في مكانه، كما يُقال. فقد رأى ختماً كبيراً بالشمع الأحمر مربوطاً إلى مقبض الباب. فزمجر أحدهم في رأس ستيوبا: «أهلاً! هذا ما كان ينقصنا!». وهنا اندفعت أفكار ستيوبا عبر مجريين، لكن، وكما يحدث دائماً أثناء المصائب، في اتجاه واحد، وعموماً الله أعلم إلى أين. بل ويصعب حتى نقل خليط الأفكار في رأس ستيوبا إليكم. فضلاً عن هذا اللعين صاحب البيريه السوداء، مع الفودكا الباردة والعقد غير المعقول، ناهيكم عن الختم على الباب، أي إذا قلتم لأيٍّ كان إن بِرلُوز قد ارتكب جريرةً ما فلن يصدّقكم... طبعاً لن يصدِّق! لكن ها هو الختم، إيه...

وهنا بدأت تتناهب دماغ ستيوبا أفكار تافهة بخصوص المقالة التي - كأنما من باب النكاية - دسّها منذ فترة قريبة لميخائيل ألكسندروفيتش كي ينشرها في المجلة. والمقالة - والكلام بيننا - سخيفة، ولا جدوى منها، وأجرها قليل...

بعد الذكريات المتعلقة بالمقالة مباشرةً، اندفعت إلى ذاكرته ذكرى حديث مريب جرى - حسبما يذكر - في مساء الرابع والعشرين من

نيسان، هنا تماماً، في غرفة الطعام، عندما كان ستيوبا يتناول العشاء مع ميخائيل ألكسندروفيتش. لا يجوز، بالطبع، اعتبار ذاك الحديث مريباً بكل معنى الكلمة (إذ ما كان ستيوبا ليتورّط في حديثٍ كهذا)، لكنّ الحديث دار حول موضوع لا لزوم له. وكان بمقدوري عدم فتح هذا الموضوع على الإطلاق، أيها المواطنون، إذ لا شك أنه كان بالإمكان اعتبار هذا الحديث بمنتهى التفاهة قبل الختم، لكن بعد الختم...

قال ستيوبا في سرّه مغتاظاً: «آخ، بِرلُوز... بِرلُوز. هذا لا يُصدَّق!»

لكن لم يتوجّب على ستيوبا الحزن طويلاً، وأدار رقم هاتف مكتب المدير المالي لمسرح «فاريتيه». كان موقف ستيوبا دقيقاً: أولاً، قد يشعر الأجنبي بالاستياء من أنّ ستيوبا يحاول التأكّد من أقواله بعد أن أراه العقد، فضلاً عن أنّ التحدث إلى المدير المالي كان أمراً صعباً جداً. بالفعل، فأنت لن تسأله: «قل لي، هل أبرمت عقداً مع بروفيسور في السحر الأسود بقيمة خمسة وثلاثين ألف روبل؟» إذ ليس من اللائق طرح هذا السؤال.

- ألو! - تناهى إليه صوت ريمسكي الحادّ المزعج في السمّاعة فشرع ستيوبا يتحدّث بصوتٍ خافت:

- مرحباً غريغوري دانيلوفيتش، معك ليخوديِيف. المسألة أنّ... همم... همم... يجلس عندي هذا الـ... فنان فولند... وبالتالي... أريد أن أسألك: ماذا بشأن أمسية اليوم؟..

ردّ ريمسكي في السمّاعة:

- آه، الساحر؟ ستكون الملصقات جاهزة على الفور.

فقال ستيوبا بصوتٍ واهن:

- آها، إلى اللقاء إذاً...

سأل ريمسكي:

- وهل ستصل قريباً؟

- خلال نصف ساعة، - أجاب ستيوبا ووضع السماعة ثم ضغط على رأسه المحموم بيديه. آخ، يا له من أمر فظيع! ماذا جرى لذاكرتي أيها المواطنون، ها؟

لكن لم يكن لائقاً البقاء في الردهة أكثر من ذلك، وفي الحال وضع ستيوبا خطّة مفادها أن يخفي نسيانه الغريب جداً بشتّى الوسائل، وأن يستعلم من الأجنبي، بدهاء، عمَّ ينوي أن يعرض بالتحديد، اليوم، في مسرح «فاريتيه» المعهود إليه.

حين تحوّل ستيوبا عن جهاز الهاتف رأى بوضوح في المرآة المعلّقة في الردهة، والتي لم تمسحها غرونيا الكسولة منذ مدة طويلة، كائناً غريباً طويل القامة كعودٍ خشبيٍّ، يضع نظارةً أنفية (آه لو كان إيفان نيكولاييفيتش هنا! لكان تعرّف إلى هذا المخلوق في الحال!)، أما صورة الكائن في المرآة فقد اختفت بعد انعكاسها مباشرةً. رنا ستيوبا إلى الردهة باضطراب وهلع فارتعدت أوصاله ثانيةً، فقد مرّ في المرآة قطّ أسود بمنتهى البدانة ثم اختفى مثل الأول.

انخلع قلب ستيوبا وترنّح، فقال لنفسه: «ماذا يحدث؟ هل بدأت أفقد عقلي؟ من أين جاءت هذه التخيّلات؟!» ثم ألقى نظرة على المدخل وصرخ مذعوراً:

- غرونيا! ما هذا القط الذي يتسكّع عندنا؟ من أين جاء؟ ومن هذا الذي معه؟

فأجابه صوت لكنه لم يكن صوت غرونيا بل صوت الضيف من غرفة النوم:

- لا تقلق يا ستيبان بوغدانوفيتش، هذا القط لي. لا تغضب. أما غرونيا فهي ليست في البيت، لقد أرسلتها إلى فارونيج، موطنها، فقد اشتكت بأنك لم تمنحها إجازة منذ فترة طويلة.

كانت هذه الأقوال من المفاجأة والسخف بحيث اعتقد ستيوبا أنه قد أخطأ السمع، فهرع إلى غرفة النوم وهو بمنتهى الاضطراب والهيجان، وتسمّر عند عتبة الباب. وقف شعر رأسه وظهرت على جبينه حبيبات صغيرة من العرق.

لم يكن الضيف بمفرده في غرفة النوم هذه المرّة، بل كان بصحبة اثنين آخرين. فعلى المقعد الثاني كان يجلس نفس الكائن الذي تراءى له في الردهة، وكان الآن مرئيّاً بوضوح: له شاربان كالريش، وإحدى عدستي نظارته الأنفية كانت تلمع في حين لم تكن الثانية موجودة. لكن تبيّن أنّ هناك ما هو أسوأ من ذلك في غرفة النوم. فعلى وسادة زوجة الصائغ كان يستلقي كائن ثالث بوضعية وقحة، هو القط الأسود بالتحديد، وكان يمسك بقدح فودكا بإحدى قائمتيه ويمسك بقائمته الثانية شوكة نجح في أن يغرزها في قطعة فطر مخلل.

بدأ الضوء، الذي كان خافتاً أصلاً في غرفة النوم، يتلاشى في عينيّ ستيوبا، فقال وهو يتمسّك بأسكفة الباب: «على هذا النحو إذاً يفقد الناس عقولهم!».

سأل فولند ستيوبا الذي كانت أسنانه تصطك:

- أرى أنك مندهش قليلاً يا ستيبان بوغدانوفيتش الأعزّ! في حين أن ما من شيء يدعو إلى الدهشة. هذان حاشيتي.

وهنا شرب القط الفودكا فانزلقت يد ستيوبا على أسكفة الباب إلى الأسفل. وأضاف فولند قائلاً:

- والحاشية تحتاج إلى مكان، وبالتالي أحدنا زائد عن الحاجة هنا. ويبدو لي أنّ هذا الشخص الزائد عن الحاجة إنما هو أنت بالتحديد!

فقال الطويل المربّعاتي بصوتٍ كصوت الماعز، متحدّثاً عن ستيوبا بصيغة الجمع:

- إنهم، إنهم، إنهم عموماً باتوا يتصرفون كالخنازير في الآونة الأخيرة. يثملون، يقيمون علاقات مع النساء، عبر استغلال مناصبهم، ولا يقومون بأي عمل. بل إنهم حتى لا يجيدون القيام بأي شيء لأنهم لا يفقهون شيئاً في ما عُهد به إليهم. إنهم يذرون الرماد في عيون رؤسائهم.

وراح القط ينمّ أيضاً وهو يلوك قطعة من الفطر:

- ويستخدمون سيارات الحكومة عبثاً!

وهنا حدث الظهور الرابع والأخير في الشقّة، وذلك عندما كان ستيوبا، المتهاوي كلياً على أرض الغرفة، يخدش أسكفة الباب بيده. فقد خرج من المرآة مباشرةً شخص قصير القامة، عريض المنكبين بصورة غير عادية، يعتمر قبعة سوداء صلبة، ويتدلى من فمه ناب حتى من دونه لم يُرَ لبشاعة وجهه مثيل، وفوق هذا كان شعره أصهب ناريّ اللون.

انخرط هذا القادم الجديد في الحديث مباشرةً، وكانت خنّة صوته تزداد شيئاً فشيئاً:

- عموماً، لا أفهم كيف صار مديراً، فهو يصلح للإدارة بقدر ما أصلح أنا للأسقفية!

فعلّق القط وهو يضع النقانق في صحنه:

- أنت لا تشبه الأسقف يا أزازيلو.

- وهو ما أقوله، - خنّ الأصهب ثم التفت إلى فولند وأردف باحترام: - اسمح لي يا سيدي أن ألقي به من موسكو إلى الشياطين كلها!

هرّ القط فجأةً وقد انتصب وبره:

- بست!!

وحينئذٍ بدأت غرفة النوم تدور حول ستيوبا فاصطدم رأسه بأسكفة الباب، ففكّر وهو يغيب عن الوعي: «إني أموت...»

لكنه لم يمت. فتح عينيه قليلاً فرأى أنه يجلس على شيء حجري، وكان شيء ما يصخب من حوله. وحين فتح عينيه كما ينبغي رأى أنّ ما يهدر هو البحر، بل رأى أكثر من ذلك، فقد كان الموج يتلاطم عند قدميه مباشرةً، وباختصار كان يجلس على حافة حاجز الأمواج، وكان البحر العميق يتلألأ في الأسفل، وفي الجبال خلفه كانت هناك مدينة جميلة.

لم يكن ستيوبا يدري كيف عليه التصرّف في حالات كهذه، فنهض واقفاً على قدميه المرتعشتين وسار بمحاذاة حاجز الأمواج إلى الشاطئ.

على حاجز الأمواج كان يقف شخص ما وكان يدخّن ويبصق في البحر. رمق الشخص ستيوبا بعينين ضاريتين وكفّ عن البصاق. حينها بدر عن ستيوبا التصرّف الغريب التالي: جثا على ركبتيه أمام المدخّن المجهول وقال له:

- أخبرني أرجوك، ما هذه المدينة؟

فقال المدخن الفظّ:

- مهما يكن!

أجاب ستيوبا بصوتٍ أبحّ:

- لستُ ثملاً، أنا مريض، فقد حدث لي أمر ما، أنا مريض... أين أنا؟ ما هذه المدينة؟

- حسناً، يالطا...

تنهّد ستيوبا تنهيدة خافتة وخرّ على جنبه فارتطم رأسه بحجر حاجز الأمواج الساخن.

الفصل الثامن

مبارزة بين البروفيسور والشاعر

في اللحظة نفسها التي غاب فيها ستيوبا عن الوعي في يالطا، أي قرابة الساعة الحادية عشرة ظهراً، عاد إيفان نيكولاييفيتش بيزدومني، الذي استيقظ بعد نومٍ عميق ومديد، إلى وعيه. مرّ بعض الوقت على بيزدومني ليدرك كيفيةَ وصوله إلى هذه الغرفة المجهولة ذات الجدران البيضاء والطاولة الصغيرة المدهشة المصنوعة من معدن لامع والستارة البيضاء التي لا تحجب نور الشمس.

هزّ إيفان رأسه وتيقّن من أنه لا يؤلمه، وتذكّر أنه موجود في مصحّ. جرّت هذه الفكرة وراءها ذكرى مقتل بِرلُوز، لكنّ هذه الذكرى لم تثر لدى إيفان صدمة قوية. فإيفان نيكولاييفيتش أصبح هادئاً أكثر وبدأ ذهنه يستعيد صفاءه شيئاً فشيئاً، بعد أن نال قسطاً وافياً من النوم. ومستلقياً دون حراك لبعض الوقت في سريرٍ ذي نوابض بمنتهى النظافة والنعومة والراحة، رأى إيفان زرّ جرسٍ على مقربةٍ منه. وكعادته في لمس الأشياء دونما حاجة ضغط إيفان على الزرّ. توقّع إيفان سماع رنين جرس أو مجيء أحدهم بعد ضغط الزرّ، لكنّ ما حدث كان شيئاً مختلفاً كلياً، فقد أضاءت في أسفل سرير إيفان أسطوانة معتمة كُتب عليها: «شُرب». توقّفت الأسطوانة قليلاً ثم بدأت تدور إلى أن ظهرت كتابة: «ممرضة». بطبيعة الحال أثارت الأسطوانة الماكرة دهشة إيفان،

وحلّت محل كلمة «ممرضة» عبارة: «استدعوا الطبيب».

لم يدرِ إيفان ماذا يفعل بهذه الأسطوانة تالياً فتمتم «همم...». لكن حينذاك حالفه الحظ عن طريق الصدفة، فقد ضغط الزر ثانيةً على كلمة «ممرضة» فرنّت الأسطوانة رنيناً خافتاً ثم توقفت وانطفأت، ودخلت الغرفة امرأة جذابة مكتنزة ترتدي صدرية بيضاء نظيفة، وقالت لإيفان:

- صباح الخير!

لم يردّ إيفان، فقد اعتبر التحية غير مناسبة في ظروف كهذه. يا لهؤلاء! احتجزوا إنساناً سليماً في مصحّ، وعلاوةً على ذلك يتظاهرون بأن هذا ما يجب القيام به!

في هذه الأثناء رفعت المرأة، دون أن تفقد بشاشة وجهها، الستارة إلى أعلى بأن ضغطت مرة واحدة على أحد الأزرار، فتدفقت الشمس إلى الغرفة عبر شبكة خفيفة واسعة تصل حتى الأرض، وبانت خلف الشبكة شرفة تليها ضفة نهر متعرّج، ولاح على الضفة الأخرى حرش صنوبر بهيج المنظر. دعته المرأة قائلةً:

- لعلّك ترغب في الاستحمام.

وضغطت على الجدار فانفتح وبدا خلفه قسمٌ للاستحمام وغرفة زينة مجهّزة تجهيزاً رائعاً.

رغم أن إيفان كان قد قرر عدم التحدّث إلى المرأة إلاّ أنه لم يتمالك نفسه حين رأى كيف يتدفق الماء بغزارة من الصنبور اللامع، فقال بنبرةٍ ساخرة:

- ياه! كما في «الميتروبول»!

أجابت المرأة باعتزاز:

- أوه لا، فتجهيزات كهذه لا وجود لها حتى في الخارج. يأتي

العلماء والأطباء إلينا خصيصاً لمعاينة عيادتنا، والسيّاح يتواجدون عندنا كلّ يوم.

عند سماعه كلمة «سائح» تذكّر إيفان مستشار الأمس على الفور، فتجهّم ونظر شزراً وقال:

- سيّاح... ما لكم جميعاً تعبدون السيّاح إلى هذه الدرجة! وبالمناسبة، يوجد بينهم أناس شتّى. البارحة، على سبيل المثال، تعرّفت إلى سائح لا أحبّ ولا ألطف!

وكاد أن يبدأ بالحديث عن بيلاطس البنطي لكنه تمالك نفسه مدركاً أنّ المرأة ليست معنية بحكايات كهذه وأنها، في كلّ الأحوال، عاجزة عن مساعدته.

بعد الحمّام مباشرةً أُعطي إيفان نيكولاييفيتش كل ما هو ضروري حتماً للرجل بعد الحمّام: قميصاً مكوياً ولباساً داخلياً وجوربين. وهذا لم يكن كل شيء، إذ فتحت المرأة باب الخزانة وأشارت إلى داخلها وقالت:

- ماذا تريد أن تلبس: رداءً أم بيجامة؟

إيفان، الذي قُيِّد اسمه في هذا المسكن الجديد رغماً عنه، كاد أن يضرب كفّاً بكفّ من عدم تكلّف المرأة لكنه اكتفى بالإشارة بإصبعه صامتاً إلى بيجامة قرمزية اللون مصنوعة من قماش خشن.

بعد ذلك اقتيد إيفان نيكولاييفيتش، عبر رواقٍ خالٍ، إلى مكتب هائل الحجم. ولما كانإيفان قد قرر التعامل مع كل هذا المبنى المجهّز تجهيزاً راقياً بروح فكاهية فقد أطلق عليه في ذهنه اسم «المعمل - المطبخ».

وكان لهذا الاسم ما يبرره. ففي هذا المكتب كانت تنتصب خِزانات كبيرة وأخرى زجاجية صغيرة فيها أدوات لامعة مطلية

بالنيكل، وكانت فيه مقاعد معقّدة التكوين بصورة غير عادية ومصابيح «مدعبلة» لها قبّعات مضيئة وعدد كبير من القوارير وفتائل مصابيح الغاز وأسلاك كهربائية وأدوات لا يعرف أحد على الإطلاق ماهيتها.

في المكتب تولّى ثلاثة أشخاص أمر إيفان، امرأتان ورجل، وكانوا كلهم يرتدون ملابس بيضاء. وأول ما قاموا به هو أنهم اقتادوا إيفان إلى ركن خلف الطاولة بهدف واضح هو أن يستعلموا منه عن أمرٍ ما. بدأ إيفان يفكّر في وضعه. كانت أمامه ثلاثة خيارات، وكان الخيار الأول يغريه كثيراً، وهو أن ينقضّ على هذه المصابيح وعلى هذه البِدع ويقوم فيحطّمها شرّ تحطيم معرباً، على هذا النحو، عن اعتراضه على احتجازه عبثاً. لكنّ إيفان اليوم كان مختلفاً جداً عن إيفان الأمس، وبدا له الخيار الأول مريباً، فقد خشي أن تترسّخ قناعتهم بأنه مجنونٌ هائج. لذا تخلّى عن الخيار الأول. وكان الخيار الثاني أن يبدأ فوراً بِسَرد قصة المستشار وبيلاطس البنطي. لكنّ خبرة الأمس أظهرت له أنهم لا يصدّقون هذه القصة أو يفهمونها بصورة مشوّهة. لذا رفض إيفان هذا الخيار أيضاً، وقرر اللجوء إلى الخيار الثالث، وهو أن يلوذ بفضيلة الصمت.

لكنه لم يتمكّن من تحقيق ذلك بشكلٍ كامل، وتوجّب عليه، رغماً عنه، الردّ على سلسلة كاملة من الأسئلة، وإن بتجهّم وإيجاز.

وقد سألوا إيفان عن كل ما يتعلق بماضيه، بما في ذلك متى وكيف أُصيب بالحمّى القرمزية قبل خمسة عشر عاماً. وبعد أن كتبوا عن إيفان صفحة كاملة قلبوها على الوجه الآخر، وتولّت المرأة التي ترتدي الأبيض استجواب إيفان بخصوص أقاربه. وقد استجوبته مطوّلاً: من مات، متى وممَّ، هل كان يشرب الكحول، هل أُصيب بمرض زهري ما، وما إلى ذلك. وفي الختام طلبوا إليه أن يحدّثهم

عن حادثة الأمس في «بتريرشيه برودي»، لكنهم لم يلحفوا عليه على الإطلاق، كما أنّ الخبر المتعلّق ببيلاطس البنطي لم يثر دهشتهم.

ثمّ عهدت المرأة بإيفان إلى الرجل، وهذا تعامل معه بطريقة مختلفة، فلم يطرح عليه أيّ سؤال. وشرع في قياس حرارته ونبضه وفحص عينيه مسلّطاً عليهما ضوء مصباحٍ ما. ثم جاءت امرأة أخرى لمساعدة الرجل، فقاما بوخز ظهر إيفان بإبرة ما، لكن دون أن يسبّبا له الألم، ورسما على جلد صدره علامات ما بمقبض مطرقة، ونقرا على ركبتيه بالمطرقة الصغيرة ما جعل قدميه تركلان، ووخزا إصبعه وسحبا منها دماً، كما وخزاه في ثنية المرفق، ووضعا حول رُسغَيه سِوارتين من مطّاط...

كان إيفان يضحك في سرّه فحسب ويفكّر في مدى غباء وغرابة ما وصلت إليه الأمور. من كان يظنّ ذلك! كان يريد أن يحذّر الجميع من الخطر الذي يتهدّدهم من قِبل المستشار المجهول، وكان ينوي القبض عليه، ولم يحصل سوى على أن يجد نفسه في مكتب غامض يحكي شتّى الترهات عن عمه فيودور الذي أمضى حياته يثمل في فولوغدا. هذا غباء لا يُطاق!

أخيراً أخلوا سبيل إيفان. أعادوه إلى غرفته ثانيةً، حيث حصل على فنجان قهوة وبيضتين مقليتين وخبز أبيض مع زبدة.

بعد أن أكل وشرب كل ما قُدِّم له قرّر إيفان انتظار الشخص المسؤول في هذه المؤسسة، وأن يحظى من هذا المسؤول بالرعاية والإنصاف.

ولم يطل انتظاره، فبعد فترة وجيزة على إنهائه فطوره فُتح باب غرفة إيفان على حين غرّة ودخل عدد كبير من أناسٍ يرتدون أردية بيضاء يتقدمهم شخص حليق بعناية، على طريقة الفنانين، في الخامسة

والأربعين من العمر، ذو عينين لطيفتين لكنهما نفّاذتان جداً ومسلكٍ مهذّب. وكانت الحاشية كلها تظهر له علامات الانتباه والاحترام لذا جاء دخوله مهيباً جداً. «كأنه بيلاطس البنطي» فكّر إيفان.

أجل، هذا هو الرئيس دون شك. فقد جلس على منضدة صغيرة بينما ظلّ الآخرون واقفين.

قال الرئيس مقدِّماً نفسه لإيفان وهو ينظر إليه بودّ:

- الدكتور سترافينسكي.

- تفضّل يا ألكسندر نيكولاييفيتش. - قال بصوتٍ خفيض شخص مشذّب اللحية، وأعطى الرئيس صفحة إيفان المليئة إلى آخرها.

«عملوا منها قصة!» قال إيفان في سرّه، في حين مرّ الرئيس على الصفحة بعينين اعتادتا ذلك وغمغم: «أوهو، أوهو...» وتبادل مع الذين حوله بضع عبارات بلغة قلّ من يعرفها.

«ويتكلّم اللاتينية كذلك، مثل بيلاطس...» فكّر إيفان في حزن. وهنا سمع كلمة واحدة جعلته يرتعد، وهذه الكلمة كانت «شيزوفرينيا» - يا للهول، ها هو البروفيسور سترافينسكي يلفظ، هنا واليوم، الكلمة التي تفوّه بها الأجنبي اللعين في «بتريرشيه برودي» بالأمس.

قال إيفان في سرّه بقلق: «وكان يعرف هذا أيضاً!!»

يبدو أن رئيس الأطباء كان قد وضع لنفسه قاعدة بأن يوافق كل الذين من حوله، ويُسرّ بكل ما يقولونه، والإعراب عن ذلك بكلمة «رائع، رائع...»

- رائع! - قال سترافينسكي معيداً الورقة إلى أحدهم، ثم توجّه بالكلام إلى إيفان: هل أنت شاعر؟

- نعم، شاعر - أجاب إيفان بوجوم، ولأول مرة شعر فجأةً

بقرف لا تفسير له تجاه الشعر، وأشعاره التي وردت إلى ذاكرته للتو بدت له كريهة لسببٍ ما.

وبدوره سأل سترافينسكي مصعِّراً خدّه:

- هل أنت بروفيسور؟

ردّاً على ذلك أحنى سترافينسكي رأسه بتهذيب في مجاملة، فاستطرد إيفان:

- وهل أنت الرئيس هنا؟

أحنى سترافينسكي رأسه ردّاً على ذلك أيضاً، فقال إيفان نيكولاييفيتش بنبرة ذات دلالة:

- أحتاج إلى التحدّث إليك.

فردّ سترافينسكي:

- لهذا بالتحديد جئت.

بدأ إيفان بالكلام شاعراً أنّ لحظته قد حانت:

- القضية هي أنهم يحسبونني مجنوناً، ولا أحد يريد الإصغاء إليّ!..

فقال سترافينسكي بجدية مطمئناً إياه:

- أوه لا، سوف نصغي إليك باهتمام شديد، ولن نسمح بأن يعدّوك مجنوناً بأيِّ حال من الأحوال.

- فاسمع إذاً: البارحة مساءً التقيت في «بتريرشيه برودي» شخصاً غامضاً، لا أدري إن كان أجنبياً أم لا، كان يعرف بموت بِرلُوز مسبقاً، ورأى بيلاطس البنطي شخصياً.

كانت الحاشية تصغي إلى الشاعر بصمت وسكون. سأل سترافينسكي وهو يحدّق في إيفان بإمعان:

- بيلاطس؟ بيلاطس الذي عاش في عصر يسوع المسيح؟

- هو بعينه.

فقال سترافينسكي:

- آها، وبِرلُوز هذا قُتل تحت عجلات الترام؟

- بالضبط. البارحة في «بتريرشيه» ذبحه الترام على مرأى مني، وكان هذا المواطن الغامض...

- صاحب بيلاطس البنطي؟ - سأل سترافينسكي الذي من الواضح أنه شديد الفطنة.

فأكّد إيفان وهو يتفحّص سترافينسكي:

- هو نفسه، وقال مسبقاً إن آنوشكا قد دلقت زيت عبّاد الشمس... وقد زُلَّت قدم بِرلُوز في ذلك المكان بالذات! أعجبك هذا؟ - سأل إيفان بنبرة ذات دلالة راجياً أن تحدث كلماته تأثيراً كبيراً.

لكنّ هذا التأثير لم يحدث، وببساطة شديدة طرح سترافينسكي السؤال التالي:

- ومن تكون آنوشكا هذه؟

أربك السؤال إيفان قليلاً فتشنّج وجهه وقال في عصبية:

- لا أهمية على الإطلاق لآنوشكا هنا، الله أعلم من تكون. مجرّد حمقاء من شارع «سادوفايا». المهم أنه كان يعلم مسبقاً، هل تفهم، كان يعلم مسبقاً بأمر زيت عبّاد الشمس! هل تفهمني؟

- بشكل ممتاز، - أجاب سترافينسكي بجدية وأضاف وهو يلمس ركبة الشاعر: - لا تقلق، تابع.

- سأتابع، - قال إيفان محاولاً مجاراة نبرة صوت سترافينسكي، ومدركاً، بتجربته المريرة، أنّ الهدوء وحده يمكنه أن يساعده، - هذا الكائن المرعب إذاً، وهو يكذب حين يقول إنه مستشار، يتمتع بقوى

خارقة... مثلاً، تطارده فلا تستطيع اللحاق به. وبرفقته اثنان لا يقلاّن عنه هولاً، لكن على طريقتهما: شخص طويل زجاج نظارته مهشّم، وقطّ هائل الحجم يركب الترام من تلقاء ذاته. - وإذ لم يقاطع أحد إيفان تابع يقول بمزيد من الحرارة والقناعة: - ناهيك عن أنه شخصياً كان موجوداً على الشرفة عند بيلاطس البنطي، وليس هناك أدنى شك في ذلك. فما معنى هذا، هه؟ لا بدّ من اعتقاله فوراً وإلاّ تسبّب بمصائب لا توصف.

سأله سترافينسكي:

- وأنت تسعى إلى أن يتمّ اعتقاله. هل فهمتك بشكل صحيح؟

قال إيفان في سرّه: «إنه ذكي، ولا بدّ من الاعتراف بأنه يصدف وجود أناس أذكياء أحياناً بين المتعلّمين أيضاً. لا يجب إنكار ذلك!» ثم أجاب:

- صحيح تماماً! وكيف لا أسعى إلى اعتقاله، فكّر في هذا بنفسك! في حين أنهم احتجزوني هنا عنوةً، فيبهرون عينيّ بضوء المصباح، ويحمّمونني في الحمّام، ويستجوبونني بخصوص عمي فيودور رغم أنه فارق الحياة منذ أمدٍ بعيد! أطلب إخلاء سبيلي فوراً.

أجاب سترافينسكي:

- هكذا إذاً، رائع، رائع! ها قد اتضح كل شيء. بالفعل، ما الحكمة من احتجاز شخص سليم في المصحّ؟ لا بأس. سوف أخرجك من هنا فوراً إذا قلت لي إنك إنسان سوي. لا أريدك أن تثبت ذلك، بل أن تقوله فحسب. وإذاً، هل أنت شخص سويّ؟

حينئذٍ حلّ صمتٌ مطبق، والمرأة البدينة، التي اعتنت بإيفان في الصباح، راحت تنظر إلى البروفيسور بإجلال، في حين فكّر إيفان ثانيةً: «قطعاً ذكي!».

أُعجب إيفان كثيراً باقتراح البروفيسور غير أنه قطّب حاجبيه وفكّر طويلاً قبل أن يجيب. وأخيراً قال بحزم:

- أنا سويّ.

هتف سترافينسكي بارتياح:

- هذا رائع! وما دام الأمر كذلك فلنناقش الأمر بشكل منطقي، ولنأخذ يوم أمس، - هنا استدار البروفيسور فناولوه ورقة إيفان في الحال. - أثناء بحثك عن الشخص المجهول الذي قدّم نفسه إليك بوصفه من معارف بيلاطس البنطي قمتَ بما يلي: - وراح سترافينسكي يعقف أصابعه الطويلة وهو ينظر إلى الورقة تارةً وإلى إيفان تارةً - علّقت أيقونة على صدرك. هل حدث هذا؟

- أجل، - وافق إيفان عابساً.

- سقطت عن السياج وجرحت وجهك، صحيح؟ ذهبت إلى المطعم وبيدك شمعة مشتعلة، بلباسك الداخلي فقط، وضربت أحدهم في المطعم. فأحضروك إلى هنا مقيّداً. وبعد وصولك إلى هنا اتّصلت بالشرطة وطلبت إليهم إرسال رشّاشات، ثم حاولت القفز من النافذة، صحيح؟ السؤال هو: هل يمكنك الإمساك بأحد واعتقاله عبر التصرّف على هذا النحو؟ وإذا كنت سويّاً فستجيب بنفسك: قطعاً لا. تريد المغادرة؟ تفضّل. لكن اسمح لي بسؤالك: إلى أين ستذهب؟

- إلى الشرطة طبعاً. - أجاب إيفان، لكن ليس بنفس الثقة، فقد أربكته نظرات البروفيسور قليلاً.

- من هنا مباشرةً؟

- نعم.

- دون أن تعرج على شقّتك؟ - سأله سترافينسكي بسرعة.

- لا وقت لذلك! فبينما أدور على الشقق يكون قد أفلت!

- حسناً. وماذا ستقول للشرطة بالدرجة الأولى؟

- سأخبرهم عن بيلاطس البنطي. - أجاب إيفان نيكولايفيتش وغشيت عينيه سحابة قاتمة.

- يا للروعة! - هتف سترافينسكي مغلوباً على أمره، والتفت إلى الرجل الملتحي وأمره: - فيودور سافيليفتش، قم بتخريج المواطن بيزدومني من المستشفى من فضلك. لكن لا تشغلوا هذه الغرفة، ويمكنكم عدم تغيير البياضات، فالمواطن بيزدومني سيعود ثانيةً خلال ساعتين. - ثمّ توجّه إلى الشاعر وقال: - حسناً، لن أتمنى لك التوفيق لأنني لا أؤمن مقدار ذرّة بهذا التوفيق. إلى لقاءٍ قريب! - ثم نهض واقفاً، وتحرّكت حاشيته.

- على أيّ أساس سأعود إلى هنا ثانيةً؟ - سأله إيفان بقلق.

يبدو أنّ سترافينسكي كان يتوقّع هذا السؤال فجلس ثانيةً على الفور وقال:

- على أساس أنك ما إن تذهب إلى الشرطة باللباس الداخلي وتخبرهم أنك رأيت شخصاً كان يعرف بيلاطس البنطي شخصياً فسوف يحضرونك إلى هنا مباشرةً، وستجد نفسك من جديد في هذه الغرفة ذاتها.

- وما شأن اللباس الداخلي هنا؟ - سأل إيفان وهو ينظر حوله في حيرة.

- الأمر الرئيسي هو بيلاطس البنطي. لكن اللباس الداخلي أيضاً. لأننا سننتزع عنك ملابس المستشفى ونعطيك ملابسك. وقد أحضروك إلينا باللباس الداخلي. فضلاً عن أنك لا تنوي التعريج على شقّتك على الرغم من أنني قد ألمحت إلى ذلك. وبعد ذلك يأتي بيلاطس، وها قد انتهى الأمر!

حينئذٍ جرى أمر غريب لإيفان نيكولاييفيتش، فكأنما تزعزعت إرادته وشعر بنفسه ضعيفاً، وأنه بحاجة إلى النصح، فسأل في وجل هذه المرة:

- فما العمل إذاً؟

ردّ سترافينسكي:

- الآن هذا رائع! هذا سؤال بمنتهى المعقولية. الآن سأخبرك بما جرى لك بالضبط. لقد أفزعك أحدهم البارحة وبلبلك بحكاية بيلاطس البنطي وغيرها من الأمور، فانطلقت تتجول في المدينة، متوتراً ومجهد الأعصاب، تتحدّث عن بيلاطس البنطي. وطبيعي تماماً أن يعتبرك الآخرون مجنوناً. الآن تكمن نجاتك في شيء واحد هو السكينة المطلقة، لذا لا بدّ لك من البقاء هنا.

فصاح إيفان متضرّعاً هذه المرة:

- لكن لا بدّ من القبض عليه!

- طيّب، لكن لماذا عليك ملاحقته بنفسك؟ اكتب ورقة تبسط فيها كل شكوكك واتهاماتك ضدّ هذا الشخص. وليس هناك ما هو أسهل من أن ترسل تصريحك إلى حيث ينبغي، وإذا كنا نتعامل مع مجرم، كما تعتقد، فسرعان ما يتّضح هذا كله. لكن بشرط واحد هو ألاّ تجهد دماغك وتحاول التفكير في بيلاطس البنطي أقل ما يمكن. الناس يقولون أشياء كثيرة، فهل يجب تصديق كل شيء!

فأعلن إيفان بحزم:

- فهمت! أرجو إعطائي ورقة وقلماً.

- أعطيه ورقة وقلم رصاص، - أمر سترافينسكي المرأة البدينة، ثم قال لإيفان: - لكنني أنصحك بعدم الكتابة اليوم.

فصاح إيفان بانزعاج:

- لا لا، بل اليوم، اليوم حتماً.

- حسناً. إنما لا تجهد دماغك. إذا لم تنتهِ اليوم تكمل غداً.

- لكنه سيفرّ!

- أوه لا - اعترض سترافينسكي بثقة -، أضمن لك أنه لن يذهب إلى أيّ مكان. وتذكّر أنك سوف تلقى هنا كل أشكال المساعدة، إذ دون ذلك لن تنجز شيئاً. هل تسمعني؟ - سأل سترافينسكي فجأةً بنبرة ذات دلالة، وأمسك بيدي إيفان وحدّق طويلاً في عينيه، ثم كرّر قائلاً: - سوف يساعدونك هنا... هل تسمعني؟... سوف يساعدونك هنا... سوف يساعدونك هنا... ستحصل على الراحة. المكان هنا هادئ، كل شيء هادئ. سوف يساعدونك هنا...

فجأةً تثاءب إيفان نيكولاييفيتش وهدأت تعابير وجهه وقال بصوتٍ خافت:

- نعم، نعم.

- أحسنت! - اختتم سترافينسكي الحديث على عادته ونهض واقفاً: - إلى اللقاء! - وشدّ على يد إيفان، وحين همّ بالخروج التفت إلى صاحب اللحية وقال له: - أجل، جرّبوا الأوكسجين أيضاً... والغطس كذلك.

خلال لحظات لم يعد هناك وجود لسترافينسكي أو حاشيته، ولاح، في شمس الظهيرة، حرج الصنوبر الربيعي البهيج ببهائه على ضفة النهر الأخرى، خارج شبكة النافذة، وكان النهر يتلألأ على مقربة.

الفصل التاسع

الاعيب كوروفييف

كان نيكانور إيفانوفيتش بَسوي، رئيس الجمعية السكنية للمبنى رقم ٣٢٠ مكرّر الواقع في شارع «سادوفايا» بموسكو، حيث كان يقيم المرحوم بِرلُوز، غارقاً في مشاغل مهولة منذ ليلة الأربعاء - الخميس السابقة.

في منتصف الليل - كما بتنا نعرف - وصلت إلى المبنى اللجنة التي كان جيلدبيين مشاركاً فيها، فاستدعت اللجنة نيكانور إيفانوفيتش وأخبرته بمقتل بِرلُوز، وتوجّهت برفقته إلى الشقة رقم ٥٠.

هناك تمّ ختم مخطوطات وأغراض المتوفّى. ولم تكُن غرونيا، الخادمة غير المقيمة، موجودة في الشقة آنذاك، ولا ستيبان بوغدانوفيتش الأرعن. أعلنت اللجنة لنيكانور إيفانوفيتش أنها ستأخذ مخطوطات المرحوم لفرزها، وأنّ مسكنه، أي الغرف الثلاث (المكتب وغرفة الضيوف وغرفة الطعام العائدة لزوجة الصائغ)، سيوضع بتصرّف الجمعية السكنية، في حين سيتمّ حفظ أغراض المتوفّى في مسكنه إلى حين إعلان الورثة.

انتشر نبأ مقتل بِرلُوز في المبنى برمّته بسرعة فائقة، وبدأ الناس يتّصلون ببَسوي هاتفياً منذ الساعة السابعة إلا ربعاً، وبعد ذلك بدأوا يحضرون شخصياً مع طلباتهم المشتملة على دعاوى في مسكن

المتوفى. وقد تلقّى نيكانور إيفانوفيتش خلال ساعتين اثنين وثلاثين طلباً كهذا.

كانت الطلبات تتضمّن توسّلات وتهديدات ودسائس ووشايات ووعود بإجراء ترميم على نفقة صاحب الطلب، وإشارات إلى الازدحام الذي لا يُطاق وإلى استحالة العيش مع مجرمين في الشقة نفسها. وفي عداد ذلك كان هناك تصوير مذهل من حيث قوّته الأدبية لسرقة أحدهم فطائر من الشقة رقم ٣١ ووضعها في جيب سترته فوراً، وتهديدات بالانتحار، واعتراف واحد بحمل سرّي.

كانوا يستدعون نيكانور إيفانوفيتش إلى ردهة شقّته ويمسكونه من كمّه ويهمسون له بكلام ما، ويغمزونه، ويعدونه بردّ الجميل.

استمرّ هذا العذاب حتى الساعة الواحدة ظهراً، حين هرب نيكانور إيفانوفيتش ببساطة من شقّته إلى مقر الإدارة الكائن عند البوابة الخارجية، لكنه فرّ من هناك أيضاً حين رأى أنهم يترصّدونه هناك أيضاً. بعد تملّصه من الذين يطاردونه في الفناء الأسفلتي بطريقة ما، اختبأ نيكانور إيفانوفيتش في المدخل السادس، ثم صعد إلى الطابق الخامس، حيث الشقة رقم ٥٠ اللعينة.

التقط نيكانور إيفانوفيتش أنفاسه في الفسحة أمام الباب، ثم قرع الجرس، لكنّ أحداً لم يفتح له. فقرع مرةً أخرى، فأخرى، وبدأ يهمهم ويشتم. لكن حينها أيضاً لم يفتح له أحد الباب. نفد صبر نيكانور إيفانوفيتش فأخرج من جيبه رزمة نسخ المفاتيح العائدة إلى إدارة المبنى وفتح الباب كمن له سلطة ودخل.

صاح نيكانور إيفانوفيتش من الردهة نصف المعتمة:

- هيه، أيتها الخادمة! يا... ما اسمك؟ أليس غرونيا؟ ألست هنا؟

لكنّ أحداً لم يردّ. حينئذٍ نزع نيكانور إيفانوفيتش الختم عن الباب وأخرج من جيبه بكرة قياس وخطا نحو المكتب.

كونه خطا فقد خطا، لكنه توقّف أمام الباب مذهولاً، بل وسرت فيه القشعريرة، فقد كان يجلس إلى طاولة المرحوم مواطن مجهول نحيل طويل القامة يرتدي سترة «كاروه» ويعتمر قبعة «جوكيّة» ويضع نظارة أنفية... باختصار، هو ذاك الشخص نفسه. سأله نيكانور إيفانوفيتش في هلع:

- من تكون أيها المواطن؟

فزعق المواطن غير المتوقّع بصوتٍ مرتجّ:

- «وَلَوْ» يا نيكانور إيفانوفيتش!

وقفز من مكانه فحيّا رئيس الجمعية شادّاً على يده بطريقة عنيفة ومباغتة. لم تبهج هذه التحية نيكانور إيفانوفيتش على الإطلاق فقال في ريبة:

- عفواً، من تكون؟ هل أنت شخصية رسمية؟

فصاح المجهول بودّ:

- إيخ يا نيكانور إيفانوفيتش! ما معنى أن يكون المرء شخصية رسمية أو غير رسمية؟ هذا كله يتوقّف على الزاوية التي يُنظَر منها إلى الموضوع، هذه أمور اصطلاحية وغير ثابتة يا نيكانور إيفانوفيتش. اليوم أنا لستُ شخصية رسمية، وقد أصبح شخصية رسمية غداً! وقد يحدث العكس يا نيكانور إيفانوفيتش. الله أعلم بما قد يحدث!

لم يعجب هذا الحديث رئيس الجمعية على الإطلاق، ولكونه شخصاً متشكِّكاً بطبيعته فقد استنتج أنّ هذا المواطن المتشدّق في الكلام شخصية غير رسمية، بل هو شخص متبطّل على الأرجح.

فراح يسأل بمزيدٍ من الفظاظة، بل حتى إنه بدأ يتهجّم على الشخص المجهول:

- فمن تكون إذاً؟ ما هي كنيتك؟

ردّ المواطن دون أن يشعر بأدنى ارتباك من فظاظة رئيس الجمعية:

- كنيتي، لنقل، كوروفييف. ألا تريد تناول بعض «المازة» يا نيكانور إيفانوفيتش؟ بلا رسميات! هه؟

بدأ الحنق يتملّك نيكانور إيفانوفيتش فقال:

- عفواً! أيّ «مازة» هذه! ممنوع الجلوس في شقّة المرحوم! ماذا تفعل هنا؟ (لا بدّ من الاعتراف - وإن كان هذا غير مستحبّ - أنّ نيكانور إيفانوفيتش كان شخصاً فظّاً بعض الشيء).

ودون أدنى ارتباك قدّم المواطن لرئيس الجمعية مقعداً، متملّقاً إياه، وصاح قائلاً:

- هلاّ جلست يا نيكانور إيفانوفيتش.

دفع نيكانور إيفانوفيتش المقعد هائجاً تماماً وسأل صارخاً:

- من أنت في نهاية المطاف؟

- أنا، إذا أردت أن تعرف، أعمل مترجماً لدى الأجنبي المقيم في هذه الشقة. - قدّم الذي يدّعي أنّ اسمه كوروفييف نفسه، وفرقع بكعب جزمته الحمراء الوسخة.

فغر نيكانور إيفانوفيتش فاه. فقد بدا له وجود شخص أجنبي، وبرفقة مترجم، في هذه الشقة أمراً مفاجئاً تماماً، وطالب بتفسير.

وقد شرح له المترجم الأمر بطيب خاطر. فقد تلقّى الفنان الأجنبي السيّد فولند دعوة كريمة من مدير مسرح «فاريتيه» ستيبان بوغدانوفيتش ليخودييف لقضاء فترة جولته - التي تمتد أسبوعاً تقريباً - في شقّته، والبارحة بالذات كتب ليخودييف إلى نيكانور إيفانوفيتش

طالباً إليه تسجيل اسم الأجنبي مؤقتاً ضمن أسماء سكّان المبنى إلى حين عودته من يالطا.

قال رئيس الجمعية بذهول:

- لم يكتب إليّ شيئاً.

فاقترح عليه كوروفييف بعذوبة:

- هلاّ بحثت في حقيبتك يا نيكانور إيفانوفيتش.

هزّ نيكانور إيفانوفيتش كتفيه وفتح حقيبته فعثر فيها على رسالة ليخودييف، فغمغم وهو يتأمل الظرف المفتوح: كيف نسيتها؟

فراح كوروفييف يثرثر:

- ما أكثر ما تحدث هذه الأمور يا نيكانور إيفانوفيتش، ما أكثر ما تحدث! السهو، السهو، والإرهاق، وارتفاع ضغط الدم يا عزيزنا نيكانور إيفانوفيتش! أنا نفسي كثير السهو إلى درجة مخيفة. يوماً ما سأروي لك، ونحن نحتسي قدحاً، بضع وقائع من سيرتي، ولسوف تضحك كثيراً!

- ومتى سيسافر ليخودييف إلى يالطا؟!

فصاح المترجم:

- لقد سافر، أجل سافر! لقد انطلق، والله أعلم أين هو الآن! - وهنا لوّح المترجم بيديه الشبيهتين بجناحي مروحة طاحونة هوائية.

أعلن نيكانور إيفانوفيتش أنْ لا بدّ له من رؤية الأجنبي شخصياً، لكنه تلقّى رفضاً قاطعاً من المترجم على ذلك:

- مستحيل. إنه مشغول، فهو يروِّض القط. - ثمّ عرض عليه:

- يمكنني أن أريك القطّ إذا شئت!

بدوره رفض نيكانور إيفانوفيتش ذلك، وحينئذٍ قدّم له المترجم اقتراحاً غير متوقّع لكنه مثير جداً للاهتمام.

نظراً إلى أنّ السيد فولند لا يرغب على الإطلاق في الإقامة في فندق، ولأنه معتاد على العيش في بيوت رحبة، فهلاّ أجّرته الجمعية السكنية الشقة كلها، بما في ذلك غرف المرحوم، لمدة أسبوع ريثما ينهي فولند جولته الفنية في موسكو؟

وهمس له كوروفييف بصوتٍ أبحّ:

- فالأمر سيّان بالنسبة إلى المرحوم، إذ لا بدّ أن توافقني، يا نيكانور إيفانوفيتش، بأنه لم يعد بحاجة إلى الشقة الآن!

اعترض نيكانور إيفانوفيتش، بشيءٍ من عدم الفهم، قائلاً إنّ على الأجانب الإقامة في «الميتروبول» وليس في شقق خاصة قطعاً...

فقال كوروفييف هامساً:

- أقول لك إنه متقلّب الأهواء، الله أعلم مثل ماذا! لكنه لا يريد الإقامة في الفنادق! لا يحبّها! - ثم اشتكى كوروفييف بنبرة صادقة وهو يغرز إصبعه في رقبته المعروقة: - انظر أين يركب هؤلاء السيّاح! صدّقني إنهم قد أزهقوا روحي! يأتي أحدهم... ويتجسّس كأحطّ ابن قحبة، أو يرهق أعصابك كلها بنزواته: هذا لا يعجبه، وذاك ليس كما يجب!.. في حين سيعود هذا على جمعيتكم يا نيكانور إيفانوفيتش بمنفعة بالغة وفائدة ملحوظة. فهو لا يضنّ بالمال - وتلفّت كوروفييف حوله ثم همس في أذن رئيس الجمعية - إنه مليونير!

كان اقتراح المترجم يشتمل على فائدة عملية جلية، فقد كان اقتراحاً رزيناً جداً لكن كان هناك شيء ما غير رزين بشكل غريب في طريقة المترجم في الكلام، وفي ملابسه كذلك، وفي هذه النظّارة الأنفية التي لا تصلح لشيء. لذا فقد كان هناك أمر ما غامض يثقل على روح رئيس الجمعية، لكنه، رغم ذلك، قرر قبول الاقتراح. ذلك أنّ الجمعية كانت تعاني عجزاً مالياً كبيراً للأسف. فقد كانت هناك

حاجة إلى المازوت من أجل التدفئة البخارية في مطلع الخريف، ولا أحد يعلم من أين يأتي المال. بينما يمكن الخروج من المأزق بأموال السيّاح. لكنّ نيكانور إيفانوفيتش، العملي والحذر، أعلن أنّ عليه التنسيق مع مكتب السيّاح أولاً بخصوص هذا الموضوع.

صاح كوروفييف:

- أفهم هذا، وهل يُعقل دون تنسيق! لا بدّ من التنسيق. ها هو الهاتف يا نيكانور إيفانوفيتش، قم بالتنسيق دون إبطاء. - ثم أضاف هامساً وهو يجرّ رئيس الجمعية نحو الهاتف في الردهة: - أما فيما يتعلّق بالمال، فلا تشعر بالحرج، إذ ممّن يمكن أخذ المال إن لم يكن منه! لو أنك رأيت الفيللا التي لديه في نيس! إذا سافرت إلى خارج البلاد تعمّد التعريج عليها لمشاهدتها... سيأخذك العجب!

وقد سُوّي الأمر مع مكتب السيّاح عبر الهاتف بسرعة فائقة أذهلت رئيس الجمعية. فقد تبيّن أنهم يعلمون مسبقاً بنيّة السيد فولند الإقامة في شقة ليخودييف الخاصة، وأنهم لا يعترضون على ذلك مطلقاً.

صاح كوروفييف:

- رائع إذاً!

أعلن رئيس الجمعية، الذي صعقته جلبة كوروفييف بعض الشيء، أنّ الجمعية قد وافقت على تأجير الشقة رقم ٥٠ للسيد فولند لمدة أسبوع بإيجار قدره... - وتردّد نيكانور إيفانوفيتش قليلاً ثم قال:

- خمسمئة روبل في اليوم.

هنا أذهل كوروفييف رئيس الجمعية كليّاً، فقد أومأ باتجاه غرفة النوم، حيث كانت تُسمع قفزات القط الثقيل الرشيقة، وقال بصوتٍ جشِرٍ:

- هذا يعني ثلاثة آلاف روبل في الأسبوع!

ظنّ نيكانور إيفانوفيتش أنه سيضيف إلى ذلك: «يا لشهيتك يا نيكانور إيفانوفيتش!» لكنّ كوروفييف قال شيئاً مغايراً كليّاً، فقد قال:

- وهل هذا مبلغ! اطلب خمسة آلاف، وسيعطيك.

لم يلاحظ نيكانور إيفانوفيتش الذي ابتسم بحيرة كيف أصبح عند منضدة الكتابة، حيث كان كوروفييف قد كتب نسختين للعقد بسرعة ومهارة عظيمتين. بعد ذلك طار بهما إلى غرفة النوم ثم عاد فإذا بالنسختين موقّعتين من قِبل الأجنبي بحروف غليظة، فوقّع رئيس الجمعية أيضاً العقد. وهنا طلب كوروفييف إيصالاً بمبلغ خمسة آلاف روبل...

- اكتب الأرقام كتابةً يا نيكانور إيفانوفيتش، بالأحرف!... خمسة آلاف روبل، - ووضع خمس رزم من الأوراق المصرفية الجديدة في يد رئيس الجمعية مرفقاً إياها بكلمات: - واحدة، اثنتان، ثلاث! - بدت، بطريقة ما، لا تتناسب وجدية الموضوع.

جرى عدّ المال مصحوباً بطرائف وأمثولات من قِبل كوروفييف، من قبيل: «المال يحبّ العدّ»، «لا تصدّق حتى ترى بعينيك» وما إلى ذلك.

بعد عدّ المال حصل رئيس الجمعية على جواز سفر الأجنبي من كوروفييف من أجل الإقامة المؤقتة، ووضعه، مع العقد والمال، في حقيبته، ثم سأله على استحياء، غير متمالك نفسه نوعاً ما، بطاقة دخول مجانية...

جأر كوروفييف:

- ما هذا الكلام! كم بطاقة تريد يا نيكانور إيفانوفيتش، اثنتا عشرة، خمس عشرة؟

أوضح له رئيس الجمعية المصعوق أنه يحتاج إلى بطاقتين فقط، له ولزوجته بيلاغيا أنطونوفنا.

استلّ كوروفييف مفكّرته على الفور وحرّر بلهفة لنيكانور إيفانوفيتش بطاقة دعوة مجانية لشخصين في الصف الأول، ثم دسّ المترجم بمهارة البطاقة في يد نيكانور إيفانوفيتش مستخدماً يده اليسرى، وباليمنى وضع في يد رئيس الجمعية الأخرى رزمة سميكة مخشخشة. ألقى نيكانور إيفانوفيتش نظرة خاطفة على الرزمة فاحمرّ وجهه وراح يبعدها جانباً وهم يغمغم:

- هذا لا يجوز...

فهمس كوروفييف في أذنه تماماً:

- لا أريد حتى أن أسمع هذا الكلام، فإذا كان هذا غير جائز عندنا فهو جائز عند الأجانب. سيشعر بالاستياء يا نيكانور إيفانوفيتش، وهذا محرج. لقد بذلت جهدك...

همس رئيس الجمعية وهو يتلفّت حوله:

- هذا يُعاقَب عليه بصرامة.

فهمس كوروفييف في أذنه الأخرى:

- وأين الشهود؟ أنا أسألك: أين هم؟ ما لك؟

وهنا حدثت معجزة، حسب تأكيد رئيس الجمعية فيما بعد، فقد زحفت الرزمة إلى داخل حقيبته من تلقاء ذاتها. بعد ذلك ألفى رئيس الجمعية، الخائر القوى والمحطَّم، نفسه على الدرج. كانت زوبعة من الأفكار تدور في رأسه، وكانت الفيللا التي في نيس أيضاً تدور مع الزوبعة، وكذلك القط المروَّض، وفكرة أنْ لم يكن هناك شهود بالفعل، وأنّ بيلاغيا أنطونوفنا ستفرحها البطاقة المجانية. كانت هذه الأفكار غير مترابطة لكنها كانت سارّة عموماً، زد على ذلك أنّ إبرة ما

كانت تخزه وخزات خفيفة في مكانٍ ما في أعماق روحه. كانت تلك إبرة القلق. فضلاً عن أنه، على الدرج مباشرةً، صعقت رئيس الجمعية الفكرة التالية: «وكيف دخل المترجم المكتب مادام هناك ختم على الباب؟! وكيف لم يسأل، هو نيكانور إيفانوفيتش، عن هذا الأمر؟». راح رئيس الجمعية يحدّق، مثل كبش، في درجات السلّم لبعض الوقت، ثم قرّر أن يتجاهل الأمر وعدم تعذيب نفسه بهذه المسألة الشائكة.

فور مغادرة رئيس الجمعية الشقة تناهى صوت خافت من غرفة النوم:

- لم يعجبني نيكانور إيفانوفيتش هذا. إنه غشّاش ومحتال. هل يمكن عمل شيء حتى لا يعود ثانيةً؟

أجاب كوروفييف من مكانٍ ما، لكن ليس بصوتٍ رجراج بل بصوت جهوريّ صافٍ جداً:

- يكفي أن تأمر يا سيدي!...

وفي الحال صار المترجم اللعين في الردهة، فأدار رقماً ما وأخذ يتكلم بصوتٍ باكٍ جداً لسببٍ ما في السمّاعة:

- ألو! أرى أنّ من واجبي إبلاغكم أنّ رئيس الجمعية السكنية للمبنى رقم ثلاثمائة واثنين مكرّر بشارع «سادوفايا» نيكانور إيفانوفيتش بَسوي يضارب بالعملة. وفي هذه اللحظة هناك أربعمئة دولار ملفوفة بورقة جريدة مخبّأة في جهاز التهوئة في المرحاض في شقته رقم خمس وثلاثين. يكلّمكم ساكن الشقة رقم (١١) من المبنى المذكور تيموفي كفاستسوف. لكني أستحلفكم إبقاء اسمي سرّاً، فأنا أخشى انتقام رئيس الجمعية المذكور أعلاه.

ثم وضع النذل السمّاعة.

لا أحد يعلم بما جرى لاحقاً في الشقة رقم (٥٠) لكننا نعرف ماذا حدث عند نيكانور إيفانوفيتش. فبعد أن أقفل نيكانور إيفانوفيتش باب المرحاض خلفه بالمزلاج أخرج من حقيبته الرزمة التي لفّها المترجم، وتأكّد من وجود أربعمئة دولار فيها، ثم لفّ الرزمة في قصاصة جريدة ودسّها في مجرى التهوئة.

بعد خمس دقائق كان رئيس الجمعية يجلس في غرفة الطعام الصغيرة. أحضرت له زوجته من المطبخ سمكة رنّة مقطّعة بعناية وقد رُشَّ عليها البصل الأخضر بكثرة. سكب نيكانور إيفانوفيتش لنفسه قدحاً صغيراً من نبيذ «لافيت» واحتساه ثم سكب قدحاً ثانياً واحتساه، وتناول بالشوكة ثلاث قطع من الرنكة... وفي هذه اللحظة رنّ جرس الباب بينما كانت بيلاغيا أنطونوفنا تأتي بطنجرة يتصاعد منها البخار، وكان بالإمكان التخمين فوراً ومن النظرة الأولى أنّ حساء الكرنب الساخن يحتوي أشهى ما في الدنيا - عظم النخاع.

ابتلع نيكانور إيفانوفيتش ريقه وأخذ يهرّ كالكلب قائلاً:

- ليأخذكم الشيطان! لا يدعون المرء يأكل. لا تُدخلي أحداً، أنا لست في البيت، غير موجود، وبخصوص الشقة قولي لهم أن يكفّوا عن إثارة الجلبة، سيُعقد اجتماع بعد أسبوع...

وبينما كان نيكانور إيفانوفيتش يرفع عظمةً منفلقة طولياً من بحيرة الحساء المتّقدة، هُرعت زوجته إلى المدخل. وفي هذه اللحظة دخل مواطنان غرفة الطعام بصحبة بيلاغيا أنطونوفنا التي كانت شاحبة لسببٍ ما. عند رؤية المواطنَين شحب وجه نيكانور إيفانوفيتش أيضاً ونهض واقفاً.

سأل المواطن الأول، وكان يرتدي قميصاً أبيضَ أزراره من الجانب، بهمّة:

- أين المرحاض؟

قرقع شيء ما على مائدة الطعام (فقد أوقع نيكانور إيفانوفيتش الشوكة على غطاء الطاولة المشمّع)، وأجابت بيلاغيا أنطونوفنا بسرعة:

- هنا، هنا.

اندفع الزائران إلى الممر فوراً، فلحق بهما نيكانور إيفانوفيتش وسأل بصوتٍ خافت:

- ما الموضوع؟ لا يمكن أن يكون في شقتنا ما يثير الريبة... أرجو العفو... لكن هل بحوزتكما وثائق...؟

أرى الأول بطاقته لنيكانور إيفانوفيتش خطفاً بينما كان الثاني في هذه اللحظة يقف على صندلية في المرحاض وقد دسّ يده في مجرى التهوئة. أظلمت الدنيا في عينيّ نيكانور إيفانوفيتش. نُزعت الجريدة، وتبيّن أنّ ما في الرزمة ليس روبلات بل أوراق نقدية غريبة، زرقاء أو خضراء، وعليها صورة شيخ ما. بيد أنّ نيكانور إيفانوفيتش لم يتبيّن هذا كله بوضوح، فقد كانت بقعٌ ما تطوف أمام عينيه.

- دولارات في جهاز التهوئة، - قال الأول مستغرقاً في التفكير ثم سأل نيكانور إيفانوفيتش بلطف وأدب: - هل هذه الرزمة لك؟

فأجاب نيكانور إيفانوفيتش بصوتٍ رهيب:

- كلاّ! لقد دسّها الأعداء!

- هذا يحدث، - قال الأول موافقاً لكنه، مع ذلك، أضاف يقول برقّة: - ماذا إذاً، عليك تسليم باقي الدولارات.

- ليس عندي شيء، أقسم بالله، لم أمسكها بيدي يوماً! - هكذا صرخ رئيس الجمعية بيأس واندفع نحو صِوان الملابس فأخرج منه صندوقاً بجلبة وأخرج حقيبته من الصندوق وهو يصرخ في أثناء ذلك بعبارات غير مترابطة قائلاً:

- إليكما العقد. . . لقد دسّها المترجم النذل. . . كوروفييف. . . الذي يضع نظارة أنفية!

فتح الحقيبة وألقى نظرة داخلها، ثم أدخل يده فيها فازرقّ وجهه وأسقط الحقيبة في حساء الكرنب، إذ لم يكن هناك شيء في الحقيبة: لا رسالة ستيبان، ولا العقد، ولا جواز سفر الأجنبي، ولا المال، ولا بطاقة الدعوة المجانية. باختصار، لم يكن فيها شيء سوى المتر المطوي. فصرخ رئيس الجمعية هائجاً:

- يا رفاق! اقبضوا عليهم! هناك قوى شريرة في بيتنا!

وهنا الله أعلم ماذا خُيِّل لبيلاغيا أنطونوفنا، فقد ضربت كفّاً بكفّ وصاحت قائلةً:

- اعترف يا إيفانيتش! سيخفّفون عنك الحكم!

رفع نيكانور إيفانوفيتش قبضته فوق رأس زوجته، وعيناه محتقنتان بالدم، وقال محشرجاً:

- أوه أيتها الحمقاء اللعينة!

وهنا خارت قواه وانهار على الكرسي مقرّراً، فيما يبدو، الاستسلام للمحتوم.

في هذا الوقت كان تيموفي كوندراتيفيتش يقف في فسحة الدرج ملتصقاً بثقب باب شقة رئيس الجمعية، تارةً بأذنه وأخرى بعينه، يتآكله الفضول.

بعد خمس دقائق رأى سكان المبنى، المتواجدين في الفناء، رئيس الجمعية يتوجّه برفقة شخصين آخرين نحو بوّابة المبنى مباشرةً. قيل إنّ نيكانور إيفانوفيتش كان ممتقع الوجه، وإنه كان يترنّح في مشيته كالسكران، وإنه كان يغمغم بشيءٍ ما.

وبعد ساعة، تماماً عندما كان تيموفي كوندراتيفيتش يروي للسكان الآخرين، وهو منتشٍ من البهجة، كيف أُلقي القبض على رئيس الجمعية، جاء مواطن مجهول إلى الشقة رقم (١١)، فاستدعى بإصبعه تيموفي كوندراتيفيتش من المطبخ إلى المدخل وقال له شيئاً ما، ثم اختفيا معاً.

الفصل العاشر

أنباء من يالطا

في الوقت الذي حلّت فيه المصيبة بنيكانور إيفانوفيتش، ليس بعيداً عن المبنى رقم ٣٠٢ مكرّر الواقع في شارع «سادوفايا» ذاك نفسه كان هناك شخصان في مكتب المدير المالي لمسرح «فاريتيه» ريمسكي هما ريمسكي نفسه ومدير «فاريتيه» فارينوخا.

كانت نافذتان من نوافذ المكتب الرحب، الواقع في الطابق الثاني للمسرح، تطلاّن على شارع «سادوفايا» بينما النافذة الثالثة، القائمة مباشرةً وراء ظهر المدير المالي الذي كان جالساً إلى طاولة المكتب، تطلّ على حديقة «الفاريتيه» الصيفية، حيث بوفيهات المرطّبات و«التير»[1] والمسرح المكشوف. كان أثاث المكتب، فضلاً عن طاولة المكتب، يقتصر على حزمة من الملصقات القديمة معلقة على الجدار، ومنضدة صغيرة عليها دورق ماء، وأربعة مقاعد، وحامل موضوع في الركن عليه نموذج قديم مغبرّ لأحد العروض. لكن بالطبع، عدا عن ذلك، كانت هناك خزنة عتيقة متقشّرة مضادة للحريق موضوعة بجوار طاولة المكتب إلى يسار ريمسكي.

(١) التير: لعبة رائجة في مدن الملاهي، حيث يتم إطلاق النار من بنادق «خردق» على دمى، كالدببة وغيرها.

كان ريمسكي جالساً إلى طاولة المكتب، وكان متعكّر المزاج منذ الصباح، بينما كان فارينوخا، على النقيض منه، في منتهى الحيوية والنشاط، لكنّ نشاطه كان مشوباً بشيء من القلق والاضطراب، إذ لم يكن هناك من مخرج لطاقته.

كان فارينوخا الآن مختبئاً في مكتب المدير المالي بسبب البطاقات المجانية التي كانت تسمّم حياته، خاصةً في أيام تغيير البرامج. واليوم بالذات كان أحد تلك الأيام.

ما إن يرنّ جرس الهاتف حتى كان فارينوخا يلتقط السمّاعة ويبدأ بالكذب:

- من تريد؟ فارينوخا؟ غير موجود. لقد غادر المسرح.

قال ريمسكي مهتاجاً:

- اتصل بليخوديف مرة أخرى من فضلك.

- لكنه ليس في البيت. سبق أن أرسلت كاربوف. لا يوجد أحد في الشقة.

فحّ ريمسكي وهو ينقر على الآلة الحاسبة:

- الشيطان يعلم ماذا يجري!

فُتح الباب ودخل فاحص التذاكر وهو يجرجر حزمة من الملصقات الإضافية المطبوعة للتو. كان مكتوباً على الأوراق الخضراء بحروف حمراء ضخمة ما يلي:

اليوم وكل يوم في مسرح «الفاريتيه»
هناك برنامج إضافي:
البروفيسور فولَند
عروض سحر أسود مع فضح ألاعيبه بالكامل.

بسط فارينوخا الملصق على «الماكيت» وتراجع إلى الخلف، ثم

راح يبدي إعجابه به وأمر فاحص التذاكر بإلصاق النسخ كلها دون إمهال. وبعد خروج فاحص التذاكر علّق فارينوخا قائلاً:

- جيد... جذّاب.

فغمغم ريمسكي وهو يرمق الملصق عبر نظارته حانقاً:

- أما أنا فلا يعجبني إطلاقاً هذا المشروع برمّته، وعموماً كيف سمحوا له بهذا العرض!

- لا، لا تقل هذا يا غريغوري دانيلوفيتش، هذه خطوة حاذقة جداً. فالنكهة كلها هنا تكمن في عملية فضح الألاعيب.

- لا أعرف، لا أعرف، ما من نكهة هنا. إنه يبتدع أشياء من هذا القبيل! لو أرانا هذا الساحر على الأقل. هل رأيته أنت؟ الله أعلم من أين «نَبِشَه»!

تبيّن أنّ فارينوخا أيضاً - مثل ريمسكي - لم يرَ الساحر. فبالأمس هرع ستيوبا («كالمجنون» بتعبير ريمسكي) إلى المدير المالي ومعه مُسوّدة اتفاق مكتوبة مُسبقاً وأمره بإعادة كتابتها وإعطائه المال في الحال. أما هذا الساحر فقد توارى عن الأنظار ولم يره أحد غير ستيوبا.

أخرج ريمسكي ساعته فوجد أنها تشير إلى الثانية وخمس دقائق، فاحتدّ غضباً. ما الذي يجري! فقد اتصل ليخودييف قرابة الساعة الحادية عشرة وقال إنه سيصل خلال نصف ساعة تقريباً، لكنه ليس لم يصل فقط بل اختفى من شقته أيضاً!

زمجر ريمسكي وهو يغرز إصبعه في كومة أوراق غير موقّعة:

- لكنْ عندي عمل هنا!

- أيكون قد سقط تحت الترام مثل بِرلُوز؟ - قال فارينوخا وهو

يضع أذنه على السمّاعة التي كانت تُسمَع فيها رنّات غليظة مديدة لا جدوى منها على الإطلاق.

قال ريمسكي من بين أسنانه بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

- حبّذا لو أنّ...

في هذه اللحظة دخلت المكتب امرأة ترتدي سترة رسمية وتنّورة سوداء وتعتمر سيدارة وتنتعل خفّين. أخرجت المرأة ورقة بيضاء مربّعة الشكل ودفتراً من حقيبة صغيرة مثبّتة على حزامها، وسألت:

- من منكما فارينوخا؟ توجد لكم برقية عاجلة. وقّعوا.

خطَّ فارينوخا بعجالة خطّاً معوجّاً في دفتر المرأة، وما أن انصفق الباب وراءها حتى فضّ الشيء المربّع.

قرأ فارينوخا البرقية وعيناه تطرفان ثم أعطاها لريمسكي.

كان في البرقية ما يلي: «يالطا. موسكو. فاريتيه. اليوم، الساعة الحادية عشرة والنصف. حضر إلى المباحث الجنائية شخص أصهب يرتدي قميص نوم وبنطالاً وبلا حذاء، وادّعى بهستيرية أنه مدير الفاريتيه ليخودييف. أبرِقوا إلى المباحث الجنائية في يالطا عن مكان المدير ليخودييف».

صرخ ريمسكي:

- يا سلام! هذا ما كان ينقصنا! مفاجأة أخرى!

- الدعيّ، - قال فارينوخا ثم بدأ يتكلّم في السمّاعة: - مكتب البرق؟ على حساب «الفاريتيه» برقية عاجلة... هل تسمعني؟ «يالطا. المباحث الجنائية. ليخوديف في موسكو. المدير المالي ريمسكي»...

بغضّ النظر عن المنتحل اليالطي شرع فارينوخا يبحث ثانيةً، بواسطة الهاتف، عن ستيوبا كيفما اتّفق، لكنه لم يعثر عليه في أيّ

مكان بالطبع. وتماماً عندما كان فارينوخا يفكّر إلى أين أيضاً يمكنه أن يتّصل، وهو يمسك السمّاعة بيده، دخلت المرأة نفسها التي أحضرت البرقية الأولى وسلّمت فارينوخا ظرفاً جديداً. سارع فارينوخا إلى فتح الظرف فقرأ ما كُتب عليه وصفّر. سأله ريمسكي وهو يرتعش بعصبية:

- ماذا هناك أيضاً؟

ناوله فارينوخا البرقية بصمت فرأى المدير المالي فيها الكلمات التالية:

«أتوسّل إليكم أن تصدّقوني. ألقى بي فولند في يالطا بواسطة التنويم المغناطيسي. أبرقوا إلى المباحث الجنائية لإثبات شخصيتي. ليخودييف».

أعاد ريمسكي وفارينوخا قراءة البرقية، وقد مالا برأسيهما تجاه بعضهما، وبعد الانتهاء من قراءتها راحا يحملقان أحدهما في الآخر بصمت.

قالت المرأة بانزعاج فجأةً:

- وقّعا أولاً أيها المواطنان وبعد ذلك اصمتا قدر ما تشاءان! فأنا أحمل برقيات أخرى.

خطّ فارينوخا بشكل مائل في الدفتر، دون أن يبعد عينيه عن البرقية، وغادرت المرأة.

قال المدير الإداري حائراً تماماً:

- ألم تكلّمه بالهاتف بعد الحادية عشرة بقليل؟

صرخ ريمسكي بصوتٍ حادّ:

- أمر مضحك! فسواء تحدثت إليه أم لا، مستحيل أن يكون الآن في يالطا! هذا مضحك!

قال فارينوخا:

- إنه سكران. . .

- من السكران؟ - سأل ريمسكي، ومرة أخرى راح واحدهما يحملق في الآخر.

لم يكن هناك شكّ في أنّ الذي أبرق من يالطا منتحل أو مجنون، لكنّ الغريب في الأمر هو: أنّى لهذا الدجّال أن يعرف فولند الذي وصل موسكو بالأمس فقط؟ من أين له أن يعرف بالعلاقة بين ليخوديف وفولند؟

- «بالتنويم المغناطيسي. . .» - كرّر فارينوخا الكلمة الواردة في البرقية - من أين له أن يعرف بخصوص فولند؟ - ثم رمش بعينه وصرخ جازماً فجأةً: - لا، لا، هراء، هراء.

سأله ريمسكي:

- أين نزل فولند اللعين هذا؟

اتّصل فارينوخا بمكتب السياحة على الفور، ثمّ أخبر ريمسكي أنّ فولند قد نزل في شقة ليخودييف، الأمر الذي أدهشه كليّاً. بعد ذلك أدار فارينوخا رقم شقة ليخودييف وأصغى طويلاً إلى الطنين الغليظ في السمّاعة. تناهى إليه، وسط هذا الطنين، آتياً من بعيد، صوتٌ مزعج كئيب يغنّي: «. . . أيتها الصخور، يا ملاذي. . .»، فقرّر فارينوخا أنّ هذا الصوت قادم من راديو المسرح، وأنه قد تداخل مع شبكة الهاتف في مكانٍ ما، فقال وهو يعيد السمّاعة إلى مكانها:

- الشقّة لا تردّ، هل أحاول الاتّصال مرة أخرى يا تُرى. . .

لكن قبل أن ينهي كلامه ظهرت بالباب تلك المرأة ذاتها، فنهض كلّ من ريمسكي وفارينوخا لملاقاتها، لكنها، هذه المرة، لم تُخرج

من حقيبتها ورقة بيضاء بل ورقة داكنة اللون. فقال فارينوخا من بين أسنانه وهو يشيّع المرأة التي غادرت على عجل:

- يغدو الأمر مثيراً.

كان ريمسكي أول من أمسك بالورقة. على الخلفية القاتمة لورقة التصوير الضوئي برزت أسطر سود كُتب فيها بخطّ اليد:

«الإثبات خطّي وتوقيعي. أبرقوا بإثبات شخصيتي. أقيموا رقابة سرية على فولند. ليخودييف».

خلال عشرين سنة من عمله في المسارح رأى فارينوخا أموراً شتّى، لكنه شعر هنا أنّ على عقله غشاوة، ولم يستطع النطق سوى بالجملة المعتادة والسخيفة تماماً فوق ذلك:

- هذا مستحيل!

لكنّ ريمسكي تصرّف على نحوٍ مختلف، فقد هبّ واقفاً وفتح الباب وصاح مزمجراً بالساعية الجالسة على مقعدٍ بلا مساند: «لا تُدخلي أحداً سوى سعاة البريد!» وأقفل باب المكتب بالمفتاح. ثم تناول رزمة من الأوراق من درج الطاولة وبدأ يقارن بعناية الأحرف الغليظة المائلة إلى اليسار التي على ورقة التصوير الضوئي مع الأحرف في قرارات ستيوبا وفي تواقيعه المتخمة باعوجاجات لولبية. أما فارينوخا فكان ينفث أنفاسه الحارّة في خدّ ريمسكي وقد انكبّ على الطاولة. في النهاية قال المدير المالي جازماً:

- إنه خطّه.

فردّد فارينوخا كرجع الصدى:

- خطّه.

رنا المدير المالي إلى وجه ريمسكي فدُهش للتغيير الذي طرأ

عليه، فقد بدا المدير المالي، النحيل أصلاً، وكأنه قد ازداد نحولاً، بل وشاخ أيضاً، كما فقدت عيناه في إطار النظّارة نظرتهما الثاقبة المألوفة ولم يلح فيهما الهلع فقط بل وما يشبه الحزن.

قام فارينوخا بكلّ ما على المرء القيام به في لحظات الحيرة العظيمة، فقد أخذ يسعى في المكتب جيئةً وذهاباً، وبسط ذراعيه كالمصلوب مرتين، وشرب ملء كأس من مياه الصنبور الصفراء، ثم صرخ قائلاً:

- لست أفهم! لستُ أف.. هـ.. م!

في حين كان ريمسكي ينظر عبر النافذة وهو يفكّر في أمرٍ ما بتركيزٍ شديد. كان موقف المدير المالي حرجاً للغاية، فقد كان عليه استنباط إيضاحات معقولة لظواهر غير عادية.

زرّ المدير المالي عينيه وراح يتخيّل ستيوبا، بقميص النوم ودون حذاء، يصعد اليوم، قرابة الساعة الحادية عشرة والنصف، طائرةً فائقة السرعة، ثم يتخيّله ثانيةً، أيضاً في الساعة الحادية عشرة والنصف، واقفاً على مدرج المطار مرتدياً جوربين... الشيطان يعلم ماذا يجري!

لعلّ الذي كلّمه بالهاتف اليوم لم يكن ستيوبا! لا، بل كان هو! وهل يعقل ألاَ يتعرّف صوت ستيوبا! وحتى إذا لم يكن ستيوبا من كلّمه، ففي مساء البارحة فقط حضر ستيوبا إلى مكتبه هذا مع العقد السخيف وأزعج المدير المالي بخفّة عقله. كيف أمكنه أن يسافر أو يطير دون أن يقول شيئاً في المسرح؟ وحتى إذا ما كانت طائرته قد أقلعت البارحة مساءً فلن يستطيع الوصول إلى يالطا اليوم ظهراً. أو ربما كان وصل؟

سأل ريمسكي:

- كم المسافة إلى يالطا؟

توقّف فارينوخا عن الركض وقال مزمجراً:

- فكّر الأفندي! إلى سيفاستوبول، بالسكة الحديد، قرابة ألف وخمسمئة كيلومتر. أضف إليهما ثمانمئة كيلومتر إلى يالطا. لكن بالطائرة أقل بالطبع.

هممم... أجل... لا مجال للحديث عن أي قطارات هنا. فماذا إذاً؟ أبطائرة حربية؟ لكن من قد يدع ستيوبا يصعد طائرة حربية حافي القدمين؟ ولماذا؟ لعلّه خلع جزمته بعد وصوله إلى يالطا؟ مرة أخرى: لماذا؟ فحتى وهو ينتعل جزمةً لن يُسمَح له بركوب طائرة حربية! نعم، ولا شأن للطائرة الحربية هنا. فقد كُتب أنه حضر إلى المباحث الجنائية في الساعة الحادية عشرة والنصف ظهراً، في حين أنه اتّصل بالهاتف من موسكو... لا، هذا كثير... وهنا برز أمام عيني ريمسكي ميناء ساعته... وتذكّر أين كان عقربا الساعة. يا للهول! كان هذا في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة. فما معنى هذا؟ إذا افترضنا أنّ ستيوبا قد انطلق إلى المطار فور انتهاء المكالمة الهاتفية، ولنقل إنه قد وصل إلى المطار في غضون خمس دقائق، وهذا غير معقول بالمناسبة، فهذا يعني أنّ الطائرة، التي أقلعت فوراً، قد قطعت أكثر من ألف كيلومتر خلال خمس دقائق! وبالتالي يمكن لهذه الطائرة أن تقطع أكثر من ألفي كيلومتر في الساعة!!! وهذا مستحيل، وبالتالي هو ليس في يالطا.

ماذا يبقى إذاً؟ التنويم؟ ما من تنويم كهذا في الدنيا بحيث يلقي بالإنسان مسافة ألف كيلومتر! بالتالي، يُخيَّل إليه أنه في يالطا! فيما يتعلّق به ربما يتهيّأ له، لكن هل يتهيّأ أيضاً للمباحث الجنائية في يالطا؟ لا، اعذروني، هذا غير ممكن!... لكنهم يُبرقون من هناك!

كان وجه المدير المالي رهيباً بالمعنى الحرفي للكلمة. في هذه الأثناء كان مقبض الباب يدور ويهتزّ، وكان يُسمَع كيف تصرخ الساعية باستماتة خارج الباب:

- ممنوع! لن أسمح بالدخول حتى لو قطّعتموني! اجتماع!!

تمالك ريمسكي نفسه قدر الإمكان ثم تناول سمّاعة الهاتف وقال عبرها:

- مكالمة عاجلة إلى يالطا.

«ذكي» هتف فارينوخا في سرّه.

لكنّ المكالمة مع يالطا لم تتمّ فوضع ريمسكي السماعة وقال:

- تعطّل الخطّ، كأنما نكايةً.

كان جلياً أنّ تعطّل الخطّ قد كدّره لسببٍ ما، بل حتى جعله يستغرق في التفكير. وبعد قليل من التفكير تناول السمّاعة بإحدى يديه وبالأخرى راح يدوّن ما يقول في السمّاعة:

- استلموا برقية عاجلة. فاريتيه. نعم. يالطا. المباحث الجنائية. نعم. «اليوم قرابة الساعة الحادية عشرة والنصف كلّمني ليخودييف بالهاتف من موسكو. نقطة. بعد ذلك لم يحضر إلى عمله ولا نستطيع العثور عليه عبر الهاتف. نقطة. أؤكّد أنّ الخط خطه. نقطة. اتّخذت الإجراءات لمراقبة الفنان المذكور. المدير المالي ريمسكي».

«ذكي جداً!» قال فارينوخا في سرّه، لكنه لم يكد يقول ذلك حتى لمعت في ذهنه عبارة: «بل هذا غباء! يستحيل أن يكون في يالطا!».

في هذه الأثناء قام ريمسكي بتوضيب كل البرقيات المتلقّاة ونسخة من برقيته في رزمة بعناية، ووضع الرزمة في ظرف وأغلقه بالصمغ وكتب عليه بضع كلمات ثمّ سلّمه لفارينوخا قائلاً:

- أوصله بنفسك في الحال يا إيفان سافيليفتش. ولينظروا في الأمر هناك.

«الآن هذا تصرّف ذكي فعلاً» فكّر فارينوخا ووضع الظرف في حقيبته، ثمّ أدار رقم شقّة ستيوبا مرة أخرى، لعلّ وعسى، وراح يصغي، ثم غمز بعينه بفرح وغموض وصعّر خدّه، بينما مطّ ريمسكي رقبته.

سأل فارينوخا بعذوبة:

- هل يمكنني مكالمة الفنان فولند؟

فردّ عليه صوتٌ رجراج عبر السماعة:

- إنه مشغول، ومن يطلبه؟

- مدير الفاريتيه فارينوخا.

صاح الصوت بفرح:

- إيفان سافيليفتش؟ أنا في غاية السرور لسماع صوتك! كيف صحتك؟

أجاب فارينوخا في ذهول:

- «ميرسي»، ومع من أتكلّم؟

أجابت السمّاعة بارتجاج:

- أنا المساعد، مساعده ومترجمه كوروفييف، كلّي في خدمتك يا إيفان سافيليفتش العزيز! ما عليك إلاّ أن تأمر. تفضّل؟

- العفو، هل ستيبان بوغدانوفيتش ليخودييف في البيت الآن؟

صاح الصوت:

- للأسف، هو غير موجود، غير موجود، لقد غادر!

- وإلى أين؟

- إلى الضواحي يتنزّه بالسيارة.

- يـ.. يتـ.. يتـ.. يتنزّه؟ ومتى سيعود؟

- قال إنه سيستنشق الهواء العليل ثم يعود!

قال فارينوخا في حيرة:

- هكذا إذاً... «ميرسي». تلطّف وبلّغ «مسيو» فولند أنّ عرضه اليوم سيكون في القسم الثالث.

فقال الصوت بنقرات متقطّعة:

- أمرك. طبعاً. حتماً. فوراً. أكيد. سأبلّغه.

قال فارينوخا مدهوشاً:

- تمنياتي لك بكلّ الخير.

فقالت السمّاعة:

- أرجو أن تتقبّل أفضل وأحرّ تحياتي وتمنياتي! بالنجاح! والتوفيق! ومنتهى السعادة. مع السلامة!

صرخ المدير هائجاً:

- طبعاً! قلت لك! لا يالطا ولا من يحزنون، ذهب إلى الضواحي!

قال المدير المالي ممتقعاً وحانقاً:

- لكن إذا كان هذا صحيحاً، فهذه حقاً حقارة لا توصف!

وهنا قفز المدير الإداري وصرخ بصوت جعل ريمسكي يجفل:

- تذكّرت! تذكّرت! في بلدة «بوشكين» تمّ افتتاح محل لبيع الفطائر اسمه «يالطا»! كل شيء بات مفهوماً الآن! ذهب إلى هناك وشرب حتى السُكر، وهو يبرق من هناك الآن!

فأجاب ريمسكي ووجنته ترتعش وعيناه تتقدان بغضب حقيقي بالغ:

- لا، هذا زائد عن الحدّ، لا بأس، سوف تكلّفه هذه النزهة كثيراً، - لكنه استدرك فجأةً هنا وأضاف في تردّد: - لكن كيف ذلك، فالمباحث الجنائية...

- هذا هراء! هذه من ألاعيبه هو، - قاطعه المدير الإداري الفائر العاطفة، ثم سأل: - هل أوصل الرزمة؟

ردّ ريمسكي:

- بالتأكيد.

ومرة أخرى فُتح الباب ودخلت تلك المرأة ذاتها... «هي!» فكّر ريمسكي بكآبة لسببٍ ما، ونهض كلاهما لملاقاة ساعية البريد.

هذه المرة كانت البرقية تتضمن الكلمات التالية:

«شكراً على التأكيد. خمسمئة فوراً. المباحث الجنائية. أُقلع إلى موسكو غداً. ليخودييف».

- لقد جُنّ... - قال فارينوخا بصوتٍ متعب، بينما خشخش ريمسكي بمفتاحٍ ما وأخرج من الخزنة المضادة للحريق مالاً، فعدّ خمسمئة روبل، ثم قرع الجرس وسلّم المال للساعي وبعث به إلى دائرة البرق.

قال فارينوخا غير مصدّق عينيه:

- العفو يا غريغوري دانيلوفيتش، برأيي عبثاً ترسل المال.

- سوف نسترجع المال، أما هو فسيدفع ثمن نزهته الصغيرة هذه غالياً، - ردّ ريمسكي بصوتٍ خافت، ثم أضاف وهو يشير إلى محفظة فارينوخا: - اذهب يا إيفان سافيليفتش، لا تتباطأ.

انطلق فارينوخا مع الحقيبة يعدو خارج المكتب.

نزل إلى الطابق السفلي فرأى طابوراً طويلاً جداً أمام الصندوق،

وعلم من موظفة الصندوق أنها تتوقّع نفاد التذاكر خلال ساعة لأن الجمهور بدأ يتدفق أفواجاً ما إن رأى الملصق الإضافي، فأمر فارينوخا بائعة التذاكر بعدم بيع أفضل ثلاثين مقعداً في الشرفات والصالة، ثم وثب خارج كشك التذاكر. وعلى المدخل تماماً راح يتملّص من طالبي بطاقات الدعوة المجانية اللجوجين، وانسلّ وسط الحشد إلى مكتبه الصغير ليأخذ قبّعته، وفي هذه اللحظة بدأ الهاتف يقرقع.

ردّ فارينوخا صائحاً:

- نعم!

سأل صوتٌ أخنّ عبر السمّاعة:

- إيفان سافيليفتش؟

ردّ فارينوخا صائحاً:

- إنه ليس في المسرح!

لكنّ الصوت قاطعه على الفور:

- لا تتحامق يا إيفان سافيليفتش واسمعني، لا توصل هذه البرقيات إلى أيّ مكان ولا ترِها أحداً.

قال فارينوخا منفجراً:

- من الذي يتكلّم؟ كفّ عن هذه الألاعيب أيها المواطن! سيتمّ كشفك في الحال! رقمك؟

ردّ الصوت الكريه ذاته:

- ألا تفهم اللغة الروسية يا فارينوخا؟ لا توصل البرقيات إلى أي مكان.

صرخ المدير محتدّاً:

- آها، ألن تكفّ عن ذلك؟ سوف أريك، وستدفع ثمن هذا.

وصرخ مرةً أخرى متوعّداً، لكنه صمت بعد ذلك لأنه شعر أنْ لا أحد يصغي إليه في السمّاعة.

حينها بدا أن العتمة بدأت تحلّ في المكتب بسرعة فهرع ستيوبا خارجاً، صافقاً الباب خلفه، وانطلق إلى حديقة «ليتني ساد» (الحديقة الصيفية) عبر ممرٍ خارجي.

كان المدير الإداري في حالة من الانفعال الشديد والنشاط المحموم. فبعد الاتصال الهاتفي الوقح لم يعد لديه شك أنّ عصبة من الزعران تقوم بألاعيب دنيئة، وأنّ لهذه الألاعيب علاقة باختفاء ليخودييف. كانت الرغبة في كشف هؤلاء الأشرار تخنق المدير الإداري، ولغرابة الأمر شعر بحلاوة ذلك مسبقاً، كما يحدث عادةً حين يتطلّع المرء إلى أن يصبح محطّ اهتمام، ويحمل معه خبراً مثيراً.

في الحديقة لفحت الريح وجه المدير الإداري وذرّت الرمل في عينيه، وكأنها تسدّ عليه الطريق، وكأنها تحذّره. صفق إطار نافذةٍ في الطابق الثاني بحيث كاد زجاجها يتطاير، وكانت ذرى أشجار القيقب والزيزفون تصخب باضطرابٍ وهلع. حلّت العتمة وصار الجو رطباً. فرك المدير الإداري عينيه ورأى غمامة صفراء كبيرة تنذر بعاصفةٍ تهبط فوق موسكو، وفي البعيد كان الجوّ كثيفاً وثقيلاً.

كان فارينوخا على عجلة من أمره إلاّ أنّ رغبةً لا تُقهر دفعته إلى أن يهرع للحظة إلى مرحاض الحديقة لمعاينة ما إذا كان الكهربائي قد ركّب مصباحاً في الشبكة أم لا.

بعد مروره بجوار «التير» ألفى فارينوخا نفسه في خميلةٍ كثيفة من أشجار الليلك، حيث مبنى المرحاض الأزرق. تبيّن أنّ الكهربائي شخص يتقن عمله، فتحت سقف قسم الرجال كان المصباح مغلّفاً

بشبكة معدنية، لكنّ ما كدّر المدير الإداري هو أنه كان بالإمكان تبيّن كتابات بالفحم وأقلام الرصاص تغطّي الجدران، حتى في العتمة التي تسبق العاصفة.

- ما هذا الـ. . . !

لم يكد المدير الإداري ينطق بهذه الكلمات حتى سمع خلفه صوتاً كالهرير:

- أهذا أنت يا إيفان سافيليفتش؟

جفل فارينوخا والتفت فرأى شخصاً بديناً صغيراً له وجه قط - كما بدا له - يقف خلفه، فأجاب بجفاء:

- نعم أنا.

- تشرّفنا، تشرّفنا جداً. - صاصأ البدين الشبيه بقِطّ، وانتفض فجأةً وضرب فارينوخا على أذنه بحيث طارت قبّعة المدير الإداري عن رأسه واختفت دون أثر في فتحة الكنيف.

من جرّاء ضربة البدين أضاء ضوءٌ راعش المرحاض كله للحظة وتردّد قصف الرعد في السماء. بعد ذلك برقت الدنيا مرةً أخرى وظهر أمام المدير الإداري شخصٌ ثانٍ صغير الحجم لكن عريض المنكبين، كأكتاف الرياضيين، أصهب الشعر كالنار، على إحدى عينيه بياض، وفي فمه ناب. هذا الشخص الثاني، الذي كان جلياً أنه أعسر، لكم المدير الإداري على أذنه الأخرى، ومرة أخرى أرعدت السماء ردّاً على ذلك، وانهمر المطر على سطح المرحاض الخشبي.

- ما هذا يا رفا. . . - همس المدير الإداري الذي فقد نصف صوابه، ثم أدرك على الفور أنّ صفة «رفاق» لا تليق مطلقاً بأشقياء يهاجمون شخصاً في دورة مياه عمومية، فقال بصوتٍ أبحّ: - أيها المواط. . . - وفطن إلى أنهما لا يستحقان هذه التسمية أيضاً، ثم

تلقّى ضربةً ثالثة رهيبة، لم يدرِ من أيّهما، جعلت الدم ينفر من أنفه على قميصه.

صرخ الشبيه بقط بصوتٍ حادّ:

- ماذا في حقيبتك يا سافل؟ البرقيات؟ ألم يحذّروك بالهاتف بألاّ توصلها إلى أي مكان؟ ألم يحذّروك، أنا أسألك؟

أجاب المدير الإداري منقطع الأنفاس:

- حذّ... حذّرو... حذّروني...

فصرخ فيه الثاني بذات الصوت الأخنّ الذي سمعه عبر الهاتف:

- لكنك رغم ذلك ركضت بها؟ هات الحقيبة يا وغد!

وانتزع الحقيبة من يدي فارينوخا المرتجفتين، ثم أمسكا المدير الإداري من إبطيه وجرّاه خارج الحديقة وانطلقا به عبر شارع «سادوفايا».

كانت العاصفة المطرية تهبّ بكلّ قوتها، وكانت مياه المطر تنهال في فوهات المجاري بدويٍّ وصخب، وكان المكان كله يرغي ويزبد، وفاض الماء سيولاً وتدفق عن الأسطح عبر الميازيب، وكانت جداول يعلوها الزبد تندفع من الفتحات أسفل البوابات.

جرجر الشقيان - وهما يقفزان في السيول العكرة ويستضيئان بوميض البرق - المدير الإداري إلى المبنى رقم ٣٠٢ مكرّر، وهو بين الحياة والموت، وهرعا به إلى أسفل قنطرة، حيث كانت امرأتان حافيتان تقفان لصق الجدار وقد حملتا حذائيهما وجواربهما بأيديهما، ثم انطلقا بفارينوخا، الذي يكاد يجنّ، إلى المدخل السادس وصعدا به إلى الطابق الخامس، فألقيا به على أرضية ردهة شقة ستيوبا ليخوديف شبه المعتمة التي يعرفها جيداً.

وهنا توارى الشقيان عن الأنظار وظهرت في الردهة مكانهما فتاة صهباء عارية تماماً ذات عينين فوسفوريتين متّقدتين.

أدرك فارينوخا أنّ هذا الأمر هو الأشدّ هولاً من كل ما جرى له، فتراجع نحو الجدار وراح يزحر. أما الفتاة فقد اقتربت نحو المدير الإداري ووضعت راحتي كفّيها على كتفيه. وقف شعر فارينوخا، فقد شعر أنّ هاتين اليدين أشدّ برودةً حتى من قميصه المشبع بالماء، وأنهما باردتان كالجليد.

- دعني أقبّلك، - قالت الفتاة برقّة وقاربت عيناها المتلألئتان عينيه مباشرةً. حينئذٍ غاب فارينوخا عن الوعي، ولم يشعر بالقبلة.

الفصل الحادي عشر

ازدواج إيفان

على الضفة الأخرى للنهر أصبح حرج الصنوبر، الذي كان مناراً بشمس أيار حتى قبل ساعة، شبه معتم وبهت لونه واختفى عن الأنظار.

كان المطر ينهمر خارج النافذة كغشاوة متواصلة، وكانت خيوط البرق تومض في السماء بين الحين والآخر، فكانت السماء تنشقّ ويغمر نورٌ راعش مفزع غرفة المريض.

كان إيفان يبكي بصوتٍ خافت وهو جالس على السرير ينظر إلى النهر العكر الذي يفور بالفقاعات. كان يصرخ بأسى شاكياً ويغطّي وجهه بيديه كلما قصف الرعد. كانت الأوراق التي ملأها إيفان بالكتابة مبعثرة على الأرض، فقد بعثرتها الريح التي هبّت على الغرفة قبل بدء العاصفة.

لم تؤدِّ محاولات الشاعر لكتابة بلاغ بخصوص المستشار الرهيب إلى شيء. فما أن حصل من الممرضة البدينة، التي كان اسمها براسكوفيا فيودوروفنا، على قطعة قلم رصاص وورقة حتى فرك يديه بجدية وجلس إلى الطاولة على عجل وشرع يكتب بهمّة ونشاط:

«إلى الشرطة. من عضو «الماسوليت» إيفان نيكولاييفيتش بيزدومني. بلاغ. البارحة مساءً وصلت مع المرحوم م. أ. بِرلُوز إلى بتريرشيه برودي...»

وعلى الفور ارتبك الشاعر بسبب كلمة «المرحوم» بشكل خاص، فقد كان فيها شيء غير معقول، إذ كيف يُعقل ذلك: وصلت مع المرحوم؟ فالموتى لا يسيرون! قد يعتبرونني مجنوناً بالفعل، من يدري!

مفكّراً على هذا النحو، بدأ إيفان نيكولاييفيتش يصحّح ما كتب، فنتج ما يلي: «... مع م. أ. بِرلُوز الذي توفي فيما بعد...»، لكنّ هذه الصيغة أيضاً لم ترُق الكاتب. فتوجّب عليه استخدام صيغة ثالثة تبيّن أنها أسوأ من الصيغتين الأخريين: «بِرلُوز الذي سقط تحت الترام...»، وهنا خطر له بإلحاح الموسيقي المغمور الذي له الكنية ذاتها، فتوجّب عليه أن يكتب: «... ليس الموسيقي...».

متعباً مع هذين البِرلُوزين شطب إيفان كل شيء وقرر أن يبدأ مباشرةً بشيء قوي جداً كي يجذب انتباه القارئ فوراً، فكتب عن القطّ الذي ركب الترام، ثم عاد إلى حادثة الرأس المقطوع. الرأس ونبوءة المستشار أوصلاه إلى الفكرة المتعلقة ببيلاطس البنطي، ومن أجل الإقناع التام قرر إيفان سرد قصة الوالي كاملةً، من لحظة خروجه ببردته البيضاء ذات البطانة الحمراء إلى الرواق ذي الأعمدة في قصر هيرودتس.

انكبّ إيفان على العمل، فشطب ما كتب، وأدخل كلمات جديدة، بل وحاول رسم بيلاطس البنطي، وبعد ذلك حاول أن يرسم القط منتصباً على قائمتيه الخلفيتين. لكن حتى الرسم لم يساعد الشاعر، فكلما توغّل في الأمر ازداد بلاغ الشاعر تخبّطاً وغموضاً.

إلى حين ظهور الغمامة المخيفة التي يحفّها الدخان، والتي غطّت حرج الصنوبر، وحين أخذت الريح تهبّ، شعر إيفان بالإنهاك وبأنه لن يتمكن من إنهاء البلاغ، فلم يعد يرفع الأوراق المتطايرة عن الأرض وراح يبكي بمرارة بكاءً خافتاً.

زارت الممرضة الطيبة القلب براسكوفيا فيودوروفنا الشاعر أثناء العاصفة، فشعرت بالقلق حين رأته يبكي، فأسدلت الستارة لكي لا يخيف البرق المريض ورفعت الأوراق عن الأرض وهرعت بها تستدعي الطبيب. حضر الطبيب وزرق يد إيفان بإبرة، وأكّد له أنه لن يبكي بعد الآن، وأنّ كل شيء سيزول الآن، وأنّ كل شيء سيتغير ويُنسى.

تبيّن أنّ الطبيب كان محقاً، إذ سرعان ما عاد الحرج الذي يلي النهر إلى سابق عهده ولاحت أشجاره حتى آخر شجرة تحت السماء وقد تنظّفت حتى عادت إلى زرقتها السابقة، كما أن النهر قد هدأ. بدأت الكآبة تغادر إيفان بعد الإبرة مباشرةً، وها هو الشاعر يستلقي بهدوء الآن ويرنو إلى قوس القزح الممتد عبر السماء.

استمرّت الحال على هذا النحو حتى المساء، بل إنّ الشاعر لم يلاحظ زوال قوس القزح وكيف اكفهرّت السماء برمّتها واسودّ الحرج.

بعد أن شرب حليباً ساخناً استلقى إيفان ثانيةً ودُهش، هو ذاته، لتبدّل أفكاره. فبشكل ما تلطّفت ذكرى القط الشيطاني اللعين، ولم يعد الرأس المقطوع يخيفه، وبعد أن طرح التفكير فيه جانباً راح إيفان يفكّر أنّ وجوده في العيادة ليس سيئاً جداً في الواقع، وأنّ سترافينسكي ذكي ومعروف والتعامل معه مريح جداً. فضلاً عن أنّ نسيم المساء منعش وصافٍ بعد العاصفة.

أخلد مستشفى المجانين للنوم، وانطفأت المصابيح البيض الخافتة في الممرات الهادئة وأُضيئت، بدلاً منها، نوّاصات زرقاء خافتة، تبعاً للنظام المتّبع، وأصبحت الخطوات الحذرة للمرضة على «موكيت» الممر المطاطي تُسمَع بشكل أندر فأندر.

كان إيفان الآن مستلقياً باسترخاء لذيذ وهو يرنو تارةً إلى المصباح ذي الغطاء الذي يهيل ضوءاً لطيفاً من السقف، وإلى القمر الطالع من وراء الحرج الأسود تارةً أخرى، وهو يحدّث نفسه قائلاً:

- لماذا حقاً اضطربت جرّاء سقوط بِرلُوز تحت الترام؟ في نهاية المطاف، فليسقط في مستنقع! فمن أنا بالنسبة إليه في واقع الأمر، إشبينه أم نسيبه؟ ولو فكّرت في هذه المسألة كما ينبغي ينتج أنني، في الواقع، لم أكن حتى أعرف المرحوم كما يجب. بالفعل، ماذا كنت أعرف عنه؟ لا شيء سوى أنه كان أصلعَ وفصيحاً بشكل مرعب. ثمّ يا أيها المواطنون - تابع إيفان كلامه مخاطباً أحدهم - فلنمعن التفكير في ما يلي: فسِّروا لي لماذا استشطت غضباً من هذا المستشار والساحر والبروفيسور الغامض ذي العين الفارغة والأخرى السوداء؟ لماذا كلّ مطارداتي السخيفة له وأنا بسروالي الداخلي وبيدي شمعة، ناهيكم عن المهزلة الجنونية في المطعم بعد ذلك؟

لكن فجأةً قال إيفان السابق لإيفان الجديد بصوت صارم لا يدري إن كان قد خرج من داخله أم من أعلى أذنيه:

- لكن، لكن، لكن، لكنه رغم ذلك كان يعلم مسبقاً أنّ رأس بِرلُوز سوف يُقطع، فكيف لا يضطرب المرء؟

فاعترض إيفان الجديد على إيفان القديم، إيفان السابق:

- فيمَ الحديث يا رفاق! حتى الطفل يدرك أنّ الأمر مريب. إنه شخصية خارقة وغامضة مئة بالمئة. لكن هاكم أطرف ما في الأمر! إنسان كان يعرف بيلاطس البنطي شخصياً، فهل هناك ما هو أطرف من ذلك؟ وبدلاً من إثارة فضيحة بمنتهى الغباء في «بتريرشيه» ألم يكن من الأذكى سؤاله بلباقة عمّا حدث لاحقاً لبيلاطس البنطي ولهذا الناصري المعتقل؟

بينما أنا، الله أعلم بمَ انشغلت! في الواقع، الحدث الهام أنّ رئيس التحرير قد دُهس! وأين المشكلة؟ هل سيغلقون المجلة؟ لكن ما العمل: الإنسان فانٍ، وفانٍ على حين غرّة، كما قيل بحقّ. إيه، رحمة الله عليه! وإذاً، سيأتي رئيس تحرير آخر، وقد يكون أفضل من سابقه.

غفا قليلاً، ثم سأل إيفان الجديد إيفان القديم بخبث:

- فمن أكون إذاً والحال هذه؟

- أحمق! - قال صوت جهوري واضح النبرة لم يكن صوت أيٍّ من الإيفانين ويشبه كثيراً صوت المستشار.

لسببٍ ما لم تغظ كلمة «أحمق» إيفان، بل وأثارت الدهشة والبهجة لديه، فضحك ضحكةً ساخرة وأخلد للنوم. لم يكد النوم يتسلّل إلى إيفان حتى تراءت له شجرة نخيل تنتصب على جذع كقائمة فيل، ومرّ القط بجوارها، لكنه لم يكن مخيفاً بل مرحاً. قُصارى القول، كاد إيفان يغطّ في النوم حين انزاحت شبكة النافذة فجأةً وظهرت في الشرفة قامة غامضة أخذت تهدّد إيفان بإصبعها وهي تختبئ من ضوء القمر.

نهض إيفان عن السرير دون أدنى خوف فرأى أنّ ما في الشرفة رجل. وضع هذا الرجل إصبعه على شفتيه وهمس:

- هسس!

الفصل الثاني عشر

السحر الأسود وكشف أسراره

صعد رجل صغير ذو أنف قرمزيّ على شكل إجّاصة، يعتمر قبعة مثقوبة صفراء أسطوانية الشكل ويرتدي بنطالاً ذا مربّعات وينتعل جزمة مطلية بالورنيش، خشبة «الفاريتيه» على درّاجة هوائية عادية بعجلتين. دار الرجل دورةً على أصوات «الفوكستروت» ثم أطلق صيحة النصر بحيث انتصبت الدارجة على عجلتها الخلفية. وسائراً على العجلة الخلفية وحدها وقف هذا الشخص على يديه رأساً على عقب، ثم تحايل، أثناء سيره، ففكّ صامولة العجلة الأمامية ودفع بها إلى الكواليس، وتابع قيادة الدراجة على عجلة واحدة وهو يدير الدوّاسة بيديه.

ثم صعدت فتاة شقراء ممتلئة القوام، ترتدي كنزة من الصوف وتنّورة تنتثر عليها نجوم مضيئة، ساريةً معدنية عالية وراحت تقود، بشكل دائري، دراجة بعجلة واحدة وسرجها نحو الأعلى. وكان الرجل الصغير يطلق الصيحات محيّياً ويخلع قبعته بقدمه كلّما مرّ بها.

وفي النهاية خرج طفل في الثامنة من العمر ذو وجهٍ هرم وراح يغدو جيئةً وذهاباً بين الشخصين البالغين على درّاجة صغيرة بعجلتين رُكِّب عليها بوق سيارة هائل الحجم.

بعد أن دارت المجموعة بضع دورات انطلقت بدرّاجاتها

متدحرجةً نحو حافة الخشبة، ترافقها ضربات طبل «الأوركسترا» منذرةً بالخطر، فشهق النظّارة الذين في الصفوف الأمامية وارتدّوا إلى الوراء، فقد بدا للجمهور أنّ الثلاثة سيسقطون فوق الأوركسترا مع درّاجاتهم. لكنّ الدرّاجات توقّفت تماماً لحظة كانت العجلات الأمامية تنذر بالانزلاق نحو الهاوية فوق رؤوس الموسيقيين. قفز الدرّاجون عن درّاجاتهم مع صرخة «هوب» بصوتٍ عالٍ، وانحنوا للجمهور، بل إنّ الشقراء أرسلت إلى الجمهور قبلة في الهواء، بينما أطلق الطفل من زمّوره إشارة مضحكة.

هزّ التصفيق المبنى، وانغلقت الستارة الزرقاء من الجهتين فحجبت الدرّاجين، ثم انطفأت الأضواء الخضر مع كتابة «مدخل» عند البوابة، وأُضيئت بالونات بيض كالشمس في شبكة المعيّن تحت القبّة. حانت الاستراحة التي تسبق الفصل الأخير.

الشخص الوحيد الذي لم تثر دهشته أعاجيب تقنية الدرّاجات التي قامت بها عائلة «جولّي» كان غريغوري دانيلوفيتش ريمسكي، فقد كان يجلس وحيداً تماماً في مكتبه ويعضّ على شفتيه الرقيقتين، وكثيراً ما كانت علامات التشنّج ترتسم على وجهه. ففضلاً عن اختفاء ليخودييف الغريب جاء اختفاء المدير الإداري فارينوخا غير المتوقّع على الإطلاق.

كان ريمسكي يعلم إلى أين ذهب فارينوخا، لكنه ذهب و... لم يعدا هزّ ريمسكي كتفيه وهمس لنفسه: لكن لماذا؟!

والغريب أنّ أبسط الأمور بالنسبة إلى شخص عملي كالمدير المالي كان بالطبع الاتصال هاتفياً إلى حيث ذهب فارينوخا لمعرفة ماذا طرأ له، لكنه، رغم ذلك، لم يستطع حمل نفسه على القيام بذلك حتى الساعة العاشرة مساءً.

وفي العاشرة أرغم ريمسكي نفسه ورفع السمّاعة فوجد أنّ هاتفه

معطّل كلياً. أخبره الساعي أنّ الهواتف الأخرى في المبنى هي أيضاً معطّلة. هذا الحدث العادي، وإن كان مزعجاً بالطبع، روّع المدير المالي تماماً لسببٍ ما، لكنه أفرحه في الوقت ذاته، فقد انتفت حتمية الاتصال.

ما إن ومض المصباح الأحمر أعلى رأس المدير المالي، معلناً بدء الاستراحة، حتى دخل الساعي وأبلغه بوصول الفنان الأجنبي. تشنّج المدير المالي لسببٍ ما واتّجه، ممتقع الوجه، إلى الكواليس لاستقبال الفنان الضيف، إذ لم يكن هناك غيره لاستقباله.

كان الفضوليون يسترقون النظر بذرائع شتّى إلى غرفة الماكياج من الممر الذي كانت ترنّ فيه الإشارات الصوتية. وكان في الغرفة لاعبو خفّة في أردية بيضاء ويعتمرون عمائم، ومتزلّج على الجليد في سترة بيضاء محبوكة، وحكواتي شاحب الوجه جرّاء البودرة، وماكيير.

أذهل الزائر البارز الجميع ببزّته الفراك، التي لم يُرَ لطولها مثيل، وببطانتها المدهشة، وبالقناع النصفي الأسود الذي يضعه. لكنّ المذهل أكثر كان مظهر رفيقي الساحر: شخص طويل القامة بملابس «كارّوه» ويضع على أنفه نظارة متصدّعة، وقط أسود بدين دخل غرفة الماكياج على قائمتيه الخلفيتين وجلس على الأريكة دون أيّ تكلّف وراح يحدّق في المصابيح الصغيرة لغرفة الماكياج.

جهد ريمسكي أن يرسم ابتسامة على وجهه، ما جعل وجهه يغدو مشاكساً وشريراً، وتبادل التحية منحنياً مع الساحر الصامت الجالس إلى جوار القط على الأريكة، دون أن يتصافحا. في حين قدّم «المربعاتي» الوقح نفسه بنفسه على أنه «مساعدهما». أثار هذا الموقف دهشة المدير المالي، ومرة أخرى كان الأمر مزعجاً، ففي العقد لم يرد أيّ ذكر لأيّ مساعد كان.

استفسر غريغوري دانيلوفيتش، بمنتهى التصنّع والجفاء، من «المربّعاتي» الذي هبط على رأسه فجأةً، عن مكان وجود الفنان.

أجاب مساعد الساحر بصوتٍ رجراج:

- يا ألماسنا السماوي، يا سيادة المدير المالي الغالي! عدّتنا معنا دائماً. ها هي! واحد، اثنان، ثلاثة! - وأدار أصابعه المتشابكة على مرأى من ريمسكي، واستلّ من خلف أذني القط ساعة ريمسكي الذهبية مع سلسلتها، والتي كانت قبل ذلك في جيب صدرية المدير تحت جاكيته المزرَّر معقودةً إلى عروة الصدرية بسلسلتها.

مدّ ريمسكي يده إلى بطنه لاشعورياً، وتأوّه الحاضرون متعجّبين، أما الماكيير، الذي كان يسترق النظر عبر الباب، فقد صرخ مستحسناً.

أعاد «المربّعاتي» الساعة إلى ريمسكي براحة يده المتّسخة وقال مبتسماً بوقاحة:

- ساعتك؟ أرجو أن تستلمها.

همس الحكواتي للماكيير بصوتٍ خافت مرح:

- لا تركب الترام مع شخص كهذا.

لكنّ القط قام بخدعةٍ أدهى من خدعة الساعة. فقد نهض واقفاً عن الأريكة فجأةً وتوجّه نحو طاولة المرآة الصغيرة على قائمتيه الخلفيتين، ونزع سدادة الدورق ببرثنه الأمامي، فسكب الماء في كأس وشربه، ثم أعاد السدادة إلى مكانها ومسح شاربيه بخرقة تُستخدم في الماكياج.

وهنا لم يأت أحد بأيّ آهة تعجّب واكتفوا بفغر أفواههم، في حين همس الماكيير بإعجاب:

- يا للروعة!

حينئذٍ دوّت الأجراس للمرة الثالثة منذرةً فخرج الجميع متدافعين من غرفة الماكياج متلهفين للعرض الرائع.

خلال دقيقة أُطفئت المصابيح في الصالة واشتعلت أضواء المسرح الأمامية مضيئةً أسفل الستارة بوميضٍ مائلٍ إلى الحُمرة، وفي شقّ الستارة المضاء انتصب أمام الجمهور شخص بدين، مبتهج كطفل، حليق الوجه، يرتدي بذلة فراك متغضّنة وملابس داخلية قديمة. كان هذا الشخص هو جورج بينغالسكي، عريف الحفلات الذي تعرفه موسكو كلها جيداً.

بدأ بينغالسكي الكلام وهو يبتسم كالأطفال:

- وهكذا أيها المواطنون، سيقدّم لكم الآن... - هنا قاطع بينغالسكي نفسه بنفسه وأردف بنبرة مختلفة: - أرى أنّ جمهور الفصل الثالث من حفلتنا قد ازداد أكثر من المعتاد. نصف المدينة عندنا الآن! وقد ألتقي صديقاً خلال أيام وأقول له: «لماذا لا تأتي إلينا، فالبارحة كان نصف سكان المدينة عندنا» فيجيبني: «أما أنا فأقيم في النصف الثاني!» - توقّف بينغالسكي متوقّعاً أن تنفجر الضحكات، لكن بما أنّ أحداً لم يضحك فقد تابع قائلاً: - ... والآن سيقدّم لنا الفنان الأجنبي الشهير السيد فولند عرضاً للسحر الأسود! لكننا جميعاً ندرك، - هنا ابتسم بينغالسكي بوقار، - أن لا وجود للسحر في الدنيا مطلقاً، وأنه ليس سوى خرافة، وأنّ كل ما في الأمر هو أنّ «المايسترو» فولند يتقن، ببساطة، تقنية ألعاب الخفّة بدرجة عالية، الأمر الذي سوف يتضح من خلال القسم الأشدّ إثارةً، أي المتعلق بكشف خفايا هذه التقنية، ونحن نؤيد كشف أسرارها، لذا نرجو السيد فولند أن يتفضّل!

بعد أن تلفّظ بينغالسكي بهذا الهراء كله شابك يديه ولوّح بهما

مرحِّباً عبر شقّ الستارة التي أصدرت حفيفاً خافتاً وانفرجت في الاتجاهين.

ظهور الساحر مع مساعده الفارع الطول والقط الذي راح يخطو على قائمتيه الخلفيتين على المسرح أعجب الجمهور كثيراً.

- إليَّ بمقعد، - أمر فولند بصوتٍ خفيض فظهر، للتوّ واللحظة، على الخشبة مقعد لا يعلم إلا الله كيف ومن أين أتى، فجلس عليه الساحر وتابع يسأل المهرّج الذي يبدو أنّ له اسماً آخر، إضافةً إلى اسم كوروفييف: - قل لي يا فاغوت العزيز، ألا ترى أن سكّان موسكو قد تغيّروا كثيراً؟

رنا الساحر إلى الجمهور الهامد الذي أذهله ظهور المقعد من الهواء. وأجاب فاغوت - كوروفييف بصوتٍ خافت:

- بالضبط يا سيدي.

- أنت محقّ. فقد تغيّر أهل المدينة بشدّة، أقصد من حيث المظهر، وكذلك المدينة نفسها بالمناسبة. ففضلاً عن البزّات ظهرت هذه الـ. . . ما اسمها. . . عربات الترام والسيارات. . .

- الحافلات، - لقّنه فاغوت بإجلال.

كان الجمهور يصغي باهتمام إلى هذا الحديث مفترضاً أنه تمهيد لألاعيب السحر. كانت الكواليس مكتظة بالفنانين وعمّال المسرح، ولاح وسط وجوههم وجه ريمسكي المتوتر الشاحب.

بدأ وجه بينغالسكي، المنزوي في جانب الخشبة، ينمّ عن عدم الفهم، فرفع حاجبيه قليلاً وقال، مستغلاً توقّف الساحر عن الكلام:

- الفنان الأجنبي يعرب عن إعجابه بموسكو التي تطورت من الناحية التقنية، وبالموسكوفيين كذلك. - وهنا ابتسم بينغالسكي مرتين، للصالة أولاً ثم للشرفات.

التفت فولند وفاغوت والقط برؤوسهم نحو عريف الحفل، وسأل الساحر فاغوت:

- تُرى هل أعربت عن إعجابي؟

- أبداً يا سيدي، لم تعرب عن أيّ إعجاب. - أجاب ذاك.

- فماذا يقول هذا الإنسان إذاً؟

- إنه يكذب ببساطة! - قال المساعد «المربّعاتي» بصوتٍ عالٍ سمعه المسرح كله، وأردف مخاطباً بينغالسكي: - تهانينا أيها المواطن الكذّاب!

ضجّت الشرفات بالضحك، أما بينغالسكي فقد ارتعد وجحظت عيناه.

- لكنني، بالطبع، لستُ مهتماً بالحافلات والهواتف وغيرها من الـ...

- الأجهزة! - لقّنه المربّعاتي.

فقال الساحر، وكان يتحدّث بصوتٍ أجشّ غليظ:

- بالضبط، أشكرك... بقدر ما يعنيني سؤال أكثر أهميةً بكثير هو: هل تغيّر أهل المدينة هؤلاء من الداخل؟

- نعم، هذا هو السؤال الأكثر أهميةً يا سيدي.

أخذ الذين في الكواليس يتبادلون النظرات وهم يهزّون أكتافهم، وكان بينغالسكي يقف محمرّ الوجه، بينما كان ريمسكي شاحباً. لكن حينها، وكأنما شعر بالحيرة الناشئة وسط الجمهور، قال الساحر:

- بيد أننا استرسلنا في الحديث يا عزيزي فاغوت، وبدأ الجمهور يشعر بالملل. أرنا شيئاً بسيطاً في البداية.

تنحنحت الصالة بارتياح. تفرّق فاغوت والقط إلى طرفي الأضواء الأمامية للخشبة. فرقع فاغوت بأصابعه وصاح بصوتٍ مرحٍ رنّان:

- ثلاثة، أربعة.

والتقط من الجو دستة من ورق اللعب فخلطها وأرسلها نحو القط على شكل شريط. التقط القط الشريط وأعادها إليه بالطريقة ذاتها. فحّت الأفعى الملساء، وفغر فاغوت فمه كفرخ عصفور وابتلع الدستة كلها، ورقة تلو أخرى.

بعد ذلك انحنى القط محيّياً، مقرقعاً بقائمته الخلفية اليمنى، مما أثار تصفيقاً لا يُصدَّق.

هتفوا من الكواليس بإعجاب:

- رائع، رائع!

أما فاغوت فقد أشار بإصبعه نحو الصالة وأعلن قائلاً:

- أيها المواطنون المحترمون! دستة ورق اللعب هذه موجودة الآن في الصف السابع مع المواطن بارتشيفسكي، تماماً بين ورقة الثلاثة روبلات وبين إشعار دعوته إلى المحكمة في قضية دفع النفقة للمواطنة زيلكوفايا.

بدأ الناس في الصالة يتحرّكون وينهضون واقفين، وأخيراً استلّ أحد المواطنين، وكان اسمه بارتشيفسكي بالتحديد، دستة ورق اللعب من محفظته، وهو محمرّ الوجه كلياً من الذهول، ورفعها عالياً في الهواء لا يدري ماذا يفعل بها.

صرخ فاغوت:

- احتفظ بها على سبيل الذكرى، فليس عبثاً أنك قلت بالأمس على العشاء إنه لولا البوكر لكانت حياتك في موسكو لا تُطاق على الإطلاق.

سُمع صوت من الشرفة يقول:

- خدعة قديمة، فهذا الذي في الصالة هو من نفس الفريق.

رمق فاغوت الشرفة وزمجر:

- أتعتقد ذلك؟ في هذه الحال أنت أيضاً واحد من عصبتنا لأنها في جيبك الآن!

جرت حركة في الشرفة وسُمع صوتٌ فرح يقول:

- صحيح! إنها معه! هنا، هنا... قف! لكنها تشِرفونتسات![1]

التفت الجالسون في الصالة برؤوسهم. عثر مواطن مرتبك في جيبه على رزمة مرزومة كرزم المصارف كُتب على غلافها: «ألف روبل».

تهافت عليه جيرانه، بينما راح يزيل الغلاف بأظفاره محاولاً معرفة ما إن كانت هذه «التشرفونتسات» حقيقية أم مزيّفة.

صاحوا من الشرفة بابتهاج:

- إنها حقيقية والله! تشرفونتسات!

طلب شخص بدين جالس في منتصف الصالة بمرح:

- لاعبوني أنا أيضاً هذه اللعبة.

أجاب فاغوت:

- بكل سرور، لكن لماذا أنت فقط؟ الجميع سيشاركون بحماس!

- وأمر قائلاً: - أرجو أن تنظروا إلى الأعلى!... واحد - وظهر في يده مسدس، ثم صاح: - اثنان! - وصوّب المسدس نحو الأعلى، ثم صاح: - ثلاثة! - فأبرقت وأرعدت، وعلى الفور بدأت أوراق بيضاء تتساقط من السقف المقبّب على الصالة.

دارت الأوراق في الهواء وتطايرت في جميع الجهات، ثم سقط بعضها على الشرفات وبعضها على الأوركسترا والخشبة. وفي ثوانٍ

(١) أوراق مالية من فئة العشرة روبلات، وهي كلمة شعبية مفردها «تشِرفونِتس».

بلغ وابل الأوراق المالية المقاعد، منهمراً بغزارة، فأخذ المشاهدون يلتقطون الأوراق.

ارتفعت مئات الأيدي في الهواء، فقد راح المشاهدون ينظرون عبر الأوراق إلى الخشبة المضاءة ورأوا علامات لا شكّ في مصداقيتها، والرائحة أيضاً لم تترك مجالاً للشك، فقد كانت رائحة أوراق مالية طُبعت للتوّ، الرائحة التي لا يضاهي روعتها شيء. تملّكت البهجة في البداية، ومن ثم الدهشة، المسرح كله. من كل مكان كانت تدوّي كلمة «تشرفونتسات، تشرفونتسات»، وتُسمع صيحات «آخ، آخ!» وضحكات سعيدة. بل أخذ بعضهم يزحف بين الصفوف باحثاً تحت المقاعد، وكثيرٌ منهم اعتلى المقاعد يلتقط الأوراق المتطايرة العنيدة.

أخذت الحيرة ترتسم على وجوه رجال الشرطة شيئاً فشيئاً، بينما راح الفنانون يطلّون برؤوسهم من الكواليس دون تكلّف.

في الشرف سُمع صوت يقول: «ما لك تلتقطها؟ إنها لي! كانت تطير نحوي!» فقال صوت آخر: «لاتدفعني هكذا، وإلا دفعتك أيضاً!»، وفجأةً سُمع صوت ارتطام، وعلى الفور ظهرت في الشرفة خوذة شرطي، وسيق أحدهم خارج الشرفة.

بشكل عام كانت الإثارة تتعاظم، ولا أحد يدري مآل هذا كله لو لم يوقف فاغوت وابل المال عبر نفخه في الهواء فجأةً.

تبادل شابان نظرات مرحة ذات دلالة ونهضا عن مقعديهما واتجها إلى البوفيه مباشرةً. كان الصخب يملأ المسرح، وكانت أعين النظّارة كلهم تلمع من فرط الإثارة. نعم بالفعل، الله أعلم إلامَ كان سينتهي هذا كله لو لم يجد بينغالسكي في نفسه القوة، ولو لم يتحرّك. جاهد بينغالسكي كي يتمالك نفسه وفرك يديه كعادته وقال بأعلى صوته:

- ها قد شاهدنا معاً، أيها المواطنون، حالة مما يسمى التنويم المغناطيسي الجماعي. وهي تجربة علمية خالصة تقدّم أفضل برهان على عدم وجود أيّ أعاجيب أو سحر. تعالوا نسأل «المايسترو» فولند إذاً أن يكشف لنا سرّ هذه الخدعة، وسترون في الحال، أيها المواطنون، كيف ستختفي فوراً هذه الأوراق، التي بدت في الظاهر أوراقاً نقدية.

وهنا راح يصفّق، لكن بمفرده تماماً، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة واثقة في أثناء ذلك، لكنّ عينيه كانتا تفتقران تماماً إلى هذه الثقة، بل بالأحرى كانتا تعبّران عن التضرّع والتوسّل.

لم يعجب كلام بينغالسكي الجمهور. وران صمتٌ مطبق قطعه فاغوت «المربّعاتي» معلناً بصوتٍ حادّ كصوت الماعز:

- مرة أخرى هذه حالة مما يسمّى الكذب. الأوراق أوراق مالية حقيقية أيها المواطنون!

جأر صوتٌ غليظ متقطّع من مكانٍ ما في الأعلى:

- برافو!

- بالمناسبة، هذا الشخص، - وأشار فاغوت إلى بينغالسكي، - يضجرني، فهو يحشر نفسه طوال الوقت في ما لا يعنيه ويفسد العرض بملاحظات كاذبة! فماذا نفعل به؟

قال أحدهم من الشرفة بعنف وقسوة:

- نقطع رأسه.

- ماذا قلت؟ هه؟ - ردّ فاغوت في الحال على هذا الاقتراح الفظيع، - نقطع رأسه؟ فكرة رائعة! - ثم صاح بالقط: - بيغيموت! نفّذ! واحد، اثنان، ثلاثة.

وحدث شيء لم يُرَ له مثيل من قبل. فقد انتصب وبر القط

الأسود وبدأ يموء مواءً يصمّ الآذان، ثم تكوّم على نفسه وانقضّ، كالنمر، على صدر بينغالسكي مباشرةً، ثم وثب معتلياً رأسه وتشبّث، بقوائمه الربضة، بفروة شعر عريف الحفل الدهنية، وهو يهرّ، ثم أدار رأسه مرتين وفصله عن رقبته المكتنزة، مطلقاً عواءً وحشياً.

صاح الألفان والخمسمئة شخص الموجودون في المسرح صيحة رجلٍ واحد. تدفّق الدم من شرايين الرقبة المقطوعة كالنافورة إلى الأعلى وغطّى صدر القميص والبذلة الرسمية. راح الجسد المقطوع الرأس يجرجر قدميه بشكل أخرق، وجلس على الأرض. سُمعت في الصالة صرخات النساء الهستيرية. ناول القط الرأس لفاغوت فرفعه هذا من شعره وأراه للجمهور، وصاح الرأس بصوتٍ يائس دوّى في المسرح كله:

- الطبيب!

سأل فاغوت الرأس الباكي متوعّداً:

- هل ستستمر في هرائك؟

فحشرج الرأس:

- لا، لن أفعل.

فجأةً دوّى صوت نسائي من الشرفة تعالى فوق لغط الغوغاء:

- لا تعذّبه بحقّ الله!

فاستدار فاغوت نحو صاحبة الصوت ثم سأل مخاطباً الصالة:

- ماذا إذاً أيها المواطنون، هل نعفو عنه؟

- نعفوا نعفو! - تعالت في البداية أصوات منفردة، معظمها نسائية، ثم ذابت في جوقة واحدة مع أصوات الرجال.

سأل فاغوت الساحر المقنّع:

- بمَ تأمر يا سيدي؟

ردّ ذاك بشرود:

- ماذا أقول، هم كغيرهم من البشر، يحبون المال، كما كانت الحال دائماً بالمناسبة... البشر يحبّون المال أيّاً كان نوعه، سواء كان مصنوعاً من الجلد أو الورق أو البرونز أو الذهب. يا لخفة عقولهم... لكن ما العمل... والرحمة أيضاً تنبض في قلوبهم أحياناً... أناس عاديون، وعلى العموم إنهم يذكّرونني بمن سبقهم... إلا أن مسألة السكن قد أفسدتهم... - ثم أمر بصوتٍ عالٍ: - ركّبوا الرأس.

أمال القط الرأس على الرقبة، واضعاً إياه مكانه بدقة، فعاد إلى وضعه تماماً كأنه لم يغادره قط. والأهم أنه لم تبقَ حتى أي ندبة على الرقبة. ثم نفض القط ببراثنه بزّة بينغالسكي وقميصه فاختفت منها آثار الدماء. أنهض فاغوت بينغالسكي الجالس على قدميه ودسّ في جيب بزّته الرسمية رزمة «تشرفونتسات» ثم أنزله عن الخشبة قائلاً:

- اغرب من هنا! من دونك أمتع.

جرجر عريف الحفل قدميه وهو يتلفّت حوله ببلاهة، لكنه ما إن بلغ مركز الإطفاء بعناء حتى شعر بأنه ليس على ما يرام وراح يصرخ شاكياً:

- رأسي، رأسي!

هرع إليه ريمسكي مع آخرين. كان عريف الحفل يبكي ويحاول الإمساك بشيء ما في الهواء وهو يغمغم:

- هاتوا رأسي! أعطوني رأسي! خذوا شقتي، خذوا اللوحات، فقط أعيدوا إليّ رأسي!

ركض الساعي لاستدعاء الطبيب. حاولوا إضجاع بينغالسكي على أريكة في غرفة الماكياج لكنه راح يقاوم بعنف وهياج، ما استوجب

استدعاء عربة إسعاف. بعد أخذ عريف الحفلات المسكين عاد ريمسكي مسرعاً إلى المسرح فرأى أنّ عجائب جديدة تجري على الخشبة. وبالمناسبة، في هذه اللحظة بالذات، أو ربما قبل ذلك بقليل، اختفى الساحر مع مقعده الباهت اللون عن الخشبة، لكن يجدر القول إن الجمهور المأخوذ بالخوارق التي كان فاغوت يعرضها على الخشبة لم يلحظ ذلك على الإطلاق.

أما فاغوت، فبعد أن ودّع عريف الحفلات المنكوب أعلن للجمهور ما يلي:

- الآن، بعد أن تخلّصنا من هذا المزعج، تعالوا نفتح متجراً نسائياً.

وفي الحال غطّت سجادات فارسية أرضية الخشبة، وانبثقت مرايا ضخمة مضاءة بأنابيب مائلة إلى الخضرة من جوانبها، وبين المرايا «فيترينات» رأى الجمهور، بانبهار وفرح، في داخلها فساتين نسائية باريسية من شتى الألوان والموديلات. هذا في بعض الفيترينات، وفي أخرى مئات القبعات النسائية، بريش ودون ريش، ببكلات ودون بكلات، ومئات الأحذية السود والبيض والصفر من الجلد ومن الأطلس والشاموا، بسيورٍ وحجارة صغيرة. كما لاحت بين الأحذية علب تتلألأ في داخلها حوافّ قوارير من الكريستال وأكوام من الجزادين المصنوعة من جلود الظباء والغزلان ومن الحرير، وبينها أكداس من العلب المستطيلة الذهبية متقنة الصنع فيها أقلام أحمر الشفاه.

ثم ظهرت فتاة صهباء، الله أعلم من أين، ترتدي ثوب سهرة أسود اللون، كل ما فيها جميل لولا ندبة غريبة الشكل على عنقها، وأخذت تبتسم ابتسامة صاحبة متجر قرب الفيترينات.

أعلن فاغوت، وهو يبتسم بعذوبة، أنّ الشركة تجري مقايضة، مجانية تماماً، الأثواب والأحذية النسائية القديمة بأثواب وأحذية باريسية، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالجزادين والعطور وغيرها.

بدأ القط يطقطق بقائمتيه الخلفيتين والأماميتين ويقوم، في الوقت ذاته، بحركات كحركات البوّابين حين يفتحون الأبواب.

شرعت الفتاة تغنّي بعذوبة، وإن ببحّة، لاثغةً بكلامٍ غير مفهوم جيداً، لكنه مغرٍ، كما بان في وجوه النساء في الصالة:

- غيرلين، شانيل رقم خمسة، ميتسوكو، نرسيس نوار، فساتين سهرة، فساتين كوكتيل...

كان فاغوت يتمايل، والقط ينحني، والفتاة تفتح الفيترينات الزجاجية.

صاح فاغوت بصوتٍ عالٍ:

- تفضّلوا! دون أيّ خجل أو حرج.

هاج الجمهور وماج، لكنّ أحداً لم يحسم أمره لصعود الخشبة. وأخيراً نهضت فتاة شعرها أسود من الصف العاشر في الصالة وتوجهت نحو الخشبة وهي تبتسم على نحوٍ يوحي بأنّ الأمر سيّان لديها وأنها لا تبالي على الإطلاق، وصعدت الخشبة عبر المرقاة الجانبية.

صاح فاغوت:

- برافو! أحيّي أولى الزائرات! مقعد يا بيغيموت! لنبدأ بالحذاء، مدام.

جلست الفتاة ذات الشعر الأسود على الكرسي، وعلى الفور أهال فاغوت على السجادة أمامها كوماً كاملاً من الأحذية.

خلعت الفتاة فردة حذائها اليمنى، وجرّبت حذاءً ليلكي اللون، وسارت به على السجادة، وعاينت كعبه، ثم سألت متفكّرةً:

- ألن يضغط على قدمي؟

صاح فاغوت باستياء ردّاً على ذلك:

- ما هذا الكلام، ما هذا الكلام؟!

وماء القط أيضاً مستاءً.

فقالت الفتاة بوقار وهي تنتعل الفردة الأخرى:

- سآخذ هذا الزوج «مسيو».

رُمي حذاء الفتاة القديم خلف الستارة، وهي لحقت به بدورها برفقة الفتاة الصهباء وفاغوت الذي حمل بضعة فساتين عصرية على علاّقات. وكان القط يتحرّك بشكل محموم ويساعدهم، وقد علّق برقبته متراً لإضفاء المزيد من الأهمية.

بعد دقيقة خرجت الفتاة من وراء الستارة ترتدي ثوباً جديداً شهقت لجماله الصالة كلها. وقفت المرأة الشجاعة، التي ازدادت جمالاً إلى درجة الإدهاش، أمام المرآة، وهزّت كتفيها، ولمست شعرها على قذالها وانحنت محاولةً إلقاء نظرة على نفسها من الخلف.

ناول فاغوت الفتاة ذات الشعر الأسود علبة مفتوحة فيها قارورة وقال:

- ترجوك الشركة قبول هذه على سبيل الذكرى.

- «ميرسي». - أجابت الفتاة بعجرفة ثم نزلت إلى الصالة عبر الدرج الجانبي، وأثناء سيرها نحو مقعدها كان النظّارة يثبون واقفين ويلمسون العلبة.

وحينئذٍ أفلت زمام الأمور تماماً واندفعت النساء إلى الخشبة من كل حدبٍ وصوب. ووسط الأصوات والضحكات والتنهّدات الهائجة سُمع صوت رجالي يقول: «لا أسمح لكِ»، وصوت نسائي يرد:

«مستبد وضيق الأفق، تكاد تكسر يدي!». توارت النساء خلف الستارة، حيث تركنَ أثوابهنّ القديمة وخرجن بأثواب جديدة. وعلى مقاعد مذهّبة القوائم جلس صف كامل من النساء وهنّ يضربن السجّادة بأحذيتهن الجديدة. كان فاغوت جاثياً على ركبتيه يساعد النساء على انتعال الأحذية، بينما راح القط ينتقل بين الفيترينات والمقاعد بتثاقل، وهو ينوء تحت أكوام الجزادين والأحذية، في حين كانت الفتاة المشوهة العنق تظهر حيناً وتختفي حيناً، وبلغ بها الأمر أنها صارت ترطن كلياً بالفرنسية فقط، والمدهش أنّ النساء كلهن كنّ يفهمن ما تقول «على الطاير»، حتى اللواتي لم يكنّ يعرفن كلمة فرنسية واحدة.

وقد أثار دهشة الجميع رجلٌ تطفّل على الخشبة، حيث أعلن أنّ زوجته مصابة بالرشح، وأنه، لهذا السبب، يرجو أن يعطوه شيئاً لأجلها. ولإثبات أنه متزوج بالفعل كان المواطن على استعداد لإبراز بطاقته الشخصية. قوبل إعلان الزوج المهتم بزوجته بالقهقهات، فصرخ فاغوت قائلاً إنه يصدّقه كما يصدّق نفسه، ومن دون بطاقة هوية، وأعطى المواطن زوجين من الجوارب الحريرية، وأضاف إليهما القط من عنده علبة أحمر شفاه.

كانت النساء المتأخرات يندفعن إلى الخشبة بلهفة، وعلى الخشبة كانت المحظوظات يتهادين بانسياب في فساتين السهرات الراقصة وفي منامات موشّاة بتنانين وفي بدلات رسمية رزينة وفي قبّعات مائلة على جانب واحد.

حينذاك أعلن فاغوت أن المتجر سيغلق بعد دقيقة بالضبط، نظراً لتأخر الوقت، إلى مساء اليوم التالي، فتصاعدت جلبة لا تُصدَّق على الخشبة. أخذت النساء يتخاطفن الأحذية دون قياسها، واندفعت

إحداهن إلى خلف الستارة كالعاصفة، فألقت عنها ثوبها القديم وارتدت أول شيء وقعت يدها عليه، وكان رداءً حريرياً عليه باقتا ورد كبيرتان، فضلاً عن أنها تمكّنت من اختطاف زجاجتي عطر.

بعد دقيقة تماماً دوّى صوت طلقة مسدس، فاختفت المرايا وغارت الفيترينات والمقاعد وتبخّرت السجّادات في الهواء، وكذلك الستارة، وكان آخر ما اختفى الجبل الشاهق من الأثواب والأحذية القديمة، وعادت الخشبة صارمة وخالية وعارية من جديد.

وهنا تدخّلت شخصية جديدة في الأمر. فقد سُمع من المقصورة رقم ٢ صوت جهوري لطيف ورخيم يقول بإلحاحٍ شديد:

- مع هذا حبّذا، أيها المواطن الفنان، لو تكشف في الحال للمشاهدين تقنية خدعك، وخاصةً خدعة الأوراق المالية، وحبّذا لو يعود عريف الحفل إلى الخشبة، فمصيره يقلق المشاهدين.

لم يكن الصوت الجهوري سوى صوت ضيف أمسية اليوم أركادي أبوللونوفيتش سيمبلاروف رئيس لجنة معدّات الصوت لمسارح موسكو.

كان أركادي أبوللونوفيتش يجلس في المقصورة برفقة سيدتين: امرأة مسنّة ترتدي ملابس عصرية غالية، وأخرى شابة جميلة ترتدي ملابس أكثر بساطة. أولاهما كانت زوجة أركادي أبوللونوفيتش، كما تبيّن عند تسجيل المحضر، والثانية قريبة قرابة بعيدة، وهي فنانة مبتدئة واعدة، قدمت من ساراتوف وتقيم في شقة أركادي أبوللونوفيتش وزوجته.

أجاب فاغوت:

- عفواً! أعتذر، ليس هناك ما يحتاج إلى الكشف هنا، فكل شيء واضح.

- لا، آسف! الكشف ضروري تماماً، وإلاّ تركت عروضكم الرائعة انطباعاً مزعجاً. الجمهور يطالب بالتوضيح.

قاطع المهرّج الوقح سيمبلاروف قائلاً:

- لا يبدو أن الجمهور قد أعلن شيئاً! ولكن نزولاً عند رغبتك التي نكنّ لها عميق الاحترام يا أركادي أبوللونوفيتش سأقوم بكشف خفايا الخدع. لكن من أجل ذلك هل تسمح بفقرة قصيرة أخرى؟

أجاب أركادي أبوللونوفيتش بنبرة الحامي والراعي:

- لِمَ لا، لكن مع فضح أسرارها حتماً!

- أمرك، أمرك. اسمح لي إذاً بسؤالك أين كنت البارحة مساءً يا أركادي أبوللونوفيتش؟

لدى سماعه هذا السؤال غير اللائق، بل والفظّ إذا شئتم، تغيّر لون أركادي أبوللونوفيتش، بل وتغيّر كثيراً. فأعلنت زوجته بغطرسة بالغة:

- البارحة مساءً كان أركادي أبوللونوفيتش في اجتماع لجنة الصوتيات، لكنني لا أفهم ما شأن السحر بذلك.

- وي مدام، طبيعي ألاّ تفهمي، - أكّد فاغوت، - أما بخصوص الاجتماع فأنت مخطئة تماماً. فحين غادر أركادي أبوللونوفيتش إلى الاجتماع المذكور، الذي لم يكن مقرّراً أصلاً البارحة مساءً بالمناسبة، صرف السائق عند مبنى لجنة الصوتيات في «جيستيه برودي» (وهنا ران الصمت على المسرح برمّته)، أما هو فركب الحافلة إلى شارع «يلوخوفسكايا» ليحلّ ضيفاً على فنانة المسرح المحلي الجوّال ميليتسا أندرييفنا بوكوباتكو، وأمضى عندها قرابة أربع ساعات.

- أوي! - تأوّه أحدهم بألم في الصمت المطبق.

أما قريبة أركادي أبوللونوفيتش الشابّة فقد ضحكت ضحكة خَافتة مخيفة وصاحت:

- كل شيء بات مفهوماً! وأنا أيضاً كنت أشكّ في الأمر منذ مدة طويلة. الآن اتضح لي سبب حصول عديمة الموهبة هذه على دور لويزا!

وعلى حين غرّة لوّحت بمظلتها القصيرة والغليظة الليلكية اللون وهوت بها على رأس أركادي أبوللونوفيتش.

أما السافل فاغوت، الذي هو كوروفييف، فقد صرخ:

- هاكم، أيها المواطنون المحترمون، واحدة من حالات الفضح التي أرادها أركادي أبوللونوفيتش بإلحاح!

انتصبت زوجة أركادي أبوللونوفيتش بكامل قامتها العملاقة في المقصورة وسألت الفتاة في تهديد:

- كيف تجرُئين على المسّ بأركادي أبوللونوفيتش أيتها السافلة؟

استولت نوبة ثانية قصيرة من الضحك الشيطاني على القريبة الشابة، وأجابت مقهقهةً:

- قد لا يجرؤ غيري، أما أنا فأجرؤ! - وللمرة الثانية ندّت عن المظلة المرتدة عن رأس أركادي أبوللونوفيتش فرقعة هامدة.

صرخت زوجة سيمبلاروف بصوتٍ مرعب تجمّدت له أوصال كثيرين:

- الشرطة! ليأخذوها!

وزاد القط على ذلك، فقفز إلى مقدمة الخشبة وجأر فجأةً بصوتٍ بشري ملأ المسرح كله:

- انتهى العرض! أيها المايسترو، قطّع مارشاً!!

لوّح قائد الأوركسترا، فاقد الصواب، بعصاه، وهو لا يعي ما

يفعل، لكنّ الفرقة لم تعزف، ولم تهدر حتى، بل ولم تضجّ، وإنما قطّعت، بالضبط وفق تعبير القط المنفّر، مارشاً لامعقولاً لا يضاهيه في جلافته شيء.

للحظة يخال المرء أنّ كلمات هذا المارش، الغامضة لكن الجريئة، قد تردّدت في وقتٍ ما تحت نجوم الجنوب في مقهىً مبتذل:

كان معاليه
يحب الطيور الداجنة
وشمل برعايته
الفتيات الحسناوات!!!

ولعلّ هذه الكلمات لم تكن كلمات هذا اللحن على الإطلاق، وكانت هناك كلمات أخرى غير لائقة بتاتاً. وليس هذا هو المهم، بل المهم ما حدث، بعد هذا كله، إذ بدأ في «الفاريتيه» ما يشبه بلبلة بابل. فقد هرعت الشرطة إلى مقصورة سيمبلاروف، وتسلّق الفضوليون الحاجز الفاصل، ودوّت انفجارات القهقهات الجهنمية والصيحات المذعورة التي غطّت على الرنين الذهبي لصنوج الفرقة الموسيقية.

وبدا أنّ الخشبة قد خلت بغتةً، وأنّ المحتال فاغوت والقط الوقح بيغيموت قد تبخّرا في الهواء واختفيا، كما اختفى من قبلهما الساحر مع أريكته البالية التنجيد.

الفصل الثالث عشر

ظهور البطل

وإذاً، فقد هدّد الشخص المجهول إيفان بإصبعه وهمس: «هسس!»

أنزل إيفان قدميه عن السرير وتفرّس فيه. كان رجلاً حليق الوجه في نحو الثامنة والثلاثين، أسود الشعر، حادّ الأنف، تتدلى خصلة شعر على جبينه، ينظر من الشرفة إلى داخل الغرفة بحذر وبعينين متوجّستين.

بعد أن أصاخ الزائر الغامض السمع وأيقن أنّ إيفان بمفرده تجرّأ ودخل الغرفة. حينها رأى إيفان أن القادم يرتدي زيّ المستشفى، فقد كان في ملابس داخلية وينتعل خفّاً دون جوربين وعلى كتفيه صدرية بنيّة ملقاة بإهمال.

غمز القادم إيفان وأخفى حزمة مفاتيح في جيبه، ثم استفسر هامساً: «أيمكنني الجلوس؟» وحين تلقّى إيماءة بالإيجاب جلس على المقعد.

أذعن إيفان لتهديد الإصبع النحيل وسأل هامساً:

- كيف وصلت إلى هنا؟ أليست شبكات الشرفة مُحكمة الإغلاق؟

قال الضيف مؤكّداً:

- الشبكات مقفلة طبعاً، لكنّ براسكوفيا فيودوروفنا كثيرة السهو

للأسف، رغم أنها بالغة اللطف. وقد سرقت منها حزمة المفاتيح منذ شهر، وبهذه الطريقة صار بإمكاني الخروج إلى الشرفة العامة المحيطة بالطابق كله، وبالتالي زيارة الجيران أحياناً.

سأله إيفان مهتماً:

- إذا كنت تستطيع الخروج إلى الشرفة فيمكنك الهرب أيضاً، أم أنّ الشرفة عالية؟

أجاب الضيف بحزم:

- لا، لا يمكنني الهرب من هنا، ليس لأن الشرفة عالية بل لأنَّ ليس لي مكان أهرب إليه.

وبعد هنيهة أضاف:

- هل تسمح لي بالجلوس؟

- تفضّل، - أجاب إيفان وهو يتفرّس في عيني الزائر البنيّتين والقلقتين جداً.

- نعم... - هنا شعر الضيف بالقلق فجأةً - لكنك لست عنيفاً كما آمل؟ إذ عليك أن تعلم أنني لا أحتمل الضوضاء والصخب والعنف ومن قبيل ذلك، وبشكل خاص، لا أطيق صراخ البشر، سواء كان صراخ الألم أو الغضب أو أي صراخ آخر. طمئنّي وقل لي: هل أنت عنيف؟

اعترف الشاعر برجولية:

- بالأمس ضربت أحدهم على سحنته في المطعم.

- والسبب؟ - سأل الضيف بصرامة.

أجاب إيفان مرتبكاً:

- دونما سبب، أقرّ بهذا.

- قلّة أدب، - قال الضيف مستنكراً ثم أضاف: - ثم ما هذه

الطريقة في التعبير: ضربته على سحنته؟ فنحن لا ندري ماذا بالتحديد لدى الإنسان: سحنة أم وجه. ومع ذلك، على الأرجح وجه. وبالتالي، تعلم، بالقبضات... لا، دعك من هذا، وإلى الأبد.

بعد أن وبّخ الضيف إيفان على هذا النحو، سأله:

- المهنة؟

- شاعر، - اعترف إيفان دونما رغبة لسببٍ ما.

تكدّر الزائر وصاح:

- آخ، ما أتعس حظي! - لكنه استدرك على الفور، فاعتذر وسأل: - ما كنيتك؟

- بيزدومني.

- إيه، إيه... - قال الضيف متجهماً.

فسأله إيفان بفضول:

- ماذا، لا تعجبك أشعاري؟

- لا تعجبني على الإطلاق.

- وأيها قرأت؟

- لم أقرأ أياً من أشعارك قط! - صاح الزائر بعصبية.

- فكيف حكمت إذاً؟

أجاب الضيف:

- وما الغريب في الأمر؟ كأني لم أقرأ غيرها. بالمناسبة... هل هي رائعة؟ حسناً، أنا على استعداد لأن أصدّقك. قل لي أنت: هل أشعارك جيدة؟

- مريعة! - قال إيفان فجأةً بشجاعة وصراحة.

- كفّ عن الكتابة إذاً! - رجاه الزائر متوسّلاً.

- أعدك وأُقسم على ذلك! - قال إيفان بمهابة، وصادقا على

القسم بالمصافحة، وفي هذه اللحظة تناهت إليهما من الممر أصوات وخطوات خفيفة.

- هسس، - همس الضيف، وبعد أن قفز إلى الشرفة أغلق الشبكة وراءه.

أطلّت براسكوفيا فيودوروفنا وسألت إيفان عن حاله وما إذا كان يرغب في النوم في العتمة أم في الضوء. طلب إيفان إبقاء المصباح مضاءً، فغادرت براسكوفيا فيودوروفنا متمنيةً للمريض ليلةً هانئة. وعندما هدأ كل شيء عاد الضيف من جديد.

أخبر الضيف إيفان أنه جيء بمريض جديد، بدين أحمر الوجه، إلى الغرفة رقم ١١٩، يغمغم طوال الوقت بكلامٍ ما عن عملة أجنبية في المكيّف، ويقسم أنّ قوى شريرة قد انتقلت للإقامة لديهم في شارع «سادوفايا».

- إنه يشتم بوشكين بأقذع الشتائم ويصرخ طوال الوقت: «كوراليسوف، بيس، بيس!» - قال الضيف وهو يرتعد بهلع. وبعد أن هدأ جلس وقال: - على كلٍّ، كان الله في عونه، - ثم استأنف حديثه إلى إيفان: - وإذاً، ما الذي أوصلك إلى هنا؟

أطرق إيفان إلى الأرض عابساً وأجاب:

- بيلاطس البنطي.

- كيف؟ - صاح الضيف، ناسياً حذره، وسدّ فمه بيده، - تطابق مذهل، أرجوك، أرجوك، احكِ لي!

بدأ إيفان، وقد شاعر بالثقة تجاه الغريب لسببٍ ما، يقصّ عليه، متلعثماً ووجلاً في البداية وبعد ذلك بجرأة، ما جرى بالأمس في «بتريرشيه برودي». نعم، وجد إيفان نيكولايفيتش مستمعاً ممتنّاً في شخص لصّ المفاتيح الغامض! لم يضع الضيف إيفان في مصافّ

المجانين، وأبدى بالغ الاهتمام بروايته، ومع تطور مجريات القصة أخذه الحماس والابتهاج أخيراً فراح يقاطع إيفان صائحاً:

- إي، إي! تابع، تابع، أتوسّل إليك. فقط لا تغفل شيئاً، بحقّ كل ما هو مقدّس.

فلم يغفل إيفان شيئاً، وكان أيسر عليه هو أيضاً أن يروي القصة، وشيئاً فشيئاً وصل إلى اللحظة الحرجة التي خرج فيها بيلاطس البنطي إلى الشرفة ببردته البيضاء ذات البطانة الدموية.

حينذاك ضمّ الضيف يديه بوضعية الدعاء وهمس:

- أوه، كما خمّنت! أوه، كل شيء كما خمّنت!

علّق المستمع على موت بِرلُوز المريع بملاحظة ملغزة وعيناه تقدحان شرراً:

- الشيء الوحيد الذي آسف له هو أنّ الناقد لاتونسكي أو الأديب مستيسلاف لافروفيتش لم يكونا مكان بِرلُوز هذا، - ثم همس بحماسٍ شديد: - تابع!

أضحكت الضيف كثيراً حادثة دفع القط ثمن التذكرة للجابية، فقد أغرق في ضحكٍ خافت وهو ينظر إلى إيفان، الذي أثاره نجاح قصته، فراح يقفز مقرفصاً، مقلّداً القط وهو يمسح شاربيه بالغريفينك.

بعد أن روى إيفان ما جرى في «غريبوييدوف» أنهى كلامه متجهماً عابساً:

- وهكذا وجدت نفسي هنا.

وضع الضيف يده بتعاطف على كتف الشاعر المسكين وقال:

- يا للشاعر المسكين! لكنّ الذنب في هذا كله ذنبك أنت يا عزيزي، إذ ما كان عليك معاملته بهذه الوقاحة، بل بهذه الدناءة. وها

قد دفعت الثمن، وعليك أن تكون ممتنّاً أنّ هذا كله قد كلّفك كلفة زهيدة نسبياً.

هزّ إيفان قبضتيه مستثاراً وسأل:

- ومن يكون في نهاية المطاف؟

تأمّل الضيف إيفان ملياً وردّ عليه بسؤال:

- ألن تهتاج؟ جميعنا هنا لسنا أهلاً للثقة... استدعاء الطبيب والحقن وغيرها من الأمور المزعجة... ألن يكون هناك شيء من هذا؟

صاح إيفان:

- كلا، كلا! قل لي، من يكون؟

- حسناً، - أجاب الضيف ثم قال بتهيّب مقطّعاً كلامه: - لقد التقيت الشيطان البارحة في «بتريرشيه برودي».

لم يهتج إيفان كما وعد، لكنه صُعق بشدة مع ذلك، وقال:

- هذا مستحيل! فالشيطان غير موجود.

- العفو! قد يحقّ لغيرك قول هذا لكن ليس أنت. فأنت، على ما يبدو، من أوائل الذين عانوا منه. وها أنت في مصحّ للأمراض النفسية، كما ترى، وما زلت متمسكاً بعناد بفكرة عدم وجوده. هذا غريب حقاً!

شعر إيفان بالحيرة فلاذ بالصمت، بينما تابع الضيف قائلاً:

- ما إن بدأت تصفه حتى رحت أخمّن من الذي سُعدتَ بالتحدث إليه البارحة. والحقيقة يدهشني بِرلُوز! فأنت شخص غرّ بالطبع، - وهنا اعتذر الضيف ثانيةً، - أما هو، فكم سمعت به، فهو قد قرأ شيئاً رغم كل شيء! لقد بدّدت أولى كلمات هذا البروفيسور شكوكي كلها. يستحيل ألاّ يتعرّفه المرء يا صديقي! على أي حال...

وأرجو أن تعذرني ثانيةً، لكن هل أكون مخطئاً إذا قلت إنك إنسان جاهل؟

- بلا جدال، - وافق إيفان وقد تغيّرت ملامحه تماماً

- . . . فحتى الوجه الذي وصفته. . . العينان المختلفتان، الحاجبان! عفواً، لعلك، على الأرجح، لم تسمع حتى بأوبرا «فاوست»؟

لسببٍ ما احتار إيفان بشكل مخيف وأخذ يغمغم مضطرم الوجه حول رحلة ما إلى مصحّ في يالطا. . .

- أرأيت. . . أرأيت. . . ليس أمراً مستغرباً! لكنني أعيد عليك القول إن بِرلُوز يثير استغرابي، فهو ليس شخصاً واسع الاطّلاع وحسب بل وشديد المكر. رغم أن عليّ القول، دفاعاً عنه، إن فولند يستطيع طبعاً ذرّ الرماد في عيني من هو أشدّ منه مكراً.

- كيف؟ - صاح إيفان بدوره.

- صه!

لطم إيفان جبينه براحة يده وحشرج قائلاً:

- فهمت، فهمت. كان هناك حرف «ف» على بطاقة الزيارة. آي يا يا، هكذا إذاً! - وصمت لبعض الوقت في ذهول، رانياً إلى القمر العائم خارج النافذة، ثم قال: - هذا يعني أنه ربما كان حقاً عند بيلاطس البنطي! فقد وُلد آنذاك! - ثم أضاف وهو يشير إلى الباب ساخطاً: - ويدعونني أنا بالمجنون.

ارتسمت ثنية تشي بالمرارة على شفتي الضيف، وقال:

- فلنقرّ بالحقيقي، - وأدار الضيف وجهه باتجاه الكوكب الليلي الراكض بين الغيوم: - أنت وأنا مجنونان، فلمَ الإنكار! لقد صعقك فاختبلت وخولط عقلك، ومن الواضح أنّ لديك تربة صالحة لذلك.

لكن لا جدال في أنّ ما قصصته عليّ قد حدث بالفعل، غير أنه غير مألوف لدرجة أن الطبيب النفسي العبقري سترافينسكي نفسه لم يصدّقك بالطبع. هل عاينك؟ (أومأ إيفان برأسه). كان محدّثك عند بيلاطس، وعلى الفطور عند كانط، وهو الآن يزور موسكو.

على الرغم من تردده أطلّ إيفان القديم، الذي لم يُهزَم بصورة نهائية، برأسه ورمق إيفان الجديد وقال:

- لكن الله أعلم بما سيقترفه هنا! لا بدّ من القبض عليه بأي شكلٍ كان.

ردّ عليه الضيف ساخراً:

- سبق أن حاولت، وقد نالك ما نالك، ولا أنصح الآخرين أيضاً أن يحاولوا. أما بخصوص ما قد يقترفه فاطمئن. آخ، آخ! لكن كم يؤسفني أنك أنت من التقاه، وليس أنا! فعلى الرغم من أنني قد فقدت كل شيء، أقسم أنني كنت أعطيت رزمة مفاتيح براسكوفيا فيودوروفنا لقاء هذا اللقاء، إذ ليس عندي شيء آخر أعطيه، فأنا معدَم.

- وفيمَ تحتاج إليه؟

- انظر كم هي قصة غريبة، فأنا هنا لنفس السبب الذي جاء بك إلى هنا، وبالذات بسبب بيلاطس البنطي، - هنا تلفّت الضيف حوله بذعر وقال: - المسألة هي أنني كتبت رواية عن بيلاطس البنطي منذ سنة مضت.

فسأل الشاعر باهتمام:

- هل أنت كاتب؟

اكفهرّ وجه الضيف ولوّح بقبضته لإيفان متوعّداً، ثم قال:

- أنا المعلّم، - وتجهّم وجهه وأخرج من جيب ردائه قبعة سوداء ملطّخة كلياً بالدهن والشحم طُرِّز عليها حرف «م» بخيط حرير أصفر

اللون. اعتمر القبعة وراح يري نفسه لإيفان من الجانب ومن الأمام ليثبت أنه «المعلّم». ثم سارّره: - لقد خاطتها لي بيديها.

- وما هي كنيتك؟

أجاب الضيف الغريب الأطوار باشمئزاز وكآبة:

- لم تعد لي كنية، نبذتها، كما نبذت حياتي كلها عموماً. لننسها.

رجاه إيفان بلطف:

- احكِ لي عن الرواية على الأقل.

فبدأ الضيف قائلاً:

- كما تشاء. قصتي، بالفعل، ليست عادية إلى حد ما.

... مؤرّخ من حيث التعليم، وحتى قبل سنتين كان يعمل في أحد متاحف موسكو، فضلاً عن أنه اشتغل في الترجمة.

سأل إيفان باهتمام:

- من أي لغة؟

أجاب الضيف:

- عدا لغتي الأم، أعرف خمس لغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية واليونانية، ويمكنني القراءة بعض الشيء بالإيطالية.

- يا للروعة! - همس إيفان بحسد.

كان المؤرّخ يعيش في موسكو وحيداً، لا أهل له وبلا معارف تقريباً. وإذا به يوماً يربح مئة ألف روبل.

- تخيّل مدى دهشتي، - همس الضيف ذو القبعة السوداء، - حين دسست يدي في سلّة البياضات المتّسخة إذا بي أرى نفس الرقم الذي في الجريدة! - وقال موضحاً: - في السند الذي أعطوني إياه في المتحف.

بعد أن ربح الضيف الغامض المئة ألف قام بما يلي: اشترى كتباً وهجر غرفته في شارع «مياسنيتسكايا»...

- أووو، جُحر لعين! - زمجر الضيف.

... واستأجر غرفتين في زقاق على مقربة من «أربات» من أحد المقاولين...

- هل تعرف ما معنى «المقاولين»؟ - سأل الضيف إيفان وراح يشرح على الفور: - إنهم مجموعة قليلة العدد من النصّابين سَلِمت في موسكو بطريقة ما...

إذاً، استأجر المقاول غرفتين في قبو بيت صغير له حديقة صغيرة، وترك العمل في المتحف، وبدأ يكتب رواية عن بيلاطس البنطي.

- آخ، كان عصراً ذهبياً، - همس الراوي وعيناه تبرقان، - شقة مستقلة تماماً، وفيها ردهة أيضاً، ومغسلة يجري فيها الماء - لسبب ما شدّد باعتزاز على هذه النقطة خاصةً - وفي الجهة المقابلة، على بعد أربع خطوات، أشجار ليلك وزيزفون وقيقب عند السياج. آخ، آخ، آخ! في الشتاء قلّما كنت أرى أرجل أحدهم السوداء أو أسمع خشخشة الثلج تحت قدمي أحدهم. وكانت النار مستعرة أبداً في موقدي! لكن حلّ الربيع بغتةً، فكنت أرى عبر الزجاج الداكن شجيرات الليلك، العارية في البداية، والتي اكتست بالخضرة فيما بعد. وحينئذٍ، أي في الربيع المنصرم، حدث ما هو أروع بكثير من الحصول على مئة ألف روبل. ولا بدّ أن توافقني على أنه مبلغ هائل من المال!

اعترف إيفان المصغي باهتمام:

- هذا صحيح.

- فتحت النافذة، وكنت أجلس في الغرفة الثانية البالغة الصغر، - وراح الضيف يقيس بيديه، - هكذا... هنا أريكة، تقابلها أريكة

أخرى، تتوسّطهما طاولة صغيرة عليها مصباح ليلي رائع، وقرب النافذة هناك طاولة مكتب صغيرة عليها كتب، أما الغرفة الأولى، وهي غرفة شاسعة مساحتها أربعة عشر متراً، فكان فيها كتب، كتب وموقد. آخ، كم كانت أحوالي رائعة!

كان الليلك يفوح عطراً غير عاديّ! وتخفّف رأسي من الإرهاق، وكانت رواية «بيلاطس» تشارف على الانتهاء.

- البردة البيضاء، البطانة الحمراء! أفهم! - هتف إيفان.

- بالضبط! كانت رواية «بيلاطس» تطير نحو النهاية، نحو النهاية، وكنت أعرف مسبقاً أنّ آخر كلمات الرواية ستكون: «. . . حاكم اليهودية الخامس، الفارس بيلاطس البنطي». كنت أخرج للترويح عن نفسي بالطبع. مئة ألف مبلغ هائل، وكانت لدي بدلة رمادية رائعة. أو كنت أذهب لتناول الغداء في مطعم رخيص ما. كان في «أربات» مطعم رائع، لا أدري إن كان لا يزال موجوداً.

وهنا جحظت عينا الضيف وتابع هامساً وهو يرنو إلى القمر:

- كانت تحمل بيديها وروداً صفراء كئيبة تثير الاشمئزاز، الله أعلم ما اسمها، لكنها أول ما يظهر من الورود في موسكو. وكان بالإمكان تبيان هذه الورود بوضوح شديد فوق معطفها الربيعي الأسود. كانت تحمل وروداً صفراء! لون رديء. كانت تنعطف في شارع «تفيرسكايا» إلى زقاق، وهنا التفتت. أنت تعرف شارع «تفيرسكايا» بالتأكيد؟ كان يسير في شارع «تفيرسكايا» آلاف الأشخاص، لكني أؤكد لك أنها لم ترَ سواي، وكان في نظرتها ما هو أكثر من القلق، بل بدا أقرب إلى الحلم والحسرة. ولم يبهرني جمال عينيها بقدر ما صعقتني فيهما الوحدة غير العادية التي لا مثيل لها!

وأنا أيضاً انعطفت إلى الزقاق، منقاداً لهذه العلامة الصفراء،

وسرت في إثرها. سرنا في الزقاق المتعرّج الكئيب دون أن ننبس ببنت شفة، أنا في أحد الجانبين وهي في الآخر. وتصوّر، كان الزقاق خالياً تماماً. كنت أتألم، فقد بدا لي أن لا مناص من التحدّث إليها، وكنت أخشى ألاّ أنبس ببنت شفة، فتمضي ولا أراها بعد ذلك أبداً...

وتصوّر، بادرت هي بالكلام:

- هل تعجبك ورودي؟

أذكر تماماً كيف تردّد صوتها الخافت بعض الشيء، لكن المتقطّع، وبدا لي - مهما بدا ذلك غبياً - أنّ صداه قد تردّد في الزقاق مرتداً عن الجدار الأصفر القذر. انتقلت فوراً إلى الجانب الذي كانت تسير فيه، وحين دنوت منها أجبت:

- لا.

نظرت إليّ مندهشةً، أما أنا فقد أدركت، فجأةً وعلى غير انتظار إطلاقاً، أنني إنما أحببت هذه المرأة بالذات طوال حياتي! أليس هذا غريباً؟ ستقول بالطبع إنني مجنون؟

- لن أقول شيئاً، - هتف إيفان وأضاف: - تابع أرجوك!

فتابع الضيف:

- نعم، نظرت إليّ مندهشةً، ثم سألتني وهي تنظر إليّ:

- ألا تحبّ الورود عموماً؟

كانت عدوانية في صوتها، كما بدا لي. سرت بجوارها، محاولاً عدم التخلّف عنها، ولدهشتي لم أشعر بأي حرج.

قلت لها:

- لا، أنا أحب الورود، لكن ليست هذه.

- فأيها؟

- أحب الزهور.

وهنا ندمت على قولي هذا لأنها ابتسمت شاعرةً بالذنب ورمت ورودها في أخدود. ارتبكتُ قليلاً لكني، رغم ذلك، رفعتها عن الأرض وناولتها إياها، لكنها دفعتها عنها مبتسمةً بسخرية، فأبقيتها في يدي.

سرنا صامتين على هذا النحو بعض الوقت، إلى أن انتزعت الورود من يدي ورمتها على الرصيف، ثم شبكت يدها بقفّازها الأسود بيدي وسرنا جنباً إلى جنب.

قال إيفان:

- تابع، ولا تغفل شيئاً من فضلك.

- أتابع؟ - كرّر الضيف - لكن يمكنك أن تخمّن بنفسك ما جرى لاحقاً. - وفجأةً مسح دمعةً غير متوقّعة بكمّه الأيمن وتابع قائلاً: - برز لنا الحب كقاتلٍ من تحت الأرض في زقاق ضيّق، ودحرنا كلينا على الفور!

هكذا تردي الصاعقة... هكذا يردي الخنجر!

غير أنها أكّدت فيما بعد أنّ الأمر لم يكن على هذا النحو، وأننا كنّا نحب بعضنا بعضاً منذ زمنٍ بعيد بالطبع، دون أن نعرف أو نرى بعضنا، وأنها كانت تعيش مع شخص آخر، وأنا كنت أعيش هناك... مع التي اسمها...

- مع من؟ - سأل بيزدومني.

- مع هذه... إي... هذه... إي... - أجاب الضيف وهو يفرقع بأصابعه.

- هل كنت متزوجاً؟

- نعم بالطبع، ولهذا أفرقع بأصابعي... بهذه... فارينكا،

مانيشكا. . . لا، فارينكا. . . وكان ثوبها مخططاً فوق هذا. . . متحف. . . على كلٍّ، لم أعد أذكر.

وإذاً، فقد قالت إنها خرجت ذلك اليوم وفي يديها ورود صفراء لكي أعثر عليها أخيراً، ولو لم يحدث هذا لكانت سمّمت نفسها لأن حياتها فارغة.

نعم، لقد صعقنا الحب على الفور. وقد عرفت ذلك في اليوم ذاته حين وجدنا نفسينا بعد ساعة، دون أن نلاحظ المدينة، على كورنيش النهر عند جدار الكرملين.

تحدّثنا على نحوٍ وكأننا افترقنا بالأمس، وكأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ سنين طويلة، وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي، في نفس المكان، على ضفة نهر موسكو، والتقينا. كانت شمس أيار مشرقة من أجلنا. وسرعان ما أصبحت هذه المرأة زوجتي السرية.

كانت تأتي إليّ كل يوم، وصرت أنتظرها منذ الصباح. وكان الانتظار يتجلّى في أني كنت أعيد ترتيب الأغراض على الطاولة. وكنت أجلس قرب النافذة لعشر دقائق أرهف السمع لعل باب الحديقة الصغيرة يدقّ. والغريب أنّه قلّما كان أحد يدخل فناءنا قبل لقائنا، بل يمكن القول ببساطة إنّ أحداً لم يكن يدخل الفناء، بينما بدا لي أنّ المدينة كلها تندفع إليه. يدقّ باب الحديقة فيدقّ قلبي، فأرى حتماً، على مستوى وجهي، خارج النافذة جزمةً متّسخة لأحدهم، تصوّرا! جلاّخ! لكن من قد يحتاج إلى جلاّخ في بيتنا؟ ماذا سيجلّخ؟ أيّ سكاكين؟

كانت تدخل الحديقة مرة واحدة، بينما يكون قلبي قد دقّ عشر مرات قبل ذلك. لستُ أكذب. وبعد ذلك، حين يأتي أوان مجيئها ويشير عقرب الساعة إلى انتصاف النهار، لم يكن قلبي يكفّ عن

الخفقان إلى أن يحاذي حذاؤها، المعقود بقطع من الشاموا الأسود مشدودة بأبازيم فولاذية، النافذة، دونما قرعٍ أو صوت تقريباً.

أحياناً كانت تمازحني، فتتوقف أمام النافذة لثانية وتقرع زجاجها بأنفها الصغير، فكنت أجد نفسي في لحظة عند النافذة، فإذا بالحذاء قد اختفى، واختفى الحرير الأسود الذي يحجب الضوء، فكنت أهرع لأفتح لها الباب.

أؤكد لك أنّ أحداً لم يكن يعلم بعلاقتنا، على الرغم من استحالة ذلك. لم يعلم بها لا زوجها ولا معارفها. في البيت القديم، حيث كان القبو عائداً لي، كانوا يعلمون بالطبع، ويرون أن امرأةً تزورني، لكنهم لم يعرفوا اسمها.

- ومن تكون؟ - سأل إيفان الذي أثارت قصة الحب هذه اهتمامه إلى أقصى الحدود.

قام الضيف بحركةٍ تعني أنه لن يقول هذا أبداً ولأيٍّ كان، ثم تابع قصته.

بات إيفان يعرف أنّ المعلم والمرأة المجهولة قد أحبا بعضهما بعضاً بقوة بحيث أصبحا لا يفترقان أبداً. كذلك أصبح لدى إيفان تصوّر واضح للغرفتين في قبو المنزل اللتين كانتا معتمتين دائماً بسبب أشجار الليلك وسياج الحديقة. كذلك الأثاث الأحمر البالي وطاولة المكتب وعليها الساعة التي تدقّ كل نصف ساعة، وكتب، كتب ترتفع من الأرضية المصبوغة حتى السقف المسودّ، والموقد.

علم إيفان أيضاً أنّ الضيف وزوجته السرية توصّلا، منذ أولى أيام علاقتهما، إلى استنتاج أنّ القدر نفسه جعلهما يتصادفان عند زاوية شارع «تفيرسكايا» والزقاق، وأنهما مخلوقان لبعضهما إلى الأبد.

كما علم إيفان من حكاية الضيف كيف كان العاشقان يقضيان

يومهما. ففور مجيئهما كان أول ما تفعله هو أن تضع مئزراً ثم تشعل وابور الكاز القائم على طاولة خشبية في الردهة الضيقة، حيث تلك المغسلة ذاتها التي كان المريض يفخر بها لسببٍ ما، فتعدّ طعام الفطور وتضعه على الطاولة البيضوية في الغرفة الأخرى. وحين كانت تهبّ عواصف أيار المطرية، ويسيل الماء بصخب قرب النوافذ الداكنة عبر الفتحة أسفل البوابة، مهدّداً بغمر ملجأ العاشقين الأخير، كان العاشقان يوقدان المدفأة ويشويان فيها البطاطا، فكان البخار يتصاعد من حبات البطاطا، وتلطّخ قشرتها السوداء أصابعهما. كانت الضحكات تتردّد في القبو الصغير، وتطرح أشجار الحديقة عنها، بعد المطر، أغصانها المتكسرة وأعذاقها البيضاء. وحين انتهت العواصف وحلّ الصيف الخانق ظهرت في الأصيص الأزهار التي يحبانها، والتي انتظراها طويلاً.

ذاك الذي يسمّي نفسه «المعلّم» كان يعمل، بينما هي تعيد قراءة ما يكتبه وهي تمرّر أصابعها الطويلة، بأظافرها المقلّمة الحادة، عبر شعرها، وبعد انتهائها من القراءة كانت تخيط هذه القبعة ذاتها. أحياناً كانت تجلس القرفصاء قرب رفوف الكتب السفلية، أو تقف على كرسي لتمسح الغبار عن الرفوف العلوية. كانت تمنّيه بالمجد وترفع من قدْره، وفي تلك الفترة بالذات أطلقت عليه اسم «المعلّم». كانت تنتظر هذه الكلمات الأخيرة الموعودة عن خامس حكّام اليهودية، وكانت تكرّر منشدةً بصوتٍ عالٍ بعض العبارات التي أعجبتها، وتقول إن حياتها تكمن في هذه الرواية.

أُنجزت الرواية في شهر آب، وأُعطيت لضاربة آلة كاتبة مغمورة، فطبعتها في خمس نسخ. وأخيراً حانت ساعة هجري ملجئي السري والخروج إلى الحياة.

- وقد خرجت إلى الحياة والكتاب في يديّ، وحينذاك انتهت حياتي، - قال المعلّم هامساً وطأطأ برأسه، وتدلّت القبعة السوداء الكئيبة ذات الحرف «م».

وتابع المعلم سرد حكايته، لكنها أصبحت مفككة بعض الشيء. كان يمكن للمرء أن يدرك أمراً واحداً، هو أنّ مصيبة ما قد حلّت بضيف إيفان.

- كانت المرة الأولى التي أجد فيها نفسي في عالم الأدب، لكنني الآن، بعد أن انتهى كل شيء وبات هلاكي جليّاً، أتذكّره بهلع! - همس المعلم بتهيّب ورفع يده. - نعم، لقد صعقني تماماً، آخ، كم صعقني!

- من؟ - همس إيفان بصوتٍ لا يكاد يُسمع خشية مقاطعة القاص المستثار.

- المحرّر، قلت لك، المحرّر. نعم، لقد قرأها إذاً. نظر إليّ وكأنّ على خدي خرّاجاً متورّماً، ورنا إلى الزاوية شزراً، بل حتى ضحك باضطراب. ودونما سبب دعك المخطوط وتنحنح. وبدت لي الأسئلة التي طرحها عليّ أسئلة جنونية. فدون أن يقول أي شيء بخصوص الرواية، سألني من أكون، ومن أين خرجت له، وهل أكتب منذ زمنٍ بعيد، ولمَ لم يسمع بي أحد من قبل، بل وسألني سؤالاً غبياً تماماً من وجهة نظري، فقد سأل: من أشار عليك بكتابة رواية عن موضوع غريب كهذا؟

أخيراً ضقت به ذرعاً وسألته مباشرةً إن كان سيطبع الرواية أم لا.

وهنا دبّت فيه الحركة وبدأ يغمغم بشيءٍ ما، ثم أعلن أنه شخصياً لا يمكنه حسم هذه المسألة، وأنّ أعضاء أسرة التحرير الآخرين يجب

أن يطّلعوا على الرواية، وبالذات الناقد لاتونسكي وأريمان والأديب مستيسلاف لافروفيتش. ثم طلب إليّ مراجعته بعد أسبوعين.

عدت بعد أسبوعين فاستقبلتني فتاة ترنو عيناها إلى أنفها بسبب كذبها الدائم.

- إنها لابشينّيكوفا، سكرتيرة رئيس هيئة التحرير، - قال مبتسماً بسخرية إيفان الذي يعرف جيداً الشخص الذي وصفه ضيفه بهذا السخط.

- ربما، قاطعه الضيف، - تلقيت منها إذاً روايتي المهترئة والملطّخة بالزيت بكثرة. وقد أخبرتني، وهي تحرص على عدم النظر إلى عيني مباشرةً، أنّ لدى هيئة التحرير من المواد ما يكفي لعامين، لذا فإنّ مسألة طبع روايتي غير واردة، على حدّ تعبيرها.

- وماذا أذكر أيضاً بعد هذا؟ - غمغم المعلم وهو يحكّ صدغه، - نعم، البتلات الحمراء المذرورة على صفحة العنوان، وكذلك عينيّ صديقتي. نعم، إنني أذكر تلك العينين.

بدأت قصة ضيف إيفان تغدو أكثر تبلبلاً وامتلأت بتحفّظات ما، فقد راح يتحدث عن مطرٍ مائلٍ ما، وعن اليأس في ملاذه في القبو، وعن ذهابه إلى مكانٍ ما. وهتف هامساً بأنه لا يلومها، تلك التي دفعته إلى الكفاح، أوه لا، لا يلومها قيد أنملة.

- أذكر، أذكر تلك الورقة اللعينة الملحقة بالجريدة - غمغم الضيف راسماً بإصبعين صحيفةً في الهواء، وخمّن إيفان من العبارات المبلبلة اللاحقة أنّ محرراً آخر قد طبع مقطعاً كبيراً من رواية هذا الذي يدعو نفسه المعلّم.

حسب كلامه، لم يكد ينقضي يومان حتى ظهرت في جريدة مقالة للناقد أريمان بعنوان «عدو في كنف رئيس التحرير» ورد فيها أنّ ضيف

إيفان، مستغلاً غفلة وجهل رئيس التحرير، قام بمحاولة لدسّ مديح ليسوع المسيح في الصحافة.

صاح إيفان:

- آ، تذكرت، تذكرت! لكنني نسيت كنيتك!

فأجاب الضيف:

- أعيد القول، دعك من كنيتي، فلم يعد لها وجود. المسألة ليست في كنيتي. ففي اليوم التالي ظهرت مقالة أخرى، في جريدة أخرى، بتوقيع مستيسلاف لافروفيتش، يقترح فيها الكاتب ضرب البيلاطسية، وضربها بقوة، وكذلك مُداهن الألوهة هذا الذي خطر له دسّها (هذه الكلمة اللعينة مرة أخرى) في الصحافة.

تسمّرت مكاني جرّاء كلمة «البيلاطسية» هذه، وفردتُ جريدة ثالثة، كانت فيها مقالتان: الأولى للاتونسكي والثانية موقّعة بحرفي «ن. إ.». أؤكد لك أن مقالتي أريمان ولافروفيتش يمكن اعتبارهما مزحة مقارنةً بما كتبه لاتونسكي. يكفي أن أخبرك أن عنوان المقال كان «السلفي المحارب». وقد استغرقت في قراءة المقال المكتوب عني إلى درجة أنني لم ألحظ (وكنت قد نسيت إغلاق الباب) كيف انتصبت أمامي بمظلّة مبلّلة وبيديها جرائد مبلّلة أيضاً. كانت عيناها تقدحان شرراً، وكانت يداها ترتجفان، وكانتا باردتين. في البداية اندفعت تقبّلني، ثم قالت بصوتٍ أبحّ، وهي تقرع الطاولة بيدها، إنها سوف تسمّم لاتونسكي.

تأوّه إيفان باضطراب لسببٍ ما، لكنه لم يقل شيئاً.

- حلّت أيام كئيبة تماماً. فقد أُنجزت الرواية ولم يعد هناك ما نفعله، فكنّا نمضي وقتنا في الجلوس على السجّادة الصغيرة على

الأرض قرب المدفأة والنظر إلى النار. على أي حال، صرنا نفترق الآن أكثر من السابق. فهي أصبحت تخرج للتنزّه، أما أنا فقد حدث لي أمر غريب، كما يحدث في حياتي عادةً... فعلى حين غرّة أصبح لي صديق. نعم، نعم، تصوّر، فأنا لا أميل إلى مخالطة الناس عموماً، وأتمتع بطبعٍ غريب، أنا آلف الناس بصعوبة، لا أثق بهم وأرتاب فيهم. ومع هذا - تصوّر! - ينشرح صدري حتماً لشخص لا أتوقعه، ولا أنتظره، ومظهره الخارجي الله أعلم يشبه ماذا، فأعجب به أكثر من الآخرين جميعاً.

وإذاً، في هذا الوقت اللعين فُتح باب حديقتنا الصغيرة، وأذكر أنه كان نهاراً ربيعياً بديعاً. هي لم تكن في البيت. دخل رجل واجتاز الحديقة إلى البيت لشأنٍ ما مع صاحب البيت، ثم خرج إلى الحديقة، وبشكل ما تمّ التعارف بيننا بسرعة كبيرة. قدّم لي نفسه بوصفه صحفياً. تصوّر أنني أُعجبت به إلى درجة أنني ما زلت أتذكّره حتى الآن وأشتاق إليه. بعد ذلك صار يزورني أكثر. وقد عرفت أنه أعزب، وأنه يسكن في الجوار في شقة تشبه شقتي تقريباً، وأنه يشعر بالضجر هناك، وما إلى ذلك. لكنه لم يدعني لزيارته يوماً. الرجل لم يعجب زوجتي إطلاقاً، لكني كنت أدافع عنه. كانت تقول لي:

- افعل ما بدا لك، لكني أقول إن هذا الشخص يثير فيّ شعوراً منفّراً.

كنت أضحك. لكن ما الذي جذبني إليه بالضبط؟ المسألة أن الإنسان عموماً لا يثير الاهتمام إذا لم تكن هناك مفاجأة في جعبته. وكانت في جعبة ألويزي (آه، نسيت أن أخبرك أن اسم صاحبي الجديد كان ألويزي موغاريتش) مفاجأة كهذه. بالتحديد، لم ألتقِ يوماً، وأنا على يقين أنني لن ألتقي أبداً، عقلاً كالذي يتمتع به ألويزي. فإذا لم

أفهم فحوى تعليق ما في الجريدة كان ألويزي يشرحه لي في دقيقة واحدة، وكان جلياً أنّ هذا الشرح لا يكلّفه شيئاً. والأمر ذاته فيما يتعلق بظواهر الحياة ومسائلها. لكنّ هذا غيضٌ من فيض، فقد أسرني ألويزي بشغفه بالأدب. ولم يهدأ له بال حتى قرأت له روايتي بأكملها من الغلاف إلى الغلاف فأثنى عليها كثيراً. لكنه أخبرني بدقة مذهلة، وكأنه كان حاضراً وقتها، بكل ملاحظات رئيس التحرير المتعلقة بالرواية. وكان مصيباً مئة بالمئة. فضلاً عن أنه شرح لي بدقة متناهية – وخمّنت أنه كان محقاً – لماذا قد لا تُطبع روايتي. فقد قال صراحةً: الفصل الفلاني لا يمكن أن يمرّ. . .

المقالات لم تتوقف. سخرت من أولاها. لكن كلما ظهر منها المزيد تغيّر موقفي منها أكثر. المرحلة الثانية كانت مرحلة الدهشة. كان هناك شعور بشيء ما بالغ الزيف والتذبذب، بكلّ معنى الكلمة، في كل سطر من سطور تلك المقالات، بغضّ النظر عن نبرتها الغاضبة والواثقة. فغالباً ما بدا لي – ولم أستطع التخلّص من هذا الشعور – أنّ كتّاب هذه المقالات إنما يقولون ما لا يريدون قوله، وأنّ هذا بالتحديد ما يثير حنقهم. لكن بعد ذلك – تصوّر! – حلّت المرحلة الثالثة؛ مرحلة الخوف. لا، ليس الخوف من تلك المقالات، افهمني، بل الخوف من أشياء أخرى لا شأن لها بالرواية على الإطلاق. فقد بتّ أخشى الظلمة، على سبيل المثال. قُصارى القول، حلّت مرحلة المرض النفسي، وكان يكفي أن أطفئ المصباح في الغرفة الصغيرة قبل النوم حتى يتراءى لي أنّ أخطبوطاً بمجسّات طويلة باردة جداً يزحف عبر النافذة على الرغم من أنها مغلقة، فكان يتوجب عليّ النوم والضوء مضاء.

تغيّرت حبيبتي كثيراً (لم أحدّثها عن الأخطبوط بالطبع، لكنها

رأت أن شيئاً غير سليم يحدث لي)، فهزلت وشحبت وكفّت عن الضحك، وكانت تتوسّلني طوال الوقت أن أغفر لها كونها نصحتني بنشر المقطع. قالت لي أن أدع كل شيء جانباً وأسافر إلى البحر الأسود في الجنوب، وأنفق كل ما تبقّى لي من المئة ألف روبل على هذه الرحلة.

وقد ألحّت كثيراً فوعدتها، حتى لا أجادلها، بأني سأفعل ذلك خلال أيام (كان شيء ما يوحي إليّ بأني لن أضطر للسفر إلى البحر الأسود)، لكنها قالت إنها ستشتري لي التذكرة بنفسها. حينئذٍ أخرجت مالي كله، أي عشرة آلاف روبل تقريباً، وأعطيتها إياه.

سألت مندهشةً:

- لماذا هذا المال كله؟

فقلت لها شيئاً من قبيل إنني أخشى اللصوص وأرجو أن تحتفظ بالمال إلى حين سفري، فأخذت المال ووضعته في حقيبتها، وراحت تقبّلني وتقول إن الموت أسهل عليها من أن تتركني وحدي في مثل هذه الحال، لكن هناك من ينتظرها، وأنها تذعن لحكم الضرورة، وأنها ستعود غداً. ورجتني أن لا أخشى شيئاً.

كان هذا عند المغيب، في منتصف تشرين الأول. وغادرت. استلقيت على الأريكة وغفوت دون أن أضيء المصباح. استيقظت لشعوري بأن الأخطبوط هنا. تلمّست طريقي في الظلمة بصعوبة وتمكّنت من إضاءة المصباح. كانت ساعة الجيب تشير إلى الثانية صباحاً. غفوت متوعّك الصحة واستيقظت مريضاً. خلت فجاةً أنّ عتمة الخريف ستحطّم الزجاج وتتدفق إلى الغرفة، وأنني سأغرق فيها كما لو في حبر. صرخت عاجزاً عن تمالك نفسي. صرخت، وخطر لي الهروب واللجوء إلى أحدهم، ولو إلى صاحب البيت في الأعلى.

صارعت نفسي كالمجانين. واتتني القوة لبلوغ الموقد وإشعال الحطب فيه. وحين بدأ الحطب يفرقع وطقطقت عارضة الموقد شعرت بشيءٍ من الارتياح. هرعت إلى الردهة وأضأت النور هناك فعثرت على زجاجة نبيذ أبيض، نزعت سدادتها ورحت أشرب من الزجاجة مباشرةً. هدّأ النبيذ خوفي بعض الشيء، فعلى الأقل لم ألجأ إلى صاحب البيت، وعدت أجلس قرب الموقد. فتحت عارضة الموقد لأن النار بدأت تحرق وجهي ويدي، وهمست: «افهم أنّ مصيبةً قد حلّت بي. تعالي، تعالي، تعالي!»، لكنّ أحداً لم يأتِ. كانت النار تزمجر في الموقد، وكان المطر ينقر على النافذة. وحينئذٍ حدثت ثالثة الأثافي. فقد أخرجت نسخ الرواية الثقيلة ودفاتر المسودة من درج الطاولة وبدأت بحرقها. وكان ذلك بمنتهى الصعوبة لأنّ الورقة المكتوبة ترفض الاحتراق. فمزّقت الدفاتر، مهشّماً أظافري، ووضعتها عمودياً بين قطع الحطب، ورحت أبعثر الأوراق بالمِسعَر. كان الرماد يهزمني بين الحين والآخر، فيطفئ اللهيب، لكني صارعته، والرواية أيضاً قاومت بعناد لكنها كانت تهلك رغم ذلك. كانت الحروف الأليفة تومض أمامي، وكان الاصفرار يتسلّق الصفحات من أسفلها إلى أعلاها بقوة لا تُقاوم، لكنّ الكلمات، رغم ذلك، كانت تبرز حتى فوق الاصفرار، ولم تكن تتلاشى إلاّ حين تسودّ الورقة وأجهز عليها بالمسعر محتدّاً.

في ذلك الوقت راح أحدهم ينقر النافذة نقراً خفيفاً. خفق قلبي، فرميت الدفتر الأخير في النار وهرعت أفتح الباب. كانت الدرجات القرميدية تفضي من القبو إلى باب الفناء. ركضت إلى الباب متعثراً وسألت بصوتٍ خافت:

- من هناك؟

فأجابني صوت، صوتها:
- أنا.
لا أذكر كيف تمكّنت من السلسلة والمفتاح. وما إن خطتْ إلى الداخل حتى ارتمت عليّ، مبلّلةً كلها، بوجنتيها الرطبتين وشعرها المحلول، وهي ترتعش. تمكّنت من التلفّظ بكلمة واحدة فقط: أنتِ. . . أنتِ؟ وانقطع صوتي، وهرعنا إلى الأسفل. خلعت معطفها في الردهة، وبسرعة دخلنا الغرفة الأولى. صرخت صرخةً خافتة وأخرجت بيديها العاريتين من الموقد الرزمة الأخيرة، التي دبّت فيها النار من الأسفل، وألقت بها على الأرض، وعلى الفور ملأ الدخان الغرفة. رحت أطفئ النار بقدميّ، بينما انهارت هي على الأريكة وأخذت تبكي بتشنّج.
بعد أن هدأت قلت لها:
- لقد كرهت هذه الرواية، وأنا خائف. أنا مريض. مرعوب.
نهضت واقفةً وقالت:
- يا إلهي، ما أشدّ مرضك! لماذا هذا كله، لماذا؟ لكني سأنقذك، سأنقذك. ما هذا الذي يجري؟
رأيت عينيها المنتفختين من الدخان والبكاء، وشعرت بيديها الباردتين وهما تمسحان جبيني. غمغمت متشبّثةً بكتفيّ:
- سوف أشفيك، سوف أشفيك. ستعيد كتابتها. لمَ، لمَ لم أحتفظ بنسخة!
كشّرت من الغيظ، وقالت شيئاً آخر لم أفهمه. ثم بدأت تجمع وتسوّي الأوراق المحترقة وقد زمّت شفتيها، وكانت فصلاً من منتصف الرواية، لا أذكر أي فصل. ثم رتّبت الأوراق المحترقة بعناية ولفّتها بورقة وربطتها بشريط. كانت أفعالها كلها تشير إلى أنها ممتلئة عزماً

ومتمالكة لنفسها تماماً. طلبت نبيذاً، وبدأت تتكلم بهدوء أكثر، وهي تحتسي النبيذ، فقالت:

- هاك كيف يتوجّب على المرء دفع ثمن الكذب، وأنا لا أريد أن أكذب بعد الآن. لكنت بقيت عندك الآن أيضاً لكنني لا أريد القيام بذلك على هذا النحو. لا أريد أن يبقى في ذاكرته أنني قد هربت منه ليلاً. هو لم يسئ إليّ قط. لقد استدعوه فجأةً، فقد شبّ حريق في المصنع لديهم، لكنه سيعود قريباً. سوف أتفاهم معه غداً صباحاً، سأقول له إنني أحب شخصاً آخر، ثم أعود إليك إلى الأبد. أجبني، لعلك لا تريد هذا؟

قلت لها:

- أيتها المسكينة، يا مسكينتي! لن أسمح لك بعمل ذلك. أموري لن تكون على ما يرام، ولا أريد أن تهلكي معي.

- هل هذا هو السبب الوحيد؟ - سألتني وقرّبت عينيها إلى عينيّ.

- هذا فقط.

دبّت فيها حيوية مرعبة وارتمت علي فطوّقت عنقي وقالت:

- سوف أهلك معك. سأكون عندك في الصباح.

وآخر ما أذكره من حياتي هو بصيص الضوء من ردهة بيتي، وفي هذا البصيص جديلة شعر مسترسل وقبّعتها وعيناها الممتلئتان عزماً. كذلك أذكر طيفها الأسود على عتبة الباب الخارجية ورزمة الأوراق البيضاء.

- لكنتُ أوصلتكِ لكن لا طاقة لي على العودة بمفردي، فأنا أخاف.

- لا تخف. اصبر بضع ساعات. غداً صباحاً سأكون عندك. - كانت هذه كلماتها الأخيرة في حياتي.

- تس! - قاطع المريض نفسه بنفسه فجأةً ورفع إصبعه، - إنها ليلة مقمرة مضطربة اليوم.

وتوارى في الشرفة.

سمع إيفان صوت عجلات سرير متحرّك في الممر، وصوت شخصٍ ينشج أو يصرخ في وهن.

حين هدأ كل شيء عاد الضيف وأخبره أنّ ساكناً جديداً نزل في الغرفة رقم ١٢٠. فقد جلبوا شخصاً يطلب إعادة رأسه إليه. صمت المتحدثان بقلق، وبعد أن هدأا عادا إلى حديثهما الذي انقطع. فغر الضيف فمه، لكنّ الليلة لم تكن هادئة بالفعل، فقد كانت الأصوات لا تزال تُسمع في الممر، وبدأ الضيف يتكلّم في أذن إيفان بصوت خافت إلى درجة أنّ ما قاله لا يعرفه سوى الشاعر، باستثناء العبارة الأولى:

- بعد ربع ساعة على مغادرتها إياي طرق أحدهم على نافذتي.

ما رواه الضيف في أذن إيفان كان يثير فيه الاضطراب الشديد على ما يبدو، فكان وجهه يتشنّج مراراً، وكان الخوف والحنق يطوفان ويتلجلجان في عينيه. أشار الراوي بيده إلى مكانٍ ما باتجاه القمر الذي كان قد غادر الشرفة منذ فترة طويلة. وفقط حين صمتت الأصوات في الخارج ابتعد الضيف عن إيفان وبدأ يتحدث بصوتٍ عالٍ.

- وإذاً، في منتصف كانون الثاني، في الليل، في ذاك المعطف نفسه، لكن بأزرار مقطوعة، كنت منكمشاً على نفسي في فناء بيتي. كانت خلفي كثبان ثلجية تحجب شجيرات الليلك، وأمامي وفي الأسفل نافذتاي المضاءتان بخفوت والمستدلتا الستائر. التصقت بالنافذة الأولى ورحت أصغي - كان في غُرَفي حاكٍ يعزف. كان هذا

كل ما سمعت، لكني لم أستطع رؤية شيء. بعد أن أصغيت قليلاً خرجت من باب الحديقة الصغير إلى الزقاق، وكانت زوبعة ثلجية تعصف فيه. أفزعني كلبٌ راح يحوم حول قدمي فهربت منه إلى الجهة الأخرى من الطريق. البرد والخوف، اللذان أصبحا رفيقيّ الدائمين، كانا يقودانني إلى الجنون. لم يكن لي مكان أذهب إليه، وأبسط شيء كان، بالطبع، أن أرتمي تحت الترام في الشارع الذي يفضي إلى زقاقي. رأيت من بعيد عربات الترام المغطّاة بالجليد والمليئة بالأضواء، وسمعت صريرها الكريه على الجليد. لكن كل ما في الأمر - يا جاري العزيز - هو أنّ الهلع كان مستحوذاً على كل خلية في جسدي. وكالكلاب تماماً، أخافني الترام أيضاً. نعم، أؤكد لك أنْ ما من مرض أسوأ من مرضي في هذا المبنى.

قال إيفان متعاطفاً مع المريض المسكين:

- لكن كان بمقدورك أن تُعلمها، فضلاً عن أنّ مالك بحوزتها، فهي قد احتفظت به بالطبع!

- لا تشكنَّ في ذلك. طبعاً احتفظت به. لكن من الواضح أنك لا تفهمني، أو الأصح أنني فقدت القدرة التي كنت أتمتّع بها يوماً على الوصف. على أيّ حال لا أشعر بالأسف الشديد على فقدانها، فهي لن تجديني نفعاً بعد الآن. تصوّر أن توضع أمامها رسالة من مستشفى المجانين! - ورنا الضيف إلى عتمة الليل بإجلال - هل يُعقل أن يرسل شخص له هذا العنوان رسائلَ؟ مريض نفسي؟ أنت تمزح يا صديقي! لا، أأجعلها تشقى؟ لست قادراً على ذلك.

لم يستطع إيفان الاعتراض على ذلك، لكنّ إيفان الصموت كان يشعر بالشفقة والزأفة تجاه الضيف الذي كان يهزّ رأسه بقبعته السوداء من شجون ذكرياته، وشرع يقول:

- امرأة مسكينة. بيد أني آمل أنها قد نسيتني!

- لكنك قد تشفى. . . - قال إيفان بوجل.

- أنا لست قابلاً للشفاء، - أجاب الضيف بهدوء، - ولا أصدّق سترافينسكي حين يقول إنه سوف يعيدني إلى الحياة. إنه شخص رؤوف، ويريد مواساتي فحسب. ومع ذلك، لا أنكر أنني الآن أفضل بكثير. وإذاً، أين توقّفت؟ الصقيع وحافلات الترام المسرعة هذه. كنت أعلم أنّ هذا المصحّ قد افتُتح، فسرت إليه مشياً على الأقدام عبر المدينة كلها. جنون! لعلي كنت تجمّدت من البرد في ظاهر المدينة، لكن مصادفة أنقذتني. انكسر شيء ما في الشاحنة، فدنوت من السائق - حدث هذا على مبعدة أربعة كيلومترات تقريباً من مدخل المدينة - ولدهشتي، أشفق علي. كانت الشاحنة قادمة إلى هنا، فنقلتني. تذرّعت بأنّ أصابع قدمي اليسرى قد تجمّدت، فعالجوني. وها أنذا هنا للشهر الرابع. وهل تدري أنني اكتشفت أنّ هذا المكان ليس سيئاً على الإطلاق. في الحقيقة، لا داعي لأن تكرّس نفسك لخطط كبيرة يا جاري العزيز! فأنا مثلاً كنت أريد أن أجول في الكرة الأرضية برمّتها. لكن يبدو أنّ هذا غير مقدّر لي. فأنا لا أرى سوى جزء يسير من هذه الكرة، ولا أعتقد أنه أفضل أجزائها، لكني أعود فأقول إنه ليس بهذا السوء. فها هو الصيف قادم، وسيعرّش اللبلاب على الشرفة، كما تعدنا براسكوفيا فيودوروفنا. المفاتيح وسّعت من إمكاناتي. سوف يطلع القمر في الليالي. آخ، لقد أفل! والجو أخذ يبرد. آن لي أن أذهب، فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل.

- قل لي، وماذا حدث ليسوع وبيلاطس بعد ذلك؟ أتوسّل إليك، أريد أن أعرف. - سأله إيفان راجياً.

- آخ، لا، لا، - أجاب الضيف وهو يرتجف بشدة، - لا يمكنني تذكّر روايتي دون أن أشعر بالقشعريرة. لكان صاحبك من «بتريرشيه برودي» فعل ذلك أفضل مني. شكراً على الحديث. إلى اللقاء.

وقبل أن يثوب إيفان إلى رشده انغلق شبك النافذة برنينٍ خافت، وتوارى الضيف.

الفصل الرابع عشر

المجد للديك!

لم تحتمل أعصاب ريمسكي، كما يقال، فهرع إلى مكتبه دون انتظار الانتهاء من تحرير المحضر. جلس إلى الطاولة وراح يحدّق في «التشرفونتسات» السحرية بعينين مضطرمتين. كان المدير المالي عاجزاً عن التفكير المنطقي. من الخارج كان يتناهى إليه هديرٌ رتيب. كان الجمهور يتدفق سيولاً من مبنى «الفاريتيه» إلى الشارع. فجأةً تناهى إلى المدير المالي، الذي أصبح سمعه بالغ الرهافة، صفير الشرطة المعروف، الذي لا يبشّر بخير أبداً. وحين تكرّر الصفير هبّ لنجدته صفير أطول وأشدّ سطوة، وبعد ذلك انضمّت إليه قهقهة مسموعة بوضوح، بل وحتى صرخات هازئة ما، فأدرك المدير المالي على الفور أنّ فضيحة شنيعة ما قد حدثت في الشارع، وأنّ هذه الفضيحة، مهما حاول الإنكار، لها صلة وثيقة بالعرض المقرف الذي قدّمه الساحر ومساعداه. ولم يكن المدير المالي الفطِن مخطئاً.

ما إن نظر من النافذة المطلّة على شارع «سادوفايا» حتى تصعّر خده، وهمس، بل فحّ، قائلاً:

- كنت أعرف!

في الضوء الساطع لمصابيح الشارع المبهرة رأى على الرصيف في

الأسفل سيدة في قميص نوم وسروال بنفسجي اللون فقط. وكانت على رأس السيدة قبّعة، والحق يُقال، وبيدها مظلة.

كان يحيط بهذه السيدة التي كانت في حالٍ من الارتباك التام، فكانت تجلس القرفصاء تارةً وتركض إلى مكانٍ ما تارةً أخرى، حشدٌ هائج يطلق تلك القهقهات التي جعلت القشعريرة تسري في ظهر المدير المالي. وبجانب السيدة كان مواطنٌ ما يتخبّط محاولاً خلع معطفه الصيفي، ولاضطرابه لم يتمكّن، بأي شكل من الأشكال، من التخلّص من الكمّ الذي علقت يده فيه.

كانت الصرخات والقهقهات الزاعقة تأتي من مكانٍ آخر أيضاً، وبالتحديد من المدخل الشمالي، وحين استدار غريغوري دانيلوفيتش برأسه في ذاك الاتجاه أبصر امرأةً أخرى في ملابس داخلية وردية اللون. قفزت المرأة من الشارع إلى الرصيف لكي تختبئ في المدخل، لكنّ الجمهور المتدفّق سدّ عليها الطريق، والمرأة المسكينة، ضحية خفّة عقلها وولعها بالملابس الجميلة، والتي خدعتها شركة فاغوت اللعين، كانت تتمنى شيئاً واحداً فقط - أن تنشقّ الأرض وتبتلعها. اندفع شرطيٌّ نحو المسكينة، ممزّقاً الهواء بصفيره، وهرع في إثره شبان مرحون يعتمرون قبعات. وهؤلاء هم الذين كان يطلقون القهقهات والصرخات الساخرة.

أسرع حوذيٌّ نحيل ذو شاربين نحو المرأة العارية الأولى، وبكلّ ما أوتي من قوة أوقف فرسه الهزيلة المنهكة. كان وجه صاحب الشاربين يبتسم فرحاً.

ضرب ريمسكي رأسه بقبضته، ثم بصق وابتعد عن النافذة.

جلس إلى الطاولة بعض الوقت، مصيخاً السمع إلى الشارع. بلغ

الصفير أوجه في أماكن مختلفة، ثم بدأ يخفت. ولدهشة ريمسكي قُمع الشغب، بشكلٍ ما، بسرعة غير متوقعة.

دقّت ساعة العمل، وتوجّب شرب كأس المسؤولية المرّ. كانت أجهزة الهاتف قد أُصلحت خلال الفصل الثالث، وكان لا بدّ من الاتصال للإبلاغ عمّا جرى، وطلب المساعدة، والتملّص وتحميل ليخوديبف مسؤولية كل شيء، وتبرئة نفسه، وما إلى ذلك. اللعنة! وضع المدير المضطرب يده على سمّاعة الهاتف مرتين، ورفعها مرتين. وفجأةً، في المكتب الذي خيّم عليه صمت القبور، سفع رنين الهاتف وجه المدير المالي مباشرةً، فارتعد وسرت فيه البرودة. «يبدو أنّ أعصابي منهارة بدرجة كبيرة» - فكّر المدير ورفع السمّاعة. وعلى الفور تقهقر إلى الوراء وصار أشدّ بياضاً من ورقة بيضاء. فقد همس في السمّاعة صوتٌ نسائيٌّ خافت، لكنه مغناج وفاجر في الوقت نفسه، يقول:

- لا تتصل بأي مكان يا ريمسكي، وإلاّ فالويل لك. - وقُطع الاتصال في الحال.

شعر المدير المالي بالقشعريرة تسري في بدنه، فوضع السمّاعة ولسببٍ ما التفت نحو النافذة التي خلفه. عبر أغصان القيقب القليلة، التي لم تكتسِ بالخضرة كثيراً بعد، رأى القمر الراكض في غيمةٍ شفافة. ثبّت ريمسكي بصره على الأغصان لسببٍ ما، وراح ينظر إليها، وكلّما نظر إليها أكثر تملّكه الخوف أكثر فأكثر.

جاهد المدير المالي نفسه واستدار عن النافذة المقمرة ونهض واقفاً. لم يعد هناك احتمال للاتصال قطعاً، وهو الآن لا يفكر سوى في أمر واحد: أن يغادر المسرح بأسرع ما يمكن.

أصاخ السمع: كان مبنى المسرح صامتاً. أدرك ريمسكي أنه

بمفرده في الطابق الثاني منذ مدة طويلة، فتملّكه هلعٌ طفولي جارف من هذه الفكرة. لم يكن في وسعه التفكير، دون أن تأخذه الرعشة، بأنّ عليه الآن السير وحيداً في الأروقة الخالية ونزول الدرج. اختطف «التشرفونتسات» المسحورة عن الطاولة بهياج واضطراب، وخبّأها في محفظته، وسعل كي يشجّع نفسه ولو قليلاً، فخرج سعاله مبحوحاً ضعيفاً.

وهنا بدا له أنّ رطوبة عفنة تتسرّب فجأةً من تحت باب المكتب. سرت القشعريرة في ظهر المدير المالي. وفي هذه اللحظة أيضاً دقّت الساعة فجأةً معلنةً انتصاف الليل. وهذا الدقّ أيضاً جعل القشعريرة تسري في بدنه. لكنّ قلبه انخلع نهائياً حين سمع صوت مفتاح إنكليزي يدور بهدوء في قفل الباب. ومتشبّثاً بحقيبته بيديه الرطبتين الباردتين، شعر المدير المالي أنه لن يتحمّل وسيطلق صراخاً حادّاً إذا استمر هذا الصرير في القفل أكثر.

أخيراً أذعن الباب لجهود أحدهم فانفتح، ودخل فارينوخا المكتب بصمت وهدوء.

وكما نهض ريمسكي، كذلك جلس في المقعد، لأن رجليه خارتا. أخذ شهيقاً عميقاً وابتسم كما لو أنه يفعل ذلك مداهنة وتمتم بصوتٍ خافت:

- يا إلهي، كم أخفتني.

نعم، كان من شأن هذا الظهور المباغت أن يفزع أيّاً كان، لكنه كان فرحة كبيرة في الوقت نفسه. فقد ظهر طرف خيط على الأقل في هذه القضية الشائكة.

قال ريمسكي بصوتٍ أبحّ، متشبّثاً بطرف الخيط هذا:

- هيّا، تكلّم بسرعة! هيّا، هيّا! ما معنى هذا كله؟

ردّ فارينوخا بصوتٍ مكتوم وهو يغلق الباب:

- المعذرة من فضلك، ظننت أنك غادرت.

ومضى فارينوخا إلى المقعد، دون أن يخلع قبعته، وجلس إلى الجانب الآخر من الطاولة.

لا بدّ من القول إنّ بعض الغرابة كانت تلوح في جواب فارينوخا وخزت فوراً المدير المالي القادر، من حيث الحساسية، على مضاهاة جهاز تسجيل الاهتزازات (سيسموغراف) في أفضل محطّات العالم. كيف يعقل هذا؟ لماذا جاء فارينوخا إلى مكتب المدير المالي ما دام يعتقد أنه ليس في المكتب؟ إذ لديه مكتبه الخاص. هذا أولاً، وثانياً: أيّاً كان المدخل الذي دخل منه فارينوخا المبنى فلا بدّ أن يكون قد صادف أحد المناوبين الليليين، ولكان أبلغه أنّ غريغوري دانيلوفيتش سيتأخر في مكتبه لبعض الوقت.

لكنّ المدير المالي لم يتوقّف طويلاً عند هذه الغرابة، فقد كان يشغله أمر آخر.

- لِمَ لم تتّصل؟ وما معنى مسخرة يالطا كلها هذه؟

تمطّق المدير الإداري بلسانه، كمن توجعه سنّه، وأجاب:

- كما سبق أن قلت. عثروا عليه في «بوشكينو».

- كيف في «بوشكينو»؟ هذه التي قرب موسكو؟ وماذا عن البرقيات من يالطا؟

- أي يالطا لعينة هذه! لقد أسكر عامل البرق في «بوشكينو»، وراحا يعربدان، بما في ذلك إرسال برقيات عليها علامة «يالطا».

- آها... آها... حسناً، حسناً... - بدا كلام ريمسكي أقرب إلى الغناء منه إلى الكلام، ومضت عيناه بلون أصفر وارتسمت في

رأسه لوحة بهيجة لعزل ستيوبا من عمله. إنه الخلاص! الخلاص الذي طالما انتظره المدير المالي من هذه المصيبة المتمثلة في شخص ليخودييف! وقد ينال ستيبان بوغدانوفيتش ما هو أسوأ من العزل... ثم قال ريمسكي وهو ينقر على الطاولة بنشّافة الحبر: - أخبرني بالتفصيل.

وبدأ فارينوخا يروي بالتفصيل. ففور وصوله إلى حيث أرسله المدير المالي استقبلوه في الحال واستمعوا إليه باهتمام. لم يسلّم أحد بالطبع بفكرة أنّ ستيوبا قد يكون في يالطا. وعلى الفور وافق الجميع على فرضية فارينوخا بأنّ ليخودييف موجود، طبعاً، في حانة «يالطا» التي في بلدة «بوشكينو».

قاطع المدير المالي المستثار المدير الإداري سائلاً:

- وأين هو الآن؟

- وأين قد يكون؟ في قسم إنعاش السكارى طبعاً. - أجابه المدير الإداري مبتسماً بسخرية.

- طبعاً، طبعاً! آي، شكراً.

وواصل فارينوخا روايته، وكلّما استرسل في روايته تكشّفت أكثر أمام المدير المالي سلسلة بالغة الطول من نذالات وعربدات ليخودييف، وكل حلقة في هذه السلسلة كانت أسوأ من سابقتها. يكفي أن نذكر رقصه ثملاً ومعانقاً عامل البرق، على حافة بركة الماء التي أمام مركز البريد في «بوشكينو»، على أنغام هارمونيكا جوّالة! أو مطاردة مواطنات ما رحن يزعقن من الرعب! أو محاولة العراك مع عامل «البوفيه» في حانة «يالطا» ذاتها! أو بعثرة البصل الأخضر على أرضية «يالطا» تلك، وتحطيم ثماني زجاجات نبيذ «آي- دانيلا»

الأبيض «المزّ»، وكسر عدّاد سيارة أجرة لأن السائق رفض تسليم ستيوبا سيارته، والتهديد باعتقال مواطنين حاولوا وضع حد لشناعات ستيوبا. بقول واحد: رعب محض.

كان ستيوبا معروفاً على نطاق واسع في أوساط موسكو المسرحية، وكان الكل يعرف أنه ليس هدية من السماء. ومع هذا، فإنّ ما رواه المدير الإداري بخصوصه كان مبالغاً فيه حتى بالنسبة إلى شخص كستيوبا. أجل، مبالغ فيه، بل ومبالغ فيه كثيراً. . .

كانت عينا ريمسكي الثاقبتان مركّزتان على وجه المدير الإداري عبر الطاولة، وكلّما استرسل ذاك في الحديث أكثر ازدادت هاتان العينان وجوماً. وكلما ازدادت تلك التفاصيل الشنيعة، التي حشا المدير الإداري روايته بها، حيويةً وتلويناً. . . قلّ تصديق المدير المالي للراوي. وحين أخبره فارينوخا أنّ الاستهتار بلغ بستيوبا حدًّ أنه حاول مقاومة الذين جاؤوا في إثره لإعادته إلى موسكو، أيقن المدير المالي أنّ كل ما رواه المدير الإداري العائد في منتصف الليل إنما هو كذب! كذب من أوله إلى آخره.

ففارينوخا لم يذهب إلى «بوشكينو»، وستيوبا نفسه أيضاً لم يكن في «بوشكينو»، ولا وجود لعامل البرق الثمل، ولم يتمّ تحطيم الزجاج في الحانة، ولم يشدّوا وثاق ستيوبا بالحبال. . . لم يحدث شيء من هذا قط.

ما إن رسخت في ذهن المدير المالي فكرة أنّ المدير الإداري يكذب عليه حتى تسلّل الخوف إلى بدنه كله، بدءاً من قدميه، ومرة أخرى خُيِّل إليه أنّ رطوبة الملاريا العفنة تزحف على أرضية المكتب. ودون أن يحوّل عينيه للحظة واحدة عن المدير الإداري المنكمش على ذاته في المقعد على نحوٍ غريب، والذي كان يجاهد طوال الوقت لئلاّ

يخرج من تحت ظلّ مصباح الطاولة الأزرق، حاجباً وجهه بجريدة على نحوٍ عجيب من ضوء المصباح الذي يزعجه كما يدّعي، لم يكن المدير المالي يفكّر إلا في أمر واحد وهو: ما معنى هذا كله؟ لماذا يكذب عليه المدير الإداري العائد إليه متأخراً بهذه الوقاحة في المبنى الخالي والصامت؟ وبدأ شعورٌ بالخطر - خطر مجهول لكنه مخيف - يؤرّق روح المدير المالي. ومتظاهراً أنه لا يلاحظ مراوغة المدير الإداري وحيله مع الجريدة، راح المدير المالي يمعن النظر في وجه فارينوخا، وقد كفّ تقريباً عن سماع ما يهرف به. فقد كان هناك ما بدا أشدّ غموضاً من هذه القصة المختلقة المفتراة لسبب مجهول عن مغامرات ستيوبا في «بوشكينو»، وكان التغيّر في مظهر المدير الإداري وحركاته.

وقد تمكّن المدير المالي من تبيّن كدمة كبيرة على الجانب الأيمن من وجه المدير الإداري، قرب أنفه تماماً، على الرغم من محاولته إسدال حافة قبّعته المفلطحة على عينيه كي يظلّل وجهه، وعلى الرغم من تقليبه الجريدة. فضلاً عن أن المدير الإداري، المورّد الخدين عادةً، كان الآن ممتقعاً وشاحباً شحوباً مرضياً، ولأمرٍ ما كانت رقبته ملفَّعة بشال مقلّم قديم في هذه الليلة الخانقة. فإذا ما أضفنا إلى هذه الطريقة المقرفة التي كان المدير الإداري يتمطّق بها بشفتيه ويمصّهما، والتي ظهرت لديه أثناء غيابه، والتغيّر الحادّ في صوته الذي أصبح لطيفاً وغليظاً، والتلصّص والجبن في عينيه، - يمكن القول بجرأة إنّ إيفان سافيليفتش فارينوخا قد استحال شخصاً آخر تماماً.

وكان هناك شيء آخر يؤرّق المدير المالي، لكنه لم يستطع تحديده مهما شحذ دماغه المحموم ومهما أمعن النظر في فارينوخا. لكنّ الأمر الوحيد الذي كان بمقدوره تأكيده هو أنّ هناك شيئاً ما غير

طبيعي ولم يسبق له رؤيته في التصاق المدير الإداري هذا بالمقعد الذي يعرفه جيداً.

- لكننا تغلّبنا عليه أخيراً ووضعناه في السيارة. - دوّى صوت فارينوخا الذي كان ينظر من وراء الجريدة مغطّياً الكدمة براحة يده.

مدّ ريمسكي يده فجأةً وضغط، كأنما آلياً، على زر الجرس الكهربائي براحة يده، بينما كان ينقر بأصابعه على الطاولة في هذه الأثناء، وتسمّر مصعوقاً. إذ كان لا بدّ من سماع رنين الجرس الحادّ في المبنى الخالي، لكنّ الرنين لم يتبع ضغطه على الزرّ الذي غاص بلا حياة في لوح الطاولة. كان الزر ميتاً والجرس معطّلاً.

لم ينطلِ مكر المدير المالي على فارينوخا الذي سأل في تشنّج وعيناه تتقدان غضباً جليّاً:

- ما لك تقرع الجرس؟

- فعلت ذلك آليّاً، - أجاب المدير المالي بصوتٍ مكتوم ساحباً يده بسرعة، وبدوره سأل بصوتٍ متردّد: - ما هذا الذي على وجهك؟

- انحرفت سيارة عن الطريق فاصطدمت بمقبض بابها، - أجاب فارينوخا محوّلاً عينيه.

«كذّاب» صاح المدير المالي في سرّه. وهنا جحظت عيناه وأصبحتا بلهاوين تماماً وراح يحملق في ظهر المقعد.

كان هناك ظلاّن متقاطعان على الأرض خلف المقعد، أحدهما أشدّ سواداً وكثافةً، والآخر رقيق ورمادي. كان ظلّ ظهر المقعد وقوائمه الدقيقة يُرى بدقة ووضوح على الأرض، لكن لم يكن هناك ظل لرأس فارينوخا على ظهر المقعد، وكذلك تماماً لم يكن هناك ظلّ لقدمي المدير الإداري بين قوائم المقعد.

«لا ظلّ له!» صرخ ريمسكي في سرّه بهلع، واقشعرّ بدنه.

التفت فارينوخا خلسةً، متابعاً نظرة ريمسكي البلهاء، إلى خلف ظهر المقعد، وأدرك أنّ أمره قد كُشف، فنهض عن المقعد (وحذا المدير المالي حذوه) وتراجع عن الطاولة خطوةً قابضاً على الحقيبة بيديه.

- حزرتَ أيها اللعين! لطالما كنت فطناً، - قال فارينوخا وهو يبتسم بشراسة في وجه المدير المالي مباشرةً، ووثب بغتةً نحو الباب فأنزل رتاج القفل الإنكليزي إلى الأسفل. تلفّت المدير المالي حوله باستقتال وتراجع نحو النافذة المفضية إلى الحديقة، وفي هذه النافذة، المغمورة بضوء القمر، رأى وجه فتاة عارية ملتصقاً بالزجاج ويدها العارية الممتدة عبر كوة النافذة تحاول فتح المزلاج السفلي. كانت قد فتحت المزلاج العلوي.

بدا لريمسكي أنّ ضوء مصباح الطاولة يخبو وأنّ طاولة المكتب تميل. اجتاحت ريمسكي قشعريرة باردة كالجليد لكنه، لحسن الحظ، تمالك نفسه فلم يسقط. ولم يكفِه ما تبقّى لديه من قوة لأن يصرخ، فهمس:

- النجدة...

كان فارينوخا يحرس الباب. وقفز فبقي معلّقاً في الهواء طويلاً وهو يتأرجح ويلوّح بأصابعه المعقوفة باتجاه ريمسكي، ويهمس ويتمطّق بلسانه، وغمز الفتاة التي في النافذة.

وتلك راحت تسرع، فأدخلت رأسها الأصهب في كوّة النافذة ومدّت يدها قدر استطاعتها وبدأت تخدش المزلاج السفلي بأظافرها وتهزّ إطار النافذة. وأخذت يدها تستطيل، وكأنها من المطاط، وتغطّت بخضرة صيفية. أخيراً أمسكت أصابع الجثة الخضراء برأس المزلاج فأدارته وبدأت النافذة تنفتح. صرخ ريمسكي بصوتٍ واهن

وأسند ظهره إلى الجدار ورفع الحقيبة أمامه كترس، فقد أدرك أنّ ساعته قد حانت.

انفتح إطار النافذة على مصراعيه، لكن، بدلاً من طراوة الليل وأريج الزيزفون، انسلّت إلى الغرفة رائحة سرداب. وثبت الفتاة الميتة إلى عتبة النافذة، فرأى ريمسكي بقع التفسّخ على صدرها بوضوح.

وفي هذه اللحظة علا صياح الديك البهيج والمباغت من حديقة المبنى القديم الواقع خلف «التير»، حيث يُحتفَظ بالطيور التي تشارك في البرامج. دوّى صياح الديك المروّض الصدّاح معلناً أنّ الفجر يخبّ بسرعة من الشرق نحو موسكو.

شوّه حنقٌ وحشي وجه الفتاة وأطلقت شتيمةً مبحوحة. أما فارينوخا، العائم في الهواء عند الباب، فقد زعق وهوى على الأرض.

تكرّر صياح الديك، فطقطقت الفتاة بأسنانها وقفَّ شعرها الأصهب. ومع صيحة الديك الثالثة استدارت وولّت طائرةً. وسبح فارينوخا في إثرها ببطء، من فوق طاولة الكتابة، عبر النافذة، متقافزاً وماطّاً جسمه أفقياً في الهواء، مذكّراً بكيوبيد الطيّار.

هرع شيخٌ أشيب كالثلج، ليس في شعره شعرة سوداء واحدة، كان منذ فترة وجيزة ريمسكي، نحو الباب، فرفع المزلاج وفتح الباب وانطلق راكضاً في الممرّ المعتم. وعند منعطف الدرج راح يتلمّس زرّ الكهرباء، وهو يئنّ من الخوف، فغمر النور الدرج. سقط الشيخ المرتعد على الدرج وهو يرتجف لأنه خال أنّ فارينوخا قد هوى عليه من الأعلى برفق.

رأى ريمسكي، وهو يركض نازلاً، المناوب نائماً على كرسيّ في الردهة عند شبّاك التذاكر، فانسلّ بجواره يحبو على أطراف أصابعه وتسلّل من الباب الرئيسي. في الشارع شعر بشيءٍ من التخفّف، وثاب

إلى رشده إلى درجة أنه حين أمسك رأسه أدرك أنّ قبّعته قد ظلّت في المكتب.

من الطبيعي أنه لم يرجع لأخذها، وإنما عبر الشارع العريض راكضاً، وهو يلهث، إلى الناصية المقابلة قرب دار السينما، حيث تراءى له ضوءٌ أحمر خافت. وقد وصل إليه في دقيقة. لم يلحق أحد أن يحجز السيارة الواقفة.

قال الشيخ وهو يتنفس بصعوبة ويضع يده على قلبه:

- إلى قطار لينينغراد السريع، ولك إكرامية.

- أنا ذاهب إلى المرآب، - أجاب السائق بكره وأعرض عنه.

حينئذٍ فتح ريمسكي حقيبته وتناول منها خمسمئة روبل ومدّها نحو السائق عبر النافذة الأمامية المفتوحة، وفي لحظات كانت السيارة تطير كالريح عبر دوّار «سادوفايا». كان ريمسكي يهتزّ في المقعد، وكان يرى، في قطعة المرآة المعلّقة أمام السائق، عينيّ السائق الجذلتين تارةً والمجنونتين تارةً أخرى.

قفز ريمسكي من السيارة أمام مبنى محطة القطار، وصاح في أول شخص صادفه في مئزرٍ أبيض ويضع شارة:

- درجة أولى، شخص واحد، أعطيك ثلاثين، - لاهجاً بعجالة واختصار أخرج ريمسكي التشرفونتسات من الحقيبة، - إن لم يبقَ مقعد في الدرجة الأولى، فالثانية، وإلاّ ففي العربة ذات المقاعد الخشبية.

اختطف الرجل ذو الشارة التشرفونتسات من يد ريمسكي، ناظراً إلى ساعة التوقيت المضاءة.

بعد خمس دقائق اختفى القطار السريع من تحت القبّة الزجاجية وابتلعته الظلمة تماماً، واختفى معه ريمسكي أيضاً.

الفصل الخامس عشر

حلم نيكانور إيفانوفيتش

لا يصعب التكهّن بأنّ الشخص البدين القرمزي الوجه، الذي أُودع المصحّ في الغرفة رقم ١٩، كان نيكانور إيفانوفيتش بَسوي.

بيد أنه لم يجد نفسه في عهدة البروفيسور سترافينسكي مباشرةً، بل تواجد في مكانٍ آخر لبعض الوقت قبل ذلك.

من ذاك المكان لم يبقَ في ذاكرة نيكانور إيفانوفيتش إلاّ القليل، إذ لم يكن يتذكّر سوى طاولة مكتب وخزانة وأريكة.

هناك أجروا حديثاً مع نيكانور إيفانوفيتش، الذي غامت الدنيا أمام عينيه جرّاء احتقان الدم والانفعال الشديد، لكنّ فحوى الحديث كان، بشكل ما، غريباً ومبلبلاً، بل الأصح القول إنّ أيّ حديث لم يجرِ. فالسؤال الأول الذي طُرح على نيكانور إيفانوفيتش كان التالي:

- هل أنت نيكانور إيفانوفيتش بَسوي، رئيس الجمعية السكنية للمبنى رقم ثلاثمئة واثنان مكرّر بشارع «سادوفايا»؟

ردّاً على ذلك انفجر نيكانور إيفانوفيتش ضاحكاً ضحكة مرعبة، وأجاب حرفياً على النحو الآتي:

- أنا نيكانور، طبعاً نيكانور، لكن أيّ رئيس أنا بحق الشيطان!

- ماذا تقصد؟ - سألوا نيكانور إيفانوفيتش وهم يزرّون أعينهم، فأجاب:

- أقصد أنني لو كنت رئيساً لكان علي أن أدرك فوراً أنه قوة شريرة! وإلا ما معنى هذا؟ نظارة أنفية متصدّعة... مهلهل الثياب... فكيف يعقل أن يكون مترجماً لدى أجنبي!

- عمّن تتكلّم؟ - سألوا نيكانور إيفانوفيتش.

- كوروفييف! - صرخ نيكانور إيفانوفيتش، - الذي نزل عندنا في الشقة رقم ٥٠. اكتبوا: كوروفييف. يجب القبض عليه دون إبطاء! اكتبوا: المدخل السادس، إنه هناك.

- من أين حصلت على العملة الأجنبية؟ - سألوا نيكانور إيفانوفيتش بصراحة.

- والله الحق، وبالله القدير، - شرع نيكانور إيفانوفيتش يقول، - البصير بكل شيء، الذي سيأخذني إليه يوماً، لم أمسك بيدي عملة أجنبية قط، ولم أكن أعرف بوجودها! الله يعاقبني على إثمي، - تابع نيكانور إيفانوفيتش يقول بانفعال، وهو يزرر قميصه ويحلّ أزراره تارةً، ويرسم إشارة الصليب تارةً أخرى، - لقد أخذت! أخذت مالاً، لكن بعملتنا السوفييتية! لا أنكر أنّي سجّلت قيود بعضهم لقاء المال أحياناً، فقد حدث هذا. ولا بأس بسكرتيرنا بروليجنيف، فهو أيضاً لم يقصّر! ولنقل بصراحة، كل أعضاء إدارة الجمعية السكنية لصوص. لكني لم آخذ عملة أجنبية!

وحين طُلب إليه عدم التحامق وأن يخبرهم بكيفية وصول الدولارات إلى جهاز التهوئة، ركع نيكانور إيفانوفيتش على ركبتيه وراح يتمايل فاغر الفم وكأنه يتمنّى لو يبتلع رقعة «الباركيه» وجأر قائلاً:

- أتريدون أن آكل التراب لأثبت أني لم آخذ الدولارات؟ أما كوروفييف فهو شيطان.

لكلّ صبر حدود، وقد بدأت أصوات الجالسين إلى الطاولة تلمّح لنيكانور إيفانوفيتش أنه حان له أن يتكلّم بلغة البشر.

هنا دوّى في الغرفة ذات الأريكة عينها زئير نيكانور إيفانوفيتش الوحشي الذي هبّ واقفاً وزأر:

- ها هو ذا! ها هو خلف الخزانة! ها هو يبتسم ساخراً! ونظارته الأنفية... أمسكوا به! رشّوا المكان بالماء المقدّس!

غار الدم من وجه نيكانور إيفانوفيتش، ورسم علامة الصليب في الهواء وهو يرتعد، وأخذ يركض نحو الباب جيئةً وذهاباً، وتلا دعاءً ما، وأخيراً بدأ يهذي تماماً.

صار واضحاً تماماً أنّ نيكانور إيفانوفيتش لم يعد يصلح لأي حديث، فأخرجوه وأودعوه غرفةً منفردة، حيث هدأ بعض الشيء وشرع يصلّي وينشج فحسب.

لقد ذهبوا إلى شارع «سادوفايا» بالطبع، ودخلوا الشقة رقم ٥٠، لكنهم لم يجدوا هناك أي كوروفييف، بل ولم يكن أحد من سكان المبنى قد رأى أو عرف أي كوروفييف كان. كانت الشقة التي يشغلها المرحوم بِرلُوز وليخوديف المسافر إلى يالطا خالية تماماً، وفي المكتب كانت أختام الشمع معلّقة بسلام على الخزانات لم يمسسها أحد بسوء، فغادروا «سادوفايا»، لكن غادر معهم أيضاً سكرتير إدارة الجمعية السكنية بروليجنيف الذاهل والمسحوق.

وفي المساء أُودع نيكانور إيفانوفيتش عيادة سترافينسكي. وهناك كان سلوكه من الاضطراب والهيجان ما استوجب إعطاءه حقنة بناءً على وصفة سترافينسكي، وفقط بعد منتصف الليل غفا نيكانور إيفانوفيتش في الغرفة ١١٩، مطلقاً خواراً معذَّباً ثقيلاً بين الحين

والآخر. لكن نومه كان يغدو أهنأ بمرور الوقت، فقد كفّ عن الدمدمة والتأوّه وبدأ يتنفس بسهولة وانتظام، فتركوه بمفرده.

حينئذٍ زار نيكانور إيفانوفيتش حلم مبني على ما عاناه اليوم دون شك. وقد بدأ الحلم بأن رأى نيكانور إيفانوفيتش أناساً بأيديهم أبواق يقتادونه بمهابة شديدة نحو باب كبير صقيل. وعند هذا الباب عزف مرافقوه ما بدا سلاماً موسيقياً لنيكانور إيفانوفيتش، ثم سمع صوتاً غليظاً مدوياً قادماً من السماء يقول بمرح:

- أهلاً وسهلاً يا نيكانور إيفانوفيتش! سلّم العملة الأجنبية.

نيكانور إيفانوفيتش، المندهش إلى أقصى الحدود، رأى أعلى رأسه مكبّر صوت أسود اللون. بعد ذلك وجد نفسه، لسببٍ ما، في صالة مسرح تتلألأ ثريات من الكريستال تحت سقفها المذهّب وعلى جدرانها قناديل. كان كل شيء كما ينبغي أن يكون في مسرح صغير من حيث المساحة، لكنه مترف. فقد كانت فيه خشبة وستارة مخملية مسدلة، وفي الخلفية الكرزية الغامقة تناثرت صور مكبَّرة ذهبية لأوراق مالية من فئة العشرة روبلات، وكشك الملقّن، بل وحتى الجمهور.

وقد أدهش نيكانور إيفانوفيتش أن الجمهور كله كان من جنس واحد، فقد كانوا ذكوراً، ولأمرٍ ما كانوا جميعاً ملتحين. كما أدهشه، فضلاً عن ذلك، عدم وجود مقاعد في صالة المسرح، وكان الجمهور كله جالساً على الأرض الممسوحة والملساء بشكل رائع.

ارتبك نيكانور إيفانوفيتش وسط هذه الجماعة الجديدة والكبيرة، وبعد شيءٍ من التردد حذا حذو الجميع وجلس متربّعاً على «الباركيه» على الطريقة التركية، بين مواطنٍ أصهب بدين ملتحٍ ومواطن آخر شاحب وفارع الطول. لكن لم يلتفت أحد من الجالسين إلى المشاهد الجديد.

هنا سُمع رنين جرس لطيف، وانطفأ النور في الصالة، وانفتحت الستارة في الاتجاهين، ولاحت الخشبة المضاءة، ينتصب فوقها مقعد وطاولة عليها جرس ذهبي صغير، وبخلفية مخملية سوداء قاتمة.

وفي تلك اللحظة خرج من الكواليس فنان شاب يرتدي «السموكينغ»، حليق الذقن بعناية ومفروق الشعر، ملامح وجهه لطيفة جداً. دبّت الحيوية في الجمهور في الصالة والتفت الجميع نحو الخشبة. اتّجه الفنان نحو كشك الملقّن وفرك يديه.

- جالسون؟ - سأل الفنان بصوت جهوري ناعم وابتسم للصالة.

- جالسون، جالسون، - أجابت جوقة من الصالة بأصوات عالية وخفيضة.

- هممم... - بدأ الفنان كلامه في شرود، - وكيف لا تشعرون بالملل، لست أفهم؟ الناس جميعاً يتمشّون الآن في الشوارع، يستمتعون بشمس الربيع ودفئه، بينما أنتم تقْعون على الأرض هنا في هذه الصالة الخانقة! هل يُعقل أن يكون البرنامج شيّقاً إلى هذا الحد؟ على كلٍّ، القلب وما يهوى، - أنهى الفنان كلامه فلسفياً.

بعد ذلك غيّر إيقاع ونبرة صوته، وأعلن بصوت مرح رنّان:

- وهكذا، فإنّ فقرة برنامجنا التالية هي نيكانور إيفانوفيتش بَسوي، رئيس جمعية سكنية ومدير مطعم صحي[١]. فليتفضّل نيكانور إيفانوفيتش!

تعالى التصفيق المدوّي ردّاً على الفنان. جحظت عينا نيكانور

(١) يتلاعب بولغاكوف بالمصطلحات هنا من باب السخرية، حيث يستخدم مصطلحات أكاديمية من مثل «رئيس قسم الآداب الأجنبية» لكنه يقول ما معناه «رئيس قسم أطعمة الحمية الغذائية».

إيفانوفيتش المدهوش، في حين راح عريف الحفل يبحث بنظره، متّقياً ضوء المصباح بيده، وسط الجلوس، فعثر عليه وأومأ إليه بإصبعه بمودّة داعياً إياه إلى الخشبة، فوجد نيكانور إيفانوفيتش نفسه على الخشبة، لا يدري كيف.

سفعت أضواء المصابيح الملونة عينيه من الأسفل والأمام، الأمر الذي جعل الصالة، مع الجمهور، تغرق في الظلمة في الحال.

قال الفنان الشاب بصفاء سريرة:

- هيا يا نيكانور إيفانوفيتش، كن قدوةً حسنة وسلّم العملة الأجنبية.

ران الصمت. تنهّد نيكانور إيفانوفيتش وقال بصوتٍ خافت:

- أقسم بالله أنّي...

لكن ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى ضجّت الصالة بصيحات التنديد، فارتبك نيكانور إيفانوفيتش ولاذ بالصمت.

قال مقدّم البرنامج وهو يرنو إلى نيكانور إيفانوفيتش بتعاطف:

- بقدر ما فهمت، أردت أن تحلف بالله أنْ ليست لديك عملة أجنبية، أليس كذلك؟

- بالضبط، لا توجد، - أجاب نيكانور إيفانوفيتش. فردّ الفنان:

- طيّب، واغفر لي فظاظتي، فمن أين إذاً جاءت الأربعمئة دولار التي عُثر عليها في مرحاض الشقة التي لا يسكنها إلاّ أنت وزوجتك؟

- إنها مسحورة! - قال أحدهم من الصالة المعتمة بسخرية جلية.

- بالضبط مسحورة! - أجاب نيكانور إيفانوفيتش بوجل موجّهاً كلامه إلى جهة غير محدّدة، بحيث لا تدري هل يخاطب الفنان أم الصالة المعتمة، .وشرح قائلاً: - دسّتها قوة شريرة، المترجم «المربّعاتي».

ضجّت الصالة بالسخط ثانيةً. ولمّا ساد الصمت قال الفنان:

- هاكم أي حكايات لافونتين الخرافية يتوجّب عليّ سماعها! تركوا أربعمئة دولار! ها أنتم جميعاً من المتعاملين بالعملات الأجنبية، وإني أوجّه إليكم بوصفكم أخصائيين: هل هذا معقول؟

دوّت أصوات ممتعضة متفرقة في الصالة تقول:

- لسنا من المتعاملين بالعملات الأجنبية، لكنّ هذا غير معقول.

فقال الفنان جازماً:

- أشاطركم الرأي تماماً، وإني أسألكم: ما الذي قد يتركونه؟

- طفلاً! - صاح أحدهم من الصالة.

- صحيح بالمطلق، - أكّد مقدّم البرنامج، - طفلاً، رسالة مغفلة، منشوراً، آلة جهنمية، والله أعلم ماذا أيضاً، لكن لن يعمد أحد إلى رمي أربعمئة دولار، إذ لا وجود لأحمقٍ كهذا في الطبيعة، - ثم استدار الفنان نحو نيكانور إيفانوفيتش وأردف بتعبٍ وتحسّر: - لقد كدّرتني يا نيكانور إيفانوفيتش! بينما كنت أعوّل عليك كثيراً. وهكذا، فقرتنا لم تكن ناجحة.

تعالى الصفير في الصالة منددّاً بنيكانور إيفانوفيتش، وراحوا يصيحون في الصالة:

- إنه متعامل بالعملات الأجنبية! وبسبب أمثاله إنما نعاني دونما ذنبٍ اقترفناه!

- لا تشتموه، فهو نادم - قال عريف الحفل برقّة، ثم التفت إلى نيكانور إيفانوفيتش، الذي اغرورقت عيناه الزرقاوان بالدموع، وأضاف: - هيا يا نيكانور إيفانوفيتش، عد إلى مكانك!

بعد ذلك قرع الفنان الجرس وأعلن بصوتٍ عالٍ:

- استراحة يا أوغاد!

نيكانور إيفانوفيتش المصعوق، الذي وجد نفسه مشاركاً في برنامج مسرحي على غير توقّع منه، وجد نفسه ثانيةً في مكانه على الأرض. وهنا رأى في الحلم أنّ الصالة قد غرقت في عتمةٍ كالحة، ونتأت على الجدران الكلمتان الحمراوان المضيئتان التاليتان: «سلّم العملة!»، ثم انفتحت الستارة ثانيةً، ودعا عريف الحفل:

- أدعو سيرغيي غيرادوفيتش دونتشِل إلى الخشبة.

بدا دونتشل رجلاً في الخمسين، وقور المظهر، قليل الاعتناء بنفسه. توجّه إليه عريف الحفل بالكلام قائلاً:

- ها قد مرّ على جلوسك هنا شهر ونصف يا سيرغيي غيرادوفيتش، وترفض بعناد تسليم العملة الأجنبية التي لديك، في حين أنّ البلاد بحاجة إليها، بينما لا نفع فيها على الإطلاق بالنسبة إليك، لكنك، مع ذلك، تعاند. أنت شخص مثقف وتدرك هذا كله جيداً، ورغم ذلك لا تريد ملاقاتي في منتصف الطريق.

- للأسف، لا يمكنني تسليم شيء، إذ لم تعد لدي عملة أجنبية.
- أجاب دونتشل بهدوء.

- ألم تعد توجد لديك ماسات على الأقل؟ - سأله الفنان.

- ولا وجود لماسات أيضاً.

رفع الفنان رأسه واستغرق في التفكير، ثم صفّق بيديه فخرجت من وراء الكواليس إلى الخشبة سيدة في منتصف العمر ترتدي ملابس عصرية، أي معطفاً دون ياقة وقبّعة صغيرة جداً. كان مظهر السيدة مضطرباً جزعاً، أما دونتشل فقد رنا إليها دون أن يرفّ له جفن.

سأل مقدّم البرنامج دونتشل:

- من هذه السيدة؟

- إنها زوجتي، - أجاب دونتشل بوقار وراح ينظر إلى عنق السيدة الطويل بشيءٍ من الاشمئزاز. فقال عريف الحفل مخاطباً السيدة:

- لقد أزعجناك يا مدام دونتشل، والسبب هو أننا نريد أن نسألك إن كانت لا تزال لدى زوجك عملة أجنبية؟

- لقد سلّمها كلها حينذاك، - أجابت مدام دونتشل بقلق.

فقال الفنان:

- حسناً، وهو كذلك. ما دام قد سلّمها كلها فعلينا الافتراق عن سيرغيي غيرادوفيتش في الحال، لا بأس، بإمكانك مغادرة المسرح إذا شئت يا سيرغيي غيرادوفيتش، - وأدّى الفنان حركةً ملكية.

استدار دونتشل بهدوء ووقار واتّجه نحو الكواليس، فاستوقفه عريف الحفل:

- دقيقة واحدة! اسمح لي، قبل الوداع، أن أريك فقرة أخرى من برنامجنا.

وصفّق بيديه ثانيةً، فانفرجت الستارة الخلفية السوداء، وصعدت الخشبة شابة حسناء في فستان سهرة تحمل بيديها صينية ذهبية عليها رزمة سميكة مربوطة بشريط، كالذي تُحزَم به علب السكاكر، وعقدٌ من الماس يتلألأ ببريقٍ أزرق وأصفر وأحمر في الاتجاهات كافة.

تراجع دونتشل خطوة إلى الوراء وغطّى الشحوب وجهه، وهمدت الصالة.

أعلن الفنان ظافراً:

- ثمانية عشر ألف دولار وعِقد بقيمة ألف ليرة ذهبية كان سيرغيي غيرادوفيتش يحتفظ بها في مدينة خاركوف في شقة عشيقته إيدا

غيركولانوفنا فورس التي يسعدنا أن نراها ماثلة أمامنا، والتي تلطّفت وساعدتنا في العثور على هذه الكنوز التي لا تقدَّر بثمن، لكن العديمة القيمة في يديّ شخص واحد. شكراً جزيلاً يا إيدا غيركولانوفنا.

ابتسمت الحسناء فلمعت أسنانها وارتعشت رموشها الكثّة. وقال الفنان مخاطباً دونتشل:

- بينما تحت مظهرك المليء بالوقار يحتجب عنكبوت بخيل ومخادع وقح وكذّاب. لقد أعييت الجميع طوال شهر ونصف بعنادك الغبي. والآن اغرب من هنا إلى بيتك، وليكن الجحيم الذي ستقيمه لك زوجتك عقاباً لك.

ترنّح دونتشل وبدا أنه يكاد ينهار، لكنّ أيادٍ مشفقة تلقّفته. وفي هذه اللحظة هبطت الستارة الأمامية وحجبت كل من كان على الخشبة.

هزّ تصفيقٌ جنوني الصالة إلى درجة بدا فيها لنيكانور إيفانوفيتش أنّ أضواء الثريات تتقافز. وحين ارتفعت الستارة الأمامية البيضاء لم يكن قد بقي على الخشبة أحد سوى الفنان الذي أوقف موجة التصفيق الثانية وانحنى وشرع يقول:

- لقد مثل أمامكم في برنامجنا حمار نموذجي في شخص دونتشل هذا. فقد كان من دواعي سروري أنّي قلت لكم البارحة إنّ إخفاء العملة سخافة لا جدوى منها. ولنأخذ دونتشل هذا مثلاً. إنه يقبض راتباً ممتازاً ولا يفتقر إلى شيء. إذ لديه شقة رائعة وزوجة وعشيقة. لكن لا، فبدلاً من العيش بهدوء وسلام دون أي منغّصات، من خلال تسليمه العملة الأجنبية والأحجار الكريمة، تسبّب هذا الأبله لنفسه بفضيحة على مرأى من الجميع، كما سبّب مشكلة عائلية كبيرة فضلاً عن ذلك. وإذاً، من سيسلّم عملة أجنبية؟ هل يوجد راغبون؟ في هذه الحالة، في الفقرة التالية من برنامجنا سيؤدّي الفنان المسرحي

الموهوب والمعروف سافا بوتابوفيتش كوروليسوف، المدعو خصيصاً، مقطعاً من مسرحية «الفارس البخيل» للشاعر بوشكين.

سرعان ما ظهر كوروليسوف الموعود على الخشبة، وتبيّن أنه رجل حليق فارع الطول ولحيم، يرتدي بدلة رسمية ويضع ربطة عنق بيضاء. ودون أيّ مقدمات اصطنع كوروليسوف وجهاً متجهماً وقطّب حاجبيه، وراح يقول بصوتٍ مفتعل وهو ينظر شزراً إلى الجرس الذهبي الصغير:

- كما ينتظر شابٌّ طائش لقاء عاهرةٍ مغناج. . .

وروى كوروليسوف عن نفسه الكثير من الأمور السيئة. وسمع نيكانور إيفانوفيتش كيف اعترف كوروليسوف بأنّ أرملةً تعسةً ما ركعت أمامه على ركبتيها تحت المطر وهي تولول، لكنها لم تمسّ شغاف قلب الفنان. لم يكن نيكانور إيفانوفيتش قد اطّلع قط على أعمال الشاعر بوشكين قبل حلمه هذا، على الرغم من أنه كان يعرف بوشكين نفسه معرفةً رائعة، وكان يفوه بضع مرات في اليوم بعبارات من قبيل: «هل سيدفع بوشكين إيجار الشقة؟» أو: «يبدو أنّ بوشكين هو الذي فكّ مصباح الدرج!»، «هل بوشكين هو من سيشتري المازوت؟».

الآن، وقد تعرّف إلى أحد مؤلّفاته، اغتمّ نيكانور إيفانوفيتش، وتخيّل المرأة راكعةً على ركبتيها، مع أيتامها، تحت المطر، وفكّر لاإرادياً: «ورغم ذلك، يا له من سافل كوروليسوف هذا!».

أما كوروليسوف فقد تابع يبدي ندمه، رافعاً صوته أكثر فأكثر، وبلبل نيكانور إيفانوفيتش تماماً لأنه فجأةً أخذ يخاطب شخصاً غير موجود على الخشبة، ويردّ على نفسه بنفسه نيابةً عن ذاك الشخص، حيث راح يدعو نفسه «السيد» تارةً و«البارون» تارةً، و«الأب» تارةً و«الابن» تارةً، وتارةً «أنتم» وأخرى «أنت».

لم يفهم نيكانور إيفانوفيتش شيئاً سوى أنّ الفنان مات ميتة شريرة وهو يصرخ: «المفاتيح! مفاتيحي!» ثم هوى على الأرض وهو يحشرج ويفكّ ربطة عنقه بحذر.

نهض كوروليسوف واقفاً بعد أن مات، ونفض الغبار عن بنطاله الفراك، ثم انحنى وابتسم ابتسامةً مصطنعة وغادر مصحوباً بتصفيقٍ ضعيف. أما عريف الحفل فقد قال:

- شاهدنا وإياكم «الفارس البخيل» بأداء سافا بوتابوفيتش الرائع. كان هذا الفارس يأمل أن تتهافت عليه الحوريات اللعوبات، وأن يحدث الكثير له من الأمور اللطيفة من هذا القبيل. لكن، كما ترون، لم يحدث شيء من هذا، فلم تتهافت عليه أي حوريات، ولم تجلب له ربّات الإلهام أيّ إتاوات، ولم يشيّد أيّ قصور، بل، على العكس، مات ميتة شنيعة جداً غير مأسوف عليه جرّاء اصطدامه بصندوقه الخاصّ بالعملات الأجنبية والأحجار الكريمة. وإني أحذّركم أنّ شيئاً من هذا القبيل سيحدث لكم، إن لم يكن أسوأ، إذا لم تسلّموا العملة الأجنبية!

تُرى هل قصيدة بوشكين هي التي أحدثت هذا الانطباع أم خطبة عريف الحفل، لكن فجأةً تناهى من الصالة صوت خجول يقول:

- سأسلّم العملة الأجنبية!

فدعاه عريف الحفل بلطف وهو يحدّق في الصالة المعتمة:

- أرجو التفضّل إلى الخشبة!

صعد الخشبة مواطن أشقر قصير القامة لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أسابيع إذا ما حكمنا عليه من وجهه. سأله عريف الحفل:

- أرجو المعذرة، ما كنيتك؟

- كانافكين نيكولاي، - أجاب المواطن بوجل.

- آ! تشرّفنا أيها المواطن كانافكين، وإذاً؟
- سأسلّم العملة، - قال كانافكين بصوتٍ خافت.
- كم؟
- ألف دولار وعشرون قطعة ذهبية.
- برافو! هل هذا كل ما لديك؟

حدّق مقدّم البرنامج في عينيّ كانافكين مباشرةً، بل وبدا لنيكانور إيفانوفيتش أنّ أشعةً ما انبعثت من هاتين العينين اخترقت كانافكين، وكأنها أشعة سينية[1]. حبس من في الصالة أنفاسهم. وأخيراً أطفأ الفنان نظرته وهتف قائلاً:

- أصدّقك، أصدّقك! هاتان العينان لا تكذبان. إذ لطالما قلت لكم إنّ خطأكم الأساسي أنكم لا تقدّرون قيمة العيون البشرية. افهموا أنّ اللسان يمكنه حجب الحقيقة، أما العينان فمستحيل! يُطرح عليكم سؤال مباغت فلا ترتعشون حتى، وفي ثانية واحدة تتمالكون أنفسكم وتعرفون ماذا عليكم أن تقولوا لإخفاء الحقيقة، وتتكلّمون بمنتهى الإقناع، دون أن تتحرك ثنية واحدة من ثنايا وجوهكم، لكن هيهات، فالحقيقة التي أقلقها السؤال تقفز من أعماق النفس إلى العينين في لحظة، وينتهي كل شيء. لقد لوحظتْ، وأُمسِك بكم!

بعد إلقاء هذه الخطبة المقنعة جداً، وبحرارة شديدة، سأل الفنان كانافكين برقّة:

- وأين خبّأتها؟
- عند عمتي بوروخوفنيكوفا في بريتشينسكايا.

---

(١) الأشعة السينية هي التي يصدرها جهاز التصوير الضوئي، واسمها العلمي «أشعة رونتجن» أو X Ray.

- آ! عند. . . مهلاً. . . أعند كلافديا إيلينشينا؟

- نعم.

- آخ. نعم، نعم، نعم! البيت الصغير؟ الذي مقابل الجنينة الصغيرة؟ وكيف إذاً، أعرفه، أعرفه! وأين دسست المال هناك؟

- في السرداب، في صفيحة من صفائح نبيذ «إينيم». . .

ضرب الفنان كفاً بكف وصاح مغموماً:

- هل سبق أن رأيتم شيئاً كهذا؟ إذ سوف تتعفّن وتهترئ من الرطوبة! هل يُعقل ائتمان أناس كهؤلاء على العملات الأجنبية، هه؟ كالأطفال تماماً والله!

كانافكين أيضاً أدرك أنه قد أخطأ وفضح نفسه بكلامه، فنكس رأسه القنبراني، بينما تابع الفنان يقول:

- يجب حفظ المال في مصرف الدولة، في أماكن خاصة جافّة ومحروسة جيداً، وليس في سرداب العمّة قطعاً، حيث يمكن للجرذان، بشكل خاص، إتلافها! حقاً إنه لأمر مخجل يا كانافكين! فأنت إنسان راشد.

لم يعد كانافكين يدري أين يخفي وجهه وراح يفرك طرف سترته بأصابعه وحسب، فرقّ له الفنان وقال:

- لا بأس، فلننسَ الماضي. . . - وفجأةً أضاف يقول على غير توقّع: - وبالمناسبة، ولكي لا تذهب السيارة مرتين. . . هل توجد لدى هذه العمّة نفسها أيضاً عملة أجنبية، هه؟

ارتعد كانافكين الذي لم يكن يتوقّع هذا التحوّل على الإطلاق، وران الصمت في المسرح. فقال عريف الحفل معاتباً إياه برقّة:

- إيه يا كانافكين، وأنا الذي أثنيت عليك فضلاً عن ذلك!

انظروا، ها هو يبتلع لسانه فجأةً! هذا غير معقول يا كانافكين! فقد تكلّمت عن العيون لتوّي. من الواضح أنّ العمّة لديها عملة، فلمَ، إذاً، تعذّبنا عبثاً؟

- لديها! - صاح كانافكين باندفاع.

- برافو! - صاح عريف الحفل.

- برافو! - انفجرت الصالة صائحةً بصوتٍ مرعب.

حين عاد الهدوء هنّأ عريف الحفل كانافكين وشدّ على يده مصافحاً، وعرض عليه إيصاله إلى البيت بالسيارة، وأمر أحد الموجودين في الكواليس الذهاب بهذه السيارة نفسها لإحضار العمّة والطلب إليها التفضّل بحضور البرنامج في مسرح النساء.

- بالمناسبة، ألم تقل العمّة أين تخبّئ عملتها الأجنبية؟ - سأل عريف الحفل كانافكين وهو يقدّم له بلطف لفافة تبغ وعود ثقاب مشتعل. أخذ كانافكين يدخّن وهو يبتسم ابتسامةً حزينة، فقال الفنان متنهّداً:

- أصدّقك، أصدّقك، فهذه الحيزبون البخيلة لن تخبر الشيطان نفسه بمكانها، فما بالكم بابن أخيها. لكن لا بأس، سنحاول إيقاظ المشاعر الإنسانية فيها. لعل ليس كل الأوتار قد تعفّنت في نفس هذه المرابية. أتمنى لك كل الخير يا كانافكين! - وغادر كانافكين السعيد.

استفسر الفنان ما إذا كان هناك آخرون يرغبون في تسليم ما لديهم من عملات أجنبية، لكنه تلقّى الصمت جواباً.

- غريبو أطوار والله! - قال الفنان هازّاً كتفيه، وحجبته الستارة.

انطفأت المصابيح فساد الظلام لبعض الوقت، ومن بعيد سُمع في العتمة صوت متوتّر حاد يغنّي:

«توجد هناك أكوام من الذهب، وهي ملكي!»

ثم سُمع صوت تصفيق مرتين من مكانٍ ما في البعيد.

- في مسرح النساء سيدة ما تسلّم العملة، - فجأةً قال جار نيكانور إيفانوفيتش الأصهب الملتحي، وأضاف متنهداً: - إيه، لولا إوزّاتي! عندي، أيها الإنسان العزيز، إوزّات مقاتلة في ليانوزوفا. أخشى أن تنفق بدوني. إنها طيور مقاتلة، لطيفة، تتطلّب عناية... إيه، لولا إوزّاتي! لن تدهشني ببوشكين هذا، - وتنهّد ثانيةً.

وفي هذه اللحظة أضاءت الصالة بنورٍ ساطع وراح نيكانور إيفانوفيتش يحلم أنّ طبّاخين على رؤوسهم قبّعاتٌ بيض وبأيديهم مغارف يدخلون من أبواب الصالة أفواجاً. وقد حمل الطباخون إلى الصالة خابية حساء بالبصل مع خبز أسمر مقطّع. دبّ النشاط في النظّارة، وراح الطبّاخون يتنقلون بخفة ونشاط بين عشاق المسرح ويسكبون لهم الحساء في صحاف ويوزّعون عليهم الخبز، وهم يصيحون:

- تغدّوا يا شباب، وسلّموا العملة الأجنبية! ما لكم تقبعون ها هنا عبثاً؟ هل يروقكم احتساء هذه النفاية؟ أليس الأفضل أن يذهب المرء إلى بيته، فيشرب ويتمزمز كما ينبغي؟

- أنت مثلاً يا أبتِ، ما لك تجلس هنا؟ - قال طبّاخ بدين أحمر الرقبة لنيكانور إيفانوفيتش مباشرةً، وهو يمدّ إليه صحفة حساء تطفو فيها ورقة كرنب وحيدة.

- لا توجد، لا توجد، لا توجد عندي! هل تفهم، لا توجد عندي! - صرخ نيكانور إيفانوفيتش بصوتٍ مرعب.

- ليس عندك شيء؟ - زمجر الطبّاخ بصوتٍ غليظ رهيب، ثم

سأل بصوتٍ أنثويٍّ رقيق: - ليس عندك شيء؟ - وغمغم مطمئناً، فصار الممرضة براسكوفيا فيودوروفنا: - لا توجد، لا توجد.

هزّت براسكوفيا فيودوروفنا نيكانور إيفانوفيتش الذي كان يئنّ في نومه من كتفه. وحينها تبخّر الطباخون وانهار المسرح مع ستارته، وتبيّن نيكانور إيفانوفيتش من خلال دموعه غرفته في المصحّ وشخصين في رداءين أبيضين، لكنهما لم يكونا قطعاً طباخين وقحين يتطفلان على الناس بنصائحهما، بل طبيبان ومعهما براسكوفيا فيودوروفنا نفسها، ولم تكن تمسك بيديها صحفة بل صحناً صغيراً مغطّى بشاش عليه حقنة.

قال نيكانور إيفانوفيتش حين أخذوا يحقنونه بالإبرة:

- وما هذا؟ لا توجد عندي عملة، لا توجد! فليسلّمهم بوشكين عملات أجنبية، لا توجد عندي.

شعر نيكانور إيفانوفيتش بالراحة بعد الحقنة، فغفا دون أيّ أحلام.

لكن بفضل صراخه انتقل الهلع إلى الغرفة رقم ١٢٠، فقد استيقظ مريضها وراح يبحث عن رأسه، وكذلك إلى الغرفة رقم ١١٨، حيث اهتاج المعلّم المجهول وأخذ يعصر يديه في كآبة وحزن، وهو يرنو إلى القمر، متذكّراً الليلة الخريفية الحزينة الأخيرة في حياته، وشريط الضوء المتسلل من تحت الباب، والشعر المنسدل.

وطار القلق من الغرفة ١١٨ عبر الشرفة إلى إيفان، فاستيقظ وشرع يبكي.

لكن سرعان ما قام الطبيب بتهدئة جميع المهتاجين، المصابين في عقولهم، فبدأوا يغفون. وكان إيفان آخر من غفا، وذلك بعد أن غمر

ضوء النهار النهر. بعد الدواء، الذي روى جسده كله، عاد إليه الهدوء وغمره كموجة. شعر جسده بالراحة، وهبّت على رأسه نسمة النعاس الدافئة، فغفا، وكان آخر ما سمعه بوضوح زقزقة الطيور في الغابة قبل انبلاج الفجر. لكنها سرعان ما صمتت، وأخذ يحلم بأنّ الشمس أخذت تهبط فوق «الجبل الأقرع»، وكان الجبل محاطاً بطوقٍ مزدوج من الجنود...

الفصل السادس عشر

الصَلب

كانت الشمس قد بدأت تهبط فوق «الجبل الأقرع»، وكان الجبل مطوّقاً بطوقٍ مزدوج.

وكان فوج الخيّالة، الذي قطع الطريق على الحاكم قرابة الظهيرة، ينطلق خبباً باتجاه بوّابة خيفروف. كانت الطريق قد هُيّئت من أجلها. كان جنود كتيبة المشاة القبدوقيّة قد أبعدوا جانباً حشود الناس والبغال والجِمال. وبلغ الفوج، الذي كان يمضي مسرعاً ورافعاً أعمدة الغبار البيضاء إلى السماء، المفترق حيث تتقاطع طريقان: الجنوبية المؤدية إلى بيت لحم، والشمالية الغربية المؤدية إلى يافا. انطلق الفوج يعدو في الطريق الشمالية الغربية. وكان القبدوقيون منتشرين على جانبي الطريق، بعد أن أبعدوا جانباً كل القوافل المسرعة إلى أورشليم للاحتفال بالعيد. كانت حشود الحجّاج تقف وراء القبدوقيين، وقد غادروا خيامهم المخططة المؤقتة المنصوبة على العشب مباشرةً. وبعد أن قطع الفوج كيلومتراً واحداً لحق بالكتيبة الثانية لفوج الصاعقة، ووصل أولاً إلى سفح الجبل الأقرع، بعد قطعه كيلومتراً آخر. وهنا ترجّل الجنود، فوزّعهم قائد الفوج إلى فصائل، فطوّقوا كلّ سفح التل الواطئ تاركين منفذاً واحداً فقط لصعوده من طريق يافا.

بعد وصول الفوج بقليل وصلت الكتيبة الثانية، فارتقت طبقة أعلى وطوّقت ذروة التل كإكليل.

وفي النهاية وصلت الكتيبة التي يقودها مارك كريسوبوي، وكانت تسير في سلسلتين ممتدتين على جانبي الطريق، وبين هاتين السلسلتين كانت تسير عربة مخفورة بالحرس السرّي تحمل المحكومين الثلاثة وعلى رقابهم ألواح خشبية بيض كُتب على كلٍّ منها «قاطع طريق ومتمرّد» باللغتين الآرامية واليونانية. وخلف العربات كانت تسير عربات أخرى محمّلة بأعمدة خشبية قُطعت حديثاً مع عوارض وحبال ومعاول وقِرَب ماء وفؤوس. وكان يركب هذه العربات ستة جلاّدين، يتبعها على الجياد قائد المئة مارك ورئيس حرس هيكل أورشليم وذاك الشخص صاحب القلنسوة الذي اختلى به بيلاطس لحظةً في الغرفة المعتمة في القصر. وفي مؤخرة الموكب اتّصل طرفا سلسلتي الجنود، وخلفه كان يسير قرابة ألفين من الفضوليين الذين لم يخفهم الحرّ الجهنمي والراغبين في حضور هذا المشهد الممتع.

وقد انضمّ إلى الفضوليين الآن الحجّاج الذين سُمح لهم بالسير في مؤخرة الموكب دونما عوائق. وعلى الصيحات الحادة التي كان يطلقها الذين يرافقون الرتل، ويصيحون بما صاح به بيلاطس في الظهيرة، كان الموكب يحثّ الخطا إلى الجبل الأقرع.

سمح فوج الخيّالة للجميع بالمرور إلى الطبقة الثانية، لكنّ الكتيبة الثانية لم تسمح إلاّ لمن له شأن بعملية الصلب بارتقاء الجبل، وبعد ذلك بعثرت الحشد، بمناورة سريعة، حول التل كله بحيث حوصر الحشد بين طوق المشاة في الأعلى وطوق الخيّالة في الأسفل.

وهكذا مرّت ثلاث ساعات منذ ارتقاء الموكب الجبل، وكانت الشمس قد هبطت على الجبل الأقرع، لكنّ الحر كان لا يزال لا

يُطاق، وكان جنود الطوقين يكابدون منه، وقد شعروا بالضجر، ويلعنون في قلوبهم المجرمين الثلاثة متمنين لهم بصدق موتاً سريعاً.

كان قائد الفوج الضئيل الحجم، بجبينه المبلل وقميصه الأبيض الذي أصبح قاتم اللون من الخلف جرّاء العرق، والمتواجد أسفل التل عند المنفذ المفتوح، يمضي بين الحين والآخر إلى القربة الجلدية التي في الفصيلة الأولى، فيغرف منها الماء براحتيه ليشرب أو يبلّل عمامته. وبعد أن يحصل على شيء من التخفّف جرّاء ذلك كان يبتعد ويبدأ من جديد بقياس الطريق المغبرّة المؤدية إلى القمة جيئةً وذهاباً. وكان سيفه الطويل يقرع جزمته الجلدية المشدودة برباط. كان القائد يريد أن يبدي لفرسانه مثالاً على التحمّل، لكنه أشفق على الجنود وسمح لهم ببناء أهرامات برماحهم المغروزة في الأرض ونشر معاطفهم فوقها. وقد احتمى السوريون أيضاً تحت هذه الخيام من الشمس التي لا ترحم. وكانت القرب تفرغ بسرعة، فكان الفرسان من الفصائل كلها يذهبون، كلٌّ بدوره، لجلب الماء من وهدةٍ تقع أسفل الجبل، حيث تعيش ساقية عكرة أيامها الأخيرة في الظلّ الشحيح لأشجار توت هزيلة في هذا القيظ الشيطاني. وفي ذلك المكان كان يقف أيضاً سائسو الخيل، شاعرين بالضجر ومحتمين بالظل السريع الزوال، ممسكين بالخيول الهادئة.

كان ملل الجنود وشتمهم الموجَّه إلى المجرمين مفهوماً. ولحسن الحظ لم تتحقق مخاوف الحاكم من حدوث اضطرابات كان بإمكانها أن تحدث أثناء عملية الصلب في مدينة أورشليم التي لا يطيقها. وحين مرّت الساعة الرابعة على عملية الصلب لم يبقَ أحد بين طوق المشاة في الأعلى وطوق الخيّالة عند سفح الجبل، خلافاً لكلّ التوقعات. فقد ألهبت الشمس الحشد وأرغمته على العودة إلى

أورشليم. ولم يبقَ خلف سلسلة الكتيبتين الرومانيتين سوى كلبين لا يُعرَف لمن هما ولا سبب وجودهما على التل. لكن حتى هما أنهكتهما الشمس، فاستلقيا وقد مدّا لسانيهما يلهثان دون أن يعيرا أيّ اهتمام للحراذين الخضراء الظهر، المخلوقات الوحيدة التي لا تخشى الشمس، وهي تسعى بنشاط بين الحجارة اللاهبة وبين نباتات طويلة الأشواك معرّشة على الأرض.

لم يحاول أحد تحرير المحكومين بالقوة، لا في أورشليم المكتظّة بالقوات ولا هنا على التل المطوّق، وقد رجع الحشد إلى المدينة لأنه لم تكن هناك أي متعة حقاً في عملية الصلب هذه، بينما كانت تجري في المدينة الاستعدادات لعيد الفصح العظيم الذي يحلّ في المساء.

كانت معاناة المشاة الرومان في الطبقة الثانية أشدّ من معاناة الخيّالة. والأمر الوحيد الذي سمح به قائد المئة كريسوبوي للجنود هو نزع خوذاتهم ووضع عُصابات بيضاء مبللة بالماء على رؤوسهم، لكنه أبقاهم وقوفاً والرماح بأيديهم. وهو نفسه راح يتجوّل على مقربة من الجلاّدين، واضعاً عُصابة مماثلة على رأسه، لكنها جافة وليست مبللة، حتى دون أن ينزع عن قميصه وجوه الأسود المفضّضة، ودون أن يخلع غمدَي السيف والسكين. كانت الشمس تلفح قائد المئة مباشرةً، دون أن تسبّب له أي أذى، وكان النظر إلى وجوه الأسود مستحيلاً، فبريقها المبهر كان يعمي العيون كما لو أنها فضة تغلي في الشمس.

لم يكن يبدو على وجه كريسوبوي المشوَّه لا التعب ولا الامتعاض، وبدا أن قائد المئة العملاق قادر على السير جيئةً وذهاباً على هذا النحو طوال الليل، والنهار أيضاً، - باختصار، قدر ما يلزم. وقد ظلّ يسعى على هذا النحو، واضعاً يده على حزامه الثقيل بأنواطه

النحاسية، وهو يواصل النظر بصرامة إلى الأعمدة مع المصلوبين تارةً وإلى سلسلة الجنود تارةً أخرى، وعلى النحو ذاته يركل جانباً بلا مبالاة بطرف جزمته المغبّرة ما يقع تحت قدميه من عظام بشرية ابيضّت بمرور الوقت أو أصونةٍ صغيرة.

ذلك الشخص صاحب القلنسوة اتّخذ مكانه على كرسي بلا مساند ذي ثلاث قوائم، ليس بعيداً عن الأعمدة، وكان يجلس منشرح الصدر بلا حراك سوى أنه كان ينقب الرمل بعصاه بين الحين والآخر من الضجر.

القول بأنّ وراء طوق الجنود لم يكن هناك أحد ليس صحيحاً تماماً، فقد كان هناك شخص واحد لكنه، ببساطة، لم يكن مرئياً من الجميع. إذ كان قد اتّخذ مكانه ليس على الجانب حيث المنفذ إلى الجبل وحيث المكان الأنسب لرؤية عملية الإعدام، بل في جهة الشمال، حيث التل غير منبسط وشديد الانحدار ويتعسّر بلوغه، وحيث توجد وهاد وأخاديد، وحيث تحاول شجرة توت سقيمة العيش متشبّثةً بفلعٍ في الأرض البور الملعونة من السماء.

تماماً تحت هذه الشجرة، التي لم تكن تلقي ظلاً على الإطلاق، تمركز هذا المشاهد الوحيد لعملية الصلب التي لم يشارك فيها، وكان يجلس على حجرٍ منذ البداية، أي منذ ما يزيد على ثلاث ساعات. فضلاً عن أنه لم يختر أفضل موقع لمشاهدة عملية الصلب، بل اختار الأسوأ. لكن، رغم ذلك، حتى من هذا الموقع كانت الأعمدة تُرى جيداً، كما كانت تُرى، خلف طوق الجنود، البقعتين المتلألئتين على صدر قائد المئة، وكان هذا كافياً تماماً، على ما يبدو، لشخص من الواضح أنه يريد أن يبقى غير ملحوظ وبعيداً عن إزعاج الآخرين إياه.

لكن قبل أربع ساعات، عند بدء عملية الإعدام، كان سلوك هذا

الشخص مختلفاً كلياً، وكان قميناً بلفت الأنظار إليه، وعلى الأرجح هذا هو سبب تغييره سلوكه وابتعاده الآن.

فحينذاك، ما إن تجاوز الموكب الطوق وارتقى القمة حتى ظهر هذا الشخص لأول مرة، فضلاً عن أنه بدا كشخصٍ متأخر، فقد كان يتنفس بصعوبة، ولم يكن يرتقي التل ماشياً، بل راكضاً، وهو يدفع الناس. وحين رأى أنّ الطوق قد انغلق دونه، كما انغلق دون الآخرين جميعاً، قام بمحاولة ساذجة للتسلل من بين الجنود، متظاهراً أنه لا يفهم صرخاتهم الهائجة، إلى مكان الصلب تماماً، حيث كان المحكومون قد أُنزلوا من العربات. وقد تلقّى، لقاء ذلك، ضربةً قوية على صدره برأس حربة مثلّمة، فوثب مبتعداً عن الجنود وهو يصرخ، لكن ليس من الألم وإنما من اليأس، ورمى الجندي الذي ضربه بنظرةٍ كالحة ولامبالية تجاه كل ما يجري، كإنسانٍ لا يشعر بالألم الجسدي إطلاقاً.

ركض حول التل، وهو يسعل ويلهث ممسكاً بصدره، علّه يجد شقّاً في الطوق من جهة الشمال يمكنه التسلل عبره. لكنّ الوقت كان قد فات. فقد انغلقت الحلقة، واضطر الشخص، الذي شوّهت المرارة وجهه، إلى الكفّ عن محاولات التسلل إلى العربات التي كانت الأعمدة قد أُنزلت منها. ما كان لهذه المحاولات أن تؤدّي إلى شيء سوى اعتقاله، ولم يكن الحبس وارداً على الإطلاق في خطته لهذا اليوم بالتحديد.

وها هو يتنحّى جانباً نحو فلع في الأرض، حيث المكان أهدأ ولا يزعجه فيه أحد.

كان هذا الإنسان، الأسود اللحية والمتقيّح العينين من الشمس والأرق، يجلس مغتمّاً على حجر. كان تارةً يتنهّد، فاتحاً قميصه

البالي من كشرة التجوال وقد استحال لونه الأزرق إلى لون رمادي متّسخ، وكاشفاً عن صدره المكدوم بالحربة والذي كان يتصبّب بعرقٍ وسخ، وتارةً يرفع عينيه إلى السماء بعذابٍ لا يُطاق، ملاحقاً بنظراته ثلاثة نسور من آكلي الجيف تحوم، منذ فترةٍ طويلة، في الأعالي في حلقات واسعة، متنبّئةً بوليمة قريبة، وتارةً يحدّق يائساً في الأرض الصفراء فيرى جمجمة كلب شبه محطّمة تتواثب حولها حراذين.

غمغم، وهو يتمايل على الحجر، شاعراً بألمٍ في روحه، ويخمش صدره الأسمر بأظافره:

- غبي! يا لي من غبي! امرأة بلهاء! جبان! أنا جيفة، لا إنسان.

كان يصمت وينكس رأسه، ثم، بعد أن يشرب الماء الدافئ من زمزمية خشبية، تدبّ فيه الحيوية من جديد، فيقبض على خنجره المخبّأ على صدره تحت القميص تارةً، أو يمسك بقطعة الرقّ المتوضّعة أمامه على حجرٍ بجوار عصىً صغيرة وقارورة حبر.

وفي هذا الرقّ كان مدوّناً ما يلي:

«الدقائق تركض، وأنا، متّى اللاوي، أتواجد على الجبل الأقرع، ولمّا يأتِ الموت بعدا!».

ثم:

«الشمس تغرب، ولمّا يأتِ الموت بعد».

بعد أن دوّن هذا بكى بحرقة، ومرةً أخرى راح يجرح صدره بأظافره.

كان سبب يأس اللاوي يكمن في الإخفاق المريع الذي لحق بيشوع وبه، فضلاً عن ذلك الخطأ الفادح الذي اقترفه، هو اللاوي، حسب رأيه. فأول أمس، في النهار، كان يشوع واللاوي في بيتانيا قرب أورشليم، حيث حلاّ ضيفين على بستانيّ أعجبته تعاليم يشوع

أشدّ الإعجاب. وقد عمل الضيفان طوال الصباح في البستان، يساعدان صاحبه، وكانا ينويان الذهاب إلى أورشليم حين يبترد الجو في المساء. لكنّ يشوع كان مستعجلاً لأمرٍ ما، قائلاً إنّ لديه أمراً عاجلاً في المدينة، وغادر قرابة الظهيرة بمفرده. وهذا هو خطأ متّى اللاوي الأول. لماذا، لماذا تركه يذهب وحده!

ولم يتمكن متّى من الذهاب في المساء. فقد داهمه مرضٌ ما مباغت ومخيف، فأخذ يرتجف، وامتلأ جسده بالنار، وصارت أسنانه تصطكّ، وصار يطلب أن يشرب كل دقيقة. لم يكن في مقدوره الذهاب إلى أيّ مكان، فتهاوى على جُلٍّ[1] في سقيفة البستاني، وظلّ ممداً عليه حتى فجر يوم الجمعة، حيث غادره المرض فجأةً كذلك، كما ألمّ به. ومع أنه كان لا يزال واهناً وكانت رجلاه ترتعشان، إلاّ أنه، مدفوعاً بتنبؤ الكارثة، ودّع صاحب البستان وتوجّه إلى أورشليم. وهناك علم أنّ نبوءته لم تكذب عليه. فالكارثة قد حلّت: كان اللاوي وسط الحشد، وسمع الوالي وهو ينطق بالحكم.

حين سيق المحكومون إلى الجبل راح متّى اللاوي يركض بجوار سلسلة الجنود وسط حشد الفضوليين محاولاً خلسةً، بشتى السُّبل، جعل يشوع يعلم، على الأقل، أنه، هو متّى اللاوي، موجود هنا معه، وأنه لم يتخلَّ عنه في منتهاه، وأنه يصلّي كي يدركه الموت بأسرع ما يمكن. لكنّ يشوع الذي كان يرنو إلى البعيد، إلى حيث يأخذونه، لم يرَ اللاوي بالطبع.

وحين قطع الموت قرابة نصف فرسخ خطرت لمتّى، الذي كان

(١) الجلّ: غطاء يُستخدم للخيول والكلاب.

يُدفَع وسط الحشد عند الطوق تماماً، فكرة بسيطة وعبقرية، ولحماسته راح يكيل لنفسه اللعنات فوراً لكونها لم تخطر له من قبل. لم تكن سلسلة الجنود متراصّة، وكان بإمكان المرء، إذا كان يتمتع بمهارة كبيرة وأجرى الحسابات بدقة، أن ينسلّ، منحنياً، بين جنديين، وأن يبلغ العربة والوثوب إليها. وحينئذٍ سيتمّ تخليص يشوع من العذاب، إذ تكفيه لحظة واحدة ليطعن يشوع بالسكين في ظهره ويصيح: «سوف أخلّصك يا يشوع، وأمضي معك، أنا، متّى، تلميذك المخلص والوحيد!».

وإذا أنعم الله عليه بلحظة أخرى فسيتمكّن من طعن نفسه أيضاً وتجنّب الموت على العمود. على أيّ حال، النقطة الأخيرة لم تكن تعني اللاوي، العشّار السابق. فقد كان سواء لديه كيف يلقى مصرعه. كان يريد شيئاً واحداً، وهو أن يتجنّب يشوع، - الذي لم يُلحق أيّما أذى بأحد في حياته، - التعذيب.

كانت الخطة جيدة جداً، لكنّ المشكلة أنّ اللاوي لم تكن بحوزته سكين، ولم تكن بحوزته حتى قطعة نقد واحدة.

وفي سورة غضب على نفسه خرج اللاوي من بين الحشد وعاد مسرعاً إلى المدينة. كانت تتقافز في رأسه الحامي فكرة محمومة واحدة، وهي كيف له، وبأيّ وسيلة كانت، أن يحصل فوراً على سكين في المدينة، والتمكّن من اللحاق بالموكب.

بلغ بوّابة المدينة راكضاً، فاندسّ وسط زحام القوافل المتدافعة لعبور البوابة، ورأى إلى يساره حانوتاً لبيع الخبز مشرع الباب. كان اللاوي يتنفّس بصعوبة بعد ركضه عبر الطريق اللاهبة، لكنه تمالك نفسه ودخل الحانوت بوقارٍ شديد، فحيّا صاحبة الحانوت الواقفة وراء منصّة الدكّان وطلب إليها أن تُنزل عن الرفّ الرغيف العلوي الذي،

لأمرٍ ما، أعجبه أكثر من الأرغفة الأخرى، وما أن استدارت المرأة حتى أخذ عن المنصّة، بصمت وسرعة، شيئاً يستحيل أن يكون هناك ما هو أفضل منه: سكّين خبز طويلة ومشحوذة كشفرة، واندفع يعدو خارجاً، وخلال بضع دقائق كان على طريق يافا من جديد. لكنّ الموكب كان قد غاب عن الأنظار، فأخذ يركض. وكان عليه أحياناً أن يهوي على التراب مباشرةً ويستلقي دون حراك ريثما يستعيد أنفاسه، فكان استلقاؤه على هذا النحو يثير ذهول الذاهبين إلى أورشليم على البغال أو سيراً على الأقدام. كان يستلقي ويسمع كيف يدقّ قلبه ليس في صدره فقط بل في رأسه وأذنيه أيضاً. وحين كان يستردّ أنفاسه بعض الشيء كان يثب واقفاً ويتابع الركض، لكن أبطأ فأبطأ. وحين رأى أخيراً في البعيد الموكب الطويل المجلّل بالغبار كان الموكب قد بلغ سفح التل.

- أوه، يا إلهي... - تأوّه اللاوي مدركاً أنه لن يلحق بالموكب، ولم يلحق به بالفعل.

حين انصرمت الساعة الرابعة على الصلب بلغت عذابات اللاوي أقصى درجاتها واحتدّ غضباً. فنهض عن الحجر واقفاً ورمى السكين التي سرقها دون جدوى، كما فكّر الآن، على الأرض، وهشّم الزمزمية بقدمه، حارماً نفسه الماء، وألقى بعمامته عن رأسه وأمسك بشعر رأسه القليل وراح يلعن نفسه.

لعن نفسه، صائحاً بكلمات لا معنى لها، وزمجر وبصق، وشتم أباه وأمه اللذين أنجبا أحمقَ. وحين رأى أنّ لعناته وشتائمه لا تأثير لها، وأنّ شيئاً لا يتغير تحت الشمس المحرقة، شدّ قبضتيه الاثنتين ورفعهما إلى السماء، وقد زرّ عينيه، نحو الشمس الزاحفة بتثاقل إلى الأسفل، مطيلةً الظلال، والذاهبة لتهبط في البحر الأبيض المتوسط،

وطلب إلى الله معجزةً دون إبطاء: طلب إلى الله إرسال الموت إلى يشوع في الحال.

حين فتح عينيه تأكّد من أنّ شيئاً لم يتغير على التلّ سوى أنّ بريق البقعتين المتلألئتين على صدر قائد المئة قد خبا. كانت الشمس ترسل أشعتها نحو أظهر المصلوبين الموجّهة وجوههم نحو أورشليم. حينئذٍ صرخ اللاوي:

- إني ألعنك يا ربّ!

راح يصرخ بصوتٍ أبحّ بأنه أيقن بعدم عدالة الله، وأنه لا ينوي الإيمان به بعد الآن. وزمجر قائلاً:

- أنت أصمّ! فلو لم تكن أصمّ لكنت سمعتني وقتلته في الحال.

أخذ اللاوي ينتظر زارّاً عينيه النار التي ستنقضّ عليه في السماء وتصعقه هو ذاته. لكن هذا لم يحدث، فمضى اللاوي يصرخ، دون أن يفتح جفنيه، بكلامٍ لاذع ومسيء إلى السماء. فقد صرخ معرباً عن خيبة أمله الكاملة، وأنّ هناك آلهة وأديان أخرى. فضلاً عن أنّ إلهاً آخر ما كان ليسمح أبداً بأن تحرق الشمس إنساناً كيشوع على عمود.

صرخ اللاوي الذي بُحّ صوته تماماً:

- كنت مخطئاً! أنت إله الشرّ! أو أنّ دخان مباخر الهيكل قد أعمت عينيك تماماً، ولم تعد أذناك تسمعان سوى أصوات أبواق الكهنة! لست إلهاً كليّ القدرة. إني ألعنك يا رب قطّاع الطرق وحاميهم وملهمهم!

هنا لفح شيء ما وجه العشّار السابق وخشخش شيء ما تحت قدميه. ولمّا لفح هذا الشيء وجهه ثانيةً فتح عينيه فرأى أنّ كل ما في العالم قد تغيّر: أبتأثير لعناته أم لأسبابٍ أخرى! فقدِ اختفت الشمس قبل بلوغها البحر الذي تغرق فيه كل مساء، وارتفعت في السماء من

جهة الغرب غيمة رعدية رهيبة بإصرارٍ ووعيد وابتلعت الشمس. كانت حوافّها قد بدأت تغلي بزبدٍ أبيض، وبطنها الدخاني الأسود يومض ببريقٍ أصفر. كانت الغيمة تزمجر وتتساقط منها خيوط نارية بين الحين والآخر. كانت أعمدة الغبار تتطاير عبر طريق يافا، وفي وادي «هيون» القاحل، وفوق خيام الحجاج الذين باغتتهم الريح العاصفة فجأةً. لاذ اللاوي بالصمت، محاولاً إدراك ما إذا كانت العاصفة الرعدية التي ستغطّي أروشليم قريباً ستغيّر شيئاً في مصير يشوع المسكين. وحينئذٍ أخذ يرنو إلى خيوط النار وهي تشقّ الغيمة، ويرجو أن تضرب الصاعقة عمود يشوع. وفيما كان يتأمّل بندم السماء الصافية التي لمّا تلتهم الغيمة بعد، والنسور تحاول جاهدةً الابتعاد عن العاصفة، فكّر اللاوي بأنه استعجل في لعناته بحماقة، فالآن لن يصغي الله إليه.

حين حوّل اللاوي نظره إلى أسفل سفح التل راح يحدّق في المكان الذي ينتشر فيه فوج الخيّالة، فرأى أنّ تغييرات كثيرة قد حدثت هناك. فمن موقعه المرتفع تمكّن اللاوي جيداً من ملاحظة الجنود وهم يتحركون بسرعة، وينزعون الحراب من الأرض، ويلقون معاطفهم على أكتافهم، وسائسي الخيل وهم يهرلون نحو الطريق خبباً، وقد أمسكوا بأعنّة الخيول الدُهم التي يسوقونها. كان واضحاً أنّ الفوج يتأهّب للرحيل. حاول اللاوي، وهو يتّقي بيده الغبار الذي يلفح وجهه ويبصق، أن يفهم معنى تأهّب الخيالة للمغادرة! مرّ ببصره أعلى قليلاً فرأى شخصاً يرتدي عباءةً أرجوانية عسكرية يصعد إلى ساحة الصلب الصغيرة. وهنا ابترد قلب العشّار السابق لشعوره بدنو النهاية السعيدة.

الشخص الذي صعد الجبل بعد مرور خمس ساعات على معاناة المجرمين كان قائد كتيبة وصل رامحاً من أورشليم برفقة مراسل حربي. انفتحت حلقة الجنود بإشارة من كريسوبوي، وأدّى قائد المئة

التحية للمراسل الذي انتحى بكريسوبوي جانباً وهمس له بشيء ما. أدّى قائد المئة التحية ثانيةً وتوجّه نحو الجلاّدين الجالسين على حجارة عند قواعد الأعمدة. أما المراسل فقد خطا باتجاه الشخص الجالس على الكرسي الثلاثي القوائم، الذي نهض بتهذيب للقائه. وله أيضاً قال المراسل شيئاً بصوتٍ خفيض، ومضى كلاهما نحو الأعمدة، وانضمّ إليهما قائد حرس الهيكل كذلك.

رمق كريسوبوي شزراً الخرق القذرة التي كانت، حتى وقتٍ قريب، ملابس المجرمين، وقد عفّ عنها الجلادون، فاستدعى اثنين منهما قائلاً:

- اتبعاني!

كانت تتناهى من أقرب الأعمدة أغنية مبحوحة لا معنى لها. ففي نهاية الساعة الثالثة على الصلب كان هيستاس، المعلّق على هذا العمود، قد جُنّ جنونه من الذباب والشمس، وها هو يغنّي الآن بصوتٍ خافت شيئاً ما عن العنب، لكنه، مع ذلك، كان يهزّ رأسه المغطّى بعمامة أحياناً، فكان الذباب يطير عن وجهه بخمول ويحطّ عليه من جديد.

كان ديسماس، المعلّق على العمود الثاني، يعاني أكثر من الاثنين الآخرين، لأنه لم يغب عن الوعي، فكان يهزّ رأسه مراراً وبانتظام، تارةً إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، ليضرب كتفيه بأذنيه.

كان يشوع أسعد من الاثنين الآخرين. فقد بدأ يُصاب بالغشية منذ الساعة الأولى، وبعد ذلك غاب عن الوعي وتدلّى رأسه داخل العمامة المحلولة. لذا فقد تجمّع عليه الذباب والقُراد بحيث اختفى وجهه تماماً تحت كتلة سوداء متحركة، وحطّ قُراد سمين على بطنه وتحت إبطيه وأسفل سرّته وراح يمصّ جسده الأصفر العاري.

بإشارة من صاحب القلنسوة أخذ أحد الجلاّدين حربةً وحمل آخر إلى العمود سطلاً وإسفنجة. رفع الجلاّد الأول الحربة وقرع بها إحدى يدي يشوع، ثم الأخرى، وكانتا ممدودتين وموثقتين بالحبال إلى عارضة العمود، فاختلج جسده بأضلاعه النافرة. مرّ الجلاد برأس الحربة على بطن يشوع، وحينئذٍ رفع يشوع رأسه فتطاير الذباب بطنين وانكشف وجه المصلوب المتورّم من اللسع، بعينيه المنتفختين، عن وجهٍ يستحيل التعرّف إليه.

فتح الناصري جفونه الملتصقة ببعضهما ونظر إلى الأسفل. كانت عيناه الصافيتان عادةً كدِرتين الآن. قال له الجلاّد:

- يا ناصري.

حرّك الناصري شفتيه المتورّمتين وردّ بصوتٍ أجشّ كصوت قطّاع الطرق:

- ماذا تريد؟ لماذا جئت إلي؟

- اشرب! - قال الجلاّد، وارتفعت إسفنجة مبلّلة بالماء على رأس حربة إلى شفتي يشوع. لمعت عينا يشوع بالفرح وألصق شفتيه بالإسفنجة وراح يمصّ الماء بنهم. جاء من العمود المجاور صوت ديسماس يقول:

- هذا ظلم! أنا أيضاً قاطع طريق مثله.

جاهد ديسماس لكنه عجز عن التحرّك، فحلقات الحبال كانت تثبّت يديه إلى ثلاثة مواضع من العارضة. شدّ بطنه وتشبّث بطرفي العارضة بأظافره وأدار رأسه نحو عمود يشوع وعيناه تتقدّان شراسة.

غطّت سحابة غبار المكان فحلّت عتمة داجية، وحين انقشعت وزال الغبار صاح قائد المئة:

- اخرس يا من على العمود الثاني!

خرس ديسماس. انفصل يشوع عن الإسفنجة وطلب إلى الجلاد بصوتٍ حاول أن يكون لطيفاً ومقنعاً فلم يفلح، فخرج مبحوحاً:

- أعطه يشرب.

اشتدّ الظلام أكثر. كانت الغيمة قد ملأت نصف السماء، متّجهةً نحو أورشليم، وكانت غيوم بيضاء تغلي وتتقدّم الغيمة المتخمة بالماء الأسود والنار. أبرقت السماء وأرعدت فوق التلّ تماماً. نزع الجلاّد الإسفنجة عن الحربة.

- مجّد الوالي الكريم! - همس الجلاّد بمهابة وطعن يشوع في قلبه طعنةً خفيفة، فارتعد يشوع وهمس:

- الوالي...

سال الدم على بطن يشوع، وأخذ فكّه السفلي يرتجف بتشنّج، وتدلّى رأسه.

حين قصف الرعد ثانيةً كان الجلاّد يسقي ديسماس وهو يكرّر الكلمات نفسها:

- مجّد الوالي! - وقتله.

هيستاس، الذي فقد عقله، صرخ مذعوراً ما إن اقترب منه الجلاّد، لكنه زمجر بكلامٍ ما حين لامست الإسفنجة شفتيه وتشبّث بها بأسنانه. وبعد بضع دقائق تدلّى جسده أيضاً قدر ما سمح الحبل بذلك.

كان الرجل صاحب القلنسوة يسير في إثر الجلاّد وقائد المئة، وخلفه يسير قائد حرس الهيكل. توقّف صاحب القلنسوة عند العمود الأول وراح يتأمّل يشوع المدمّى باهتمام، ولمس قدمه بيده البيضاء ثم قال لمرافقيه:

- لقد مات.

وتكرّر الأمر ذاته عند العمودين الآخرين.

بعد ذلك أومأ القاضي لقائد المئة واستدار وبدأ يغادر قمة التل برفقة قائد حرس الهيكل والرجل صاحب القلنسوة. أصبحت السماء شبه معتمة، وكانت البروق تشقّ السماء السوداء. فجأةً بدأت النار تنهال من السماء رذاذاً، وغطّى قصف الرعد على صرخة قائد المئة: «فكّوا الطوق!». اندفع الجنود السعداء يركضون مغادرين التل وهم يرتدون خوذاتهم. وخيّم الظلام على أورشليم.

بدأ المطر ينهمر بغزارة فجأةً وأدرك السرايا في منتصف الطريق على التلّ. كان المطر ينهمر بشكل مرعب بحيث أدركت السيول الهادرة الجنود وهم يركضون إلى الأسفل. كان الجنود يسقطون على الطين وهم ينزلون مسرعين إلى الطريق السوية التي كان الخيّالة، المبللون حتى العظم، - الذين بالكاد يُرَون عبر غشاوة الماء، - ينطلقون فيها نحو أورشليم. بعد بضع دقائق لم يتبقَّ على التل، في الهالة الدخانية للعاصفة والنيران والمياه، سوى شخص واحد. اندفع الرجل نحو الأعمدة وهو يهزّ السكين التي لم يسرقها عبثاً، منزلقاً عن الحواف الناتئة الزلقة، متشبّثاً بكل ما تقع عليه يداه، زاحفاً على ركبتيه أحياناً. كانت تغشاه العتمة أحياناً أو يضيئه فجأةً ضوءٌ مختلج.

عند بلوغه الأعمدة، خائضاً في الماء الذي غمر قدميه، خلع اللاوي رداءه المشبع بالماء، فظلّ في القميص فقط، وهوى عند قدمي يشوع، فقطع الحبال عن ساقيه، ثم صعد العارضة السفلية فاحتضن يشوع وحرّر يديه من الأربطة العلوية فهوى جسد يشوع العاري المبلل على اللاوي وطرحه أرضاً. أراد اللاوي حمله على كتفيه في الحال، لكنّ فكرةً ما أوقفته، فترك الجسد، برأسه الملقى إلى الخلف ويديه المتباعدتين، على الأرض في الماء وهرع خائضاً في الوحل إلى

العمودين الآخرين، فقطع حبالهما أيضاً، وهوى الجسدان الآخران على الأرض.

بعد مضي بضع دقائق لم يبقَ على قمة التل سوى هذين الجسدين والأعمدة الثلاثة الفارغة.

وفي تلك الأثناء لم يكن قد بقي على قمة التل لا اللاوي ولا جسد يشوع.

الفصل السابع عشر

يومٌ مضطرب

صباح الجمعة، أي في اليوم الذي تلا العرض اللعين، لم يكن الفريق العامل في «الفاريتيه»، - ماسك الحسابات فاسيلي ستيبانوفيتش لاستَجكين، المحاسبان، الضاربات الثلاث على الآلة الكاتبة، عاملتا الصندوق، السُّعاة، فاحصو التذاكر، عاملات التنظيف، - باختصار لم يكن كل العاملين قائمين على رأس عملهم، وإنما كانوا جالسين على حواف النوافذ المطلّة على شارع «سادوفايا»، ينظرون إلى ما يجري خارج جدار «الفاريتيه». فعند هذا الجدار تجمهر آلاف الناس في طابور من صفين ممتد حتى ساحة «كوردينسكايا». وفي مقدمة هذا الطابور كان يقف نحو عشرين متاجراً بالبطاقات معروفين جيداً في أوساط موسكو المسرحية.

كان الطابور شديد الاضطراب، وكان منهمكاً في مناقشة قصص مثيرة عن عرض السحر الأسود يوم أمس الذي لم يُرَ له مثيل من قبل، فكان يلفت انتباه المواطنين العابرين بجواره. كدّرت هذه القصص كثيراً المحاسب فاسيلي ستيبانوفيتش الذي لم يحضر العرض بالأمس. الله أعلم بما رواه فاحصو التذاكر، وكان من بين ما رووه كيف بدأت بعض المواطنات يركضن في الشارع بمظهر غير لائق بعد انتهاء العرض الشهير، وأشياء من هذا القبيل. اكتفى فاسيلي ستيبانوفيتش،

الوقور والهادئ، بطرْف عينيه وهو يستمع إلى الأقاويل حول كل هذه الأمور العجيبة، ولم يكن يدري قطعاً ماذا عليه أن يفعل، ومع هذا كان لا بدّ من عمل شيء، ويجب عليه هو بالذات القيام بذلك لأنه الآن الأقدم في فريق «الفاريتيه» كله.

عند الساعة العاشرة صباحاً تعاظم طابور المتعطشين إلى التذاكر بحيث بلغت أنباؤه الشرطة، وبسرعةٍ مذهلة تمّ إرسال أرتال من المشاة والخيّالة قامت بتنظيم هذا الطابور بعض الشيء. غير أنّ الطابور، بطوله الذي بلغ كيلومتراً، على الرغم من انتظامه، بات يشكّل بذاته إغراءً عظيماً، ويثير دهشة المواطنين في شارع «سادوفايا» كليّاً.

هذا ما كان يحدث خارج «الفاريتيه»، وفي الداخل أيضاً كان الوضع في غاية السوء. فمنذ الصباح الباكر بدأت أجهزة الهاتف ترنّ دون انقطاع في مكتب ليخودييف وفي مكتب ريمسكي وديوان المحاسبة والصندوق ومكتب فارينوخا. في البداية كان فاسيلي ستيبانوفيتش يردّ بكلامٍ ما، وكانت عاملة الصندوق أيضاً تردّ، وكان فاحصو التذاكر يغمغمون بشيءٍ ما في الهاتف، لكن بعد ذلك كفّ الجميع عن الردّ تماماً لأنهم لم يكن لديهم ما يردّون به مطلقاً على أسئلة مثل: أين ليخودييف؟ أين فارينوخا؟ أين ريمسكي؟ في البداية حاولوا التملّص بالقول: «ليخوديف في شقّته»، فكانوا يردّون من المدينة بأنهم اتصلوا بالشقة فقيل لهم إنّ ليخوديف في «الفاريتيه».

اتصلت سيدة قلقة ومهتاجة وراحت تطلب ريمسكي، فنصحوها أن تتصل بزوجته فردّت السيدة نائحةً أنها هي زوجته وأنّ ريمسكي لا وجود له في أيّ مكان. بدأ هراءٌ ما. وقد أخبرت عاملة التنظيف الجميع بأنها، حين حضرت إلى مكتب المدير لتنظيفه، رأت أنّ الباب

كان مشرعاً على مصراعيه، والمصابيح مضاءة، والنافذة المطلّة على الحديقة محطّمة، والكرسي ملقى على الأرض، وكان المكتب خالياً.

في الساعة الحادية عشرة ولجت مدام ريمسكي «الفاريتيه» مسرعةً، وكانت تنتحب وتعصر يديها. وقد ارتبك فاسيلي ستيبانوفيتش تماماً ولم يدرِ بمَ ينصحها. وفي الحادية عشرة والنصف حضرت الشرطة، وكان أول سؤال طرحته، وهو سؤال وجيه تماماً:

- ما الذي يجري هنا عندكم أيها المواطنون؟ ما الأمر؟

تراجع فريق الموظفين تاركاً فاسيلي ستيبانوفيتش الممتقع والمضطرب في المقدمة. وقد توجّب تسمية الأسماء بأسمائها والإقرار بأنّ إدارة «الفاريتيه»، ممثلةً بمديرها العام والمدير المالي والمدير الإداري، قد اختفت ولا يعرف مكانها أحد، وأنّ عريف الحفلات قد نُقل إلى مصح نفسي بعد عرض الأمس، وأنّ عرض الأمس هذا كان، باختصار، عرضاً شائناً.

قاموا بإرسال مدام ريمسكي المنتحبة إلى بيتها، بعد أن هدّأوها قدر الإمكان، واهتموا، أكثر من أي شيء آخر، بقصة عاملة النظافة عن الحال التي وجدت عليها مكتب المدير المالي. طلبوا إلى الموظفين التوجّه إلى أماكنهم والقيام بأعمالهم، وخلال فترة وجيزة حضر المحققون إلى مبنى «الفاريتيه» يرافقهم كلب مرهف الأذنين، قوي العضلات، عيناه بمنتهى الذكاء ولونه بلون رماد السجائر. وفي الحال سرت همهمات بين موظفي «الفاريتيه» بأنّ الكلب ليس سوى «توزبوبين» الشهير، وكان هو بالذات. وقد أثار سلوك الكلب الجميع. فما إن دخل «توزبوبين» مكتب المدير المالي راكضاً حتى زمجر، مكشّراً عن أنياب صفر عجيبة، ثم تمدّد على بطنه وأخذ يزحف نحو النافذة المحطّمة وقد ارتسمت في عينيه أمارات الغمّ والغضب في آن.

بعد أن تخلّص الكلب من خوفه وثب فجأةً إلى حافة النافذة، فرفع خطمه الحاد إلى الأعلى وعوى بوحشية وشراسة. لم يكن يريد مغادرة النافذة، وشرع يزمجر وينتفض ويتحفّز للقفز إلى الأسفل.

أخرجوا الكلب من الغرفة وأطلقوه في الردهة، ومن هناك خرج إلى الشارع عبر الباب الرئيسي وقاد المحققين الذين كانوا يتبعونه إلى موقف السيارات. وهناك فقد الأثر الذي كان يقتفيه. بعد ذلك أخذوا توزبوبين.

استقرّ المحققون في مكتب فارينوخا، حيث راحوا يستدعون، كلاً بدوره، موظفي «الفاريتيه» الذين شهدوا أحداث الأمس أثناء العرض. وينبغي القول إنّ المحققين توجّب عليهم تذليل صعوبات غير متوقعة في كل خطوة. فقد كان خيط تسلسل الأحداث ينقطع في أيديهم من حين لآخر.

هل كانت هناك ملصقات؟ كانت هناك. لكن خلال الليل أُلصقت ملصقات جديدة، والآن لا وجود لملصقٍ واحد. وهذا الساحر نفسه من أين جاء، ومن يعرفه؟ لعلهم تعاقدوا معه.

- يُفترض ذلك، - أجاب فاسيلي ستيبانوفيتش المضطرب.

- إذا كانوا قد تعاقدوا معه، فلا بدّ أن يمر العقد على مكتب المحاسبة، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد، - أجاب فاسيلي ستيبانوفيتش بقلق.

- فأين العقد إذاً؟

- لا وجود له، - أجاب المحاسب، مباعداً يديه في حيرة، وهو يزداد شحوباً. وبالفعل لم يكن هناك أي أثر لعقد، لا في أضابير ديوان المحاسبة ولا لدى المدير المالي ولا عند ليخودييف أو فارينوخا.

وما هي كنية هذا الساحر؟ فاسيلي ستيبانوفيتش لا يعرف، فهو لم يحضر العرض بالأمس، وفاحصو التذاكر لا يعرفون. أما قاطعة التذاكر فقد قطّبت حاجبيها وراحت تفكّر وتفكّر، ثم قالت أخيراً:

- فو . . . يبدو أنها فولند.

وربما ليست فولند! لعلها ليست فولند، لعلها فالاند.

تبيّن أنهم في مكتب الأجانب لم يسمعوا قط بساحر اسمه فولند، ولا فالاند.

أخبرهم الساعي كاربوف أنّ هذا الساحر نفسه يبدو أنه قد نزل في شقة ليخوديف. فذهبوا إلى الشقة في الحال بالطبع، فلم يكن هناك أي ساحر على الإطلاق. وليخوديف نفسه لم يكن موجوداً. والخادمة غرونيا أيضاً لم تكن موجودة، ولا أحد يعلم أين اختفت. ولا وجود لرئيس الجمعية نيكانور إيفانوفيتش، وبروليجنيف أيضاً غير موجود!

النتيجة كانت شيئاً منافياً للعقل تماماً: فقد اختفى رؤساء الدوائر كلهم، وكان عرض البارحة غريباً ومشيناً، ولا أحد يعلم من الذي قدّمه، وبإيعازٍ ممّن.

في هذه الأثناء كان النهار يكاد ينتصف، وشبّاك التذاكر يجب أن يُفتح. لكنّ هذا لم يكن وارداً بالطبع! فقد عُلّقت على أبواب «الفاريتيه» قطعة كبيرة من الكرتون كُتب عليها: «عرض اليوم ملغى». بدأ الاهتياج في الطابور، انطلاقاً من مقدمته، لكنه، رغم ذلك، أخذ يتبدّد، وبعد قرابة ساعة لم يبقَ منه في شارع «سادوفايا» أي أثر. ثم غادرت هيئة التحقيق لتواصل عملها في مكان آخر، وصُرف الموظفون ولم يبقَ سوى المناوبين، وأُقفلت أبواب «الفاريتيه».

كان على المحاسب فاسيلي ستيبانوفيتش القيام بمهمتين عاجلتين: أولاً، الذهاب إلى لجنة العروض التمثيلية والترفيهية بتقرير عن أحداث

الأمس، وثانياً، المرور على الإدارة المالية للعروض لتسليمها حصيلة أمس البالغة ٢١٧١١ روبلاً.

لفّ فاسيلي ستيبانوفيتش، المواظب والدقيق، المال بورقة جريدة وربط الرزمة بخيط ووضعها في حقيبته، ولكونه يعرف التعليمات بصورة رائعة فقد توجّه إلى موقف سيارات الأجرة بالطبع وليس إلى الحافلة أو الترام.

ما إن رأى سائقو السيارات الثلاث الراكب المسرع إلى الموقف مع حقيبة محشوة إلى آخرها حتى غادروا فارغين على مرأى منه وهم يرمقونه، لسببٍ ما، بعدوانية.

تسمّر المحاسب مكانه طويلاً، وقد صعقه الموقف، محاولاً إدراك معنى ذلك.

بعد ثلاث دقائق اقتربت مسرعةً سيارة خالية، وظهر الامتعاض على وجه السائق فور رؤيته الراكب.

سعل فاسيلي ستيبانوفيتش باستغراب وسأل:

- هل السيارة متوفرة؟

- أرني المال، - ردّ السائق بضغينة دون أن ينظر إلى الراكب.

شدّ المحاسب على حقيبته الثمينة تحت إبطه، وقد ازداد استغرابه، وأخرج من حافظته «تشرفونتس» وأراه للسائق، فقال السائق بإيجاز:

- لن أذهب!

- عفواً. . . - بدأ المحاسب يقول لكنّ السائق قاطعه قائلاً:

- هل معك من فئة الثلاثة روبلات؟

تناول المحاسب، المصعوق تماماً، من محفظته ورقتين ماليتين من فئة الثلاثة روبلات وأراهما للسائق.

- اركب، - صاح السائق وخبط العدّاد بحيث كاد يكسره. - هيا.

- ألا توجد معك «فكّة» أم ماذا؟ - سأل المحاسب بوجل.

- جيبي مليء بالفكّة! - جأر السائق، وانعكست عيناه المحتقنتان بالدم في المرآة، - وهذه هي الحادثة الثالثة معي اليوم. وقد حدث هذا مع آخرين أيضاً. يدفع ابن كلب ما «تشرفونتس» فأعيد له الباقي - أربعة روبلات وخمسين كوبيكاً... وينزل الوغد! وبعد خمس دقائق أنظر فأرى بدلاً من التشرفونتس لُصاقة زجاجة «نارزان»! - هنا تفوّه السائق ببضع كلمات غير لائقة - وآخر، أوصلته إلى شارع «زوبوفسكايا»، أعطاني «تشرفونتس» فرددت إليه ثلاثة روبلات، وغادر! وضعت يدي في المحفظة فلسعت نحلة إصبعي! اللعنة!... - ومرة أخرى تفوّه السائق بكلمات غير صالحة للنشر، - أما التشرفونتس فقد اختفى. البارحة في «القاريتيه» هذا (كلمات غير صالحة للنشر) قدّم أحد الأوباش من لاعبي الخفة خدعة التشرفونتسات هذه.

صُعق المحاسب وانكمش على نفسه واتّخذ هيئة من يسمع حتى كلمة «فاريتيه» نفسها للمرة الأولى، بينما قال في سرّه: «يا للهول!...».

بعد أن وصل المحاسب إلى حيث يجب، ودفع للسائق بكرم، دخل المبنى وحثّ خطاه في الرواق إلى حيث مكتب رئيس القسم، وكان قد أدرك، وهو في طريقه إليه، أنه قد أتى في وقت غير مناسب. فقد كان هناك هرج ومرج في دائرة لجنة العروض، وهرعت ساعيةٌ مسرعةً في جوار المحاسب، بمنديلها المائل على قذالها وعينيها الجاحظتين، وراحت تصرخ، لا ندري من تخاطب، قائلةً:

- غير موجود، غير موجود، غير موجود يا أعزائي! الجاكيت والبنطال هنا، لكن لا يوجد شيء في الجاكيت!

وتوارت خلف أحد الأبواب، وفي إثرها سُمع صوت تحطّم أوانٍ. ومن غرفة السكرتاريا خرج مسرعاً رئيس قسم الدائرة الأولى للهيئة، الذي يعرفه المحاسب جيداً، لكنه كان في حالٍ بحيث لم يتعرّف المحاسب، وتوارى دون أثر.

بلغ المحاسب، مصدوماً من هذا كله، غرفة السكرتاريا التي هي بمثابة مدخل إلى مكتب رئيس الهيئة، وهنا صُعق نهائياً.

فمن خلف باب المكتب المغلق كان يدوّي صوتٌ رهيب لا شكّ أنه صوت بروخور بيتروفيتش، رئيس الهيئة. «أتراه يوبّخ أحدهم؟» فكّر المحاسب المبلبل والتفت فرأى شيئاً مغايراً: كانت الحسناء آنّا ريتشاردوفنا، سكرتيرة بروخور بيتروفيتش الشخصية، تستلقي على مقعدٍ جلدي، ملقيةً رأسها إلى الخلف، وهي تنوح بصورة جنونية، وبيدها منديل مبلّل، وقد مدّت ساقيها إلى وسط غرفة السكرتاريا تقريباً.

كان حنك آنّا ريتشاردوفنا بأكمله مصبوغاً بأحمر الشفاه، وعلى خدّيها الدرّاقيَيْن كان يسيل من رموشها صباغٌ عكر.

حين رأت أنّ أحدهم قد دخل هبّت آنّا ريتشاردوفنا واقفةً وارتمت على المحاسب، فتشبّثت بأطراف سترته وراحت تهزّه وهي تصرخ:

- الحمد لله! وُجد شخص شجاع واحد على الأقل! لقد فرّ الجميع، كلهم خونة! هيا، لنذهب إليه، لا أدري ماذا يجب أن أفعل!
- وجرجرت المحاسب إلى المكتب وهي لا تزال تنوح.

ما ان دخل المحاسب المكتب حتى سقطت الحقيبة من يده

وانقلبت الأفكار في رأسه رأساً على عقب. ولا بدّ من القول: كان هناك مبرّر لذلك.

فإلى طاولة المكتب الهائلة الحجم، بدواة الحبر الضخمة عليها، كانت تجلس بذلة فارغة تمرّ بريشةٍ غير مغموسة في الحبر على ورقة. كانت البذلة معقودة بربطة عنق، ويتدلى من جيبها قلم حبر، لكن أعلى الياقة لم تكن هناك لا رقبة ولا رأس، كما لم تكن تلوح عظام اليدين من الكمّين. كانت البذلة منهمكة في العمل دون أن تلحظ البلبلة السائدة من حولها على الإطلاق. وحين سمعت البذلة أنّ أحدهم قد دخل المكتب أسندت ظهرها إلى مسند المقعد، ومن أعلى الياقة دوّى صوت بروخور بيتروفيتش الذي يعرفه المحاسب جيداً.

- ما الأمر؟ فقد كُتب على الباب أنني لا أستقبل أحداً.

ولولت السكرتيرة الحسناء وصرخت وهي تعصر يديها:

- أترى؟ أترى؟ إنه غير موجود! غير موجود! أعده! أعده!

وهنا مدّ أحدهم رأسه من الباب، فتأوّه وولّى الأدبار. شعر المحاسب أنّ رجليه ترتجفان، فجلس على طرف الطاولة، لكنه لم ينسَ أن يرفع الحقيبة عن الأرض. أخذت آنّا ريتشاردوفنا تتقافز حول المحاسب وهي تشدّه من سترته وتصرخ:

- كنت أوقفه، لطالما أوقفته حين كان يذكر الشياطين في شتائمه! وها قد شيطنوه، - وهنا هرعت الحسناء إلى طاولة المكتب وصاحت بصوتٍ موسيقيٍّ رقيقٍ أخنّ من جرّاء البكاء:

- بروشا! أين أنت؟

- ومن أنت حتى تنادينني «بروشا»؟ - سألت البذلة بتعجرف وهي تغوص في المقعد أعمق فأعمق.

- إنه لا يتعرّفني! لا يتعرّفني! هل تفهم؟ - قالت السكرتيرة ناشجةً.

- أرجو عدم البكاء في المكتب! - قالت البذلة المخططة السريعة الانفعال حانقةً وسحبت رزمة أوراق جديدة من أجل إصدار قرار كما هو واضح.

- لا، لا أستطيع رؤية هذا، لا، لا أستطيع! - صرخت آنّا ريتشاردوفنا وخرجت راكضةً إلى غرفة السكرتاريا، فتبعها المحاسب منطلقاً كرصاصة.

- تصوّر، كنت جالسة، - شرعت آنّا ريتشاردوفنا تروي للمحاسب وهي ترتجف من الاضطراب، وقد تشبّثت بكمّه ثانيةً، - فإذا بقطٍّ أسود بدين كجاموس النهر يدخل، فصرخت فيه طبعاً «بست!» فولّى الأدبار، ودخل بدلاً منه شخص بدين وجهه أيضاً كوجه قطّ، وقال: «ما لك تصرخين في الزوار «بست» أيتها المواطنة؟» ومضى دون استئذان إلى بروخور بيتروفيتش مباشرةً وجلس على المقعد قبالته! وبروخور بيتروفيتش... إنسان بمنتهى الطيبة، لكنه عصبي. ثارت ثائرته! لن أجادل في الأمر. إنسان عصبي، يعمل كالبغل، ثارت ثائرته وقال: «ما لك تقتحم مكتبي دون مذكّرة؟»، وذاك الوقح - تصوّر! - استلقى مرتاحاً على المقعد وقال وهو يبتسم: «جئت أبحث معك أمراً صغيراً». ثارت ثائرة بروخور بيتروفيتش مع ذلك، وقال له: «أنا مشغول!»، فأجابه ذاك: «لستَ مشغولاً على الإطلاق...» تصوّر! وهنا نفد صبر بروخور بيتروفيتش بالطبع، فصرخ قائلاً: «ما هذا؟ أخرجوه من هنا، فلتأخذني الشياطين!»، فابتسم ذاك، تصوّر!، وقال: «لتأخذك الشياطين. حسناً، هذا ممكن!»، وقبل أن أتمكّن من الصراخ... وطراخ... نظرت فإذا

بصاحب وجه القط قد اختفى وتجـ. . . تجلس. . . بذلة. . . وليبيي!
- ولولت آنّا ريتشاردوفنا ماطّةً فمها الذي فقد تقاسيمه تماماً.

استردّت آنّا ريتشاردوفنا أنفاسها، وهي تَشْرق بالنحيب، لكنها بدأت تتفوّه بكلام غير مترابط على الإطلاق:

- وراحت البذلة تكتب وتكتب وتكتب! شيء يدعو للجنون! تتكلّم بالهاتف! بذلة! هرب الجميع كالأرانب!

اكتفى المحاسب بالبقاء واقفاً وهو يرتجف، لكن في هذه اللحظة أغاثه القدر. فقد دخل غرفة السكرتاريا، بمشية هادئة رصينة، شرطيان. حين رأتهما السكرتيرة الحسناء زاد انتحابها، وراحت تخبط باب المكتب بيدها.

- كفّي عن النحيب يا مواطنة، - قال الأول بهدوء، أما المحاسب، وقد شعر أنه زائد عن الحاجة تماماً هنا، فقد اندفع خارجاً من غرفة السكرتاريا، وخلال دقيقة كان قد أصبح في الهواء الطلق. كان تيار هواء ما يصفر في رأسه، كما في أنبوب، ووسط هذا الصفير كان يسمع شذرات من قصص فاحصي التذاكر عن قطّ الأمس الذي شارك في العرض. «آهاااا! ألا يكون هذا القط قطنا؟».

حين لم يتوصّل فاسيلي ستيبانوفيتش النزيه إلى نتيجة في الهيئة قرّر الذهاب إلى فرعها الكائن في زقاق «فاغانكوفسكي»، ولكي يهدّئ من روعه بعض الشيء ذهب إلى الفرع سيراً على الأقدام.

كان فرع المدينة للعروض المسرحية يقع في دارٍ تقشّر طلاؤها بفعل الزمن منزويةٍ في عمق فناء، وكان مشهوراً بأعمدة بهوه المنحوتة من الصخر الأرجواني.

لكن ليست الأعمدة ما أثار ذهول زوّار الفرع هذا اليوم بل ما كان يحدث في الأسفل. فقد تسمّر بعض الزوّار في أماكنهم وارحوا يرنون

في حيرة وذهول إلى آنسةٍ باكيةٍ تجلس إلى طاولة عليها كتب خاصة بالأدب المسرحي تقوم الفتاة ببيعها. وفي هذه اللحظة لم تكن الآنسة تعرض شيئاً من هذه الكتب على أحد، وكانت تُعرض وحسب عن الأسئلة المتعاطفة، بينما كان يدوّي في هذه اللحظة رنين ما لا يقل عن عشرين جهاز هاتف، من الأعلى والأسفل والجوانب ومن كافة أقسام الفرع.

بكت الفتاة مدةً ثم ارتعدت فجأةً بصوت سوبرانو راعش:

«بايكال المقدّسة بحرٌ جليل...»

الساعي، الذي لاح على الدرج، لوّح لأحدهم بقبضته متوعّداً، وراح يغنّي مع الفتاة بصوتٍ جهوريّ كامد خفيض:

«ماجدةٌ السفينة، برميل حيتان السلمون!...»

انضمّت أصوات بعيدة إلى صوت الساعي وبدأت الجوقة تتعاظم، وفي نهاية المطاف بدأت الأغنية تهدر في أركان الفرع برمّته. وقد تميّز بشكل خاص «أوكتاف» قوي أبحّ صادر من الغرفة رقم ٦ الأقرب، حيث قسم تدقيق الحسابات، كما رافق الجوقة رنين أجهزة الهاتف المتعاظم.

ولول ساعٍ على الدرج يغنّي:

«هيه، بارغوزين... هلمّي أيتها الموجة!...»

سالت الدموع على خدّي الفتاة، التي كانت تجاهد لإبقاء شفتيها مطبقتين، لكنّ فمها انفتح من تلقاء ذاته وراحت تغنّي بأوكتاف أعلى من الساعي:

«لعل الفتى المقدام ليس ببعيد!»

ما أذهل زوار الفرع الواجمين أنّ أعضاء الجوقة، المبعثرين في

أماكن شتّى، كانوا يغنّون بتناغم شديد وكأنّ الجوقة كلها لا ترفع طرفها عن قائد غير مرئي.

كان المارّة في زقاق «فاغانكوفسكي» يتوقفون عند سياج الفناء مندهشين من المرح المخيّم على الفرع.

فور انتهاء المقطع الأول توقّف الغناء بغتةً، وأيضاً كأنما بإشارةٍ من عصا قائد الجوقة. أطلق الساعي شتيمةً خافتة وتوارى، وفي هذه اللحظة فُتح الباب الرئيسي، ودخل مواطن يرتدي معطفاً صيفياً تتدلى تحته أذيال مئزر الأطباء الأبيض، وبرفقته شرطي. صرخت الفتاة بهستيرية:

- تصرّف يا دكتور، أتوسّل إليك.

نزل سكرتير الفرع الدرج مسرعاً وأخذ يقول متلعثماً، مضطرماً، من الخجل والارتباك فيما يبدو:

- أترى يا دكتور! عندنا حالة ما من التنويم المغناطيسي الجماعي... ولا بدّ من... - وقبل أن ينهي جملته أخذ يَشْرِق بالكلمات، وفجأةً بدأ يغنّي بصوت «تينور»:

«شيلكا ونيرتشينسك...»

- أحمق! - صاحت الفتاة دون أن توضح من المقصود، وبدلاً من ذلك أخذت تدندن لاإرادياً وراحت، هي أيضاً، تغنّي عن شيلكا ونيرتشينسك.

- تمالك نفسك! توقف عن الغناء! - قال الدكتور مخاطباً السكرتير.

كان كل شيء يشير إلى أنّ السكرتير نفسه مستعد لبذل أي شيء لكي يكفّ عن الغناء، لكنه كان عاجزاً عن التوقف، وأوصل، مع

الجوقة، إلى أسماع المارة في الزقاق بشرى أنّ الوحوش المفترسة لم تمسسه في الأدغال، وأنّ رصاص القناصة لم يدركه!

فور انتهاء المقطع كانت الفتاة أول من تلقّى جرعة «وَليريان» من الطبيب، ثم راح يطارد السكرتير والآخرين ليسقيهم، هم أيضاً، الوَليريان.

فجأةً قال فاسيلي ستيبانوفيتش يخاطب الفتاة:

- العفو يا مواطنة، هل مرّ بكم قط أسود؟

- أي قط هذا؟ - صرخت الفتاة في حنق، - ما يجلس عندنا في الفرع حمار! - وبعد أن أضافت: - فليسمعني! لأروينَّ كل شيء، - روت حقاً كل ما جرى.

تبيّن أنّ مدير فرع المدينة «الذي جعل العروض الترفيهية تتدهور نهائياً» (حسب قول الفتاة) كان مهووساً بتنظيم شتى أنواع الحلقات.

- كان يداهن المسؤولين! - جأرت الفتاة.

خلال عام واحد تمكّن المدير من تنظيم حلقة لدراسة ليرمنتوف، وحلقة للشطرنج والداما، وحلقة لكرة الطاولة، وحلقة للفروسية. كما وعد بتنظيم حلقة تجذيف وحلقة لمتسلقي الجبال في الصيف.

قالت الفتاة:

- واليوم بالذات، في استراحة الغداء، دخل المدير متأبطاً ذراع ابن كلب ما، لا ندري من أين ظهر، يرتدي بنطال «كارّوه» ويضع نظارة أنفية متصدّعة و... له سحنة فظيعة جداً!

وعلى الفور - حسب رواية الفتاة - قدّمه لكل الذين كانوا يتناولون الغداء في مطعم الفرع بوصفه متخصصاً بتنظيم جوقات الغناء.

تجهّمت وجوه متسلقي الجبال المستقبليين لكنّ المدير دعا

الجميع إلى المرح، أما الأخصائي فقد أخذ يمزح وينكّت ويؤكّد، حالفاً اليمين، أنه لن يأخذ من وقتهم إلا القليل من أجل الغناء، في حين أنهم - في المقابل - سيجنون حمولة عربة قطار من منافع الغناء.

وبالطبع كان فانوف وكوسارجوك - حسبما أخبرت الفتاة -، أشهر متملّقي الفرع، أول من هبّ واقفاً وأعلنا تسجيل اسميهما. وهنا أيقن بقية الموظفين أن لا مفرّ من الغناء، ما اضطرهم إلى تسجيل أسمائهم أيضاً في الحلقة. وقرروا الغناء أثناء استراحة الغداء، فقد كانوا مشغولين في الأوقات الأخرى كلها بليرمنتوف والداما. ولكي يقتدوا به أعلن المدير أنّ لديه صوت «تينور»، ولاحقاً سار كل شيء كما في حلم فظيع، فقد راح قائد جوقة الغناء المتخصص يصرخ:

- دو مي صول دو! - سحب الأكثر خجلاً من وراء الخِزانات، حيث حاولوا التملّص من الغناء، وقال لسكارجوك إنه يملك سَمعاً ممتازاً، وأخذ يشكو وينوح راجياً إياهم احترام مرتّل ومغنٍّ عتيق، وينقر بأصابعه على شوكة الدوزان، متوسّلاً إنشاد «البحر الجليل» بصوتٍ هادر.

وقد أنشدنا، وبصورة رائعة. كان «المربّعاتي» يتقن عمله حقاً. أنشدنا المقطع الأول. وهنا اعتذر قائد الجوقة وقال: «سأخرج لدقيقة»، و... اختفى. ظننا أنه سيعود بعد دقيقة حقاً، لكن مضت عشر دقائق ولم يعد. عمّ الفرح موظفي الفرع - لقد هرب.

وفجأةً أخذنا ننشد المقطع الثاني من تلقاء أنفسنا، جرّ الجميع خلفه كوسارجوك الذي ربما لم يكن سمعه ممتازاً، لكنّ نغمة «التينور» لديه كانت عالية ومقبولة بما يكفي. أنهينا المقطع الثاني، ولم يعد قائد الجوقة! تحرّكنا إلى أماكننا، لكن ما كدنا نجلس حتى عدنا إلى الغناء رغماً عنا، ولم يعد بإمكاننا التوقف. نصمت لثلاث دقائق ثم نهدر

بالغناء ثانيةً. نصمت ثم نعود إلى الغناء. حينئذٍ أدركنا هول الكارثة، وأقفل رئيس الفرع على نفسه من الخزي.

وهنا انقطعت رواية الفتاة، فالوليريان لم يسعفها قط.

بعد ربع ساعة توقفت ثلاث شاحنات في زقاق «فاغانكوفسكي» أمام السياج، ونقلوا بها كل موظفي الفرع، وعلى رأسهم رئيس الفرع.

ما إن خرجت الشاحنة الأولى إلى الزقاق، وهي تتأرجح عند اجتياز البوابة، حتى فتح الموظفون الواقفون في الصندوق أفواههم، وقد أمسكوا بأكتاف بعضهم بعضاً، وهدرت في الزقاق كله أغنية معروفة. تلقّفت الشاحنة الثانية الأغنية، وتلتها الثالثة، وعلى هذا النحو انطلقت الشاحنات. كان المارّة المسرعون إلى شؤونهم يلقون على الشاحنات مجرّد نظرة عابرة، دون أيّما دهشة، مفترضين أنها نزهة إلى ضواحي المدينة. وبالفعل كانت الشاحنات تتجه إلى خارج المدينة، لكن ليس في نزهة وإنما إلى عيادة البروفيسور سترافينسكي.

بعد نصف ساعة تمكّن المحاسب، الذي فقد صوابه تماماً، من بلوغ القسم المالي للعروض المسرحية آملاً أن يتخلّص أخيراً من أموال الخزينة. ألقى المحاسب الذي علّمته التجربة، قبل أيّ شيء آخر، نظرة حذرة على القاعة المستطيلة الشكل، حيث يجلس الموظفون وراء ألواح زجاجية داكنة عليها كتابات ذهبية. ولم يصادف المحاسب أيّاً من علامات الاضطراب أو الشقاوة هنا. فقد كان المكان هادئاً كما يُفترض بدائرة محترمة.

أدخل فاسيلي ستيبانوفيتش رأسه في كوّة كُتب عليها «استلام المبالغ»، فسلّم على موظف لم يتعرّف إليه من قبل وطلب دفتر الإيرادات بتهذيب، فسأله الموظف:

- وما شأنك به؟

دُهش المحاسب:

- أريد تسليم الحصيلة. أنا من «الفاريتيه».

- لحظة واحدة، - أجاب الموظف، وعلى الفور سدّ الكوّة التي في الزجاج بشبكة.

«غريب!» قال المحاسب في نفسه. وكانت دهشته في محلّها تماماً. فلأول مرة في حياته يصادف موقفاً كهذا، فالكلّ يعلم مدى صعوبة الحصول على المال، إذ يمكن دائماً مواجهة عراقيل. لكن في خبرة المحاسب العملية الممتدة ثلاثين عاماً لا توجد حالة واحدة اعتذر فيها أحد ما، أكان محامياً أم شخصاً عادياً، عن قبول المال.

لكنّ الشبكة أُزيلت أخيراً، والتصق المحاسب بالكوّة ثانيةً. سأله الموظف:

- هل المبلغ كبير؟

- واحد وعشرون ألفاً وسبعمئة وأحد عشر روبلاً.

- أوهووا! - لسببٍ ما أجاب الموظف بنبرة ساخرة، ومدّ للمحاسب ورقة خضراء.

ملأ المحاسب، الذي يعرف النظام جيداً، الورقة في طرفة عين وشرع يفكّ الشريط عن الرزمة. ولمّا فضّ الرزمة زاغ بصره وجمجم بألم. فأمام عينيه برقت أوراق مالية أجنبية، فقد كانت هناك رزم دولارات كندية وجنيهات إنكليزية وغولدينات هولندية ولاتات ليتوانية وكرونات إستونية...

- ها هو ذا أحد النصابين من «الفاريتيه»، - سُمع صوتٌ رهيب فوق رأس المحاسب الذي انعقد لسانه. وفي الحال تمّ اعتقال فاسيلي ستيبانوفيتش.

الفصل الثامن عشر

الزوار الأشائم

في الوقت الذي انطلق فيه المحاسب المثابر بسيارة أجرة للعثور على البذلة التي تكتب من تلقاء ذاتها، نزل راكب بيده حقيبة صغيرة من «الفيبر»، في عداد آخرين، من العربة الفخمة رقم ٩ لقطار كييف الواصل إلى موسكو. ولم يكن هذا الراكب سوى زوج عمة المرحوم بِرلُوز، مكسيمليان أندرييفيتش بوبلافسكي، أخصائي التخطيط الاقتصادي الذي يعيش في شارع «إنستيتوتسكايا» سابقاً بكييف. وكان سبب قدوم مكسيمليان أندرييفيتش إلى موسكو تلقّيه في وقت متأخر من مساء أمس الأول برقية تتضمّن ما يلي: «لقد ذبحني الترام في «بتريرشيه» للتوّ. الدفن الجمعة الساعة الثالثة ظهراً. احضر. بِرلُوز».

كان مكسيمليان يُعدُّ بحق أحد أذكى الناس في كييف. لكن يمكن لبرقية كهذه أن تحيّر حتى أذكى الناس. فما دام الشخص يُبرق قائلاً إنه قد ذُبح فهذا يعني أنه لم يُذبَح حتى الموت. فما شأن الدفن إذاً؟ أم أنّ حالته سيئة جداً ويتوقّع أن يموت؟ هذا محتمل، لكنّ هذه الدقّة بمنتهى الغرابة! إذ أنّى له أن يعرف حقاً أنه سيُدفَن يوم الجمعة الساعة الثالثة ظهراً؟ برقية عجيبة! لكن لهذا السبب الناس الأذكياء أذكياء، أي لكي يفهموا الأمور المبلبلة. الأمر بسيط جداً، فقد حدث خطأ وتمّ نقل الرسالة العاجلة محرَّفةً. فلا شكّ أنّ ضمير المتكلم (في ذبحني) جاء

خطأً من برقية أخرى، بدلاً من كلمة «بِرلُوز» التي جاءت في آخر البرقية. وبهذا التصحيح يغدو فحوى البرقية واضحاً، لكن مأساوياً بالطبع.

حين هدأت سورة الحزن التي انتابت زوجة مكسيمليان أندرييفيتش، شرع هذا يستعد للسفر إلى موسكو في الحال.

يجدر بنا كشف أحد أسرار مكسيمليان أندرييفيتش. لا شكّ في أنه قد حزن على ابن أخي زوجته الذي قُتل في ريعان شبابه، لكنه كان يدرك بالطبع، باعتباره شخصاً عملياً، عدم وجود أي ضرورة لحضور الدفن. بيد أنّ مكسيمليان أندرييفيتش سارع للسفر إلى موسكو، ففيمَ الأمر إذاً؟ أمر واحد: الشقّة. شقة في موسكو؟ هذا أمر بالغ الأهمية. فلسببٍ غير معروف لم تعد كييف تعجب مكسيمليان أندرييفيتش، وفي الآونة الأخيرة صارت فكرة الانتقال إلى موسكو تؤرّقه كثيراً بحيث صار النوم يجافيه. لم تعد تبهجه فيوض نهر «الدنيبر» الربيعية، حين تمتزج المياه بالأفق غامرةً الجزر الواقعة على ضفته الواطئة. ولم يعد يفرحه ذلك المنظر المذهل، من حيث جماله، الذي ينكشف للمرء من قاعدة تمثال الأمير فلاديمير. ولم تعد تسلّيه بقع نور الشمس التي تتراقص في الربيع على دروب تلّة فلاديمير. لم يعد يريد شيئاً من هذا، فقد كان يريد شيئاً واحداً فقط - الانتقال إلى موسكو. والإعلانات في الصحف عن استبدال شقة في شارع «إنستيتوتسكايا» بكييف بشقة أصغر في موسكو لم تعطِ أيّ نتيجة. إذ لم يكن هناك راغبون، وإن وجدوا فقد كانت عروضهم عديمة الذمّة.

صدمت البرقية مكسيمليان أندرييفيتش. فهذه هي اللحظة التي يُعدُّ تفويتها خطيئة لا تغتفر. والناس العمليون يعرفون أنّ لحظات كهذه لا تتكرّر.

قُصارى القول، وبغضّ النظر عن أيّ صعوبات، كان لا بدّ من أن يتمكّن من وراثة شقة ابن أخي زوجته في شارع «سادوفايا». إلاّ أن هذا كان صعباً، بل صعباً جداً، لكن كان عليه إزالة هذه الصعوبة بأيّ وسيلة كانت. وكان مكسيمليان أندرييفيتش المحنّك يعرف أنّ الخطوة الأولى والحتمية للقيام بذلك يجب أن تكون التالية: يجب عليه، بأيّ وسيلة كانت، ولو مؤقتاً، تسجيل غرف المرحوم الثلاث باسمه.

نهار الجمعة عبر مكسيمليان أندرييفيتش باب غرفة مقرّ إدارة الجمعية السكنية رقم ٣٠٢ مكرّر الكائنة في شارع «سادوفايا» بموسكو.

في الغرفة الضيّقة التي عُلِّقت على جدارها لافتة قديمة تصوّر، ببضع صور، طرق إنعاش الغرقى، كان يجلس إلى طاولة خشبية، وحيداً تماماً، شخص غير حليق، متوسّط العمر، بعينين جزعتين.

- هل يمكنني مقابلة رئيس الجمعية؟ - استفسر المخطط الاقتصادي بتهذيب وهو يخلع قبعته ويضع حقيبته الصغيرة على كرسيٍّ خالٍ.

هذا السؤال الذي يبدو بسيطاً أزعج، لسببٍ ما، الشخص الجالس بحيث تغيّرت تعابير وجهه، فغمغم، مواربا عينيه بقلق، بما معناه أنّ الرئيس غير موجود.

سأله بوبلافسكي:

- هل هو في شقته؟ لدي أمر عاجل جداً.

مرة أخرى أجاب الشخص الجالس بكلام مفكّك جداً. لكن، مع هذا، كان بالإمكان التخمين بأنّ الرئيس غير موجود في الشقة.

- ومتى سيكون موجوداً؟

لم يجب الجالس عن هذا السؤال ورنا إلى النافذة بشيء من الكآبة.

«آها!» قال بوبلافسكي الذكي لنفسه، وسأل عن السكرتير.

احمرّ الشخص الغريب الأطوار الجالس إلى الطاولة من التوتّر وقال، متمتماً ثانيةً، إنّ السكرتير أيضاً غير موجود... ولا يدري متى سيأتي و... هو مريض...

«آها!» قال بوبلافسكي الذكي لنفسه، - لكن لا بد أن يكون هناك أحد ما في الإدارة، أليس كذلك؟

- أنا، - ردّ الشخص بصوتٍ واهن.

شرع بوبلافسكي يقول برزانة:

- لاحظ أنني أُعدُّ الوريث الوحيد للمرحوم بِرلُوز، ابن أخي زوجتي، الذي قُتل في «بتريرشيه» كما هو معروف، وأنا ملزَم، بموجب القانون، بقبول التركة المنحصرة بشقتنا رقم خمسين...

- لا علم لي بالموضوع يا رفيق، - قاطعه الرجل في ضجر.

- لكن اسمح لي، - قال بوبلافسكي بصوت رنّان، - أنت عضو في الإدارة، ومن واجبك...

وفي هذه اللحظة دخل الغرفة مواطن امتقع وجه الجالس إلى الطاولة عند رؤيته. سأل الذي دخل الرجل الجالس:

- هل أنت عضو الإدارة بياناجكو؟

- أنا هو، - أجاب هذا بصوتٍ لا يكاد يُسمع.

همس الذي دخل بكلامٍ ما للجالس، فنهض هذا عن الكرسي مضطرباً تماماً، وفي بضع ثوانٍ لم يبقَ في غرفة الإدارة الخالية سوى بوبلافسكي.

«إيه، يا للتعقيد! وهل كان يجب عليهم جميعاً...» فكّر بوبلافسكي بانزعاج وهو يجتاز الفناء الأسفلتي مسرعاً إلى الشقة رقم ٥٠.

ما إن قرع المخطط الاقتصادي الجرس حتى فُتح الباب، فدخل مكسيمليان أندرييفيتش الردهة شبه المعتمة. أدهشه بعض الشيء أنه لم يدرِ من الذي فتح له الباب، إذ لم يكن في الردهة سوى قطّ أسود هائل الحجم كان جالساً على كرسي.

سعل مكسيمليان أندرييفيتش وطبطب بقدميه على الأرض، وحين فُتح باب المكتب وخرج كوروفييف إلى الردهة انحنى له مكسيمليان أندرييفيتش بتهذيب، لكن بوقار، وقال:

- كنيتي هي بوبلافسكي، وأنا عمّ...

وقبل أن ينهي كلامه أخرج كوروفييف من جيبه منديلاً متّسخاً ودسّ أنفه فيه وأخذ يبكي.

- المرحوم بِرلُوز...

- طبعاً، طبعاً، - قاطعه كوروفييف مبعداً المنديل عن وجهه. - ما إن لمحتك حتى حزرت أنه أنت! - وهنا بدأ يولول وهو يختلج من البكاء: - يا للمصيبة، آ؟ وإلاّ ماذا نسمّي ما جرى، آ؟

- دهسه الترام؟ - سأل بوبلافسكي هامساً.

- سحقه سحقاً، - صاح كوروفييف وانهمرت دموعه من تحت نظارته الأنفية، - سَحقاً! لقد شهدت ذلك. هل تصدّق؟ في لحظة طار رأسه بعيداً، وقُطعت رجله اليمنى إلى نصفين! واليسرى - طراخ - نصفين! هاك إلامَ توصل هذه الترامات! - وإذ لم يعد في وسعه تمالك نفسه، على ما يبدو، فقد غرز أنفه في الجدار قرب المرآة وأخذ يرتعش ناشجاً.

كان عم بِرلُوز مذهولاً حقاً من سلوك الشخص المجهول. «ويقولون لا يوجد في زمننا أناس مخلصون!» قال عم بِرلُوز في سرّه، شاعراً أنّ عينيه، هو نفسه، قد بدأتا تحكّانه. إلاّ أنّ غمامةً مزعجة

خيّمت على روحه في الوقت ذاته، وعلى الفور برقت في رأسه فكرة ثعبانية مفادها: ألا يكون هذا الإنسان المخلص قد تسجّل في شقة المرحوم؟ فقد حدثت أمور من هذا القبيل أيضاً في الحياة.

- عفواً، هل كنت صديق حفيدي ميشا؟ - سأله بوبلافسكي وهو يمسح عينه اليسرى الجافّة بكمّه، ويتفحّص باليمنى كوروفييف الذي يرتعش حزناً. لكن ذاك كان ينوح ويولول بحيث كان يستحيل فهم شيء مما يقول باستثناء كلمتي «طراخ ونصفين!» التي راح يكرّرهما. بعد أن شبع من النواح انتزع كوروفييف نفسه أخيراً عن الجدار وقال:

- لا، لم أعد أحتمل! سأذهب لتناول ثلاثمئة نقطة من الوليريان!

- ثم أضاف وهو يدير إلى بوبلافسكي وجهاً تغمره الدموع: - هاكم ما هي، الترامات هذه!

- عفواً، ألست من أبرق إلي؟ - سأل مكسيمليان أندرييفيتش جاهداً لمعرفة من عساه يكون هذا البكّاء العجيب.

- بل هو! - أجاب كوروفييف مشيراً بإصبعه إلى القط.

حملق بوبلافسكي معتقداً أنه قد أخطأ السمع.

- لا، لم يعد بوسعي الاحتمال، - تابع كوروفييف ناشجاً، - ما إن أتذكّر كيف سارت العجلة على رجله... العجلة الواحدة تزن عشر «بودات»... «طراخ»! سأذهب وأستلقي في السرير لأنسى نفسي بالنوم. - واختفى من الردهة.

أما القط فقد أخذ يتنحنح، وقفز عن الكرسي، ووقف على قائمتيه الخلفيتين وفتح شدقيه وقال:

- نعم، أنا من أرسل البرقية، فماذا تريد؟

وعلى الفور شعر مكسيمليان أندرييفيتش بالدوار، وشُلّت يداه ورجلاه، وأسقط الحقيبة، وجلس على كرسي قبالة القط.

- أظن أنني أسألك باللغة الروسية. ماذا تريد؟ - قال القط بجفاء.

لكنّ بوبلافسكي لم يحر جواباً قطّ.

- بطاقتك الشخصية! - ماءَ القط ومدّ برثنه المكتنز.

دون أن يفهم شيئاً، ودون أن يرى شيئاً سوى شرارتين مشتعلتين في عينيّ القط، استلّ بوبلافسكي من جيبه بطاقته الشخصية، كما يستلّ خنجراً. تناول القط عن طاولة المرآة نظارةً ذات إطار أسود غليظ ووضعها على وجهه، الأمر الذي زاده هيبةً، واختطف البطاقة الشخصية من يد بوبلافسكي المرتعشة.

«يا سلام! هل سيغمى عليّ أم ماذا؟» فكّر بوبلافسكي. ومن بعيد كان يتناهى إليه صوت نشيج كوروفييف، وامتلأت الردهة كلها برائحة الإثير والوليريان ورائحة مقرفة أخرى.

- أي قسم أصدر هذه الوثيقة؟ - سأل القط محدّقاً في الورقة.

لم يأتِه جواب.

- القسم ٤١٢، - قال القط مارّاً ببرثنه على البطاقة الشخصية التي كان يمسكها بالمقلوب، - نعم، طبعاً، أعرف هذا القسم! هناك يعطون بطاقات شخصية لأيٍّ كان! أما أنا، مثلاً، ما كنت لأعطي بطاقة شخصية لشخصٍ مثلك! كان يكفي إلقاء نظرة واحدة على وجهك حتى أرفض منحك بطاقة شخصية! - ورمى القط البطاقة الشخصية على الأرض لشدة سخطه، ثم تابع بنبرة رسمية: - يُمنَع حضورك الدفن. عد إلى مكان إقامتك. - وزمجر باتجاه الباب: - أزازيلو!

استجابةً لندائه هرع إلى المدخل شخص أعرج أصهب ضئيل الحجم، يرتدي ملابس صوفية مشدودة، ويتمنطق بخنجر خلف حزامه الجلدي، له ناب أصفر وعلى عينه اليسرى بياض.

شعر بوبلافسكي بضيق في التنفس، فنهض عن الكرسي وتراجع إلى الوراء واضعاً يده على قلبه.

- شيّعه يا أزازيلو! - أمر القط وغادر الردهة.

- آمل أنّ كل شيء قد بات مفهوماً يا بوبلافسكي! - قال أزازيلو بصوتٍ خافتٍ أخنّ، فهزّ بوبلافسكي رأسه، فتابع أزازيلو يقول: - عد إلى كييف في الحال، وابقَ هناك بلا حسّ ولا حركة، ولا تحلم بأي شقق في موسكو، مفهوم؟

هذا الشخص الضئيل الذي بعث هلعاً مميتاً في نفس بوبلافسكي، بنابه وخنجره وعينه الحولاء، لا يكاد يبلغ كتف الخبير الاقتصادي، لكنه كان يتصرف بحيوية ومهارة وصرامة. فقد رفع، بادئ ذي بدء، البطاقة الشخصية عن الأرض وأعطاها لمكسيمليان أندرييفيتش الذي استلمها بيدٍ فارقتها الحياة. ثم رفع المدعو أزازيلو الحقيبة بيدٍ واحدة وفتح الباب بالأخرى، وقاد عم بِرلُوز إلى فسحة الدرج متأبطاً ذراعه. استند بوبلافسكي إلى الجدار. فتح أزازيلو الحقيبة دونما حاجة إلى المفتاح، وتناول منها دجاجة مقلية هائلة الحجم بساقٍ واحدة، كانت ملفوفة بجريدة ملطّخة بالزيت، ووضعها أرضاً على فسحة الدرج. ثم أخرج زوجين من الملابس الداخلية وسَيْرَ حلاقة وكتيّباً ما وغلافاً، وركل هذا كله مدحرجاً إياه على الدرج، ما عدا الدجاجة، ثم ألحق به الحقيبة الفارغة أيضاً. وقد سُمع صوت تدحرجها إلى الأسفل، وصوت انخلاع غطائها.

بعد ذلك أمسك هذا المجرم الأشقر الدجاجة من ساقها وهوى بها على رقبة بوبلافسكي بقوةٍ مرعبة بحيث طار بدن الدجاجة بينما بقيت ساقها في يد أزازيلو. «اختلط الحابل بالنابل في بيت آل أوبلونسكي» - كما عبّر بحقّ الكاتب المعروف ليف تولستوي. وكان

ليقول القول ذاته في الحالة الراهنة أيضاً. نعم! اختلط الحابل بالنابل في عين بوبلافسكي. فقد ومضت شرارة طويلة أمام عينيه، ثم تحولت إلى أفعى سوداء أطفأت للحظة النهار الأيّاري، وطار بوبلافسكي إلى أسفل الدرج ممسكاً بطاقته الشخصية بيده، وحين بلغ انعطافة الدرج حطّم برجله زجاج نافذة فسحة الدرج، وجلس على إحدى الدرجات، وبقربه راحت الدجاجة تتقافز، ثم سقطت في بئر الدرج. أزازيلو، الذي ظلّ في الأعلى، التهم ساق الدجاجة بطرفة عين ودسّ العظمة في جيب سترته الصوفية الجانبي، ثم عاد إلى الشقة وصفق الباب. وفي هذا الوقت بدأ يُسمع في الأسفل صوت خطوات حذرة لشخص ما يصعد الدرج.

نزل بوبلافسكي طابقاً آخر مسرعاً ثم جلس على أريكة خشبية في فسحة الدرج وتنفّس الصعداء.

توقف رجل كبير السن، حزين الوجه بصورة غير عادية، يرتدي بذلة حريرية قديمة خاكيّة اللون، ويعتمر قبعة قاسية من القش لها شريط أخضر، كان يصعد الدرج، أمام بوبلافسكي وسأله بصوت حزين:

- اسمح لي بسؤالك يا مواطن: أين الشقة رقم ٥٠؟

- في الأعلى! - أجاب بوبلافسكي بصوت متقطّع.

- أشكرك عميق الشكر يا مواطن، - قال الرجل بالصوت الحزين ذاته وراح يصعد، أما بوبلافسكي فقد نهض وركض إلى الأسفل.

هنا ينبثق السؤال التالي: ألعل مكسيمليان أندرييفيتش قد أسرع إلى الشرطة يشكو الأوغاد الذين اعتدوا عليه بوحشية في وضح النهار؟ لا، ولا بحالٍ من الأحوال، ويمكن قول هذا بكلّ ثقة. أن يذهب إلى الشرطة ويقول إنّ قطّاً يضع نظارات قد تفحّص بطاقتي الشخصية للتو،

وإن هناك شخصاً آخر يرتدي الصوف ويتمنطق بخنجر... لا يا مواطنين، فمكسيمليان أندرييفيتش كان شخصاً ذكياً بالفعل!

كان قد صار في الأسفل، عند مدخل المبنى تماماً، فرأى باباً يفضي إلى حجرةٍ صغيرة، وكان زجاج الباب مكسوراً، فخبّأ بوبلافسكي بطاقته الشخصية في جيبه وأخذ يتلفّت حوله على أمل أن يرى أغراضه الملقاة، لكنه لم يجد لها أثراً، وكم دُهش لكونه لم يحزن عليها كثيراً. فقد كان مشغولاً الآن بفكرة ممتعة ومغرية أخرى، وهي أن يتأكد مما يحدث في هذه الشقة اللعينة من خلال هذا الرجل. وفي الواقع، ما دام قد سأل عن الشقة فهذا يعني أنه يزورها للمرة الأولى، وبالتالي فقد توجّه فوراً إلى براثن تلك العصابة المقيمة في الشقة رقم ٥٠. وقد أوحى أمر ما بأنّ الرجل سرعان ما يخرج من الشقة. وبطبيعة الحال لم يكن مكسيمليان أندرييفيتش ينوي حضور أي جنازة لأيّ ابن أخٍ كان، ومازال هناك ما يكفي من الوقت لانطلاق قطار كييف. تلفّت الاقتصادي حوله وانسلّ إلى الحجرة. وفي هذه اللحظة صُفق الباب في الأعلى، فقال بوبلافسكي في سرّه، وقد توقّف قلبه: «ها قد دخل!». كانت الحجرة باردة وتفوح برائحة الفئران والأحذية. جلس مكسيمليان أندرييفيتش على جذمة خشبية، وقرر الانتظار. كان موقعه مناسباً، فقد كان باب مدخل المبنى السادس مرئياً من الحجرة مباشرةً.

بيد أنّ الكييفلاني[1] اضطر إلى الانتظار أطول مما افترض. ولسببٍ ما كان الدرج خالياً طوال الوقت. كان كل شيء يُسمع بوضوح، وفي النهاية صُفق الباب في الطابق الخامس. حبس

(١) نسبةً إلى مدينة كيف، أي: الذي من كيف.

بوبلافسكي أنفاسه. نعم، إنها خطواته. «إنه ينزل». فُتح باب في الطابق الرابع. هدأت الخطوات. صوت امرأة. صوت رجل حزين... نعم، هذا صوته... قال شيئاً من قبيل: «اتركيني بحقّ المسيح...». كانت أذن بوبلافسكي مدلاّة عبر الزجاج المكسور، وقد التقطت هذه الأذن صوت ضحكة امرأة. خطوات سريعة وخفيفة تنزل الدرج، ولاح ظهر امرأة. خرجت المرأة من المدخل وبيدها حقيبة خضراء من المشمّع، في حين استؤنفت خطوات ذلك الرجل. «غريب! إنه يعود أدراجه إلى الشقة! أيكون هو أيضاً فرداً من هذه العصابة؟ نعم، إنه يعود أدراجه. ها هو الباب في الأعلى يُفتح ثانيةً. لا بأس، لننتظر بعد قليلاً».

لكنه لم يضطر إلى الانتظار طويلاً هذه المرة. صوت الباب. خطوات قصيرة. توقفت الخطوات. صرخة يائسة. مواء قط. خطوات سريعة مقرقعة تنزل إلى أسفل فأسفل فأسفل!

انتظر بوبلافسكي حتى النهاية. نزل الرجل الحزين طائراً وهو يرسم علامة الصليب ويغمغم بكلامٍ ما، من دون قبعة، وبوجه أبله تماماً، مخدوش الصلعة، وببنطالٍ مبلل كلياً، وأخذ يعالج مقبض الباب الخارجي لا يدري، لشدة هلعه، بأي اتجاه يُفتح - أإلى الخارج أم الداخل؟ - لكنه تمكّن منه أخيراً، وانطلق خارجاً إلى الفناء حيث الشمس.

تمّ التحقّق من الشقة: دون مزيدٍ من التفكير بابن الأخ الراحل أو بالشقة، ومرتعداً عند تفكيره بالخطر الذي تعرّض له، خرج مكسيمليان أندرييفيتش من الفناء راكضاً وهو يهمس بثلاث كلمات فقط: «كل شيء مفهوم! كل شيء مفهوم!». وبعد بضع دقائق كانت الحافلة تحمل المخطط الاقتصادي باتجاه محطة كييف للقطارات.

أما الرجل الضئيل الحجم فقد جرت معه قصة من أسوأ ما يكون بينما كان الاقتصادي جالساً في الحجرة بالأسفل. كان هذا الرجل مستخدَم بوفيه في «الفاريتيه»، واسمه أندريه فوكيتش سوكوف. بينما كان التحقيق جارياً في «الفاريتيه» ظلّ أندريه فوكيتش بعيداً عن كل ما يجري، ولم يُلاحَظ عليه سوى أنه كان قد أصبح أشدّ حزناً مما كان عليه عادةً، فضلاً عن أنه سأل الساعي كاربوف عن مكان إقامة الساحر الزائر.

وهكذا، بعد افتراقه عن الاقتصادي على فسحة الدرج صعد مستخدم البوفيه إلى الطابق الخامس وقرع جرس الشقة رقم ٥٠.

فُتح له الباب فوراً، لكنّ مستخدم البوفيه ارتعش وتراجع إلى الوراء قليلاً، ولم يدخل فوراً. وهذا مفهوم! فقد فتحت له الباب فتاة لا ترتدي سوى مئزر من الدنتيلا وعلى رأسها قوس قماشي أبيض، وكانت تنتعل - بالمناسبة - خفّين ذهبيين. لم يكن يشوب تكوين الفتاة شائبة، ولعل العيب الوحيد في مظهرها كان ندبة حمراء على عنقها.

قالت الفتاة وهي تحدّق في مستخدم البوفيه بعينين خضراوين فاجرتين:

- هيا ادخل ما دمت قد قرعت الجرس!

تأوّه أندريه فوكيتش وغمز بعينيه، ثم خلع قبعته وخطا إلى الردهة. وفي هذه اللحظة تماماً رنّ الهاتف في الردهة. رفعت الخادمة العديمة الحياء السماعة، واضعةً إحدى قدميها على كرسي، وقالت:

- ألو!

لم يدرِ مستخدم البوفيه أين يداري عينيه، فأخذ ينقل ثقله من رجل إلى أخرى ويقول في سرّه: «يا لخادمة هذا الأجنبي! يا للدناءة، تفو!» وراح ينظر جانباً للتخلّص من هذه الدناءة.

كانت الردهة الواسعة وشبه المعتمة مليئة إلى آخرها بملابس وأغراض غير عادية. فعلى مسند الكرسي عباءة سوداء مبطّنة بقماش ناريّ اللون، وعلى درفة المرآة يستلقي سيف طويل ذو مقبض ذهبي لامع، وكانت هناك ثلاثة سيوف فضية المقابض مركونة في ركن بمنتهى البساطة، وكأنها مظلات أو عكاكيز تافهة، كما كانت هناك «بيريهات» عليها ريش نسور، معلّقة على قرون الأيل.

قالت الخادمة عبر الهاتف:

- نعم، من؟ البارون ميغيل؟ أسمعك. نعم، السيد الفنان في البيت اليوم. نعم، ستسعده رؤيتك. نعم، ضيوف... بذلة رسمية أو سترة سوداء. ماذا؟ في الحادية عشرة ليلاً.

بعد أن أنهت الخادمة المكالمة وضعت السمّاعة وقالت مخاطبةً موظف البوفيه:

- ماذا تريد؟

- لا بدّ لي من مقابلة المواطن الفنان.

- ماذا؟ مقابلته هو شخصياً؟

- نعم، - أجاب موظف البوفيه في كآبة.

- سأسأله، - قالت الخادمة بتردد، فيما يبدو، وفتحت باب مكتب المرحوم بِرلُوز وقالت: - أيها الفارس، حضر شخص ضئيل يقول إنه يريد مقابلة السيد.

- دعيه يدخل، - دوّى من المكتب صوت كوروفييف المنهك.

- اعبر إلى غرفة الاستقبال، - قالت الفتاة بمنتهى البساطة، وكأنها ترتدي ملابس «مثل العالم والناس»، وفتحت باب غرفة الاستقبال، ثم غادرت الردهة.

بعد دخوله إلى حيث دُعي نسي موظف البوفيه حتى المسألة التي

جاء من أجلها لشدة ما صعقه أثاث الغرفة. فمن خلال زجاج النوافذ الصغيرة الملون (وهذا من «فنطزات» زوجة الصائغ التي اختفت دون أثر) كان ينبعث ضوء غير عادي شبيه بأضواء الكنائس. وكان الحطب يتوهج في الموقد القديم الضخم، رغم حرارة هذا النهار الربيعي. لكنّ جو الغرفة لم يكن حارّاً على الإطلاق بل، على العكس، كانت رطوبة كرطوبة الأقبية تغشى الداخل. وكان يجلس على فروة نمر، أمام الموقد، قط أسود يرنو إلى النار بوداعة. كما كانت هناك طاولة خشع قلب موظف البوفيه لمرآها، فقد كانت مغطاة بديباج كنسي، وعلى الغطاء عدد كبير من زجاجات يعلوها العفن والغبار، وبين الزجاجات كان يلمع صحن، وكان يُرى فوراً أنّ الصحن من الذهب الخالص. وكان قرب الموقد رجل أصهب ضئيل الحجم، على حزامه خنجر، يشوي قطعة لحم مغروزة بشيش فولاذي طويل، وعُصارة اللحم تقطر في النار، والدخان يتصاعد من المدخنة. ولم يكن المكان يفوح برائحة الشواء فقط بل كذلك بروائح نفّاذة أخرى وبرائحة البخور، ما جعل موظف البوفيه، الذي علم بمقتل بِرلُوز وبمكان إقامته من الصحف، يظن أنّ الكنيسة ربما تقيم قدّاساً على روح بِرلُوز، لكنه طرد هذه الفكرة من رأسه في الحال لسخافتها الجلية.

فجأةً سمع موظف البوفيه المصعوق صوتاً جهورياً غليظاً يسأله:

- وإذاً، فيمَ يمكنني أن أخدمك؟

هنا عثر موظف البوفيه على من هو بحاجة إليه.

كان الساحر الأسود مستلقياً على أريكة واسعة تناثرت عليها الوسائد، ولم يكن يرتدي، كما بدا لموظف البوفيه، سوى ملابس داخلية سوداء وخفّين أسودين مدبّبي الرأس.

بدأ موظف البوفيه يقول بحزن:

- أنا مدير بوفيه مسرح «الفاريتيه»...

مدّ الفنان يده، التي لمعت حجارة كريمة في أصابعها، كأنه يغلق فم مدير البوفيه، وشرع يقول بحرارة شديدة:

- لا، لا، لا، ولا كلمة أخرى! قطعاً وأبداً! لن أضع شيئاً من مقصفك في فمي! فقد مررت البارحة بـ«كونتوار» مقصفك يا موقّر، ولست قادراً حتى الآن على نسيان اللحم والجبن. فالجبن، يا عزيزي، لا يكون أخضر اللون. لقد غشّك أحدهم، فالمفروض به أن يكون أبيض اللون. أما الشاي! هذا ليس شاياً بل غُسالة![1] فقد رأيت بأم عيني فتاة قذرة مهمِلة تسكب ماءً غير مغلي في سماوركم الضخم، ومع ذلك تابعتم سكب الشاي منه. لا يا عزيزي، هذا لا يجوز!

أخذ أندريه فوكيتش، الذي صعقته هذه المباغتة، يقول:

- العفو، لم آتِ لهذا الأمر، ولا شأن للّحم هنا.

- كيف لا شأن له إذا كان فاسداً!

فقال مدير المقصف:

- لقد أرسلوا لنا لحماً قليل الطزاجة.

- هذا هراء يا عزيزي!

- وأين الهراء؟

- قليل الطزاجة، هنا الهراء! فاللحم إما أن يكون طازجاً أو لا. وإذا كان اللحم قليل الطزاجة فمعناه أنه فاسد!

- أعتذر، - بدأ مدير البوفيه يقول ثانيةً وهو لا يدري كيف يتملّص من هذا الفنان المشاكس.

---

(١) الغُسالة هي المياه المتبقية عن غسيل الملابس.

- لا يمكنني أن أعذرك، - قال الفنان بحزم.

- لم آتِ هنا لهذا الأمر، - قال مدير البوفيه الذي تبلبل نهائياً.

- لم تأتِ لهذا الأمر؟ - سأل الساحر الأجنبي بدهشة، - فأيّ أمرٍ آخر إذاً قد يأتي بك إليّ؟ إذا لم تخنّي ذاكرتي، من الأشخاص الذين يشاطرونك المهنة لم أتعرّف سوى إلى امرأة كانت تموّن الجيش، وكان هذا قبل زمنٍ بعيد، قبل ولادتك حتى. أنا سعيد بالمناسبة. أزازيلو! كرسيّاً للسيد مدير البوفيه!

التفت الشخص الذي كان يشوي اللحم، والذي روّع مدير المقصف بنابه، وناوله بخفّة أحد الكراسي الواطئة الداكنة اللون المصنوعة من خشب البلوط، إذ لم تكن في الغرفة مقاعد غيرها.

- لك عميق شكري، - غمغم مدير البوفيه وتهالك على الكرسي، فانكسرت قائمة الكرسي الخلفية في الحال مصدرةً قرقعة، فتأوّه المدير وسقط بقوة على الأرض، وأثناء سقوطه صدم كرسياً آخر برجله فأراق على بنطاله كأساً ملأى بالنبيذ كانت على الكرسي.

- آي! هل تأذيت؟ - صاح الفنان.

ساعد أزازيلو مدير البوفيه على النهوض وقدّم له مقعداً آخر. وبصوتٍ مليءٍ بالمرارة رفض مدير البوفيه اقتراح صاحب البيت عليه بخلع بنطاله وتجفيفه أمام النار، وجلس على المقعد الآخر بحذر، مبلل الثياب، وهو يشعر بحرجٍ لا يُطاق.

أخذ الفنان يقول:

- أحب المقاعد الواطئة، فالسقوط عنها ليس بهذه الخطورة. وإذاً، كنا نتكلم عن اللحم! يا عزيزي، الطزاجة فالطزاجة فالطزاجة، هذا ما يجب أن يكون شعار أي مدير مقصف. بالمناسبة، هل ترغب في تذوّق...

وهنا لمع الشيش على ضوء الموقد الأحمر أمام مدير المقصف، ووضع أزازيلو قطعة لحم تنشّ في الصحن الذهبي، وسكب عليها عصير الليمون، وقدّم لمدير المقصف شوكة ذهبية ذات سنّين.

- شكراً جزيلاً... أنا...

- لا، لا، تذوّقها!

وضع مدير المقصف قطعة لحم صغيرة في فمه من باب اللباقة، فأدرك على الفور أنه يمضغ شيئاً طازجاً جداً حقاً ولذيذاً بصورة غير عادية فوق هذا. لكنّ مدير المقصف كاد أن يقع على الأرض ثانيةً وهو يلوك اللحم الغضّ المعطَّر. ومن الغرفة الأخرى طار طائرٌ كبير داكن اللون ولمس بجناحه صلعة مدير المقصف. وحين حطّ الطائر على رفّ الموقد بجوار الساعة تبيّن أنه بومة. «يا إلهي! يا لها من شقّة!» فكّر أندريه فوكيتش العصبي المزاج كغيره من مدراء المقاصف.

- كأس نبيذ؟ أبيض أم أحمر؟ نبيذ أيّ بلدٍ تفضّل في هذا الوقت من النهار؟

- عميق شكري... أنا لا أشرب...

- عبثاً لا تشرب! لعلك ترغب في اللعب بالكعاب[1]؟ أو لعلك تفضّل ألعاباً أخرى، الدومينو، الورق؟

- أنا لا ألعب، - رفض مدير المقصف وقد شعر بالإنهاك.

فاختتم المضيف كلامه قائلاً:

- هذا سيئ تماماً. هناك شيء ما خبيث يكمن في نفوس الرجال الذين يتجنّبون النبيذ واللعب وعِشرة النساء الفاتنات والأحاديث حول الطاولة. هؤلاء الناس إما مصابون بمرضٍ عضال أو أنهم يكرهون مَنْ

(١) لعبة تتم بعظام الحيوانات باستخدام حجارة النرد.

حولهم في سرّهم. والحقيقة أنّ هناك استثناءات. فبين الذين جلسوا معي إلى المائدة صودف أوغاد مدهشون أحياناً! وإذاً، أخبرني بقضيتك. أنا مصغٍ.

- بالأمس تكرّمت بالقيام بألعاب خفّة...

- أنا؟ العفو، هذا لا يليق بي حتى! - صاح الساحر في ذهول.

- العفو، - قال مدير المقصف مبهوتاً، - تكرّمت بتقديم عرض في السحر الأسود...

- آخ، نعم، نعم! يا عزيزي! سأفشي لك سرّاً: أنا لست فناناً على الإطلاق، بل أردت وحسب رؤية حشد من الموسكوفيين، وكان الأسهل القيام بذلك في المسرح. وهكذا قامت حاشيتي هذه - وأومأ برأسه باتجاه القط - بإعداد هذا العرض، في حين اكتفيت بالجلوس ومشاهدة الموسكوفيين. لا يمتقعنَّ وجهك، وقل لي: ما الشيء المرتبط بهذا العرض الذي دفعك للمجيء إليّ؟

- لعلك رأيت، من بين أشياء أخرى، الأوراق المتطايرة من السقف، - هنا أخفض مدير المقصف صوته وتلفّت حوله في حيرة، - وقد تخاطفها الجميع. وإذا بشاب يأتيني إلى المقصف فيعطيني «تشرفونتس» فأرجعت إليه ثمانية روبلات... ثم جاءني آخر.

- شاب أيضاً؟

- لا، كبير في السنّ. فثالث، فرابع. وأنا أعيد لهم الباقي. واليوم، حين عاينت الصندوق إذا بي أرى أوراقاً مقطّعة بدلاً من المال. لقد تمّ تغريم المقصف بمئة وتسعة روبلات.

- آي ياي ياي!.- هتف الفنان، - هل اعتقدوا فعلاً أنها أوراق مالية حقيقية؟ لا أعتقد أنهم قد تعمّدوا ذلك.

أخذ مدير المقصف يتلفّت حوله بكآبة، لكنه لم يقل شيئاً. فسأل الساحر ضيفه بقلق:

- أيُعقل أن يكونوا نصّابين؟ أيُعقل أن يكون هناك نصّابون بين الموسكوفيين؟

ابتسم مدير المقصف بمرارة ردّاً على ذلك بحيث انتفى كل شك:

- نعم، يوجد نصّابون بين الموسكوفيين.

- هذه دناءة! فأنت إنسان فقير... أولست فقيراً؟ - قال فولند ساخطاً.

دسّ مدير المقصف رأسه بين كتفيه بحيث صار واضحاً أنه فقير.

- كم لديك من المدّخرات؟

طُرح السؤال بنبرة متعاطفة لكن، رغم ذلك، لا يمكن اعتباره سؤالاً لائقاً.

ارتبك مدير المقصف.

- مئتان وتسعة وأربعون ألف روبل في خمسة صناديق توفير، - ردّ صوتٌ متهدّج من الغرفة المجاورة، - وهناك مئتا قطعة ذهبية من فئة العشرة روبلات تحت أرضية الغرفة.

بدا مدير المقصف كأنه يغلي فوق كرسيه. فقال فولند لضيفه بتواضع:

- هذا مبلغٌ تافه بالطبع، رغم أنك لست بحاجة إليه بالمناسبة. متى سوف تموت؟

وفي الحال انتفض مدير المقصف وأجاب:

- لا أحد يعرف هذا، ولا شأن لأحد بذلك.

- هل لا أحد يعرف هذا حقاً! - سُمع الصوت الكريه ذاته من

المكتب، - يظنّها نظرية نيوتن! سوف يموت بعد تسعة أشهر، في شباط من العام القادم، من سرطان الكبد في مستشفى المعهد الأول التابع لجامعة موسكو الحكومية، في العنبر الرابع.

اصفرّ وجه مدير المقصف، وراح فولند يحسب وهو مستغرق في التفكير:

- تسعة أشهر... مئتان وتسعة وأربعون ألفاً... أي قرابة سبعة وعشرين ألفاً في الشهر؟ هذا قليل لكنه كافٍ لمعيشة متواضعة. فضلاً عن القطع الذهبية.

- لا مجال لعمل شيء بالقطع الذهبية، - تدخّل ذاك الصوت ذاته، باعثاً القشعريرة في قلب مدير المقصف، - إذ سيُهدم البيت فور موت أندريه فوكيتش، وسيتم إرسال القطع الذهبية إلى المصرف الحكومي.

- كما أني لا أنصحك بدخول المستشفى - تابع الفنان - إذ ما جدوى الموت في عنبر على أنين وحشرجات مرضى ميئوس منهم. أليس الأفضل إقامة مأدبة بهذه السبعة والعشرين ألفاً، ومن ثم تناول السمّ والانتقال إلى الآخرة على أنغام الأوتار، محاطاً بحسناوات ثملات وأصدقاء مقدامين؟

كان مدير المقصف جالساً دون حراك وقد شاخ كثيراً. فقد ارتسمت حول عينيه دوائر قاتمة، وتهدّلت وجنتاه، وارتخى فكّه السفلي.

قال فولند صائحاً:

- على كلٍّ، لقد استرسلنا في الأحلام. إلى العمل. أرني إحدى قُصاصات الورق.

أخرج مدير المقصف، في اضطراب، رزمةً من جيبه وفكّها فجمد

مكانه، فداخل ورقة الجريدة كانت هناك أوراق مالية. فقال فولند هازّاً كتفيه:

- أنت مريض حقاً يا عزيزي.

نهض مدير المقصف عن المقعد وهو يبتسم بوحشية، وأخذ يقول وهو يثأثئ:

- و... وإذا عادت ثانيةً كما كانت...

- هممم... - استغرق الفنان في التفكير، - حينئذٍ تعالَ إلينا ثانيةً. تكرّم علينا بفضلك! سُررنا بالتعرّف إليك.

وفي هذه اللحظة خرج كوروفييف مندفعاً من المكتب، فأمسك بيد مدير المقصف وراح يهزّها راجياً أندريه فوكيتش تبليغ تحياته للجميع. ثم اتجه مدير المقصف نحو المخرج وهو يكاد لا يفقه شيئاً.

- شيّعيه يا غيللا! - صاح كوروفييف.

مرةً أخرى ظهرت تلك الصهباء العارية في الردهة! شقّ مدير المقصف طريقه نحو الباب وصأصأ «إلى اللقاء» وغادر كالسكران. بعد أن نزل الدرج قليلاً توقّف وجلس على إحدى الدرجات وأخرج الرزمة وفحصها: كانت الأوراق المالية على حالها.

في هذه اللحظة خرجت من الشقة المفضية إلى فسحة الدرج امرأة بيدها حقيبة خضراء، وحين رأت شخصاً جالساً على الدرج يرمق الأوراق المالية ببلاهة ابتسمت وقالت في شرود:

- يا لعمارتنا هذه! وهذا سكران منذ الصباح، وقد كسر زجاج نافذة الدرج، - وبعد أن أمعنت النظر إلى مدير المقصف أردفت تقول: - هيه يا مواطن، لديك «تشرفونتسات» لا عدّ لها. لو نتقاسمها! هه؟

- دعيني وشأني بحق المسيح، - قال مدير المقصف فزعاً، وخبّأ المال ثانيةً. فانفجرت المرأة بالضحك وقالت:

- لتأخذك العفاريت يا بخيل! كنت أمزح، - ومضت نازلةً.

نهض مدير المقصف ببطء ورفع يده ليسوّي قبعته ففوجئ بأنها ليست على رأسه. لم يكن يرغب في العودة إلى حدّ الهلع، لكنه شعر بالأسف على قبعته. وبعد شيءٍ من التردّد عاد، رغم ذلك، وقرع الجرس.

- ماذا تريد أيضاً؟ - سألته غيللا اللعينة.

- نسيت قبعتي، - همس مدير المقصف مشيراً إلى صلعته.

استدارت غيللا، فبصق مدير المقصف في سرّه وأغمض عينيه. وحين فتحهما ناولته غيللا قبّعته وسيفاً أسود المقبض.

- إنه ليس لي، - تمتم مدير المقصف، مبعداً السيف بيده، وهو يرتدي قبعته بسرعة.

- وهل جئتنا من دون سيف؟ - سألت غيللا بدهشة.

غمغم مدير المقصف بشيءٍ ما وهرع ينزل الدرج. ولسببٍ ما لم يكن رأسه مرتاحاً وشعر بحرارة شديدة من جرّاء القبعة، فخلعها فصرخ بصوتٍ خافت وهو يقفز من الهلع. كانت في يده «بيريه» مخملية بريشة ديك مهلهلة. رسم مدير المقصف علامة الصليب. وفي هذه اللحظة ماءت «البيريه» وتحوّلت إلى قطيط أسود وثب إلى رأس أندريه فوكيتش وتشبّث بصلعته بمخالبه كلها. أطلق مدير المقصف صرخةً يائسة وانطلق يعدو إلى الأسفل، بينما قفز القطيط عن رأسه وانطلق يصعد الدرج.

بعد خروجه إلى الهواء الطلق ركض أندريه فوكيتش مسرعاً نحو الباب الخارجي وغادر المبنى رقم ٣٠٢ مكرّر اللعين إلى الأبد.

معروف جيداً ماذا جرى له لاحقاً. فبعد خروجه من البوابة أخذ مدير المقصف يتلفّت حوله بوحشية كمن يبحث عن شيء ما. وفي دقيقة كان في صيدلية على الجانب الآخر من الشارع. ولم يكد يقول: «أخبريني من فضلك...» حتى صاحت المرأة من وراء منصّة البيع:

- رأسك كله مخدوش يا مواطن!...

وبعد خمس دقائق كان رأس مدير المقصف ملفوفاً بالشاش. وبات يعرف أنّ أفضل اختصاصيين في أمراض الكبد هما البروفيسوران بيرنادسكي وكوزمين، فسأل أيهما أقرب، وطار من الفرح حين علم أن كوزمين يقيم في دارٍ بيضاء صغيرة تفصلها عنه بناية واحدة فقط، وخلال دقيقتين كان في تلك الدار. كانت الدار قديمة لكنها مريحة جداً. يتذكّر مدير المقصف أنّ أول شخص وقعت عليه عيناه كان مربيّة عجوز أرادت أخذ قبعته، لكن لمّا كان بلا قبعة فقد مضت العجوز إلى مكانٍ ما وهي تمضغ بفمها الخالي.

ثم ظهرت مكانها عند المرآة، أسفل قوسٍ ما كما بدا له، امرأة متوسطة العمر، وقالت له فوراً إنّ بإمكانه تسجيل اسمه في الثاني والعشرين من الشهر، وليس قبل ذلك. فطن مدير المقصف في الحال إلى مكمن خلاصه، فرنا بعينين ذابلتين إلى ما وراء القوس، حيث كان ينتظر ثلاثة أشخاص في ما بدا غرفة مدخل، وهمس:

- أنا مريض جداً...

رنت المرأة إلى رأس مدير المقصف المضمّد في حيرة، وقالت بعد شيءٍ من التردّد:

- لا بأس... - وسمحت لمدير المقصف باجتياز القوس.

في اللحظة ذاتها فُتح الباب المقابل، ولمعت فيه نظارة أنفية، وقالت امرأة ترتدي مئزراً أبيض:

- أيها المواطنون، سيدخل هذا المريض بلا دور.

ولـم يكـد الـمريض يلتفت حتى كان في مكتب البروفيسور كوزمين. لم يكن هناك ما هو مخيف ومهيب وطبّي في هذه الغرفة المستطيلة.

- ما بك؟ - سأل البروفيسور بصوتٍ لطيف، ونظر بشيءٍ من القلق إلى الرأس المضمّد.

أجاب مدير المقصف وهو ينظر بشراسة إلى صورة جماعية خلف الزجاج:

- علمت لتوي من مصادر موثوقة أنني سأموت في شباط العام القادم من سرطان الكبد. اِمنع هذا الأمر أتوسّل إليك.

فور جلوس البروفيسور كوزمين ألقى بثقله على مسند الأريكة القوطية الجلدية وسأل المرض:

- عفواً، لكني لا أفهمك... ماذا، هل كنت عند طبيب؟ لمَ رأسك مضمّد؟

- أيّ طبيبٍ هذا؟... لو أنك فقط رأيت هذا الطبيب!... - قال مدير المقصف، واصطكّت أسنانه فجأةً. - أما رأسي فلا تعره بالاً، إذ لا شأن له هنا، دعك من رأسي، فلا علاقة له. أوقف سرطان الكبد أرجوك.

- عفواً، من قال لك ذلك؟

- صدّقه، فهو يعرف. - توسّل مدير المقصف بحرارة.

- لستُ أفهم شيئاً، - قال البروفيسور وهو يهزّ كتفيه ويبتعد عن الطاولة مع مقعده، - كيف له أن يعرف متى ستموت، لا سيما أنه ليس طبيباً!

- في العنبر الرابع، - أجاب مدير المقصف.

وهنا راح البروفيسور ينظر إلى مريضه، وإلى رأسه، وإلى بنطاله المبلل، وقال في سرّه: «هذا ما كان ينقصني! مجنون!»، ثم سأل:

- هل تشرب الفودكا؟

- لم ألمسها يوماً، - أجاب مدير المقصف.

بعد دقيقة كان المريض يستلقي على سرير من المشمّع وقد تجرّد من ملابسه، والبروفيسور يدلّك بطنه. وهنا ينبغي القول إنّ مدير المقصف كان مبتهجاً جداً. وقد أكّد له البروفيسور بصورة قاطعة عدم وجود أيّ مؤشرات إلى إصابته بالسرطان، في الوقت الراهن على الأقل. لكن مادام خائفاً إلى هذا الحد، ومادام مشعوذٌ ما قد أفزعه إلى هذه الدرجة، فلا بدّ من إجراء كافة التحاليل... وشرع البروفيسور يكتب على أوراق ما، شارحاً له أين يذهب، وماذا عليه أن يأخذ معه. كما أعطاه رسالة قصيرة موجّهة إلى أخصائي الأمراض العصبية البروفيسور بورا، موضحاً لمدير المقصف أنّ أعصابه مشوّشة تماماً.

- كم تريد يا بروفيسور؟ - سأل مدير المقصف بصوتٍ رقيق راعش وهو يُخرج محفظته السميكة.

- المبلغ الذي تريد، - أجاب البروفيسور بجفاءٍ وإيجاز.

تناول مدير المقصف ثلاثين روبلاً ووضعها على الطاولة، ثم وضع بخفّة فجأةً، وكأنّ يده بُرثن قطّ، «التشرفونتسات» الملفوفة في ورقة جريدة أيضاً. فسأله كوزمين وهو يفتل شاربه:

- وما هذا؟

- لا تشعر بالحرج أيها المواطن البروفيسور، أوقف السرطان أتوسّل إليك. - قال مدير المقصف هامساً.

- أبعد ذهبك في الحال. - قال البروفيسور بعزّة نفس، -

الأفضل أن تعتني بأعصابك. أَجرِ تحليل بول غداً، لا تشرب الكثير من الشاي، وليكن طعامك بلا ملح كلياً.

- حتى الحساء بلا ملح؟ - سأل مدير المقصف.

- لا تملّح شيئاً - أمره كوزمين.

- أففف!... - هتف مدير المقصف متأففاً وهو ينظر إلى البروفيسور بتأثّر، ثم جمع قطعه الذهبية وتراجع نحو الباب ناكصاً على عقبيه.

لم يكن عدد مرضى البروفيسور كبيراً ذلك المساء، وغادر آخرهم قبل الغروب. رنا البروفيسور، وهو يخلع مئزره، إلى حيث ترك مدير المقصف «التشرفونتسات» فلم يرَ أيّ «تشرفونتسات»، بل ثلاث لُصاقات زجاجات نبيذ «أبراو دورسو» مكانها.

- الشيطان وحده يعلم ما هذا! - غمغم كوزمين وهو يجرجر مئزره على الأرض ويتحسّس الأوراق، - يبدو أنه ليس مصاباً بالفُصام فحسب بل ونصّاب أيضاً! لكنني لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يريد مني؟ هل يُعقل أنه أراد وصفة لتحليل البول؟ أوه، لقد سرق معطفاً! - واندفع إلى الردهة ويده لا تزال في كمّ المئزر، وصرخ في باب غرفة المدخل بصوتٍ حاد: - يا كسينيا نيكيتشينا! انظري ما إذا كانت المعاطف كلها موجودة؟

تبيّن أنّ المعاطف سليمة. لكن، بالمقابل، حين عاد البروفيسور، خالعاً مئزره أخيراً، جمد مكانه وكأنه انغرس في السجادة قرب الطاولة، وقد تسمّرت عيناه على الطاولة. فحيث كانت اللصاقات موضوعةً كان يجلس قطيط شريد أسود بائس السحنة يموء فوق صحن فيه حليب.

- وهذا ما هو؟! هذا... - وشعر بالبرودة تسري في قذاله.

هرعت كسينيا نيكيتشينا على صرخة البروفيسور الخافتة والشاكية، فهدّأت من روعه قائلةً إنّ أحد المرضى قد ألقى بالقطيط هنا دون شك، وإنّ هذا يحدث كثيراً عند الأطباء. وراحت كسينيا نيكيتشينا تشرح له:

- هم فقراء على الأرجح، أما عندنا فطبعاً...

راحا يفكّران ويخمّنان: من بوسعه ترك قط هنا يا تُرى؟ ووقعت الشبهة على عجوزٍ مصابة بقرحة في المعدة. وقالت كسينيا نيكيتشينا:

- بالطبع هي فكّرت على النحو التالي: لسوف أموت في كلّ الأحوال، لكنني أشفق على القط.

صرخ كوزمين:

- لكن عفواً، فماذا عن الحليب؟! هل جلبت الحليب أيضاً؟ وماذا عن الصحن؟!

فأخذت كسينيا نيكيتشينا تشرَح:

- لعلها جلبته في كيس وسكبته في الصحن هنا.

- على أي حال، خذي القط والصحن من هنا، - قال كوزمين وشيّع كسينيا نيكيتشينا بنفسه حتى الباب. لكن حدث شيء آخر حين عاد.

حين كان البروفيسور يعلّق مئزره على مسمار سمع أحدهم يضحك في فناء المبنى، فألقى نظرة، وكان من الطبيعي أن يشعر بالذهول. فقد رأى سيدة لا يستر جسدها سوى قميص تهرع مسرعةً إلى الجناح المقابل عبر الفناء. بل وكان البروفيسور يعرفها، فقد كانت ماريّا ألكسندروفنا. أما الضحك فكان للولد.

- ما هذا الذي يحدث؟ - قال كوزمين في اشمئزاز.

في هذه اللحظة، خلف الجدار، في غرفة ابنة البروفيسور، كان حاكٍ يصدح بترنيمة «هللويا»، وفي اللحظة ذاتها سمع البروفيسور زقزقة عصفور خلفه، فالتفت فرأى عصفوراً ضخماً يتقافز على طاولته.

«هممم... برويّة... لقد دخل حين ابتعدت عن النافذة. كل شيء على ما يرام»، - قال البروفيسور لنفسه، شاعراً أنْ ما من شيء على ما يرام مطلقاً، وخاصةً بسبب هذا العصفور بالطبع. فقد أيقن فوراً، بعد أن أمعن النظر، أنه ليس عصفوراً عادياً على الإطلاق. فقد كان العصفور المقيت يعرج على قائمته اليسرى مجرجراً إياها بإيقاع منتظم وهو يتمايل بوضوح. باختصار: كان العصفور يرقص على أنغام الحاكي، كسكرانٍ في حانة. وقد شاغب العصفور ما وسعه، رامقاً البروفيسور بوقاحة. كانت يد كوزمين على الهاتف، وهمّ أن يتّصل بخرّيج دفعته بوريه ليسأله عمّا يعنيه هذا النوع من العصافير في سنّ الستين، خاصةً إذا بدأ يشعر بدوار فجأةً.

في هذه الأثناء حطّ العصفور على المحبرة المهداة إليه وزرق فيها (لست أمزح) ثم طار إلى أعلى وظلّ معلّقاً في الجو، وبعد ذلك نقر زجاج الصورة التي تمثّل كلّ خرّيجي عام ٩٤، فحطّمه شظايا بضربةٍ واحدة، كما لو أنّ منقاره من الفولاذ، ثم انطلق خارجاً من النافذة. أدار البروفيسور رقماً لكنه، بدلاً من الاتصال ببوريه، اتّصل بمكتب الحِجامة وقال لهم إنّ البروفيسور كوزمين هو من يكلّمهم، ويطلب إرسال محجمٍ إلى منزله في الحال.

بعد أن وضع البروفيسور السمّاعة استدار باتجاه الطاولة ثانيةً فأطلق صرخةً على الفور. فقد كانت تجلس إلى هذه الطاولة ذاتها امرأة من «ملائكة الرحمة» تضع خِماراً وبيدها حقيبة كُتب عليها «محجم». وحين نظر البروفيسور إلى فمها صرخ ثانيةً، فقد كان كأفواه

الرجال، مائلاً وممتداً حتى الأذنين وفيه ناب. كانت عينا الأخت ميتتين.

قالت الأخت بصوتٍ رجوليٍّ فظّ:

- سآخذ المال، إذ لا جدوى من تبعثره هنا. - ثم جرفت اللصاقات بيدها الشبيهة بقائمة الطير وأخذت تتبخّر في الجو.

مرّت ساعتان. كان البروفيسور كوزمين جالساً على سريره في غرفة النوم، وعَلَق الحجامة ملتصق بصدغيه وخلف أذنيه وعلى رقبته. وكان يجلس على شرشفٍ حريري مضغوط، عند قدمي كوزمين، البروفيسور بوريه الأشيب الشاربين، وهو يرنو إلى كوزمين بتعاطف ويهدّئ من روعه بأنّ هذا كله هراء. وكان الليل قد حلّ خارج النافذة.

أما ما حدث بعد ذلك من أمور غريبة في موسكو في تلك الليلة، فإننا لا نعرف ولن نسعى إلى معرفته بالطبع، لا سيما أنّ أوان الانتقال إلى الجزء الثاني لهذه الرواية الصادقة قد حان، فهيّا بنا أيها القارئ!

الجزء الثاني

الفصل التاسع عشر

مرغريتا

اتبعني أيها القارئ! من قال لك إن الحب الحقيقي الصادق الخالد لا وجود له في الدنيا؟ ألا فليُقطع لسان الكاذب اللئيم!

اتبعني يا قارئي، اتبعني أنا فقط، وسوف أريك حبّاً كهذا!

لا ، كان المعلّم مخطئاً حين قال بمرارة لإيفانوشكا في المستشفى، عندما كان الليل يكاد ينتصف، إنها قد نسيته. هذا لم يكن ممكناً، فهي لم تنسه بالطبع.

تعالوا، بادئ ذي بدء، نكشف السر الذي لم يرغب المعلم في كشفه لإيفانوشكا. كان اسم محبوبته هو مرغريتا نيكولاييفنا، وكان كل ما قاله المعلم عنها حقيقة خالصة، وقد وصف حبيبته وصفاً صادقاً؛ فقد كانت جميلة وذكية. ولا بدّ من إضافة شيء آخر إلى ذلك: يمكن القول بثقة إنّ الكثير من النساء كنّ ليبذلن الغالي والنفيس لاستبدال حياة مرغريتا نيكولاييفنا بحياتهن. كانت مرغريتا ذات الثلاثين سنة، والتي لا أبناء لها، زوجة أخصائي كبير جداً، فضلاً عن قيامه باكتشاف بالغ الأهمية يخصّ الدولة. كان زوجها شاباً وسيماً طيباً شريفاً، وكان يعبد زوجته. وكانا يشغلان مجمل الطابق العلوي لدار رائعة وسط حديقة في زقاق على مقربة من شارع أربات. مكان ساحر! وبإمكان

أيّ كان التأكد من ذلك لو أراد زيارة تلك الحديقة. وليأتِ إليّ وسأعطيه العنوان وأدلّه على الطريق؛ فالدار مازالت على حالها حتى الآن.

مرغريتا نيكولاييفنا لم يكن يعوزها المال وكان بوسعها شراء كل ما يعجبها. وكان يصدف وجود أناس مثيرين للاهتمام بين معارف زوجها. لم تلمس مرغريتا نيكولاييفنا وابور الكاز يوماً، ولم تعرف ويلات العيش في شقة مشتركة. باختصار... هل كانت سعيدة؟ ولا للحظة واحدة! فمنذ أن تزوجت، هي ذات التسعة عشر ربيعاً، ووجدت نفسها في هذه الدار، لم تعرف طعم السعادة. أيتها الآلهة! يا آلهتي! ما الذي كانت هذه المرأة بحاجة إليه؟! ماذا ينقص هذه المرأة التي يتّقد بريق غير مفهوم في عينيها دائماً؟ ماذا ينقص هذه المرأة المائلة العين بعض الشيء، التي كانت تتجمّل بالسنّط[1] في الربيع آنذاك؟ لا أدري. لا علم لي. جليٌّ أنها كانت تقول الحقيقة، كانت بحاجة إليه هو، المعلّم، وليس المنزل القوطي قطعاً، ولا الحديقة المستقلة، ولا المال. كانت تحبّه، وكانت تقول الحقيقة. حتى أنا - الراوي الصادق والإنسان المحايد - ينقبض قلبي حين أفكّر في ما كابدته مرغريتا حين جاءت إلى بيت المعلم في اليوم التالي، قبل أن يتسنّى لها - لحسن الحظ - التحدّث إلى زوجها الذي لم يعد في الوقت المحدد، وعرفت باختفاء المعلم.

لقد فعلت كل شيء لتعرف عنه أيّ شيء، لكنها لم تعرف عنه شيئاً بالطبع. حينئذٍ عادت إلى بيتها واستأنفت حياتها السابقة.

كانت مرغريتا تقول لنفسها في الشتاء وهي جالسة عند المدفأة

---

(١) نبتة «الستّ المستحية».

تحدّق في النار: «نعم، نعم، نعم، إنه ذاك الخطأ نفسه! لمَ تركته في تلك الليلة وغادرت؟ لماذا؟ فهذه حماقة! لقد عدت في اليوم التالي، كما وعدته بشرفي، لكنّ الوقت كان قد فات. نعم، عدت متأخرة كثيراً، مثل متّى اللاوي الشقيّ!»

كانت هذه الكلمات كلها هراء بالطبع، إذ ماذا كان ليتغير حقاً لو أنها بقيت عند المعلم في تلك الليلة؟ هل كانت لتنقذه؟ كنّا سنهتف: هذا مضحك! لكننا لن نفعل ذلك أمام امرأةٍ بلغت حافة اليأس.

كابدت مرغريتا نيكولاييفنا عذابات كهذه طوال الشتاء، إلى أن حلّ الربيع. وفي اليوم الذي جرى فيه كلّ الهرج والمرج الذي أثاره ظهور الساحر في موسكو، في يوم الجمعة عندما طُرد عم برلوز ليعود أدراجه إلى كييف، وحين اعتُقل المحاسب وجرت كذلك جملة أمور أخرى بمنتهى الغباء والغموض، استيقظت مرغريتا قرابة الظهيرة في مخدعها الذي تطلّ نافذته على برج الدار.

لم تبكِ مرغريتا عند استيقاظها، كما تفعل عادةً، لأنها استيقظت شاعرةً بأنّ شيئاً ما سوف يحدث في نهاية المطاف. فراحت تعزّز هذا الشعور وتنمّيه خشية أن يغادرها.

همست مرغريتا في ظَفَر: أنا على يقين من حدوث شيءٍ ما! ولا يمكنه إلاّ أن يحدث، إذ لماذا حقاً كُتب عليّ الشقاء في الحياة؟ أقرّ بأني كذبت وخدعت وعشت حياةً سرية خفيّة عن الناس، لكن، مع ذلك، لا تجوز معاقبتي بهذه القسوة لقاء ذلك. سيحدث شيء ما حتماً لأنّ ما من شيء يدوم إلى الأبد. فضلاً عن أني على يقين من أنّ حلمي كان نبوئياً.

كانت مرغريتا نيكولاييفنا تهمس لنفسها على هذا النحو رانيةً إلى

الستائر الأرجوانية المغمورة بنور الشمس، وهي ترتدي ثيابها باضطراب وتمشّط شعرها الأجعد القصير أمام المرآة المضلّعة.

كان الحلم الذي راود مرغريتا في تلك اليلة حلماً غير عادي بالفعل. فهي لم ترَ المعلّم في أحلامها قط طوال فترة عذاباتها الشتوية، فقد كان يدعها وشأنها في الليل، وكانت تتعذّب في ساعات النهار فقط. أما اليوم فقد حلمت به.

رأت مرغريتا في منامها مكاناً مجهولاً، مقفراً وكئيباً، تحت سماء الربيع المبكر الغائمة، ورأت سرباً صامتاً من الغربان يحلّق في تلك السماء الرمادية المتراكضة، ورأت جسراً متعرّجاً تجري تحته ساقية ربيعية عكرة، وأشجاراً كئيبة بائسة شبه عارية، وشجرة حور وحيدة، وأبعد منها رأت بين الأشجار مبنىً صغيراً مشيّداً من جذوع الأشجار، لا تدري إن كان مطبخاً منعزلاً أم حمّاماً، الله أعلم ماذا يكون. كان كل ما في المكان ميتاً وكئيباً يدفع المرء إلى شنق نفسه على شجرة الحور التي قرب الجسر. ما من نسمة أو حركة سحابة أو كائن حي. كان المكان جحيماً بالنسبة إلى كائنٍ حي!

وفي هذه اللحظة - تصوّروا! - ينفتح باب البناء الخشبي صافقاً، ويظهر هو. إنه بعيد بما يكفي، لكنه مرئي. ثيابه ممزقة بحيث لا يدري المرء ما الذي يرتديه، أشعث الشعر، غير حليق، عيناه واهنتان وقلقتان. لوّحت له بيدها، نادته. ركضت مرغريتا نحوه فوق النتوءات الصغيرة، وهي تكاد تختنق في الهواء الميت، وفي هذه اللحظة استيقظت.

شرعت مرغريتا نيكولاييفنا تناقش الأمر مع نفسها قائلةً: «يمكن لهذا الحلم أن يعني أحد أمرين: إذا كان ميتاً وأومأ إليّ فهذا يعني أنه قد جاء في إثري وأنني سأموت قريباً، وهذا جيد جداً لأن عذاباتي

ستنتهي أخيراً حينذاك. أو أنه حي، وحينئذٍ لا يعني الحلم سوى أنه يذكّرني بنفسه! يريد أن يقول إننا سنلتقي من جديد. أجل، سنلتقي قريباً جداً».

ارتدت مرغريتا ثيابها، وهي لا تزال على اضطرابها، وراحت تقول لنفسها إنّ كل شيء يسير بصورة موفقة جداً في الواقع، وإنّ على المرء أن يجيد التقاط هذه اللحظات الموفّقة واستغلالها. لقد سافر زوجها في مهمة لثلاثة أيام بتمامها، وهكذا مُنحت ثلاثة أيام تبقى فيها مع نفسها، ولن يعيقها أحد للتفكير بما تشاء والحلم بما تريد. كل الغرف الخمس في الطابق العلوي للدار، كل هذه الشقة التي يمكنها أن تثير حسد عشرات آلاف الناس في موسكو، كانت تحت تصرّفها.

غير أن مرغريتا، وقد نالت حريتها لثلاثة أيام كاملة، اختارت من هذه الشقة الفاخرة مكاناً أبعد ما يكون عن أن يكون الأفضل. فبعد أن شربت الشاي ذهبت إلى غرفة معتمة بلا نوافذ وُضعت فيها حقائب وخزانتان تحتويان شتى الأشياء العتيقة، فجلست القرفصاء وفتحت درج الخزانة الأولى السفلي وتناولت من تحت كومة من قطع قماش من الحرير الشيء الوحيد الثمين الذي تملكه في حياتها. لاح في يد مرغريتا ألبوم قديم من الجلد بنيّ اللون فيه صورة للمعلّم ودفتر توفير برصيد عشرة آلاف روبل وبتلات وردة ذابلة موضوعة بين أوراق لفائف التبغ وجزء من دفتر يحتوي ملزمة كاملة مطبوعة على الآلة الكاتبة طرفها السفلي محترق.

بعد عودتها إلى مخدعها بهذا الكنز علّقت مرغريتا نيكولاييفنا الصورة على المرآة الثلاثية السطوح وجلست قرابة ساعة، واضعةً الدفتر الذي أفسدته النار على ركبتيها، وراحت تقلّب الصفحات وتقرأ

الدفتر الذي لم تعد تُعرَف بدايته من نهايته بعد احتراقه: «... خيّمت العتمة القادمة من البحر الأبيض المتوسط على المدينة التي يبغضها الحاكم. اختفت الجسور المعلّقة الواصلة بين الهيكل وبرج أنطونيو المخيف. انهمر الوابل من السماء وغمر تماثيل الآلهة المجنّحة التي تعلو ميدان الخيل وقصر «جتسماني» ذا الكوى والأسواق والخانات والأزقة وبرك الماء... هلكت مدينة أورشليم العظيمة كأنها لم تكن...».

كان بودّ مرغريتا مواصلة القراءة لكن لم يكن هناك سوى ذيل الصفحة المتفحّم، فوضعت الدفتر من يدها وهي تمسح دموعها، ووضعت مرفقيها على مسند المرآة التي كانت تعكس صورتها، وجلست طويلاً لا ترفع عينيها عن صورة المعلّم. جفّت دموعها. وضّبت مرغريتا كنزها بعناية، وخلال بضع دقائق كان الكنز مدفوناً ثانيةً تحت خرق الحرير، وأُقفل قفل باب الغرفة المعتمة برنين.

ارتدت مرغريتا نيكولاييفنا معطفها في الردهة كي تخرج للتنزّه. سألتها خادمتها الحسناء ناتاشا ما إذا كان عليها إعداد الطعام، ولمّا أتاها الجواب أنّ الأمر سيّان انخرطت في الحديث مع سيدتها كي تسرّي عن نفسها، وراحت تهرف بأشياء شتى من قبيل أنّ ساحراً قد قدّم ألاعيب في المسرح بالأمس أذهلت الجميع، وأنّه وزّع على الجميع زجاجتين من العطور الأجنبية لكلٍّ منهم وجوارب بالمجّان، وبعد ذلك، فور انتهاء العرض، خرج الجمهور إلى الشارع، وإذا بهم يجدون أنفسهم جميعاً... عراة!

ارتمت مرغريتا نيكولاييفنا على الكرسي أمام المرآة في الردهة غارقةً في الضحك، وأخذت تقول:

- كيف لا تخجلين يا ناتاشا! أنت فتاة متعلمة وذكية. الناس

يفوهون بشتى الأكاذيب حين يقفون في الطوابير، وها أنت تردّدين أكاذيبهم!

احمرّت ناتاشا واعترضت بحرارة شديدة بأنهم لا يكذبون على الإطلاق، وأنها، هي نفسها، رأت اليوم في دكان للمواد الغذائية في شارع أربات مواطنة دخلت الدكان منتعلةً خفّين، وما إن أصبحت عند الصندوق لتدفع حتى اختفى الخفّان من قدميها وظلّت في الجوربين فقط. لم أصدّق ما رأيت! وكان جوربها مثقوباً عند الكعب. أما الخفّان فكانا مسحورين، وهما من تلك الحفلة.

- وغادرت وهي على حالتها تلك؟

- نعم! - صاحت ناتاشا محمرّةً أكثر لأن سيدتها لا تصدّقها، - فضلاً عن أن الشرطة، يا مرغريتا نيكولاييفنا، قد قبضت على مئة شخص البارحة ليلاً. والمواطنات اللواتي كنّ في العرض رحن يركضن في شارع «تفيرسكايا» وهنّ بالسراويل فقط.

فقالت مرغريتا نيكولاييفنا:

- لا شكّ أن داريا هي من أخبرتك بهذا. لقد لاحظت منذ مدة طويلة أنها كذّابة فظيعة.

انتهى هذا الحديث المضحك بمفاجأة سارة لناتاشا، فقد مضت مرغريتا نيكولاييفنا ثم خرجت تحمل زوجاً من الجوارب وزجاجة عطر وقدّمتها هدية لناتاشا قائلةً إنها هي أيضاً تريد أن تريها لعبة خفّة راجيةً إياها شيئاً واحداً فقط هو ألاّ تركض في شارع تفيرسكايا وهي في الجوربين فقط وألاّ تصغي إلى داريا. ثم تبادلت سيدة البيت والخادمة القبلات وافترقتا.

استرخت مرغريتا نيكولاييفنا على مسند مقعدٍ مريح وناعم في

الحافلة الكهربائية، ماضية إلى أربات وهي تارةً تفكّر في شؤونها وتارةً تسترق السمع إلى ما يتهامس به مواطنان يجلسان أمامها.

كان المواطنان يتهامسان عن أمر تافه وهما يتلفّتان بين الحين والآخر خشية أن يكون هناك من يسمعهما. كان الشخص البدين ذو العينين الجريئتين الشبيهتين بعيون الخنازير، الجالس قرب النافذة، يقول بصوتٍ خافت لجاره الضئيل الحجم إنهم اضطروا إلى تغطية التابوت بغطاء أسود...

همس الضئيل في ذهول:

- مستحيل! هذا أمر غير مسبوق... وماذا فعل جيلدييين؟

وسط هدير الحافلة الكهربائية الرتيب تناهت عبر النافذة الكلمات التالية: «تحقيق جنائي... مشادّة... ياه، أمر غامض حقاً!».

من قطع الحديث المبتورة هذه ركّبت مرغريتا نيكولاييفنا شيئاً مترابطاً.

كان المواطنان يتهامسان بأنّ رأس أحد الموتى قد سُرق صباح اليوم من التابوت، دون أن يذكروا اسم الميت! وأن هذا ما يقلق جيلدييين الآن. وكل ما يتهامسان به في الحافلة الآن له صلة ما بالميت المسروق.

قال الضئيل بقلق:

- هل يتّسع الوقت لشراء الورود؟ تقول إن الجثمان سيُحرق في الساعة الثانية؟

في النهاية ضاقت مرغريتا نيكولاييفنا ذرعاً بالاستماع إلى هذه الثرثرة غير المفهومة حول رأسٍ مسروق من تابوت، وأسعدها أنّ أوان نزولها من الحافلة قد حان.

بعد بضع دقائق كانت مرغريتا نيكولاييفنا تجلس عند جدار

الكرملين، وقد جلست على مقعد بحيث يكون مخزن «مانيج» مرئياً لها.

زرّت مرغريتا عينيها بسبب الشمس الساطعة، وتذكّرت حلمها، وتذكّرت كيف أنها طوال عام كامل، يوماً بيوم وساعة بساعة، كانت تجلس بجواره على هذا المقعد بالذات. وكانت الحقيبة السوداء موضوعة بجوارها آنذاك على المقعد، تماماً كحالها الآن. هو لم يكن جالساً قربها في ذلك اليوم لكنها، رغم ذلك، كانت تكلّمه في فكرها: «إذا كنت منفياً فلمَ لا تعلمني بأخبارك؟ فهم يسمحون للناس بالتواصل. هل توقّفت عن حبي؟ لا، لسببٍ ما لا أصدّق هذا. وهذا يعني أنك قد نُفيت ومتّ... أرجوك إذاً أخلِ سبيلي، دعني أخيراً أعيش الحرية وأتنفّس». فردّت مرغريتا نيكولاييفنا نيابةً عنه: «أنتِ حرة... وهل أنا من يمنعك؟» فاعترضت على كلامه قائلةً: «لا، ما هذا الجواب! لا، غادر ذاكرتي، وحينذاك سأغدو حرّة».

كان الناس يمرّون بجوار مرغريتا نيكولاييفنا. نظر رجل مواربةً إلى المرأة الأنيقة الثياب، وقد استماله جمالها ووحدتها، فسعل وجلس على حافة المقعد الذي تجلس عليه مرغريتا نيكولاييفنا. استجمع الرجل شجاعته وبادر يقول:

- الطقس جميل اليوم قطعاً...

لكنّ مرغريتا رمقته بتجهم بحيث نهض واقفاً وغادر المكان. شرعت مرغريتا تقول في سرّها لذاك الذي أسر قلبها: «هاك مثلاً، لماذا طردت هذا الرجل حقاً؟ فأنا ضجرة، وزير النساء هذا لا عيب فيه، اللهم إلا كلمة «قطعاً» الغبية تلك! لمَ أجلس وحيدة عند الجدار كبومة؟ لمَ أنا منقطعة عن الحياة؟».

استبدّ بها الحزن كلياً فنكست رأسها. لكن هنا صدمت صدرها

فجأة موجة الترقّب والانفعال الصباحية تلك ذاتها. «نعم، سيحدث!» صدمتها الموجة ثانيةً، وهنا انتبهت إلى أنها موجة صوتية. وسط ضجيج المدينة أخذت تتناهى إليها مقتربةً بمزيدٍ من الوضوح ضربات طبول وأصوات أبواق فيها نشاز.

كان أول من ظهر شرطي خيّالة يتهادى ببطء قرب سياج الحديقة، وفي إثره ثلاثة من المشاة، تلتهم شاحنة تسير ببطء وتحمل موسيقيين، ثم سيارة مكشوفة وجديدة لدفن الموتى تسير ببطء أيضاً وعليها نعش تغطّيه أكاليل الزهور، وكان يقف في زوايا صندوق سيارة دفن الموتى أربعة أشخاص - ثلاثة رجال وامرأة. حتى من تلك السيارة البعيدة لاحظت مرغريتا أن وجوه الواقفين في سيارة الدفن، الذين يشيّعون المتوفى إلى مثواه الأخير، كانت ذاهلة وحائرة بصورة غريبة. وكان هذا واضحاً بشكل خاص في وجه المواطنة الواقفة في الزاوية الخلفية اليسرى. فقد بدت وجنتا المواطنة المكتنزتان كأنهما قد ازدادتا انتفاخاً من الداخل جرّاء سرٍّ ملحّ، وكانت عيناها المحمومتان المتقافزتان تومضان ببريقٍ ذي دلالة. بدت المواطنة، وقد عيل صبرها، تكاد تهمّ بأن تومئ إلى الميت وتقول: «هل رأيتم شيئاً كهذا؟ لغز صريح!»، وكان الذهول والحيرة يكسوان بالقدر ذاته وجوه المشيعين المشاة الذين كانوا قرابة ثلاثمئة شخص، وكانوا يسيرون ببطء خلف سيارة الدفن.

شيّعت مرغريتا الموكب بعينيها مصغيةً إلى قرع الطبل الكئيب وهو يتخافت في البعيد، وكان يصدر الصوت ذاته «بُم، بُم، بُم»، وأخذت تفكّر: «يا للجنازة الغريبة... ويا للملل الذي يبعثه هذا البُم! آخ، حقاً أنا على استعداد لرهن روحي للشيطان لأعرف فقط أحيٌّ هو أم ميت! بودّي أن أعرف من هذا الذي يدفنونه بهذه الوجوه الذاهلة؟».

- برلوز ميخائيل ألكسندروفيتش، رئيس «ماسوليت». - سمعت مرغريتا نيكولاييفنا قربها صوتاً رجالياً أخنَّ قليلاً، فالتفتت مدهوشةً فرأت على مقعدها مواطناً واضح أنه جلس حين كانت مرغريتا تنظر إلى الموكب، ولا بدّ أنها، لذهولها، قد طرحت السؤال الأخير بصوت مسموع.

في هذه الأثناء كان الموكب يتوقف بين حين وآخر، الأرجح أن إشارات المرور كانت تعيق حركته.

تابع المواطن المجهول يقول:

- نعم، عقليتهم غريبة. يشيّعون الميت ولا يفكّرون إلا في أمر واحد: أين اختفى رأسه!

- أيّ رأس؟ - سألت مرغريتا وهي تحدّق في الجار غير المتوقّع. كان هذا الجار قصير القامة، أصهب ناريّ الشعر، له ناب في فمه، يرتدي ملابس داخلية منشّاة وبذلة مقلّمة جيدة النوعية، وينتعل خفّين لمّاعين وعلى رأسه قبعة سوداء، وكانت ربطة عنقه فاقعة اللون. لكنّ الأمر الغريب هو أن عظمة دجاجة كانت تتدلى من جيبه العلوي، حيث يضع الرجال عادةً منديلاً أو قلم حبر.

قال الأصهب شارحاً:

- نعم، أرجو أن تلاحظي أنّ رأس الفقيد قد سُرق صباح اليوم من التابوت في قاعة غريبوييدوف.

- كيف يُعقل ذلك؟ - سألت مرغريتا لاشعورياً متذكرةً الحديث الهامس في الحافلة الكهربائية.

- الله أعلم كيف! - أجاب الأصهب بلا تكلّف، - أعتقد، بالمناسبة، أن لا بأس من سؤال بيغيموت عن ذلك. فقد سُرق الرأس

ببراعة مرعبة. يا للفضيحة! والأهم أنّ من غير المفهوم من قد يحتاج إلى هذا الرأس، ومن أجل ماذا؟

رغم انشغال مرغريتا نيكولاييفنا الشديد بهمومها فقد صعقتها، مع ذلك، أكاذيب المواطن المجهول العجيبة، فصاحت فجأةً:

- عفواً، أي برلوز؟ هذا الذي في الجرائد...

- هو بذاته، فمن إذاً...

- هذا يعني أنّ الذين يسيرون وراء النعش هم أدباء؟ - سألت مرغريتا وكشّرت فجأةً.

- طبعاً أدباء!

- وتعرفهم شخصياً؟

- فرداً فرداً، - أجاب الأصهب. فشرعت مرغريتا تقول وقد صار صوتها خافتاً:

- قل لي، هل الناقد لاتونسكي بينهم؟

- وهل يُعقل ألاّ يكون؟ ها هو هناك في طرف الصف الرابع. - أجاب الأصهب، فسألت مرغريتا زارّةً عينيها:

- أهو ذاك الأشقر؟

- الرمادي اللون... ذاك الذي رفع عينيه إلى السماء.

- الشبيه بقسّ؟

- بالضبط!

كفّت مرغريتا عن طرح المزيد من الأسئلة وراحت تتفرّس في لاتونسكي. فقال الأصهب مبتسماً:

- أرى أنك تكرهين لاتونسكي هذا.

- وأكره آخرين غيره أيضاً، لكنّ الحديث عن هذا غير ممتع. -

أجابت مرغريتا من بين أسنانها. في هذه الأثناء كان الموكب يبتعد، وخلف المشاة كانت تسير سيارات معظمها خالية.

- طبعاً، وأين المتعة في ذلك يا مرغريتا نيكولايفنا!

- هل تعرفني؟ - سألت مرغريتا بدهشة.

بدلاً من الردّ خلع الأصهب قبعته ورفعها عالياً.

«سحنة إجرامية تماماً!» قالت مرغريتا في سرّها وهي تتفّحص ابن الشوارع هذا، ثم قالت بجفاء:

- أنا لا أعرفك.

- وأنّى لك أن تعرفيني! بالمناسبة، لقد أرسلوني إليك في أمر.

امتقع وجه مرغريتا وارتدّت إلى الوراء وأخذت تقول:

- كان عليك البدء من هذا مباشرةً، لا أن تثرثر بترّهات الله أعلم بها عن رأسٍ مقطوع! هل تريد اعتقالي؟

- لا شيء من هذا القبيل، - هتف الأصهب، - ما هذا: ما دمتُ قد كلّمتك فهل لا بدّ أن أعتقلك! ببساطة، لي شأن معك.

- لست أفهم شيئاً، أيّ شأن؟

تلفّت الأصهب حوله وقال مساوراً إياها:

- أرسلوني لأدعوك إلى أن تحلّي ضيفة اليوم مساءً.

- بمَ تهرف، على من؟

- على أجنبيٍّ رفيع الشأن، - قال الأصهب بمهابة وهو يزرّ عينيه.

استبدّ بمرغريتا غضبٌ شديد، فقالت وهي تنهض لتغادر:

- لقد ظهرت سلالة جديدة: قوّاد شوارع.

- هاك، شكراً على مهام كهذه! - صاح الأصهب مستاءً، ثم غمغم في إثر مرغريتا المغادِرة: - حمقاء!

- نذل! - أجابت مرغريتا دون أن تلتفت إليه، وفي الحال سمعت من وراء ظهرها صوت الأصهب:

- خيّمت العتمة القادمة من البحر الأبيض المتوسط على المدينة التي يبغضها الحاكم. اختفت الجسور المعلّقة الموصلة بين الهيكل وبرج أنطونيو الرهيب... اختفت مدينة أورشليم العظيمة كأنها لم تكن... تباً لك أيضاً مع دفترك المحترق ووردتك اليابسة! اجلسي هنا إذاً، على هذا المقعد، وتوسّليه أن يخلي سبيلك ويسمح لك بالتنفس ويغادر ذاكرتك!

عادت مرغريتا إلى المقعد وقد ابيضّ وجهها. رنا إليها الأصهب زارّاً عينيه. أخذت مرغريتا نيكولايفنا تقول بصوت خافت:

- لستُ أفهم شيئاً، فالأوراق ما زال بالإمكان معرفة أمرها... التسلل، استراق النظر... لعلّ ناتاشا ارتشت؟ نعم، لكن كيف تمكّنت من معرفة أفكاري؟ - تغضّن وجهها بألم وأضافت: - قل لي، من تكون؟ من أي مؤسسة أنت؟

- يا للملل! - غمغم الأصهب ثم أخذ يقول بصوتٍ أعلى: - العفو، فقد أخبرتك أنني لست من أي مؤسسة كانت! اجلسي من فضلك.

أذعنت مرغريتا دون أن تنبس بكلمة، لكنها مع ذلك سألته مرة أخرى وهي تجلس:

- من تكون؟

- حسناً، اسمي أزازيلو، لكنّ اسمي، في كل الأحوال، لا يوحي لك بشيء.

- هلاّ أخبرتني من أين علمت بالأوراق وكيف عرفت أفكاري؟

- لن أخبرك، - أجاب أزازيلو بجفاء، فهمست مرغريتا بتوسّل:
- لكن هل تعرف عنه شيئاً؟
- لنقل إني أعرف.
- قل لي فقط أرجوك، أهو على قيد الحياة؟ لا تعذّبني.
- نعم، حي، حي، - أجاب أزازيلو دونما رغبة.
- يا إلهي!
- بلا اضطراب أو صراخ رجاءً، - قال أزازيلو عابساً.
- عفواً، عفواً، - غمغمت مرغريتا التي صارت مطيعة الآن، - لقد سخطت عليك بالطبع. لا بدّ أن توافقني أنه حين تدعى امرأة لتحلّ ضيفاً على أحدهم في الشارع... أؤكد لك أن ليست لدي آراء مسبقة، - ابتسمت مرغريتا ابتسامة فاترة، - لكني لا ألتقي أي أجانب مطلقاً... ولا رغبة لي أبداً في مخالطتهم... فضلاً عن أن زوجي... تكمن مأساتي في أنني أعيش مع شخص لا أحبه، لكني أعتبر أن من الحقارة إفساد حياته، فأنا لم أرَ منه سوى الخير...

استمع أزازيلو بملل ظاهر إلى هذا الكلام المفكك ثم قال بخشونة:
- أرجوك أن تصمتي لدقيقة.
صمتت مرغريتا مذعنةً.
- أنا أدعوك إلى أجنبي لا خطر منه على الإطلاق، ولن يعرف مخلوق واحد بشأن هذه الزيارة، وإني أتعهد لك بذلك.
- وما حاجته بي؟ - سألت مرغريتا في استعطاف.
- ستعرفين هذا فيما بعد.
- مفهوم... يجب أن أمنحه نفسي، - قالت مرغريتا بشرود.
ردّاً على ذلك غمغم أزازيلو بعجرفة وأجاب على النحو التالي:

- أستطيع أن أؤكد لك أنّ أي امرأة في العالم كانت لتحلم بذلك،- وهنا لوت ضحكة سحنة أزازيلو،- لكني سأخيّب أملك، لن يحدث هذا.

- أيّ أجنبي هذا؟! - هتفت مرغريتا حائرةً بصوتٍ عالٍ جعل المارّة بجوارها يلتفتون إليها، - وماذا سأستفيد بذهابي إليه؟

انحنى أزازيلو نحوها وقال بنبرة ذات دلالة:

- بخصوص الفائدة، هي كبيرة جداً... ستستغلّين الفرصة...

صاحت مرغريتا وقد تكوّرت عيناها:

- ماذا؟ إذا كنت قد فهمتك جيداً فإنك تلمّح إلى أنني قد أعرف عنه شيئاً؟

هزّ أزازيلو رأسه بصمت، فصاحت مرغريتا بقوة وقد تشبّثت بيد أزازيلو:

- سأذهب! سأذهب إلى حيث تشاء!

تنفّس أزازيلو الصعداء وألقى ظهره على مسند المقعد مغطّياً بظهره كلمة «نورا» المحفورة على ظهر المقعد بحروف كبيرة، وقال في سخرية:

- يا للنساء، كم هنّ شعبٌ صعب! - ودسّ يده في جيبيه ومدّ رجله بعيداً إلى الأمام، - لماذا أرسلوني أنا، مثلاً، في هذه المهمة؟ كان يجب أن يأتي بيغيموت، فهو فاتن...

قالت مرغريتا وهي تبتسم ابتسامة مائلة ذليلة:

- توقف عن تضليلي وتعذيبي بألغازك هذه... فأنا إنسانة شقية، وأنت تستغلّ ذلك. أنا أقحم نفسي في قصة غريبة، لكن أقسم فقط لأنك أغريتني بكلامك عنه! لقد دوّختني هذه البلبلات كلها...

- بلا دراما، بلا دراما - قال أزازيلو مصعّراً خدّيه، - يجب أخذ

وضعي أيضاً في الاعتبار. فضرب مدير على سحنته أو طرد رجل من بيته أو إطلاق النار على أحدهم أو أي أمر آخر من هذا القبيل، هذا هو اختصاصي المباشر، أما التحدث إلى نساء عاشقات... عبد مأمور. مضت نصف ساعة وأنا أحاول إقناعك، فهل ستذهبين؟

- سأذهب، - أجابت مرغريتا نيكولايفنا ببساطة.

- تفضلي إذاً، - قال أزازيلو وأخرج من جيبه علبة ذهبية مدوّرة وناولها لمرغريتا مرفقةً بالكلمات التالية: - خبّئيها بسرعة، فالمارة ينظرون. ستنفعك يا مرغريتا نيكولاييفنا، فقد هرمتِ بما فيه الكفاية من الحزن في نصف السنة الأخيرة. (احتدّت مرغريتا لكنها لم تقل شيئاً، وتابع أزازيلو) اليوم مساءً، في التاسعة والنصف تماماً، ادهني وجهك وجسدك كله بهذا المرهم بعد أن تتعرّي تماماً. بعد ذلك افعلي ما يحلو لكِ، لكن لا تبتعدي عن الهاتف. سأتصل بك في العاشرة وأخبرك بكل ما يلزم. لا تشغلي بالك إطلاقاً، سيتم إيصالك إلى حيث ينبغي، ولن يسبّبوا لك أيّما إزعاج. مفهوم؟

صمتت مرغريتا قليلاً ثم أجابت:

- مفهوم. هذا الشيء من الذهب الخالص، واضح من وزنه. حسناً، فأنا أدرك جيداً أنني تتم رشوتي وجرّي إلى قصة غامضة ما سأدفع ثمنها غالياً.

- وما هذا أيضاً! أنتِ... ثانيةً؟ - تقريباً فحّ أزازيلو.

- لا، مهلاً!

- أعيدي المرهم.

ضغطت مرغريتا على العلبة في يدها بقوة وتابعت تقول:

- لا، مهلاً... أعرف ما أنا مقدمة عليه، لكني إنما أفعل ذلك من أجله، لأني فقدت الأمل بكل ما في العالم. لكني أريد أن أقول

لك: يجب أن تشعر بالعار إذا دمّرتني! نعم، بالعار! فأنا سأهلك في سبيل الحب! - ورنت مرغريتا إلى الشمس وهي تضرب على صدرها.

- أعيديه إليّ، - فحّ أزازيلو في حنق، - أعيديه وليذهب هذا كله إلى الشيطان. فليرسلوا بيغيموت.

- أوه لا! - صاحت مرغريتا، ما أثار دهشة المارة، - أنا موافقة على كل شيء، موافقة على مهزلة المرهم هذه، موافقة على الذهاب إلى حتفي. لن أعطيك إياه.

- با! - زمجر أزازيلو فجأةً مشيراً بإصبعه إلى مكانٍ ما وعيناه محملقتان نحو سور الحديقة.

التفتت مرغريتا إلى حيث أشار أزازيلو، لكنها لم تلحظ أي شيء غريب. وعندها استدارت نحو أزازيلو راجيةً أن تحصل على تفسير لهذه الـ«با!» السخيفة، لكن لم يكن هناك من يقدّم لها هذا التفسير: فمحدّث مرغريتا نيكولاييفنا الغامض كان قد اختفى. أدخلت مرغريتا يدها بسرعة في حقيبتها، حيث كانت قد وضعت العلبة قبل تلك الصرخة، ودُهشت من أنها لا تزال هناك. حينئذٍ، ودون أن تفكر بشيء، هرعت مسرعةً تغادر حديقة ألكسندروفسكي لا تلوي على شيء.

الفصل العشرون

مرهم أزازيلو

كان القمر في السماء المسائية الصافية بدراً، وكان مرئياً من خلال أغصان القيقب. كانت أشجار القيقب والسنط تزخرف أرض الحديقة بمنظر معقد من البقع. وكان نور الكهرباء ساطعاً في نافذة المنور ذات الدرفات الثلاث، المفتوحة لكن المسدلة الستائر. وكانت المصابيح كلها مضاءة في غرفة نوم مرغريتا، وتضيء الفوضى العارمة في الغرفة. فقد كانت هناك قمصان وجوارب وبياضات فوق لحاف الفراش، والملابس الداخلية المجعّدة تتدلى إلى الأرض قرب علبة سجائر مسحوقة باضطراب، وكان هناك خفّان على منضدة صغيرة بجوار فنجان قهوة لم يُشرَب كله، ومنفضة سجائر فيها عقب سيجارة يتصاعد منها الدخان، وعلى مسند الكرسي يتدلى فستان سهرة أسود اللون. كانت الغرفة تفوح بروائح العطور، فضلاً عن رائحة مكواة محمّاة آتية من مكانٍ ما في الغرفة.

كانت مرغريتا نيكولاييفنا جالسةً أمام المرآة لا ترتدي سوى «برنس» الحمّام الملقى على جسدها العاري بإهمال، منتعلةً خفّين أسودين من الشاموا، أمامها ساعة يد بسوار من ذهب، بجوار العلبة التي تلقّتها من أزازيلو، ولم تكن ترفع عينيها عن ميناء الساعة. كان يخيَّل إليها أحياناً أن الساعة قد تعطّلت وأنّ عقاربها لا تتحرك. لكنها

كانت تتحرك، وإن ببطء شديد، وكأنها ملتصقة بالميناء، وأخيراً «سقط العقرب الكبير على الدقيقة التاسعة والعشرين بعد التاسعة». خفق قلب مرغريتا بقوة إلى درجة أنها لم تستطع حتى تناول العلبة في الحال. تمالكت نفسها وفتحت العلبة فوجدتها تحتوي مرهماً دهنياً أصفر اللون بدا لها أنه يفوح برائحة طحالب المستنقعات. وضعت مرغريتا كمية قليلة من المرهم بطرف إصبعها في راحة يدها، فتصاعدت رائحة نباتات المستنقعات والغابات بقوة أكبر من ذي قبل، ثم بدأت تدهن جبينها وخديها بالمرهم براحة كفها. كان المرهم يُدهن بسهولة، وبدا لمرغريتا أنه يتبخّر فوراً. وبعد أن دلكت وجهها قليلاً نظرت مرغريتا في المرآة فأسقطت على الفور العلبة على زجاج الساعة فتصدّعت من جراء ذلك. أغمضت مرغريتا عينيها ثم فتحتهما ونظرت في المرآة ثانيةً وراحت تقهقه مجلجلةً.

كان طرفا حاجبيها الخيطيين المنتوفين بالملقط قد ازدادا كثافةً وتوضّعا كقوسين أسودين منتظمين أعلى عينيها اللتين استعادتا خضرتهما، واختفى بلا أثر التغضّن العمودي الخفيف الذي يقطع أرنبة أنفها، والذي ظهر في تشرين الأول عندما اختفى المعلم. كما اختفت الظلال المصفرّة عند صدغيها وشبكتا التجاعيد الملحوظتان بالكاد عند زاويتي عينيها، واصطبغت وجنتاها بلونٍ وردي، وصار جبينها أبيض صافياً، وانحلّت تسريحة شعرها الشبيهة بتسريحة الحلاّقين.

كانت تنظر إلى مرغريتا الثلاثينية من المرآة امرأة في العشرين، شعرها أسود ومجعّد بطبيعته، وهي تقهقه بلا توقف، مكشّرةً عن أسنانها.

بعد أن شبعت مرغريتا من الضحك انسلّت من البرنس بوثبةٍ واحدة وأخذت تغرف من المرهم الدهني الخفيف وتدلّك به جسدها

بقوة، وفي الحال تورّدت وأشرقت. وفجأةً، كأنما تمّ نزع إبرة من دماغها، سكن ألم صدغها الذي كان يؤلمها طوال المساء بعد اللقاء في حديقة ألكسندروفسكي، واشتدت عضلات يديها ورجليها. بعد ذلك فقد جسم مرغريتا وزنه، فقد قفزت وظلّت معلقة في الجو على علوٍّ طفيف فوق السجادة، ثم أخذت تهبط برفق وحطّت على الأرض. صاحت مرغريتا مرتميةً على الأرض:

- يا له من مرهم، يا له من مرهم!

المرهم لم يغيّر مظهر مرغريتا الخارجي فقط، فالفرح الذي شعرت به يخز جسدها برمّته كالفقاعات كان يغلي فيها كلها وفي كل جُزيء من جسدها. شعرت بنفسها حرة، حرة من كل شيء. فضلاً عن أنها أدركت بكل وضوح أنه إنما يحدث تماماً ما أخبرها به شعورها المسبق في الصباح، وأنها ستهجر بيتها وحياتها السابقة إلى الأبد. ولكن، رغم ذلك، ظلّ هناك واجب واحد أخير من تلك الحياة السابقة عليها القيام به قبل أن تبدأ شيئاً جديداً، غير عادي، يجذبها إلى الأعلى ويرتقي بها في الجو.

هرعت مرغريتا من غرفة النوم كما كانت، عارية وطائرة في الهواء، إلى مكتب زوجها، فأشعلت الضوء وانكبّت على طاولة الكتابة وخربشت على ورقة انتزعتها من المفكّرة، بسرعة وبقلم رصاص غليظ، الملاحظة التالية:

«سامحني وانسني بأسرع ما تستطيع. إني أهجرك إلى الأبد. لا تبحث عني، فهذا بلا جدوى. لقد صرت جنّية جرّاء الحزن والمصائب. علي الذهاب. وداعاً. مرغريتا».

ثم هرعت مرغريتا بنفس مطمئنة تماماً إلى غرفة النوم، وفي إثرها هرعت ناتاشا أيضاً محمّلةً بالأغراض. وفي الحال تناثرت هذه

الأغراض على الأرض - العلاّقة الخشبية مع الثوب ومناديل الدنتيلا والأحذية والصنادل الحريرية الزرقاء - وبسطت ناتاشا يديها الطليقتين.

صاحت مرغريتا نيكولاييفنا بصوتٍ أبحّ:

- ما رأيك، جميلة؟

همست ناتاشا متراجعةً القهقرى:

- كيف حدث ذلك؟ كيف فعلت ذلك يا مرغريتا نيكولاييفنا؟

- إنه المرهم، المرهم، المرهم، - أجابت مرغريتا مشيرةً إلى العلبة الذهبية المتلألئة وهي تتثنى أمام المرآة.

ركضت ناتاشا نحو المرآة، وقد نسيت الثوب المدعوك الملقى على الأرض، وراحت تحملق في بقايا المرهم. همست شفتاها بشيءٍ ما، ثم التفتت ثانيةً نحو مرغريتا وشرعت تقول بشيءٍ من التبجيل:

- الجلد، جلدك، هه؟ جلدك مشرق يا مرغريتا-نيكولاييفنا. - لكنها هناك ثابت إلى رشدها فهرعت إلى الثوب ورفعته عن الأرض وأخذت تنفضه.

صاحت بها مرغريتا:

- دعيه! دعيه! ليذهب إلى الشيطان، دعي كل شيء! أو لا، خذيه للذكرى. أقول خذيه للذكرى. خذي كل ما في الغرفة.

تسمّرت ناتاشا مكانها ورنت إلى مرغريتا لهنيهة، كأنها فقدت رشدها، ثم تعلّقت برقبتها وهي تقبّلها وتصيح:

- كالأطلس! يلمع كالأطلس! أما الحواجب، الحواجب!

هتفت مرغريتا:

- خذي كل الخرق، خذي العطور وضعيها في صندوق، خبّئيها، لكن لا تأخذي المجوهرات وإلاّ اتهموك بالسرقة.

حزمت ناتاشا كل ما وقع تحت يديها من أثواب وأحذية وجوارب

وملابس داخلية في صرّة وغادرت غرفة النوم راكضةً لا تلوي على شيء.

في هذا الوقت، من مكانٍ ما على الجهة الأخرى للزقاق، دوّت موسيقى فالس رائع من إحدى النوافذ وسُمعت قرقعة سيارة تقترب من البوابة.

هتفت مرغريتا وهي تستمع إلى الفالس المتدفق إلى الزقاق:

- سيتصل أزازيلو الآن، سيتصل! أما الأجنبي فلا خطر منه. نعم، أدرك الآن أنه مأمون الجانب!

علا هدير السيارة، مبتعدةً عن البوابة. اصطفق باب الحديقة وسُمع وقع خطوات على بلاط الممشى.

قالت مرغريتا في سرّها: «هذا نيكولاي إيفانوفيتش، أعرفه من خطواته. ينبغي القيام بشيء مضحك وممتع جداً على سبيل الوداع».

أزاحت مرغريتا الستارة جانباً وجلست على حافة النافذة جانبياً، ممسكةً ركبتها بيديها. كان ضوء القمر يلعق جانبها الأيمن. رفعت مرغريتا رأسها نحو القمر وتصنّعت وجهاً شاعرياً ساهماً. قرقعت الخطوات مرتين أخريين وسكنت فجأةً. مرغريتا، التي كانت لا تزال تستمتع بمرأى القمر، تنهّدت من باب اللياقة واستدارت نحو الحديقة، وبالفعل رأت نيكولاي إيفانوفيتش المقيم في الطابق السفلي لهذه الدار نفسها. كان نيكولاي إيفانوفيتش جالساً على مقعد، وقد غمره ضوء القمر الساطع، وكان كل شيء يوحي بأنه قد ارتمى متهالكاً على المقعد فجأةً. فقد كانت نظارته مائلة على وجهه، وكان يضغط على حقيبته بيديه.

خاطبته مرغريتا بصوتٍ حزين:

- إي مرحبا يا نيكولاي إيفانوفيتش! مساء الخير! أَمِن اجتماع؟

لم يردّ نيكولاي إيفانوفيتش بشيء على ذلك، فتابعت مرغريتا مطلّةً على الحديقة أكثر:

- أما أنا فأجلس وحيدةً كما ترى، أشعر بالملل وأرنو إلى القمر وأستمع إلى الفالس.

ومرّت بيدها اليسرى على صدغيها، تسوّي شعرها، ثم قالت في استياء:

- هذا لا يُطاق يا نيكولاي إيفانوفيتش! فأنا امرأة في النهاية، ومن الفظاظة أن لا يردّ المرء حين يكلّمونه.

نيكولاي إيفانوفيتش، المرئي في ضوء القمر حتى آخر زر في صديريته الرمادية وحتى آخر شعرة في لحيته الصغيرة البيضاء الإسفينية الشكل، أطلق ضحكةً غريبة فجأةً ونهض عن المقعد، ولارتباكه لوّح بحقيبته جانباً بدلاً من أن يرفع قبعته وثنى ركبتيه كأنما يستعد للرقص.

تابعت مرغريتا تقول:

- آخ كم أنت مملّ يا نيكولاي إيفانوفيتش، وعموماً لقد سئمتكم جميعاً إلى درجة أعجز عن الإعراب عنها، وكم أنا سعيدة لكوني أفارقكم! عليكم اللعنة!

في هذه اللحظة دوّى الهاتف خلف ظهر مرغريتا في غرفة النوم. وثبت مرغريتا عن حافة النافذة وخطفت السمّاعة، وقد نسيت أمر نيكولاي إيفانوفيتش.

- أزازيلو يتكلّم، - قيل في السمّاعة.

- أزازيلو، أزازيلو العزيز! - هتفت مرغريتا.

- حان الوقت! طيري، - قال أزازيلو في السمّاعة، وكان واضحاً من نبرة صوته أنّ لهفة مرغريتا الصادقة والفرحة قد طابت له، - عند طيرانك فوق البوابة صيحي: «خفيّة!»، بعد ذلك حلّقي فوق المدينة

حتى تعتادي الأمر، ثم اتجهي جنوباً، بعيداً عن المدينة، إلى النهر مباشرةً، حيث ينتظرونك!

وضعت مرغريتا السمّاعة، وهنا راح يحجل شيء خشبي ما في الغرفة المجاورة وأخذ يضرب الباب. فتحت مرغريتا الباب على مصراعيه فطارت مكنسة إلى غرفة النوم متراقصةً و«كشّتها» نحو الأعلى وأخذت تنقر على الأرض بطرفها وهي تركل وتندفع نحو النافذة. صرخت مرغريتا من شدة الفرح والابتهاج ووثبت معتليةً المكنسة. وهنا فقط فطنت إلى أنها في خضمّ البلبلة نسيت ارتداء ملابسها، فاندفعت نحو السرير واختطفت أول ما وقع في يدها، وكان قميصاً أزرق اللون، فلوّحت به كبيرق وطارت خارجةً من النافذة، وتعالى هدير الفالس فوق الحديقة بشكل أقوى.

انزلقت مرغريتا من النافذة إلى الأسفل ورأت نيكولاي إيفانوفيتش على المقعد. كان ذاك يستمع بمنتهى الذهول - وكان يبدو متسمّراً في المقعد - إلى الجلبة والصرخات القادمة من غرفة نوم سكّان الطابق العلوي المضاءة.

صاحت مرغريتا نيكولاييفنا وهي تثب كفرس أمام نيكولاي إيفانوفيتش:

- الوداع يا نيكولاي إيفانوفيتش!

تأوّه نيكولاي إيفانوفيتش وراح يدبّ على المقعد متلمّساً إياه بيده فأوقع حقيبته على الأرض.

- وداعاً إلى الأبد! سأُقلِع، صاحت مرغريتا مغطّيةً على صوت الفالس. وهنا فطنت أنها ليست بحاجة إلى القميص مطلقاً، فألقت به على رأس نيكولاي إيفانوفيتش، مطلقةً قهقهةً شريرة، فهوى الرجل المعمى عن المقعد على بلاط الممشى.

التفتت مرغريتا كي تلقي نظرةً أخيرة على الدار التي عانت فيها طويلاً، فرأت في لألاء النور وجه ناتاشا الذي شوّهته الدهشة.

- وداعاً يا ناتاشا! - صاحت مرغريتا وجذبت المكنسة إلى الأعلى وصاحت بصوت أعلى: - خفيّة، خفيّة - وطارت عبر أغصان القيقب التي راحت تسفع وجهها، فاجتازت البوابة إلى الزقاق. وطار في إثرها الفالس وقد جنّ جنونه.

الفصل الواحد والعشرون

الطيران

خفيّة وحرّة! خفيّة وحرّة! طائرةً عبر الزقاق كله بلغت مرغريتا زقاقاً آخر يتقاطع مع الأول بزاوية قائمة. هذا الزقاق المرقّع المتعرّج الطويل، حيث يقع حانوت لبيع المحروقات بابه مائل يُباع فيه الكيروسين بالأكواز ومبيدات الحشرات في قوارير، قطعته مرغريتا في لحظة واحدة، وهنا فطنت إلى أن عليها أن تتعقّل قليلاً، وإن كانت غير مرئية كلياً، إذ لولا أنها فرملت بأعجوبة لكانت حطّمت المصباح العتيق المائل في ناصية الزقاق. متفاديةً إياه، تشبّثت مرغريتا بالمكنسة بقوة وراحت تطير ببطء أكثر وهي تحدّق في الأسلاك الكهربائية واليافطات المعلقة أعلى الرصيف بشكل عَرْضي.

كان الزقاق الثالث يفضي إلى شارع أربات مباشرةً. هنا استوعبت مرغريتا تماماً طريقة قيادة المكنسة، فقد فهمت أنها تتجاوب لأدنى لمسة يد أو رِجل، وأدركت أن عليها أن تكون حذرة تماماً وهي تطير فوق المدينة، وألاّ تعربد كثيراً. فضلاً عن أنه بات جلياً، منذ أن كانت في الزقاق، أنّ المارّة لا يرونها، إذ لم يرفع رأسه أحد، ولم يصرخ أحد «انظر، انظر!» أو يثب متنحياً جانباً، أو يزعق أو يُغمى عليه، أو يطلق قهقهةً وحشية.

طارت مرغريتا بصمت وببطء شديد وعلى علوّ منخفض، بارتفاع

الطابق الثاني تقريباً. لكن حتى مع طيرانها البطيء، عند ولوجها شارع أربات المنار بسطوع، حادت وانحرفت قليلاً فاصطدمت كتفها بقرص مضاء ما رُسم عليه سهم. أغضب هذا مرغريتا فأوقفت المكنسة المطيعة وطارت جانباً ثم انقضّت على القرص على حين غرّة فحطّمته بطرف المكنسة إلى شظايا. تناثرت الشظايا بدويّ فتنحّى المارّة مذعورين وتناهى صوت صفير من مكان ما. أما مرغريتا، وقد قامت بهذا التصرّف الذي لا لزوم له، فراحت تقهقه، ثم قالت لنفسها: «يجب توخّي الحذر أكثر في أربات، فهنا لا يستطيع المرء تمييز شيء من شيء لشدة الفوضى»، وراحت تطير من بين الأسلاك، تطوف تحتها أسطح الحافلات الكهربائية والسيارات، وعلى الأرصفة كانت تجري أنهار من القبّعات، كما بدا لمرغريتا من الأعلى، وكانت تتفرّع عن هذه الأنهار جداول تسيل إلى أفواه المتاجر الليلية المنارة.

قالت مرغريتا في نفسها بانزعاج: «يا لهذه البلبلة، يستحيل التحرّك هنا». تجاوزت أربات، وارتفعت أعلى، حتى علوّ الطابق الرابع، وعندما بلغت أنابيب ساطعة الإنارة تعلو مبنى المسرح الذي في الناصية انعطفت إلى زقاق ضيق مبانيه عالية. كانت كل النوافذ مشرعة، ومنها جميعاً كانت تتناهى موسيقى الراديو. ألقت مرغريتا من باب الفضول نظرةً عبر إحدى النوافذ فرأت مطبخاً يهدر فيه وابوران على الموقد، تقف بجوارهما امرأتان في أيديهما ملعقتان وهما تتشاتمان.

قالت المرأة الواقفة أمام مقلاة يتصاعد منها البخار:

- أقول لكِ إنّ عليكِ أن تطفئي نور المرحاض وراءك يا بيلاغيا بيتروفنا، وإلاّ قدّمنا شكوى بإخلائك!

- على أساس أنكِ كيّسة، - ردّت الأخرى.

- كلتاكما كيّستان، - قالت مرغريتا بصوتٍ عالٍ وهي تنسلّ إلى المطبخ عبر النافذة.

التفتت المرأتان المتشاجرتان نحو جهة الصوت وتسمّرتا مكانيهما والملعقتان الوسختان في أيديهما. مدّت مرغريتا يدها بينهما وأدارت صنبوري الوابورين فأطفأتهما. تأوهت المرأتان وفغرتا فاهيهما. لكنّ مرغريتا أدركها الملل في المطبخ فطارت إلى الزقاق.

في آخر الزقاق لفت انتباهها مبنى فخم هائل الحجم مكوّن من ثمانية طوابق، بدا كأنه قد شيِّد للتوّ. هبطت مرغريتا، وعندما حطّت على الأرض لاحظت أنّ واجهة البيت مزخرفة بالرخام الأسود وأن بوّاباته واسعة، ورأت من خلال زجاجها قبّعة بشريط ذهبي مقصّب وأزرار بوّاب، ورأت على الباب كتابة منقوشة بماء الذهب: «بيت درامليت».

حدّقت مرغريتا في الكتابة زارّةً عينيها، محاولةً فهم ما قد تعنيه كلمة «درامليت». تأبّطت مرغريتا المكنسة وولجت المدخل، صادمةً البوّاب المذهول بالباب، فرأت إلى جانب المصعد على الجدار لوحاً ضخماً أسود اللون نُقشت عليه بحروف بيضاء أرقام الشقق وأسماء قاطنيها. الكتابة التي كانت تتوّج قائمة أسماء سكّان «بيت المسرح والأدب» جعلت مرغريتا تطلق عويلاً وحشياً مخنوقاً. فقد ارتفعت في الهواء قليلاً وشرعت تقرأ الأسماء بنهم: خوستوف، دفوبراتسكي، كفانت، بيسكودنيكوف، لاتونسكي...

- لاتونسكي! - زعقت مرغريتا - لاتونسكي! لكن هذا هو! هو الذي قضى على المعلّم.

جحظت عينا البوّاب الذي كان واقفاً عند البوابة، بل قفز من الدهشة وهو ينظر إلى اللوح الأسود محاولاً فهم الأعجوبة التالية: لمَ

زعقت لائحة أسماء السكّان فجأةً. أما مرغريتا فكانت في هذه الأثناء ترتقي الدرج باندفاع وهي تكرّر بنشوة وحبور: لاتونسكي ٨٤، لاتونسكي ٨٤. . .

ها هي الشقة ٨٢ إلى اليسار، ٨٣ إلى اليمين، وفي الأعلى، إلى اليسار. . . ٨٤، وها هي البطاقة: «او. لاتونسكي».

وثبت مرغريتا عن المكنسة فشعرت ببرودة لطيفة في نعليها المضطرمتين جرّاء برودة بسطة الدرج الحجرية. قرعت مرغريتا الجرس مرةً، فأخرى، لكنّ أحداً لم يفتح الباب، فراحت تضغط على زرّ الجرس بقوة أكبر، وهي نفسها سمعت الرنين المتصاعد في شقة لاتونسكي. ينبغي لساكن الشقة رقم ٨٤ في الطابق الثامن، سعيد الحظ الناقد لاتونسكي، أن يبقى ممتناً حتى مماته للمرحوم برلوز لكون رئيس «ماسوليت» قد سقط تحت عجلات الترام، وأنه تمّ تحديد هذا المساء بالذات لتأبينه، فقد أنقذه طالعه السعيد من ملاقاة مرغريتا التي أصبحت جنّية في يوم الجمعة هذا!

لم يفتح أحد. حينئذٍ اندفعت مرغريتا نازلةً بكل قوتها، وهي تعدّ الطوابق، وعند وصولها إلى الأسفل اندفعت إلى الشارع وشرعت تعدّ وتعاين الطوابق من الخارج، وهي تنظر إلى الأعلى، محاولةً معرفة أيّ النوافذ بالتحديد تعود لشقة لاتونسكي. لا شك أنها النوافذ الخمس المعتمة في الطابق الثامن في زاوية المبنى. بعد أن تيقّنت من ذلك ارتفعت مرغريتا في الجو وخلال ثوانٍ ولجت عبر نافذة مفتوحة إلى غرفة مظلمة لا ينيرها سوى خيط فضي من ضوء القمر. أخذت مرغريتا تذرع الغرفة في عجالة متلمّسةً زرّ الكهرباء، وخلال دقيقة غمر النور الشقة كلها. كانت المكنسة منتصبة في الزاوية، وبعد أن تأكّدت مرغريتا من خلوّ الشقة فتحت الباب المفضي إلى الدرج لتتأكّد من

البطاقة. كانت البطاقة في مكانها، وهذا يعني أنها حيث ينبغي أن تكون.

بالمناسبة، يقال إن وجه الناقد لاتونسكي يمتقع حتى الآن حين يتذكر ذلك المساء الرهيب، وأنه يلفظ اسم برلوز بإجلال حتى الآن. لا أحد يدري قطعاً مدى غموض وفظاعة الجريمة التي كانت ستسم وتميّز هذا المساء.

عند عودتها من المطبخ كانت مرغريتا تحمل بيديها مطرقة ثقيلة.

مرغريتا، التي كانت تطير عاريةً وخفيّة، تمالكت وضبطت نفسها، فقد كانت يداها ترتعشان من نفاد الصبر، وسدّدت بعناية وهوت بالمطرقة على مفاتيح البيانو فدوّى في الشقة كلها عواءٌ شاكٍ. فقد صرخت الآلة الموسيقية التي لا ذنب لها بجنون، وتناثرت مفاتيحها وتطايرت وصلاتها العظمية في كل الاتجاهات، وانفجر موزّع الصوت العلوي الصقيل بصوتٍ كدويّ طلقة مسدس تحت ضربات المطرقة. ثم نزعت مرغريتا الأوتار وهرستها بالمطرقة وهي تلهث. أخيراً، وقد نال منها التعب، ابتعدت وارتمت على الأريكة تلتقط أنفاسها.

هدر الماء في الحمّام، وفي المطبخ أيضاً، بصوتٍ مرعب. قالت مرغريتا في سرّها: «يبدو أنه بدأ يسيل على الأرض»، ثم أردفت بصوت مسموع: بيد أن لا داعي للجلوس.

كان تيار الماء قد بدأ يتدفق في المطبخ إلى الممر. وأخذت مرغريتا تجلب الماء من المطبخ بسطل، خابطةً في الماء بقدميها، إلى مكتب الناقد وتسكبه في أدراج طاولة المكتب. بعد ذلك حطّمت أبواب خزانة المكتب، ثم اندفعت إلى غرفة النوم فحطّمت الخزانة ذات المرايا وأخذت منها بذلة الناقد فأغرقتها في المغطس، ثم أراقت

المحبرة المليئة بالحبر، وكانت قد اختطفتها من المكتب، على السرير المزدوج المنجّد تنجيداً فاخراً في غرفة النوم. بعث التخريب الذي أحدثته فيها لذةً مضطرمة، لكن رغم ذلك بدا لها طوال الوقت أن النتائج كانت متواضعة بعض الشيء. لذا راحت تقوم بكل ما يعنّ لها، فحطّمت مزهريات نبتة الفيكوس في الغرفة التي فيها البيانو. ودون أن تكمل ذلك عادت إلى غرفة النوم وشرعت تمزّق ملاءات السرير بسكين المطبخ، وحطّمت الصور في البراويز. لم تكن تشعر بالتعب رغم أن العرق كان يتصبب من جسدها كله.

في هذه الأثناء، في الشقة رقم ٨٢ الواقعة تحت شقة لاتونسكي، كانت خادمة الكاتب المسرحي كفانت تحتسي الشاي في المطبخ حائرةً في أمر الضجة والجلبة والقرقعة القادمة من الأعلى. وعندما رفعت رأسها نحو السقف رأت فجأةً أن لونه الأبيض يتحوّل أمام عينيها إلى لون أزرق كالح، وعلى مرأى منها أخذت البقعة تكبر وفجأةً انتفخت فيها قطرات. ظلّت الخادمة جالسة لدقيقتين، مندهشةً من هذه الظاهرة، إلى أن بدأ مطر حقيقي ينهمر من السقف أخيراً ويتساقط على الأرضية. حينها هبّت واقفةً ووضعت طستاً تحت خيط الماء، الأمر الذي لم يجدِ نفعاً، ذلك أن المطر امتد وغمر موقدة الغاز والطاولة التي عليها الآنية. عندئذٍ هرعت الخادمة من الشقة إلى الدرج وهي تصرخ، وفي الحال بدأ الجرس يُقرع في شقة لاتونسكي.

- وإذاً، ها هم يقرعون، آن لي أن أغادر، - قالت مرغريتا، ثم اعتلت المكنسة مصيخةً السمع إلى صوت نسائي يصرخ عبر ثقب الباب:

- افتحوا، افتحوا! افتحي يا دوسيا! هل الماء يدلف من عندكم؟ لقد غمرنا.

ارتفعت مرغريتا قرابة متر في الهواء وهوت بضربة على الثريا فتحطّم مصباحان وتطايرت أقراطها في كل الاتجاهات. توقفت الأصوات في ثقب الباب وسُمع وقع أقدام على الدرج. سبحت مرغريتا طائرةً عبر النافذة، ولمّا صارت في الخارج لوّحت بالمطرقة برفق وضربت بها زجاج النافذة، فأنّ الزجاج وسالت الشظايا منحدرةً كشلال على الجدار المكسو بالرخام. ثم انتقلت مرغريتا إلى النافذة التالية. كان الناس في الأسفل يتراكضون على الرصيف، وهدرت إحدى السيارتين الواقفتين في الأسفل وانطلقت. بعد أن أجهزت مرغريتا على نوافذ شقة لاتونسكي انتقلت إلى الشقة المجاورة، وتوالت الضربات وامتلأ الزقاق بالرنين والهدير. خرج البوّاب من المدخل الأول مهرولاً ونظر إلى الأعلى، لكنه تردّد قليلاً، فمن الواضح أنه لم يدرِ فوراً ماذا عليه أن يفعل، ثم وضع صافرته في فمه وأطلق صفيراً عالياً. بالترافق مع هذا الصفير هشّمت مرغريتا النافذة الأخيرة في الطابق الثامن بحماسة خاصة، ثم هبطت إلى الطابق السابع وبدأت تهشّم الزجاج فيه.

البوّاب، الذي أعياه قعوده الطويل متبطلاً خلف أبواب المدخل الزجاجية أودع صفيره روحه كلها، حاذياً حذو مرغريتا تماماً كما لو أنه يرافقها. فقد كان في الوقفات، أثناء طيران مرغريتا من نافذة إلى أخرى، يسحب نفساً، وعند كل ضربة من ضربات مرغريتا يطلقه، نافخاً خديه، في صفيرٍ يشقّ هواء الليل حتى عنان السماء. وقد أعطت جهوده، بالإضافة إلى جهود مرغريتا الحانقة، نتائج كبيرة. فقد انتشر الفزع في المبنى كله. وكانت النوافذ التي لا تزال سليمة تُشرَع وتظهر فيها رؤوس الناس ثم تختفي في الحال، أما النوافذ المفتوحة فكانت، على العكس، تُغلق. وفي البيوت المقابلة كانت تبرز أطياف أناس في

النوافذ، على خلفية مضاءة، محاولين فهم لماذا يتكسّر الزجاج في مبنى «دراملبت» الجديد دون أي سبب.

في الزقاق كان الناس يهرعون إلى بيت «دراملبت»، أما في الداخل فكانوا يدبّون على الدرجات كلها هاربين على غير هدى. كانت خادمة كفانت تصرخ بالراكضين على الدرج بأنّ المياه قد غمرت الشقة، وسرعان ما انضمت إليها خادمة خوستوف من الشقة رقم ٨٠ الواقعة تحت شقة كفانت. عند خوستوف كان الماء ينهمر من السقف ويتدفق كذلك في المطبخ والمرحاض. أخيراً انهارت من سقف مطبخ شقة كفانت قطعة ضخمة من الملاط فحطّمت كل الأواني الوسخة، تلا ذلك وابل حقيقي راح ينهمر من ألواح السقف المتدلية والمبللة كما لو من سطل. وحينذاك انطلقت الصرخات على درج المدخل الأول. وبينما كانت مرغريتا تطير بمحاذاة النافذة قبل الأخيرة في الطابق الرابع نظرت عبرها فرأت شخصاً يضع قناعاً واقياً من الغاز لشدة فزعه. ضربت مرغريتا زجاجه بالمطرقة فأفزعته وفرّ هارباً من الغرفة.

فجأةً توقف التحطيم الوحشي. فحين انحدرت مرغريتا إلى الطابق الثالث نظرت عبر النافذة القصيّة، وكانت مغطاة بستارة خفيفة قاتمة اللون. كان ينير الغرفة مصباح صغير له غطاء، وكان يجلس في سرير صغير ذي جانبين شبكيين طفل في نحو الرابعة من العمر ويصغي خائفاً. لم يكن في الغرفة أيٌّ من البالغين. من الواضح أنهم جميعاً قد هرعوا خارج الشقة.

- إنهم يكسّرون الزجاج، - قال الطفل ونادى: - ماما!

لم يرد أحد فقال:

- ماما، أنا خائف.

أزاحت مرغريتا الستارة ودخلت طائرةً عبر النافذة.

- لا تخف، لا تخف يا صغير، - قالت مرغريتا وهي حريصة على تلطيف صوتها المذنب والمبحوح من الريح، - الأولاد هم الذين كانوا يكسّرون الزجاج.

- بالنقّافة؟ - سأل الطفل وقد كفّ عن الارتجاف، فأكّدت له مرغريتا:

- بالنقافة، بالنقافة، أما أنت فنم!

- إنه سيتنيك، عنده نقافة، - قال الطفل.

- طبعاً هو!

رنا الطفل جانباً بمكر وسأل:

- وأين أنت يا خالة؟

- أنا غير موجودة. أنت تحلم بي. - قالت مرغريتا.

- هذا ما ظننته، - قال الطفل، فأمرته مرغريتا:

- تمدّد، ضع يدك تحت خدك وستحلم بي.

- هيا، دعيني أحلم بك، دعيني أحلم بك، - وافق الطفل وتمدّد في الحال ووضع يده تحت خدّه.

وضعت مرغريتا يدها الحامية على رأسه الحليق وبدأت تقول:

- سأحكي لك حكاية. كان ياما كان، كانت هناك خالة تعيش في الدنيا، لم يكن لها أولاد ولم تكن سعيدة مطلقاً. كانت تبكي كثيراً في البداية لكنها صارت شريرة بعد ذلك... - صمتت مرغريتا ورفعت يدها عن رأس الطفل، - لقد نام.

وضعت مرغريتا المطرقة على حافة النافذة بهدوء وخرجت طائرةً عبر النافذة. كان هناك هرج ومرج قرب البيت. فقد كان الناس يتراكضون على الرصيف الأسفلتي المغطى بشظايا الزجاج وهم يصرخون بكلامٍ ما، وكان رجال الشرطة قد بدأوا يلوحون بينهم. فجأةً

دوّى صوت جرس ودخلت سيارة إطفاء حمراء لها سلّم الزقاق قادمةً من شارع أربات. . .

لكن ما سيجري لاحقاً لم يعد يعني مرغريتا. ركّزت مرغريتا حتى لا ترتطم بسلكٍ ما، وتشبّثت بالمكنسة بقوة أكبر، وفي لحظة كانت قد صارت أعلى البيت المنكوب. مال الزقاق في الأسفل وغار عميقاً، وفي مكانه ابنثق تحت قدمي مرغريتا حشد من السطوح تفصل بينها في الزوايا دروب متلألئة. فجأةً ابتعدت كلها جانباً وامتزجت سلاسل الأضواء وتداخلت.

قامت مرغريتا باندفاعة أخرى وحينئذٍ غار حشد السطوح برمّته تحت الأرض وظهرت مكانه بحيرة من أضواء كهربائية راعشة، وفجأةً ارتفعت هذه البحيرة شاقولياً وصارت فوق رأس مرغريتا بينما تلألأ القمر تحت قدميها. أدركت مرغريتا أنها قد انقلبت رأساً على عقب فاستوت، وحين التفتت رأت أن البحيرة قد اختفت ولم يبقَ في الخلف سوى هالة وردية في الأفق، وهي أيضاً اختفت في ثانية، ورأت مرغريتا نفسها وحدها مع القمر المحلّق إلى يسارها. كان شعر مرغريتا قد تكوّم فوق رأسها منذ مدة طويلة، وكان ضوء القمر يغسل جسدها في صفير. ولأنّ صفّين من الأضواء القليلة كانا ينسكبان في خطّين من الأضواء المتواصلة بلا انقطاع، وكانا يختفيان وراءها بسرعة هائلة، خمّنت مرغريتا أنها تطير بسرعة عجيبة، ودهشت لعدم تقطّع أنفاسها.

وما هي إلا ثوانٍ حتى سطعت بحيرة جديدة من الأنوار الكهربائية في سواد الأرض في مكانٍ ما بعيدٍ في الأسفل وتكوّمت تحت قدمي مرغريتا، لكنها سرعان ما دارت بحركة لولبية وغارت في الأرض، وبعد بضع ثوانٍ تكررت هذه الظاهرة نفسها. صاحت مرغريتا:

- مدن! مدن!

وبعد ذلك رأت مرغريتا، مرتين أو ثلاث مرات، سيوفاً في غمدٍ سود ينعكس منها بريق خافت. أدركت مرغريتا أن هذه السيوف ليست سوى أنهار.

كانت مرغريتا تستدير برأسها إلى الأعلى واليمين مستمتعةً برؤية القمر يمرق من فوقها كالمجنون متراجعاً إلى موسكو، ويظل واقفاً مكانه في الوقت نفسه على نحو أدهشها بحيث كانت ترى عليه بوضوح تنيناً أو ما يشبه حصان بحر قاتم اللون موجهاً بوزه المدبب إلى المدينة التي غادرتها.

وهنا فكّرت مرغريتا أنها، في الواقع، عبثاً تسوق مكنستها بهذه السرعة المفرطة، فهي بذلك تحرم نفسها من تأمل أي شيء على مهل ومن الاستمتاع بالطيران. فهناك ما أوحى إليها أنهم سيكونون بانتظارها هناك، إلى حيث تطير، وأن ما من داعٍ للشعور بالضجر جرّاء طيرانها بهذا العلوّ وبهذه السرعة الجنونية.

أحنت مرغريتا «كشّة» المكنسة إلى الأمام، بحيث ارتفع ذيلها، وخففت من سرعتها كثيراً بحيث كادت تلامس الأرض. وهذا الانزلاق، الشبيه بالانزلاق على زلاجات هوائية، جلب لها غبطة فائقة. ارتفعت الأرض نحوها، وتبيّنت في الكتلة السوداء، التي كانت قبل ذلك عديمة الشكل، أسرارها وروعتها في الليلة المقمرة. كانت الأرض ترتقي إليها، وبدأت الغابات المخضّرة تفوح برائحتها على مرغريتا. كانت مرغريتا تطير فوق ضباب مرجٍ نديٍّ مباشرةً، ومن ثم فوق بركة ماء. وكانت الضفادع تغني تحت مرغريتا في جوقة، وفي البعيد كان يصخب قطار، ولسببٍ ما جعل قلبها يضطرب، وسرعان ما رأته مرغريتا. كان ينساب ببطء، كيسروع، ناثراً الشرر في الهواء. بعد

أن تجاوزته مرّت مرغريتا من فوق مرآة مائية أخرى كان يسبح فيها تحت قدمي مرغريتا قمرٌ ثانٍ، فانخفضت أكثر وراحت تطير على هذا النحو حتى كادت قدماها تلامسان رؤوس أشجار صنوبر ضخمة.

كان هدير صخب انشقاق الهواء يُسمع في الخلف، وراح يلحق بمرغريتا. وشيئاً فشيئاً بدأت تنضمّ إلى صخب هذا الشيء المنطلق كقذيفة قهقهة نسائية مسموعة من على بعد فراسخ كثيرة. التفتت مرغريتا فرأت جسماً معقّداً أسود يلحق بها. وباقترابه من مرغريتا كان هذا الجسم يزداد وضوحاً، ثم استطاعت أن ترى أنّ أحداً ما يطير راكباً. وفي النهاية بات واضحاً تماماً. أدركت ناتاشا مرغريتا مخففةً سرعتها.

كانت ناتاشا تطير عاريةً تماماً وشعرها المنكوش يتطاير في الهواء، وقد امتطت خنزيراً سميناً يمسك بحافريه الأماميين حقيبةً، ويضرب الهواء بقوة بحافريه الخلفيين. كانت نظارة الخنزير قد سقطت عن أنفه، وكانت تطير إلى جانبه معلقةً برباطها وهي تلمع في ضوء القمر تارةً وتارةً يخبو لمعانها، بينما تنزلق قبعته على عينيه بين الحين والآخر. وحين تفرّست مرغريتا في الخنزير جيداً تعرّفت فيه نيكولاي إيفانوفيتش، وحينها دوّت قهقهتها فوق الغابة مختلطةً مع قهقهة ناتاشا.

صاحت مرغريتا بصوتٍ حاد:

- ناتاشاكا! دهنتِ نفسك بالمرهم؟

- يا روحي! يا ملكتي الفرنسية، ودهنت صلعته أيضاً، دهنتها! - أجابت ناتاشا موقظةً بزعيقها غابة الصنوبر الغافية.

- أيتها الأميرة! - عوى الخنزير بصوتٍ باكٍ، منطلقاً بالفارسة خبباً.

- يا روحي! يا مرغريتا نيكولاييفنا! - صاحت ناتاشا وهي تخبّ بجوار مرغريتا، - أعترف أني أخذت المرهم. نحن أيضاً نريد أن نعيش ونطير! سامحيني يا سيدتي، فأنا لن أعود، لن أعود بأي ثمن! آخ، طيّب يا مرغريتا نيكولاييفنا! لقد قدّم لي اقتراحاً، - أخذت ناتاشا تغرز إصبعها في رقبة الخنزير اللاهث بخجل،- اقتراح! - ثم مالت على أذنه وصاحت: - بمَ دعوتني، هه؟

- معبودتي، - أنّ ذاك، - لا يمكنني الطيران بهذه السرعة، فقد أفقد أوراقاً هامة. أنا أحتج يا ناتاليا بروكوفييفنا.

- إلى الشيطان أنت وأوراقك! - صاحت ناتاشا مقهقهةً بوقاحة، فصرخ الخنزير متوسّلاً:

- ماذا تقولين يا ناتاليا بروكييفِنا! قد يسمعنا أحدهم!

وطائرةً بجوار مرغريتا خبباً، روت لها ناتاشا وهي تضحك ما جرى في الدار بعد أن طارت مرغريتا نيكولاييفنا عبر البوابة.

اعترفت ناتاشا أنها، دون أن تلمس شيئاً مما أهدتها إياه، ألقت عنها ملابسها وانكبّت على المرهم تدهن به جسدها دون إبطاء، فجرى لها ما جرى لسيدتها. وبينما كانت ناتاشا تتملّى جمالها السحري أمام المرآة وهي تضحك من الفرح، فُتح الباب وظهر أمامها نيكولاي إيفانوفيتش. كان مضطرباً وكان يمسك في يده قميص مرغريتا نيكولاييفنا وقبعته وحقيبته، وحين رأى ناتاشا بُهت. لكنه تمالك نفسه بعض الشيء، محمرّاً كله كسرطان، وأعلن أنه رأى أن من واجبه أن يرفع القميص عن الأرض وأن يأتي به شخصياً. . .

- ماذا قال الوغد! - زعقت ناتاشا وضحكت، - ماذا قال، بمَ أغراني! بأيّ نقود منّاني. قال إنّ كلافديا بيتروفنا لن تدري بشيء. هل

ستقول إني أكذب؟ - صرخت ناتاشا بالخنزير الذي اكتفى بأن أشاح ببوزه خجلاً.

مسترسلةً في لعبها في غرفة النوم دهنت ناتاشا نيكولاي إيفانوفيتش بالمرهم فذُهلت هي نفسها من الدهشة. فقد تحوّل وجه ساكن الطابق السفلي المحترم حتى صار خنزيراً وظهرت على يديه وقدميه حوافر. نظر نيكولاي إيفانوفيتش إلى نفسه في المرآة فجأر بوحشية واستماتة، ولكن بعد فوات الأوان. فخلال ثوانٍ كان يطير، مروَّضاً ومسروجاً، إلى الشيطان من موسكو وهو ينتحب باكياً.

فجأةً حشرج وقبع الخنزير بصوتٍ لا يُعرَف ما إن كان حانقاً أم متوسلاً:

- أرجو إعادتي إلى شكلي الطبيعي! فأنا لا أنوي الذهاب إلى اجتماع غير قانوني! عليك أن تكبحي جماح خادمتك يا مرغريتا نيكولاييفنا.

- آخ، صرت خادمة بالنسبة إليك الآن؟ خادمة - صاحت وهي تقرص أذن الخنزير، - بينما كنت معبودتك؟ بمَ دعوتني؟

- فينوس! - أجاب الخنزير بصوتٍ باكٍ، طائراً فوق ساقية تسقسق بين الحصى، صادماً بحوافره أغصان شجرة جوز مصدراً خشخشة.

- فينوس! فينوس! - هتفت ناتاشا ظافرةً، واضعةً إحدى يديها على خصرها ومادّةً الأخرى نحو القمر، - مرغريتا! أيتها الملكة! توسّليهم أن يبقوني جنّية، فهم سيفعلون لك أي شيء، فقد مُنحت سلطاناً!

- حسناً، أعدك! - أجابت مرغريتا.

- شكراً! - صاحت ناتاشا، وفجأةً صرخت بحدّة وبشيء من

الضجر: - هيه، هيه! أسرِع! هيا، زد السرعة! - ولكزت بكعبيها خاصرتي الخنزير المهزولتين جرّاء هذا العدو الجنوني، فاندفع الخنزير بحيث انشقّ الهواء من جديد، وفي لحظة كانت ناتاشا تُرى في الأمام كنقطة سوداء، ثم اختفت كلياً وتلاشى هدير طيرانها.

كانت مرغريتا تطير، كما في السابق، ببطء في مكانٍ مقفر مجهول، فوق تلال تناثرت فيها صخور ملساء متفرقة ملقاة بين أشجار صنوبر ضخمة متباعدة. كانت مرغريتا تطير وهي تفكّر بأنّها على الأرجح في مكانٍ بعيد جداً عن موسكو. لم تعد المكنسة تطير فوق ذرى أشجار الصنوبر بل بين جذوعها التي يضيء شعاع القمر الفضي أحد جوانبها. كان ظلّ مرغريتا الرقيق ينساب على الأرض أمامها. وكان القمر الآن يضيء ظهر مرغريتا.

شعرت مرغريتا بقرب الماء وخمّنت أنّ الهدف قريب. تباعدت أشجار الصنوبر وأخذت مرغريتا تقترب في الجو بهدوء من جُرف جيري يجري نهر في أسفله، في الظل. كان الضباب يتشبّث بالشجيرات في أسفل الجرف الشاقولي، بينما كانت الضفة الأخرى ملساء ومنخفضة. وعلى الضفة كان يتراقص لسان نار صغيرة تحت مجموعة وحيدة من الأشجار المتناثرة، وتلوح قامات ما تتحرك. بدا لمرغريتا أنّ موسيقى مدندنة مرحة تتناهى إليها من هناك. وفيما يلي الضفة لم يكن يُرى على مدّ البصر في السهل الفضي أي مؤشرات لا على مساكن ولا على وجود بشر.

قفزت مرغريتا من الجرف إلى الأسفل وهبطت بسرعة نحو الماء. أغراها الماء بعد هذا الطِراد الجوي، فرمت المكنسة بعيداً وركضت وقفزت إلى الماء ورأسها إلى الأسفل. اخترق جسمها الخفيف الماء كسهم، وارتفع عمود الماء عالياً حتى كاد يبلغ القمر نفسه. تبيّن أن

المياه دافئة، كما في مغطس الحمام، وبعد أن طفت إلى السطح سبحت مرغريتا حتى الشبع في هذا النهر، وحيدة تماماً وفي الليل.

لم يكن هناك أحد في القرب، لكن أبعد قليلاً، خلف الشجيرات، كان يُسمع صوت رشرشة الماء وصوت نخير. هناك أيضاً كان أحدهم يسبح.

هرعت مرغريتا إلى الضفة. كان جسدها متورّداً بعد السباحة، ولم تكن تشعر بأي تعب وأخذت ترقص على العشب البليل بفرح. وفجأةً توقفت عن الرقص وأرهفت السمع بتوجّس. صار النخير يقترب، ومن خلف شجيرات الصفصاف برز شخص بدين عارٍ يعتمر قبعة حريرية سوداء مائلة على قذاله. كانت قدماه غاطستين في الطين حتى الكعبين بحيث بدا أنه ينتعل جزمة سوداء. بالنظر إلى لهاثه وحزقانه كان بالإمكان الحكم بأنه في حالة من السكر الشديد، وقد أكّدت ذلك رائحة الكونياك التي شرعت تفوح من النهر.

عند رؤيته مرغريتا أخذ السمين يتفرّس فيها، ثم جأر بفرح:

- ما هذا؟ أهي من أرى؟ لكنها أنت يا كلودينا، الأرملة المرحة؟ وأنت هنا؟ - وهنا اقترب نحوها يلقي التحية.

تراجعت مرغريتا وأجابت بوقار:

- اذهب إلى الشيطان. أي كلودينا أنا؟ إعرف من تُكلِّم، - وبعد أن فكّرت قليلاً أتبعت كلامها بشتيمة طويلة بذيئة ما جعل السمين الركيك يفيق من سكره، فارتعد وقال بخفوت:

- أوي! سامحيني أيتها الملكة الكريمة الوضّاءة مارغو! لم أتعرّفك، والذنب ذنب الكونياك، عليه اللعنة! - ثم انحنى السمين راكعاً على ركبة واحدة، وأزاح قبعته جانباً، وبرطم مازجاً العبارات الروسية والفرنسية بهراءٍ ما حول زفاف صديقه غيسّار الدموي في

باريس، وعن الكونياك، وعن أنه منقبض النفس بسبب خطأ محزن. فقالت مرغريتا وقد لانت:

- لو ترتدي سروالك يا ابن الكلب.

كشّر السمين مبتسماً بفرح إذ رأى أنّ مرغريتا ليست غاضبة، وأخبرها بحماس أنه بلا سروال في اللحظة الراهنة لأنه، لشروده، تركه على نهر «إينيسيه»، حيث كان يسبح قبل ذلك، وأنه سيطير إلى هناك في الحال، وأن النهر ليس بعيداً من هنا. وبعد أن سألها عطفها ورعايتها أخذ يتراجع القهقهرى وظلّ يتراجع إلى أن زلّت قدمه وسقط على ظهره في الماء. لكن حتى وهو يسقط ظلّ محتفظاً على وجهه المحاط بفودين صغيرين بابتسامة الإعجاب والإخلاص.

أما مرغريتا فقد أطلقت صفيراً حاداً، وبعد أن امتطت المكنسة الطائرة طارت فوق النهر إلى الضفة الأخرى التي لم يكن ظلّ الجبل الجيري يبلغها، وكان ضوء القمر يغمرها كلها.

ما إن لامست مرغريتا العشب الرطب حتى دوّت الموسيقى أسفل أشجار الصفصاف بصوت أقوى، وتطايرت بفرح حزمة شرر من شعلة النار. تحت أشجار الصفصاف، التي تناثرت عليها أقراط موبّرة لطيفة تلوح في ضوء القمر، كان يجلس صفان من الضفادع سمينة الوجوه تعزف مارشاً حماسياً بمزامير خشبية، وهي تنفخ وجوهها وكأنها من مطاط. كانت قطع مشتعلة من خشب منخور، مدلاّة على أغصان الصفصاف أمام الموسيقيين، تضيء النوتات الموسيقية، وكان ضوء شعلة النار المتأرجحة يتراقص على سحنات الضفادع.

كان المارش يُعزف على شرف مرغريتا، وكان الاستقبال الذي استُقبلت به بالغ الحفاوة. أوقفت حوريات الماء الشفيفات غناءهن الكورالي ولوّحن لمرغريتا بالأعشاب المائية، ومن بعيد، من على

الضفة المخضرّة الموحشة، تناهت تأوّهات تحياتهنّ. وثبت الساحرات العاريات من خلف أشجار الصفصاف واصطففن صفاً واحداً وأخذن يركعن كسيدات البلاط الملكي. طار إليها أحدهم، وله حوافر ماعز، فلثم يدها ثمّ مدّ الحرير على العشب سائلاً ما إذا كانت الملكة قد استمتعت بالسباحة، وعرض عليها أن تستلقي وترتاح. وهو ما فعلته مرغريتا.

جلب لها صاحب حوافر الماعز كأساً من الشمبانيا فشربته فشعرت بالدفء في قلبها في الحال. وحين سألت مرغريتا عن مكان ناتاشا قيل لها إنها قد أنهت استحمامها وطارت على خنزيرها قدماً إلى موسكو لتنذرهم بقرب وصول مرغريتا ولتساعدهم على تجهيز ثوب لها.

الفترة القصيرة التي قضتها مرغريتا تحت أشجار الصفصاف تخللتها حادثة واحدة. فقد دوّى صفير في الجو وهوى في الماء جسم أسود من الواضح أنه قد أخطأ هدفه. وخلال هُنيهات مثل أمام مرغريتا ذاك البدين ذو الفودين نفسه، الذي قدّم نفسه بتلك الطريقة الخرقاء على تلك الضفة. يبدو أنه قد تمكّن من الذهاب إلى نهر «إينيسيه» والعودة، فقد كان يرتدي بذلة رسمية، لكنه كان مبتلاً من رأسه حتى أخمص قدميه، فقد خانه الكونياك ثانيةً، إذ هوى في الماء أثناء هبوطه رغم كل شيء. لكنه، حتى في هذا الموقف المؤسف، ظلّ محتفظاً بابتسامته، وسمحت له مرغريتا، وهي تضحك، بأن يقبّل يدها.

ثم أخذ الجميع يستعدون للانطلاق. عاودت الحوريات رقصهن في ضوء القمر وتلاشينَ فيه. سأل ذو حوافر الماعز مرغريتا بإجلال كيف وصلت إلى النهر، وحين علم أنها وصلت راكبةً مكنسة قال: «أوه، لماذا، هذا غير مريح»، وفي لمح البصر صنع من عودين ما يشبه هاتفاً واتصل طالباً من أحدهم إرسال سيارة في الحال، الأمر

الذي تحقق في دقيقة بالفعل. فقد سقطت سيارة صفراء مكشوفة في الجزيرة، إلا أنه لم يكن يجلس في مقعد السائق سائق عادي، وإنما غراب أسود طويل المنقار يعتمر سيدارة من المشمّع ويرتدي قفازين قمعيين.

خلت الجزيرة، وتلاشت الساحرات الطائرات في وهج القمر، وخمدت النار وغطّى الرماد الجمر.

أركب ذو الفودين وصاحب حوافر الماعز مرغريتا في السيارة، وهي غاصت في المقعد الخلفي الواسع. هدرت السيارة ووثبت وارتفعت حتى كادت تبلغ القمر، واختفت الجزيرة، واختفى النهر، وانطلقت مرغريتا إلى موسكو.

الفصل الثاني والعشرون

على ضوء الشموع

كان هدير السيارة المحلّقة الرتيب يهدهد مرغريتا، وكان ضوء القمر يبعث فيها دفئاً لطيفاً. أغمضت مرغريتا عينيها وأسلمت وجهها للريح وهي تفكّر بشيءٍ من الحزن بضفة النهر المجهولة التي غادرتها، شاعرةً أنها لن تراها ثانيةً أبداً. بعد كل السحر والأعاجيب في مساء هذا اليوم خمّنت مرغريتا إلى من بالتحديد يأخذونها، لكنّ هذا لم يفزعها، إذ إن رجاءها بأنها ستتمكّن هناك من استعادة سعادتها جعلها جسورة. وعلى أي حال لم يتسنَّ لها أن تحلم بهذه السعادة طويلاً في السيارة،. فإما أن الغراب كان يتقن عمله جيداً أو أن السيارة كانت جيدة، فحالما فتحت مرغريتا عينيها لم ترَ في الأسفل ظلمة الغابة وإنما أضواء جزيرة موسكو الراعشة. أدار الطائر الأسود - السائق العجلة الأمامية اليمنى «على الطاير» وحطّ بالسيارة في مقبرة خالية تماماً من الناس في منطقة دراغوميلوف. وبعد أن أنزل الغراب مرغريتا، التي لم تسأل عن شيء قط، قرب شاهدة أحد القبور، مع مكنستها، دحرج السيارة مباشرةً في منحدرٍ خلف المقبرة، فهوت السيارة في المنحدر مصدرةً قرقعة وتحطّمت فيه. ثم أدّى الغراب تحية عسكرية باحترام واعتلى العجلة وحلّق طائراً.

وفي الحال ظهرت بين القبور عباءة سوداء ولمع ناب في ضوء

القمر، وتعرّفت مرغريتا أزازيلو. أومأ أزازيلو لمرغريتا بأن تركب المكنسة، بينما هو نفسه وثب على شيش طويل، وحلّقا عالياً، ودون أن يلحظهما أحد حطّا بعد ثوانٍ على مقربة من المبنى رقم ٣٠٢ مكرّر في شارع سادوفايا.

عندما عبر رفيقا السفر البوابة، وهما يتأبطان المكنسة والشيش، لمحت مرغريتا شخصاً يعتمر قبعةً وينتعل جزمة عالية الساقين، ينتظر متململاً أحداً ما على الأغلب. ورغم خفّة وقع خطوات أزازيلو ومرغريتا إلاّ أن ذلك الشخص سمعها وانتفض مضطرباً لا يدري من صاحبها.

عند المدخل السادس استقبلهما شخص آخر شبيه بالأول إلى حدّ الإذهال. ومرة أخرى تكررت الحكاية ذاتها: خطوات. . . التفت الشخص باضطراب وتجهّم، لكنه بعد أن انفتح الباب وانغلق اندفع في إثر الداخلَين الخفيين، وأمعن النظر في المدخل، لكنه لم يرَ شيئاً بالطبع.

شخص ثالث، نسخة طبق الأصل عن الثاني، وبالتالي عن الأول، كان يناوب على بسطة درج الطابق الثالث، وكان يدخّن لفافة تبغ ثقيل. سعلت مرغريتا وهي تمرّ بجواره، فوثب المدخّن عن مقعده، كأنما وخزه أحدهم، وشرع يتلفّت حوله بقلق، ثم دنا من الدرابزين ونظر إلى الأسفل. في هذه الأثناء كانت مرغريتا ومرافقها قد صارا عند باب الشقة رقم ٥٠، لكنهما لم يقرعا الجرس، فقد فتح أزازيلو الباب بمفتاحه بلا صوت.

أول ما أثار ذهول مرغريتا كان العتمة التي وجدا نفسيهما فيها. لم تكن مرغريتا ترى شيئاً، كما في قبو، ولاشعورياً تشبّثت بعباءة أزازيلو خشية أن تتعثّر. لكن في هذه اللحظة ومض في الأعلى ضوء قنديل

وبدأ يقترب. سحب أزازيلو «عالماشي» المكنسة من تحت إبط مرغريتا فاختفت في العتمة دون أدنى صوت. ثم شرعا يرتقيان درجاً واسعاً بدا لمرغريتا بلا نهاية. أذهلها كيف يمكن لردهة شقة موسكوفية عادية أن تتسع لهذا الدرج اللامتناهي اللامرئي العجيب، لكن المحسوس جيداً. لكن الارتقاء انتهى هنا، وأدركت مرغريتا أنها تقف على بسطة الدرج. اقترب الضوء حتى كاد يلاصقها، فرأت مرغريتا وجهاً مضاءً لرجلٍ أسود طويل القامة يمسك هذا القنديل بيده. أولئك الذين ساقهم سوء حظهم في تلك الأيام أن يتواجدوا في طريقه كانوا ليتعرّفوه في الحال بالطبع، حتى في لسان ضوء القنديل الخافت، فقد كان كوروفييف، الذي هو فاغوت نفسه.

الحقيقة أنّ مظهر كوروفييف قد تغيّر كثيراً. فشعلة القنديل الراعشة لم تكن تنعكس في النظارة المتصدّعة التي آن أوان رميها في القمامة منذ زمنٍ بعيد، بل في نظارة بعدسة واحدة هي أيضاً، في الحقيقة، متصدّعة. كان شارباه الصغيران على وجهه الوقح مبرومين ومدهونين، وكان سبب سواد كوروفييف بسيطاً جداً، فقد كان يرتدي بذلة رسمية سوداء، وصدره فقط كان يتألق بالبياض.

انحنى المشعوذ، أو المرتّل، أو الساحر، أو المترجم، أو الله أعلم من يكون في الواقع، - باختصار، كوروفييف - ومرّ بالقنديل في الهواء بحركة واسعة داعياً مرغريتا أن تتبعه. كان أزازيلو قد اختفى.

قالت مرغريتا في سرّها: «أمسية غريبة جداً! كنت أتوقع أي شيء إلا هذا! أتكون الكهرباء مقطوعة عندهم أم ماذا؟ لكن أشدّ ما يثير الذهول مساحة الشقة. كيف يمكن لشقة موسكوفية أن تتسع لهذا كله؟ ببساطة هذا غير ممكن على الإطلاق».

على الرغم من خفوت ضوء قنديل كوروفييف إلاّ أن مرغريتا

أدركت أنها في صالة معتمة مترامية الأطراف تبدو للوهلة الأولى بلا نهاية، هذا ناهيكم عن الأعمدة. توقف كوروفييف بجوار إحدى الأرائك ووضع قنديله على منضدة صغيرة ما، ودعا مرغريتا للجلوس بحركة رسمية، بينما هو نفسه جلس ملتصقاً بها بوضعية تصويرية - واضعاً مرفقه على المنضدة الصغيرة.

بدأ كوروفييف يقول بصوتٍ كالصرير:

- اسمحي لي أن أقدّم نفسي: كوروفييف. هل يدهشك عدم وجود نور؟ لعلك فكّرت بالطبع أنه من باب التوفير؟ لا، لا، لا، وليقطع أول جلاّد نصادفه رأسي، ولو كان أحد الذين سيكون لهم لاحقاً اليوم شرف لثم ركبتيه، إن كان الأمر كذلك. ببساطة، السيد لا يحب نور الكهرباء. ونحن لا نشعله إلا في اللحظة الأخيرة. وصدّقي أنه سيكون كافياً حينذاك، بل لكان أفضل لو أنه كان أقلّ.

أعجبت مرغريتا بكوروفييف، وهدّأت ثرثرته المفرقعة من روعها، فقالت:

- لا. ما يذهلني أكثر كيف يتّسع هذا كله هنا، - ولوّحت بيدها مشيرةً إلى رحابة الصالة.

ابتسم كوروفييف بعذوبة ما جعل الظلال في التغضّنات حول أنفه ترتعش، وأجاب:

- هذا من أبسط الأمور. فمن يعرف البعد الخامس جيداً يسهل عليه توسيع المكان إلى الحدود التي يرغب فيها. بل وأقول لك يا سيدتي المحترمة إنّ بمقدوره توسيعه إلى حدود الله وحده يعلم بها! وبالمناسبة - واصل كوروفييف ثرثرته، - عرفت أناساً لا يملكون أدنى تصوّر ليس فقط عن البعْد الخامس بل وعن أي شيء آخر، ومع ذلك اجترحوا معجزات من قبيل توسيع مساكنهم. على سبيل المثال، أحد

المواطنين، حسبما قيل لي، حصل على شقة من ثلاث غرف في «زيملينوي فال» وحوّلها إلى شقة من أربع غرف في لحظة بلا أي بعد خامس أو غيره من الأمور التي تفقد المرء صوابه، وذلك بأن شطر إحدى الغرف إلى غرفتين بحاجز، ثم بادل شقته بشقتين مستقلتين في منطقتين مختلفتين بموسكو، إحداهما من ثلاث غرف والأخرى من غرفتين. وافقي أن الغرف صارت خمساً. ثم بادل الشقة ذات الثلاث غرف بشقتين مستقلتين كل منهما مؤلفة من غرفتين، وهكذا صار يملك ست غرف كما ترين بنفسك، رغم أنها مبعثرة بشكل فوضوي في موسكو كلها. وكان ينوي القيام بنقلته الأخيرة والأروع، بأن نشر إعلاناً في الجريدة بأنه يبادل ست غرف موزعة في مناطق مختلفة من موسكو بشقة واحدة من خمس غرف في «زيملينوي فال»، حين توقف نشاطه فجأةً لأسباب لا علاقة له بها. لعله الآن أيضاً يملك غرفة ما، لكني أؤكد لك أنها ليست في موسكو. هاكِ مثلاً هذا الداهية، بينما أنت تجادلينني عن البعد الخامس.

على الرغم من أن مرغريتا لم تجادل بخصوص البعد الخامس على الإطلاق، بل كوروفييف نفسه فعل ذلك، لكنها كانت تضحك بمرح وهي تستمع إلى مغامرات داهية الشقق. أما كوروفييف فقد واصل يقول:

- لكن هيا إلى مسألتنا يا مرغريتا نيكولاييفنا. إنك امرأة في منتهى الذكاء وقد خمّنت بالطبع من يكون سيدنا.

خفق قلب مرغريتا وأومأت برأسها، فقال كوروفييف:

- حسناً، حسناً، نحن أعداء الكتمان والغموض بشتى أشكاله. يقيم السيد حفلة راقصة كل سنة تدعى حفلة اكتمال البدر الربيعية أو حفلة الملوك المئة. إنه يقيمها للشعب! - هنا وضع كوروفييف يده

على خده وكأنّ سنّه تؤلمه، - على أي حال آمل أن تتأكدي من ذلك بنفسك. وإذاً، السيد أعزب، كما فهمت أنت نفسك بالطبع، لكن تلزمه سيدة، - وهنا بسط كوروفييف يده، - وافقي أنه، من دون سيدة. . .

كانت مرغريتا تصغي إلى كوروفييف، حريصةً على ألاّ تفوتها أي كلمة، وقد انشرح صدرها والأمل في السعادة يدير رأسها.

تابع كوروفييف يقول:

- وقد ترسّخ تقليد بأنّ السيدة يجب أن تحمل اسم مرغريتا، هذا أولاً، وثانياً يجب أن تكون من السكان المحليين. ونحن نسافر ونترحّل، كما ترين، ونتواجد في الوقت الراهن في موسكو. وقد عثرنا على مئة وإحدى وعشرين مرغريتا في موسكو، وهل تصدقين، - وهنا خبط كوروفييف على فخذه بيأس - ولا واحدة منهن مناسبة. وأخيراً، لحسن الحظ. . .

ابتسم كوروفييف ابتسامة معبّرة، مائلاً بقامته، ومرة أخرى ابترد قلب مرغريتا. هتف كوروفييف:

- باختصار! باختصار شديد: أتقبلين بأخذ هذه المهمة على عاتقك؟

- أقبل، - أجابت مرغريتا بحزم.

- طبعاً! - قال كوروفييف، ثم أردف وهو يرفع القنديل: - أرجو أن تتبعيني.

سارا بين الأعمدة، وفي النهاية دخلا قاعةً أخرى كانت لسببٍ ما تفوح فيها رائحة الليمون، حيث سمعت مرغريتا خشخات ما، وحيث مسّ رأسها شيء ما فارتعدت.

- لا تخافي، - هدّأ كوروفييف من روعها بعذوبة متأبطاً ذراعها، - إنها ألاعيب كوروفييف للحفلة الراقصة ليس إلاّ. وعموماً أسمح لنفسي أن أتجرّأ وأنصحك بألاّ تخشي شيئاً يا مرغريتا نيكولاييفنا، فهذا منافٍ للعقل. لا أخفي عليك أنّ الحفلة ستكون فخمة. إذ سنرى أشخاصاً كانوا يتمتعون بسلطة عظيمة بصورة استثنائية في حينه. لكن، في الحقيقة، ما إن تفكّري بمدى ضآلة قدراتهم مقارنةً بقدرات من لي الشرف بأن أكون من حاشيته حتى يغدو الأمر مضحكاً، بل أكاد أقول محزناً. ثم إنّ دمك، أنت نفسك، دم ملكي.

- لماذا دم ملكي؟ - همست مرغريتا بفزع ملتصقةً بكوروفييف.

- آخ أيتها الملكة، - زقزق كوروفييف مغازلاً، - إنّ مسائل الدم هي الأعقد في العالم! ولو سألنا جدّات جدّاتنا، خصوصاً اللواتي اشتهرن بتواضعهنّ، لتكشّفت لنا أسرار مذهلة يا مرغريتا نيكولاييفنا المحترمة، ولن أكون مخطئاً قط إذا ما ذكّرت بخلطة ورق اللعب العجيبة. هناك أمور لا يكون للفوارق الطبقية، ولا حتى للحدود بين الدول، أيّما تأثير فيها. مثلاً: أعتقد أنه لو قال أحدهم لإحدى الملكات الفرنسيات في القرن السادس عشر إنني بعد سنين كثيرة سأتأبّط ذراع حفيدة حفيدة حفيدتها إلى حفلة راقصة في موسكو لكانت ذُهلت أشدّ الذهول. لكن ها نحن ذا!

وهنا نفخ كوروفييف على قنديله فاختفى من يده، ورأت مرغريتا أمامها بصيص ضوء أسفل بابٍ معتم. طرق كوروفييف هذا الباب طرقةً خفيفة، فاضطربت مرغريتا بحيث اصطكّت أسنانها وسرت قشعريرة في ظهرها. انفتح الباب، وتبيّن أن الغرفة ليست واسعة جداً. رأت مرغريتا سريراً واسعاً من خشب البلوط عليها ملاءات متّسخة ومكرمشة ومكوّمة ووسادة، وأمام السرير كانت تنتصب طاولة محفورة

القوائم من خشب البلوط عليها شمعدان ذو أعشاش على شكل قوائم طيور لها مخالب، وفي هذه القوائم الذهبية السبع كانت تشتعل شموع غليظة. فضلاً عن ذلك كانت هناك رقعة شطرنج كبيرة وقطع رائعة الصنع على منضدة صغيرة، ومقعد صغير واطئ على سجادة صغيرة بالية. وكانت هناك أيضاً طاولة أخرى عليها فنجان ذهبي وشمعدان آخر أغصانه على شكل أفاعٍ. كانت تنبعث في الغرفة رائحة الكبريت والقطران، وكانت ظلال الشمعدانين تتقاطع على الأرض.

على الفور تعرّفت مرغريتا أزازيلو بين الحضور يقف عند مسند السرير، وكان الآن يرتدي بذلة رسمية، وفي ثيابه الأنيقة لم يعد أزازيلو يشبه قاطع الطريق ذاك الذي ظهر لمرغريتا في حديقة ألكسندروفسكي. انحنى أزازيلو لمرغريتا بمنتهى اللباقة.

وكانت تجلس على السجادة الصغيرة ساحرةٌ عارية، - وكانت غيللا إيّاها، تلك التي أثارت هلع صاحب بوفيه «الفاريتيه» الموقّر؛ والتي أجفلها الديك، لحسن الحظ، في ليلة العرض الشهير، - وكانت تحرّك في مقلاة شيئاً تنبعث منه رائحة كبريتية.

إضافةً إلى هؤلاء كان في الغرفة أيضاً قطّ أسود ضخم يجلس على صندلية عالية أمام منضدة الشطرنج ممسكاً الحصان بقائمته اليمنى.

نهضت غيللا وانحنت لمرغريتا، ووثب القط عن الصندلية وحذا حذوها، لكنه حين خفق بقائمته الخلفية اليمنى أوقع الحصان من يده فاندسّ تحت السرير يبحث عنه.

كانت مرغريتا، المتجمّدة من الخوف، لا تكاد تتبيّن هذا كله في ظلال الشموع المخاتلة. كان نظرها منجذباً إلى السرير الذي كان يجلس عليه ذاك الذي كان إيفان المسكين يؤكّد له منذ فترة قريبة جداً

في «بتريرشيه برودي» أنّ الشيطان لا وجود له. هذا الذي لا وجود له بالذات كان يجلس على السرير.

كانت عيناه مركّزتين على وجه مرغريتا. اليمنى تنطلق من قاعها شرارة ذهبية تنفذ إلى أعماق النفس، واليسرى فارغة وسوداء تشبه ثقب إبرة أو فوّهة بئر لا قرار لها تحتوي على شتّى الظلمات والظلال. كان وجه فولند مائلاً جانباً، وزاوية فمه اليمنى مشدودة إلى الأسفل، وعلى جبينه الأصلع العالي انحفرت تغضّنات عميقة تحاذي حاجبيه الرفيعين الحادّين. وكان جلد فولند كأنما أحرقه لفح الشمس لقرون.

كان فولند متمدداً على السرير لا يستره سوى قميص نوم طويل متّسخ والكتف اليسرى مرقّعة. وكانت رجله العارية مطوية تحته بينما الأخرى ممدودة على المقعد، وكانت غيللا تدهن ركبة هذه الرِجل السمراء بمرهمٍ يتصاعد منه دخان.

تبيّنت مرغريتا أيضاً على صدر فولند المكشوف الخالي من الشعر خنفساء منحوتة بشكل رائع من حجرٍ داكن اللون، نُقشت على ظهرها كتابة ما، معلّقة بسلسلة ذهبية. وكان ينتصب على قاعدة ثقيلة إلى جوار فولند على السرير مجسّم غريب الشكل للكرة الأرضية بدا كأنه حيّ وأنّ الشمس تنير أحد جوانبه.

امتد الصمت بضع ثوانٍ. «إنه يدرسني» قالت مرغريتا في نفسها وهي تحاول جاهدةً منع رجفان رجليها.

أخيراً بدأ فولند بالكلام مبتسماً ما جعل عينه التي تطلق الشرر وكأنها انطفأت.

- أرحّب بك أيتها الملكة، وأرجو أن تعذريني على ملابسي المنزلية.

كان صوته خفيضاً جداً بحيث بدا أقرب إلى الحشرجة في بعض الكلمات.

ثم تناول فولند سيفاً طويلاً عن السرير ولوّح به تحت السرير قائلاً:

- اخرج! اللعبة ملغاة. جاءتنا ضيفة.

- ولا بأيّ شكل، - صفّر كوروفييف فوق أذن مرغريتا بقلق كملقّن مسرحي.

- ولا بأيّ شكل... - قالت مرغريتا.

- يا سيدي... - نفخ كوروفييف في أذنها.

- ولا بأيّ شكل يا سيدي، - أجابت مرغريتا، بعد أن تمالكت نفسها، بخفوت لكن بوضوح، ثم أضافت مبتسمةً: - أرجوك لا توقف اللعبة. أعتقد أنّ مجلاّت الشطرنج كانت لتدفع أموالاً لا بأس بها لو استطاعت نشرها.

تنحنح أزازيلو بصوتٍ خافت مستحسناً، في حين رنا فولند إلى مرغريتا بتمعّن وقال ملاحظةً بدت كأنما يقولها لنفسه:

- نعم، كوروفييف محق! كيف تختلط الأوراق بصورة عجيبة! الدم!

ومدّ يده مستدعياً مرغريتا إليه، فدنت منه وهي لا تشعر بالأرض تحت قدميها العاريتين. وضع فولند يده الثقيلة كحجر، لكن الحامية كالنار في الوقت نفسه، على كتف مرغريتا وشدّها إليه وأجلسها على السرير بجواره، وشرع يقول:

- بما أنك لطيفة على هذا النحو الساحر، ولم أكن أتوقع سوى ذلك، فلنرفع الكلفة بيننا، - وانحنى ثانيةً على حافة السرير وصاح، - هل ستستمر هذه المهزلة طويلاً تحت السرير؟ اخرج أيها القط اللعين!

- لا يمكنني العثور على الحصان، - ردّ القط من تحت السرير بصوتٍ لاهث متصنّع، - لقد تدحرج إلى مكانٍ ما، وبدلاً منه يقع تحت يدي ضفدعٌ ما.

سأله فولند متظاهراً بالاستياء:

- لعلك تتخيّل أنك في ساحة مهرجان تسوّق؟ لم يكن هناك أيّ ضفدع تحت السرير! دع هذه الألاعيب الرخيصة للفاريتيه. إن لم تظهر أمامي الآن فسنعتبرك مستسلماً أيها الهارب اللعين.

- لن أستسلم أبداً يا سيدي! - زعق القط وفي الحال خرج من تحت السرير ممسكاً الحصان من حافره.

- أقدّم لكِ. . . - شرع فولند يقول، لكنه قاطع نفسه بنفسه: - لا، لا أطيق النظر إلى هذا البهلول. انظروا إلامَ حوّل نفسه تحت السرير.

كان القطّ ينحني في تلك الأثناء لمرغريتا محيياً، منتصباً على قائمتيه الخلفيتين وملطّخاً بالغبار. الآن كان القط يضع ربطة عنق رسمية بيضاء معقودة حول رقبته، وعلى صدره نظارة نسائية صدفية مربوطة بسير. فضلاً عن أنّ شاربيه كانا مطليين بالذهب!

- وما هذا أيضاً! - صاح فولند، - لماذا طليت شاربيك بالذهب؟ وما حاجتك بربطة العنق ما دمت لا تريدي سروالاً؟

- لا يفترض بالقطط ارتداء سراويل يا سيدي، - أجاب القط بوقار كبير، - أم لعلك ستأمرني بانتعال جزمة أيضاً؟ القطط لاتنتعل جزمات إلاّ في الحكايات يا سيدي. لكن هل سبق لكم أن رأيتم أحداً في حفلة من دون ربطة عنق؟ لا أنوي الظهور بمظهرٍ مضحك والمخاطرة بأن أُطرد شرّ طردة! كلٌّ يزيّن نفسه بما يستطيع. أعتقد أنّ كلامك يخصّ النظارة أيضاً يا سيدي!

- وماذا عن شاربيك؟...

- لستُ أفهم، - اعترض القط بجفاء، - لماذا كان بمقدور أزازيلو وكوروفييف، وهما يحلقان اليوم، أن يرشّا نفسيهما بالبودرة، وفيمَ هي أفضل من الذهب؟ لقد بَودرتُ شاربي، هذا كل ما في الأمر! لكانت مسألة أخرى لو أني حلقت! فالقط الحليق... إنها بشاعة حقاً، وإني مستعدّ للاعتراف بهذا ألف مرة. لكن عموماً، - هنا ارتعش صوت القط باستياء، - أرى أنّ عراقيل غير مبررة توضع أمامي، وأرى نفسي أقف أمام مشكلة جدية: أأحضر الحفلة عموماً أم لا؟ ماذا تقول لي بهذا الخصوص يا سيدي؟

وانتفخ القط من الاستياء بحيث بدا أنه على وشك الانفجار.

- أخ، محتال، محتال، - قال فولند وهو يهزّ رأسه، - كلما انحشر في الزاوية يبدأ بالتلاعب بالكلام كأحطّ دجالٍ على الجسر. اجلس فوراً وتوقف عن هذا الهذر.

- سأجلس، - أجاب القط وهو يجلس، - لكني أعترض على المسألة الأخيرة. فأقوالي ليست هذراً على الإطلاق، كما تفضّلت وعبّرت بحضور السيدة، بل سلسلة من النتائج المنطقية المترابطة بإحكام، الجديرة بأنّ يقدّرها حق قدرها عارفون من قبيل سيلستوس الإمبريقي ومارسيان كابيللا، بل وحتى أرسطو نفسه.

- كش ملك، - قال فولند.

- العفو، العفو، - ردّ القط وراح يحدّق في رقعة الشطرنج من خلال نظارته.

- وهكذا، - قال فولند مخاطباً مرغريتا، - أقدّم لك حاشيتي يا سيدتي. هذا المتحامق هو القط بيغيموت. وقد سبق ذلك أن تعرّفت

إلى أزازيلو وكوروفييف. وأقدّم لك خادمتي غيللا، وهي نشطة ونبيهة وما من خدمة تتعسّر عليها.

ابتسمت غيللا الحسناء، محوّلةً عينيها المخضرّتين نحو مرغريتا، دون أن تتوقف عن غرف المرهم ووضعه على ركبة فولند.

- هذه هي حاشيتي كلها، - اختتم فولند كلامه، وقطّب حاجبيه عندما ضغطت غيللا على ركبتيه بقوة أكثر مما يجب، - إنها مجموعة صغيرة ومتنوعة وبريئة كما ترين. - ثم صمت وراح يدير أمامه مجسّمه المصنوع بمهارة بحيث أن المحيطات الزرقاء عليه كانت تتحرّك، والقبّة على القطب كانت جليدية وثلجية كما لو أنها حقيقية.

في تلك الأثناء كانت تجري بلبلة على رقعة الشطرنج. فالملك المرتبك كلياً كان يراوح في المربّع بردائه الأبيض، رافعاً يديه بيأس، وكان هناك ثلاثة جنود مرتزقة يحملون الفؤوس ويرمقون في حيرة ضابطاً يلوّح بسيفه ويشير إلى الأمام، حيث يُرى في مربعين متجاورين، أبيض وأسود، فارسان أسودان من فرسان فولند على حصانين جامحين يحفران المربعين بحوافرهما.

أثار اهتمام وذهول مرغريتا البالغين أنّ قطع الشطرنج كانت حيّة.

نزع القط نظارته ودفع ملكه من ظهره برفق فأخفى ذاك وجهه بيديه في يأس.

- الوضع سيئ يا بيغيموت العزيز، - قال كوروفييف بصوتٍ خافتٍ لاذع.

- الوضع خطير لكنه غير ميئوس منه على الإطلاق، - ردّ بيغيموت، - فضلاً عن أنني على يقين من النصر النهائي. ينبغي وحسب تحليل الموقف جيداً.

وبدأ بإجراء تحليله هذا بطريقة بالغة الغرابة، وبالتحديد راح يفصّل سحناتٍ ما ويغمز ملكه.

- لن ينفعك شيء، - قال كوروفييف ملاحظاً، فصرخ بيغيموت:

- إي! الببغاوات تطير، وهو ما تنبّأت به!

وبالفعل تناهى من مكانٍ ما في البعيد أصوات أجنحةٍ كثيرة، فاندفع كوروفييف وأزازيلو خارجاً.

- آه، ليأخذكم الشيطان مع خزعبلات حفلتكم! - غمغم فولند دون أن يرفع عينيه عن مجسّمه.

ما إن اختفى كوروفييف وأزازيلو حتى اشتدّ غمز بيغيموت. في النهاية حزر الملك الأبيض ما يُطلَب منه، فخلع رداءه فجأةً ورماه في المربّع وفرّ هارباً خارج الرقعة، فارتدى الضابط رداء الملك الملقى أرضاً وشغل مكان الملك. عاد كوروفييف وأزازيلو.

- أكاذيب كالعادة، - دمدم أزازيلو ناظراً إلى بيغيموت شزراً.

- تهيّأ لي أني سمعت أصواتاً، - أجاب بيغيموت.

- وإذاً، هل سيطول الأمر؟ - سأل فولند، - كش ملك.

- لعلّي أخطأت السمع يا سيدي، - أجاب القط، - لكن ما من كش ملك ولا يمكن أن يكون.

- أكرّر، كش ملك.

- لقد أُنهكت يا سيدي: لا يوجد كش ملك. - ردّ القط بصوتٍ مصطنعٍ قلِق.

- الملك في المربّع ح ٢، - قال فولند دون أن ينظر إلى الرقعة.

- إني في رعب يا سيدي، - أنّ القط راسماً الهلع على سحنته، - إذ لا وجود للملك في هذا المربّع.

- ماذا؟ - سأل فولند في ذهول وراح يحدّق في الرقعة، حيث يقف في مربع الملك ضابط مديراً ظهره ويغطي وجهه بيديه.

- يا لك من نذل! - قال فولند مستغرقاً في التفكير.

- سيدي، إنني ألجأ إلى المنطق مجدداً، - قال القط ضامّاً قائمتيه إلى صدره، - إذا أعلن اللاعب كش ملك، في حين لا وجود للملك على الرقعة على الإطلاق، فإن الكش يعتبر باطلاً.

- هل ستستسلم أم لا؟ - صرخ فولند بصوتٍ رهيب.

- اسمح لي بالتفكير، - أجاب القط في استكانة وأسند مرفقيه على الطاولة، ودسّ أذنيه بين قائمتيه وراح يفكّر. فكّر طويلاً ثم قال أخيراً: - أستسلم.

- قُتل السافل العنيد، - همس أزازيلو.

- نعم، أستسلم، - ردّ قال القط، - لكنني أستسلم فقط لأنني لا أستطيع اللعب في جوٍّ من الاضطهاد من قِبَل الحسّاد! - ونهض واقفاً، وانسلّت قطع الشطرنج إلى العلبة.

- حان الوقت يا غيللا، - قال فولند، فاختفت غيللا من الغرفة، وواصل فولند يقول: - رِجلي تؤلمني بشدة، وفجأةً هذه الحفلة الراقصة.

- اسمح لي، - طلبت مرغريتا بصوتٍ خافت.

نظر إليها فولند بإمعان وقرّب ركبته إليها.

أحرق المرهم المائع، الساخن كالماغما البركانية، يديّ مرغريتا، لكنها دون أن تقطّب راحت تدهن ركبته به، حريصةً على عدم التسبّب له بالألم.

- المقرّبون يؤكّدون أنه روماتيزم، - شرع فولند يقول دون أن يرفع عينيه عن مرغريتا، - لكني أشكّ بشدّة أنّ ألم ركبتي هذا قد

تركته للذكرى ساحرة فاتنة تعرّفت إليها عن قرب عام ألف وخمسمئة وواحد وسبعين في جبال بروكين، في قسم الدراسات الشيطانية.

- آه، هل يعقل هذا! - قالت مرغريتا.

- إنه أمر تافه! سيزول هذا بعد قرابة ثلاثمئة عام. لقد نصحوني بأدوية عديدة، لكني، كما في القديم، ما زلت متمسكاً بوسائل جدتي. فقد ورّثتني جدتي العجوز الحيزبون أعشاباً مذهلة! قولي لي، بالمناسبة، ألا تعانين شيئاً ما؟ لعلّ لديك حزناً ما يسمّم روحك، أو كآبة؟

- لا يا سيدي، لا شيء من هذا، - أجابت مرغريتا الذكية، - والآن، وأنا عندكم، فإني أشعر بنفسي على خير ما يرام.

- الدم مسألة عظيمة، - قال فولند بمرح دونما سببٍ واضح، وأضاف: - أرى أن مجسّمي يثير اهتمامك.

- أوه نعم، فأنا لم أرَ قط شيئاً كهذا.

- إنها قطعة جيدة. بصراحة، أنا لا أحب أخبار الراديو، إذ تذيعها دائماً فتيات يلفظن أسماء الأماكن بطريقة غير مفهومة. فضلاً عن أنّ ثلثهنّ معقودات اللسان بعض الشيء، كأنما يتم اختيار فتيات من هذا القبيل قصداً. مجسّمي مريح أكثر بكثير، لا سيما أني يجب أن أعرف الأحداث بدقة. هل ترين، مثلاً، قطعة الأرض هذه، التي يغسل المحيط جنبها؟ انظري، ها هي مليئة بالنيران. لقد بدأت الحرب هناك، وإذا قرّبت عينيك فسترين حتى التفاصيل.

انحنت مرغريتا على المجسّم فرأت أنّ مربّع الأرض قد اتّسع وتلوّن بألوانٍ عديدة وتحوّل إلى ما يشبه خريطة ناتئة، ثم رأت شريط نهرٍ أيضاً وبقربه قرية مَا. البيت، الذي كان بحجم حبّة حمّص، كبر وصار بحجم علبة كبريت. فجأةً ودون صوت تطاير سطح البيت إلى

أعلى مع كرة من الدخان الأسود وانهارت الجدران بحيث لم يبقَ من العلبة المؤلفة من طابقين سوى كومة صغيرة يتصاعد منها دخان أسود. قرّبت مرغريتا عينيها أكثر فرأت قامة امرأة صغيرة مستلقية على الأرض وإلى جانبها طفلٌ صغير يطوّح بيديه في بركة دماء.

- ها قد انتهى كل شيء، - قال فولند مبتسماً، - لم يلحق أن يأثم. عمل «أبادونّا» لا غبار عليه.

- ما كنت لأودّ أن أكون إلى الجانب الذي يقف أبادونّا ضده، - قالت مرغريتا، - إلى جانب من هو؟

- كلما استرسلت في الحديث معك أقتنع أكثر بأنك ذكية جداً. - أجاب فولند بلطف، - أطمئنك، إنه حيادي بصورة نادرة ويتعاطف بتساوٍ مع الطرفين المتحاربين. لهذا حتى النتائج بالنسبة إلى الطرفين تكون متساوية. أبادونّا، - نادى فولند بصوتٍ خفيض، وفي الحال ظهرت من الجدار قامة شخصٍ نحيل يضع نظارة سوداء. ولسببٍ ما أحدثت هذه النظارة في مرغريتا تأثيراً قوياً بحيث إنها صرخت صرخةً خافتة ودسّت وجهها في رِجل فولند، فصاح بها: - هلاّ كففت عن ذلك، كم هم متوتّرون أناس اليوم. - ولوّح بيده فسفع ظهر مرغريتا بحيث سرى رنين في جسدها. - ها أنتِ ترين أنه يضع نظارة. فضلاً عن أنه لم يحدث، ولن يحدث، أن ظهر أبادونّا أمام أيٍّ كان قبل أوانه. ثم إنني هنا في نهاية المطاف. أنتِ في ضيافتي! أردت ببساطة أن أريك.

كان أبادونّا يقف بلا حراك.

- أمن الممكن أن يخلع نظارته لثانية؟ - سألت مرغريتا وهي تلتصق بفولند وترتعش، ولكن من باب الفضول هذه المرة.

- هذا بالذات غير ممكن، - قال فولند بجدية ولوّح بيده لأبادونا فاختفى وكأن لم يكن. - ماذا تريد أن تقول يا أزازيلو؟

- اسمح لي أن أقول يا سيدي إنّ عندنا غريبَين: فتاة حسناء تنشج وتتوسّل أن ندعها برفقة سيدتها، وعدا عن ذلك، معها، وأرجو المعذرة، خنزيرها. - أجاب أزازيلو.

- الحسناوات يتصرّفن بغرابة، - علّق فولند.

- إنها ناتاشا، ناتاشا! - صاحت مرغريتا.

- فلتبقَ مع سيدتها. أما الخنزير فإلى الطباخين!

- للذبح؟ - صاحت مرغريتا مذعورة، - العفو يا سيدي، إنه نيكولاي إيفانوفيتش، جارنا في الطابق السفلي. هناك سوء فهم، فقد دهنته ناتاشا بالمرهم كما ترى...

- العفو! - قال فولند، - من سيذبحه ولماذا؟ فليجلس مع الطباخين، هذا كل ما في الأمر! توافقينني في أنني لا أستطيع إدخاله إلى قاعة الحفلة!

- هذا ما كان ينقصنا... - أضاف أزازيلو وأعلن: - يكاد الليل ينتصف يا سيدي.

- آ، حسناً. - قال فولند، وأضاف مخاطباً مرغريتا: - تفضلي إذن! وإني أشكركِ سلفاً. لا ترتبكي ولا تخشي شيئاً. لا تشربي سوى الماء وإلاّ شعرت بالارتخاء وساءت حالتك. حان الوقت!

نهضت مرغريتا عن السجادة، وحينئذٍ برز كورفييف في الباب.

الفصل الثالث والعشرون

حفلة رقص عظيمة عند الشيطان

يكاد الليل ينتصف، ولا بدّ من الإسراع. كانت مرغريتا لا تكاد تبصر أمامها. تذكر مرغريتا أنها رأت شموعاً ومسبحاً من الأحجار الكريمة. ولمّا صارت مرغريتا في قاع حوض السباحة هذا صبّت عليها غيللا، بمساعدة ناتاشا، سائلاً ساخناً كثيفاً أحمر اللون. أحسّت مرغريتا بطعم مالح على شفتيها وفهمت أنهما تحمِّمانها بالدم. ثمّ حلّ محلّ الرداء الدموي رداءٌ كثيف شفاف ورديّ اللون، فشعرت مرغريتا بالدوار جرّاء زيت الورد. ثم أُلقيت مرغريتا على شرفةٍ بللورية وراحوا يدلّكونها بأوراقٍ خضر كبيرة حتى اللمعان. وهنا انسلّ القط وشرع يساعدهما، حيث جلس القرفصاء عند قدمي مرغريتا وأخذ يفرك كعبيها بطريقة وكأنه يمسح الأحذية في الشارع. لا تذكر مرغريتا من الذي خاط لها من بتلات زهرة ذابلة حذاءً، ولا كيف بُكِل الحذاء من تلقاء ذاته بأبازيم ذهبية. جذبت قوة ما مرغريتا ووضعتها أمام مرآة، وتلألأ في شعرها تاجٌ ملكي من الماس. وظهر كوروفييف من مكانٍ ما وعلّق على صدر مرغريتا صورة ثقيلة لكلب «بودِل» أسود في إطارٍ بيضوي معلّقة بسلسلةٍ ثقيلة. أثقلت هذه الزينة على الملكة كثيراً، فقد كانت السلسلة الآن تبري رقبتها، والصورة تحني قامتها. لكن هناك ما عوّض مرغريتا عن هذه المنغّصات التي

سبّبتها لها السلسلة والكلب الأسود، وهو ذلك الإجلال الذي صار كوروفييف وبيغيموت يعاملانها به.

- بسيطة، بسيطة، بسيطة! - غمغم بيغيموت عند باب الغرفة ذات المسبح، - لا مفرّ من ذلك، لازم، لازم، لازم. اسمحي لي، أيتها الملكة، أن أسديك نصيحة أخيرة. سيكون بين الضيوف أناسٌ، آه ما أشدّ تنوعهم، لكن إياك، أيتها الملكة مارغو، منح الأفضلية لأيٍّ منهم! إن لم يعجبك أحدهم... أدرك أنك بالطبع لن تُظهري هذا على وجهك... لا، لا، لا ينبغي التفكير في ذلك! سيلاحظ، سيلاحظ في اللحظة عينها. ينبغي أن تحبيه أيتها الملكة، أن تحبيه. لقاء ذلك ستتم مكافأة سيدة الحفلة مكافأةً عظيمة! وشيء آخر: لا تغفلي أحداً، حتى لو بابتسامة صغيرة إذا لم يتسنَّ لك الوقت للتفوّه بكلمة، ولو بالتفاتةٍ طفيفة برأسك. أي شيء إلاّ الإهمال؛ فهذا يسقمهم...

هنا خطت مرغريتا برفقة كوروفييف وبيغيموت من غرفة المسبح إلى ظلمةٍ دامسة.

- أنا، أنا، أنا سأعطي الإشارة! - همس القط، فأجاب كوروفييف في العتمة:

- هيّا.

- الحفلة! - زعق القط بصوتٍ حادّ، فأطلقت مرغريتا صرخةً على الفور وأغمضت عينيها لبضع ثوانٍ، وفي الحال انهالت عليها الحفلة على شكل نور ترافقه أصوات وروائح. ومتأبطةً ذراع كوروفييف، وجدت مرغريتا نفسها في غابةٍ استوائية. كانت ببغاوات ذات صدورٍ حمر وذيولٍ خضر متشبّثةً بنباتات متسلقة، وكانت تتقافر عليها وهي تصرخ بصوتٍ يصمّ الآذان: «أنا منبهر!». لكن سرعان ما

انتهت الغابة وحلّ محلّ جوها الخانق برودة قاعة حفلة الرقص وفيها أعمدة مصنوعة من حجرٍ متلألئ ضارب إلى الصفرة. وكانت هذه القاعة، مثلها مثل الغابة، خالية، سوى عند الأعمدة حيث كان يقف بلا حراك زنوجٌ عراة رؤوسهم معصوبة بعُصابات فضية. وحين دخلت مرغريتا القاعة، طائرةً مع حاشيتها التي انضمّ إليها أزازيلو في مكانٍ ما، اسمرّت وجوههم سمرةً داكنة - قذرة من الاضطراب. وهنا ترك كوروفييف ذراع مرغريتا وهمس:

- على السوسن مباشرةً!

نما جدارٌ من السوسن الأبيض أمام مرغريتا، وخلفه رأت ما لا يحصى من مصابيح لها قلنسوات، وأمامها الصدور البيض والأكتاف السود لأناس يرتدون بذلات رسمية. حينئذٍ أدركت مرغريتا مصدر أصوات الحفلة. انهال عليها هدير الأبواق، وانصبّ على جسدها، كالدماء، زعيق الكمنجات العالي المتسلل عبر هدير الأبواق. كانت أوركسترا مؤلفة من قرابة مئة وخمسين شخصاً تعزف موسيقى البولونيز.

لمّا رآها الشخص ذو البذلة الرسمية المنتصب أمام الفرقة الموسيقية شحب لونه وابتسم وبتلويحةٍ من يده فجأةً جعل الفرقة كلها تنهض وقوفاً، ودون أن توقف موسيقاها للحظةٍ واحدة انهالت الفرقة، وهي واقفة، بموسيقاها على مرغريتا. أدار الشخص المشرف على الفرقة الموسيقية ظهره لها وانحنى انحناءةً عميقة باسطاً يديه على اتساعهما، فابتسمت مرغريتا ولوّحت له بيدها.

- لا، لا يكفي، لا يكفي، - همس كوروفييف، - فهو لن ينام طوال الليل. اهتفي له: «أحييكَ يا ملك الفالس!».

هتفت مرغريتا بهذه التحية فأدهشها أنّ صوتها، الملآن كصوت

جرس، غطّى على زعيق الأوركسترا. ارتعش الرجل من السعادة ووضع يده اليسرى على صدره مواصلاً التلويح بيمناه بعصا بيضاء للأوركسترا.

- لا يكفي، لا يكفي، - همس كوروفييف، - انظري إلى عازفي الكمنجات في الصف الأول من جهة اليسار وأومئي لهم بحيث يعتقد كلٌّ منهم أنك قد عرفتِه شخصياً؛ فليس هنا سوى أشهر عازفي العالم. أومئي مثلاً لهذا الذي خلف المنصّة الأولى، إنه فييتان. هكذا، جيد جداً. والآن تابعي على هذا النحو.

سألته مرغريتا وهي تطير مبتعدةً:

- من هو قائد الأوركسترا؟

- يوهان شتراوس، - صاح القط، - ولأُشنق على شجرة معرّشة في حديقةٍ استوائية إذا كانت أوركسترا كهذه قد عزفت في أي حفلة راقصة يوماً. أنا من دعاها! ولاحظوا أنّ أياً منهم لم يمرض أو امتنع عن المجيء.

كانت القاعة الأخرى خالية من الأعمدة، وبدلاً منها كانت تنتصب جدران من زهور حمراء ووردية وبيضاء. صليبية من جهة، ومن الجهة الأخرى جدار من أزهار الكاميليا اليابانية الوبرية. وبين هذه الجدران كانت تتدفق مخرخرةً نافورات، والشمبانيا تفور بفقاعات في ثلاثة أحواض سباحة أحدها بلونٍ بنفسجيٍّ شفاف، والثاني بلون الياقوت، والثالث بللوري. وبجوارها كان الزنوج بعُصاباتهم الحمر يتحركون جيئةً وذهاباً وهم يملأون الكؤوس بمغارف فضية من الأحواض. لاح شقّ في الجدار الزهري فيه مرسح، وعلى المرسح كان يقف شخص في بذلة فراك بذيلٍ سنونويٍّ أحمر وقد احتدم غيظاً، وأمامه كان الجاز

يدوّي دويّاً لا يُطاق. ما إن رأى قائد الأوركسترا مرغريتا حتى انحنى أمامها عميقاً بحيث لامست يداه الأرض ثم استقام واقفاً وصاح بصوتٍ ثاقب:

- هللويا!

ضرب على إحدى ركبتيه مرة، ثم ضرب بيده الأخرى على ركبته الأخرى، ثم اختطف من يد العازف الواقف في الطرف صنجاً وضرب به العمود.

جلّ ما رأته مرغريتا، وهي تحلّق عالياً أنّ عازف الجاز البارع، منازلاً لحن البولونيز الذي كان ينفخ في ظهر مرغريتا، كان يهوي بصنجه على رؤوس عازفي الجاز الذين كانوا يخرّون على ركبهم بهلعٍ مضحك.

أخيراً طاروا خارجاً إلى بسطة الدرج التي - كما أدركت مرغريتا - استقبلها عليها كوروفييف مع قنديله في العتمة. الآن على هذه البسطة كان النور المتدفق من عناقيد عنب بللورية يعمي الأبصار. أُجلست مرغريتا في مكان، وتبيّن أن هناك عموداً واطئاً من الجمشت أسفل يدها اليسرى.

همس لها كوروفييف:

- يمكنك وضع يدك عليه إذا ساءت حالتك كثيراً.

ألقى شخص أسود البشرة تحت قدمي مرغريتا وسادةً مطرّزة بصورة كلب ذهبي، فثنت ركبتها، مستندةً إلى يد أحدهم، ووضعت قدمها اليمنى على الوسادة. حاولت مرغريتا تفحّص ما حولها. كان كوروفييف وأزازيلو يقفان إلى جوارها بوضعية استعراضية، وكان يقف بجانب أزازيلو ثلاثة شبّان ذكّروها لسببٍ مبهم بأبادونّا. شعرت مرغريتا ببرودة تلفح ظهرها فالتفتت فرأت في الخلف النبيذ يخرخر

متدفقاً من جدارٍ مرمريٍّ ويصبّ في حوضٍ متجمّد، وعند قدمها اليسرى أحسّت بشيءٍ دافئ وكثّ الشعر: كان بيغيموت.

كانت مرغريتا في مكانٍ مرتفعٍ، وكان يمتد تحت قدميها في الأسفل درجٌ هائل مفروش بالسجّاد. وبعيداً جداً في الأسفل، كما لو أنّ مرغريتا تنظر بالمنظار بالمقلوب، رأت غرفة بوّاب ضخمة بموقدٍ هائل الحجم يمكن لشاحنة وزنها خمسة أطنان أن تمرّ عبر شدقها الأسود البارد. غرفة البواب والدرج، المغموران بضوءٍ ساطع مبهر، كانا خاليين. وكانت أصوات الأبواق تتناهى الآن إلى مرغريتا من بعيد. ظلّوا بلا حراك على هذا النحو قرابة دقيقة.

سألت مرغريتا كوروفييف:

- فأين الضيوف إذاً؟

- سيأتون أيتها الملكة، سيأتون. وسيكون عددهم كافياً. والحقيقة أنني أفضّل قطع الأشجار على استقبالهم هنا على هذه البسطة.

- قطع الأشجار أمر يسير، - تلقّف القط المحبّ للثرثرة الكلام، - أما أنا فعلى استعداد للعمل جابياً في الترام، رغم أنّ ما من عملٍ في الدنيا أسوأ من هذا العمل.

- يجب أن يكون كل شيء مهيّأً مسبقاً أيتها الملكة، - شرع كوروفييف يشرح وعينه تبرق من خلال نظارته المشققة. - إذ ليس هناك ما يثير الاشمئزاز أكثر من الضيف الذي يصل أولاً فيتجول هنا وهناك لا يدري ماذا يفعل، بينما زوجته السليطة تقرّعه هامسةً على وصولهم قبل الجميع. يجب رمي حفلات كهذه في المزبلة أيتها الملكة.

- في المزبلة بالتحديد، - أكّد القط.

- لم يبقَ سوى عشر ثوانٍ تقريباً على انتصاف الليل، - قال كوروفييف، ثم أردف: - ستبدأ الآن.

بدت هذه الثواني العشر لمرغريتا طويلة جداً. ويبدو أنها قد انقضت، من دون أن يحدث شيء مطلقاً. لكن فجأةً دوّى شيء ما في الأسفل في الموقد الضخم وظهرت منه مشنقة تتأرجح عليها جثة نصف مفتتة. أفلتت الجثة من الحبل وارتطمت بالأرض ووثب منها شخص وسيم أسود الشعر يرتدي بذلة فراك وينتعل حذاءً لمّاعاً. ثم هرع من الموقد راكضاً تابوت صغير شبه مترمِّد، وطار غطاؤه وخرجت منه جثة أخرى. هرول الوسيم نحوه بلباقة ومدّ له يده على شكل كعكة، فاستحالت الجثة الثانية امرأةً تنتعل حذاءً أسود وعلى رأسها ريش أسود، وحينئذٍ راح كلاهما، الرجل والمرأة، يصعدان الدرج بخفة.

هتف كوروفييف:

- إنهما أول القادمين، السيد جاك وزوجته. أقدّم لك، أيتها الملكة، أحد أكثر الرجال إثارةً للاهتمام! مزوِّر نقود مثابر، خائن للدولة، لكنه كيميائي لا بأس به. - ثم تابع كوروفييف يقول لمرغريتا هامساً، - اشتهر بأنه دسّ السم لعشيقة الملك، وهذا لا يحدث لأيٍّ كان! انظري إليه كم هو وسيم!

نظرت مرغريتا الممتقعة الوجه إلى الأسفل فاغرة الفم ورأت كيف تختفي المشنقة والتابوت في بابٍ جانبي لغرفة البوّاب.

- لك إعجابي الشديد، - زعق القط مباشرةً في وجه السيد جاك الذي كان يصعد الدرج.

في هذه الأثناء خرج من الموقد هيكل عظمي بلا رأس ومبتور اليد وسقط على الأرض واستحال رجلاً في بذلة رسمية.

كانت زوجة السيد جاك تجثو الآن على ركبةٍ واحدة أمام مرغريتا وتقبّل ركبتها وقد امتقع وجهها من الاضطراب.

- أيتها الملكة، - غمغمت زوجة السيد جاك.

- لكِ إعجاب الملكة، - صاح كوروفييف.

- أيتها الملكة... - قال السيد جاك الوسيم بصوتٍ خافت.

- لك إعجابنا، - عوى القط.

كان مرافقو أزازيلو الشبان يدفعون الآن السيد جاك وزوجته جانباً، وهم يبتسمون ابتسامات لا حياة فيها لكن مرحّبة، إلى حيث كؤوس الشمبانيا التي كان الزنوج يمسكونها بأيديهم. وكان يصعد الدرج راكضاً رجل وحيد يرتدي بذلة رسمية.

- الكونت روبرت، - همس كوروفييف لمرغريتا، - شخص مثير للاهتمام كسابق عهده. انظري كم هذا مضحك أيتها الملكة؛ هذه حالة معاكسة: هذا الكونت كان عشيق الملكة ودسّ السمّ لزوجته.

- يسرّنا حضورك أيها الكونت - صاح بيغيموت.

ثم سقطت من الموقد خارجاً ثلاثة توابيت، الواحد تلو الآخر، وهي تتخلّع وتنغلق، وخرج في إثرها شخص في رداء أسود لحق به آخر يركض خارجاً من الشدق الأسود وطعنه في ظهره بسكين. سُمعت في الأسفل صرخة مكتومة، وهرولت خارجةً من الموقد جثة متفسخة كلياً. أغمضت مرغريتا عينيها، فإذا بيد أحدهم تمتد إلى أنفها بزجاجة ملح أبيض، بدا لمرغريتا أنها يد ناتاشا. أخذ الدرج يغصّ بالوافدين، والآن على كل درجة من الدرجات كان هناك رجال يرتدون الفراك، يبدون متشابهين تماماً من بعيد، ترافقهم نساء عاريات لا يميز الواحدة عن الأخرى سوى لون الريش على رؤوسهن وأحذيتهن.

اقتربت من مرغريتا سيدة تعرج في مشيتها، في قدمها اليسرى

جزمة خشبية غريبة الشكل، غاضّةً بصرها كالراهبات، نحيلة، رزينة، ولأمرٍ ما تلفّ رقبتها بعصابة عريضة خضراء اللون.

- من هذه الخضراء؟ - سألت مرغريتا بشكل آلي.

- إنها أشدّ النساء فتنةً ووقاراً، - همس كوروفييف، - أقدّم لك السيدة توفانا، كانت تتمتع بشهرةٍ خارقة من بين فاتنات نابولي، وكذلك بين نساء باليرمو، ولا سيما بين اللواتي ضقن ذرعاً بأزواجهن، إذ يحدث يا مولاتي أن تسأم المرأة زوجها.

- نعم، - أجابت مرغريتا بصوتٍ مكتوم، وفي الوقت نفسه ابتسمت لاثنين ممن يرتدون بذلات رسمية راحا ينحنيان، الواحد تلو الآخر، أمامها، وهما يلثمان ركبتها ويدها.

- كأس شمبانيا يا حضرة الدوق! لك إعجابي! - صاح كوروفييف لأحدهم وهو يهمس لمرغريتا في الوقت نفسه، - وهكذا، فالسيدة توفانا كانت تتعاطف مع هاته النساء التعسات وتبيعهنّ سائلاً ما في قوارير. وكانت الزوجة تسكب هذا السائل في حساء زوجها، فيحتسيه ذاك ثم يشكر زوجته على لطفها شاعراً بنفسه في أحسن حال. والحقيقة أنه بعد بضع ساعات يبدأ يشعر بالعطش الشديد، ثم يستلقي في السرير، وما هو إلا يوم واحد حتى تغدو النابولية الحسناء، التي أطعمت زوجها الحساء، حرة كنسمة الربيع.

- وما خطب قدمها؟ - سألت مرغريتا وهي لا تنفكّ تمدّ يدها للضيوف اللاحقين بالسيدة توفانا العرجاء، - ولِمَ هذا الاخضرار في عنقها؟ لِمَ عنقها كامد اللون؟

- لك إعجابي أيها الأمير! - صاح كوروفييف، وفي هذه الأثناء همس لمرغريتا: - عنق رائعة، لكنها أُصيبت بمكروهٍ في السجن. وفي قدمها، أيتها الملكة، جزمة إسبانية، أما الشريط فإليك السبب:

حين علم السجانون أنّ قرابة خمسمئة زوج، ممّن خانهم الحظ وتمّ اختيارهم، قد غادروا نابولي وباليرمو إلى الأبد، قاموا بخنق السيدة توفانا في السجن في سورة غضبهم.

- يا لسعادتي، أيتها الملكة السوداء، أن يتاح لي هذا الشرف الرفيع، - همست توفانا كالراهبات محاولةً الركوع على ركبتها، لكنَّ الجزمة الإسبانية كانت تعيقها، فساعدها كوروفييف وبيغيموت على النهوض.

- هذا يسعدني، - أجابتها مرغريتا وهي تمدّ يدها للآخرين في الوقت نفسه.

الآن كان تيار من البشر يصعد الدرج. لم تعد مرغريتا ترى ما يجري في غرفة البوّابين. كانت ترفع وتخفض يدها بصورة آلية، وتبتسم للضيوف كاشفةً عن أسنانها برتابة. الآن كان الصخب يتعالى فوق بسطة الدرج، ومن قاعات الرقص التي غادرتها مرغريتا كانت الموسيقى تتناهى كهدير البحر.

- أما هذه فامرأة مملة، - لم يعد كوروفييف يهمس بل يتكلم بصوتٍ عالٍ مدركاً أنّ أحداً لن يسمعه في هدير الأصوات، - تعشق حفلات الرقص، وتحلم طوال الوقت أن تشكو منديلها.

لمحت مرغريتا تلك التي أشار إليها كوروفييف بين الصاعدين. كانت امرأة شابة في نحو العشرين من عمرها، جمال قوامها خارق، لكن عينيها قلقتان لجوجتان.

- أي منديل؟ - سألت مرغريتا، فشرع كوروفييف يشرح:

- خصّصوا لها خادمة، وطوال ثلاثين سنة كانت الخادمة تضع لها منديلاً على المنضدة أثناء الليل. وما إن تستيقظ حتى تجده أمامها. أحرقته في الموقد وأغرقته في النهر، لكن دون جدوى.

- أي منديل؟ - همست مرغريتا وهي ترفع وتخفض يدها.

- ذو الكنار الأزرق. القصة أنها، عندما كانت تعمل في مقهى، ناداها صاحب المقهى إلى المستودع، وبعد تسعة أشهر أنجبت صبياً، فأخذته إلى الغابة وحشت فمه بمنديل ثم دفنته. في المحكمة قالت إنها لم يكن لديها ما تطعمه لابنها.

- وأين صاحب هذا المقهى؟ - سألت مرغريتا.

- أيتها الملكة، - فجأةً صرّ القط من الأسفل، - اسمحي لي أن أسألك: وما شأن صاحب المقهى هنا؟ فليس هو من خنق الطفل في الغابة!

دون أن تتوقف عن الابتسام وعن تحريك يدها اليمنى، غرزت مرغريتا أظفارها الحادّة في أذن بيغيموت وهمست له:

- إذا أبحت لنفسك، يا وغد، التدخل في الحديث مرةً أخرى...

صاصأ بيغيموت بطريقة لا تليق بجو الحفلات وحشرج يقول:

- ستتورّم أذني أيتها الملكة... لِمَ إفساد الحفلة بأذن متورّمة؟.. كنت أتكلم قانونياً... من منظور القانون... سأسكت، سأسكت... لا تعتبريني قطاً بل سمكة، فقط دعي أذني.

أفلتت مرغريتا أذنه، وإذا بالعينين اللجوجتين الكابيتين تمثلان أمامها.

- أنا سعيدة، أيتها الملكة صاحبة الحفلة، أنني مدعوّة إلى حفلة اكتمال البدر العظيمة.

- وأنا مسرورة برؤيتك، - أجابت مرغريتا، - مسرورة جداً. هل تحبين الشمبانيا؟

- ما هذا الذي تفعلينه أيتها الملكة؟! - صاح كوروفييف في أذن مرغريتا بصوتٍ يائس ولكن غير مسموع، - سيحدث ازدحام!

- أحبّها، - قالت المرأة بتوسل، وفجأةً راحت تكرّر بصورة آلية: - فريدا، فريدا، فريدا! اسمي فريدا يا مولاتي!

- اِشربي إذن حتى الثمالة يا فريدا، ولا تفكري في شيء، - قالت مرغريتا.

مدّت فريدا كلتا يديها نحو مرغريتا، لكن كوروفييف وبيغيموت أمسكاها بمنتهى الرشاقة من ذراعيها، واختفت وسط الحشد.

كان الناس يتدفقون من الأسفل صفوفاً، وكأنما يقتحمون الفسحة التي تقف عليها مرغريتا. كانت أجساد نسائية عارية تصعد محاطة برجال يرتدون الفراك. وكانت تنهال على مرغريتا أجساد سمر وبيض وبلون حبّات البنّ وسود سواداً مطلقاً. وكانت الحجارة الكريمة تتراقص وتتلألأ وتنثر الشر في وابلٍ من الضوء ينعكس على الشعور الصهب والسود والكستنائية الفاتحة كالكتان. وكانت الأزرار الماسية على صدور الرجال تومض كأنما رشّ أحدهم طابور الرجال بقطرات من الضوء. وكانت مرغريتا تشعر بشفةٍ تلثم ركبتها في كل ثانية، وفي كل ثانية تمدّ يدها إلى الأمام للتقبيل، ووجهها مشدود بقناع ترحيب جامد.

- لك إعجابي، لك إعجابنا، لك إعجاب الملكة. - كان كوروفييف يرنّم برتابة.

- لك إعجاب الملكة، - كان أزازيلو يخنّ وراء ظهره، وكان القط يصيح:

- لك إعجابي.

- المركيزة سمّمت أباها وأخويها وأختيها بسبب الإرث! - غمغم كوروفييف، - لك إعجاب الملكة! السيدة مينكينا، آخ، يا لحسنها! عصبية بعض الشيء. لِمَ كان عليها حرق وجه الخادمة بمكواة الشعر! طبعاً في ظروف كهذه يذبحون! لك إعجاب الملكة! أيتها الملكة ثانية انتباه: الإمبراطور رودولف، ساحر وكيميائي. كيميائي آخر شُنق. آه، ها هي ذي! آه، يا للماخور الرائع الذي كان لديها في ستراسبورغ! لك إعجابنا! خياطة من موسكو، نحبها جميعاً لمخيلتها التي لا تنضب، كانت تدير دار أزياء وخطرت لها فكرة مضحكة بصورة مرعبة: ثقبت ثقبين صغيرين في الجدار. . .

- دون علم النساء؟ - سألت مرغريتا.

- كلهن بلا استثناء كن يعلمن، أيتها الملكة، - أجاب كوروفييف، - لك إعجابي. هذا الفتى ابن العشرين تميز منذ طفولته بنزواته الغريبة، كان حالماً وغريب الأطوار. أحبته إحدى الفتيات فأخذها وباعها لبيت دعارة.

من الأسفل كان يتدفق نهرٌ لا تُرى له نهاية، وظلّ منبعه، الموقد الضخم، يغذّيه. على هذا النحو مرت ساعة، وأخرى. وهنا بدأت مرغريتا تشعر أن سلسلتها أضحت أثقل من ذي قبل، وحدث لديها أمر غريب، وكان عليها الآن أن تبذل جهداً لترفعها. لم تعد تعنيها ملاحظات كوروفييف المثيرة للاهتمام، وصارت العيون المغولية الحول والوجوه البيض والسود متشابهة لديها، فكانت تمتزج وتتداخل أحياناً ويبدأ الهواء بينها، لسببٍ ما، يهتز ويتدفق. وفجأةً وخز ألمٌ حاد، كإبرة، يد مرغريتا اليمنى، فأطبقت أسنانها ووضعت مرفقها على المنضدة. الآن كان يتناهى إليها من القاعة التي خلفها حفيفٌ ما، كصوت ارتطام أجنحة بجدران، فأدركت أن جحافل المدعوين التي لم

يُسمَع لها مثيل ترقص هناك، وبدا لمرغريتا أن حتى الأرضية الرخامية والفسيفسائية والبللورية في هذه القاعة الغريبة تنبض بإيقاع رتيب.

لم يعد يعني مرغريتا لا الإمبراطور كاليغولا ولا ميسّالين، كما لم يعد يعنيها أيّاً من الملوك أو الدوقات أو الفرسان أو المنتحرين أو المسمّمات أو المشنوقين أو القوّادات أو السجّانين أو الغشّاشين في القمار أو الجلاّدين أو المخبرين أو الخونة أو المجانين أو الوشاة أو المغويين. لقد تبلبلت أسماؤهم جميعاً في رأسها، وجُبلت وجوههم في جبلة ضخمة واحدة، باستثناء وجه واحد استقرّ في ذاكرتها راح يقضّ مضجعها، هو وجه مالُوتا سكوراتوف المطوّق بلحية نارية فعلاً. ارتخت رجلا مرغريتا، وكانت تخشى أن تبكي في أي لحظة. كانت أشدّ الآلام هي التي تسببها ركبتها اليمنى التي كانوا يلثمونها. فقد تورّمت وازرقّ جلدها، على الرغم من أنها دلّكتها مرات عدة بإسفنجة تفوح برائحةٍ ما. ومع انقضاء الساعة الثالثة نظرت مرغريتا إلى الأسفل بعينين يائستين تماماً وارتعشت بفرح: كانت كثافة تيار الضيوف تقلّ.

همس لها كوروفييف:

- إن قوانين حفلات الرقص متماثلة أيتها الملكة. ستخفّ الموجة الآن. أقسم أننا لا نطيق اللحظات الأخيرة. ها هي جماعة متسكّعي بروكن، إنهم يصلون دوماً في آخر لحظة. بالفعل، إنهم هم. مصّاصا دماء سكّيران... هذا كل شيء؟ آه لا، ها هو الثالث. غير معقول، اثنان!

كان آخر مدعوَين يصعدان الدرج. قال كوروفييف زارّاً عينيه خلف زجاج نظارتيه:

- آه نعم، هذا شخص جديد، آه نعم نعم، لقد زاره أزازيلو

مرةً، وعلى كأس من الكونياك أرشده إلى كيفية التخلّص من شخص كان يخشى كثيراً أن يفضحه. وهكذا طلب هذا الشخص من أحد معارفه، وكان مديناً له بخدمة، أن يرشّ جدران المكتب بالسمّ.

- ما اسمه؟ - سألت مرغريتا.

- الحقيقة أنني نفسي لا أعرف، يجب سؤال أزازيلو. - أجاب كوروفييف.

- ومن هذا الذي معه؟

- إنه أكثر تابعيه استعداداً لتنفيذ أوامره. لك إعجابي! - صاح كوروفييف لآخر اثنين.

خلا الدرج، ومن باب الحيطة انتظروا بعد قليلاً، لكن أحداً لم يخرج من الموقد.

في ثانية ألفت مرغريتا نفسها في تلك الغرفة إياها ذات حوض السباحة، دون أن تدري كيف حدث ذلك، فانهارت فوراً على الأرض وهي تبكي من الألم في يدها ورجلها. لكن غيللا وناتاشا أخذتاها ثانيةً إلى تحت الدوش الدموي، وهما تهدّآن من روعها، وراحتا تدلّكان جسمها ثانيةً، فانتعشت من جديد.

همس لها كوروفييف الذي ظهر إلى جانبها:

- يجب علينا الطواف في القاعات أيضاً وأيضاً، أيتها الملكة مارغو، حتى لا يشعر الضيوف المحترمون أنهم قد أُهملوا.

ومن جديد طارت مرغريتا من الغرفة ذات حوض السباحة. على المرسح، خلف شجيرات السوسن، حيث كانت تُعزف أوركسترا ملك الفالس، كان يتعالى بحدّة الآن جازٌ قرديّ. كانت غوريلا ضخمة لها فودان كثّان أشعثان، وفي يدها بوق، تقود الفرقة وهي تتراقص في

تثاقل. كان «الأورانغوتانغات»[1] يجلسون صفاً واحداً وهم ينفخون في أبواق لامعة، وقد اعتلت أكتافهم قرود شمبانزي مرحة مع آلات الهارمونيكا. وكان اثنان من قردة الهامادريلا، بلبدتيهما الشبيهتين بلبدة الأسد، يعزفان على آلتي بيانو، لكنّ موسيقى البيانو كانت تضيع وسط هدير وأزيز ودوّي السكسوفات والكمنجات والطبول التي في قوائم الغبونات والمندريلات والقشش[2]. كانت على الأرضية البللورية أعداد لا تحصى من الأزواج، وكأنما اندغموا في كتلة واحدة، يتحركون بمهارة وخفة مدهشتين، ويدورون في اتجاهٍ واحد كجدارٍ مرصوص يهدّد باكتساح كل ما يعترض سبيله. وكانت فراشات حية تتنزّل على حشود الراقصين، وتتساقط الورود من السقف. وحين كانت الكهرباء تنطفئ كانت تيجان الأعمدة تشتعل بآلاف مؤلفة من الحُباحب المضيئة وتطوف في الهواء أضواء مستنقعية.

بعد ذلك وجدت مرغريتا نفسها في حوض سباحة هائل الحجم محاط بأعمدة. كان تمثال أسود عملاق للإله نبتون يقذف من شدقه تياراً من مياه وردية اللون، وكانت تنبعث من الحوض رائحة شمبانيا مُسكِرة. هنا كان يسود مرحٌ طبيعي لا تكلّف فيه. وكانت السيدات يرمين أحذيتهن من أقدامهن وهنّ يتضاحكن ويناولن حقائبهن لأزواجهن أو للزنوج الذين يهرولون وبأيديهم المناشف، ثم يقذفن بأنفسهن في الحوض كالسنونوات وهنّ يتصايحن، فتتصاعد في الهواء أعمدةٌ من الزبد. وكان قعر الحوض يضيء من الأسفل بضوءٍ يخترق كثافة النبيذ، وتُرى فيه الأجساد الفضية العائمة. كنّ يخرجن من

---

(١) مفردها أورانغوتانغ، وهو إنسان الغابة.
(٢) من فصائل القرود.

الحوض وهنّ ثملات تماماً، وكانت قهقهاتهن ترنّ وتدوّي أسفل الأعمدة كما في حمّام.

وسط هذا الهرج والمرج كله لم يعلق في ذاكرة مرغريتا سوى وجه نسائي واحد ثمل تماماً ذي عينين خاليتين من المعنى وضارعتين بلا معنى، وتذكّرت كلمة واحدة - «فريدا»! بدأ رأس مرغريتا يدور جرّاء رائحة النبيذ، وأرادت أن تغادر حين بدأ القط فقرة استوقفتها. فقد قام القط بحركات سحرية ما عند شدق نبتون، وفي الحال انسحبت كتلة الشمبانيا المتقلقلة من الحوض في نشيشٍ وهدير، فيما راح يلفظ موجةً من سائلٍ كالح بلا رغوة ذي لونٍ أصفر داكن، فصرخت النساء زاعقات: كونياك! ووثبن من حوافّ الحوض إلى خلف العمدة.

وفي بضع ثوانٍ امتلأ الحوض، وقفز القط إلى الكونياك المتماوج متقلباً في الهواء ثلاث قلبات، ثم خرج وهو ينخر، وقد تبللت ربطة عنقه وانتفشت وانمحى الطلاء الذهبي عن شاربيه ومنظاره. لم تجرؤ سوى امرأة واحدة على الاحتذاء ببغيموت، وهي تلك الخيّاطة المبدعة إياها ومرافقها، وهو شاب خلاسي نكرة، فقد قذف كلاهما بنفسيهما في الكونياك. وهنا تأبط كوروفييف ذراع مرغريتا وغادرا السبّاحين.

بدا لمرغريتا أنها تطير فوق مكانٍ ما، حيث رأت جبالاً من المحار في بركٍ حجرية شاسعة. ثم طارت فوق أرضية زجاجية تتقد تحتها أفران جهنمية يسعى بينها طهاة بيض شيطانيون. ثم رأت في مكانٍ، حيث لم تعد تستوعب شيئاً، أقبية معتمة تضيء فيها قناديل وتقدّم فيها فتيات لحماً ينشّ على جمرٍ متّقد، وحيث يشربون نخبها في أقداح كبيرة. ثم رأت دببةً بيضاً تعزف على آلات الهارمونيكا

وترقص رقصة «كامارينسكايا» على المرسح. ثم رأت سمندلاً مشعوذاً لا يحترق في نار الموقد... وها قد أخذت قواها تتلاشى ثانيةً.

- جولة أخيرة ونخلص، - همس لها كوروفييف مهموماً.

ألفت مرغريتا نفسها مرة أخرى في قاعة الرقص برفقة كوروفييف، لكن الضيوف لم يكونوا يرقصون الآن وإنما كانوا متجمهرين جماعات لا عدّ لها بين الأعمدة مخلين وسط القاعة. لا تذكر مرغريتا من الذي ساعدها على ارتقاء منصة ظهرت في منتصف هذه المساحة الخالية من القاعة. ولما ارتقت المنصة تناهت إليها، لدهشتها، من مكانٍ ما دقّات ساعة تعلن انتصاف الليل الذي، وفق حساباتها، قد فات منذ فترة طويلة. ومع دقّة الساعة الأخيرة التي لا تدري مصدرها خيّم الصمت على حشد الضيوف. حينئذٍ رأت مرغريتا فولند ثانيةً. كان يسير يحيط به أبادونا وأزازيلو وشبان آخرون سود يشبهون أبادونا. رأت مرغريتا الآن أنّ مقابل المنصة التي تقف عليها تنتصب منصة أخرى معدّة من أجل فولند، لكنه لم يستخدمها. وما أثار دهشة مرغريتا أن فولند خرج في ظهوره الأخير العظيم هذا في حفلة الرقص بالهيئة نفسها التي كان عليها في غرفة النوم: ما زال القميص المرقّع نفسه يتدلّى على كتفيه وينتعل نفس الخفين المهترئين. كان فولند يمسك بيده شيشاً، لكنه كان يستخدم هذا السيف المسلول كعكاز يتعكّز عليه. توقف فولند، الذي كان يعرج، عند منصّته، وفي الحال مثل أزازيلو أمامه يحمل طبقاً، ورأت مرغريتا على هذا الطبق رأساً بشرياً مقطوعاً أسنانه الأمامية مهشّمة. ظلّ الصمت المطبق مخيّماً لم يقطعه سوى مرة واحدة رنين جرس، غير مفهوم في ظروف كهذه، كما يحدث أحياناً مع المدخل الرئيسي للبيت.

- ميخائيل ألكسندروفيتش، - خاطب فولند الرأس بصوتٍ غير

عالٍ، وحينها انفتحت جفون القتيل، فرأت مرغريتا، وهي ترتجف، على الوجه الميت عينين حيتين مليئتين بالمعاني والآلام. - لقد تحقق كل شيء. أليس كذلك؟ - واصل فولند كلامه وهو يحدّق في عيني الرأس، - قطعت رأسك امرأة، والاجتماع لم يُعقَد، وأنا أعيش في شقتك. هذا واقع. والواقع أعند شيء في الحياة. لكننا لسنا معنيين الآن بهذه الواقعة التي سبق أن تحققت، وإنما بما يلي ذلك. لطالما كنت داعية متحمساً لتلك النظرية التي تقول إنّ الحياة تتوقف في الإنسان بعد قطع رأسه، وأنه يتحول إلى هُباب وينتهي إلى عدم. ويسرّني أن أخبرك في حضور ضيوفي، رغم أنهم هم أنفسهم برهان على نظرية مختلفة كلياً، بأنّ نظريتك رصينة وطريفة. وبالمناسبة، كل النظريات سواء، ومن بينها هناك نظرية مفادها أنّ كل إنسان يُثاب على قدر إيمانه. فليكن إذن! لسوف تعود إلى العدم، ويسرني أن أشرب من الكأس، التي ستتحول إليها، نخب الوجود. - ورفع فولند الشيش فاسودّت فروة الرأس وانكمشت ثم تساقطت قطعاً، واختفت العينان، وسرعان ما رأت مرغريتا على الطبق جمجمة بعينين زمرديتين وأسنان لؤلؤية على ساق ذهبية، ثم انفتح غطاء الجمجمة الموصول بمفصَّلة.

- سيمثل أمامك حالاً يا سيدي، - قال كوروفييف إذ لحظ نظرة فولند المتسائلة، - إنني أسمع في صمت القبور هذا صريف حذائه الملمّع بالورنيش ورنين الكأس التي وضعها على الطاولة بعد أن احتسى الشمبانيا للمرة الأخيرة في حياته. ها هو ذا.

ودخل القاعة ضيف وحيد جديد وتوجّه مسرعاً نحو فولند. لم يكن الضيف الجديد يتميز عن بقية الضيوف الكثيرين من حيث مظهره الخارجي سوى بشيءٍ واحد: كان يترنّح، بالمعنى الحرفي للكلمة، من الاضطراب، وكان هذا يُلحظ حتى من بعيد. فقد كانت على خدّيه

نقاط حمر متقدة، وكانت عيناه تتراكضان في محجريهما في هلعٍ تام. كان الضيف مصعوقاً، وكان هذا بديهياً تماماً: فقد أدهشه كل شيء، وخاصةً زي فولند بالطبع.

بيد أنّ الضيف استُقبل بلطفٍ بالغ:

- آه أيها البارون ميغيل العزيز، - قال فولند مبتسماً بحفاوة للضيف الذي انعقدت عيناه فوق جبينه، ثم توجه فولند بكلامه إلى الضيوف: - يسعدني أن أقدّم لكم البارون ميغيل المبجّل، الموظف في لجنة العروض المسرحية في منصب معرّف الأجانب بمعالم العاصمة.

هنا تجمّدت مرغريتا، فقد تعرّفت على ميغيل هذا فجأةً، إذ سبق لها أن صادفته عدة مرات في مسارح موسكو ومطاعمها. فكّرت مرغريتا: «ولكن... أهذا يعني أنه هو أيضاً قد مات؟»، لكن الأمر اتضح في الحال، فقد تابع فولند يقول وهو يبتسم في حبور:

- كان البارون العزيز من اللطف بحيث إنه ما إن علم بوصولي إلى موسكو حتى هاتفني على الفور عارضاً عليّ خدماته في مجال اختصاصه، أي أن يعرّفني بمعالم العاصمة، وبطبيعة الحال أسعدني أن أدعوه لزيارتي.

في هذه الأثناء رأت مرغريتا أزازيلو وهو يقدّم الطبق مع الجمجمة لكوروفييف.

- آ، بالمناسبة بارون، - شرع فولند يقول خافضاً صوته بودّ فجأةً، - سرت أقاويل عن حبك البالغ للمعرفة. يقال إن حبك للمعرفة، إضافةً إلى ميلك إلى الثرثرة الذي لا يقل عنه، أخذ يلفت الانتباه. هذا فضلاً عن أن الألسن الشريرة أفلتت منها كلمة واشٍ

وجاسوس. ناهيك أن هناك من يعتقد أن هذا قد يودي بك إلى نهايةٍ محزنة قبل أن ينصرم شهر. ولهذا، ولكي نوفّر عليك هذا الانتظار المضني، قررنا أن نهرع لمساعدتك، مستفيدين من واقع أنك طلبت إلي استضافتك وذلك بالتحديد لكي تتلصص وتتنصّت قدر الإمكان.

صار البارون أشدّ شحوباً من أبادونا الذي كان بطبيعته شاحباً شحوباً استثنائياً، ثم حدث أمرٌ غريب. فقد ظهر أبادونا أمام البارون وخلع نظارته لثانية، وفي اللحظة نفسها لمع شيء ما في يدي أزازيلو، وسُمع ما يشبه صفقة كفّ خافتة، فأخذ البارون يتهاوى على ظهره وانبجس دمٌ قانٍ من صدره وغمر قميصه المنشّى وجاكيته. وضع كوروفييف كأساً تحت خيط الدم المتدفق، وحين امتلأت الكأس ناولها لفولند. كان جسد البارون الذي فارقته الحياة قد صار على الأرض.

- في صحتكم يا سادة، - قال فولند بصوتٍ غير عالٍ ورفع الكأس وقرّبه إلى شفتيه.

وحينئذٍ حدث تحوّل عضوي: اختفى القميص المرقّع والخفّان الباليان، وإذا فولند في عباءة سوداء وعلى خصره سيف فولاذي. فدنا من مرغريتا بسرعة وقدّم لها الكأس وقال بنبرةٍ آمرة:

- اشربي!

دار رأس مرغريتا وترنّحت، لكن الكأس كانت قد صارت قرب شفتيها، وهمست أصوات لا تدري لمن هي عند كلتا أذنيها:

- لا تجزعي أيتها الملكة. . . لا تجزعي أيتها الملكة، لقد غارت الدماء في الأرض منذ أمدٍ بعيد. وهناك، حيث سُفكت، تنمو الآن عناقيد عنب.

تجرّعت مرغريتا جرعةً دون أن تفتح عينيها، فسرى في عروقها تيار عذب وأخذت أذناها تطنّان. خُيّل إليها أنّ ديكةً تصيح صياحاً

يصمّ الآذان، وأنّ مارشاً يُعزف في مكانٍ ما. ثم أخذت حشود الضيوف تفقد هيئتها، وتناثر الرجال والنساء هباءً، وعلى مرأى من مرغريتا تحللت القاعة وخيّمت عليها رائحة الأضرحة، وتهاوت الأعمدة وانطفأت الأضواء وانكمش كل شيء، ولم يعد هناك لا نافورات ولا زهور السوسن والكاميليا، وعاد كل ما كان إلى سابق عهده - غرفة استقبال زوجة الصائغ المتواضعة، ينسلّ شريط من الضوء من بابها المنفرج قليلاً، وقد ولجت مرغريتا عبر هذا الباب المفتوح بالذات.

الفصل الرابع والعشرون

انتشال المعلّم

كان كل شيء في غرفة نوم فولند على حاله قبل حفلة الرقص. كان فولند جالساً في السرير في قميصه الداخلي، باستثناء أن غيللا لم تكن تدلّك قدميه الآن، وإنما كانت تضع طعام العشاء على الطاولة التي كانوا يلعبون عليها الشطرنج. وكان كوروفييف وأزازيلو، وقد خلعا بذلات الفراك، يجلسان إلى الطاولة، وانحشر إلى جوارهما بالطبع القط الذي لم يشأ أن يفارق ربطة عنقه، رغم أنها صارت خرقة متسخة تماماً. اقتربت مرغريتا إلى الطاولة وهي تترنّح واتكأت عليها، وحينها أومأ لها فولند، كما فعل آنذاك، بأن تجلس إلى جانبه.

- ماذا، هل أتعبوكِ كثيراً؟ - سألها فولند.

- لا يا سيدي، - أجابت مرغريتا بصوتٍ لا يكاد يُسمع.

- «نوبليس أوبليج»[1]، - لاحظ القط وسكب لمرغريت سائلاً شفافاً في كأسٍ من كؤوس نبيذ «لافيت»، فسألت مرغريتا في وهن:

- أهذه فودكا؟

وثبت القط على الكرسي مستاءً وقال بصوتٍ أبحّ:

---

(١) بالفرنسية في الأصل: يقضي الشرف.

- العفو يا مولاتي، أأسمح لنفسي أن أسكب فودكا لسيدة؟ إنه كحول خالص!

ابتسمت مرغريتا وحاولت إبعاد الكأس.

- اشربي بلا تردّد، - قال فولند وعلى الفور أخذت مرغريتا الكأس بيدها. - اجلسي يا غيللا، - أمر فولند وراح يشرح لمرغريتا:
- ليلة اكتمال البدر هي ليلة عيد، وأنا أتعشى فيها مع مجموعة موثوقة من المقرّبين والخدم. وإذن، كيف حالك؟ كيف سارت هذه الحفلة الراقصة المتعبة؟

- بشكل مذهل! - صأصأ كوروفييف، - الجميع مسحورون، عاشقون، منهكون، وكم كانت فيها ألحان، ويا للبراعة والفتنة والسحر!

رفع فولند كأسه بصمت وقرع بها كأس مرغريتا، فشربت مرغريتا كأسها بإذعان وهي تفكّر أنّ الكحول سيقضي عليها في الحال. لكن لم يحدث أي خطب، فقد سرى في بطنها دفءٌ منعش، وشعرت بنقرة خفيفة على قذالها، فعادت إليها قواها كما لو أنها استيقظت بعد نومٍ طويلٍ منشّط، فضلاً عن أنها شعرت بجوعٍ شديد، وإذ تذكرت أنها لم تتناول شيئاً قط منذ صباح الأمس اشتدّ أوار جوعها أكثر وراحت تلتهم الكافيار بنهم.

اقتطع بيغيموت قطعة أناناس، فملّحها وفلفلها وأكلها، ثم كرع قدحاً آخر من الكحول بفتوّةٍ صفّق لها الجميع.

بعد أن احتست مرغريتا قدحها الثاني ازداد سطوع الشموع في الشمعدانات، كما ازداد التهاب النار في الموقد. لم تشعر مرغريتا بالسُكر على الإطلاق، وكانت، وهي تقضم اللحم بأسنانها البيض،

ترتوي من العصارة التي تسيل منه، وفي الوقت نفسه تنظر إلى بيغيموت وهو يدهن المحار بالخردل.

- ضع فوقه عنباً أيضاً، - قالت غيللا بصوتٍ خافت وهي تلكز القط في جنبه، فردّ بيغيموت:

- أرجو ألاّ تعلّميني، فقد سبق لي أن حضرت ولائم، لا تقلقي!

- آه، ما ألطف تناول العشاء هكذا ببساطة، قرب مدفأةٍ صغيرة مع مجموعة صغيرة من الخلاّن. . . - زقزق كوروفييف.

- لا يا فاغوت، - اعترض القط، لحفلات الرقص سحرها وروعتها.

- لا سحر فيها ولا روعة أيضاً، وكادت هذه الدببة الحمقاء، وكذلك النمور في البار، أن تسبب لي الصداع بزئيرها، - قال فولند.

- أمرك سيدي، - قال القط، - ما دمت ترى أنّ هذه الحفلات لا قيمة لها فلسوف أتبنّى هذا الرأي في الحال.

- حذارِ! - قال فولند ردّاً على ذلك.

- كنت أمزح، - قال القط في استكانة، - وفيما يتعلّق بالنمور فسآمر بشيّها.

- النمور لا تؤكل، - قالت غيللا.

- أتظنين ذلك؟ أرجو أن تسمعوا إذاً، - ردّ القط وراح يروي، وقد زرّ عينيه من النشوة، كيف أنه ذات مرة جاب الصحراء خلال تسعة عشر يوماً، ولم يكن له من طعام سوى لحم نمرٍ قتله هو. كان الجميع يستمعون باهتمام إلى هذه الحكاية المسلّية، وحين انتهى بيغيموت من سردها صاح الجميع بصوتٍ واحد:

- كذبة!

- وأطرف ما في هذه الكذبة أنها كذب من أولها إلى آخرها، - قال فولند.

- هكذا إذاً؟ كذبة؟ - صاح القط، فظنّ الجميع أنه سيأخذ بالاحتجاج، لكنه اكتفى بأن قال بصوتٍ خافت: - التاريخ سيحكم بيننا.

- قل لي، - قالت مارغو مخاطبةً أزازيلو، وقد أنعشتها الفودكا، - هل أطلقت عليه النار، هذا البارون السابق؟

- طبعاً، وكيف لا أطلق عليه النار؟ كان لا بدّ من قتله. - أجاب أزازيلو.

- كم اضطربت! فقد حدث ذلك بغتةً. - صاحت مرغريتا.

- ما من شيء غير متوقع في هذا، - اعترض أزازيلو، بينما راح كوروفييف يولول وينوح قائلاً:

- كيف يعقل ألاّ يضطرب المرء؟ أنا شخصياً ارتعدت فرائصي! طاخ، وإذا البارون على الأرض!

- وأنا كدت أصاب بالهستيريا، - أضاف القط وهو يلعق ملعقة عليها كافيار.

- إليكم ما لا أفهمه، - قالت مرغريتا وتقافزت شرارات ذهبية من البللور في عينيها، - هل يعقل أن الموسيقى، وكل ضوضاء هذه الحفلة عموماً، لم تكن مسموعة من الخارج؟

- طبعاً لم تكن مسموعة يا مولاتي، - راح كوروفييف يشرح، - يجب القيام بذلك بحيث لا يُسمع شيء. يجب القيام بذلك بدقة متناهية.

- آها، آها... لكن المسألة أن ذلك الشخص الذي على

الدرج . . . عندما مررنا أنا وأزازيلو . . . والآخر الذي عند المدخل الخارجي . . . أظنّ أنه كان يراقب شقتكم . . .

- صحيح، صحيح! - صاح كوروفييف، - صحيح يا مرغريتا نيكولايفنا العزيزة! إنك تؤكدين شكوكي. نعم، كان يراقب الشقة. أنا نفسي ظننته أستاذاً جامعياً شارد الذهن أو عاشقاً يتحرّق شوقاً على الدرج، لكن لا، لا! لقد وخزني قلبي آنذاك! آخ! كان يراقب الشقة! والآخر الذي كان عند المدخل الخارجي أيضاً! وكذلك ذاك الذي كان عند الكوّة أسفل الرتاج!

- وماذا لو جاؤوا لاعتقالكم؟ - سألت مرغريتا.

- لا شك في ذلك أيتها الملكة الفاتنة، لا شك في ذلك! - أجاب كوروفييف، قلبي ينبئني بأنهم سيأتون، ليس الآن بالطبع وإنما في الوقت المناسب، لكني لا أعتقد أن يحدث شيء مثير للاهتمام.

- ياه كم اضطربت حين هوى هذا البارون، - قالت مرغريتا التي كانت فيما يبدو لا تزال تعاني من مشهد القتل الذي تشهده لأول مرة في حياتها. - لا بدّ أنك تجيد إطلاق النار.

- لا بأس، - أجاب أزازيلو.

- من مسافة كم خطوة تصيب الهدف؟ - سألت مرغريتا أزازيلو هذا السؤال غير الواضح تماماً، فشرع أزازيلو يشرح قائلاً:

- هذا يتوقف على الأداة والهدف، فإصابة زجاج شقة الناقد لاتونسكي بمطرقة شيء وإصابته في قلبه شيء آخر كلياً.

- في القلب! - صاحت مرغريتا ولسببٍ ما وضعت يدها على قلبها، ثم كررت بصوتٍ مكتوم: - في القلب!

- من يكون هذا الناقد لاتونسكي؟ - سأل فولند طارفاً بعينيه باتجاه مرغريتا.

أطرق أزازيلو وكوروفييف وبيغيموت برؤوسهم في خجل، فيما أجابت مرغريتا وقد احمرّت خجلاً:

- هناك ناقد كهذا. وقد خرّبت شقته كلها مساء اليوم.

- عجباً! ولماذا؟

- لقد دمّر معلّماً يا سيدي، - وضّحت مرغريتا.

- ولِمَ قمت بذلك بنفسك؟ - سأل فولند.

- اسمح لي يا سيدي، - صاح القط بفرح وهو يتقافز في مكانه.

- اجلس أنت، سأذهب بنفسي الآن. - غمغم أزازيلو وهو ينهض واقفاً.

- لا، لا، أتوسّل إليك يا سيدي، لا داعي لذلك. - صاحت مرغريتا.

- كما تشائين، كما تشائين، - أجاب فولند فعاد أزازيلو وجلس في مكانه.

- أين توقفنا إذاً أيتها الملكة مارغو الغالية؟ - سأل كوروفييف،

- آه نعم، القلب. إنه يصيب القلب مباشرةً، - وأشار إلى أزازيلو بإصبعه الطويلة، - في وسعه إصابة أيٍّ من الأُذينَين أو البُطينَين، كما يشاء.

لم تفهم مرغريتا على الفور، ولمّا فهمت صاحت في دهشة:

- لكنها محجوبة!

- يا عزيزتي، - صأصأ كوروفييف، - وهنا بيت القصيد، في كونها محجوبة! هنا تكمن النكهة كلها! إذ يستطيع أيٌّ كان إصابة هدف مكشوف.

ثم أخرج كوروفنيف ورقة سبعة البستوني من درج الطاولة وناولها لمرغريتا طالباً إليها أن تؤشّر بظفرها على إحدى النقط، فأشّرت

مرغريتا على النقطة العليا في الزاوية اليمنى، ثم وضعت غيللا الورقة تحت الوسادة وصاحت:

- جاهزة!

أخرج أزازيلو، الذي كان يجلس مولياً الوسادة ظهره، مسدساً آلياً أسود من جيب بنطاله، ووضع فوهته على كتفه وأطلق النار دون أن يستدير نحو السرير، مثيراً هلعاً مرحاً لدى مرغريتا. ثم أخرجوا سبعة البستوني من تحت الوسادة التي ثقبتها الرصاصة فإذا بالنقطة التي أشّرت عليها مرغريتا مثقوبة.

- ما كنت لأرغب في التقاتل معك وفي يدك مسدس، - قالت مرغريتا وهي ترنو إلى أزازيلو في دلال، فقد كانت شغوفة تجاه كل من يؤدّي عملاً باتقان.

- أيتها الملكة الغالية، - صأصأ كوروفييف، - لا أنصح أحداً بمواجهته حتى لو لم يكن في يده مسدس على الإطلاق! خذيها كلمة شرف من قائد جوقة ومرتّلٍ سابق أنّ أحداً لن يهنّئ هذا الذي يلتقيه.

كان القط يجلس متجهماً أثناء هذه التجربة، وفجأةً أعلن:

- أتعهّد بأن أحطّم الرقم القياسي مع سبعة البستوني.

ردّاً على ذلك برطم أزازيلو بكلام ما. لكن القط كان مصرّاً وطلب مسدسين بدلاً من واحد، فأخرج أزازيلو مسدساً آخر من جيب بنطاله الخلفي الثاني وناوله مع الأول لهذا الدّعي لاوياً فمه بازدراء، وأشّروا على علامتين في سبعة البستوني. ظل القط يسدّد طويلاً مديراً ظهره للوسادة. جلست مرغريتا وسدّت أذنيها بأصابعها، وهي تنظر إلى البومة الغافية على رفّ الموقد. أطلق القط النار من كلا المسدسين، فصرخت غيللا على الفور، وهوت البومة قتيلةً من على الموقد وتوقفت الساعة المهشّمة. غيللا، التي كان الدم يسيل من

إحدى يديها، تشبّثت بوبر القط، وهو أمسك بشعرها، وراحا يتدحرجان على الأرض وقد انفتلا معاً مثل كُبّة خيطان. سقطت إحدى الكؤوس على الطاولة وتحطمت.

- أبعدوا عني هذه الشيطانة المسعورة! - ولول القط وهو يحاول الإفلات من يدي غيللا التي كانت تجلس فوقه. فرّقوا بين المتعاركين، ونفخ كوروفييف على إصبع غيللا المصابة فالتأم الجرح.

- لا يمكنني التسديد حين يثرثرون من حولي! - صاح بيغيموت وهو يحاول إعادة «كمشة» وبر كبيرة انتُزعت عن ظهره إلى مكانها.

قال فولند وهو يبتسم لمرغريتا:

- أراهن أنه تعمّد ذلك، فهو يسدّد بشكل جيد.

تصالح القط وغيللا وتبادلا القُبل دلالةً على ذلك، ثم أخرجوا الورقة من تحت الوسادة وتفحّصوها، فوجدوا العلامات على حالها لم يصبها شيء باستثناء العلامة التي أصابها أزازيلو.

- هذا غير ممكن، - أكّد القط وهو يحدّق إلى ضوء الشمعدان من خلال الورقة.

تواصل العشاء المرح. تورّمت الشموع في الشمعدانات وانتشرت في الغرفة نفحات من دفءٍ عطرٍ جاف ينبعث من الموقد. استولى على مرغريتا، وقد شبعت، شعورٌ بالغبطة. كانت ترنو إلى حلقات دخان سيجار أزازيلو الزرقاء وهي تسبح باتجاه الموقد، وكيف يتلقفها القط بطرف الشيش. لم تكن ترغب في مغادرة المكان، رغم أن الوقت قد تأخر وفقاً لحساباتها، فكل الدلائل تشير إلى أن الساعة تقارب السادسة صباحاً. استغلّت مرغريتا لحظة صمت وتوجّهت بكلامها إلى فولند قائلةً في وجل:

- آنَ لي أن أغادر... لقد تأخر الوقت.

- فيمَ العجلة؟ - سأل فولند بلطف، لكن بجفاء. بينما لزم الآخرون الصمت متظاهرين بالانشغال بحلقات دخان السيجار.

- نعم، حان الوقت، - كررت مرغريتا، وقد أربكها هذا كله، واستدارت كأنما تبحث عن عباءةٍ أو شَملة، فقد شعرت بالحرج من عريها فجأةً، ونهضت من خلف الطاولة. تناول فولند رداءه الرثّ الملطّخ عن السرير بصمت، وألقاه كوروفييف على كتفيها.

- أشكرك يا سيدي، - قالت مرغريتا بصوت لا يكاد يُسمَع ورنت في تساؤل إلى فولند الذي ردّ على ذلك بابتسامةٍ لطيفة فاترة. ولسببٍ ما انقبض قلبها بكآبةٍ سوداء على الفور. فقد شعرت أنها خُدعت. يبدو أن لا نية لأحد أن يكافئها على خدماتها كلها في الحفلة، كما لم يمسكها أحد عن المغادرة. إلى هذا كان واضحاً لها بجلاء أن لا مكان لها تذهب إليه. إن مجرّد فكرة أنّ عليها العودة إلى دارها أثارت فيها ثورة داخلية من اليأس. أتطلب بنفسها إذاً كما نصحها أزازيلو مغرياً إياها في حديقة ألكسندروفسكي؟ «لا، ولا مقابل أيّ شيء»، قالت لنفسها.

- أتمنى لك كل خير يا سيدي، - قالت بصوتٍ مسموع بينما كانت تقول في نفسها: «فقط أن أخرج من هنا، وبعد ذلك سأذهب إلى النهر وأغرق نفسي».

- اجلسي، هيا - قال لها فولند بلهجةٍ آمرة فجأةً، فتغيّر لون وجه مرغريتا وجلست.

- لعلّ لديك ما تريدين قوله قبل الوداع؟

- لا، لا شيء يا سيدي، - ردّت مرغريتا في إباء، - فضلاً عن ذلك، إذا كنتم ما زلتم بحاجة إليّ فإني على استعداد للقيام بكل ما

يحلو لكم عن طيب خاطر. فأنا لست تعبة على الإطلاق وتسلّيت كثيراً في الحفلة. ولو أنّ الحفلة امتدت أكثر من ذلك لظللت أقدّم ركبتي بكل سرور ليلثمها آلاف المشنوقين والقتلة، - قالت مرغريتا لفولند وهي تنظر إليه من خلال غشاوة الدموع التي ملأت عينيها.

- صحيح! إنك محقة تماماً! وهو ما يجب فعله! - صاح فولند بصوتٍ مدوٍّ ومرعب.

- هو ما يجب! - ردّدت حاشية فولند كرجع الصدى، وتابع فولند يقول:

- كنا نختبرك. لا تطلبي شيئاً أبداً! أبداً وأي شيء، لا سيما ممن هم أقوى منك. هم أنفسهم سيعرضون ذلك وهم أنفسهم سيعطونك كل شيء! اجلسي أيتها المرأة الأبية! - ونزع فولند الرداء الثقيل عن مرغريتا، ومرة أخرى ألفت نفسها جالسة إلى جواره في السرير. وتابع فولند يقول ملطّفاً نبرة صوته، - ماذا تريدين لقاء أنك كنت سيدة بيتي اليوم؟ ماذا تتمنين لقاء كونك أمضيت هذه الحفلة وأنت عارية؟ بمَ تثمّنين ركبتك؟ ما الأضرار التي سبّبها لك ضيوفي الذين دعوتِهم الآن بالمشنوقين؟ قولي! ولكن هذه المرة دون خجل، فأنا من يعرض عليك ذلك.

دقَّ قلب مرغريتا وتنهّدت بعمق وراحت تفكّر بشيءٍ ما.

قال لها فولند مشجّعاً:

- هيا، بجرأة أكبر، أيقظي مخيلتك، حفّزيها! فإن شهود مقتل هذا البارون الميئوس من نذالته وحده جديرٌ بأن يكافَأ المرء عليه، لا سيما إذا كان هذا الإنسان امرأة. وإذاً؟

انحبست أنفاس مرغريتا، وكانت على وشك التفوّه بالكلمات العزيزة التي أعدّتها في نفسها مسبقاً حين امتقعت فجأةً وفغرت فاها

وحملقت بعينيها. «فريدا! فريدا! - صرخ في أذنيها صوتٌ ملحاح متوسّل. - اسمي فريدا!» - فقالت مرغريتا وهي تتعثر بالكلمات:

- هذا يعني أن بمقدوري أن أسأل شيئاً واحداً فقط؟

- بل أن تطلبي، تطلبي، يا أميرتي، أن تطلبي شيئاً واحداً! - أجاب فولند مبتسماً بتفهّم.

آه، يا لحذاقة ودقة فولند في تأكيد كلمتَي مرغريتا نفسها «شيء واحد» وهو يكررهما!

تنهدت مرغريتا مرة أخرى وقالت:

- أريد أن يكفوا عن مناولة فريدا ذاك المنديل الذي خنقت به طفلها.

رفع القط عينيه إلى السماء وتنهّد بانزعاج، لكنه تذكّر فركة أذنه في الحفلة فيما يبدو، لذا لم يقل شيئاً.

قال فولند وهو يبتسم ابتسامةً ساخرةً ماكرة:

- نظراً إلى أنّ إمكانية أخذك رشوة من فريدا الحمقاء أمر غير وارد إطلاقاً، فهذا يتنافى مع جدارتك الملكية، فإني لم أعد أدري ماذا أفعل. الأرجح أنني لم يعد أمامي سوى أن أجمع الخِرق وأسدّ بها كل الشقوق في غرفة نومي!

ذُهلت مرغريتا إذ سمعت هذه الكلمات غير المفهومة حقاً وسألت:

- عمَّ تتحدث يا سيدي؟

وتدخّل القط في الحديث فقال:

- أوافقك تماماً يا سيدي، الخرق بالضبط، - وقرع على الطاولة في انفعال.

قال فولند يشرح لمرغريتا كلماته دون أن يرفع عن مرغريتا عينه النارية:

- إنني أتكلم عن الرحمة، فهي تتسلل أحياناً خلسة وبغتةً من أضيق الشقوق، ولهذا أنا أتكلم عن الخرق.

- وأنا أيضاً أتكلم عن ذلك! - صاح القط وابتعد عن مرغريتا من باب الاحتياط وقد غطّى أذنيه الحادتين بقائمتيه المدهونتين بمرهمٍ وردي اللون.

- انقلع من هنا، - قال له فولند. فأجاب القط:

- أنا لم أشرب القهوة بعد، فكيف يعقل أن أغادر؟ هل يعقل يا سيدي أن تقسّم ضيوف مائدتك في هذه الليلة البهيجة إلى صنفين؟ بعضهم نخب أول وبعضهم الآخر نخب ثانٍ من حيث الطزاجة كما عبّر صاحب البوفيه البخيل ذاك؟

- إخرس، - أمره فولند، ثم التفتت إلى مرغريتا وسألها: - كل الدلائل تشير إلى أنك إنسانة طيبة بشكل استثنائي ورفيعة الأخلاق، أليس كذلك؟

- لا، - ردّت مرغريتا بقوة، - أعرف أنه يمكن التكلم معك بصراحة فقط، وإني أقول لك بصراحة: أنا إنسانة طائشة، خفيفة العقل. وقد رجوتك في أمر فريدا فقط لأنني تسرّعت وعلّلتها بأملٍ قوي. إنها تنتظر يا سيدي، وهي تؤمن بقدرتي، وإن خيّبتُ أملها فستسوء حالي بشكل مخيف ولن أعرف السكينة ما حييت. لم يعد في اليد حيلة! ما كان كان.

- آ، هذا مفهوم، - قال فولند.

- هل ستفعل ذلك إذاً؟ - سألته مرغريتا بصوتٍ خافت.

- ولا بأي حال، - أجاب فولند، - المسألة أنه وقع التباسٌ

طفيف هنا أيتها الملكة العزيزة. على كل دائرة الاهتمام بالشؤون التي تخصّها. صحيح أن إمكاناتنا كبيرة بصورة لا بأس بها، بل هي أكبر بكثير مما يعتقد أولئك الذي لا يتمتعون ببعد نظر كافٍ. . .

- نعم، أكبر بكثير، - لم يتمالك نفسه القط الفخور، فيما يبدو، بهذه الإمكانات.

- إخرس، عليك اللعنة! - قال له فولند ثم تابع كلامه مخاطباً مرغريتا: - لكن ببساطة، ما معنى القيام بما ينبغي أن تقوم به دائرة أخرى كما سبق أن قلت؟ وبالتالي، لن أفعل ذلك، بل افعليه بنفسك.

- أوَسيتحقق ذلك وفق مشيئتي؟

نظر أزازيلو مواربةً نظرةً ساخرة بعينه الحولاء إلى مرغريتا وفتل رأسه الأصهب خفيةً ونخر.

- هيا افعلي ذلك، اللعنة، - غمغم فولند ثم أدار مجسّم الكرة الأرضية وراح يتأمّل تفصيلاً ما فيه، فعلى ما يبدو أنه كان منشغلاً بأمرٍ آخر أيضاً أثناء حديثه إلى مرغريتا.

- هيا يا فريدا، - ناجى كوروفييف.

- فريدا! - صاحت مرغريتا بصوتٍ حاد.

انفتح الباب على مصراعيه وهرعت إلى الغرفة امرأة شعثاء عارية، لكن دون أي أثر من آثار الثمل، بعينين متأثرتين متحمستين، وبسطت ذراعيها لمرغريتا، التي قالت لها في عظمة:

- لقد غُفر لك. لن يعطوكِ المنديل بعد اليوم.

علا عويل فريدا وارتمت على الأرض على وجهها أمام مرغريتا بشكل صليب. لوّح فولند بيده فاختفت فريدا عن الأنظار.

- أشكرك، وداعاً، - قالت مرغريتا ونهضت واقفةً.

- لا بأس يا بيغيموت، لن نأخذ بالحسبان تصرّف شخص غير

عملي في ليلة عيد، - قال فولند، ثم التفت نحو مرغريتا وأردف: - وبالتالي هذا لا يُحتسب، فأنا لم أفعل شيئاً. ماذا تريدين لنفسك؟

ران الصمت، وقطعه كوروفييف الذي همس في أذن مرغريتا يقول:

- أيتها الدونّا الماسية، أنصحك أن تكوني حصيفةً أكثر هذه المرة، وإلاّ جانبك الحظ!

- أريد، الآن فوراً وفي هذه اللحظة، استعادة حبيبي، المعلّم، - قالت مرغريتا، وتشوّه وجهها جرّاء التشنّج.

وهنا اندفعت ريح إلى الغرفة بحيث مال لهب الشموع في الشمعدانات وانفرجت ستارة النافذة الثقيلة وانفتحت النافذة على مصراعيها، وبان البدر بعيداً في السماء، لكنه لم يكن بدر الصبح بل بدر منتصف الليل، وتدلّى من حافة النافذة إلى الأرض ضوء الليل كمنديلٍ مائل إلى الخضرة، وانبثق في هذا الضوء ضيف إيفان الليلي الذي دعا نفسه المعلّم. كان يرتدي ملابس المستشفى - الرداء والخفّين والقبعة السوداء التي لا يفارقها، وكان وجهه غير الحليق يرتعش بتصعيرة، وكان ينظر بطرف عينه في هلعٍ مجنون إلى لهب الشموع، بينما كان تيار ضوء القمر يغلي من حوله.

عرفته مرغريتا في الحال فتأوّهت وضربت كفاً بكفّ وهرعت نحوه. قبّلته من جبينه وفي شفتيه، وألصقت خدّها بخدّه الشائك، وراحت دموعها التي حبستها طويلاً تنهمر الآن غزيرةً على وجهها. لم تنبس سوى بكلمة واحدة مكررةً إياها بلا معنى:

- أنت... أنت... أنت...

أبعدها المعلّم عنه وقال بصوتٍ مكتوم:

- لا تبكي يا مارغو، لا تعذبيني. أنا مصاب بمرضٍ عُضال. -

وأمسك بحافة النافذة السفلية بيده كأنما يتحضّر للقفز من النافذة والهرب، وكشّر عن أسنانه، محدّقاً في الجالسين، وصرخ قائلاً: - إنني خائف يا مارغو! بدأت الهلوسات تراودني من جديد.

كان النشيج يخنق مرغريتا، فهمست له وهي تغصّ بالكلمات:

- لا، لا، لا، لا تخشَ شيئاً! أنا معك! أنا معك!

دفع كوروفييف بخفة وبشكل غير ملحوظ كرسياً نحو المعلم، فتهالك ذاك عليه، في حين ارتمت مرغريتا على ركبتيها والتصقت بالمريض وظلت على هذه الحال. في خضمّ اضطرابها لم تلحظ مرغريتا أنها فجأةً لم تعد عارية، وأنّ عليها الآن عباءة حريرية سوداء. أطرق المريض برأسه وراح يحدّق في الأرض بعينين متجهمتين عليلتين.

قطع فولند الصمت قائلاً:

- نعم، لقد تدبّروا أمره جيداً. - ثم أمر كوروفييف: - هيا أيها الفارس، أعطِ هذا الإنسان شيئاً يشربه.

توسّلت مرغريتا المعلم بصوتٍ راعش:

- اشرب، اشرب. هل أنت خائف؟ لا، لا، صدقني أنهم سيساعدونك.

تناول المريض الكأس وشرب ما فيها، لكن يده ارتعشت فسقطت الكأس الفارغة وتحطّمت عند قدميه.

- فأل خير! فأل خير! - همس كوروفييف لمرغريتا، - انظري، إنه يثوب إلى رشده.

وبالفعل لم تعد نظرة المريض ضارية ومضطربة كما كانت.

- أهذه أنت حقاً يا مارغو؟ - سأل الضيف القمري.

- لا يكن عندك شك، هذه أنا، - أجابت مرغريتا.

- أعطه كأساً أخرى! - أمر فولند.

بعد أن نشّف المريض الكأس الثانية صارت عيناه حيّتين وواعيتين.

- الآن اختلف الأمر. فلنتحدث. من أنت؟ - قال فولند زارّاً عينيه.

- أنا الآن لا أحد، - أجاب المعلّم، ولَوَت الابتسامة فمه.

- من أين قدمت الآن؟

- من مستشفى المجانين. أنا مريض نفسي، - أجاب المعلّم.

لم تحتمل مرغريتا هذه الكلمات فبكت من جديد، ثم مسحت دموعها وصاحت:

- كلمات فظيعة! كلمات فظيعة! إنه معلّم يا سيدي، وإنّي أبلغك بذلك مسبقاً. إشفه، فهو يستحق ذلك.

- هل تعرف من تكلّم الآن، وعند من أنت الآن؟ - سأله فولند

- أعرف، - أجاب المعلّم، - كان جاري في مستشفى المجانين ذاك الفتى، إيفان بيزدومني. لقد حدثني عنك.

- وكيف لا، وكيف لا، - أجاب فولند، - كان من دواعي سروري أن التقيت هذا الشاب في «بتريرشيه برودي». كاد يفقدني عقلي، أنا نفسي، وهو يبرهن لي أنني غير موجود! لكن هل تصدّق أنت أنني فعلاً هو؟

- لا بدّ من التصديق، - قال المعلّم، - لكن لكان أدعى للطمأنينة أكثر بكثير، بالطبع، اعتبارك وليد الهلوسة. - لكنه استدرك فأردف يقول: - لا تؤاخذني.

- حسناً، إن كان هذا يريحك أكثر فاعتبرني كذلك، - أجاب فولند بلطف.

- لا، لا، - قالت مرغريتا بفزع وهزّت المعلّم من كتفه، - أَفِق! الماثل أمامك هو بالفعل!

وهنا أيضاً تدخل القط:

- أما أنا فإني أشبه الهلوسة بالفعل. انظروا إليّ جانبياً في ضوء القمر، - وانسلّ القط إلى وسط عمود ضوء القمر، وأراد أن يقول شيئاً ما أيضاً لكنهم طلبوا منه أن يصمت فأجاب: - حسناً، حسناً، أنا مستعد أن أصمت. سأكون هلوسة صامتة، - وصمت.

سأل فولند المعلم:

- قل لي، لِمَ تدعوك مرغريتا المعلّم؟

ابتسم المعلّم ساخراً وقال:

- هذا ضعف لا تؤاخَذ عليه، فهي تقدّر عالياً تلك الرواية التي كتبتها.

- وما موضوع الرواية؟

- إنها عن بيلاطس البنطي.

وهنا تمايلت وتراقصت ألسنة لهب الشموع ثانيةً، وأخذت الآنية على الطاولة تقرقع، وأطلق فولند قهقهةً هادرة، لكن ضحكته لم تفزع أحداً ولم تثر دهشة أحد، ولأمرٍ ما صفّق بيغيموت.

- عمّ، عمّ؟ عن من؟ - قال فولند وقد كفّ عن الضحك. - يا للهول! هذا رائع! ألم يكن بمقدورك أن تجد موضوعاً آخر؟ هاتِ ألقي نظرة، - ومدّ فولند يده باسطاً راحتها إلى الأعلى.

- لا يمكنني ذلك للأسف، لأني أحرقتها في الموقد، - أجاب المعلم.

- العفو، لن أصدّق ذلك، هذا مستحيل. المخطوطات لا

تحترق. - ردّ فولند، ثم التفت إلى بيغيموت وقال: - هيا يا بيغيموت، أعطني الرواية.

وعلى الفور وثب القط عن الكرسي فرأى الجميع أنه كان يجلس على رزمة سميكة من المخطوطات. قدّم القط النسخة التي في الأعلى لفولند وهو ينحني له. ارتعشت مرغريتا واضطربت إلى حدّ البكاء وصرخت:

- ها هو المخطوط! ها هو!

وارتمت على فولند وأضافت في انبهار:

- كلّي القدرة، كلّي القدرة!

أخذ فولند المخطوط الذي أُعطي له فقلّبه ثم وضعه جانباً وراح يحدّق في المعلم بصمت ودون ابتسامة. لكنّ المعلم استبدّت به الكآبة وانتابه القلق لسببٍ مجهول، فنهض عن الكرسي وأخذ يعصر يديه وبدأ يغمغم وهو يرنو إلى القمر البعيد وينتفض:

- لا أجد الراحة حتى في ضوء القمر ليلاً، لِمَ أقلقتموني؟ آه أيتها الآلهة، أيتها الآلهة...

تشبّثت مرغريتا برداء المستشفى والتصقت بالمعلّم وأخذت هي أيضاً تغمغم غارقةً في الكآبة والدموع.

- يا إلهي، لِمَ لا تنفعك الأدوية؟

- لا بأس، لا بأس، - همس كوروفييف وهو يدور حول المعلم، - لا بأس، لا بأس... كأس صغيرة أخرى، وأنا أيضاً سأشرب كأساً من باب المشاركة.

وومضت الكأس وتلألأت في ضوء القمر، وقد أفادته هذه الكأس. أجلسوا المعلم في مكانه، واكتسى وجه المريض بأمارات السكينة.

- لقد اتضح كل شيء الآن، - قال فولند ونقر بإصبعه على المخطوط.

- واضح تماماً، - أكّد القط ناسياً وعده بأن يكون هلوسة صامتة، - لقد بات سياق هذه الرواية واضحاً لي كل الوضوح. ما قولك يا أزازيلو؟ - قال موجّهاً كلامه لأزازيلو الصامت.

- أقول إنه لكان جيداً لو أغرقوك، - أجاب أزازيلو بلؤم.

- كن رحيماً يا أزازيلو ولا توحي لسيدي بهذه الفكرة، وإلاّ صدقني أنني سأظهر لك كل ليلة في رداءٍ قمري كالذي يرتديه هذا المعلّم المسكين، وأومئ إليك وأستدرجك لتتبعني، فكيف ستصير حالك يا أزازيلو؟ - أجابه القط.

- وإذاً يا مرغريتا، هيا قولي كل ما تريدين قوله!

لمعت عينا مرغريتا وقالت لفولند متوسلةً:

- أتسمح لي بمهامسته؟

أومأ فولند برأسه فانكبت مرغريتا على أذن المعلّم وهمست له بشيءٍ ما، وسُمِع المعلم يقول لها:

- لا، فات الأوان. لم أعد أريد شيئاً في الحياة سوى رؤيتك. لكنني أنصحك مرة أخرى: اهجريني، وإلاّ هلكت معي.

- لا، لن أهجرك، - أجابت مرغريتا ثم توجّهت بالكلام إلى فولند: - أرجوك أن تعيدنا ثانيةً إلى القبو الذي في الزقاق في أربات، وأن يضيء المصباح ويعود كل شيء إلى سابق عهده.

وهنا ضحك المعلّم وضمّ إليه رأس مرغريتا بشعره الأجعد المحلول منذ فترةٍ طويلة وقال:

- آخ، اسمع ما تقوله هذه المرأة المسكينة يا سيدي. في ذاك القبو يعيش شخص آخر منذ فترةٍ طويلة، وبشكل عام لا يحدث أن

يعود كل شيء إلى سابق عهده. - ووضع خده على رأس صديقته وعانقها وراح يغمغم: - مسكينة، مسكينة...

- لا يحدث، تقول؟ - قال فولند. - هذا صحيح. لكننا سنحاول. - ونادى: - أزازيلو!

وفي الحال هوى من السقف على الأرض مواطن مبهوت وأقرب إلى الجنون في ملابس داخلية لكن، لأمرٍ ما، في يده حقيبة ويعتمر قبعة. ارتعد هذا الشخص من الخوف وجلس.

- موغاريتش؟ - سأل أزازيلو الشخص الذي سقط من السماء.

- ألويزي موغاريتش، - أجاب ذاك وهو يرتجف.

- أأنت من كتب شكوى في حق هذا الإنسان، بعد أن قرأت مقالة لاتونسكي عن روايته، بأنه يحتفظ في بيته بأعمال أدبية ممنوعة؟ - سأله أزازيلو.

ازرقّ المواطن الذي حضر للتو وطفرت من عينيه دموع الندم.

- كنت تريد الانتقال إلى شقته، أليس كذلك؟ - قال أزازيلو بصوتٍ أخنّ وذّي قدر الإمكان.

سُمع في الغرفة هرير قطة تتميّز غيظاً، وأنشبت مرغريتا أظافرها في وجه ألويزي موغاريتش وهي تزعق:

- تعرّف إلى الجنيّة، تعرّف!

حدث هرج ومرج، فصرخ المعلم بألم:

- ماذا تفعلين؟ لا تُشيني نفسك يا مارغو!

- أحتج، هذا ليس مشيناً، - عوى القط.

جذب كوروفييف مرغريتا.

- لقد بنيت حمّاماً مرفقاً بالشقة، - صرخ موغاريتش المدمّى وأسنانه تصطك وراح يهرف بكلامٍ، - كلس... زاج...

- جيد أنه بنى حمّاماً، فعليه أن يستحمّ، - قال أزازيلو مستحسناً، ثم صرخ: - انقلع!

وإذ بقوة خفية تقلب موغاريتش رأساً على عقب وتخرجه من غرفة نوم فولند عبر النافذة.

حملق المعلّم وهمس:

- لعل هذا، على الأرجح، أدقّ مما رواه إيفان! - وتلفّت حوله وهو مذهول تماماً، وأخيراً قال للقط: - عفواً... هذا أنت... أنتم... - تردّد كيف يخاطب القط، بصيغة المفرد أم الجمع، - ذاك القط الذي ركب الترام؟

- نعم أنا، - أكّد القط وقد أطربه الإطراء ثم أضاف: - لطيف منك أن تخاطب قطاً بهذا التهذيب. فعادة تخاطَب القطط بصيغة المفرد مع أنه لم يسبق لأي قط أن شرب كأساً مع أحد.

- لأمرٍ ما يبدو لي أنك لست قطاً تماماً، - أجاب المعلم بتردد، ثم أردف يقول لفولند بوجل: - على أي حال سوف يتفقدونني في المستشفى.

- وما الذي سيتفقّدونه! - طمأنه كوروفييف وإذ بأوراق وكتب في يديه فجأةً: - أليس هذا سجلّك المرضي؟

- بلى.

رمى كوروفييف السجلّ في الموقد وقال في رضى:

- من دون وثائق ينتفي وجود المرء أيضاً. وهذا، أليس عقد إيجار بيتك؟

- بلى، هو...

- من المسجّل فيه؟ ألويزي موغاريتش؟ - ونفخ كوِروفييف على ورقة عقد الإيجار - وها قد انعدم وجوده، وأرجو أن تلاحظ أنه لم

يوجد قط. وإذا ما استغرب المؤجِّر ذلك قل له إنه إنما حلم بألوييزي. موغاريتش؟ أيُّ موغاريتش هذا؟ لا وجود لأي موغاريتش. - وتبخّر عقد الإيجار من يد كوروفييف. - وها قد صار في درج طاولة المؤجِّر.

قال المعلم وقد أذهلته دقة عمل كوروفييف:

- ما قلته صحيح، من أنّ لا وجود للمرء من دون وثائق تثبت وجوده. وبالتالي، أنا بالذات لا وجود لي، إذ ليست لدي وثائق.

- أرجو عفوك، ما هذه إلا هلوسة، فها هي وثيقتك، - صاح كوروفييف وناول المعلّم وثيقةً، ثم جال بعينيه وهمس لمرغريتا بعذوبة: - وها هي ملكيتك يا مرغريتا نيكولاييفنا، - وناول مرغريتا دفتراً محروق الأطراف ووردة يابسة وصورة، وبحرصٍ شديد أعطاها دفتر توفير وهو يقول: - عشرة آلاف كما تفضّلتِ وأودعتيها المصرف يا مرغريتا نيكولاييفنا. لسنا بحاجة إلى مال الغير.

- فلتيبس قوائمي قبل أن أمدّها إلى مال الآخرين، - صاح القط منتفخاً وهو يرقص على الحقيبة ليحشر فيها كل نسخ الرواية المشؤومة.

- وهذه وثيقتك أيضاً، - تابع كوروفييف وهو يناول مرغريتا وثيقتها، ثم قدّم تقريره لفولند بإجلال فقال: - انتهينا يا سيدي!

- لا، لم ننتهِ، - أجاب فولند وهو يرفع عينيه عن المجسّم. - ماذا تريدينني أن أفعل بحاشيتك يا أميرتي العزيزي؟ فأنا شخصياً لست بحاجة إليها.

وهنا هرعت ناتاشا عبر الباب المفتوح، عاريةً كما كانت، وبسطت ذراعيها وصاحت تقول لمرغريتا:

- أتمنى لك السعادة يا مرغريتا نيكولاييفنا! - وأومأت برأسها

ناحية المعلم ثم التفتت ثانيةً إلى مرغريتا وقالت لها: - فقد كنت أعرف كل شيء وإلى أين كنت تذهبين.

- مدبّرات البيوت يعرفن كل شيء، ومن الخطأ الاعتقاد أنهن عمياوات. - قال القط ملمّحاً وهو يرفع قائمته بحركة ذات دلالة.

- ماذا تريدين أن تقولي يا ناتاشا؟ - سألتها مرغريتا، - عودي إلى الدار.

- يا روحي يا مرغريتا نيكولاييفنا، - قالت ناتاشا بضراعة وجثت على ركبتيها وأشارت بطرف عينها إلى فولند، - استعطفيهم أن يبقوني جنيّة. لا أريد العودة إلى الدار بعد الآن! ولا أريد الزواج بمهندس أو تقني! لقد طلب السيد جاك يدي في الحفلة أمس. - وبسطت ناتاشا قبضتها وأرتها قطعاً نقدية ذهبية.

ألقت مرغريتا على فولند نظرةً متسائلة فهزّ رأسه بالإيجاب، وحينئذٍ ارتمت ناتاشا على عنق مرغريتا وقبّلتها قبلات صائتة ثم أطلقت صيحة ظَفَر وطارت عبر النافذة.

ثم ظهر نيكولاي إيفانوفيتش في مكان ناتاشا، وكان قد استعاد هيئته البشرية، لكنه كان متجهماً جداً بل وحانقاً بعض الشيء.

- هاكم من يسرّني سروراً بالغاً أن أخلي سبيله، - قال فولند وهو يرمق نيكولاي إيفانوفيتش باشمئزاز، - بل بسرور مفرط لشدّة ما هو فائض عن الحاجة هنا.

- أرجوكم بشدة إعطائي شهادة إثبات تبيّن أين أمضيت الليلة السابقة. - قال نيكولاي إيفانوفيتش وهو ينظر حوله بضراوة لكن بعنادٍ شديد.

- لأجل ماذا؟ - سأل القط بصرامة.

- لكي أقدّمها للشرطة ولزوجتي، - قال نيكولاي إيفانوفيتش بجزم.

- نحن لا نعطي شهادات عادةً، لكن لأجلك، لا بأس، نعمل استثناءً. - أجاب القط مقطّباً جبينه.

وقبل أن يتسنّى لنيكولاي إيفانوفيتش الثواب إلى نفسه كانت غيللا العارية تجلس وراء الآلة الكاتبة والقط يملي عليها:

- أصدّق على أن حامل هذه الوثيقة نيكولاي إيفانوفيتش قد أمضى الليلة المذكورة في حفلة راقصة أقامها الشيطان، وقد استُقدم إليها كوسيلة نقل... افتحي قوساً يا غيللا واكتبي بين القوسين «خنزير»! التوقيع بيغيموت.

- والتاريخ؟ - صأصأ نيكولاي إيفانوفيتش.

- نحن لا نضع تواريخ. الورقة التي عليها تاريخ تغدو ملغاة، - ردّ القط، ثم خفق بالورقة، وحصّل خاتماً من مكانٍ ما فنفخ عليه حسب الأصول وطبع على الورقة عبارة «مدفوعة الأجر» وناول الورقة لنيكولاي إيفانوفيتش. بعد ذلك اختفى نيكولاي إيفانوفيتش دون أن يترك أثراً، وظهر مكانه شخص آخر غير متوقع.

- ومن هذا أيضاً؟ - سأل فولند بتقزز متّقياً ضوء الشموع بيده.

طأطأ فارينوخا رأسه وتنهّد وقال بصوتٍ خافت:

- أعيدوني. لا أستطيع أن أكون مصّاص دماء. في تلك المرة كدت أودي بحياة ريمسكي وغيللا! لست متعطشاً للدماء. أطلقوا سراحي.

- وما هذا الهراء أيضاً؟ من يكون ريمسكي هذا؟ وما هذه السخافة؟ - سأل فولند مصعّراً خده.

- لا تزعج نفسك من فضلك يا سيدي، - قال أزازيلو ثم خاطب

فارينوخا قائلاً: - لا داعي للتواقح عبر الهاتف. لا داعي للكذب عبر الهاتف. مفهوم؟ هل ستعيدها؟

تبلبل كل شيء في رأس فارينوخا من الفرح وأشرق وجهه، لكنه لم يدرِ ما يقول فغمغم قائلاً:

- أقسم... أريد أن أقول، فخاو... بعد الغداء مباشرةً... - ووضع فارينوخا يديه على صدره ورنا إلى أزازيلو في ضراعة.

- حسناً، إلى البيت، - أجاب أزازيلو، فاختفى فارينوخا.

- والآن دعوني جميعاً بمفردي معهما، - أمر فولند مشيراً إلى المعلّم ومرغريتا. نُفّذ أمر فولند في لمحة. وبعد فترة صمت توجّه فولند بالكلام إلى المعلّم:

- إلى القبو في أربات إذاً؟ فمن سيكتب؟ وماذا عن الأحلام والإلهام؟

- لم تعد عندي أي أحلام ولا إلهام أيضاً. لا شيء حولي يعنيني سواها، - أجاب المعلّم، ومرة أخرى وضع يده على رأس مرغريتا، - لقد حطّموني. مللت وأريد العودة إلى القبو.

- وماذا عن روايتك، بيلاطس؟

- لا أطيقها، هذه الرواية. لقد عانيت كثيراً بسببها. - أجاب المعلّم.

- أتوسل إليك ألاّ تتكلّم هكذا، - توسّلت مرغريتا شاكيةً، - لمَ تعذبني؟ فأنت تعلم أنني أودعت عملك هذا حياتي كلها. - وأضافت مخاطبةً فولند: - لا تصغِ إليه يا سيدي، فهو منزعج جداً.

- إذ لا بدّ من توصيف شيءٍ ما! - قال فولند، - وإن كنت قد انتهيت من الحاكم فابدأ بتصوير ألويزي هذا على الأقل.

ابتسم المعلّم:

- لن تطبع لابشونّيكوفا ذلك، فضلاً عن أنه غير ممتع.

- ممَّ ستعيشِ إذاً؟ إذ سيتوجب عليك حينها العيش في فقر مدقع.

- بكل سرور، بكل سرور، - أجاب المعلّم، وجذب مرغريتا إليه وحضنها من كتفيها وأضاف: - سترجع إلى صوابها وتهجرني...

- لا أظنّ، - قال فولند من بين أسنانه وتابع يقول: - وهكذا، الشخص الذي كتب قصة بيلاطس البنطي يعود إلى القبو بقصد الانزواء هنا قرب المصباح والعيش في فقرٍ مدقع؟

ابتعدت مرغريتا عن المعلّم وقالت بحرارة بالغة:

- لقد فعلت كل ما كان في وسعي، وهمست له بأشدّ المغريات، لكنه رفضها.

- إنني أعرف بمَ همست له، لكنه ليس الأشدّ إغراءً. - اعترض فولند، ثم خاطب المعلّم مبتسماً: - دعني أقل لك إنّ روايتك ستحمل إليك مفاجآت أخرى بعد.

- هذا محزن جداً، - أجاب المعلّم.

- لا، لا، هذا ليس محزناً، - قال فولند، - لن يحدث أي شيء مخيف بعد الآن. وإذن يا مرغريتا نيكولاييفنا، ها قد أُنجز كل شيء. ألكِ أي دعوى أخرى في حقي؟

- ما هذا الذي تقوله يا سيدي!

- خذي هذه، إذاً، للذكرى، - قال فولند وأخرج من تحت الوسادة حدوة ذهبية مرصّعة بالماس.

- لا، لا، لا، ما الداعي لذلك!

- أتريدين مجادلتي؟ - سألها فولند مبتسماً.

ولمّا كانت عباءة مرغريتا بلا جيوب فقد وضعت الحدوة في منديل وعقدته. وهنا أذهل مرغريتا أمر. فقد رنت إلى النافذة التي كان القمر يتلألأ فيها وقالت:

- الشيء الذي لا أفهمه... ما بال انتصاف الليل يتوالى طوال الوقت مع أن الصبح كان ينبغي أن ينجلي منذ فترةٍ طويلة.

- يحلو استبقاء منتصف ليلة العيد قليلاً، - أجاب فولند، - هيا، أتمنى لكما السعادة.

مدّت مرغريتا كلتا يديها إلى فولند شاكرةً مبتهلة، لكنها لم تتجاسر على الاقتراب منه، وهتفت بصوتٍ خافت:

- الوداع! الوداع!

- إلى اللقاء، - قال فولند.

وخرجا، مرغريتا في عباءتها السوداء والمعلّم في رداء المستشفى، إلى ردهة شقة زوجة الصائغ التي كانت تشتعل فيها شمعة وحيث كانت حاشية فولند في انتظارهما. وحين خرجا من الردهة كانت غيللا تحمل حقيبة فيها الرواية وثروة مرغريتا نيكولاييفنا الصغيرة، وكان القط يساعدها. وعند باب الشقة انحنى لهما كورروفييف واختفى، أما البقية فقد مضوا يشيعونهما عبر الدرج. كان الدرج خالياً، وحين اجتازوا بسطة الدرج في الطابق الثالث قرقع شيءٌ ما قرقعةً خفيفيةً، لكن لم يعر أحد ذلك اهتماماً. وعند باب المدخل الخارجي السادس تماماً نفخ أزازيلو باتجاه الأعلى. وفور خروجهم إلى الفِناء، الذي لم يكن يضيئه القمر، رأوا شخصاً ينتعل جزمةً ويعتمر قبعة، نائماً على سقيفة البوّابة نوم الأموات فيما يبدو، كما رأوا أمام المدخل سيارة سوداء كبيرة مطفأة الأضواء، ولاح من خلال الزجاج الأمامي خيال غراب.

كانوا يتأهبون لركوب السيارة حين صاحت مرغريتا صيحةً خافتة في يأس:

- يا إلهي، لقد أضعت الحدوة!

فقال أزازيلو:

- اركبوا السيارة وانتظروني سأعود حالاً، سأرى ما الأمر فقط.

- واتجه إلى مدخل العمارة.

فحوى الأمر أنه قبل خروج مرغريتا والمعلّم مع مشيعيهما بفترةٍ وجيزة، خرجت من الشقة رقم (٤٨)، الكائنة تحت شقة زوجة الصائغ، إلى الدرج امرأة نحيلة ضامرة تحمل وعاءً بلاستيكياً وحقيبة يد. وكانت هذه المرأة هي آنوشكا تلك إياها، التي أراقت الزيت يوم الأربعاء، لسوء حظ برلوز، عند باب الحديقة.

لم يكن أحد يعلم، وربما لن يعلم أحد، ماذا كانت تشتغل هذه المرأة في موسكو وممَّ تعيش. لا يُعرف عنها سوى أن بالإمكان رؤيتها يومياً وهي تحمل إما وعاءً بلاستيكياً أو حقيبة يدوية وإما وعاءً وحقيبة معاً، إما في حانوت بيع مشتقات النفط، أو في السوق، أو عند مداخل البيوت، أو على درج، وأغلب الأحيان في مطبخ الشقة رقم (٤٨) حيث تعيش آنوشكا هذه. فضلاً عن ذلك وفوق هذا كله كان من المعروف أنه حيث تتواجد أو تظهر تبدأ في الحال المشاكل والفضائح، ناهيكم عن أنها كانت تحمل لقب «الطاعون».

كانت آنوشكا - الطاعون تستيقظ باكراً لسببٍ ما، أما اليوم فقد أيقظها شيء ما أبكر من العادة، بعد منتصف الليل بقليل، فأدارت المفتاح في القفل، وبرز من الباب أنف آنوشكا أولاً، ثم خرجت كلها وصفقت وراءها الباب. وما إن همّت بالمغادرة حتى انفتح الباب في بسطة الدرجة العليا بدويّ ونزل أحدهم الدرج مسرعاً لا يلوي على

شيء، مندفعاً نحو آنوشكا، فصدمها دافعاً إياها جانباً بحيث اصطدم قفاها بالجدار.

- إلى أين يأخذك الشيطان بالسروال الداخلي وحده؟ - ولولت آنوشكا وقد أمسكت بنقرتها، فأجابها الشخص، الذي باللباس الداخلي فقط وبيده حقيبة سفر ويعتمر قبعة، بصوتٍ وحشيٍّ ناعس:

- مسخّن الماء! الزاج! وكم كلّف التكليس وحده، - ثم عوى ناشجاً: - انقلع! - وهنا انطلق، لكن ليس نازلاً الدرج بل عاد أدراجه، إلى حيث النافذة التي حطّم الخبير الاقتصادي زجاجها، وعبر هذه النافذة طار إلى الفناء رأساً على عقب. نسيت آنوشكا نقرتها وتأوهت واندفعت نحو النافذة، وانبطحت على بطنها على بسطة الدرج وأطلّت برأسها تتطلّع إلى الفناء، متوقعةً أن ترى على الأسفلت المضاء بمصباح الفناء رجلاً محطماً حتى الموت مع حقيبة. لكن لم يكن على الأسفلت في الفناء أي شيء إطلاقاً.

لم يبقَ لآنوشكا سوى أن تفترض أن هذا الشخص الناعس والغريب الأطوار قد طار من البيت محلّقاً، كالطائر، دون أن يترك أثراً. فرسمت علامة الصليب وقالت في نفسها: «نعم، يا لغرابة الشقة رقم خمسين! لا يثرثر الناس عنها عبثاً! أي نعم، يا لها من شقة!».

لم يكد يخطر لها هذا الخاطر حتى انفتح الباب في الأعلى صافقاً ونزل شخصٌ ثانٍ راكضاً. ألصقت آنوشكا ظهرها بالجدار ورأت مواطناً محترماً إلى حدٍّ ما، ذا لحية صغيرة، يشبه الخنّوص قليلاً، كما بدا لآنوشكا، يمرق بجوارها، وغادر البيت عبر النافذة، كالشخص الأول، ودون أن يتحطم هو الآخر على الأسفلت. الآن، نسيت آنوشكا نهائياً الهدف من خروجها، وظلت واقفة على الدرج وهي ترسم علامة الصليب وتتأوّه وتكلّم نفسها.

وبعد فترة قصيرة هرع شخص ثالث ينزل الدرج، وكان غير ملتحٍ بل حليق الوجه، ويرتدي قميصاً طويلاً واسعاً، وطار مرفرفاً عبر النافذة كسابقيه.

لا بدّ من الإقرار بأنّ آنوشكا كانت فضولية وقررت التريّث قليلاً لترى إن كانت ستحدث أعاجيب أخرى. انفتح الباب في الأعلى من جديد، لكن الآن أخذت تنزل الدرجة شلّة كاملة، ليس ركضاً بل كما ينزل كل الناس عامةً. أسرعت آنوشكا تبتعد عن النافذة، وهبطت الدرج إلى حيث باب شقتها، ففتحته بسرعة واختبأت خلفه، وفي شقّ الباب الذي تركته لمعت عين تتحرّق من الفضول.

شرع ينزل الدرج بخطىً واهنة شخص شاحب يثير الاستغراب، تلوح عليه علامات المرض، مرسل اللحية، على رأسه قبعة سوداء ويرتدي رداءً ما، وسيدة في غفّارة سوداء، كما بدا لآنوشكا في شبه العتمة، تتأبط ذراعه بعناية. كانت السيدة إما حافية القدمين أو تنتعل حذاءً شفافاً ما، لعله أجنبي، وكان بالياً ممزقاً. ألا تباً للحذاء! فالسيدة نفسها عارية تماماً! بالفعل، والغفّارة ملقاة مباشرةً على جسدها العاري! «يا لها من شقة»! واغتبطت آنوشكا من كل أعماقها منتشيةً مسبقاً بما ستخبر به الجيران.

وكانت تسير في إثر السيدة ذات الزيّ الغريب سيدة عارية تماماً بيدها حقيبة سفر صغيرة، وكان هناك قطّ هائل الحجم يروح ويجيء قرب الحقيبة. وكادت أنوشكا أن تصأصئ بكلامٍ ما بصوتٍ مسموع وهي تفرك عينيها.

كان يسير في مؤخرة الموكب شخص أجنبي قصير القامة أحول، من دون جاكيت، في صدرية فراك بيضاء مع ربطة عنق. هذه المجموعة كلها راحت تنزل الدرج أمام آنوشكا، الواحد تلو الآخر.

وهنا سُمعت قرقعة شيء ما على بسطة الدرج. وحين خفتت الخطوات انسلّت آنوشكا، كأفعى، من خلف الباب، فوضعت الوعاء قرب الجدار وانبطحت على الأرض وراحت تفتش بيديها، وإذا بمنديل فيه شيء ثقيل في يديها. حين حلّت أنوشكا الصرّة جحظت عيناها على وسعهما. قرّبت آنوشكا الحلية إلى عينيها تماماً، وهاتان العينان ومضتا ببريقٍ ذئبيّ حقاً، وعصفت الأفكار برأس آنوشكا: «لا أعرف شيئاً! لم أرَ شيئاً!.. ألِى ابن أختي؟ أم أنشرها إلى قطع... الأحجار أمرها هيّن، يمكن انتزاعها... وكل حجر على حدة: الأول إلى بيتروفكا، والآخر إلى سمولنسكي... ولا عين رأت ولا أذن سمعت!».

خبّأت آنوشكا اللقية في عبّها، واختطفت الوعاء البلاستيك، وكانت على وشك العودة إلى شقتها، مؤجّلةً جولتها في المدينة إلى وقت آخر، حين انبثق أمامها، الله أعلم من أين وكيف، صاحب الصدر الأبيض ذاك، الذي من دون جاكيت، وهمس بصوتٍ خافت:

- هاتِ الحدوة والمنديل.

- أي منديل وأي حدوة؟ - سألت أنوشكا بتصنّعٍ بارعٍ جداً، - لا أعرف شيئاً عن أي منديل. ما لك أيها المواطن، هل أنت سكران؟

دون أن يتفوّه بكلمة أخرى ضغط صاحب الصدر الأبيض على رقبة أنوشكا بأصابع صلبة وباردة، كصلابة وبرودة درابزين الحافلة، بحيث حبس وصول الهواء إلى صدرها كلياً، فسقط الوعاء من يد آنوشكا على الأرض. بعد أن حبس الأجنبي الذي بلا جاكيت الهواء عن آنوشكا لبعض الوقت، سحب أصابعه عن رقبتها. عبّت آنوشكا الهواء وابتسمت ثم شرعت تقول:

- آه، الحدوة، حالاً! إنها حدوتك إذاً؟ وأنا أنظر، ملفوفة في

منديل. . . التقطتها عمداً حتى لا يأخذها أحد، وحينها عليها السلام!

بعد أن حصل على الحدوة والمنديل قرقع الأجنبي بعقبي حذائه على الأرض أمام آنوشكا محيياً ثم شدّ على يدها بقوة وشكرها بحرارة بتعابير ذات لكنة أجنبية قوية:

- أنا ممتنٌّ لك أعمق الامتنان، مدام. هذه الحدوة عزيزة عليّ كذكرى. واسمحي لي أن أقدّم لك مئتي روبل لقاء محافظتك عليها.

- وعلى الفور أخرج المال من جيب صديريته وأعطاه لآنوشكا.

ابتسمت آنوشكا بلهفة وحماسة واكتفت بالقول:

- أوه، أشكرك جزيل الشكر! ميرسي! ميرسي!

ثم راح الأجنبي الكريم يهبط كل صفّ من الدرجات بخطوة واحدة، لكنه قبل أن يتوارى نهائياً صرخ من الأسفل، إنما من دون لكنة هذه المرة:

- وأنت أيتها العجوز الشمطاء، إن وجدت مرة أخرى شيئاً يعود للآخرين، سلّميه للشرطة ولا تخفيه في عبّك!

شاعرةً بطنين وضوضاء في رأسها من هذه المجريات كلها على الدرج، ظلت آنوشكا طويلاً تهتف بصورة آلية:

- ميرسي! ميرسي! ميرسي! - فيما الأجنبي كان قد اختفى منذ فترة طويلة.

السيارة أيضاً لم تعد موجودة في الفناء. فبعد أن أعاد أزازيلو لمرغريتا هدية فولند، أخذ يودّعها سائلاً إياها إن كانت مرتاحة في مقعدها. أما غيللا فتبادلت ومرغريتا قبلات رنّانة، وانحنى القط على يدها يلثمها. ولوّح المودّعون بأيديهم للمعلّم المتهالك في زاوية المقعد بلا حياة وبلا حراك، ولوّحوا للغراب أيضاً، وفي الحال

تلاشوا في الهواء، معتبرين أن لا ضرورة لتكليف أنفسهم عناء صعود الدرج. أضاء الغراب مصابيح السيارة وخرج من البوابة بجوار شخصٍ نائمٍ نوم الأموات تحت سقيفة البوابة. وتلاشت أضواء السيارة السوداء الكبيرة وسط الأضواء الأخرى في شارع سادوفايا الصاخب الذي لا ينام.

بعد ساعة، في قبو بيت صغير في أحد أزقّة أربات، في الغرفة الأولى، حيث كان كل شيء كسابق عهده قبل الليلة الخريفية المرعبة من العام الفائت، كانت مرغريتا تجلس إلى طاولة مغطاة بسماط مخملي، عليها مصباح له ظُلّة وتنتصب إلى جواره مزهرية فيها أزهار السوسن، وهي تبكي بكاءً خافتاً جرّاء الروعة والسعادة اللتين عاشتهما. كان الدفتر الذي شوهّته النار موضوعاً أمامها، وإلى جوارها ارتفعت عالياً رزمة الدفاتر غير الممسوسة. كان البيت صامتاً، وكان المعلّم يغطّ في نومٍ عميق على الأريكة في الغرفة الصغيرة المجاورة، وقد تغطّى بثوب المستشفى. كان تنفّسه المنتظم بلا صوت.

بعد أن شبعت من البكاء أقبلت مرغريتا على الدفاتر غير الممسوسة ووجدت المقطع الذي كانت تقرأه قبل لقائها بأزازيلو عند جدار الكرملين. لم تكن مرغريتا ترغب في النوم. مرّت بيدها على المخطوط تمسّده، كما يداعب المرء القطة التي يحبّها، وقلّبته في يديها، تتفحّصه من كافة جوانبه، فتقف عند صفحة العنوان تارةً، وتارةً تفتحه من آخره. وفجأةً استبدّت بها فكرةٌ مرعبة، بأن هذا كله سحر، وأن الدفاتر ستختفي من أمام عينيها الآن، وأنها ستجد نفسها في غرفة نومها في الدار، وأنّ عليها، حين تستيقظ، الذهاب وإغراق نفسها. لكنها كانت الفكرة المريعة الأخيرة؛ رجع صدى الآلام المريرة التي عانتها. إذ لم يختفِ شيء، وفولند الكلي القدرة كان كلّي القدرة

حقاً، وكان في وسعها تقليب صفحات الدفاتر قدر ما يحلو لها، ولو حتى الفجر، وإنعام النظر فيها وتقبيلها وإعادة قراءة الكلمات التي تقول:

- خيّمت العتمة القادمة من البحر الأبيض المتوسط على المدينة التي يبغضها الحاكم... نعم، العتمة...

الفصل الخامس والعشرون

كيف حاول الحاكم إنقاذ يهوذا

خيّمت العتمة القادمة من البحر الأبيض المتوسط على المدينة التي يبغضها الحاكم. اختفت الجسور المعلّقة التي تصل الهيكل ببرج أنطونيو الرهيب، وانهمر من السماء وابل غمر الآلهة المجنّحة، المنتصبة فوق ميدان الخيل والأزقّة وبرك الماء... تلاشت أورشليم، المدينة العظيمة، كأنها لم تكن. التهمت العتمة كل شيء، مثيرةً هلع كل ما هو حي في أورشليم وضواحيها، وجلبت غيمة سوداء غريبة من البحر في نهاية يوم الرابع عشر من شهر نيسان الربيعي.

جثمت الغيمة بكرشها على «الجمجمة الصلعاء»، حيث كان الجلاّدون يطعنون على عجل المحكومين بالإعدام، وجثمت على الهيكل في أورشليم، ثم زحفت بتياراتٍ ضبابية من ربوته وغمرت منطقة «الضاحية السفلية». كانت تنسكب من النوافذ وتطرد الناس من الشوارع الملتوية إلى بيوتهم. لم تستعجل الغيمة صبّ مائها، بل كانت تعطي ضوءها فقط. وما إن كانت الغيمة السوداء التي تغلي وتفور تنفث نارها حتى كانت كتلة الهيكل الهائلة، بقبتها الحرشفية اللامعة، تطير نحو الأعلى من قلب الظلمة الحالكة. لكنها كانت تنطفئ في الحال لتغرق الهيكل في لجّة العتمة من جديد. وثب الهيكل خارج

الهاوية التي لا قرار لها بضع مرات، لكنه كان يسقط فيها ثانيةً، وفي كل مرة كان سقوطه هذا يقترن بدويّ الكارثة.

كانت ومضات راعشة أخرى تستنهض من اللجّة قصر هيرودتس العظيم على التلة الغربية مقابل الهيكل، فكانت التماثيل الذهبية العمياء المخيفة ترتفع إلى السماء السوداء باسطةً أيديها نحوها. لكن نار السماء كانت تحتجب ثانيةً، فتعيد قصفات الرعد الثقيلة الأصنام الذهبية إلى العتمة.

بدأ الوابل ينهمر على حين غرّة، وحينئذٍ استحالت العاصفة الرعدية إعصاراً. وفي المكان نفسه، الذي تحدّث فيه الحاكم إلى رئيس الكهنة، قرابة منتصف النهار، قرب المقعد الرخامي في الحديقة، تقصّفت شجرة السرو كعصا، بدويٍّ كقصف المدفع، وتطايرت إلى الشرفة ذات الأعمدة زهور مقتلعة وأوراق المغنوليا وأغصان صغيرة وحصيّات، مع الغبار المبلّل والبَرَد. كان الإعصار يفتك بالحديقة.

في هذه الأثناء لم يكن في الشرفة ذات الأعمدة سوى شخص واحد؛ وهذا الشخص كان الحاكم.

لم يكن الحاكم جالساً على الأريكة، وإنما كان مستلقياً على دكّة قرب طاولة صغيرة واطئة عليها مأكولات ودوارق نبيذ. وعلى جانب الطاولة الآخر دكّة أخرى، خالية. وعند قدمي الحاكم بركة حمراء، كأنما من الدم، لم تُمسَح، وشظايا متناثرة لدورقٍ محطَّم. كان الهلع قد استبدّ بالخادم الذي أعدَّ طاولة الحاكم قبل العاصفة، وذلك لسببٍ ما، جرّاء نظراته أو أنه لم يرضِ الحاكم بشيءٍ ما، فم كان من الحاكم، الساخط عليه؛ إلا أن حطّم الدورق على الأرضية الفسيفسائية وهو يقول:

- لِمَ لا تنظر في وجهي حين تقدّم لي شيئاً؟ أتراك سرقت شيئاً ما؟

ترمّد وجه الأفريقي الأسود ولاح في عينيه هلعٌ مميت، وأخذ يرتجف وكاد يحطّم دورقاً آخر، لكنّ غضب الحاكم زايله بنفس السرعة التي استبدّ به فيها. وانكبّ الأفريقي على الشظايا يلمّها ويمسح البركة، لكنّ الحاكم أومأ إليه بيده فاندفع الخادم خارجاً، وبقيت البركة.

الآن، أثناء الإعصار، كان الأفريقي مختبئاً قرب المحراب، حيث ينتصب تمثال امرأة بيضاء عارية محنيّة الرأس، خائفاً من الظهور أمام عيني الحاكم في اللحظة غير المناسبة، وخائفاً، في الوقت نفسه، من التخلف عن الظهور حين يستدعيه.

صبّ الحاكم، المضطجع على الدكّة في شبه العتمة الرعدية، لنفسه النبيذ بنفسه في قدح وراح يحتسيه في رشفات طويلة، وهو يمدّ يده إلى الخبز من حينٍ لآخر فيكسره ويبتلعه بقطع صغيرة، ومن وقتٍ لآخر يمصّ محّارة أو يلوك ليمونة ثم يعاود الشرب.

لولا هدير الماء، ولولا قصف الرعد الذي بدا وكأنه يهدّد باقتلاع سقف القصر، ولولا نقر البَرَد الذي يطرق درجات الشرفة بشدّة، لكان بالإمكان سماع الحاكم يغمغم بكلام ما لنفسه. ولو أنّ وميض نار السماء المتقطّع استحال ضوءاً متواصلاً لتبيّن للناظر أنّ وجه الحاكم، بعينيه الحمراوين جرّاء الأرق والنبيذ في الليالي الأخيرة، يعبّر عن نفاد الصبر، وأنّ الحاكم لا يرنو فقط إلى الزهرتين البيضاوين الغارقتين في البركة الحمراء، بل يلتفت باستمرار إلى الحديقة ليواجه الغبار والرمل المبللين، وأنه ينتظر أحدهم؛ ينتظره بفارغ الصبر.

بعد قليل بدأت كثافة غشاوة الماء تقلّ. فقد ضعف الإعصار رغم

شدّته، ولم تعد أغصان الأشجار تطقطق وتتساقط، وصار قصف الرعد ووميض البرق أندر، ولم يعد الغطاء البنفسجي ذو الحاشية البيضاء هو ما يسبح فوق أورشليم، وإنما غيمة رمادية عادية متأخرة. كانت العاصفة الرعدية تتجه نحو البحر الميت.

الآن بات بالإمكان تمييز ضجيج المطر وصخب المياه النازلة عبر الميازيب مباشرةً على درجات ذلك الدرج الذي سار عليه الحاكم في النهار لإعلان الحكم في الساحة. وأخيراً راحت النافورة، التي كانت صمّاء حتى الآن، تسقسق هي أيضاً. وصحا الجو، وظهرت نوافذ زرق في الغشاوة الرمادية الهاربة نحو الشرق.

وهنا تناهت إلى سمع الحاكم من بعيد، عبر نقرات رذاذ المطر الخفيف، أصوات خافتة لأبواق وقرقعة بضع مئات من حوافر الخيل. عند سماعه هذه الأصوات تحرّك الحاكم ودبّت الحياة في وجهه. كانت الكتيبة عائدة من الجبل الأقرع، وتُظهر الأصوات أنها تعبر الساحة التي أُعلن فيها الحكم.

أخيراً سمع الحاكم الخطوات وقرقعة الأقدام، التي طال انتظاره لها، على الدرج المفضي إلى الفسحة العلوية للحديقة أمام الشرفة مباشرةً. فمطّ الحاكم عنقه والتمعت عيناه فرحاً.

بين الأسدين المرمريين برز أولاً رأس يعتمر قلنسوة، ثم شخص مبلل تماماً في معطفٍ من المشمّع ملتصق بجسمه. لقد كان ذاك الشخص الذي تهامس مع الحاكم قبل إعلان الحكم في غرفة القصر المعتمة، والذي كان جالساً على صندلية ثلاثية القوائم أثناء تنفيذ الإعدام وهو يلعب بعصا.

اجتاز صاحب القلنسوة فسحة الحديقة، دون أن ينتبه للبرك، وهو

يخطو على الأرضية الفسيفسائية، ورفع يده وقال بصوتٍ عالٍ ودود وباللغة اللاتينية:

- عاش الإمبراطور وسَعِدَ.

- يا للهول! - صاح بيلاطس - ما من خيطٍ واحدٍ جافٌّ عليك! أي إعصار؟ آ؟ أرجوك أن تدخل إليّ في الحال وتتفضّل بتغيير ملابسك.

حين خلع القادم قلنسوته ووجد أنّ رأسه مبلّل كلياً وقد التصق شعره بجبينه، رسم على وجهه الحليق تماماً ابتسامةً لطيفة وأخذ يعتذر عن تغيير ملابسه مؤكداً أنّ المطر لا يمكنه أن يسبّب له أي أذى.

- لا أريد سماع ذلك، - أجاب بيلاطس وصفق بكفّيه، مستدعياً خدمه المتوارين عنه، وأمرهم بالاهتمام بالضيف، ومن ثم تقديم طعام ساخن له دون إبطاء.

لم يستغرق القادم سوى القليل جداً من الوقت كي يجفّف شعره ويغيّر ملابسه وحذاءه، ويرتّب نفسه، وسرعان ما ظهر على الشرفة منتعلاً خُفّين جافّين ومرتدياً معطفاً عسكرياً أرجوانياً جافاً، وقد سوّى شعره.

في هذه الأثناء كانت الشمس قد عادت إلى أورشليم، وقبل أن تذهب وتغوص في البحر الأبيض المتوسط أرسلت أشعةً وداعية إلى المدينة التي لا يطيقها الحاكم وذهّبت درجات الشرفة. انتعشت النافورة تماماً وراحت تسقسق بكلّ قوتها، وحطّ الحمام على الرمل وأخذ يهدل ويتقافز فوق الأغصان المتكسّرة وينقر شيئاً ما في الرمل المبلّل. كانت البركة الحمراء قد مُسحت والشظايا أُزيلت، وكان البخار يتصاعد من اللحم على الطاولة.

قال القادم وهو يدنو من الطاولة:

- أنا مصغٍ لأوامر الحاكم.

- لن تسمع شيئاً قبل أن تجلس إلى الطاولة وتحتسي النبيذ، - أجاب بيلاطس بلطف وأشار إلى الدكّة الأخرى.

جلس الضيف متكئاً، وسكب الخادم في كأسه نبيذاً أحمر كثيفاً، وملأ خادمٌ آخر كأس الحاكم وهو ينحني على كتفه بحرصٍ وحذر. بعد ذلك صرف الحاكم كلا الخادمين بإشارةٍ حادة بيده. وبينما كان الضيف يشرب ويأكل، كان بيلاطس يرمق ضيفه زارّاً عينيه وهو يرتشف النبيذ. كان ضيف بيلاطس شخصاً في متوسط العمر، ذا وجهٍ مدوّرٍ صبوحٍ أنيق، وأنفٍ مدبّب، وشعرٍ يتعذّر تحديد لونه. لكنه الآن، بعد أن جفّ شعره، يبدو أشقر. وكان يتعسّر تحديد جنسيته. ولعل أهمّ ما كان يميّزه سماحة وجهه التي كانت عيناه تُخلاّن بها، بالمناسبة، أو الأصح ليس عيناه وإنما الطريقة التي كان يرمق بها محدّثه. فقد كان عادةً يثبّت عينيه الصغيرتين تحت جفنين مغمضين وغريبين بعض الشيء، كأنهما منتفخان. وحينذاك كان يلمع في شُقّي هاتين العينين مكرٌ غير خبيث. الأرجح أنّ ضيف الحاكم كان ميّالاً إلى الفكاهة، لكنه أحياناً كان يطرد هذه الفكاهة المشعّة من شقّي عينيه، فيفتح جفونه ويحدّق إلى محدّثه فجأةً وبتركيز كأنما يسعى لرؤية لطخة غير ملحوظة على أنف محدّثه. كان هذا لا يستمر سوى لحظة واحدة لتنسدل جفونه ثانيةً ويضيق شقّا عينيه، وليلمع فيهما ثانيةً ذكاءٌ ينمّ عن طيبة ومكر.

لم يرفض كأس النبيذ الثانية أيضاً، وبلذةٍ ملحوظة ابتلع بضع محارات وتذوّق الخضار المسلوقة وأكل قطعةً من اللحم.

بعد أن شبع راح يثني على النبيذ قائلاً:

- كرمةٌ مذهلة أيها الحاكم. هل هذا نبيذ «تاليرنو»؟

- بل «تسيكوبا»، عمره ثلاث عشرة سنة، - ردّ الحاكم بلطف.

وضع الضيف يده على قلبه، رافضاً تناول المزيد، معلناً أنه قد شبع. وحينئذٍ ملأ بيلاطس كأسه، فحذا الضيف حذوه. سكب كلاهما القليل من النبيذ من كأسيهما في قصعة اللحم، ثم رفع الحاكم كأسه وقال بصوتٍ عالٍ:

- نخبنا، نخبك أيها القيصر، يا أبا الرومان، يا أعزّ الناس وأفضلهم!

ثم شربا كأسيهما، ورفع الأفريقيان الطعام عن الطاولة، مبقيين على الفاكهة والدوارق. ومرة أخرى صرف الحاكم الخدم بحركةٍ من يده وانفرد بضيفه أسفل الأعمدة.

شرع بيلاطس يقول بصوتٍ خفيض:

- وإذاً، ماذا يمكنك أن تقول لي عن المزاج العام في هذه المدينة؟

وحوّل بصره لا شعورياً إلى حيث كانت الأعمدة والسطوح المستوية، في الأسفل وراء شرفات الحديقة، ترتعش بالأشعة الذهبية الأخيرة.

- أعتقد، أيها الحاكم، أنّ المزاج العام في أورشليم الآن لا بأس به. - أجاب الضيف.

- أبحيث يمكن ضمان أن الاضطرابات لم تعد تهددنا؟

رنا الضيف إلى الحاكم برقّة وأجاب:

- لا يمكن الاتّكال على شيء في الدنيا سوى على جبروت قيصر العظيم.

- أطالت الآلهة بعمره ومنحته السلام الشامل، - هتف بيلاطس

على الفور، وبعد فترة صمت أضاف: - فهل ترى أن بالإمكان سحب القوات الآن؟

- أعتقد أنّ كتيبة الصاعقة يمكنها أن تغادر، - أجاب الضيف ثم أردف يقول: - سيكون أمراً جيداً إن قامت باستعراض في المدينة قبل مغادرتها.

- فكرة جيدة جداً، - قال الحاكم مستحسناً، - بعد غد سآمر بمغادرتها، وأنا نفسي سأغادر، وأقسم لك بمأدبة الاثني عشر إلهاً وبأرواح الأسلاف الطيبين أنني مستعد لبذل الغالي والنفسي لأفعل هذا اليوم.

- ألا يحب الحاكم أورشليم؟ - سأل الضيف بمودّة.

- ارحمني، - هتف الحاكم مبتسماً، - ما من مكانٍ أشدّ خيبةً من هذا المكان على الأرض. ناهيك عن الطبيعة! فأنا أمرض كلّما توجّب علي المجيء إلى هنا. غير أن هذا ليس إلا نصف المصيبة. لكن هذه الأعياد - السحرة، المشعوذون، المحتالون، وقطعان الحجاج هذه... متعصبون، متعصبون! كم كلّفنا مسيّا وحده، هذا الذي صاروا فجأةً يتوقعون ظهوره في هذه السنة! كلّ لحظة لا يتوقّع المرء إلاّ أنّ عليه أن يشهد سفكاً فظيعاً للدماء. ينبغي إعادة نشر القوات طوال الوقت، ومطالعة الإخباريات والوشايات التي نصفها مكتوب ضدك! وافقني بأنّ هذا مدعاة للضجر. آه لولا خدمة الإمبراطور!...

- الأعياد هنا صعبة فعلاً، - وافقه الضيف.

- أتمنى من كل قلبي انتهاء هذه الأعياد سريعاً، - أضاف بيلاطس بحرارة، - ستتوفر لي أخيراً إمكانية العودة إلى قيصرية. هل تصدّق أنّ منشأة هيرودوتس السخيفة هذه - وأشار الحاكم بيده على امتداد الأعمدة بحيث بات واضحاً أنه إنما يتحدث عن القصر، -

تصيبني حقاً بالجنون، ويجافيني النوم فيها. لم يسبق للعالم أن عرف عمارةً أغرب من هذه. حسناً، لنعد إلى شؤوننا. قبل كل شيء، ألا يقلقك باراباس اللعين هذا؟

هنا ألقى الضيف نظرته المميزة على خدّ الحاكم. لكنّ الأخير كان ينظر بعيداً بعينين ضجرتين، مقطّباً جبينه بتقزز، متأملاً الجزء المنبسط أمام قدميه من المدينة، الذي راح ينطفئ قبل المغيب. انطفأت نظرة الضيف أيضاً وانسدلت جفونه.

- ينبغي الاعتقاد بأنّ باراباس قد أصبح غير خطر الآن، كحملٍ وديع، - قال الضيف وظهرت غضون في وجهه المدوّر. - يصعب عليه التمرّد الآن.

- ألأنه صار مشهوراً جداً؟ - سأل الحاكم مبتسماً بسخرية.

- الحاكم، كالعادة، يدرك المسألة بدقة!

- لكن في كل الأحوال، - عقّب الحاكم مهموماً، وارتفعت عالياً إصبعه الطويلة الدقيقة بخاتمها ذي الحجر الأسود، - لا بدّ من...

- أوه، بوسع الحاكم أن يكون على يقين من أنّ باراباس لن يخطو خطوةً واحدة من دون مراقبة ما دمتُ في اليهودية.

- الآن أنا مطمئن، كما أكون دائماً، بالمناسبة، حين تكون هنا.

- الحاكم بغاية الطيبة!

- والآن أرجو أن تخبرني عن الإعدام، - قال الحاكم.

- ما الذي يثير اهتمام الحاكم بالضبط؟

- ألم تكن هناك محاولات من قِبل الحشد للإعراب عن الاستياء؟ هذا هو الأمر الرئيسي طبعاً.

- إطلاقاً، - أجاب الضيف.

- جيد جداً. هل تأكدت بنفسك من موتهم؟

- يمكن للإمبراطور أن يكون متأكداً من ذلك.

- قل لي... هل قدّمتم لهم الشراب قبل صلبهم؟

- نعم. إلاّ أنه، - هنا أغمض الضيف عينيه، - رفض أن يشرب.

- من بالتحديد؟ - سأل بيلاطس.

- عفواً أيها الوالي! - هتف الضيف، - ألم أُسمِّه؟ الناصري.

- المجنون! - قال بيلاطس مكشّراً لسببٍ ما واختلج عِرق تحت عينه اليسرى، - أن يموت من حروق الشمس! لماذا يرفض ما يحقّ له بموجب القانون؟ بأيِّ عبارات رفض؟

مرة أخرى أغمض الضيف عينيه وأجاب:

- قال إنه شاكر وإنه لا يُدين أحداً لسلبه حياته.

- مَنْ يقصد؟

- لم يقل هذا أيها الوالي.

- ألم يحاول أن يعظ في حضور الجنود؟

- كلا أيها الوالي. كان قليل الكلام هذه المرة. الشيء الوحيد الذي قاله هو أنه يعتبر الجبن من الرذائل البشرية الرئيسة.

- وما كانت مناسبة قوله هذا؟ - سمع الضيف صوت بيلاطس الراجف.

- هذا ما تعذّر فهمه. وعموماً كان يتصرّف بغرابة، كعادته بالمناسبة.

- وما كان وجه الغرابة؟

- كان طوال الوقت يحاول النظر إلى عينَي هذا وذاك ممّن حوله، وكان طوال الوقت يبتسم ابتسامةً ذاهلة.

- ولا شيء آخر؟ - سأل الحاكم بصوتٍ أبحّ.

- لا شيء.

نقر الحاكم كأسه وصبّ لنفسه النبيذ، وبعد أن شربها إلى آخرها قال:

- فحوى الأمر هو التالي: رغم أننا لا نستطيع، في الوقت الراهن على الأقل، إيجاد أيٍّ من المتعاطفين معه أو من أتباعه، فمن غير الجائز الاعتقاد بعدم وجودهم بتاتاً.

كان الضيف يصغي بانتباه مطأطاً الرأس. تابع الحاكم يقول:

- وبالتالي، لتجنّب أي مفاجآت أرجوك أن تمحو من وجه الأرض، فوراً ودون أي ضجة، أجساد المعدومين الثلاثة ودفنها سراً وبصمت بحيث لا يتبقى لهم أي ذكر أو أثر.

- أمرك أيها الوالي، - قال الضيف ونهض وهو يقول: - نظراً لصعوبة الأمر وأهميته اسمح لي بالانطلاق فوراً.

- لا، بل امكث قليلاً بعد، - قال بيلاطس مستوقفاً ضيفه بإشارة صارمة من يده، - فهناك مسألتان أخريان بعد. الأولى هي أنّ خدماتك الهائلة في عملك الشاق في منصب رئيس الجهاز السري لدى حاكم اليهودية تتيح لي إبلاغ روما بذلك بكل سرور.

هنا تورّد وجه الضيف، فنهض وانحنى للحاكم قائلاً:

- لا أقوم إلاّ بواجبي في الخدمة الإمبراطورية!

- لكني أريد أن أسألك أيضاً، - تابع الوالي، - فيما لو عُرِض عليك الانتقال من هنا مع ترقية، أن ترفض ذلك وتبقى هنا. فأنا لا أريد مفارقتك لقاء أيَّ شيء كان. فليكافئوك بأي طريقة أخرى.

- تسعدني الخدمة تحت قيادتك أيها الوالي.

- هذا يسعدني كثيراً. والآن، المسألة الثانية. إنها تتعلق بهذا، ما اسمه... يهوذا القريافي.

هنا صوّب الضيف نظرته إلى الحاكم، لكنه أخمدها في الحال كما ينبغي له.

تابع الحاكم خافضاً صوته:

- يقال إنه قبض مالاً فيما يبدو لقاء استقباله هذا الفيلسوف المجنون بهذه الحفاوة في بيته.

- سيقبض، - صحّح رئيس الجهاز السري لبيلاطس بصوتٍ خافت.

- وهل المبلغ كبير؟

- لا يمكن لأحد معرفة ذلك أيها الوالي.

- حتى أنت؟ - قال الوالي معبّراً باستغرابه عن إطرائه الضيف.

- للأسف، حتى أنا، - أجاب الضيف بهدوء، - أما كونه سيستلم هذا المال اليوم مساءً، فهذا أعرفه. لقد استُدعي اليوم إلى قصر قيافا.

- آخ، يا لهذا الكهل القريافي البخيل، - علّق الحاكم مبتسماً، - إنه كهل، أليس كذلك؟

- الحاكم لا يخطئ أبداً لكنه أخطأ هذه المرة؛ فهذا الذي من قيريافا شاب، - أجاب الضيف في تهذيب.

- قل لي، أيمكنك وصفه لي؟ أهو متعصّب؟

- أوه، لا أيها الحاكم.

- حسناً. أمن شيءٍ آخر؟

- إنه وسيم جداً.

- وماذا أيضاً؟ لعلّ لديه هوىً ما؟

- يصعب معرفة الجميع بهذه الدقة في هذه المدينة الهائلة أيها الحاكم. . .

- لا، لا يا أفراني! لا تقلّل من قدر نفسك!

- لديه هوى واحد أيها الحاكم. - وتوقف الضيف لبرهة ثم أضاف: - إنه مولع بالمال.

- وماذا يعمل؟

نظر أفراني إلى الأعلى. فكّر ثم قال:

- إنه يعمل في محلٍّ للصيرفة عند أحد أقاربه.

- آه، هكذا إذاً، حسناً، حسناً. - وهنا صمت الحاكم وتلفّت ليرى إن كان هناك أحد على الشرفة، ثم قال بصوتٍ خافت: - إليك فحوى الأمر: لقد تلقيت اليوم معلومات تفيد أنه سيُذبح الليلة.

هنا لم يكتفِ الضيف بتثبيت نظرته المميزة على الحاكم، بل وأطال النظر قليلاً، وبعد ذلك أجاب:

- إنكم، أيها الحاكم، بالغتم كثيراً في إطرائي. أعتقد أنني لا أستحق ذلك؛ فهذه المعلومات غير متوفرة لدي.

- أنت تستحق أسمى المكافآت، لكن هناك معلومات كهذه. - أجاب الحاكم.

- هل لي أن أتجرّأ وأسأل عن مصدر هذه المعلومات؟

- اسمح لي ألاّ أقول هذا حالياً، لا سيما أنها معلومات مبهمة وغير موثوقة وبلغتني بالمصادفة. لكن من واجبي أن أحسب حساباً لكل شيء. هذا واجبي، ويجب عليّ أن أصدّق حدسي أكثر من أيّ شيءٍ آخر، فهو لم يكذب عليّ قط حتى الآن. أما المعلومات فمفادها أن أحد أصدقاء الناصري السريين تملّكه السخط جرّاء خيانة هذا الصرّاف الفظيعة، وقد تواطأ مع شركائه على قتله اليوم، وعلى إلقاء

المال، الذي حصل عليه لقاء خيانته، إلى بيت رئيس الكهنة خفيةً مع ملحوظة تقول: «أعيد لك مالك اللعين!».

لم يعد رئيس جهاز الأمن السري يلقي على الوالي نظراته المباغتة، وواصل الإصغاء إليه زارّاً عينيه، فيما تابع بيلاطس يقول:

- تصوّر، هل سيسرّ رئيس الكهنة بتلقي هدية كهذه في ليلة العيد؟

- هذا الأمر لن يكون غير سار فحسب، - أجاب الضيف مبتسماً، - بل أعتقد أنه سيثير فضيحة كبيرة جداً أيها الحاكم.

- وأنا أيضاً أرى ذلك. ولهذا أرجو أن تهتم بهذه المسألة، أي اتخاذ كل الإجراءات لحماية يهوذا القريافي.

- أمرك أيها الوالي، - قال أفراني، - لكن ينبغي أن أطمئن الحاكم أنّ تنفيذ نيّة الأشرار هذه أمر بالغ الصعوبة - قال الضيف ثم استدار وتابع: - إذ تخيّل فقط: ملاحقته، وذبحه، بل ومعرفة كم تلقّى من المال، فضلاً عن إيجاد وسيلة لإعادة المال لقيافا، وهذا كله في ليلة واحدة؟ اليوم؟

- ومع هذا سيذبحونه اليوم، كرّر بيلاطس معانداً، لدي حدس، أقول لك! لم يسبق له أن خذلني، - وهنا سرت قشعريرة في وجه الحاكم الذي راح يفرك يديه لبعض الوقت.

- سمعاً وطاعة، - أجاب الضيف بإذعان، ثم نهض واستقام واقفاً وفجأةً سأل بصرامة: - سيذبحونه إذاً، أيها الوالي؟

- نعم، والأمل كله منوط بأدائك الذي يثير ذهول الجميع. - أجاب الوالي.

سوّى الضيف حزامه الثقيل تحت المعطف وقال:

- هذا شرفٌ لي، أتمنى لك الصحة والسعادة.

- آه نعم، - صاح بيلاطس بصوتٍ خافت، - لقد نسيت تماماً! فأنا مدينٌ لك!..

دُهش الضيف وقال:

- الحق، أيها الحاكم، أنك لست مديناً لي بشيء.

- كيف لا! ألا تذكر حشد الفقراء عند دخولي أورشليم... أردت أن أرمي لهم بعض المال، ولم يكن معي، فأخذت منك.

- أوه أيها الحاكم، هذا أمرٌ تافه!

- حتى التوافه ينبغي تذكّرها.

هنا استدار بيلاطس ورفع العباءة الملقاة على الأريكة خلفه فأخرج من تحتها كيساً من الجلد ومدّه للضيف، فانحنى الأخير وتناوله ودسّه تحت معطفه.

قال بيلاطس:

- أنتظر تقريرك عن الدفن، وكذلك بخصوص قضية يهوذا القريافي. اليوم ليلاً حتماً. أتسمعني يا أفراني، اليوم. سأعطي أمراً للحرس بإيقاظي فور وصولك. سأكون في انتظارك!

- هذا شرفٌ لي، - قال رئيس الجهاز السري، واستدار وغادر الشرفة. تناهت إلى الحاكم خشخشة خطواته على رمل الحديقة المبلّل، ثم قرقعة جزمته على الرخام الأسود، ثم توارت ساقاه، فجسمه، وأخيراً اختفت قلنسوته. وفي هذه اللحظة فقط رأى الحاكم أنّ الشمس قد غربت وأنّ الغسق قد حلّ.

الفصل السادس والعشرون

الدفن

ربما كان هذا الغسق هو السبب في تغيّر مظهر الحاكم الخارجي بشكل حادّ. فقد بدا للناظر وكأنه هَرِم واحدودب ظهره، فضلاً عن أنه بات قلقاً. التفت مرةً، ولسببٍ ما ارتعش حين ألقى نظرةً على الأريكة الخالية التي كانت العباءة ملقاة على مسندها. كانت ليلة العيد تقترب، وأطياف المساء تلعب لعبتها، وربما هُيّئ للحاكم المتعب أن أحدهم يجلس على الأريكة الخالية. خارت عزيمة الحاكم: رفع العباءة، نفضها، ثم أعادها إلى مكانها وراح يسعى في الشرفة جيئةً وذهاباً، فيفرك يديه تارةً، وتارةً ينحني على الطاولة ويتشبّث بالكأس، أو يتوقف ويحدّق في الأرضية الفسيفسائية ببلاهة، كأنما يحاول قراءة رموز كتابية ما فيها.

إنها المرة الثانية اليوم التي تخيّم عليه فيها الكآبة. وهو يفرك صدغه، الذي لم يبقَ فيه من الألم الجهنّمي الصباحي سوى ذكرى آلام موجعة باهتة، كان الحاكم يسعى جاهداً لإدراك سبب عذاباته النفسية. وسرعان ما أدرك السبب، لكنه حاول أن يكذب على نفسه. كان واضحاً له أنه قد فرّط اليوم في شيءٍ لا رجعةَ عنه، وأنه الآن يحاول تصحيح ما أفلت من يده بأفعال تافهة، سخيفة، والأهم أنها متأخرة. أما خداعه لنفسه فكان يكمن في أنه كان يحاول إيهام نفسه بأنّ أفعاله

الحالية هذه، في المساء، لا تقلّ أهميةً عن الحكم الذي نطق به في الصباح. لكنّ الحاكم كان يفشل في ذلك فشلاً ذريعاً.

في إحدى انعطافاته توقّف الحاكم وصفّر. ردّاً على هذا الصفير في الغسق تناهى نباحٌ خافت، ووثب من الحديقة إلى الشرفة كلبٌ ضخم مرهف الأذنين رمادي الوبر في رقبته طوق ذو حلقات مذهبة.

صاح الحاكم في وهن:

- بانغا، بانغا.

انتصب الكلب على قائمتيه الخلفيتين، بينما أرخى الأماميتين على كتفي صاحبه بحيث كاد يوقعه أرضاً، وراح يلعق خدّه. جلس الحاكم على الأريكة، فأقعى بانغا عند قدمي صاحبه، مادّاً لسانه ويلهث طوال الوقت، وكانت الفرحة في عيني الكلب تعني أنّ العاصفة الرعدية قد انتهت، وهي الشيء الوحيد في الدنيا الذي يخافه الكلب الشجاع، وتعني كذلك أنه مرة أخرى هنا، بجوار الشخص الذي يحبّه ويحترمه ويعتبره الأشدّ جبروتاً في العالم وسيّد البشر جميعاً، الذي بفضله الكلب أيضاً يعتبر نفسه كائناً مميّزاً، رفيعاً واستثنائياً. لكنّ الكلب القابع عند قدمي صاحبه، حتى دون أن ينظر إليه وإنما إلى الحديقة المسائية، أدرك على الفور أنّ خطباً ما قد حلّ بصاحبه، ولهذا فقد غيّر من وضعيته، فنهض وذهب إلى خلف الحاكم ووضع قائمتيه الأماميتين ورأسه على ركبتيه، ملوّثاً أطراف عباءته بالرمل الرطب. الأرجح أن ما قام به بانغا كان يجب أن يعني أنه يواسي صاحبه وأنه مستعد لمواجهة البلاء معه. كما أنه حاول الإعراب عن ذلك بعينيه اللتين كانتا ترمقان الحاكم مواربةً، وبأذنيه المرهفتين المنتصبتين. على هذا النحو استقبل كلاهما، الكلب والإنسان، ليلة العيد على الشرفة.

في هذه الأثناء كان ضيف الحاكم منهمكاً في مشاغل كثيرة. فبعد

أن غادر فسحة الحديقة العلوية أمام الشرفة، نزل الدرج إلى مصطبة الحديقة التالية، ثم انعطف إلى اليمين وتوجّه إلى الثكنات القائمة ضمن محيط القصر. وفي هذه الثكنات بالذات كانت قد استقرّت السريتان اللتان واكبتا الحاكم إلى أورشليم في الأعياد، وكذلك الحرس السري للحاكم الذي كان تحت إمرة الضيف بالذات. لم يمكث الضيف في الثكنات سوى فترةٍ وجيزة، زهاء عشر دقائق، لكن خلال هذه الدقائق العشر غادرت فناء الثكنات ثلاث عربات محملة بأدوات حفر وبرميل ماء، يرافقها خمسة عشر فارساً في معاطف رمادية. خرجت العربات بمواكبة هؤلاء الفرسان عبر بوابات القصر الخلفية متوجهةً نحو الغرب، ثم عبرت البوابة في سور المدينة وسارت في طريقٍ ضيق باتجاه طريق بيت لحم في البداية، ثم مضت شمالاً إلى أن وصلت إلى التقاطع الواقع عند باب خفرون، وحينها واصلت سيرها عبر طريق يافا التي سار فيها موكب المحكومين بالإعدام في النهار. في هذا الوقت كان الظلام قد حلّ ولاح القمر في الأفق.

ما إن غادرت العربات بمواكبة الفرسان القصر حتى انطلق ضيف الحاكم أيضاً على ظهر جواد مغادراً القصر، مرتدياً رداءً داكناً بالياً. لم يتجه الضيف إلى خارج المدينة، بل إلى المدينة، وكان بالإمكان رؤيته بعد قليل يتجه نحو قلعة أنطونيو الواقعة إلى الشمال بجوار الهيكل الكبير مباشرةً. في القلعة أيضاً لم يمكث الضيف طويلاً، وبعد ذلك لوحظت آثاره في «الضاحية السفلية» من المدينة؛ في شوارعها الملتوية والعشوائية. وقد ذهب الضيف إلى هناك راكباً بغلاً هذه المرّة.

الضيف، الذي يعرف المدينة جيداً، عثر بسهولة على الشارع

المطلوب، وكان اسمه «الشارع اليوناني»، فقد كانت فيه بعض الدكاكين اليونانية، من بينها محلّ لبيع السجّاد. وقد أوقف الضيف بغله أمام هذا المحلّ بالذات، ثم ترجّل عنه وربطه إلى حلقة عند الباب. كان المحل قد أقفل. دخل الضيف من بابٍ صغير يقع إلى جانب باب الدكان، فوجد نفسه في فناءٍ صغير مربّع الشكل محاط بعنابر. وحين انعطف الضيف في ركن الفناء وجد نفسه على مصطبة حجرية لبيتٍ مأهول يعرّش فيه اللبلاب، وراح يتلفّت حوله. كان البيت معتماً، وكذلك العنابر، إذ لم يكن أصحاب البيت قد أشعلوا النور بعد. نادى الضيف بصوتٍ غير عالٍ:

- نيزا!

ردّاً على هذا النداء صرّ الباب وظهرت في الشرفة في نصف العتمة امرأة شابة سافرة الوجه. انحنت المرأة فوق درابزين الشرفة وراحت تنظر بقلق تحاول معرفة من القادم، ولمّا عرفته ابتسمت له مرحّبةً وهزّت رأسها ولوّحت بيدها.

- هل أنتِ وحدكِ؟ - سأل أفراني باليونانية بصوتٍ خافت.

- وحدي، - همست المرأة التي في الشرفة. - لقد سافر زوجي إلى قيصرية في الصباح، - ثم التفتت المرأة إلى الباب وأضافت هامسةً: - لكن الخادمة في البيت. - وهنا أومأت له بما معناه: «ادخل». تلفّت أفراني حوله ثم شرع ينزل الدرجات الحجرية، وبعد ذلك توارى هو والمرأة داخل المنزل.

لم يمكث أفراني عند هذه المرأة سوى فترة قصيرة جداً؛ ليس أكثر من خمس دقائق، وبعد ذلك غادر البيت والشرفة حيث أسدل قلنسوته على عينيه وخرج إلى الشارع. في هذه الأثناء كانت القناديل قد أُشعلت في البيوت، وكان زحام ما قبل العيد لا يزال عظيماً جداً،

وأختفى أفراني على بغله وسط تيار الراكبين والراجلين. ولا يعرف أحد أين ذهب بعد ذلك.

أما المرأة التي دعاها أفراني باسم نيزا، فبعد أن ظلّت بمفردها شرعت تغيّر ملابسها في عجالة. ولكن رغم صعوبة العثور على ما يلزمها من أغراض في الغرفة المظلمة لم تشعل المصباح ولم تنادِ خادمتها. وفقط بعد أن جهّزت نفسها ووضعت غطاءً أسود على رأسها عندئذ سُمع صوتها في البيت:

- إن سأل عني أحد فقولي له إني ذهبت لزيارة إينانتا.

سُمِعت برطمة الخادمة العجوز في العتمة تقول:

- لزيارة إينانتا؟ يا لإينانتا هذه! ألم يحظر عليك زوجك زيارتها! إنها قوّادة، صاحبتك إينانتا هذه! سأخبر زوجك...

- كفى، كفى، كفى، اخرسي، - ردّت نيزا وانسلّت من البيت كطيف. قرقع حذاء نيزا على بلاط الفناء الحجري. أغلقت الخادمة الباب المفضي إلى الشرفة وهي تُهمهم. وغادرت نيزا منزلها.

في هذا الوقت بالذات، وفي زقاقٍ آخر من أزقة «الضاحية السفلية»، وهو زقاق متعرج تفضي درجاته إلى إحدى برك المدينة، خرج من باب بيتٍ حقير، تطلّ جهته الخلفية على الزقاق ونوافذه على الفناء، شاب لحيته الصغيرة مشذّبة بعناية، وتتدلى على كتفيه شملة بيضاء نظيفة، ويرتدي قميصاً أزرق جديداً للعيد له أربطة تتدلى إلى الأسفل، وينتعل صندلاً جديداً يصرصر. كان الشاب الوسيم، الأقنى الأنف، المتجمّل من أجل العيد العظيم، يسير بخفة ونشاط، متجاوزاً السابلة المسرعين إلى مائدة العيد في بيوتهم، وينظر كيف تضيء النوافذ الواحدة تلو الأخرى. كان الشاب منطلقاً في الطريق المحاذي للسوق والمؤدي إلى قصر رئيس الكهنة قيافا، الواقع على سفح تلّة الهيكل.

بعد فترةٍ وجيزة كان بالإمكان رؤيته وهو يدخل بوابة قصر قيافا، ولم يلبث أن غادره بعد قليل.

بعد زيارته القصر، الذي كانت المصابيح والمشاعل مضاءة فيه وحيث كان هرج ومرج العيد جارياً على قدمٍ وساق، عاد الشاب أدراجه إلى الضاحية السفلية ماشياً بمزيدٍ من الخِفة والنشاط والفرح. وعند تلك الناصية، حيث يصبّ الشارع في ساحة السوق، وسط الزحام والغليان، لحقت به امرأة رشيقة تمشي بخطواتٍ راقصة وتضع نقاباً أسود يغطي حتى عينيها. وحين أدركت هذه المرأة الشاب الوسيم رفعت نقابها للحظة وألقت نظرةً نحو الشاب، لكن دون أن تبطئ من سيرها، بل سرّعت خطاها وكأنها تحاول التواري عمّن تلاحقه.

لم يلحظ الشاب هذه المرأة وحسب، بل عرفها أيضاً، وإذ ذاك ارتعد وتوقّف وهو ينظر إليها من الخلف في حيرة وارتباك، وانطلق في إثرها على الفور. أدرك الشاب المرأة، بعد أن كاد يرمي أرضاً شخصاً في يده جرّة، وناداها وهو يلهث من الانفعال:

- نيزا!

التفتت المرأة وزرّت عينيها، فظهر في وجهها انزعاجٌ بارد وأجابت باليونانية بجفاء:

- آه، أهذا أنت يا يهوذا؟ لم أعرفك في الحال. وبالمناسبة هذا فألٌ حسن، فعندنا مثل يقول إنّ من لا يتعرّفه الناس يغدو غنياً.

اضطرب يهوذا إلى درجة أن قلبه راح يتقافز كعصفورٍ تحت لحافٍ أسود، وسأل بهمسٍ متقطّع خشية أن يسمعه المارّة:

- إلى أين تمضين يا نيزا؟

- ولِمَ تريد أن تعرف ذلك؟ - أجابت نيزا مبطئةً من سيرها وهي ترمق يهوذا بغطرسة.

حينئذٍ همس يهوذا في حيرة وارتباك بصوتٍ ذي نبرةٍ طفولية غريبة:

- كيف ذلك؟... فقد اتفقنا على أن أمرّ عليكِ، وقلتِ إنك ستكونين طوال المساء في البيت...

- آه لا لا، - أجابت نيزا ومطّت شفتها السفلى بغنجٍ وزعلٍ فبدا وجهها ليهوذا، وهو أجمل وجه رآه في حياته، وقد ازداد جمالاً، - لقد تولاّني الضجر. عندكم عيد، فماذا تريدني أن أفعل؟ أن أجلس وأصغي إلى تنهيداتك على الشرفة؟ علاوةً على الخوف من أن تخبر الخادمة زوجي؟ لا، لا، لذا قررت الذهاب إلى ضواحي المدينة والاستماع إلى تغريد البلابل.

- كيف إلى الضواحي؟ بمفردك؟ - سأل يهوذا في ذهول.

- بمفردي طبعاً، - أجابت نيزا.

- اسمحي لي بمرافقتكِ، - رجاها يهوذا وهو لا يكاد يتنفّس. فقد تبلبلت أفكاره وسها عن كل ما في الدنيا وراح ينظر بعينين ضارعتين إلى عيني نيزا الزرقاوين اللتين بدتا الآن سوداوين.

لم تجب نيزا وحثّت خطاها.

- ما لك تصمتين يا نيزا؟ - سأل يهوذا شاكياً وهو يجاري خطوها.

- ألن أشعر بالملل معك؟ - سألت نيزا فجأةً وتوقفت. وهنا تبلبلت أفكار يهوذا تماماً. لكن نيزا لانت أخيراً وقالت:

- حسناً، لنذهب.

- لكن إلى أين، إلى أين؟

- مهلاً... لندخل هذا الفناء ونتفق، فأنا أخشى أن يراني أحد من المعارف فيقال عني بعد ذلك إنني كنت برفقة عشيق في الشارع.

وفي الحال اختفى يهوذا ونيزا من السوق، فقد كانا الآن يتهامسان تحت سقيفة بوابةٍ ما.

- اذهب إلى بستان الزيتون، - همست نيزا وهي تسدل النقاب على عينيها وتولي ظهرها لرجل يحمل سطلاً عبر البوّابة، - إلى جتسماني، وراء نهر قدرون، فهمت؟

- نعم، نعم، نعم.

- سأمضي أمامك، - واصلت نيزا تقول، - أما أنت فلا تقتفِ أثري، بل كن بعيداً عني. سأسبقك... وبعد أن تجتاز الساقية... هل تعرف أين المغارة؟

- أعرف، أعرف...

- اصعد بمحاذاة معصرة الزيتون ثم انعطف باتجاه المغارة. سأكون هناك. لكن إياك أن تتبعني الآن. كن صبوراً، انتظر هنا. - ومع هذه الكلمات غادرت نيزا وكأنها لم تكن تكلّم يهوذا.

ظلّ يهوذا واقفاً بمفرده بعض الوقت محاولاً استجماع أفكاره المشتتة، بما فيها كيف يفسّر غيابه عن مأدبة العيد عند أهله، وراح يفكّر في كذبةٍ ما، لكنه لاضطرابه لم يخطر له شيء ولم يعدّ كذبةً لائقة، وحملته قدماه خارج الفناء دون إرادته.

لقد غيّر طريقه الآن، فلم يتوجّه إلى «الضاحية السفلية» وإنما عاد أدراجه إلى قصر قيافا. كان يهوذا الآن لا يبصر ما حوله جيداً. كانت المدينة تحتفل بالعيد، ومن حول يهوذا لم تكن تتلألأ المصابيح فقط، بل كانت تتناهى أصوات الصلوات أيضاً. كان المتأخرون الأخيرون في طريقهم إلى بيوتهم يحثّون حميرهم وهم يسوطونها ويصرخون فيها. كانت قدما يهوذا تسيران به من تلقاء ذاتهما، ولم يلحظ كيف عبرت

بجانبه مسرعةً أبراج قلعة أنطونيو المخيفة المغشّاة بالطحالب، ولم يسمع زعيق الأبواق في القلعة، ولم يعر دورية الخيّالة الرومان، مع مشعلها الذي ينير ضوءُها الرجراج طريقه، أي اهتمام. وبعد أن تجاوز يهوذا القلعة التفت فرأى شمعدانين ضخمين كل منهما بخمسة شموع يضيئان على علوٍّ مخيف فوق الهيكل. لكنّ يهوذا كان يرى حتى هذين الشمعدانين بإبهام، فقد بدا له أنّ عشرة قناديل لم يُرَ لحجمها مثيل تشتعل فوق أورشليم تضاهي بأنوارها القنديل الوحيد الذي يعلو شيئاً فشيئاً فوق أورشليم: قنديل القمر. لكن يهوذا الآن كان في شغلٍ عن كل ما حوله، فقد كان منطلقاً إلى باب جتسماني، إذ كان يريد مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن. وبين الحين والآخر كانت تلوح أمامه قامة متراقصة، وسط ظهور ووجوه المارّة، تقوده وراءها. لكن هذا كان يتراءى له، فيهوذا كان يدرك أنّ نيزا قد سبقته بمسافة لا بأس بها. تجاوز يهوذا دكاكين الصيرفة بسرعة وبلغ باب جتسماني أخيراً. ورغم أنه كان يحترق من نفاد الصبر إلاّ أنه، مع ذلك، كان مضطراً للتوقّف، فقد كانت هناك جِمال تدخل المدينة، وفي إثرها دورية الحرس السورية التي لعنها يهوذا في سرّه...

لكن لكل شيء نهاية. كان يهوذا المتلهّف قد صار الآن خارج سور المدينة، ورأى إلى شماله مقبرةً صغيرة تجاورها بضع خيام مخططة للحجّاج. عبر يهوذا الدرب الترابية المغمورة بضوء القمر ثم حثّ خطاه إلى نهر قدرون ليعبره. كانت الحياة تقرقر بهدوء عند قدمي يهوذا. راح يهوذا يقفز من حجرٍ إلى آخر إلى أن بلغ ضفة النهر الأخرى، وغمره الفرح حين رأى أن الطريق أعلى البساتين خالية، وعلى مسافة غير بعيدة لاحت له بوّابة بستان الزيتون نصف المحطّمة.

بعد جوّ المدينة الخانق أذهلت يهوذا رائحة الليل الربيعي

المخدّرة؛ فمن البستان، عبر السياج، كانت تنبعث موجة من روائح الآس والأكاسيا قادمه من حقول جتسماني.

لم يكن هناك من يحرس البوابة ولم يكن أمامها أحد، وخلال دقائق كان يهوذا يحثّ خطاه في ظل أشجار الزيتون الضخمة الكثيفة الأغصان. كانت الطريق تؤدي إلى الجبل، وكان يهوذا يصعد لاهثاً، ومن حين لآخر كان يخرج من الظلمة إلى سجاجيد قمرية مزخرفة ذكّرته بالسجاجيد التي رآها في دكّان زوج نيزا الغيور. بعد قليل لاحت إلى يسار يهوذا، في المرج، معصرة الزيت برحاها الحجرية الثقيلة وأكوام من براميلٍ ما. كان البستان خالياً، فقد انتهت الأعمال عند الغروب ولم تكن في البستان نأمة، وكانت الآن جوقات البلابل تصخب وتغرّد فوق رأس يهوذا.

كان هدف يهوذا قريباً. كان يعرف أنه لن يلبث أن يسمع إلى يمينه في العتمة رقرقة الماء المتساقط في المغارة، وهذا ما حدث؛ فقد سمعه الآن، وصار الجو أبرد قليلاً. وحينئذٍ أبطأ من سيره وصاح بصوتٍ خفيض:

- نيزا!

لكن بدلاً من نيزا انفصل عن جذع شجرة الزيتون العريض رجل مربوع قصير القامة عريض المنكبين وقفز إلى الطريق ولمع شيء ما في يده سرعان ما خبا.

جفل يهوذا وارتدّ إلى الوراء وصاح بصوتٍ واهن:

- آخ!

سدّ شخص آخر عليه الطريق، أما الأول، الذي كان أمام يهوذا، فقد سأله:

- كم قبضت الآن؟ قل إذا كنت تريد الإبقاء على حياتك!

انبعث الأمل في قلب يهوذا وصاح في يأس:

- ثلاثون تيترادراخما! ثلاثون تيترادراخما! كل ما قبضته بحوزتي. ها هو المال! خذوه لكن دعوني أعيش!

خطف الذي في الأمام المحفظة من يد يهوذا في لحظة، وفي نفس اللحظة لمعت سكين كالبرق وراء ظهر يهوذا وطعنت العاشق في ظهره أسفل لوح الكتف. قُذِف يهوذا إلى الأمام وطوّح بيديه، بأصابعهما المنقبضة، في الهواء، فتلقّاه الذي في الأمام بسكينه وغرزها حتى مقبضها في قلب يهوذا.

- نيـ. . .زا. . . - تمتم يهوذا ليس بصوته العالي الصافي والفتي بل بصوتٍ خفيض فيه لوم، ولم يصدر عنه أي صوت بعد ذلك، فقد اصطدم جسده بالأرض بقوةٍ بالغة بحيث علا صوت الارتطام.

حينئذٍ ظهرت قامة ثالثة على الطريق. هذا الشَخص الثالث كان يرتدي بردة لها قلنسوة.

- لا تتلكأا، - أمر الثالث.

وضع القاتلان المحفظة مع قصاصة أعطاهما إياها الثالث في قطعة جلد وحزماها بخيط. دسّ الثاني الصرّة في عبّه ثمّ غادر كلاهما الطريق في اتجاهين مختلفين وابتلعتهما الظلمة بين أشجار الزيتون. أما الثالث فقد جلس القرفصاء قرب القتيل وألقى نظرةً على وجهه. بدا الوجه للناظر إليه في الظل أبيض كالطباشير وجميلاً جمالاً ملهماً. خلال ثوانٍ لم يعد هناك أي كائن حي في الطريق. كان الجسد الهامد الأنفاس مستلقياً على الأرض واليدان مبسوطتين، وكان القمر يضيء القدم اليسرى بحيث كانت سيور حذائه كلها تُرى بوضوح.

كان بستان جتسماني في هذا الوقت يصدح برمّته بتغريد البلابل. لا أحد يعلم إلى أين توجّه قاتلا يهوذا، لكن الطريق التي سلكها

الثالث معروفة. فبعد أن غادر الطريق توغّل في دغل من أشجار الزيتون متوجهاً نحو الجنوب، ثم تسلّق سور البستان بعيداً عن البوابة الرئيسية، عند زاوية البستان الجنوبية، هناك حيث كانت حجارة السور الحجري العلوية تتساقط، وسرعان ما صار على ضفة نهر قدرون. حينها خاض في الماء قليلاً إلى أن لمح من بعيد طيفي حصانين يقف إلى جوارهما شخص. كان الحصانان أيضاً يقفان في مجرى النهر، وكان الماء يتدفق ويغسل حوافرهما. امتطى السائس أحد الحصانين، ووثب الشخص ذو القلنسوة إلى ظهر الحصان الثاني، وراحا يسيران ببطء في مجرى النهر، وكان يُسمَع صوت قرقعة الحجارة تحت حوافر الحصانين. ثم خرج الفارسان من الماء إلى الضفة الأورشليمية وأخذا يسيران بخطوات بطيئة بمحاذاة سور المدينة. وهنا افترق الفارسان، حيث ابتعد السائس رامحاً إلى الأمام واختفى عن الأنظار، أما صاحب القلنسوة فقد أوقف حصانه وترجّل عنه في طريقٍ مقفرة، ثم خلع بردته وقلبها على قفاها وأخرج من تحتها خوذة مفلطحة بلا ريش واعتمرها. ثم وثب إلى ظهر الحصان شخص في عباءة عسكرية رومانية على خصره سيف قصير. شدّ الفارس العنان فانطلق الجواد الجموح خبباً ما جعل الفارس يترجرج على ظهره، ولم تكن الطريق طويلة الآن، فقد كان الفارس يدنو من بوابة أورشليم الجنوبية.

تحت قنطرة البوابة كانت نار المشاعل التي لا تهدأ تتراقص وتتقافز. كان جنود الحراسة من السرية الثانية في فوج الصاعقة جالسين على مقاعد حجرية يلعبون بالكعاب، وما إن رأوا الضابط قادماً حتى هبّوا واقفين باستعداد، فلوّح لهم بيده ودخل المدينة.

كانت أضواء العيد تغمر المدينة؛ فنيران المصابيح كانت تتراقص في النوافذ كلها، وكانت أصوات الأدعية والصلوات تتردد في كل

مكان، مندمجةً في جوقة غير متناسقة. وأحياناً كان بمقدور الفارس أن يرى عبر النوافذ المطلّة على الشارع الناس جالسين حول مأدبة العيد التي عليها لحم جديٍ صغير وكؤوس النبيذ بين أطباق الأعشاب المرّة. كان الفارس ينساب في خببٍ متمهّل عبر شوارع «الضاحية السفلية» الخالية، وهو يصفّر بلحن أغنيةٍ ما، متوجهاً إلى برج أنطونيو، وينظر بين الحين والآخر إلى الشمعدانات ذات الشموع الخمسة التي لا مثيل لها في العالم وهي تتلألأ في أعلى الهيكل، أو إلى القمر المعلّق أعلى الشمعدانات.

لم يكن قصر هيرودتس العظيم يشارك أيّما مشاركة في احتفالات ليلة الفصح. ففي الغرف الملحقة بالقصر، المطلّة على الجنوب، التي استقرّ فيها ضباط الكتيبة الرومانية وقائد الفوج، كانت الأنوار مضاءة وكانت هناك بعض الحركة والحياة. أما في القسم الأمامي، الرئيسي، حيث يقيم ساكن القصر الوحيد رغماً عنه؛ الحاكم، فقد بدا برمّته، بأعمدته وتماثيله الذهبية، وكأنما هو في عماء تحت القمر الساطع. هنا، داخل القصر، كان يخيّم الظلام والصمت. ولم تكن لدى الحاكم رغبة في أن يهرع إلى داخل القصر، كما قال لأفراني، فأمر بإعداد سريرٍ له على الشرفة، هناك حيث تناول الغداء وحيث أجرى التحقيق في الصباح. اضطجع الحاكم على الدكّة التي أُعدّت له، لكنّ النوم لم يرغب في القدوم إليه. كان القمر الساطع معلَّقاً في السماء الصافية، وظلّ الحاكم يحدّق فيه لساعات لا يرفع عنه عينيه.

في منتصف الليل تقريباً أشفق النوم على الوالي أخيراً. ففكّ الوالي أزرار بردته، متثائباً بتشنّج، وألقاها عنه، ونزع السير المشدود إلى قميصه مع الخنجر الفولاذي العريض مع غمده ووضعه على الأريكة قرب الدكّة، ثم خلع صندله وتمدّد. وفي الحال ارتقى بانغا سريره

واستلقى بجواره، رأسه إلى رأسه، فوضع الحاكم يده على رقبة الكلب وأغمض عينيه أخيراً. حينذاك فقط غفا الكلب أيضاً.

كانت الدكّة شبه معتمة، فقد كان يحجبها عن القمر أحد الأعمدة، لكنّ شريطاً من ضوء القمر كان يمتد من درج المدخل إلى السرير. وما إن فقد الحاكم صلته بما حوله في الواقع حتى شرع يسلك الطريق المضاء صاعداً إلى القمر مباشرةً، بل حتى إنه راح يضحك في نومه من السعادة. إلى هذ الدرجة كان كل شيء رائعاً وفريداً في الطريق الأزرق الشفاف. كان الحاكم يسير برفقة بانغا، ويسير إلى جوارهما الفيلسوف الشريد. كانا يتجادلان حول أمرٍ معقد بالغ الأهمية، غير أن أيّاً منهما لم يستطع التغلّب على الآخر. كانت آراءهما متنافرة في كل شيء، وهذا ما كان يجعل نقاشهما ممتعاً وشيّقاً. بطبيعة الحال بدا حكم الإعدام الذي نُفِّذ اليوم بلبلةً محضاً، فها هو الفيلسوف، الذي ابتدع شيئا مُستحيلاً بالغ الخراقة من قبيل أن الناس جميعاً طيبون، يسير إلى جواره، وبالتالي فهو حي. وبالطبع سيكون أمراً فظيعاً تماماً مجرّد التفكير أنّ في الإمكان إعدام شخص كهذا. لم يكن هناك إعدام! لا لم يكن! هاكم فيمَ تكمن روعة هذه الرحلة صعوداً عبر سلّم القمر.

كان هناك من وقت الفراغ قدر ما يلزم، ولن تهبّ العاصفة إلاّ عند حلول المساء، ولا شك أنّ الجبن من أفظع الرذائل. هذا ما قاله يسوع الناصري. لا أيها الفيلسوف، إني أعترض: الجبن هو الرذيلة الأشدّ فظاعةً.

هاك حاكم اليهودية الحالي، قاضي الفوج سابقاً، على سبيل المثال، فهو لم يجبن آنذاك في وادي العذارى حين كاد الجرمان المسعورون يمزّقون كريسوبوي الجبّار. لكن عفواً أيها الفيلسوف!

أيعقل أن تفترض، مع ما تتمتع به من رجاحة عقل، أنّ حاكم اليهودية سوف يقضي على مركزه ومستقبله بسبب شخص أجرم في حق القيصر؟

- نعم، نعم، - أنّ ونشج بيلاطس في نومه.

طبعاً سيفعل. لم يكن ليفعل ذلك في الصباح، أما الآن، ليلاً، بعد أن زان كل شيء، فهو مستعد للقيام بذلك. سيفعل أي شيء كي ينقذ من الموت طبيباً وحالماً مجنوناً لا ذنب له على الإطلاق!

- من الآن فصاعداً سنكون معاً على الدوام، - قال له في نومه الفيلسوف المشرّد الممزّق الثياب الذي لا يدري أحد كيف اعترض سبيل الفارس ذي الرمح الذهبي. حيث يكون الواحد يكون الآخر أيضاً! وما إن يذكروني حتى يذكروك أيضاً! أنا اللقيط، ابن والدين مجهولين، وأنت، ابن الملك - المنجّم وبيللا الحسناء، ابنة الطحّان.

- وأنت لا تنسني، اذكرني، أنا ابن المنجّم، - سأله بيلاطس في نومه راجياً. وإذ ضمن ذلك لنفسه، عبر إيماءة من البائس السائر إلى جواره الذي من أنصارية، أخذ حاكم اليهودية القاسي يبكي ويضحك من الفرح في نومه.

هذا كله كان حسناً، لكنه جعل استيقاظ الوالي أشدّ هولاً. فقد زمجر بانغا على القمر فغار الطريق الأزرق الزلق، وكأنه معبَّد بالزبدة، أمام الوالي، ففتح عينيه وكان أول ما تذكّره هو أنه كان هناك إعدام. أول ما فعله الحاكم كان التشبّث بطوق بانغا بحركةٍ معتادة، ثم راح يبحث عن القمر بعينيه المتعبتين فرأى أنه قد تحرّك من موضعه قليلاً وصار فضياً. كان ضوءه يغطّي على الضوء المزعج المضطرب المتراقص، على الشرفة أمام عينيه مباشرةً. كان في يد قائد المئة كريسوبوي مشعل مشتعل يطلق دخاناً، وكان حامل المشعل يرمق بخوفٍ وحنق الوحش الخطر المتحفّز للانقضاض.

- لا تمسّه يا بانغا، - قال الحاكم بصوتٍ مريض وسعل، ثم أردف وهو يتّقي لهب الشعلة بيده: - حتى في الليل وفي ضوء القمر لا أجد الراحة. آه أيتها الآلهة! وظيفتك أيضاً سيئة يا مارك، فأنت تشوّه الجنود. . .

كان مارك يحدّق في الحاكم بمنتهى الذهول. استيقظ الحاكم وثاب إلى رشده، ولكي يمحو أثر الهراء الذي فاه به وهو شبه نائم قال:

- لا تنزعج يا قائد المئة. أعود فأقول إن وضعي أسوأ من وضعك. ماذا تريد؟

- لقد وصل رئيس الجهاز السري، - أبلغه مارك بهدوء.

- نادِه، نادِه، - أمر الحاكم وهو يسعل وراح يتلمّس خفّيه حافي القدمين. تراقص لهب الشعلة على الأعمدة وأخذت كعبا قائد المئة تقرقعان على الأرضية الفسيفسائية. خرج قائد المئة إلى الحديقة. قال الحاكم لنفسه وهو يصرّ على أسنانه:

- لا أجد الراحة حتى في ضوء القمر!

ظهر على الشرفة الرجل ذو القلنسوة مكان قائد المئة.

- لا تمسّه يا بانغا، - قال الحاكم بصوتٍ خافت وضغط على نقرة الكلب.

قبل أن يبدأ أفراني الكلام تلفّت حوله كعادته وتوارى في الظل، وحين أيقن أنْ ما من أحد في الشرفة سوى بانغا قال:

- أطلب تقديمي للمحاكمة أيها الحاكم، فقد تبيّن أنكم محقّون. لم أتمكّن من حماية يهوذا القيريافي، فقد ذبحوه. أرجو محاكمتي وإقالتي.

بدا لأفراني أن أربعة أعين ترمقانه: عينا كلب وعينا ذئب.

أخرج أفراني من تحت قميصه كيس نقود متجمّداً وقاسياً من الدماء المتخثّرة عليه ممهوراً بختمين.

- هذا هو كيس النقود الذي رماه القتلة في بيت رئيس الكهنة. الدم الذي على هذا الكيس هو دم يهوذا القيريافي.

انحنى بيلاطس على الكيس وسأل:

- كم فيه يا ترى؟

- ثلاثون تيترادراخما.

ضحك الحاكم ساخراً وقال:

- قليل.

ظلّ أفراني صامتاً.

- أين القتيل؟

- هذا ما لا أعرفه، سنبدأ البحث في الصباح، - أجاب بوقارٍ هادئ الرجل الذي لا يفارق قلنسوته أبداً.

ارتعد الحاكم وترك شريط صندله الذي استعصى على الربط.

- لكنك تعلم على الأرجح أنه قد قُتل؟

عن سؤاله هذا تلقى الحاكم جواباً جافّاً:

- إنني أعمل في اليهودية منذ خمس عشرة سنة أيها الحاكم. لقد باشرت وظيفتي في عهد فاليريوس غراتوس. لا أحتاج إلى رؤية الجثة حتى أقول إن الشخص قد قُتل، وإني أؤكد لك إن ذاك الذي يدعونه يهوذا القيريافي قد ذُبح قبل بضع ساعات.

- اعذرني يا أفراني، - أجاب بيلاطس، - فأنا لم أستيقظ كما ينبغي بعد ولهذا قلت ذلك. يجافيني النوم، - ابتسم الحاكم ساخراً، - وطوال الوقت أرى ضوء القمر في نومي. كم هذا مضحك،

تصوّر. كأنني أتنزه في شعاع القمر. وهكذا بودّي لو أعرف افتراضاتك في هذا الشأن. أين تنوي أن تبحث؟ اجلس يا رئيس الجهاز السري.

انحنى أفراني وقرّب الأريكة إلى السرير وجلس مصلصلاً بسيفه.

- أنوي البحث ليس بعيداً عن معصرة الزيتون في بستان جتسماني.

- آها، ولمَ هناك بالتحديد؟

- أعتقد، أيها الوالي، أن يهوذا لم يقتل في أورشليم ولا في مكانٍ بعيد عنها، وإنما في أطراف أورشليم.

- إني أعتبرك أحد أبرز الضليعين في عملك. لست أدري كيف الحال في روما على الأرجح، لكن ليس هناك من يوازيك في المستعمرات. اشرح لي، لماذا؟

شرع أفراني يقول بصوتٍ غير عالٍ:

- لا أستطيع أن أفترض في أيِّ حال أن يكون يهوذا قد وقع في أيدي أناسٍ مشبوهين داخل تخوم المدينة. لا يمكن قتل شخص خفيةً في الشارع. وهذا يعني أنه كان يجب استدراجه إلى قبو ما. لكن عناصر الجهاز بحثوا عنه في «الضاحية السفلية»، ولكانوا عثروا عليه دون شك. لكن لا وجود له في المدينة، وإني أؤكد لك ذلك. ولو قُتل بعيداً عن المدينة لما كان بالإمكان رمي كيس النقود في بيت رئيس الكهنة بهذه السرعة. لقد قُتل على مقربة من المدينة. لقد تمكّنوا من استدراجه إلى خارج المدينة.

- لا أفهم كيف أمكنهم ذلك.

- نعم أيها الحاكم، هذا هو أصعب ما في القضية، حتى أنني لا أعرف إن كنت سأتمكّن من حلّها.

- ملغز فعلاً! في ليلة العيد يغادر إنسان متدين إلى خارج المدينة

لسبب مجهول، متخلياً عن مائدة الفصح، ويُقتل هناك. من يكون قد غرّر به ولماذا؟ ألا تكون امرأة قد فعلت ذلك؟ - فجأةً سأل الحاكم بإلهام.

أجاب أفراني بهدوء ويقين:

- مستحيل أيها الحاكم. هذا غير وارد مطلقاً. ينبغي التفكير في الأمر بشكل منطقي. من قد يعنيه مقتل يهوذا؟ هراطقة متشردون ما، حلقة ما لم يكن فيها أي نساء من قبل مطلقاً. الزواج يحتاج إلى مال أيها الحاكم، والإنجاب أيضاً، لكن قتل إنسان بمساعدة امرأة يحتاج إلى الكثير من المال، وأموال كهذه لا يملكها المتشردون المتسكعون. ما من امرأة في هذه القضية أيها الحاكم. فضلاً عن أنّ تفسيراً كهذا سيؤدي فقط إلى طمس آثار الجريمة وإعاقة التحقيق وبلبلتي.

- أرى أنك محق تماماً يا أفراني، لقد سمحت لنفسي بالإعراب عن رأيي فقط. - قال بيلاطس.

- لكنه رأي خاطئ للأسف أيها الحاكم.

- فماذا إذاً، ما العمل؟ - هتف الحاكم وهو ينظر إلى وجه أفراني بفضول ولهفة.

- أعتقد أنّ هذا المال هو ذاك المال نفسه.

- فكرة رائعة! لكن من كان بإمكانه أن يعرض عليه المال ليلاً خارج المدينة ولماذا؟

- آه لا أيها الحاكم، المسألة ليست كذلك. لديّ فرضية وحيدة، وإن كانت خاطئة فلن أقدّم تفسيرات أخرى، - ومال أفراني على الحاكم وهمس قائلاً: - أراد يهوذا أن يخبّئ المال في مكانٍ منعزل لا يعرفه سواه.

- تفسير دقيق جداً. يبدو أن الأمر قد جرى على هذا النحو.

الآن أفهمك: لم يستدرجه أحد بل قاده تفكيره الخاص. نعم، نعم، هذا ما جرى.

- نعم، كان يهوذا شكوكاً وأراد إخفاء المال عن الناس.

- أجل، قلت في جتسماني. أما لماذا تنوي البحث عنه هناك فهذه مسألة أقرّ أنني لا أفهمها.

- أوه أيها الحاكم، هذا أبسط ما في الأمر. لا أحد يخبئ المال على قارعة الطريق في أماكن مكشوفة وقفراء. يهوذا لم يكن على طريق خيفرون ولا على طريق بيتانيا. كان عليه أن يكون في منطقة محمية ومعزولة وفيها أشجار. الأمر بهذه البساطة. وما من مكان كهذا في أطراف أورشليم سوى جتسماني. ولم يكن بمقدوره الذهاب بعيداً.

- لقد أقنعتني تماماً. وما العمل الآن؟

- سأبدأ في البحث فوراً عن القتلة الذين تعقّبوا يهوذا إلى خارج المدينة. أما أنا فسأسلّم نفسي للقضاء في هذه الأثناء كما أبلغتك.

- لماذا؟

- لقد فقد حرسي أثره مساءً في السوق بعد أن غادر قصر قيافا. لست أدري كيف حدث ذلك، فهذا لم يحدث لي في حياتي. لقد وضعته تحت المراقبة بعد حديثنا مباشرةً، لكنه توارى عن الأنظار في السوق، فقد قام بمناورة غريبة بحيث اختفى أثره.

- حسناً. إنني أعلن لك أنني لا أعتبر مثولك أمام القضاء ضرورياً. فقد قمت بكل ما كان في وسعك، ولا أحد في العالم - وهنا ابتسم الحاكم - كان في مقدوره أن يفعل أكثر من ذلك. عاقب المخبرين الذين فقدوا أثر يهوذا لكنني مع هذا أحذرك من المبالغة في العقوبة بأي شكلٍ كان. ففي النهاية لقد قمنا بكل ما يجب لحماية هذا

السافل! بالمناسبة، نسيت أن أسألك، - مسح الحاكم جبينه، - كيف تمكّنوا من رمي المال في قصر قيافا؟

- لاحظ أيها الحاكم... أن هذا الأمر ليس معقداً جداً. لقد عبر المنتقمون الزقاق المشرف على الفناء الخلفي لقصر قيافا، وهناك رموا رزمة المال من فوق السور.

- مع القصاصة؟

- تماماً كما افترضت أيها الحاكم. وبالمناسبة، - وهنا مزّق أفراني الختم عن الرزمة وأرى بيلاطس محتواها.

- عذراً يا أفراني، ماذا تفعل، فقد تكون الأختام عائدة للهيكل!

- لا يجدر بالحاكم أن تقلقه هذه المسألة، - أجاب أفراني وهو يفتح الرزمة.

- أيعقل أن تكون بحوزتك الأختام كلها؟ - سأل بيلاطس وهو ينفجر ضاحكاً.

- لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك أيها الحاكم، - أجاب أفراني بصرامةٍ شديدة ودون أيّ ضحك.

- أتخيّل ما جرى عند قيافا!

- نعم أيها الحاكم، لقد أثار هذا اضطراباً شديداً. لقد استدعوني دون إبطاء.

حتى في نصف العتمة كان يُرى كيف تلمع عينا بيلاطس.

- هذا طريف، طريف...

- أجرؤ على الاعتراض أيها الوالي، فالأمر لم يكن طريفاً، بل هو ممل ومتعب إلى أقصى الحدود. فردّاً على سؤال ما إن كانوا قد دفعوا مالاً لأحد في قصر قيافا نفوا ذلك بشكل قاطع وأنّ هذا لم يحدث.

- هكذا إذاً؟ ليكن، إن كانوا لم يدفعوا فهذا يعني أنهم لم يدفعوا. هذا يجعل العثور على القتلة أصعب.

- صحيح تماماً أيها الحاكم.

- بالمناسبة يا أفراني، إليك ما خطر لي فجأةً: ألا يكون قد انتحر؟

- آه لا أيها الحاكم، - أجاب أفراني متراجعاً في مقعده من الدهشة، - اعذرني، لكن هذا غير وارد على الإطلاق!

- آخ، كل شيء وارد في هذه المدينة! وإني مستعد للمراهنة بأن شائعات بخصوص ذلك سرعان ما تنتشر في المدينة كلها.

هنا رمق أفراني الحاكم بنظرته الخاصة، وفكّر ثم أجاب:

- هذا ممكن أيها الحاكم.

يبدو أن الحاكم لم يكن قادراً على مفارقة مسألة مقتل هذا القيريافي، رغم أن كل شيء بات واضحاً، فسأل بشيء من التمنّي:

- كنت أتمنى لو رأيت كيف قتلوه.

- لقد قُتل بمهارةٍ فائقة أيها الحاكم، - أجاب أفراني ناظراً إلى الحاكم بشيءٍ من السخرية.

- وأنّى لك معرفة ذلك؟

- أرجو أن تتكرّم بإلقاء نظرة على الكيس أيها الحاكم، - أجاب أفراني، - أجزم لك أنّ دماء يهوذا قد سالت بغزارة. لقد قُيِّض لي أن أرى قتلى في حياتي أيها الحاكم.

- وبالتالي هو لن ينهض طبعاً؟

- لا أيها الحاكم، سينهض، - أجاب أفراني مبتسماً ابتسامة فلسفية، - عندما يدوّي فوقه بوق مسيّا الذي ينتظرونه هنا. لكنه لن ينهض قبل ذلك.

- كفى يا أفراني، فهذه المسألة واضحة. لننتقل إلى الدفن.

- لقد دُفِن المحكومون أيها الحاكم.

- آه يا أفراني، لكان تقديمك إلى المحاكمة جريمة، فأنت تستحق أسمى المكافآت. كيف جرى الأمر؟

أخذ أفراني يروي للحاكم فقال إنه بينما كان منشغلاً بقضية يهوذا بلغت وحدة الحرس السري بقيادة مساعده التلة عند حلول المساء، لكن الوحدة لم تعثر على إحدى الجثث على قمة التلة.

ارتعش بيلاطس وقال بصوتٍ أبحّ:

- آخ، كيف لم أتوقّع ذلك!

- لا يجدر بك القلق أيها الحاكم، - قال أفراني وتابع يروي: - فقد رفع عناصر الوحدة جثتي ديسماس وهيستاس اللتين نقرت الطيور الجارحة عيونهما ثم انطلقوا في الحال للبحث عن الجسد الثالث، وسرعان ما عثروا عليه. أحدهم...

- متّى اللاوي، - قال بيلاطس بنبرة أقرب إلى التأكيد منها إلى التساؤل.

- نعم أيها الحاكم...

كان متى اللاوي مختبئاً في مغارة على السفح الجنوبي للجبل الأقرع، ينتظر حلول الظلام. كان جسد يشوع الناصري العاري معه، وحين دخل الحرس المغارة مع مشاعلهم تملّك اللاوي القنوط والغضب، وراح يصرخ بأنه لم يرتكب أي جرم وأنّ أي شخص يحق له، بموجب القانون، دفن محكومٍ بالإعدام إن أراد. قال متّى اللاوي إنه لا يريد مفارقة جسد يشوع. كان منفعلاً ويصرخ بكلامٍ غير مترابط، فكان يتوسّل تارةً ويتوعّد أخرى ويلعن ثالثة...

- هل اضطروا لاعتقاله؟ - سأل بيلاطس بتجهّم.

- لا أيها الحاكم، لا، - أجاب أفراني مطمئناً بشدّة، - فقد تمكّنوا من تهدئة هذا المجنون الجريء موضحين له أنّ الجثة سيتم دفنها.

حين استوعب اللاوي ما قيل له هدأ، لكنه أعلن أنه لن يذهب إلى أي مكان وأنه يتمنى المشاركة في الدفن، وقال إنه لن يغادر حتى لو همّوا بقتله، بل وعرض عليهم، من أجل هذه الغاية، سكيناً لتقطيع الخبز كانت بحوزته.

- هل طردوه؟ - سأل بيلاطس بصوتٍ مخنوق.

- لا أيها الحاكم، لا. لقد سمح له مساعدي بالمشاركة في الدفن.

- مَن مِن مساعديك أشرف على ذلك؟ - سأل بيلاطس.

- تولماوس، - أجاب أفراني ثم أردف في قلق: - ألعله اقترف خطأً؟

- تابع، - أجاب بيلاطس، - لم يحدث أي خطأ. عموماً بدأت أتخبّط قليلاً يا أفراني، ويبدو أنني أتعامل مع شخص لا يرتكب الأخطاء أبداً، وهذا الشخص هو أنت.

أخذوا متّى اللاوي مع جثامين المحكومين الثلاثة في عربة وبعد ساعتين بلغوا صدعاً مقفراً إلى الشمال من أورشليم، وهناك عمل عناصر الوحدة بالتناوب وخلال ساعة كانوا قد حفروا حفرةً عميقة دفنوا فيها المعدومين الثلاثة.

- عراة؟

- لا أيها الحاكم، فقد أخذت الوحدة قمصاناً معها من أجل هذه الغاية. كما وُضعت في أصابع المدفونين خواتم، بحزّ واحد ليشوع

وبحزّين لديسماس وبثلاثة لهيستاس. ثم رُدِمت الحفرة وطُمرت بالحجارة ومُيِّزت بعلامة يعرفها تولماوس.

- آخ لو كان بإمكاني توقّع ذلك! - قال بيلاطس مقطّباً. - إذ كان يلزمني أن أرى متّى اللاوي هذا. . .

- إنه هنا أيها الحاكم!

رنا بيلاطس إلى أفراني لبعض الوقت، وقد جحظت عيناه على اتّساعهما، ثم قال ما يلي:

- أشكرك على كل ما فعلت في هذه القضية. أرجو أن ترسل إليّ تولماوس غداً، وأن تعلمه مسبقاً أنني راضٍ عنه. أما أنت يا أفراني، - وهنا أخرج الحاكم من جيب حزامه الملقى على الطاولة خاتماً وأعطاه لرئيس الجهاز السري، - أرجو أن تتقبّله للذكرى.

انحنى أفراني وتمتم:

- هذا شرفٌ عظيم أيها الحاكم.

- أرجو مكافأة الوحدة التي قامت بالدفن، وتوبيخ المخبرين الذين فقدوا أثر يهوذا. أما متّى اللاوي فائتني به في الحال. تلزمني تفاصيل قضية يشوع.

- أمرك أيها الحاكم، - أجاب أفراني وأخذ يتراجع القهقرى وهو ينحني، في حين صفق الحاكم بكفّيه وصاح:

- إليّ، هنا! اجلبوا قنديلاً إلى الرواق!

كان أفراني قد خرج إلى الحديقة، ووراء ظهر بيلاطس كانت تومض أنوار في أيدي الخدم. ظهرت ثلاثة قناديل على الطاولة أمام الحاكم، وفي الحال تراجع ضوء القمر إلى الحديقة، وكأنما جرّها أفراني خلفه. ظهر في الشرفة، مكان أفراني، شخص مجهول نحيل

وضئيل الحجم إلى جانب قائد المئة العملاق. وهذا الثاني، إذ فهم نظرة الحاكم، انسحب إلى الحديقة فوراً واختفى.

تفحّص الحاكم الشخص الماثل أمامه بعينين متلهفتين ومذعورتين بعض الشيء. هكذا ينظر المرء إلى من سمع عنه كثيراً وفكّر فيه كثيراً، وها هو يظهر أخيراً.

كان هذا الشخص يكاد يقارب الأربعين من العمر، أسود، ممزّق الثياب، تغطّيه قذارة متيبّسة، ينظر مقطّباً بذئبية. قصارى القول، كان كريه المنظر أشبه ما يكون بمعدمي ومتسوّلي المدينة الذين يتزاحم كثيرٌ منهم على شرفات الهيكل وفي أسواق «الضاحية السفلية» الصاخب والقذر.

امتدّ الصمت طويلاً، وخُرِق بسلوكٍ غريب أتاه هذا الشخص. فقد تغيّر لونه وترنّح، ولو لم يتمسّك بيده المتّسخة بحافة الطاولة لكان هوى أرضاً.

سأله بيلاطس:

- ما بك؟

- لا شيء، - أجاب متّى اللاوي وقام بحركةٍ كأنما ابتلع شيئاً. فقد انتفخت رقبته النحيلة العارية المتّسخة ثم تقلّصت من جديد.

عاد بيلاطس يسأله:

- ما بك، أجبني.

- أنا متعب، - أجاب اللاوي ورنا إلى الأرض متجهماً.

- اجلس، - تمتم بيلاطس وأشار إلى الأريكة.

نظر اللاوي إلى الحاكم غير مصدّق واتّجه نحو الأريكة. رمق مساند الأريكة الذهبية في ذعر وجلس، ولكن ليس على الأريكة وإنما إلى جوارها، على الأرض.

- اشرح لي، لِمَ لم تجلس على الأريكة؟ - سأله بيلاطس.

- أنا متّسخ، سألطّخها، - قال اللاوي محدّقاً في الأرض.

- سيقدّمون لك طعاماً الآن.

- لا أريد أن آكل، - أجاب اللاوي.

- لِمَ الكذب؟ - سأل بيلاطس بصوتٍ خافت، - فأنت لم تأكل طوال اليوم، وربما أكثر. لا بأس، لا تأكل. لقد استدعيتك لتريني السكّين التي كانت بحوزتك.

- انتزعها الجنود مني حين أدخلوني هنا، - قال اللاوي ثم أضاف متجهماً: - أعدها لي، فعليّ أن أعطيها لصاحبها، لقد سرقتها.

- لماذا؟

- لأقطّع الحبال، - أجاب اللاوي.

- مارك! - صاح الحاكم فظهر قائد المئة في الشرفة. - أعطني سكينه.

تناول قائد المئة من أحد جرابيه على الحزام سكيناً قذرة لتقطيع الخبز وأعطاها للحاكم ثم غادر.

- وممن أخذت السكين؟

- من دكانٍ لبيع الخبز عند باب خفرون، ما إن تدخل المدينة، إلى اليسار مباشرةً.

تأمّل بيلاطس النصل العريض ومرّ بإصبعه عليه ليرى إن كان حاداً أم لا، ولسببٍ ما قال:

- بخصوص السكين، لا تقلق، ستُعاد إلى الدكان. أما الآن فيهمّني أمرٌ آخر: أرني الميثاق الذي تحمله معك وحيث دُوِّنت أقوال يشوع.

رمق اللاوي بيلاطس ببغضٍ بالغ وابتسم ابتسامةً كانت من العدائية بحيث فقد وجهه ملامحه تماماً، وسأل:

- تريد أن تسلبني كل شيء؟ حتى آخر ما أملك؟

- لم أقل: أعطنيها، بل قلت: أرنيها. - أجاب بيلاطس.

أدخل اللاوي يده في عبّه وأخرج لفافةً من الرقّ. أخذها بيلاطس وفضّها ونشرها تحت الأضواء وراح يدرس علامات الحبر غير الواضحة زارّاً عينيه. كان من الصعب فهم هذه السطور المتعرّجة، فضيّق بيلاطس عينيه وانحنى فوق الرقّ مباشرةً وراح يمرّر إصبعه على السطور. وقد تمكّن، رغم ذلك، من تبيان أنّ الكتابة عبارة عن سلسلة غير مترابطة من أقوال مأثورة ما ومن تواريخ ما، ومن ملاحظات حول التدبير المعيشي ومقتطفات شعرية. قرأ بيلاطس كلاماً يقول: «لا وجود للموت... تناولنا البارحة بواكير الربيع اللذيذة...».

صعّر بيلاطس خدّه من التوتّر وزرّ عينيه وقرأ: «سوف نرى نهر ماء الحياة الصافي... ستنظر البشرية إلى الشمس من خلال بللورٍ شفّاف...».

هنا ارتعش بيلاطس، فقد تبيّن في سطور الرقّ الأخيرة الكلمات التالية: «الرذيلة الأكبر... الجبن».

لفّ بيلاطس اللفافة وناولها اللاوي بحركةٍ عنيفة، وقال:

- خذ.

وبعد شيءٍ من الصمت أضاف:

- إنك محب للكتب، كما أرى، ولا معنى لأن تتجول، أنت الوحيد، في ثيابٍ رثّةٍ دون ملجأ. لدي مكتبة كبيرة في قيصرية، وأنا غني جداً وأريد أن أوظّفك عندي. ستنظّم أوراق البردي وتحفظها، وستكون شبعاً ومكتسياً.

نهض اللاوي وقال:

- لا، لا أريد.

- لماذا؟ ألا أروقك، أتخشاني؟ - سأل الحاكم وقد اكفهّر وجهه.

شوّهت تلك الابتسامة نفسها وجه اللاوي وقال:

- لا، بل لأنك أنت من سيخشاني، إذ لن يكون سهلاً عليك أن تنظر في وجهي بعد أن قتلته.

- اخرس، خذ مالاً، - أجاب بيلاطس.

هزّ اللاوي رأسه رافضاً بينما تابع بيلاطس يقول:

- أعرف أنك تحسب نفسك تلميذاً ليشوع، لكن دعني أقل لك إنك لم تستوعب شيئاً ممّا علّم. ولو كان الأمر غير ذلك لكنت أخذت مني شيئاً بالتأكيد. إعلم أنه قال قبل موته إنه لا يدين أحداً، - ورفع بيلاطس إصبعه بحركةٍ ذات دلالة، وكان وجهه يختلج. - وهو نفسه كان سيأخذ شيئاً بلا شك. أنت قاسٍ، أما هو فلم يكن كذلك. إلى أين تنوي الذهاب؟

دنا اللاوي من الطاولة فجأةً واستند إليها بكلتا يديه، ورنا إلى الحاكم بعينين مضطرمتين وهمس قائلاً:

- اعلم أيها الوالي أنني سأذبح شخصاً في أورشليم. أريد أن أقول لك ذلك لكي تعلم أن دماءً ستُراق.

- وأنا أيضاً أعلم أنه ستكون هناك دماء، - أجاب بيلاطس، - ولم تدهشني بكلماتك هذه. إنك، بالطبع، تريد أن تذبحني أنا؟

- لن يُتاح لي أن أذبحك، - أجاب اللاوي مكشّراً ومبتسماً، - لست بهذا الغباء كي أمنّيَ نفسي بذلك، لكني سأذبح يهوذا القيريافي، وسأكرّس ما تبقّى من حياتي لذلك.

هنا بدت الغبطة في عيني الحاكم، وأومأ لمتّى اللاوي بإصبعه أن يدنو منه وقال:

- لن تتمكّن من ذلك، فلا تزعج نفسك. لقد ذُبح يهوذا هذه الليلة.

وثب اللاوي بعيداً عن الطاولة، وهو يتلفّت حوله بوحشية، وصاح:

- من فعل ذلك؟

أجاب بيلاطس مكشّراً وهو يمسح يديه:

- لا تكن غيوراً. أخشى أنه كان له أتباع غيرك.

كرّر اللاوي هامساً:

- من فعل ذلك؟

أجابه بيلاطس:

- أنا فعلت ذلك.

قفز اللاوي ونظر إلى الحاكم بوحشية، فقال ذاك:

- هذا قليل طبعاً لكن، مع ذلك، أنا من فعل ذلك.

ثم أضاف:

- والآن، هل ستأخذ شيئاً؟

فكّر اللاوي، وأخذ يهدأ، ثم قال أخيراً:

- مُرْ لي بقطعةٍ من رقٍّ نظيف.

مرّت ساعة. كان اللاوي قد غادر القصر. لم يكن يخرق صمت السَحَر الآن سوى وقع خطوات الحرس الخافتة في الحديقة. خبا القمر بسرعة، وفي طرف السماء الآخر كانت تُرى نجمة الصبح كنقطة مائلة إلى البياض. القناديل انطفأت منذ فترةٍ طويلة. كان الحاكم

مستلقياً على المتّكأ، وكان نائماً واضعاً يده تحت خدّه ويتنفس بلا صوت، وكان بانغا نائماً إلى جواره.

على هذا النحو استقبل حاكم اليهودية الخامس بيلاطس البنطي فجر الخامس عشر من نيسان.

الفصل السابع والعشرون

نهاية الشقة رقم ٥٠

حين بلغت مرغريتا آخر كلمات الفصل التالية «. . . على هذا النحو استقبل حاكم اليهودية بيلاطس النبطي فجر الخامس عشر من نيسان»، حلَّ الصبح.

كانت تتناهى أصوات البلابل وهي تجري حديثاً صباحياً مرحاً ومتوتراً بين أغصان الصفصاف والزيزفون في فناء البيت الصغير.

نهضت مرغريتا عن الأريكة وتمطّت، وحينها فقط شعرت كم كان جسمها محطّماً ومدى رغبتها في النوم. ينبغي الإشارة إلى أنّ نفس مرغريتا كانت على خير ما يرام، فأفكارها لم تكن مشتتة، ولم يروّعها قط أنها أمضت ليلة خارقة للطبيعة. لم تكن تشعر بالاضطراب لكونها كانت في حفلة راقصة عند الشيطان؛ وأنّ المعلم قد أُعيد إليها بأعجوبةٍ ما، وأنّ الرواية قد انبعثت من الرماد، وأنها وجدت نفسها ثانيةً في بيتها في القبو في الزقاق، من حيث طُرد الواشي ألويزي موغاريتش. باختصار، تعرّفها إلى فولند لم يسبّب لها أي ضرر نفسي. كان كل شيء على نحو كأنما هكذا ينبغي أن يكون. مضت إلى الغرفة الأخرى فوجدت أن المعلم نائم نوماً عميقاً وهادئاً، فأطفأت مصباح الطاولة الذي لم يعد له لزوم واستلقت عند الحائط المقابل على ديوانٍ صغير مغطى بملاءةٍ قديمة ممزّقة. وخلال دقيقة كانت قد غفت، ولم

تراودها أي أحلام في ذلك الصباح. كانت الغرفة في القبو صامتة، والمبنى الصغير برمّته كان صامتاً، وكان الهدوء مخيّماً في الزقاق.

لكن في هذه الأثناء، أي في فجر يوم السبت، كان طابقٌ كامل في إحدى المؤسسات الموسكوفية مستيقظاً، ونوافذه المطلّة على ساحةٍ كبيرة معبّدة بالأسفلت، تعبرها سيارات خاصة ببطء وهي تطلق أصوات أبواقها وتنظّف الساحة بمكانسها، مضاءة بضوءٍ مبهر يخترق نور الشمس الطالعة.

كان الطابق كله منشغلاً بالتحقيق في قضية فولند، وكانت المصابيح مضاءة طوال الليل في المكاتب العشرة.

الحقيقة أنّ القضية كانت قد اتضحت منذ الأمس، من يوم الجمعة، حين توجّب إغلاق الفاريتيه عقب اختفاء إدارته ومختلف الفضائح التي حدثت مساء اليوم السابق أثناء عرض السحر الأسود الشهير. لكن المسألة أن معطيات جديدة كانت ترد طوال الليل ودون توقف إلى الطابق الذي لم يذق طعم النوم.

التحقيق في هذه القضية، الشيطانية تماماً بوضوح، هذا فضلاً عن خزعبلات حيل التنويم المغناطيسي وعن الجريمة الجنائية الواضحة تماماً، كان عليه الآن أن يربط بين كل الأحداث المتنوعة والمبلبلة التي جرت في مناطق مختلفة من موسكو.

كان أول من توجّب عليه التواجد في الطابق الساهر المضاء بالكهرباء هو أركادي أبولونوفيتش سيمبلاروف، رئيس لجنة الصوتيات. فقد رنّ جرس الهاتف بعد الغداء، يوم الجمعة، في شقته الواقعة في مبنى عند جنسر «كامنّي»، وطلبه صوت رجالي إلى الهاتف. ردّت زوجة أركادي أبولونوفيتش، التي كانت هي من رفع السمّاعة،

بتجهّم قائلةً إنه مريض واستلقى ليرقد ولا يمكنه المجيء للرد على الهاتف. ولكن مع ذلك توجّب على أركادي أبولونوفيتش المجيء إلى الجهاز. فردّاً على سؤال الزوجة من أين يطلبونه أجاب الصوت باختصارٍ شديد عن مصدر المخابرة.

- ثانية... فوراً... ثانية... - تمتمت زوجة رئيس لجنة الصوتيات، المتعجرفة جداً عادةً، واندفعت كسهم إلى غرفة النوم لتُنهض أركادي أبولونوفيتش عن الدكّة التي كان مستلقياً عليها، وهو يعاني عذابات جهنمية عند تذكّره عرض الأمس والفضيحة الليلية التي رافقت طرد ابنة أخيه الساراتوفية من الشقة.

الحقيقة أن أركادي أبولونوفيتش صار قرب الهاتف ليس في ثانية، ولا حتى في دقيقة، وإنما في ربع دقيقة، وهو ينتعل خفّه الأيسر فقط وبالملابس الداخلية فقط، وتمتم في السمّاعة:

- نعم، هذا أنا... أمرك، أمرك...

زوجته، التي نسيت في هذه اللحظات كل الجرائم الكريهة ضد الإخلاص الزوجي المثبتة على أركادي أبولونوفيتش، مدّت وجهها المذعور من باب الممر وهي تلوّح بالخفّ الآخر وتهمس:

- اِلبس الخفّ، الخف... ستصاب بالبرد، - إلاّ أنّ أركادي أبولونوفيتش راح يبرطم في السمّاعة وهو يبعد قدمه عن زوجته ويرمقها بنظرات وحشية:

- نعم، نعم، نعم، كيف لا، فهمت... سآتي حالاً.

قضى أركادي أبولونوفيتش المساء كله في ذلك الطابق نفسه، الذي كان يجري فيه التحقيق. كان الحديث مضنياً، بل كريهاً جداً، فقد توجّب عليه أن يحكي بصراحة مطلقة ليس فقط عن ذلك العرض البشع وعن الشجار الذي جرى في شرفة المسرح وحسب، بل وعن

كل ما كان ضرورياً حقاً في السياق، وعن ميليسا أندريفنا بوكوباتكو المقيمة في شارع إيلوخوفسكايا، وعن ابنة أخيه القادمة من ساراتوف، وعن أمور أخرى كثيرة كان الحديث عنها يسبّب لأركادي أبولونوفيتش آلاماً لا توصف.

طبيعي أنّ شهادة أركادي أبولونوفيتش، - الإنسان المتنوّر والمثقف الذي شهد العرض الشائن، والشاهد الفطِن والمحترف الذي وصف وصفاً رائعاً الساحر الغامض ذا القناع ومساعديه النذلين، والذي تذكّر بصورة رائعة أنّ كنية الساحر هي فولند بالتحديد، - قد دفعت بالتحقيق إلى الأمام بشكل ملحوظ. أما مقارنة شهاد أركادي أبولونوفيتش بشهادات أشخاص آخرين من بينهم السيدات اللواتي عانين بعد العرض (كتلك التي في الملابس الداخلية البنفسجية، التي صعقت ريمسكي، وأخريات كثيرات للأسف) والساعي كاربوف الذي أُرسل إلى الشقة رقم ٥٠ في شارع سادوفايا، فقد أدّت فوراً إلى تحديد المكان الذي يجب البحث فيه عن مرتكب هذه الجنايات كلها.

حضر المحققون إلى الشقة رقم ٥٠ أكثر من مرة، ولم يعاينوها بدقّة بالغة وحسب بل ونقروا على حيطانها وفحصوا مداخنها وبحثوا عن المخابئ السرية فيها. بيد أنّ هذه الإجراءات كلها لم تعطِ أي نتيجة، ولم يتمكّنوا من العثور على أيٍّ ممن كان فيها في أيٍّ من مداهماتهم، رغم أنه كان واضحاً تماماً أنّ هناك أحداً في الشقة، بغضّ النظر عن أنّ جميع الأشخاص المعنيين بالمسائل المتعلقة بالفنانين الأجانب القادمين إلى موسكو أكّدوا بشكل حاسم وقاطع أنْ لا وجود لأي ساحر أسود اسمه فولند في موسكو، ولا يمكن أن يكون.

من المؤكّد أنه لم يُسجّل اسمه في أي مكان عند وصوله، ولم يُظهر لأحد جواز سفره أو أي وثائق أو عقود أو اتفاقات، ولم يسمع

أحد عنه شيئاً! كما أقسم رئيس قسم البرامج في لجنة العروض المسرحية كيتايتسيف وحلف بالله أنّ ستيوبا ليخودييف المختفي لم يرسل إليه أي برنامج عرض لأيّ فولند كان ليصادق عليه، ولم يتّصل به بالهاتف ليخبره بقدوم فولند هذا. وبالتالي، بالنسبة إليه، هو كيتايتسيف، غير مفهوم تماماً ولا يدري مطلقاً كيف أمكن لستيوبا إجازة عرضٍ كهذا في الفاريتيه. ولكن عندما قالوا له إن أركادي أبولونوفيتش قد رأى بأمّ عينيه هذا الساحر في العرض، ما كان من كيتايتسيف إلاّ أن أسبل يديه ورفع عينيه إلى السماء. وكان يمكن للمرء أن يرى من عينَي كيتايتسيف وأن يقول بثقة إنه نقي كالكريستال.

أما بروخور بيتروفيتش ذاك، رئيس اللجنة الرئيسية للعروض المسرحية...

بالمناسبة: لقد عاد إلى بذلته فور دخول الشرطة مكتبه، الأمر الذي أفرح آنّا ريتشاردوفنا فرحاً عظيماً وأثار حيرةً كبيرة لدى رجال الشرطة الذين أزعجوهم عبثاً. وأيضاً بالمناسبة: بعد عودته إلى مكانه، وإلى بذلته الرمادية المخططة، استحسن بروخور بيتروفيتش كلياً كل القرارات التي اتخذتها البذلة في فترة غيابه القصيرة.

... وإذن، بروخور بيتروفيتش ذاك نفسه لم يكن يعرف شيئاً بأيّ شكلٍ من الأشكال عن أيِّ فولند كان.

شيء منافٍ للعقل كما ترون: آلاف المشاهدين، وكل موظفي الفاريتيه، وأخيراً أركادي أبولونوفيتش سيمبلاروف، الإنسان الأكثر ثقافةً، كلهم رأوا هذا الساحر، تماماً كما رأوا مساعديه عليهم اللعنة ثلاثاً، ومع ذلك يستحيل العثور عليه في أي مكان، ففيمَ الأمر؟ اسمحوا لي بسؤالكم: هل انشقّت الأرض وابتلعته بعد عرضه المثير للاشمئزاز مباشرةً أم أنه لم يأتِ إلى موسكو قطّ كما يؤكّد بعضهم؟ إذا

سلّمنا بالفرضية الأولى فإنه، بلا شك، حين اختفى، قد أخذ كل إدارة الفاريتيه معه. وإذا سلّمنا بالثانية، ألا يعني ذلك أن إدارة المسرح المشؤوم قد اختفت من موسكو بلا أثر بعد أن قامت بهذا الأمر الفظيع (فقط تذكّر نافذة المكتب المحطّمة وسلوك توزبوبين الغريب!).

ينبغي إنصاف من كان يرأس التحقيق. فقد عُثر على ريمسكي المفقود بسرعةٍ مذهلة. كان يكفي الربط بين سلوك توزبوبين عند موقف سيارات الأجرة الذي قرب دار السينما مع بعض التواقيت، من قبيل وقت انتهاء العرض المسرحي ومتى بالتحديد كان يمكن لريمسكي أن يختفي، حتى يبرقوا إلى لينينغراد دون إبطاء. وجاءهم الجواب بعد ساعة (عند حلول مساء الجمعة) بأنه عُثر على ريمسكي في الغرفة رقم ٤١٢ في فندق «أستوريا» في الطابق الرابع، المجاورة للغرفة التي ينزل فيها مدير «ريبرتوار» أحد مسارح موسكو، التي كانت آنذاك تقيم تجارب أداء في لينينغراد لاختيار ممثلين، تلك الغرفة ذات الأثاث الأزرق الرمادي والحمّام الرائع كما هو معروف.

ريمسكي، الذي عُثر عليه مختبئاً في خزانة الملابس في الغرفة ٤١٢ في فندق «أستوريا»، أُلقي القبض عليه فوراً وتمّ استجوابه في لينينغراد نفسها. بعد ذلك وردت برقية إلى موسكو تفيد أن مدير الفاريتيه المالي بدا في حالة اختبال، وأنه لا يعطي، أو لا يريد أن يعطي، أجوبة واضحة عن الأسئلة، وأنه لا يطلب سوى أن يخبّئوه في حجرةٍ مصفّحة ويقيموا عليه حراسة مسلّحة. جاءهم الأمر من موسكو بجلب ريمسكي إلى موسكو مخفوراً، وبالتالي غادر ريمسكي مساء الجمعة إلى موسكو بقطار المساء مخفوراً بحراسة كهذه.

وعند حلول مساء الجمعة نفسها وقعوا على أثر ليخودييف أيضاً. فقد أُرسلت برقيات تسأل عن ليخودييف إلى المدن كلها، وتلقّوا جواباً

من يالطا بأنّ ليخودييف كان في يالطا وأنه غادرها بالطائرة إلى موسكو.

الوحيد الذي لم يفلحوا في الوقوع على أثرٍ له كان فارينوخا، وكأنّ مدير المسرح الشهير الذي تعرفه موسكو كلها عن بكرة أبيها «فصّ ملح وذاب»!

في تلك الأثناء كان لا بدّ أيضاً من معالجة أحداث تجري في أماكن أخرى من موسكو، خارج مسرح الفاريتيه. فقد توجّب على المحققين حلّ مسألة الحادثة الغريبة المتعلقة بالموظفين منشدي «البحر المجيد» (بالمناسبة تمكّن البروفسور سترافينسكي من إعادتهم إلى رشدهم بعد ساعتين عبر زرقهم بإبرٍ ما تحت جلودهم)، وكذلك معالجة مسألة الأشخاص الذين قدّموا لأشخاص آخرين أو لمؤسسات أشياء الله أعلم ما هي باعتبارها مالاً، وأيضاً الأشخاص الذين عانوا جرّاء ذلك.

مفهوم طبعاً أنّ الحادثة الأشنع والأشدّ استعصاءً على الحلّ من بين كل تلك الحوادث كانت حادثة سرقة رأس الأديب الراحل برلوز من نعشه في قاعة غريبوييدوف مباشرةً، التي جرت في وضح النهار.

كان اثنا عشر شخصاً يتحرّون هذه المسألة، ويحاولون الربط، كما لو بصنّارة حياكة، بين الحلقات اللعينة لهذه القضية المعقدة المتشعبة في موسكو برمّتها.

حضر أحد المحققين إلى عيادة البروفسور سترافينسكي وطلب إليه، أول ما طلب، قائمة بأسماء الأشخاص الذين حضروا إلى عيادته في الأيام الثلاثة الأخيرة. بهذه الطريقة عُثر على نيكانور إيفانوفيتش بَسوي وعريف الحفلات السيئ الحظ الذي قُطع رأسه. بيد أنّ المحققين لم ينشغلوا بهما كثيراً، فقد بات من اليسير إثبات أنّ هذين

الاثنين كانا ضحية نفس العصابة التي يقودها هذا الساحر الغامض. إلاّ أنّ إيفان نيكولاييفيتش بيزدومني أثار اهتمام المحقق البالغ.

انفتح باب غرفة إيفان ذات الرقم ١١٧ قبل حلول مساء الجمعة بقليل ودخل الغرفة شاب مدوّر الوجه، هادئ ولطيف، لا يشبه المحققين بتاتاً، رغم أنه كان أحد أفضل المحققين في موسكو، فرأى شاباً شاحباً ضامر الوجه مستلقياً في السرير، تعبّر عيناه عن انعدام اهتمامه بكل ما يجري حوله، وترنوان إلى مكانٍ ما في البعيد، يتعالى على المحيط، وتارةً تغوصان في داخل الشاب نفسه.

قدّم المحقق نفسه بلطف وقال إنه عرّج على إيفان نيكولاييفيتش ليتحدّثا عمّا جرى أول أمس في بتريرشيه بروي.

ياه كم كان إيفان ليغتبط لو أنّ المحقق جاء إليه أبكر من ذلك، ولنقل ليلة الأربعاء، حين كان إيفان يحاول جاهداً وباستماتة أن يستمعوا إلى قصته عن بتريرشيه برودي. ها هو حلمه بالقبض على المستشار يتحقق الآن، ولم يعد بحاجة لتوسّل أحد، فها هم قد جاؤوا إليه خصيصاً للاستماع إلى روايته بخصوص ما جرى مساء الأربعاء.

لكن إيفان كان قد تغيّر كلياً - للأسف - منذ لحظة مقتل برلوز. وكان على استعداد أن يجيب بطيب خاطر وبتهذيب عن كل أسئلة المحقق، لكن كان يُشعَر باللامبالاة سواء في نظرته أو في نبرة صوته. لم يعد الشاعر يعنيه مصير برلوز.

قبل مجيء المحقق كان إيفانوشكا نائماً وتراءت له بعض الرؤى. حيث رأى المدينة الغريبة، الغامضة، غير الموجودة، ذات الكتل الرخامية والأعمدة المتآكلة، ذات الأسطح المتوهجة في نور الشمس، وبرج أنطونيو الأسود الكئيب العديم الرحمة، والقصر القائم على التل الغربي الغارق حتى سقفه تقريباً في خضرة الحديقة الإستوائية، بتماثيله

البرونزية المتوهجة في غروب الشمس فوق هذه الخضرة، ورأى الكتائب الرومانية الغادية عند أسوار المدينة القديمة وقد تمنطقت بالدروع.

وبين النوم واليقظة ظهر أمام إيفان شخص يجلس في مقعد بلا حراك، حليق الذقن، بوجهٍ أصفر متعب، شخص يرتدي بردةً بيضاء بطانتها حمراء، وهو ينظر في بغض إلى حديقةٍ غنّاء غريبة. ورأى إيفان أيضاً تلّةً صفراء جرداء عليها أعمدة فارغة ذات عوارض خشبية.

أما ما جرى في «بتريرشيه برودي» فلم يعد يثير اهتمام الشاعر إيفان بيزدومني.

- قل لي يا إيفان نيكولاييفيتش: أنت شخصياً كم كنت بعيداً عن الباب الدوّار حين سقط برلوز تحت الترام؟

لأمرٍ ما افترّت شفتا إيفان عن ابتسامةٍ لامبالية لا تكاد تُلحظ وأجاب:

- كنت بعيداً.

- وذاك «المربّعاتي» هل كان قرب الباب الدوّار؟

- لا، كان جالساً على مقعد غير بعيد عنه.

- هل تذكر جيداً أنه لم يقترب إلى الباب الدوّار لحظة سقوط برلوز.

- أذكر. لم يقترب. كان يجلس متهالكاً.

كانت هذه آخر أسئلة المحقق. فقد نهض بعد ذلك ومدّ يده لإيفانوشكا وتمنّى له الشفاء العاجل وأعرب عن أمله بأن يقرأ من جديد أشعاره قريباً.

- لا، لن أكتب الشعر بعد الآن. - أجاب إيفان بصوتٍ خافت.

ابتسم المحقق بأدب وسمح لنفسه بالإعراب عن يقينه بأن الشاعر يعاني شيئاً من الكآبة الآن وأن هذه الحالة سرعان ما تمرّ.

- لا، - ردّ إيفان وهو لا ينظر إلى المحقق وإنما إلى السماء المنطفئة في البعيد، - لن تزول هذه الحالة عندي أبداً. الشعر الذي كنت أكتبه كان رديئاً، ولقد أدركت هذا الآن.

غادر المحقق إيفان بعد أن حصل على معطيات بالغة الأهمية. فقد تمكّن أخيراً، عبر اتّباعه خيط الأحداث من آخرها إلى أولها، من بلوغ المصدر الذي بدأت منه الأحداث كلها. لم يكن عند المحقق شكّ بأن هذه الأحداث قد بدأت من مقتل برلوز في بتريرشيه. طبعاً ليس إيفانوشكا ولا هذا «المربعاتي» هما من دفعا رئيس «ماسوليت» السيئ الحظ تحت عربة الترام، فلم يكن لأحد يد، من الناحية المادية كما يقال، في سقوط برلوز تحت العجلات. لكن المحقق كان متأكداً من أن بلوز قد رمى نفسه تحت الترام (أو هوى تحته) لكونه كان منوّماً مغناطيسياً.

نعم، باتت هناك معطيات كثيرة وبات معروفاً من يجب إلقاء القبض عليه وأين. لكن المسألة أنه تعذّر القبض عليه بأي وسيلة كانت. لا شكّ أنه كان هناك أحدٌ ما في الشقة رقم ٥٠ الملعونة ثلاثاً. إذ كان هناك من يردّ على الاتصالات الهاتفية أحياناً، بصوتٍ رجراج تارةً وأخنّ تارةً أخرى، وأحياناً كانت نافذة الشقة تُفتح، فضلاً عن أنّ أصوات حاكٍ كانت تُسمع فيها. ورغم ذلك لم يكونوا يعثرون على أحد بتاتاً كلما ذهبوا إليها. وقد ذهبوا إليها أكثر من مرة وفي أوقات مختلفة. فضلاً عن أنهم تجوّلوا في الشقة وبحوزتهم شبكة، وعاينوا كل ركنٍ فيها. كانوا يرتابون في الشقة منذ وقتٍ طويل، ولم يكونوا يراقبون تلك الدرب المؤدية إلى الفناء عبر المدخل فقط، بل والمدخل

الخلفي أيضاً، فضلاً عن أنه وضعت حراسة عند المداخن التي على السطح. نعم، كانت الشقة رقم ٥٠ تعبث بهم، ولم يكن في مقدورهم عمل شيء.

هكذا استمرّ الأمر إلى منتصف ليلة السبت، عندما توجه البارون ميغيل إلى الشقة رقم ٥٠ بمهابة وبصفة ضيف، وهو يرتدي ثوب السهرة وينتعل حذاءً ملمّعاً بالشمع. سُمِع كيف أُدخل البارون الشقة، وبعد عشر دقائق تماماً، ودون أي أجراس، داهموا الشقة، لكنهم لم يجدوا فيها صاحب الشقة كما لم يجدوا أي أثر للبارون ميغيل، وكان هذا أمراً فائق الغرابة هذه المرة.

وإذن فقد استمرت الحال على هذا النحو حتى فجر السبت، كما سبق القول. وهنا انضافت معطيات جديدة وهامة جداً. فقد حطّت في مطار موسكو طائرة تتسع لستة ركّاب، قادمة من القرم، ونزل منها، في عداد الركاب الآخرين، راكب غريب الشكل. كان مواطناً شاباً نما شعر وجهه الخشن بكثافة وبلا تشذيب، لم يغتسل منذ ثلاثة أيام، عيناه ملتهبتان وفزعتان، بلا أمتعة ويرتدي ثياباً غريبة، وكان يعتمر طاقية من الفرو ويرتدي رداءً فوق قميصٍ للنوم وينتعل خفين جلديين أزرقين اشتُريا للتو. وما إن ابتعد عن السلّم، الذي يهبطون عليه من قمرة الطائرة، حتى توجّهوا نحوه. كانوا في انتظار هذا المواطن، وبعد قليل مثل مدير الفاريتيه الذي لا يُنسى، ستيبان بوغدانوفيتش ليخودييف، أمام هيئة التحقيق. وقد زوّدهم بمعلومات جديدة. بات واضحاً الآن أن فولند تسلل إلى الفاريتيه في هيئة فنّان، بعد أن نوّم ستيوبا ليخودييف مغناطيسياً، ثم تمكّن بحيلةٍ ما من إلقاء ستيوبا هذا نفسه بعيداً من موسكو بكيلومترات الله أعلم بعددها. على هذا النحو ازدادت المعلومات لكن القضية لم تغدُ أسهل جرّاء ذلك، بل الأرجح

أنها ازدادت تعقيداً بعض الشيء. فقد بات جلياً أنّ التمكّن من شخصٍ كهذا، قادرٍ على القيام بألاعيب كالتي صار ضحيتها ستيبان بوغدانوفيتش، لن يكون بهذه السهولة. وبالمناسبة، سُجِن ليخوديف في زنزانة مأمونة بناءً على طلبه، كما مثل أمام هيئة التحقيق فارينوخا الذي اعتُقل للتو في شقته بعد غيابٍ لا يدري أحد أين استمر قرابة يومين.

رغم الوعد الذي قطعه المدير الإداري لأزازيلو بالامتناع عن الكذب، فقد بدأ من الكذب بالضبط. غير أننا لا ينبغي أن نقسو عليه كثيراً. فأزازيلو نهاه عن الكذب والتواقح بالهاتف، فيما المدير الإداري يتحدّث الآن دونما مساعدة هذا الجهاز. أعلن إيفان سافيليفيتش وهو شارد العينين أنه كان في مكتبه في الفاريتيه نهار الخميس، وأنه شرب وحيداً حتى الثمالة، ثم غادر بعد ذلك، لكنه لا يذكر إلى أين، واحتسى مشروب «ستاركا» في مكانٍ ما، أيضاً لا يذكر أين، ثم تسكّع أسفل سياجٍ ما، ومرة أخرى لا يذكر أين. ولكن بعد أن قيل للمدير الإداري إنه بسلوكه الغبي والأخرق هذا إنما يعيق التحقيق في قضيةٍ هامة، وإنه سيدفع ثمن ذلك طبعاً، أخذ فارينوخا ينتحب وهمس بصوتٍ يرتعش، وهو يتلفّت حوله، أنه إنما يكذب من الخوف فقط خشية انتقام عصابة فولند التي سبق له أن وقع في يدها، وأنه يطلب ويتوسّل ويتلهّف أن يوضع في زنزانة مصفّحة ويُقفل عليه.

- تباً للشيطان! لقد استهوتهم هذه الزنزانة المصفّحة، - غمغم أحد المحققين.

- لقد أفزعهم هؤلاء الأوغاد بشدّة، - قال المحقق الذي كان عند إيفانوشكا.

هدّأوا من روع فارينوخا قدر ما استطاعوا، وقالوا له إنهم

سيحمونه حتى من دون أي زنزانة كانت. وهنا تبيّن أنه لم يشرب أي «ستاركا» عند السياج، وأنّ شخصين ضرباه، أحدهما أصهب وله ناب والآخر بدين. . .

- آه، أكان يشبه القط؟

- نعم، نعم، نعم، - همس المدير الإداري، متجمداً من الخوف وهو يتلفت حوله في كل ثانية، وراح يسرد بالتفصيل كيف أنه أمضى يومين في الشقة رقم ٥٠ بصفة خفّاش مصّاص دماء كاد أن يتسبب بمقتل المدير المالي ريمسكي. . .

في هذه الأثناء أدخلوا ريمسكي الذي أُحضر بقطار لينينغراد. بيد أن هذا العجوز الأشيب المرتجف من الخوف، المختلّ نفسياً، الذي كان يصعب كثيراً تعرّف المدير المالي فيه، لم يرِد قول الحقيقة بأي ثمن، وتبيّن أنه عنيد جداً بهذا الخصوص. فقد أكّد ريمسكي أنه لم يرَ أي غيللا في نافذة مكتبه ليلاً، مثله مثل فارينوخا، وأنه ببساطة شعر بدوخة وسافر وهو فاقد لذاكرته إلى لينينغراد. ولا حاجة للقول إن المدير الإداري المريض اختتم شهادته برجاء أن يحبسوه في زنزانة مصفّحة.

كما أُلقي القبض على آنوشكا حين حاولت أن تدفع لعاملة الصندوق في متجرٍ كبير بورقة من فئة العشرة دولارات. استمع المحققون باهتمام إلى قصة آنوشكا عن الناس الطائرين من نافذة البيت الذي في شارع سادوفايا، وعن الحدوة التي رفعتها آنوشكا عن الأرض لتسلّمها للشرطة حسب قولها.

سألوا آنوشكا:

- أكانت الحدوة من الذهب ومرصّعة بالماس فعلاً؟

- هل لي ألاّ أعرف الماس، - أجابت أنوشكا.

- لكن هل أعطاك تشيرفونتسات كما تقولين؟
- وهل لي ألاّ أعرف التشيرفونسات! - أجابت آنوشكا.
- طيب، ومتى تحولت إلى دولارات؟
- لا أعرف شيئاً عن الدولارات ولم أرَ أي دولارات، - أجابت آنوشكا زاعقةً، - هذا حقنا! أعطونا مكافأة... نريد أن نشتري بها بفتة... - وراحت تهلوس بأنها ليست مسؤولة عن إدارة البناية التي أسكنت في الطابق الخامس قوى شريرة جعلت الحياة لا تطاق.

هنا هزّ المحقق قلمه في وجه آنوشكا لأنها أزعجت الجميع بهرائها وكتب لها إذناً بالانصراف على ورقة خضراء، فاختفت آنوشكا من البناية، الأمر الذي أفرح الجميع.

تلاها رتلٌ كامل من الناس وكان من بينهم نيكولاي إيفانوفيتش الذي اعتُقل للتو وذلك حصراً بسبب غباء زوجته الغيور التي أبلغت الشرطة عند الفجر بأن زوجها قد اختفى. لم يثر نيكولاي إيفانوفيتش دهشة هيئة التحقيق كثيراً حين وضع على الطاولة تقريراً مدعاة للسخرية بأنه أمضى ذلك الوقت في حفلة راقصة عند الشيطان. وقد ابتعد عن الحقيقة بعض الشيء وهو يروي كيف حمل خادمة مرغريتا نيكولايفنا العارية في الجو إلى مكانٍ ما الله أعلم أين كي تستحم في النهر، وما سبق ذلك من ظهور مرغريتا نيكولاييفنا عاريةً في النافذة. فهو، مثلاً، لم يرَ ضرورة في أن يذكر أنه حضر إلى غرفة النوم ومنامته في يده، وأنه دعا ناتاشا باسم «فينوس». حسب قوله، ناتاشا هي التي طارت من النافذة وامتطته وانطلقت به إلى خارج موسكو...

- اضطررتُ إلى الإذعان لها مكرهاً، - قال نيكولاي إيفانوفيتش واختتم روايته راجياً عدم إخبار زوجته بما حصل، وقد وعدوه بذلك.

شهادة نيكولاي إيفانوفيتش منحت المحققين إمكانية إثبات أن

مرغريتا نيكولاييفنا وكذلك خادمتها ناتاشا قد اختفتا دون أي أثر. واتُّخذت الإجراءات للبحث عنهما.

وهكذا اتّسم صباح السبت بتحقيقات لم تتوقف ولو لثانية. وفي هذه الأثناء ظهرت في المدينة وانتشرت شائعات غير معقولة زُيِّن القدر القليل من الحقيقة فيها بأزهى الأكاذيب. فقد قيل إنه كان هناك عرض مسرحي في الفاريتيه اندفع بعده الألفا مشاهد كلهم إلى الشارع كما ولدتهم أمهاتهم، وإنّ مطبعة سحرية للأوراق المالية المزوّرة دوهمت في شارع سادوفايا، وإنّ عصابةً ما اختطفت خمسة مدراء يعملون في قطّاع التسلية والترفيه، وإن الشرطة عثرت على الجميع فوراً... وأقاويل أخرى كثيرة لا نودّ حتى مجرّد ترديدها.

في هذه الأثناء كان وقت الغداء يقترب، وحينها رنّ جرس الهاتف في المكان الذي يجري فيه التحقيق. أخبروهم من شارع سادوفايا أنّ الشقة اللعينة أظهرت مرة أخرى مؤشرات على وجود حياة فيها، وقالوا إن نوافذها فُتحت من الداخل، وإن أصوات بيانو وغناء تناهت منها، وإنهم رأوا قطاً أسود يجلس على حافة النافذة ويتشمّس.

قرابة الساعة الرابعة من ذلك اليوم القائظ نزلت مجموعة كبيرة من رجال يرتدون ملابس مدنية من ثلاث سيارات توقفت على مبعدة قليلاً من البناية رقم ٣٠٢ مكرر في شارع سادوفايا. ثم انقسمت المجموعة الكبيرة إلى مجموعتين صغيرتين اجتازت الأولى البوابة والفناء متوجهةً إلى المدخل الرئيسي السادس مباشرةً، فيما فتحت الثانية الباب الصغير، المسمَّر عادةً، المؤدّي إلى الباب الخلفي، وراحت كلتا المجموعتين تصعدان درجين مختلفين إلى الشقة رقم ٥٠.

في هذه الأثناء كان كوروفييف وأزازيلو (وكان كوروفييف يرتدي ملابسه المعتادة وليس بذلة الفراك الرسمية الخاصة بالحفلات) يجلسان

في غرفة الطعام ويوشكان على الانتهاء من فطورهما، وكان فولند في غرفة النوم كعادته. أما أين كان القط، فلا أحد يدري. لكن بالحكم بناء على قرقعة الطناجر القادمة من المطبخ يمكن القول إن بيغيموت كان يقوم بحماقات ما في المطبخ بالتحديد على جري عادته.

- ما هذه الخطوات على الدرج؟ - سأل كوروفييف وهو يحرّك ملعقةً صغيرة في فنجان القهوة.

- إنهم قادمون للقبض علينا، - أجاب أزازيلو وجرع قدحاً من الكونياك.

- آها، آها، - ردّ كوروفييف على ذلك.

كان الذين صعدوا الدرج الرئيسي قد صاروا على بسطة درج الطابق الثالث في هذه الأثناء. هناك كان اثنان من عمال التمديدات الصحية يحاولان إصلاح جهاز التدفئة البخارية. تبادل الصاعدون والعمّال نظرات ذات دلالة.

- الجميع في البيت، - همس أحد عمّال الصيانة وطرق الماسورة بالمطرقة.

حينئذٍ أخرج السائر في المقدمة من تحت معطفه مسدس «ماوزر» أسود اللون، وأخرج آخر بجواره رزمة مفاتيح. عموماً كان المتجهون إلى الشقة رقم ٥٠ مجهّزين كما ينبغي. فقد كانت في جيبي اثنين منهم شباك حريرية دقيقة يسهل نشرها، وكان مع أحدهم وهق، وبحوزة آخر أيضاً كمّامات من الشاش وحقن كلوروفورم.

في ثانية واحدة فتح القادمون باب الشقة رقم ٥٠ وصاروا في الردهة، فيما أظهر باب المطبخ الذي اصطفق في هذه اللحظة أن المجموعة الثانية التي دخلت من الباب الخلفي كذلك وصلت في اللحظة المناسبة.

كان النجاح هذه المرة بادياً للعيان، وإن لم يكن نجاحاً كاملاً. فقد انتشر الرجال في الغرف كلها فوراً، لكنهم لم يعثروا على أحد، إلا أنهم، في المقابل، وجدوا في غرفة الطعام بقايا فطور تُرك للتو على ما يبدو، وفي غرفة الاستقبال كان يجلس قط أسود ضخم على رفّ الموقد الحجري قرب إبريق بللوري، وكان يمسك بقائمتيه وابوراً.

تأمّل الذين دخلوا غرفة الاستقبال هذا القط فترةً طويلة نسبياً في صمتٍ مطبق.

- همم، نعم... رائع فعلاً، - همس أحدهم.

- أنا لا ألعب ولا أؤذي أحداً، بل أصلح الوابور. ثم إن من واجبي تنبيهكم إلى أن القط حيوان قديم ولا يجوز المساس به. - قال القط مقطّباً حاجبيه بعداء.

- عمل متقن بشكل استثنائي، - همس أحد الداخلين، فيما قال آخر بصوتٍ عالٍ وبوضوح:

- إي أيها القط الذي لا يُمسّ، تفضّل إلى هنا.

فُردت الشبكة الحرير وانطلقت عالياً، لكن الذي ألقى بها، لدهشة الجميع، أخطأ هدفه ولم يصطد بها إلا الإبريق الذي تحطّم فوراً برنينٍ عالٍ.

- الضربة الأولى، هورا! - صرخ القط، وهنا وضع الوابور جانباً وتناول مسدس «براونينغ» من وراء ظهره وسدّده في لمح البصر إلى أقرب الواقفين إليه، لكن ذاك سبقه قبل أن يتمكن القط من إطلاق النار، ومع انطلاق الرصاصة من مسدس «الماوزر» هوى القط عن الموقد الحجري رأساً على عقب مسقطاً «البراونينغ» وملقياً الوابور.

- انتهى كل شيء، - قال القط بصوتٍ واهن وانطرح ببطء في

بركة الدم، - ابتعدوا عني للحظة، دعوني أودّع الأرض. آه يا صديقي أزازيلو! - أنّ القط وهو ينزف، - أين أنت؟ - وصوّب القط عينيه نحو باب غرفة الطعام، - لم تأتِ لنجدتي لحظة خضت معركة غير متكافئة. لقد تخليت عن بيغيموت المسكين مفضّلاً عليه كأساً من الكونياك، الجيد جداً والحق يقال! فليكن، وليكن موتي وزراً يثقل ضميرك، أما أنا فأوصي بمسدسي «البراونينغ» لك. . .

- الشبكة، الشبكة، الشبكة، - تعالت همسات مضطربة حول القط، لكن الشبكة علقت، الله أعلم لماذا، في جيب أحدهم ولم تنسلّ إلى الخارج.

- الشيء الوحيد الذي قد ينقذ قطاً مصاباً بجرحٍ مميت هو جرعة بنزين، - قال القط وأطبق فمه على فوهة الوابور المدوّرة، مستغلاً الارتباك الحاصل، وجرع البنزين، فتوقف نزيف الدم تحت قائمته اليسرى على الفور، ووثب القط حيّاً معافى والتقط الوابور ووضعه تحت إبطه وقفز به عائداً إلى مكانه فوق الموقد، ومن هناك شرع يتسلّق الجدار ممزقاً ورق الجدران، وفي ثانيتين كان يجلس فوق إفريزٍ معدني أعلى القادمين.

وفي لحظة تشبثت الأيدي بستارة النافذة ونزعتها مع الإفريز، ما جعل الشمس تتدفق إلى الغرفة الظليلة. لكن لا القط الذي برئ بالحيلة ولا الوابور سقطا إلى الأسفل، فقد تمكّن القط بطريقةٍ ما من القفز في الهواء إلى الثريا المعلقة بسقف الغرفة دون أن يفلت الوابور.

- هاتوا السلّم! - صاحوا في الأسفل.

- أنا أدعوكم للمبارزة! - زمجر القط وهو يتقافز فوق رؤوسهم على الثريا المتأرجحة، وهنا ظهر «البراونينغ» مرة أخرى في قوائمه، في حين ثبّت الوابور بين شعاب الثريا. صوّب القط مسدسه نحو

القادمين، طائراً فوق رؤوسهم، وراح يطلق عليهم الرصاص. رجّ الدوي الشقة وتناثرت شظايا الكريستال من الثريا، وتصدّعت المرآة فوق الموقد، وتعالى غبار الجصّ، وتتطايرت على الأرض أغلفة الطلقات الفارغة، وانفجر زجاج النوافذ، وأخذ الوابور المصاب بطلقة ينفث البنزين. الآن لم يعد هناك مجال للحديث عن الإمساك بالقط حياً، وأخذ القادمون يطلقون النار بالمقابل من مسدساتهم «الماوزر» بدقة وكثافة على رأس القط وبطنه وصدره وظهره. وقد أثار إطلاق الرصاص الهلع على الأسفلت في الفناء.

لكن إطلاق الرصاص هذا لم يستمر طويلاً وراح يهدأ شيئاً فشيئاً تلقائياً. والمسألة أن إطلاق الرصاص لم يسبّب أي أذى لا للقط ولا للرجال، فأيٌّ منهم لم يُقتل بل ولم يُجرح، والجميع، بما فيهم القط، ظلّوا سالمين. وللتحقق من هذا الأمر نهائياً أفرغ أحدهم خمس رصاصات في رأس الحيوان اللعين، فردّ عليه القط بهمّة بمشطٍ كامل، وكانت النتيجة هي ذاتها: لم يؤثّر ذلك في أيٍّ منهم أي تأثير. كان القط يتأرجح على الثريا، التي كان تأرجحها يخفت شيئاً فشيئاً، وهو ينفخ - لسببٍ ما - في فوهة البراونينغ ويبصق على قائمته. وظهر على وجوه الواقفين في الأسفل بصمت تعبير ينمّ عن عدم فهم كامل. فقد كانت هذه المرة الوحيدة، أو واحدة من المرّات النادرة، التي يكون إطلاق الرصاص فيها بلا تأثير بالمطلق. كان بالإمكان طبعاً الافتراض بأن مسدس القط هو مسدس لعبة، لكن كان يستحيل قول الكلام نفسه عن مسدسات الرجال. أما جرح القط الأول، الذي من الواضح أن ليس فيه أدنى شك، فلم يكن سوى خدعة وتظاهراً حقيراً، مثله مثل شرب البنزين.

ثم قاموا بمحاولة أخرى للإمساك بالقط، فحاولوا اصطياده

بالوهق، لكنه علق بإحدى الشموع وهوت الثريا، وأحدث سقوطها دوياً هزّ المبنى برمّته، لكن هذا لم يأتِ بنتيجة. فقد انهمرت الشظايا على الحاضرين فيما طار القط في الهواء وحطّ عالياً تحت السقف على الإطار العلوي لمرآة الموقد المذهّبة. لم يحاول الهرب إلى أي مكان بل إنه، على العكس، بعد أن جلس في مكانٍ آمن نسبياً، راح يلقي كلمةً مرة أخرى، وشرع يقول من الأعلى:

- إني لا أفهم مطلقاً أسباب معاملتي هذه المعاملة العنيفة...

وهنا قاطع هذه الخطبة من بدايتها صوت خفيض ثقيل لا يدري أحد من أين يأتي:

- ما الذي يجري في الشقة؟ إنهم يعيقونني عن القيام بعملي.

ردّ عليه صوت آخر، أخنّ وكريه:

- إنه بيغيموت طبعاً، عليه اللعنة!

وقال صوتٌ ثالث رجراج:

- سيدي! اليوم السبت. الشمس تغرب. آن الأوان.

- اعذروني، لا يمكنني متابعة الحديث، فقد آن الأوان. - قال القط من على المرآة وقذف مسدسه البراونينغ بعيداً فهشّم لوحَي النافذة الزجاجيين، ثم رشّ البنزين على الأرض، وهذا البنزين اشتعل من تلقاء ذاته مرسلاً موجة لهيبه إلى السقف.

اندلعت النار بصورة غير عادية، بسرعة وقوة غير معقولتين حتى مع وجود البنزين. وعلى الفور أخذ الدخان يتصاعد من ورق الجدران، واشتعلت ستارة النافذة المرمية على الأرض، وبدأت إطارات النوافذ المهشّمة تحترق بلا لهيب. تمطّى القط وماء، ووثب من فوق المرآة إلى حافة النافذة وتوارى خلفها مع وابوره. دوّت طلقات في الخارج. فقد كان الرجل الجالس على سلّم الطوارئ

الحديدي، على مستوى نوافذ شقة زوجة الصائغ، يطلق النار على القط الذي كان يطير من حافة نافذة إلى أخرى متوجهاً إلى ماسورة تصريف المياه التي في ركن المبنى الذي قيل إنه بني على شكل حرف (П)، وعبر هذه الماسورة تسلّق إلى السطح.

وهناك أيضاً أطلق عليه النار الحراس الذين كانوا يراقبون المداخن، ولكن دون جدوى للأسف، واختفى القط عن النظر في الشمس الغاربة التي كانت تغمر المدينة.

في هذه الأثناء شبّت النار في أرضية الشقة تحت أرجل رجال الشرطة، وفي وسط النار، هناك حيث تمرّغ القط متظاهراً بأنه أُصيب، لاحت جثة البارون السابق ميغيل، وهي تزداد كثافةً، بذقنه المرفوعة إلى أعلى وعينيه الزجاجيتين. لكن لم تعد هناك إمكانية لسحبها. تراجع الرجال المتواجدون في غرفة الاستقبال، وهم يقفزون فوق مربعات الأرضية المحترقة ويطبطبون بأكفّهم على أكتافهم وصدورهم، إلى المكتب فالردهة. أما الذين كانوا في غرفة النوم وغرفة الطعام فقد هرعوا راكضين عبر الممر. كذلك اندفع الذين كانوا في المطبخ إلى الردهة. كانت غرفة الاستقبال قد امتلأت بالنار والدخان. وقد تمكّن أحدهم - على الماشي - من الاتصال بقسم الإطفاء صارخاً في السماعة بإيجاز:

- سادوفايا، ٣٠٢ مكرر.

كان البقاء في الشقة أكثر استحالة، فقد امتد اللهب إلى المدخل وبات التنفس صعباً.

وما إن خرجت من النوافذ المحطمة للشقة المسحورة أولى خيوط الدخان حتى سمعت في الفناء صرخات يائسة:

- نار، نار، نحن نحترق!

وراح الناس في مختلف شقق المبنى يصرخون في الهواتف:

- سادوفايا، سادوفايا، ٣٠٢ مكرر.

وبينما كانت تُسمع ضربات الأجراس، التي تصيب القلوب بالهلع، المنطلقة من سيارات حمراء مندفعة بسرعة من كافة أنحاء المدينة، رأى الناس المتراكضون في الفناء كيف طارت مع الدخان من نافذة الطابق الخامس ثلاثة أطياف رجالية قاتمة، كما بدت لهم، وطيف واحد لامرأة عارية.

الفصل الثامن والعشرون*

مغامرات كوروفييف وبيغيموت الأخيرة

طبعاً لا يمكن الجزم بدقة ما إن كانت هذه الأطياف قد وجدت حقاً أم أنها كانت مجرّد تهيؤات لسكّان المبنى المشؤوم في شارع سادوفايا الذين صعقهم الخوف. وإن كانت قد وجدت حقاً فكذلك لا أحد يدري إلى أين اتجهت مباشرةً. وكذلك ليس في مقدورنا القول أين افترقت، لكننا نعرف أنّ مواطناً فارع الطول يرتدي بذلة «كاروه»، وبرفقته قطٌّ ضخم، ظهر عند الأبواب الزجاجية لأحد المراكز التجارية الكبيرة في سوق سمولِنسك بعد ربع ساعة تقريباً من اندلاع الحريق في شارع سادوفايا.

فتح المواطن باب المركز التجاري الخارجي شاقّاً طريقه بخفّة وسط المارّة، فإذا ببواب ضئيل الحجم ناتئ العظام وغير ودود على الإطلاق يقطع عليه الطريق ويقول حانقاً:

- مع القطط ممنوع.

- العفو، - قال الرجل الطويل بصوتٍ راعش ووضع يده المعروقة على أذنه كمن به صمم، - تقول مع القطط؟ وأين ترى القطط؟

جحظت عينا البوّاب، وكان لهذا ما يبرّره: إذ لم يعد هناك أي قِطّ عند قدمي المواطن وأطلّ من وراء كتفه بدلاً منه شخص بدين على

رأسه قبعة ممزقة شبيه بالقط بعض الشيء يحاول دخول المركز التجاري، وكان يحمل في يديه وابوراً.

لسببٍ ما لم يعجب هذا الثنائي البوّاب الكاره للبشر، فقال بصوتٍ أجشّ وهو يرمقهما بحنق من تحت حاجبيه الرماديين الأشعثين وكأنما يتأكلهما العثّ:

- البيع عندنا بالعملة الأجنبية فقط.

فقال الطويل بصوتٍ رجراج وعينه تومض من نظارته المحطّمة:

- ومن أين لك أن تعرف أني لا أملكها يا عزيزي؟ أتحكم علي من بذلتي؟ إياك أن تفعل ذلك أيها الحارس الغالي! فقد تخطئ، وقد يكون خطؤك جسيماً. أعد مرة أخرى قراءة قصة الخليفة الشهير هارون الرشيد على الأقل. لكن لندع هذه القصة جانباً في الوقت الراهن، فأنا أريد أن أقول لك إنني سأشكوك للمدير وسأحكي له عنك أشياء بحيث لا تضطر بعدها لمغادرة مكانك بين الأبواب الزجاجية اللامعة.

- لعلّ لدي وابوراً مليئاً بالعملة الأجنبية، - تدخّل البدين الشبيه بالقط أيضاً في الحديث متباكياً وهو لا يزال يحاول دخول المتجر.

في الخلف كان الناس قد بدأوا يتدافعون ويتذمرون، فتنحّى البواب جانباً وهو يرمق الثنائي المزعج بحقدٍ وريبة، ووجد صاحبنا كوروفييف وبيغيموت نفسيهما داخل المتجر. وهنا كان أول ما فعلاه هو أنهما راحا يتأملان ما حولهما، ثم أعلن كوروفييف بصوتٍ رنّان سُمع بوضوح في أركان المتجر كلها:

- متجر رائع! متجر جيد جداً جداً!

التفت جمهور المشترين في أقسام المتجر ونظروا إلى المتكلّم في ذهول لأمرٍ ما رغم أنه كانت لديه كل المبررات للثناء على المتجر. فقد كانت تلوح على الرفوف مئات القطع من القماش الزاهي الألوان،

تكدّست وراءها أقمشة الكتّان والشيفون وأجواخ الفراك، وعلى مرمى النظر أكوام كاملة من علب الأحذية، وكانت بضع مواطنات يجلسن على مقاعد واطئة، أقدامهن اليمين في أحذية قديمة بالية، واليسار في أحذية جديدة لمّاعة يدبدبنَ بها على السجاد باهتمام. وفي مكانٍ في العمق وراء أحد الزوايا كانت أجهزة حاكٍ تصدح.

لكن كوروفييف وبيغيموت تجاوزا هذه الروائع كلها وتوجّها إلى ملتقى قسم المواد الغذائية وقسم الحلويات. وهنا كان المكان رحباً جداً ولم تكن المواطنات المرتديات مناديل أو قبعات يتدافعن على المباسط كما في قسم الأقمشة.

كان شخص قصير القامة ومربوع تماماً، حليق حتى الازرقاق، يضع نظارة وقبعة جديدة غير مكرمشة وذات شريط دون تجعيدات، ويرتدي معطفاً ليلكياً وقفازين أشقرين من جلد الجدي، يقف أمام النضد ويغمغم آمراً بكلام ما. وكان بائع يرتدي رداءً أبيض نظيفاً وقبعةً زرقاء يخدم الزبون الليليكي. كان ينزع جلد سمكة سلمون دسمة زهرية اللون، شبيهاً بجلد أفعى ضارب إلى الفضة، بسكينٍ حادة تشبه كثيراً السكين التي سرقها متّى اللاوي.

- وهذا القسم أيضاً رائع، - قال كوروفييف مقرّاً بصوتٍ مهيب، ثم أشار إلى الزبون الليلكي بإصبعه وقال في مودّة مستحسناً: - والأجنبي كذلك لطيف.

- لا يا فاغوت لا، - قال بيغيموت ساهماً، - أنت مخطئ يا صديقي، فهناك شيء ما ناقص في وجه هذا الجنتلمان الليلكي في رأيي.

ارتعش الزبون الليلكي، لكن ربما عَرَضاً، فالأجنبي لم يكن في مقدوره فهم ما يقوله كوروفييف ورفيقه باللغة الروسية.

- جيد؟ - سأل الشاري الليلكي بصرامة.

- عالمية، - أجاب البائع وهو يسلخ الجلد بالسكين الحادة برقّة.

- الجيد أحب، السيئ لا، - قال الأجنبي بصرامة.

- وكيف إذاً! - أجاب البائع بحماس.

وهنا ابتعد صاحبانا عن الأجنبي وسمكته السلمون إلى طرف مبسط المعجّنات.

- الطقس حار اليوم، - قال كوروفييف للبائعة الشابة المتورّدة الخدين، ولمّا لم يتلقَّ منها أي ردّ سألها: - بكم المندرين؟

- الكيلو بثلاثين كوبيكاً، - أجابت البائعة.

- كل شيءٍ غالٍ، إيه، إيه... - علّق كوروفييف متنهداً، ثم فكّر قليلاً ودعا رفيقه قائلاً: - كُلْ يا بيغيموت.

وضع البدين وابوره تحت إبطه وأخذ حبة المندرين التي في أعلى الهرم والتهمها مع قشرتها وفي الحال باشر بالثانية.

تملّك البائعة هلعٌ مميت وصاحت وقد فقدت تورّدها:

- هل جننتما! هاتوا وصل الفاتورة! الوصل! - وأسقطت ملاقط السكاكر.

- يا روحي، يا عزيزتي، يا حلوة، - قال كوروفييف بصوتٍ جشر وهو يمطّ قامته منحنياً فوق المبسط ويغمز الفتاة، - لا توجد عملة أجنبية بحوزتنا اليوم... لكن ما العمل! لكني أقسم لك أننا سندفع كل ما علينا عدّاً ونقداً في المرة القادمة، ولن تتعدى قطعاً يوم الاثنين. نحن نقيم على مقربة، في شارع سادوفايا، حيث الحريق.

بعد أن ابتلع بيغيموت حبة المندرين الثالثة مدّ يده إلى كومة ألواح

الشوكولا المرصوفة فوق بعضها بإتقان وانتزع لوحاً من الأسفل، ما جعل الكومة تنهار بالطبع، وتناوله مع غلافه الذهبي.

الباعة الواقفون خلف مبسط قسم السمك كأنما تسمّروا في أماكنهم مع السكاكين التي في أيديهم، والتفت الأجنبي الليلكي نحو السارقَين فاكتشف بيغيموت فوراً أنه ليس محقاً، فوجه الشخص الليلكي لم يكن هناك ما ينقصه بل، على العكس، كان فيه ما هو زائد: وجنتان متهدلتان وعينان متقافزتان.

صاحت البائعة، المصفرّة كلياً، صيحةً دوّت في المتجر كله:

- بالوسيتش! بالوسيتش!

هُرِع حشد الناس من قسم الأقمشة على هذه الصيحة، فابتعد بيغيموت عن المعجّنات المغرية وغطّس قائمته في برميل كُتب عليه: «سمك رنكَة نخب ممتاز» وتناول سمكتَي رنكة فابتلعهما وبصق ذيليهما.

- بالوسيتش! - تكرر الصراخ اليائس خلف مبسط المعجّنات، ومن وراء مبسط السمك صرخ بائع له لحية مدببة حادة:

- ما هذا الذي تفعله يا سافل؟!

كان بافل يوسيفيتش قد هُرع إلى موقع الحدث في هذه الأثناء، وكان رجلاً مهيباً يرتدي مئزراً أبيض نظيفاً، كالجرّاحين، ويتأرجح في جيبه قلم رصاص. ويبدو أن بافل يوسيفيتش كان شخصاً محنّكاً، فما إن رأى في فم بيغيموت ذيل سمكة ثالثة حتى قيّم الوضع على الفور وفهم كل شيء، ودون أن يدخل في أي مهاترات مع هذين الوغدين لوّح بيده بعيداً آمراً:

- أُصْفُر!

انطلق البواب عبر الباب الزجاجي إلى ناحية شارع سمولينسكايا

وراح يصفر صفيراً ينذر بالويل والثبور، وأخذ الحضور يحيطون بالوغدين. حينها تدخّل كوروفييف صائحاً بصوتٍ رفيعٍ رنّان:

- ما هذا الذي يجري أيها المواطنون، هه؟ اسمحوا لي بسؤالكم! إنسان مسكين، - وهنا اصطنع كوروفييف صوتاً راعشاً وأشار إلى بيغيموت الذي اصطنع سحنةً بكّاءة على الفور، - إنسان مسكين يصلح البوابير طوال اليوم، وقد جاع... فمن أين يأتي بالعملة الأجنبية؟

بافل يوسيفيتش، الهادئ الرزين عادةً، صاح بحدّة ردّاً على ذلك:

- دعك من هذا الهراء - ولوّح بيده إلى البعيد نافد الصبر، وحينها تعالى الصفير عند الباب بمزيدٍ من الطرب.

لكن كوروفييف لم تربكه مداخلة بافل يوسيفيتش وتابع يقول:

- من أين؟ إني أطرح عليكم جميعاً هذا السؤال! أضناه الجوع والعطش والحرّ فأخذ حبة مندرين ليتذوقها، وماذا في ذلك؟ وكل سعر حبة المندرين هذه ثلاثة كوبيكات، وإذا بهم يصفرون كالبلابل في الربيع في غابة، يزعجون الشرطة ويصرفونها عن القيام بعملها. أما هذا فيُسمح له، هه؟ - وهنا أشار كوروفييف إلى الشخص الليلكي البدين ما جعل أمارات قلقٍ بالغ ترتسم على وجهه، - من يكون، هه؟ من أين هو؟ ولماذا؟ أم لعلنا كنا نشعر بالملل من دونه؟ وهل دعوناه؟ طبعاً، - ولوّى المرتّل السابق فمه في تهكّم وجأر بأعلى صوته، - إنه، كما ترون، يرتدي بذلة ليلكية فاخرة، منتفخٌ كلّه من أكل السلمون، ومحشوٌّ كلّه بالعملة الأجنبية. أما أخونا هذا، ابن البلد؟! يا لمرارتي! يا لشقائي! يا للمسكين! - ولول كوروفييف مثل إشبينٍ في عرسٍ قديم.

كل هذه الحادثة غير اللائقة، والضارّة سياسياً على الأرجح،

جعلت بافل يوسيفيتش ينتفض من الغضب، لكن كان واضحاً من أعين الحشد المتجمهر - ويا للغرابة! - أنها أثارت تعاطف كثيرين! ولمّا هتف بيغيموت واضعاً كمّه المتّسخ الممزّق على عينه: «شكراً أيها الصديق المخلص، لقد نصرت مظلوماً» - حدثت معجزة. فقد تحوّل كهلٌ هادئ لائق المظهر، يرتدي ثياباً فقيرة لكن نظيفة، كان يشتري ثلاث فطائر باللوز في قسم المعجّنات، إلى شخصٍ آخر فجأةً. فقد اتقدت عيناه بالشرر واحمرّ لونه ورمى كيس الفطائر على الأرض وصاح بصوتٍ طفوليٍّ رفيع: «صحيح!» ثم اختطف الصينية، ملقياً عنها بقايا الشوكولاتة المنسّقة على شكل برج إيفل التي قضى عليها بيغيموت، فلوّح بها، ونزع بيسراه القبعة عن رأس الأجنبي، وهوى بيمناه بالصينية على رأس الأجنبي الأصلع، فدوّى صوت كالذي يُسمَع عندما تُلقى صفائح الحديد من على ظهر شاحنة على الأرض، وهوى البدين، وقد ابيضّ لونه، وسقط في برميل الفسيخ مطلقاً منه نافورة من المِدّان[١]. وهنا حدثت معجزة ثانية، فقد صرخ الشخص الليلكي وهو يسقط في البرميل بلغة روسية خالصة لا تشوبها أي لكنة:

- إنهم يقتلونني! الشرطة! المجرمون يقتلونني! - يبدو أنّ الصدمة جعلته يتقن لغةً كان يجهلها حتى تلك اللحظة.

حينئذٍ توقف صفير البوّاب، ولمعت وسط حشد المشترين المضطربين خوذتا شرطيين وهما يقتربان. لكنّ بيغيموت الغدّار سكب من وابوره البنزين على مبسط المعجنات، كما لو أنه يصبّ الماء من طست في الحمام، واشتعل البنزين من تلقاء ذاته. ارتفع اللهب عالياً وأخذ يمتد على طول المبسط ملتهماً الشرائط الورقية على سلال

---

(١) المِدّان: محلول ملحي يُستخدم لتخليل المخللات.

الفاكهة. اندفعت البائعات يهربن من وراء المبسط وهنّ يولولن، وما إن صرن في الخارج حتى شبّت النار في ستائر النوافذ الكتّانية واشتعل البنزين على الأرض، وعلى الفور أطلق الحشد صرخات الهلع وأخذ الناس يتراجعون إلى الخلف مبتعدين عن قسم المعجنات داهسين في طريقهم بافل يوسيفيتش الذي لم يعد له لزوم، ومن وراء مبسط قسم السمك هرع الباعة مع سكاكينهم المشحوذة مسرعين الواحد تلو الآخر إلى أبواب المخرج الخلفي. واقتلع المواطن الليلكي نفسه من البرميل، وقد تبلّل كله بمرق التخليل وبعد أن انقلب على المبسط متزحلقاً بسمكة سلمون لحق بهم. رنّت وتناثرت ألواح الزجاج في الأبواب البللورية الخارجية تحت ضغط الناس الهاربين للنجاة بأرواحهم، واختفى النذلان كوروفييف وبيغيموت الأكول في مكانٍ ما، لكن أين - هذا ما تعذّر فهمه. لاحقاً قال شهود عيان، شهدوا الحريق في المركز التجاري في سمولنسكي منذ البداية، أن كلا الشقيين طارا إلى السقف وانفجرا هناك كما لو أنهما كبالونات الأطفال. من المشكوك فيه طبعاً أن يكون الأمر قد جرى على هذا النحو بالذات، لكن ما لا نعرفه لا نقطع فيه برأي.

لكننا نعرف أن بيغيموت وكوروفييف، بعد دقيقة تماماً على حادثة سمولينسكي، كانا قد صارا على رصيف البولفار، مقابل بيت عمّة غريبوييدوف تماماً. توقف كوروفييف عند السياج وقال:

- عجباً! هذا بيت الكتّاب. أتعلم يا بيغيموت أنني سمعت الكثير جداً من المديح والإطراء عن هذا البيت. انظر إلى هذا البيت يا صديقي! يطيب للمرء أن يفكّر أن تحت هذا السقف هناك مجموعة كاملة من المواهب تنضج وتنمو.

- كثمار الأناناس في المستنبتات الزجاجية، - قال بيغيموت،

ولكي يمتّع ناظريه بالبيت العاجي ذي الأعمدة تسلّق بيغيموت قاعدة السياج الحديدي الإسمنتية.

- صحيح تماماً، - وافق كوروفييف صديقه الذي لا يفارقه أبداً، - وتغمر قلبك رهبةٌ لذيذة حين تفكّر أنّ في هذا البيت يترعرع كاتب «دون كيشوت» أو «فاوست» المستقبلي، أو حتى، ليأخذني الشيطان، كاتب «النفوس الميتة»! هيه؟

- من المخيف التفكير في ذلك، - قال بيغيموت مؤكداً.

- نعم، - واصل كوروفييف، - يمكن توقّع أمور مدهشة في دفيئات هذا البيت الذي يضم جناحه بضعة آلاف من الزهاد المتحمسين الذين قرروا تكريس حياتهم بنكران ذات لخدمة ميلومينا وبوليفيمينا وتاليا[1]. هل تتصوّر الضجة التي ستتصاعد حين يقدّم أحدهم لجمهور القرّاء «مفتشاً عاماً» أو في أسوأ الأحوال «يفغيني أونيغين»!

- بمنتهى البساطة، - أكّد بيغيموت موافقاً مرة أخرى.

- نعم، - تابع كوروفييف يقول ورفع إصبعه مهموماً، - ولكن، أعيد وأكرر «لكن» هذه! لكن يخشى أن تهاجم جرثومة ما هذه النباتات المستنبتة الرقيقة وتنخرها من جذورها، هذا إذا لم تتعفّن! وهذا يحدث لثمار الأناناس! أوي أوي أوي كم يحدث هذا!

- بالمناسبة، ما الذي يفعلونه على الشرفة؟ - سأل بيغيموت وهو يحشر رأسه المدوّر داخل ثقب في السياج الشبكي.

- يتناولون الغداء، - شرح كوروفييف، - وأضيف إلى ذلك، يا صديقي، أنه يوجد هناك مطعم لا بأس به وأسعاره ليست غالية. وأنا،

---

(١) ربات الأدب في الأساطير اليونانية: ميلومينا هي ربة فن التراجيديا، وبوليفيمينا هي ربة الأناشيد الغنائية، وتاليا: هي ربة فن الكوميديا.

بالمناسبة، كأي سائح قبل رحلةٍ طويلة، أشعر برغبة في تناول بعض «المازة» واحتساء كأس كبيرة من البيرة الباردة.

- وأنا أيضاً، - أجاب بيغيموت وخطا الوغدان على الدرب الإسفلتية تحت أشجار الزيزفون مباشرةً إلى شرفة المطعم الغافل عن المصيبة القادمة.

كانت مواطنة شاحبة وضجرة، ترتدي جوربين أبيضين و«بيريه» بيضاء لها ذيل، تجلس على كرسي عند مدخل الشرفة في الركن، حيث توجد فتحة للدخول عبر التعريشة الخضراء، وأمامها على طاولة مطبخ عادية دفتر سميك من نوع دفاتر الحسابات كانت المواطنة تسجّل فيه أسماء روّاد المطعم لأسباب مجهولة. هذه المواطنة بالذات هي من أوقفت كوروفييف وبيغيموت.

- هوياتكم؟ - قالت وهي ترنو بدهشة إلى نظارة كوروفييف الأنفية وكذلك إلى وابور بيغيموت وإلى كمّه الممزق من عند المرفق.

- ألف معذرة، أي هويات؟ - سأل كوروفييف بدهشة.

- هل أنتم كتّاب؟ - سألت المواطنة بدورها.

- بلا شك، - أجاب كوروفييف في وقار.

- هوياتكم؟ - كررت المواطنة.

- يا فاتنتي. . . - بدأ كوروفييف يقول، لكن المواطنة قاطعته قائلةً:

- لستُ فاتنتك.

- أوه، كم هذا مؤسف، - قال كوروفييف بخيبة أمل ثم تابع يقول: - وماذا إذاً، إن لم يرقك أن تكوني فاتنة، وهو أمر رائع تماماً، فيمكنك ألاّ تكوني كذلك. لكن إليك فيمَ الأمر، هل يعقل أن

تطلبي هوية دوستويفسكي لكي تتأكدي من أنه كاتب؟ خذي مثلاً أي خمس صفحات من أيٍّ من رواياته وستتأكدين أنك أمام كاتب دونما حاجة لأي إثباتات. وأعتقد أنه لم تكن لديه أي أوراق ثبوتية! - ثم التفت إلى بيغيموت وسأله: - ما رأيك أنت؟

- أراهن أن الأمر كذلك، - أجاب ذاك وهو يضع وابوره على الطاولة بجوار الدفتر ويمسح العرق بيده عن جبينه الملطّخ بالسخام.

- لكنك لست دوستويفسكي، - قالت المواطنة التي أربكها كوروفييف.

- وكيف لك أن تعرفي، كيف لك أن تعرفي؟ - أجاب ذاك.

- دوستويفسكي مات، - قالت المواطنة، لكن بعدم ثقة بعض الشيء.

- أعترض. دوستويفسكي خالد أبداً! - صاح بيغيموت بحرارة.

- هوياتكما أيها المواطنان، - قالت المواطنة.

- عفواً، فهذا مضحك في النهاية، - لم يستسلم كوروفييف، - فالكاتب لا تحدده بطاقته الشخصية بل كتاباته! أنّى لكِ أن تعرفي الأفكار التي تجول في خاطري؟! أو في هذا الرأس؟ - وأشار إلى رأس بيغيموت الذي رفع قبعته فوراً كأنما لكي تتفحصه المواطنة بشكل أفضل.

- دعوه يمرّ أيها المواطنان، - قالت وقد بدأت أعصابها تثور.

تنحّى كوروفييف وبيغيموت ليفسحا الطريق لكاتبٍ ما يرتدي بذلة رمادية وقميصاً صيفياً أبيض، دون ربطة عنق، ياقته العريضة موضوعة فوق ياقة الجاكيت، وتحت إبطه جريدة. حيّا الكاتب المواطنَين برأسه بودّ وخطّ على الدفتر المقدّم له خطوطاً ملتوية وتابع طريقه إلى الشرفة.

فقال كوروفييف بأسى:

- للأسف، ليس لنا، ليس لنا، وإنما له ستقدّم كأس البيرة المثلّجة التي كم حلمنا بها، أنا وأنت، نحن الشريدان. وضعنا محزن وشائك، ولا أدري ما العمل.

ما كان من بيغيموت إلا أن بسط يديه في حيرة ووضع قبعته على رأسه المدوّر المغطى بشعرٍ كثّ شبيه جداً بوبر القط. وفي هذه اللحظة تردّد فوق رأس المواطنة صوت غير عالٍ لكنه آمر:

- دعيهما يدخلان يا صوفيا بافلوفنا.

بُهتت المواطنة صاحبة الدفتر، فقد برز في خضرة التعريشة قميص القرصان الرسمي الأبيض ولحيته الإسفينية. رنا إلى الصعلوكين المريبين بودّ، بل أشار لهما داعياً إياهما. كان نفوذ أرشيبالد أرشيبالدوفيتش محسوساً بوضوح في المطعم الذي يديره، فسألت صوفيا بافلوفنا كوروفييف بخنوع:

- ما هي كنيتك؟

- باناييف، - أجاب ذاك بتهذيب، فدوّنت المواطنة هذه الكنية ثم رفعت نظرةً متسائلةً إلى بيغيموت.

- سكابيتشيفسكي، - صأصأ ذاك مشيراً، لسببٍ ما، إلى وابوره.

دوّنت صوفيا بافلوفنا ذلك أيضاً ودفعت الدفتر نحو الزائرين ليوقّعا فيه. كتب كوروفييف باناييف أمام اسم «سكابيتشيفسكي»، وكتب بيغيموت أمام اسم سكابيتشيفسكي «باناييف». ابتسم أرشيبالد أرشيبالدوفيتش ابتسامةً عذبة، الأمر الذي أذهل صوفيا بافلوفنا تماماً، وقاد الضيفين إلى أفضل طاولة في الطرف المقابل من الشرفة، حيث الظل شديد الكثافة وحيث أشعة الشمس تتراقص في أحد شقوق

التعريشة الخضراء. أما صوفيا بافلوفنا فقد ظلت تدرس لفترة طويلة التوقيعين الغريبين اللذين خطّهما الزائران الغريبان في الدفتر وهي ترمش بعينيها في دهشة.

ولم تكن دهشة النُّدُل من تصرّف أرشيبالد أرشيبالدوفيتش أقل من دهشة صوفيا بافلوفنا. فقد أبعد الكرسي عن الطاولة بنفسه، داعياً كوروفييف للجلوس، وغمز أحدهم وهمس للآخر، وإذا بنادلين يسعيان حول الضيفين اللذين وضع أحدهما وابوره على الأرض بجانب جزمته الضاربة إلى الاحمرار. وعلى الفور اختفى عن الطاولة السماط القديم الملطّخ ببقع صفراء، وخفق في الهواء سماط آخر ناصع البياض، كبرنسٍ بدويّ، وهو يخشخش بالنشاء. أما أرشيبالد أرشيبالدوفيتش فكان يهمس في أذن كوروفييف تماماً بصوتٍ خفيض لكن معبّر جداً:

- ماذا أقدّم لكما؟ لدي حفش مجفف ممتاز... حصلت عليه بالكاد من مؤتمر المهندسين المعماريين...

- أنتم... إي... قدّم لنا «مازة» عموماً... إي... - جمجم كوروفييف برضى مرتمياً على الكرسي باسترخاء.

- مفهوم، - أجاب أرشيبالد أرشيبالدوفيتش بلهجة متعددة الدلالات مغمضاً عينيه.

حين رأى النُّدُل كيف يخاطب مدير المطعم الزائرين المريبين جداً تخلّوا عن شكوكهم كلها وانكبّوا على العمل بجدية. كان أحدهم قد قدّم عود ثقاب مسبقاً لبيغيموت الذي أخرج من جيبه عقب سيجارة ودسّه في فمه، فيما أقبل آخر مسرعاً والكؤوس الزجاجية الخضراء ترنّ في يديه، فوضع بجوار طقم المائدة أقداحاً صغيرة وكؤوساً وأكواباً رقيقة الحواف يلذّ للمرء احتساء بيرة «نارزان» بها تحت

الظلّة. . . لا، فلنستبق الأحداث ولنقل: تمّ احتساء «النارزان» تحت ظلّة شرفة بيت غريبوييدوف التي لا تُنسى.

- يمكنني أن أقدّم لكما «فيليه» دجاج برّي، - همس أرشيبالد أرشيبالدوفيتش مترنّماً. استحسن الضيف صاحب النظارة المتصدعة اقتراح قبطان السفينة تماماً ورنا إليه بلطف من خلال عدسة النظارة العديمة النفع.

لاحظ الروائي بيتراكوف سوخوفي، الذي كان يتناول الغداء على الطاولة المجاورة مع زوجته، وكان ينهي تناول شريحة من لحم الخنزير، بقوة الملاحظة التي يتميّز بها الكتاب جميعاً، اهتمام وعناية أرشيبالد أرشيبالدوفيتش، وأدهشه ذلك كثيراً. أما زوجته، وهي سيدة محترمة جداً، فببساطة شعرت بالغيرة من كورفييف على القرصان بل حتى قرعت الطاولة بالملعقة. . . - ما لهم يؤخروننا هكذا! آن لهم أن يقدّموا لنا البوظة، ففيمَ الأمر؟

بيد أنّ أرشيبالد أرشيبالدوفيتش أرسل للسيدة بيتراكوفا ابتسامة خلّابة وبعث النادل إليها، فيما هو نفسه ظلّ مع ضيفيه العزيزين. آخ، ذكياً كان أرشيبالد أرشيبالدوفيتش! أما قوة ملاحظته فربما لم تكن أقل من قوة ملاحظة الكتّاب أنفسهم. كان أرشيبالد أرشيبالدوفيتش يعلم بالعرض المسرحي في «الفارتييه»، وكذلك بالكثير من مجريات هذين اليومين، وسمع كلمتي «المربعاتي» و«القط»، لكنه بخلاف الآخرين، لم يغفل ذلك. فقد حزر أرشيبالد أرشيبالدوفيتش على الفور من هما زائراه، وبطبيعة الحال، بعد أن حزر كذلك، تجنّب مشاحنتهما. أما صوفيا بافلوفنا ففهيمة حقاً! إذ لا بد من التروّي في ذلك، لا أن تسدّ الطريق إلى الشرفة أمام.هذين الاثنين! على كلٍّ، أنّى لها أن تفهم.

كانت بيتراكوفا، وهي تغرز بعجرفة ملعقتها في البوظة القشدية

التي بدأت تذوب، تحدّج بعينين ساخطتين الطاولة أمام الرجلين اللذين يرتديان ملابس تشبه ملابس البهاليل وهي تمتلىء بأطايب الطعام كأنّما بسحر ساحر.

كانت أوراق الخس المغسولة إلى حدّ اللمعان تتدلى من إناءٍ يحتوي على كافيار طازج... وبعد لحظة ظهر دلو فضي متعرّق على طاولة متحركة خاصة... فقط بعد أن تأكّد أن كل شيء قد تمّ على أحسن وجه، وفقط بعد أن تمّ على أحسن وجه، وفقط بعد أن هرع النُّدل بمقلاة مغطّاة يغمغم فيها شيء ما، سمح أرشيبالد أرشيبالدوفيتش لنفسه بمغادرة زائريه الغامضين، وهذا بعد أن همس لهما:

- العفو، دقيقة واحدة! سأشرف على إعداد وقطع «الفيليه» بنفسي. وانطلق مغادراً الطاولة وتوارى في الممشى الداخلي للمطعم. ولو أن أي شخص تتبّع ما فعله أرشيبالد أرشيبالدوفيتش بعد ذلك لبدت له تصرفاته، بلا شك، غامضة بعض الشيء.

ذلك أن «الشيف» لم يتوجه على الإطلاق إلى المطبخ للإشراف على شرائح اللحم، بل إلى مخزن المطعم حيث فتح باب المخزن بمفتاحه الخاص وأقفل على نفسه، ثم أخرج من صندوق فيه جليد بحذر، حتى لا يلوّث كمّه، سمكتي حفش كبيرتين ولفّهما في ورقة جريدة، ثم تأكّد إن كان معطفه الصيفي ذو البطانة الحرير وقبعته لا يزالان مكانهما في الغرفة المجاورة، وفقط بعد ذلك مضى إلى المطبخ حيث كان الطّباخ يقطّع شرائح اللّحم التي وعد بها القرصان ضيفيه.

ينبغي القول إن تصرفات أرشيبالد أرشيبالدوفيتش كلها لم تكن فيها أي غرابة مطلقاً، وما كان بالإمكان اعتبارها كذلك إلا إذا كان المراقب سطحياً. فتصرفات أرشيبالد أرشيبالدوفيتش كانت نابعة

بمنطقية مطلقة من كل ما سبقها. إذ إن معرفة أرشيبالد أرشيبالدوفيتش بالأحداث الأخيرة، وبشكل رئيسي شعوره الداخلي، أوحت لمدير مطعم غريبوييدف أن غداء زائريه، وإن كان سخياً وفاخراً، لن يطول كثيراً. وهذا الشعور الداخلي، الذي لم يخدع القرصان السابق يوماً، لم يخنه هذه المرة أيضاً.

بينما كان كوروفييف وبيغيموت يقرعان قدحهما الثاني من الفودكا الروسية الباردة الرائعة المقطّرة مرتين ظهر على الشرفة، متعرّقاً ومضطرباً، الصحفي في قسم الأخبار بوبا كاندالوبسكي المعروف في موسكو كلّها بسعة إطلاعه المدهشة، وجلس على الفور إلى طاولة آل بيتراكوف. وبعد أن وضع حقيبته المنتفخة على كرسي وضع بوبا فوراً شفتيه على أُذن بيتراكوف وأسرّ له بأمور مثيرة جداً. وإذ استبدّ ببيتراكوفا الفضول، وضعت هي أيضاً أذنها عند شفتي بوبا المكتنزتين المنفوختين، بينما راح ذاك يهمس ويهمس، متلفّتاً حوله بين الحين والآخر كاللص، وكان بالإمكان سماع كلمات متفرقة من قبيل:

- أقسم لكما بشرفي! في سادوفايا، في سادوفايا،- وأخفض بوبا صوته أكثر، - الرصاص لا يؤثر فيهم... الرصاص... الرصاص... بنزين... حريق... رصاص...

- يا لهؤلاء الكذابين الذين ينشرون هذه الشائعات الفظيعة، - صدح صوت السيدة بيتراكوفا الرنّان الساخط أعلى قليلاً مما كان بوبا ليرغب، - هؤلاء بالتحديد يجب كشف أمرهم! لكن لا بأس، هذا ما سيحدث، سيؤدّبونهم! يا لها من أكاذيب ضارّة!

- أي أكاذيب يا أنتونيدا بورفيروفنا! - صاح بوبا ممتعضاً من عدم تصديق زوجة الكاتب إياه ثم راح يزقزق ثانيةً: - أقول إن الرصاص لا يؤثّر فيهم... والآن الحريق... إنهم يطيرون في الهواء... في

الهواء، - كان بوبا يهمس دون أن يساوره الشك في أن اللذين يتحدث عنهما إنما يجلسان على مقربةٍ منه مستمتعين بزقزقته. بيد أن المتعة سرعان ما انتهت. فقد اندفع من ممر المطعم الداخلي إلى الشرفة ثلاثة رجال شُدّت أحزمة بقوة حول خصورهم وبأيديهم مسدسات، وصاح الذي في المقدّمة بصوتٍ مجلجلٍ مخيف:

- اجمدوا أماكنكم! - وعلى الفور فتح ثلاثتهم النار على الشرفة مصوّبين إلى رأسي كورفييف وبيغيموت، فتلاشى كلاهما في الهواء وارتفع عمود من النار من الوابور إلى الظّلة مباشرةً فشبّت فيها النار وراحت تزحف، كشدقٍ مفغور، في كل الاتجاهات. اخترقت النار الظلّة ووثبت منها إلى سطح بيت غريبوييدوف. وفجأةً اندلعت النار في مصنّفات الأوراق الموضوعة على حافة نافذة غرفة هيئة التحرير في الطابق الثاني، ومنها انتقلت إلى الستارة، وهنا اندفعت أعمدة النار إلى داخل بيت العمة بصفير كأنما هناك من ينفخ فيها.

خلال بضع ثوانٍ كان يركض الكتّاب الذين لم ينهوا طعامهم والنُّدل وصوفيا بافلوفنا وبوبا وبيتراكوفا وبيتراكوف عبر الممرات الإسفلتية المؤدية إلى سياج البولفار الحديدي حيث وصل في مساء الأربعاء أول من أنذر بالمصيبة، إيفانوشكا الذي لم يفهمه أحد.

وخارجاً من الباب الخلفي في اللحظة المناسبة، دون أن يهرب أو يسرع، كالقبطان الذي عليه أن يكون آخر من يغادر سفينة تحترق، كان أرشيبالد أرشيبالدوفيتش واقفاً بهدوء في معطفه الصيفي ذي البطانة الحرير وتحت إبطيه سمكتا حفش كبيرتان.

الفصل التاسع والعشرون

حَسْم مصير المعلّم ومرغريتا

عند غروب الشمس كان هناك شخصان على «ترّاس» حجري عالٍ يشرفان على المدينة في واحدٍ من أجمل مباني موسكو، شُيّد قبل قرابة قرنٍ ونصف، وكانا: فولند وأزازيلو. لم يكونا مرئيين من الأسفل، من الشارع، فقد كانت تحجبهم عن النظرات التي لا لزوم لها درابزين مع أُصص وأزهار من الجبصين، لكن المدينة كانت مرئية لهما حتى تخومها تقريباً.

كان فولند جالساً على كرسي بلا مساند، مرتدياً جبّته السوداء، وكان سيفه الطويل العريض مغروزاً عمودياً بين بلاطتين من بلاط «التّراس» بحيث تشكّلت ساعة شمسية. كان ظلّ السيف يمتد ببطءٍ وثبات زاحفاً نحو الخفّين الأسودين في قدمي الشيطان. وكان فولند يسند ذقنه المدببة إلى قبضته، منكمشاً على الكرسي وواضعاً أحد رجليه تحته، ولا ينِي يرنو إلى حشد القصور والبيوت العملاقة والأكواخ الصغيرة الآيلة للسقوط. وكان أزازيلو، الذي تخلى عن ثيابه العصرية، أي الجاكيت والقبعة الأسطوانية القاسية والحذاء الملمّع بالشّمع، يرتدي ملابس سوداء كفولند ويقف دون حراك غير بعيد عن سيده، ومثله لم يكن يرفع عينيه عن المدينة.

بدأ فولند الكلام:

- يا لها من مدينة مثيرة للاهتمام، أليس كذلك؟

تنحنح أزازيلو وأجاب بإجلال:

- تعجبني روما أكثر يا سيّدي!

- نعم، إنها مسألة أذواق، - أجاب فولند.

بعد قليل جاء صوته ثانيةً:

- ما سبب هذا الدخان هناك، في البولفار؟

- هذا بيت غريبوييدوف يحترق، - أجاب أزازيلو.

- لا بدّ أن هذا الثنائي الذي لا يفترق، كوروفييف وبيغيموت، كان هناك.

- ما من شك في ذلك يا سيدي.

مرة أخرى خيّم الصمت وعاد كلاهما ينظران إلى أشعة الشمس المبهرة وهي تنعكس على نوافذ الطوابق العليا للمباني الضخمة المطلة على الغرب. كانت عين فولند تتوهج كذلك، كواحدة من تلك النوافذ، رغم أنه كان يولي الشمس الغاربة ظهره.

لكن في هذه اللحظة حدث ما جعل فولند يحوّل نظره عن المدينة ويركّز انتباهه على البرج الأسطواني المنتصب خلف ظهره على السطح. فقد خرج من جدار البرج شخص متجهم أسود اللحية ملطّخ بالطين ممزق الثياب ينتعل صندلاً صنعه بنفسه.

- عجباً! - هتف فولند وهو يرنو في تهكّم إلى الشخص الذي دخل، - أنت آخر من يمكن توقّع وجوده هنا! ما الذي جاء بك إلينا أيها الضيف غير المدعو، لكن المتوقّع؟

- أنا آتٍ إليك يا روح الشر وسيد الأطياف، - أجاب الزائر وهو يرمق فولند بعداء من تحت حاجبيه.

- إن كنت قادماً إلي فلِمَ لم تسلّم عليّ أيها العشّار السابق؟ - قال فولند بلهجة قاسية.

- لأني لا أريد أن تكون بخير، - أجاب الزائر بوقاحة.

- لكن عليك التصالح مع ذلك، - عارضه فولند ولوت ابتسامة ساخرة فمه، - ما كدت تظهر على السطح حتى بدأت بكيل السخافات، ودعني أخبرك أين تكمن السخافة، إنها في نبرة صوتك، فأنت تلفظ كلماتك وكأنك لا تعترف بالأطياف، ولا بالشر. لعلّك تتكرّم وتفكّر في السؤال التالي: ما جدوى الخير لولا وجود الشرّ، وكيف ستبدو الأرض إن اختفت منها الأطياف؟ فالأطياف تتشكّل من الأشياء والبشر. هاك ظلّ سيفي. لكن هناك أيضاً أطياف للأشجار والكائنات الحية. أم لعلك تريد أن تجرّد الكرة الأرضية كلها فتعرّيها مما عليها من أشجار وكل ما هو حي لمجرّد رغبتك الفنطازية في الاستمتاع بعالمٍ عارٍ؟ أنت غبي.

- لن أجادلك أيها السفسطائي العتيق، - أجاب متّى اللاوي.

- لا يمكنك مجادلتي، وذلك للسبب الذي ذكرته: أنت غبي - أجاب فولند ثم سأل: - هيا أوجز ولا تتعبني، ما سبب قدومك؟

- هو أرسلني.

- وبِمَ أمرك أن تبلغني أيها العبد؟

- أنا لست عبده، بل تلميذه، - ردّ متّى اللاوي وهو يتميّز غيظاً.

- أنا وأنت نتكلّم لغتين مختلفتين كعهدنا دائماً، لكن هذا لا يغيّر الأمور التي نتحدّث عنها، وإذاً؟ - ردّ فولند.

- لقد قرأ رواية المعلّم، ويسألك أن تأخذ المعلّم معك وأن

تكافئه بالسكينة. فهل يصعب عليك القيام بذلك يا روح الشّر؟ - قال متّى اللاوي.

- لا يصعب عليّ شيء، وأنتَ تعرف هذا جيداً. - أجاب فولند. صمت قليلاً ثم أضاف: - لكن لمَ لا تأخذانه إليكما، إلى النور؟

- إنه لم يستحق النور، بل السكينة، - قال اللاوي بصوتٍ حزين.

- أبلغه أنني سأفعل ما طلب، - أجاب فولند ثم ومضت عينه وأردف يقول: - والآن غادرني في الحال.

- إنه يطلب أيضاً أن تأخذوا معكم تلك التي أحبته وعانت بسببه، - كانت هذه المرة الأولى التي يخاطب فيها اللاوي فولند متوسّلاً.

- كأننا ما كنّا لنحزر ذلك لولاك. انصرف.

بعد ذلك اختفى متّى اللاوي، أما فولند فقد استدعى أزازيلو وأمره قائلاً:

- طر إليه ورتبّ كل شيء.

غادر أزازيلو «الترّاس» وبقي فولند وحيداً لكن وحدته لم تدم طويلاً، فقد سمع وقع أقدام تخطو على بلاط «التّراس» وأصوات مرحة، ومثل أمامه كوروفييف وبيغيموت.

لكن القط السمين لم يكن يحمل الوابور الآن بل كان محمّلاً بأشياء أخرى، فكان يتأبّط لوحةً صغيرة تمثّل منظراً طبيعياً ذات إطار ذهبي، ويضع على ذراعه مئزراً نصف محترق من مآزر الطباخين، وبيده الأخرى سمكة سلمون كاملة بحراشفها وذيلها. كانت تنبعث من كورفييف وبيغيموت رائحة حريق، وكانت سحنة بيغيموت مغطاة بالسخام ونصف قبعته محترق.

- «سالوت ميسّير»، - هتف الثنائي الذي لا يكلّ ولا يملّ ولوّح بيغيموت بسمكة السلمون.

- يا سلام! - قال فولند.

- تصوّر يا سيدي، اعتبروني نهّاباً! - صاح بيغيموت بحماسة وفرح.

- بالنظر إلى الأشياء التي جلبتها معك فأنت نهّاب فعلاً. - أجاب فولند وهو ينظر إلى اللوحة.

- أتصدّق يا سيدي. . . - بدأ بيغيموت يقول بصفاء نيّة.

- لا، لا أصدّق، - ردّ فولند بإيجاز.

- أقسم يا سيدي أنني قمت بمحاولات بطولية لإنقاذ كل ما يمكن إنقاذه، لكن هذا كل ما تمكّنت من إنقاذه.

- الأفضل أن تخبرني ما الذي سبّب احتراق بيت غريبوييدوف؟ - سأل فولند.

بسط كلاهما، كوروفييف وبيغيموت، أيديهما ورفعا عيونهما إلى السماء، وصاح بيغيموت:

- لست أفهم! كنا جالسين في دعة وبهدوء تام، وبينما كنا نتناول المقبّلات. . .

- وفجأةً، طراخ طراخ! - استلم كوروفييف دفة الحديث، - بدأ إطلاق النار! طار صوابنا من الخوف فانطلقنا أنا وبيغيموت نركض إلى البولفار والمطاردون في إثرنا، فاندفعنا إلى شارع يتميريازيف!

هنا انخرط بيغيموت في الحديث:

- لكن الشعور بالواجب تغلّب على خوفنا المخزي فعدنا أدراجنا!

- آه، عدتم؟ إذ ذاك احترق المبنى عن بكرة أبيه، - قال فولند.

فأكّد كوروفييف بحزن:

- عن بكرة أبيه بكل معنى الكلمة كما تفضلّت وعبّرت يا سيدي. لم يبقَ سوى الجمر.

وراح بيغيموت يروي:

- اندفعت إلى قاعة الاجتماعات، تلك التي فيها أعمدة يا سيدي، بنيّة انتشال أي شيء ذي قيمة. آخ يا سيدي، أما زوجتي، لو كانت لي زوجة، لكانت تعرّضت لخطر الترمّل عشرين مرةّ! لكن لحسن الحظّ أنني غير متزوج، وأقول لك بصراحة: أنا سعيد لكوني لست متزوجاً. آخ يا سيدي، وهل يمكن استبدال حرية العزوبة بنير الزواج الثقيل!

- ها قد بدأ الهراء مرة أخرى، - علّق فولند.

- سمعت لكنني سأتابع،- ردّ القط، - أي نعم، هاك هذه اللوحة. لم يكن بالإمكان إخراج أي شيء آخر من القاعة، فاللهب كان يسفع وجهي، فركضت إلى المستودع وأنقذت سمكة سلمون، ثم ركضت إلى المطبخ وأنقذت المئزر. أعتبر، يا سيدي، أنني فعلت كل ما استطعت ولست أفهم ما تفسير الريبة المرتسمة على وجهك.

- وماذا كان كوروفييف يفعل بينما كنت تنهب؟ - سأل فولند.

- كنت أساعد رجال الإطفاء يا سيدي، - أجاب كوروفييف مشيراً إلى بنطاله الممزق.

- آه، إن كان الأمر كذلك فينبغي تشييد مبنى جديد.

- سيُشاد يا سيدي، وإني أجرؤ على تأكيد ذلك لك، - أجاب كورفييف.

- حسناً، يبقى أن نتمنى أن يكون أفضل من السابق، - عقّب فولند.

- هذا ما سيكون يا سيدي، - قال كوروفييف.

- أرجو أن تصدّقني، فأنا نبي حقيقي، - أضاف القط.

وقال كوروفييف كمن يقدّم تقريراً:

- على أي حال، ها قد حضرنا يا سيدي وننتظر أوامرك.

نهض فولند عن كرسيه واتجه نحو الدرابزين وظل وحده لفترة طويلة، صامتاً ومولياً حاشيته ظهره ويرنو إلى البعيد، ثم ابتعد عن الحافة وارتمى على كرسيّه ثانيةً وقال:

- لن تكون هناك أي أوامر، فقد أنجزتم كل ما كان في وسعكم ولم أعد بحاجة لخدماتكم في الوقت الراهن. يمكنكما أن ترتاحا. ستهبّ عاصفة قريباً، العاصفة الأخيرة، ولسوف ننجز كل ما ينبغي أن يُنجز، ثم نرحل من هنا.

- جيد جداً يا سيّدي، - أجاب المهرّجان وتواريا في مكانٍ ما وراء البرج الدائري القائم في وسط «الترّاس».

كانت العاصفة، التي تكلم عنها فولند، قد بدأت تتجمّع في الأفق. فقد ارتفعت غيمة سوداء في الغرب وحجبت نصف الشمس، وبعد ذلك حجبتها كلّها. أصبح المكان على «الترّاس» أكثر برودةً، وبعد قليل خيّم الظلام.

غطّت هذه الظلمة القادمة من الغرب المدينة الكبيرة، واختفت الجسور والقصور. اختفى كل شيء كأنما لم يوجد من قبل قط، وعبر السماء من أقصاها إلى أقصاها خيط ناري، ثمّ رجّت ضربة المدينة. تكررت الضربة ثانيةً وبدأت العاصفة، ولم يعد فولند مرئياً من العتمة.

الفصل الثلاثون

آن الأوان! آن الأوان!

قالت مرغريتا:

- أتعلم، بعد أن غفوت ليلة أمس قرأت عن العتمة التي قدمت من البحر الأبيض المتوسط... وهذه التماثيل، آخ، التماثيل الذهبية. إنها، لا أدري لماذا، لا تمنحني الراحة طوال الوقت. يبدو أن المطر سينهمر الآن. هل تشعر كيف بدأ الجو يبرد؟

- هذا كله جيد ولطيف، - أجاب المعلّم وهو يدخّن ويبدّد الدّخان بيده، - وهذه التماثيل، الله معها، لكن ما يحدث لاحقاً غير مفهوم على الإطلاق.

كان هذا الحديث يجري عند الغروب، تماماً في اللحظة التي ظهر فيها متّى اللاوي عند فولند على «التّراس». كانت نافذة القبو الصغيرة مفتوحة، ولو أنّ أحدهم أطلّ منها برأسه لأدهشه مدى غرابة مظهر المعلم ومرغريتا.

فمرغريتا العارية تماماً كان لا يغطيها سوى عباءة سوداء، أما المعلم فكان في ملابس المستشفى. وسبب ذلك أن مرغريتا لم يكن لديها ما ترتديه، فقد ظلّت أغراضها كلّها في الدار، ورغم أن الدار لم تكن بعيدة فمن النافل القول بعدم إمكانية الذهاب إلى هناك وجلب الأغراض. أما المعلم، الذي كانت بذلاته كلها لا تزال في الخزانة

وكأنه لم يغادر إلى أي مكان، فلم تكن لديه رغبة في ارتداء ثيابه، باسطاً أمام مرغريتا فكرة أن هراءً مطلقاً ما على وشك الحدوث. والحقيقة أنه كان حليق الذقن، وذلك لأول مرة منذ تلك الليلة الخريفية (في المصحّ كانوا يحلقون لحيته بماكنة حلاقة).

الغرفة أيضاً كان منظرها غريباً وكان من العسير جداً تمييز شيء في فوضاها. فقد كانت هناك مخطوطات على السجادة، وعلى الديوان أيضاً، وكان هناك كتيّب مقلوب على الأريكة بإهمال، وكان طعام الغداء يغطّي طاولة مستديرة، وكانت تنتصب بضع قناني شراب كحولي وسط «المازة». أما من أين جاءت كل هذه المأكولات والمشروبات فكان ذلك مجهولاً لمرغريتا وللمعلم كذلك، فقد وجدا هذا كله على الطاولة حين أفاقا من النوم.

بنومهما حتى غروب شمس السبت شعر المعلم وصديقته أنهما استعادا قواهما تماماً، ولم يذكّرهما بمغامرات الأمس سوى شيء واحد: كلاهما كان يشعر بألم خفيف في صدغه الأيسر. أما من الناحية النفسية فقد حدثت تغييرات كبيرة جداً لكليهما، وكان كل من كان بمقدوره الاستماع إلى الحديث الدائر في الشقة القبو سيتأكد من ذلك. لكن لم يكن بإمكان أحد استراق السمع، فميزة الفناء أنه كان خالياً على الدوام، وكانت خضرة أشجار الزيزفون والصفصاف تزداد كثافةً يوماً بعد يوم وتفوح برائحة الربيع خارج النافذة، وكان النسيم يحملها إلى القبو.

- اللعنة، شيء يجنّن،- صاح المعلم فجأةً، وأطفأ عقب سيجارته في المنفضة وعصر رأسه بيديه،- لا، اسمعي، أنت إنسانه ذكية ولم تجنّي يوماً. أأنت متأكّدة حقاً من أننا كنا عند الشيطان أمس؟

- متأكّدة تماماً، - أجابت مرغريتا.

- طبعاً، طبعاً، واضح أننا مجنونان بدلاً من مجنون واحد! الزوج والزوجة. - علّق المعلم بسخرية، ثم رفع يديه إلى السماء وصرخ: - لا، الشيطان يعلم ما هذا، الشيطان، الشيطان، الشيطان!

بدلاً من الجواب ارتمت مرغريتا على الديوان وراحت تقهقه وهي ترفس بقدميها الحافيتين ثم هتفت:

- آه، لم أعد أحتمل! آه، لم أعد أحتمل! لو أنك ترى ماذا تشبه!

بعد أن شبعت من الضحك، وبينما كان المعلّم يرفع لباسه الداخلي العائد للمستشفى، عادت مرغريتا جديةً وشرعت تقول:

- لقد قلت الحقيقة الآن من دون قصد، فالشيطان يعلم هذا، والشيطان سيرتّب كل شيء، صدقني!- ولمعت عيناها فجأةً ووثبت من مكانها وراحت ترقص وشرعت تصيح: كم أنا سعيدة، كم أنا سعيدة، كم أنا سعيدة أنني عقدت صفقة معه! أوه، الشيطان، الشيطان! سيتوجب عليك العيش مع جنية يا عزيزي.- وارتمت على المعلم فطوقت عنقه وراحت تقبّل شفتيه وأنفه ووجنتيه. وتواثبت خصلات شعرها الأسود غير الممشّط على المعلم وتوهّج خدّاه وجبينه بتأثير قبلاتها.

- وهل صرتِ تشبهين الجنّيات بالفعل.

- لست أنفي ذلك، فأنا جنّية وسعيدة جداً بذلك! - أجابت مرغريتا.

- حسناً، - أجاب المعلّم،- جنيّة، ليكن. ممتاز ورائع جداً! هذا يعني أنني تمّ اختطافي من المصحّ! هذا أيضاً لطيف جداً. وأعادوني إلى هنا، لنفترض هذا أيضاً... ولنفترض أنهم لن يتعرّضوا

لنا، لكن قولي لي بحق ما هو مقدّس، بمَ وكيف سنعيش؟ بقولي هذا إنّما أفكّر فيكِ، صدقيني.

في هذه اللحظة لاحت في النافذة الصغيرة جزمة مدببة الرأس والقسم السفلي من بنطال معرّق. ثم انثنى البنطال من عند الركبة وحجبت مؤخرة مكتنزة ضوء النهار، وسأل صوت من مكانٍ ما أعلى البنطال وخارج النافذة.

- هل أنت في البيت يا ألويزي؟

- ها قد بدأنا، - قال المعلّم.

- ألويزي؟ - سألت مرغريتا وهي تدنو من النافذة، - لقد اعتقلوه أمس. من يسأل عنه؟ ما اسمك؟

وفي الحال اختفت الركبتان والمؤخرة، وسُمع باب الحديقة يصطفق، وعاد كل شيء إلى سابق عهده. ارتمت مرغريتا على الديوان وراحت تقهقه حتى انهمرت الدموع من عينيها. لكن تعابير وجهها تبدّلت بقوة حين هدأت، وأخذت تتكلم بجدية، وأثناء كلامها انسلّت عن الديوان إلى الأرض وحبت نحو ركبتي المعلّم وقالت وهي تحدّق في عينيه وتمسح على رأسه:

- كم عانيت، كم عانيت يا حبيبي المسكين! لا يعرف بهذا سواي. انظر، لقد ظهرت شعرات شائبة في شعرك وهناك غضون أبدية عند شفتيك. يا وحيدي، يا عزيزي، لا تفكّر في شيء، فقد توجّب عليك التفكير، والآن أنا سأفكّر عنكَ! وإني أؤكد لك، أؤكد أن كل شيء سيكون رائعاً بشكل مبهر.

- لستُ أخشى شيئاً يا مارغو، - أجابها المعلم فجأةً ورفع رأسه فبدا لها كما كان عندما كتب عمّا لم يره، لكنه ربما عرف عنه. -

ولست خائفاً لأنني قد خبرت كل شيء. لقد خوّفوني كثيراً ولم يعودوا قادرين عى تخويفي بأي شيء. لكنني أشفق عليك، هذه هي المسألة، وهذا هو سبب إلحاحي. ثوبي إلى رشدك! لمَ عليكِ تحطيم حياتك مع شخص مريض وفقير؟ عودي إلى بيتك! إني أشفق عليكِ، ولهذا أقول هذا.

همست مرغريتا وهي تهز رأسها الأشعث الشعر:

- آه منك، يا لك من إنسان بائس قليل الإيمان. بسببك بقيت أرتجف عاريةً طوال الليل. لقد فقدت طبيعتي واستبدلتها بأخرى جديدة، وجلست شهوراً عديدة في غرفةٍ صغيرة معتمة لا أفكّر سوى في شيء واحد؛ في العاصفة فوق أورشليم، وبكيت حتى جفّت دموعي، وها أنت الآن، وقد انهمرت علينا السعادة، تطردني! حسناً، سأغادر، سأغادر، لكن اعلم أنّك إنسان قاسٍ! لقد جعلوك فارغاً من الداخل!

تسامت رقّةٌ حزينة إلى قلب المعلم وشرع يبكي لسببٍ ما وقد دفن وجهه في شعر مرغريتا. أما مرغريتا فقد ظلت تهمس له باكيةً وأصابعها تداعب صدغي المعلّم:

- نعم، الشعرات، الشعرات، رأسي يتغطى بالشيب أمام عيني، آه رأسي، رأسي الذي عانى كثيراً. انظر إلى عينيك كيف صارتا! إنهما خاويتان كصحراء... أما كتفاك، كتفاك المثقلتان... لقد شوّهوك - كان كلام مرغريتا يغدو مفككاً، وكانت تنتفض من البكاء.

عندها مسح المعلم عينيه وأنهض مرغريتا عن الأرض، وهو نفسه نهض وقال في حزم:

- كفى! لقد أخجلتني. لن أسمح لنفسي أبداً أن يعتورها الضعف

ولن أعود إلى هذا الموضوع ثانيةً، اطمئني. أعرف أن كلانا ضحية للمرض النفسي الذي قد أكون أنا من نقله إليك. . . لكن لا بأس، سنحتمله معاً.

قرّبت مرغريتا شفتيها إلى أذن المعلّم وهمست:

- أقسم لك بحياتي، أقسم بابن المنجّم الذي تبيّنت سرّه، أن كلّ شيء سيكون على ما يرام.

- حسناً، حسناً، - ردّ المعلّم ثمّ أردف وهو يتضاحك: - طبعاً عندما يُنهب الناس كلياً، كما جرى لنا أنا وأنت، حينها يبحثون عن الخلاص لدى القوى الغيبية! وليكن، أنا موافق على البحث عنه هناك.

- أرأيت، أرأيت، إنك الآن الشخص السابق، أنت تسخر، - أجابت مرغريتا، - تباً لك ولكلامك المثقّف. غيبي أو لا غيبي: أليس الأمر ذاته؟ أريد أن آكل.

وسحبت المعلم من يده إلى الطاولة، فقال المعلم وقد هدأ تماماً:

- أخشى أن يغور هذا الطعام في الأرض أو يطير من النافذة.

- لن يطير!

وفي هذه اللحظة تماماً سُمع في النافذة صوتٌ أخنّ يقول:

- السلام عليكم.

ارتعد المعلّم، أما مرغريتا التي باتت معتادة على الخوارق فقد صاحت:

- إنه أزازيلو! آه، كم هذا لطيف، كم هذا رائع! - وهمست للمعلم: - أرأيت، لن يتخلّوا عنا! - واندفعت تفتح الباب.

- ضعي عليكِ شيئاً على الأقلّ، - صاح المعلم في إثرها.

- تباً للملابس، - أجابت وكانت قد صارت في الممر الصغير.

وها هو أزازيلو ينحني ويسلّم على المعلم وعينه الحولاء تومض له. أما مرغريتا فهتفت تقول:

- آه كم أنا سعيدة! لم يسبق لي أن كنت بهذه السعادة في حياتي! لكن اعذرني لكوني عارية يا أزازيلو!

رجاها أزازيلو ألاّ تقلق مؤكداً أنه لم يرَ نساء عاريات وحسب بل ونساء مسلوخات الجلد تماماً، وجلس إلى الطاولة بسرور بعد أن وضع في الركن عند مدفأة الحطب صرّة ما ملفوفة بديباج داكن اللون.

صبّت مرغريتا لأزازيلو «كونياك» فشربه بتلذذ. كان المعلم يقرص رسغ يده اليسرى بين حينٍ وآخر دون أن يرفع عينيه عن أزازيلو، لكن هذا القرص لم ينفعه في شيء. فأزازيلو لم يتلاشَ في الهواء، ولم تكن هناك ضرورة لذلك والحق يقال. فلم يكن في هذا الشخص الأصهب القصير القامة ما هو مخيف، اللهم سوى عينه ذات الغشاوة، لكن هذا يحدث حتى دون أي سحر، ولولا أن ثوبه غير عادي تماماً - هو نوع من جلباب أو عباءة، - وهذا أيضاً، إذا ما تمعنّا في الأمر جيداً، يصادفه المرء. كما أنه شرب «الكونياك» أيضاً باحتراف ككل الناس الطيبين، عبّاً ودون أن «يتمزمز». من هذا الكونياك نفسه بدأ رأسه يصطخب وراح يقول لنفسه:

«لا، مرغريتا محقة! طبعاً يجلس أمامي رسول الشيطان. فأنا نفسي حتى ليلة أمس الأول كنت أبرهن لإيفان أن من التقاه في بتريرشيه ليس سوى الشيطان بشحمه ولحمه، وها أنا الآن تفزعني لسببٍ ما هذه الفكرة وأخذت أثرثر بكلامٍ ما عن المنوّمين المغناطيسيين والهلوسات. أي منوّمين هنا بحق الشيطان!».

وراح يتأمل أزازيلو وأيقن أن في عينيه شيئاً ما مُلِحّاً، فكرة ما

ينتظر اللحظة المناسبة للإفصاح عنها. قال المعلّم في سرّه: «إنّه لم يأتِ لمجرد الزيارة بل حضر في مهمةٍ ما».

لـم تـخنه قوة ملاحظته. فبعد أن شرب أزازيلو قدح الكونياك الثالث، الذي لم يؤثر فيه أيّما تأثير، قال الزائر:

- يا له من قبو مريح، ليأخذني الشيطان! لكن هناك سؤال واحد يراودني: ماذا يمكن للمرء أن يفعل فيه، في هذا القبو الصغير؟

- هذا ما كنت أتحدث عنه، - أجاب المعلم متضاحكاً.

- لماذا تثير قلقي يا أزازيلو؟ - سألت مرغريتا، سنتدبّر أمرنا كيفما اتفق.

- ما بكِ، ما بكِ، - صاح أزازيلو، - لم يخطر لي مجرد خاطر بأن أزعجك. أنا نفسي أقول إنكما ستتدبران أمركما كيفما اتفق. نعم، كدت أنسى، السيد يقرئكما السلام وأمرني أن أقول لكما إنه يدعوكما إلى نزهة صغيرة برفقته، طبعاً إن كنتما ترغبان في ذلك، فما قولكما؟

لكزت مرغريتا المعلم بقدمها تحت الطاولة.

- بكل سرور، - أجاب المعلم وهو يتفحص أزازيلو الذي تابع يقول:

- نأمل أن مرغريتا نيكولاييفنا أيضاً لن ترفض ذلك!

- طبعاً لن أرفض، - قالت مرغريتا، ومرة أخرى لمست قدمها قدم المعلم.

- رائع! - هتف أزازيلو، - هذا ما أحب. واحد، اثنان، وكل شيء جاهز! ليس كما حدث آنذاك في حديقة ألكسندروفكسي.

- آه، لا تـذكّرنـي يـا أزازيـلوّ، لـقـد كـنـت غـبـيـة آنـذاك. لـكـن بالمناسبة، لا يجوز لومي بقوة على ذلك، فالمرء لا يلتقي قوة شريرة كل يوم!

- بالتأكيد، - أكّد أزازيلو على كلامها، - لكان أمراً رائعاً لو أنه حدث كل يوم!

- أنا نفسي تعجبني السرعة، - قالت مرغريتا مستثارة، - تعجبني السرعة والعري. كما من مسدس الماوزر. . . واحد! آه ما أبرعه في التصويب، - صاحت مرغريتا موجّهةً كلامها للمعلم، - ورقة السبعة تحت المخدة، وأي نقطة. . . - بدأت مرغريتا تثمل ما جعل عيناها تتقدان.

- آخ نسيت، - صاح أزازيلو وهو يلطم جبينه، - لقد أنهكت كلياً. فالمعلم قد بعث لك بهدية، - هنا كان يكلّم المعلّم، - زجاجة نبيذ. أرجو أن تلاحظ أنه نفس النبيذ الذي كان يشربه حاكم اليهودية. نبيذ ثاليرن.

من نافل القول إن شيئاً نادراً كهذا قد أثار اهتماماً بالغاً سواء من قبل مرغريتا أم المعلم. أخرج أزازيلو من قطعة الديباج الداكنة اللون دورقاً يغطّيه العفن كلياً. شمّوا النبيذ وصبّوه في كؤوس وأخذوا يرنون من خلال الضوء المتلاشي خارج النافذة قبيل العاصفة، ورأوا كيف يتخضّب كل شيء بلون الدم.

- في صحة فولند! - هتفت مرغريتا رافعةً كأسها.

قرّب ثلاثتهم شفاههم إلى كؤوسهم وجرع كلّ منهم جرعةً كبيرة. وعلى الفور بدأ ضوء ما قبل العاصفة يخبو في عينَي المعلم واحتبست أنفاسه وشعر أن نهايته قد حانت. ورأى أيضاً كيف أن مرغريتا، وقد علت وجهها صفرة الموت، تمدّ يدها نحوه في وهن وتلقي رأسها على الطاولة، ثم انهارت على الأرض.

لحق المعلّم أن يصرخ: «قاتل!»، وأراد أن يختطف السكين عن الطاولة ليطعن به أزازيلو لكن يده انزلقت عن غطاء الطاولة في عجز،

وغشي السواد كل ما يحيط بالمعلّم في القبو ثم اختفى تماماً. هوى المعلّم على ظهره فخدش صدغه بزاوية طاولة المكتب أثناء سقوطه.

حين همد المسمَّمان شرع أزازيلو في العمل، وكان أول ما قام به أنه انطلق طائراً عبر النافذة، وخلال لحظات كان في الدار التي كانت مرغريتا نيكولايفنا تقطنها. أراد أزازيلو، الدقيق والمنظَّم دائماً، أن يتأكّد من أنّ كلّ شيء قد تمّ كما ينبغي، وتبيّن أن كل شيء كما ينبغي تماماً. رأى أزازيلو امرأة متجهمة الوجه، كانت تنتظر عودة زوجها، تخرج من غرفة نومها، فامتقع وجهها فجأةً وأمسكت بموضع قلبها ثم سقطت على الأرض في غرفة الجلوس قبل بلوغها المكتب وهي تصيح في عجز:

- ناتاشا! أي شخص... إليّ!...

- كل شيء على ما يرام، - قال أزازيلو، وفي لحظة كان يقف قرب العاشقين الصريعين. كانت مرغريتا مستلقية على وجهها المدفون في السجادة، فقلبها أزازيلو على ظهرها بيديه الفولاذيتين كدمية وراح يتأملها. أخذ وجه مرغريتا المسمَّمة يتغير على مرأى منه؛ فحتى في الظلام الهابط مع العاصفة لوحظ كيف يختفي حوَل عينيها الشيطاني المؤقت وقسوة وجموح ملامحها. أشرق وجه الميتة ورقّ أخيراً، ولم تعد تكشيرتها وحشية وإنما ببساطة تكشيرة أنثوية معذَّبة. حينئذٍ باعد أزازيلو بين أسنانها البيض وسكب في فمها بضع قطرات من نفس النبيذ الذي سمّمها به، فشهقت مرغريتا وأخذت تنهض دون مساعدة أزازيلو. جلست وسألت في وهن:

- لمَ يا أزازيلو لمَ؟ ماذا فعلت بي؟

وعندما رأت المعلّم الممدّد على الأرض ارتعدت وهمست:

- لم أكن أتوقّع ذلك... قاتل!

- إي لا لا، سينهض الآن. آخ، لماذا أنتِ عصبية هكذا! - أجاب أزازيلو.

صدّقته مرغريتا فوراً لشدّة ما كان صوت الجنّي الأصهب مقنعاً، فوثبت من مكانها بقوة وحيوية وساعدته على إسقاء المعلم النبيذ. عندما فتح المعلّم عينيه تلفّت حوله في تجهّم وحقد وكرّر كلمته الأخيرة:

- قاتل...

- آخ، الإهانة هي المكافأة الوحيدة على عمل الخير، - أجاب أزازيلو، - هل أنتما أعميان؟ هيا أبصرا بسرعة.

هنا نهض المعلّم وراح ينظر حوله بعينين حيتين مشرقتين وسأل:

- وما معنى هذا الشيء الجديد؟

- معناه أنه آن الأوان، - أجاب أزازيلو، - فقد بدأت العاصفة ترعد، أتسمعان؟ الظلام يحلّ. الخيول تضرب الأرض بحوافرها، والحديقة الصغيرة ترتجّ. ودّعا القبو، ودّعاه بسرعة.

فقال المعلّم وهو يتلفّت حوله:

- آ، فهمت. لقد قتلتنا. نحن ميتان. آه ما أذكى هذا! كم جاء في وقته! الآن فهمت كل شيء.

- آه، أرجوك، - أجاب أزازيلو، - ألأنت من يقول هذا الكلام؟ فصديقتك تدعوك «المعلّم»، وأنت شخص مفكِّر، فكيف يمكن أن تكون ميتاً؟ ألكي تعتبر نفسك حياً لا بدّ أن تقبع في قبو وعليك قميص وتلبس «كلسون» المستشفى؟ هذا مضحك!

- لقد فهمت كل شيء، - صاح المعلّم، - لا تكمل! أنت محق وألف محق.

- فولند العظيم، فولند العظيم! - أخذت مرغريتا تردّد، - إنه

أفضل مني بكثير. - ثم صاحت تقول للمعلّم: - لكن الرواية، لا تنسَ الرواية، خذها معك أينما طرت.

- لا داعي لذلك، فأنا أحفظها عن ظهر قلب، - أجاب المعلّم.

سألت مرغريتا حبيبها وهي تلتصق به وتمسح الدم عن صدغه:

- لكن ألن تنسى... ألن تنسى ولا كلمة منها؟

- لا تقلقي، لن أنسى شيئاً أبداً بعد الآن، - أجاب.

- النار إذاً! - صاح أزازيلو، - النار التي بدأ منها كل شيء، وبها ننهي كل شيء.

- نار! - صرخت مرغريتا مرعوبة.

اصطفقت النافذة في القبو، وأزاحت الريح الستارة جانباً بقوة، وأخذ الرعد يقصف في السماء قصفات قصيرة مرحة. دسّ أزازيلو مخالبه في الموقد وسحب جمرةً يتصاعد منها الدخان وأضرم النار في غطاء الطاولة، ثم أضرم النار في رزمة صحف قديمة على الديوان، وأتبعها بالمخطوط وستارة النافذة. تناول المعلّم، وقد انتشى بانطلاقته القادمة، كتاباً عن الرفّ وألقى به على الطاولة وراح يمزّق صفحاته ويكوّمها على غطاء الطاولة المحترق فتراقصت النار في الكتاب.

- احترقي، احترقي أيتها الحياة السابقة.

- احترقي أيتها المعاناة! - صاحت مرغريتا.

حين تصاعدت أعمدة النار الحمراء في الغرفة هرع ثلاثتهم خارجين من الباب مع الدخان وأخذوا يرتقون الدرج الحجري حتى صاروا في الفناء. وكان أول ما رأوه طبّاخة صاحب الدار جالسةً على الأرض وقد تناثرت حولها حبّات بطاطا وبضع حزم من البصل. كانت حالة الطبّاخة مفهومة. فقرب العنبر كانت ثلاثة جياد تحمحم وتنتفض

وتفجّر نافورات ماء من الأرض بحوافرها. تأوّهت الطبّاخة وأرادت رسم علامة الصليب لكن أزازيلو صرخ فيها من فوق السرج متوعّداً: «سأقطع يدك!» وصفّر فأقلعت الجياد محلّقةً، محطّمةً أغصان أشجار الزيزفون في طريقها، وغاصت في غيمة سوداء واطئة. وعلى الفور تصاعد الدخان من كوّة القبو، ومن الأسفل تناهت صرخة الطبّاخة ضعيفةً يائسة:

- حريق!...

كانت الخيول قد صارت فوق سطوح موسكو. صاح المعلّم مخاطباً أزازيلو الذي كان يخبّ في المقدمة:

- أريد أن أودّع المدينة...

غطّى الرعد على نهاية جملة المعلّم. أومأ أزازيلو برأسه وأطلق العنان لحصانه. كانت تندفع للقاء الطائرين غيمة لم تُهطل أمطارها بعد.

حلّقوا فوق البولفار ورأوا الناس وهم يتراكضون اتّقاءً للمطر، فأولى القطرات كانت قد بدأت تتساقط. وحلّقوا فوق دخان كان كل ما تبقّى من بيت غريبوييدوف، وطاروا فوق المدينة التي كان الظلام قد أرخى سدوله عليها، وكانت البروق تلمع فوق رؤوسهم. ثمّ حلّ الخَضار محل سطوح البيوت. حينذاك فقط أخذ المطر ينهمر مدراراً وحوّل الطائرين إلى ثلاث فقاعات ضخمة في الماء.

كان إحساس الطيران قد بات معروفاً لمرغريتا، أما للمعلّم فلا، ودُهش لسرعة بلوغهم غايتهم، أي عند من أراد توديعه، إذ لم يكن هناك من يودّعه سواه. فقد تعرّف وسط غشاوة المطر مبنى عيادة سترافينسكي والنهر والحرج على الضفة الأخرى الذي كان درسه جيداً. ثم حطّوا في دغل في سهلٍ منبسط غير بعيد عن العيادة.

صاح أزازيلو مكتّفاً يديه، تضيئه البروق تارةً ويغيّبه الغبش الرمادي تارةً أخرى:

- سأنتظركما هنا. ودّعاه، لكن بسرعة.

قفز المعلّم ومرغريتا عن سرجَي جواديهما وانطلقا عبر الحديقة وهما يظهران ويختفيان كطيفين مائيين. وبعد لحظة كان المعلّم يزيح، كسابق عهده، شبكة نافذة الغرفة رقم ١١٧، وتبعته مرغريتا. دخلا غرفة إيفان أثناء هدير الرعد وهزيمه، دون أن يراهما أو يلحظهما أحد، وتوقّف المعلّم عند سريره.

كان إيفانوشكا مستلقياً بلا حراك، كعهده آنذاك، عندما كان يراقب العاصفة في المنتجع للمرة الأولى، لكنه لم يكن يبكي كحاله آنذاك. وحين أنعم النظر في الطيف الأسود المتسلل إليه من الشرفة نهض قليلاً ومدّ يديه وقال بفرح:

- آ، هذا أنت! كنت أنتظرك طوال الوقت، كنت أنتظرك. وهاأنتذا يا جاري.

ردّاً على ذلك أجاب المعلّم:

- أنا هنا، لكني لا أستطيع أن أكون جارك بعد الآن للأسف، فأنا سأغادر إلى الأبد وجئت كي أودّعك وحسب.

- كنت أعرف، خمّنت ذلك، - قال إيفان بصوتٍ خافت ثم سأل: - هل قابلته؟

- أجل، - قال المعلّم، - وجئت أودّعك لأنك الشخص الذي كلّمتُه في الآونة الأخيرة.

أشرق وجه إيفانوشكا وقال:

- أحسنت أنك جئت إلى هنا، فأنا سأفي بوعدي ولن أكتب شعراً بعد الآن. يعنيني الآن أمر آخر، - وابتسم إيفانوشكا ورنا جانباً بعينين

ساهمتين، - أريد كتابة شيء آخر. هل تعلم أنني فهمت أشياء كثيرة أثناء مكوثي هنا.

اضطرب المعلّم جرّاء هذه الكلمات فجلس على طرف سرير إيفانوشكا وقال:

- وهذا جيد، هذا جيد. سوف تكتب تتمةً عنه!

لمعت عينا إيفانوشكا.

- ألن تفعل ذلك أنت؟ - وهنا أطرق إيفان وأردف شارداً: - آه نعم... ما هذا السؤال، - وحدّق مواربةً إلى الأرض في فزع.

- لا، - قال المعلم، وبدا صوته لإيفان غريباً ومكتوماً، - لن أكتب عنه بعد الآن. سأكون مشغولاً بأمرٍ آخر.

قطع صخب العاصفة صفيرٌ بعيد، فسأله المعلّم:

- أتسمع؟

- تصخب العاصفة...

- لا، إنهم ينادونني، آن أوان رحيلي، - أوضح المعلّم ونهض عن السرير.

- توقّف! كلمة أخرى أيضاً، - رجاه إيفان، - هل عثرت عليها؟ هل ظلّت مخلصةً لك؟

- ها هي ذي، - أجاب المعلّم وأشار إلى الجدار.

انفصلت مرغريتا الداكنة اللون عن الجدار الأبيض ودنت من السرير وأخذت تنظر إلى الشاب الراقد وفي عينيها حزن.

- مسكين، مسكين، - همست مرغريتا بصوت غير مسموع وانحنت فوق السرير.

- ما أجملها! - قال إيفان دون حسد لكن بحزن وبشيء من

الانبهار الهادئ، - أترى كيف انتهى كل شيء بشكل جيد عندك. أما عندي فالأمور ليست كذلك، - وهنا استغرق في التفكير وأردف ساهماً: - أو لعلها كذلك...

- إنها كذلك، كذلك، - همست مرغريتا وانحنت أكثر فوق السرير حتى كادت تلامسه، - ها أنا أقبّلك على جبينك وكل شيء سيكون كما ينبغي... صدّقني في هذا، فقد رأيت كل شيء وأعرف كل شيء.

أمسك الشاب الراقد عنق مرغريتا بيديه، وهي قبّلته.

- الوداع أيها التلميذ، - قال المعلم بصوت لا يكاد يُسمع وأخذ يتلاشى في الهواء. اختفى واختفت مرغريتا معه، وانغلقت شبكة النافذة.

استبدّ القلق بإيفان فجلس في السرير وراح يتلفّت حوله في فزع، بل أنَّ وشرع يكلّم نفسه، ثم نهض واقفاً. ازداد صخب العاصفة بقوة أكبر، ويبدو أنها أثارت في نفسه الاضطراب. أثار اضطرابه كذلك أنه التقط بسمعه المعتاد على الهدوء الدائم وقع خطوات مضطربة وأصوات مكتومة خلف الباب، فتوتر وارتعد ونادى:

- براسكوفيا فيودوروفنا!

كانت براسكوفيا فيودوروفنا قد دخلت الغرفة وتنظر إلى إيفانوشكا في تساؤل وقلق. قالت:

- ماذا؟ ماذا يحدث؟ أتقلقك العاصفة؟ لا بأس، لا بأس... سنساعدك في الحال. سأنادي الطبيب حالاً.

- لا يا براسكوفيا فيودوروفنا، لا داعي لاستدعاء الطبيب، - قال إيفانوشكا وهو ينظر بقلق، ليس إلى براسكوفيا فيودوروفنا بل إلى الجدار، - لم يحدث شيء غير عادي. إنني أفهم الآن، لا تخافي. -

ثم سألها بصفاء سريرة: - الأفضل أن تقولي لي، ماذا حدث الآن هناك في الغرفة المجاورة، في الغرفة ١١٨.

- في الغرفة ١١٨؟ - أعادت براسكوفيا فيودوروفنا طرح السؤال وأخذت عيناها تتقافزان، - لم يحدث شيء هناك.

لكن صوتها كان مزيّفاً، ولاحظ إيفان ذلك فوراً فقال:

- إيه يا براسكوفيا فيودوروفنا! أنت إنسانة صادقة جداً... هل تعتقدين أنني سأشرع في الهياج؟ لا يا براسكوفيا فيودوروفنا، هذا لن يحدث. الأحسن أن تصدقيني القول، فأنا أحس بكل ما يحدث خلف الجدار.

- لقد توفي جارك للتو، - همست براسكوفيا فيودوروفنا وقد عجزت عن مغالبة استقامتها وطيبتها، وحدّقت بهلع في إيفان الذي غشّاه ضوء البرق. لكن لم يحدث لإيفان ما يخيف، بل اكتفى برفع إصبعه بإشارة ذات دلالة وقال:

- كنت أعرف! وأؤكد لك يا براسكوفيا فيودوروفنا أنّ شخصاً آخر أيضاً قد توفي للتو في المدينة. بل وأعرف من يكون، - وهنا ابتسم إيفان ابتسامة غامضة، - إنها امرأة.

الفصل الواحد والثلاثون

على تلال فوربيوفي

تبددت العاصفة بلا أثر وامتد عبر سماء موسكو كلها، كقنطرة، قوس قزح متعدد الألوان وراح يشرب من نهر «موسكو». لاحت في الأعلى، فوق التلة، ثلاثة أشباح بين دغلين حرجيين. كان فولند وكوروفييف وبيغيموت يمتطون سروج ثلاثة جياد سود وهم يرنون إلى المدينة الممتدة وراء النهر، حيث تعكس آلاف النوافذ المتجهة نحو الغرب الشمس الساطعة، إلى أبراج دير «ديفيتشي».

تعالى صخب في الجو وحطّ أزازيلو مع المعلم ومرغريتا، اللذين كانا يطيران عند ذيل بردته السوداء، قرب المجموعة التي كانت في انتظارهم.

بعد شيءٍ من الصمت شرع فولند يقول:

- اضطررت إلى إزعاجكما يا مرغريتا نيكولاييفنا ويا معلّم، لكن لا تنقما علي، فلا أظن أنكما ستندمان على ذلك. - ثم توجّه بكلامه للمعلّم وحده قائلاً: - وإذاً، هيا ودّع المدينة، فقد آن أوان رحيلنا، - وأشار بيده بقفازها الأسود القُمعي الشكل إلى حيث تصهر شموسٌ لا تُحصى زجاج النوافذ وراء النهر، وحيث يجثم على هذه الشموس ضباب ودخان وبخار المدينة المحمّاة طوال النهار.

قفز المعلّم عن السرج وعدا مبتعداً عن الآخرين إلى جُرف التلة،

وعباءته السوداء تنسحب على الأرض، وراح يرنو إلى المدينة. في اللحظات الأولى تسلل إلى قلبه حزنٌ موجع، لكن سرعان ما حلّ محله قلقٌ لذيذ كاضطراب غجريٍّ جوّال.

- إلى الأبد! ينبغي أن أستوعب هذا، - همس المعلم وتلمّظ بشفتيه الجافتين المشققتين، وأخذ ينصت ويتبيّن بدقة ما يعتمل في صدره. تحوّل قلقه، كما بدا له، إلى شعورٍ بانزعاجٍ مرير، لكن هذا الشعور لم يستمر طويلاً، فقد اختفى ولسببٍ ما حلّت محله لامبالاة فخورة، وهذه اللامبالاة كان مردّها إحساسه المسبق بالطمأنينة الدائمة.

كانت مجموعة الفرسان تنتظر المعلم في صمت وتنظر إلى طيفه الأسود الطويل وهو يؤدّي حركات ما، فتارةً يرفع رأسه كأنما يحاول إلقاء نظرة تشمل المدينة كلها إلى ما وراء تخومها، وتارةً يطأطئ برأسه كأنما يتفحّص العشب الذابل المُداس عند قدميه.

شعر بيغيموت بالضجر فقطع الصمت قائلاً:

- اسمح لي يا سيدي أن أُصفّر قبل انطلاقنا مودّعاً.

- قد تخيف السيدة. ثم لا تنسَ أنك قمت بما يكفي من أعمال قبيحة اليوم. - أجاب فولند.

ردّت مرغريتا التي كانت جالسة على السرج كالأمازونيات، وقد وضعت يديها على خاصرتها، وذيل ثوبها متدلٍّ إلى الأرض:

- آه لا، لا يا سيدي، اسمح له بذلك، دعه يصفر، فقد تملّكني الحزن قبل رحلتنا البعيدة. أليس صحيحاً، يا سيدي، أنه أمر طبيعي تماماً، حتى لو كان الإنسان يعلم أن السعادة تنتظره في نهاية هذا الطريق؟ فليضحكنا، فإني أخشى أن ينتهي الأمر بالدموع وأن يفسد كل شيء قبل رحيلنا.

أومأ فولند لبيغيموت فدبّ فيه النشاط وقفز عن سرج حصانه على

الأرض ووضع أصابعه في فمه ونفخ وجنتيه وصفر. دوّى الصفير في أذني مرغريتا، وشبّ جوادها على قائمتيه، وتساقطت الأغصان اليابسة من الأشجار في الدغل، وطار سرب كامل من الغربان والبلابل، وامتدّ عمود من الغبار إلى النهر، وشوهدت قبعات بعض ركاب مركب نهري كان يمرّ بمحاذاة المرسى وهي تتطاير وتسقط في الماء. جعل الصفير المعلّم يرتعد، لكنه لم يلتفت، وإنما زاد الاضطراب في إشاراته حيث رفع يده إلى السماء كأنما يتوعّد المدينة. التفت بيغيموت إلى من حوله بفخر واعتزاز.

علّق كوروفييف بتساهل واستعلاء:

- هذه صفرة، ولا أجادل في ذلك، صفرة فعلاً. لكن إذا حكمنا بلا محاباة فيمكن القول إنها صفرة متوسطة جداً.

- طبعاً، فأنا لست قائد جوقة كنيسة، - ردّ بيغيموت بوقار متأففاً وغمز مرغريتا فجأةً.

- حسناً، دعوني أجرّب على طريقتي القديمة حسبما أذكر، - قال كوروفييف وفرك يديه ونفخ على أصابعه.

- إيّاك، إيّاك، - علا صوت فولند الصارم من فوق حصانه، - بلا ألاعيب مؤذية!

- صدّقني يا سيدي، - ردّ كوروفييف ووضع يده على قلبه، - لمجرّد المزاح ليس إلاّ... - وفجأةً مطّ قامته إلى الأعلى وكأنه من المطاط، وشكّل من أصابع يده اليمنى شكلاً معقّداً، وفتل جسمه كلولب، وعلى حين غرّة حلّ انفتال جسمه وهو يصفر.

لم تسمع مرغريتا الصفير، لكنها رأته حين قذف بها مع حصانها الجامح مسافة عشرة ساجينات، وإلى جوارها انقلعت شجرة سنديان من جذورها، وتغطّت الأرض إلى النهر بالتشققات والصدوع، وقذف

الصفير بكتلة هائلة من الضفة مع المرسى والمطعم في النهر. فار الماء في النهر وارتفع عالياً، وانقذف المركب النهري برمّته مع ركابه الذين لم يلحق بهم أي أذى إلى ضفة النهر الأخرى، الخضراء والواطئة، وسقط عند قوائم حصان مرغريتا المحمحم طائر زاغ صرعه صفير فاغوت. أجفل هذا الصفير المعلم فأمسك برأسه وهرع عائداً إلى رفاقه الذين كانوا في انتظاره.

سأله فولند من فوق حصانه:

- وإذاً، هل سوّيت حساباتك كلها؟ هل تمّ الوداع؟

- نعم تمّ، - أجاب المعلّم، وبعد أن هدأ روعه حدّق في وجه فولند مباشرةً وبجرأة. وعندها تردّد فوق الجبال صوت فولند المخيف كأنه صوت بوق:

- هيا بنا! - ورافقه صفير بيغيموت الحاد وقهقهته.

اصطفّت الخيول فامتطاها الخيّالة وانطلقوا. أحسّت مرغريتا بحصانها الهائج يقضم اللجام ويشدّه. وكانت عباءة فولند ترفرف فوق رؤوس موكب الفرسان جميعاً، وحجب بعباءته هذه السماء الغاربة. وعندما انزاح هذا الغطاء الأسود جانباً للحظة استدارت مرغريتا، وهي تخبّ بحصانها، ورأت أنْ ليس فقط الأبراج الملونة، مع الطائرة التي كانت تحوم فوقها، قد اختفت هناك في الخلف، بل واختفت منذ فترة طويلة المدينة نفسها، فقد غارت في الأرض ولم تترك في مكانها سوى الضباب.

الفصل الثاني والثلاثون

الوداع والمأوى الأبدي

يا للهول، يا للهول! ما أشدّ كآبة الأرض في المساء! كم يحفل الضباب فوق المستنقعات بالأسرار! ذاك الذي تاه في هذا الضباب، وعانى كثيراً قبل الموت، ذاك الذي حلّق فوق هذه الأرض حاملاً على عاتقه عبئاً يفوق طاقته... ذاك يعرف هذا. هذا يعرفه المتعب وهو يفارق، بلا أسف، ضباب الأرض ومستنقعاتها وأنهارها، ويسلّم نفسه لأيدي الموت بقلبٍ راضٍ عارفاً أنّ الموت فقط «يريحه».

حتى الجياد السحرية السود أُنهكت وأبطأت من سرعتها، وأخذ الليل الذي لا مفرّ منه يدركها. حتى بيغيموت الذي لا يكلّ ولا يملّ، وقد شعر بالليل خلفه، هدأ وتشبّث بالسرج بمخالبه وراح يطير بصمت ورزانة وقد فرد ذيله. وبدأ الليل يرخي ملاءته السوداء على الغابات والمستنقعات، وأشعل في مكانٍ ما، بعيدٍ في الأسفل، أنواراً غريبة لم تعنِ الآن لا مرغريتا ولا المعلّم ولا تلزمهما. وأدرك الليل كوكبة الفرسان وانبثقت فوقهم نقط النجوم البيضاء متناثرةً هنا وهناك في السماء الكئيبة.

تكثّف الليل وأخذ يطير بمحاذاة الخيّالة، وحين أمسك بعباءاتهم ونزعها عن أكتافهم فضح الخدع. وعندما كانت مرغريتا، التي كانت تلفحها ريحٌ باردة، تفتح عينيها كانت ترى كيف تتغير هيئة كل

المندفعين إلى غايتهم. ولمّا بدأ البدر الأرجواني يخرج للقائهم من طرف الغابة تلاشت الخدع كلها، فقد سقطت الملابس السحرية المهلهلة وغرقت في الضباب.

من المشكوك فيه أن يتعرّف أحد الآن كوروفييف - فاغوت، الذي ادّعى أنه يعمل مترجماً لدى المستشار الغامض وغير المحتاج إلى أي مترجم، في شخص ذاك الذي كان يطير الآن إلى جانب فولند مباشرةً عن يمين صديقة المعلّم. فمكان ذاك الذي غادر تلال فوروبيوفي باسم كوروفييف - فاغوت في ملابس سيرك رثّة كان يرمح الآن بحصانه فارس بنفسجي غامق بوجهٍ مفرطٍ في التجهّم لا يعرف الابتسام أبداً وهو يصلصل بخفوت برسنٍ ذهبي. وكان يغرز ذقنه في صدره، لا ينظر إلى القمر ولا يكترث بالأرض تحته، بل كان، وهو يطير إلى جانب فولند، يفكّر في أمرٍ ما يخصّه.

سألت مرغريتا فولند مع صفير الريح بصوتٍ خافت:

- لماذا تغيّر على هذا النحو؟

التفت فولند إلى مرغريتا ولمعت عينه لمعاناً خافتاً وأجاب:

- لقد مزح هذا الفارس يوماً مزحة غير موفّقة. الجِناس في قصيدةٍ ألّفها، متكلماً على النور والظلام، لم يكن جيداً جداً، واضطر إلى الاسترسال في المزاح أكثر مما حسب. لكن هذه الليلة هي ليلة تسوية الحسابات، ولقد سدّد الفارس حسابه وأغلقه.

قطع الليل كذلك ذيل بيغيموت المنفوش ونزع عنه وبره ونثره نتفاً فوق المستنقعات، وذاك الذي كان قطّاً يسرّي عن أمير الظلام استحال الآن شاباً نحيلاً، جنّياً - وصيفاً، وأفضل مهرّج وُجد في العالم يوماً. كان هادئاً الآن ويطير بلا صوت، عارضاً وجهه الفتي للضوء المنسكب من القمر.

وكان أزازيلو يطير متطرّفاً عن الجميع وفولاذ درعه وخوذته يلمع. كان القمر قد غيّر ملامحه، حيث اختفى نابه الأخرق القبيح دون أثر، وتبيّن أن حَوَله كان مزيّفاً، فكلا عينيه كانتا متماثلتين، فارغتين وسوداوين، أما وجهه فكان أبيض بارداً. كان أزازيلو يطير الآن في هيئته الحقيقية، كجني صحراء لا ماء فيها... جنّي قاتل.

لم يكن بوسع مرغريتا رؤية نفسها، لكنها رأت جيداً كيف تغيّر المعلّم. فشعره كان يبدو أبيض الآن في ضوء القمر وانعقد في ضفيرة في الخلف، وكانت الضفيرة تطير بفعل الريح. وعندما كانت الريح تزيح العباءة عن رجلي المعلّم كانت مرغريتا ترى على جزمته العالية الساقين نجيمات المهمازين وهي تلمع تارةً ويخبو لمعانها تارةً أخرى. وكان المعلّم يطير دون أن يبعد نظره عن القمر، على غرار الجنّي الشاب، لكنه كان يبتسم له كشيءٍ يعرفه جيداً ويحبّه، وكان يغمغم بينه وبين نفسه بكلامٍ ما على جري العادة التي اكتسبها في الغرفة رقم ١١٨.

وأخيراً، كان فولند أيضاً يطير في هيئته الحقيقية. لم تستطع مرغريتا تحديد ممَّ صُنع زمام جواده، وفكّرت أنه ربما عبارة عن سلسلة من الأقمار، وأن الحصان نفسه ليس سوى كتلة من الظلام، وأنّ عُرف هذا الحصان غيمة سوداء، وأما مهمازا الفارس فبقع نجمية بيض.

طاروا على هذا النحو في صمت طويلاً إلى أن صار المكان نفسه يتغير في الأسفل. فقد غرقت الغابات الكثيبة في عتمة الأرض، وتبعتها خيوط الأنهار الكالحة، وظهرت في الأسفل جلاميد صخرية وأخذت تلمع، بينما اسودّت فيما بينها وديان سحيقة لا ينفذ إليها ضوء القمر.

هبط فولند بحصانه على قمة صخرية مستوية كئيبة، فحذا الفرسان حذوه وهم يسمعون كيف تسحق جيادهم الصوان والحجارة بنعالها. كان القمر يغمر المكان بضوءٍ أخضر ساطع، وسرعان ما تبيّنت مرغريتا في هذا المكان القفر أريكة حجرية يجلس عليها طيف بشري أبيض. لعلّ هذا الجالس كان أصمّ أو مستغرقاً جداً في التفكير، فهو لم يسمع كيف تهتزّ الأرض الصخرية تحت ثقل الجياد، وأخذ الفرسان يقتربون منه رويداً حتى لا يثيروا في نفسه الاضطراب.

ساعد القمر مرغريتا على الرؤية جيداً، فقد كان ينير المكان أفضل من أفضل مصباح كهربائي، ورأت أنّ الجالس، الذي تبيّن أنه أعمى، كان يفرك يديه بقلق ويحدّق في قرص القمر بعينيه العمياوين. وكانت مرغريتا ترى الآن كلباً ضخماً أسود اللون مرهف الأذنين يجثم بجوار الأريكة الحجرية الثقيلة التي تلمع بشرارات جرّاء ضوء القمر، وأنه، كصاحبه، يرنو إلى القمر بقلق.

كانت هناك قطع دورق مكسور متناثرة عند قدمي الجالس وبركة حمراء ضاربة إلى السواد لمّا تجفّ بعد.

أوقف الفرسان جيادهم وبدأ فولند الكلام مخاطباً المعلّم:

- لقد قرأوا روايتك وقالوا شيئاً واحداً فقط بخصوصها، وهو أنها، للأسف، غير منتهية. وهكذا بودّي أن أريك بطلك. منذ قرابة ألفي سنة وهو يجلس نائماً في هذه الأريكة وفي هذه الفسحة، لكن حين يكتمل البدر ينتابه الأرق كما ترى. وهو لا يعذّبه وحده فقط بل وحارسه الأمين أيضاً، كلبه. ولو كان صحيحاً أنّ الجبن هو أكبر الرذائل فغالباً لا ذنب للكلب في ذلك. فالشيء الوحيد الذي كان يخيف هذا الكلب هو العواصف الرعدية. لكن ما العمل، فالمحب يجب أن يشارك محبوبه قدره.

- ماذا يقول؟ - سألت مرغريتا وارتسمت على وجهها الهادئ تماماً سحابة من الشفقة.

دوّى صوت فولند:

- إنه يردّد نفس الكلام. يقول إنه حتى مع طلوع القمر لا راحة له، وإن منصبه منصب رديء. هذا ما يقوله دائماً حين لا يكون نائماً، وعندما ينام فهو يرى الحلم نفسه: درب قمري ويريد السير فيه والتحدث إلى السجين الناصري، لأنه، حسبما يؤكّد، لم يقل كل شيء آنذاك، يوم الرابع عشر من نيسان الربيعي الموغل في القدم ذاك. لكنه للأسف لا يتمكن من السير في هذا الدرب، ولا يزوره أحد. وعندها ماذا يمكنه أن يفعل، يضطر إلى التحدث بينه وبين نفسه. وبطبيعة الحال لا بدّ من شيء من التنويع، لذا ليس من النادر أن يضيف إلى كلامه عن القمر أنّ أبغض شيء إليه في العالم هو خلوده ومجده المنقطع النظير، ويؤكّد استعداده لاستبدال مصيره بمصير الصعلوك الشريد متّى اللاوي.

سألت مرغريتا:

- اثنا عشر ألف قمر لقاء قمرٍ واحد في زمنٍ ما، أليس هذا كثيراً؟

- أتعيدين قصة فريدا؟ - قال فولند - لكن لا تشغلي بالك هنا يا مرغريتا، فكل شيء سيتم كما يجب؛ فعلى هذا يقوم العالم.

- أخلوا سبيله، - صرخت مرغريتا فجأةً بصوتٍ حاد، كما صرخت عندما كانت جنّية، وجرّاء هذه الصرخة انهار حجرٌ عن الجبل وتدحرج على الحواف الناتئة إلى الوادي الذي لا قرار له صامّاً الجبال بدويّه. لكن لم يكن بمقدور مرغريتا تمييز ما إن كان هذا الدويّ هو دوي سقوط الحجر أم دوي ضحكة الشيطان. أيّاً كانت الحال، فقد ضحك فولند وهو ينظر إلى مرغريتا وقال:

- لا داعي للصراخ في الجبال فهو، في كل الأحوال، قد اعتاد الانهيارات، وصراخك لن يقلق راحته. ولستِ بحاجة للتوسّل من أجله يا مرغريتا، فقد سبق أن شفع له ذاك الذي يتطلّع هو للتحدث إليه، - وهنا التفت فولند مرة أخرى إلى المعلم وقال: - وإذاً، يمكنك الآن إنهاء روايتك بعبارة واحدة!

كأنما كان المعلم ينتظر ذلك حين كان يقف بلا حراك وينظر إلى الحاكم، فوضع يديه على فمه على شكل بوق وصرخ بحيث تردد صدى صراخه الجبال القفر الجرداء، قائلاً:

- أنت حرّ! حرّ! إنه في انتظارك!

حوّلت الجبال صوت المعلّم إلى رعد، وهذا الرعد دكّها دكّاً. فقد انهارت الجدران الصخرية الملعونة، ولم تبقَ إلاّ الفسحة الصغيرة التي تتوضّع فيها الأريكة الحجرية. وفوق الهاوية السوداء، التي هوت فيها الحجارة، أضاءت مدينة مترامية الأطراف تشرف عليها تماثيل متلألئة في حديقةٍ أينعت وازدادت بهاءً بعد عبور آلاف الأقمار في سمائها. وامتد إلى هذه الحديقة مباشرةً الدرب القمري الذي انتظره الحاكم طويلاً، وكان الكلب المرهف الأذنين أول من اندفع يعدو فيه. نهض الشخص ذو البردة البيضاء ذات البطانة الدموية عن الأريكة وصاح بكلامٍ ما بصوتٍ مبحوح. لم يكن بالإمكان معرفة ما إن كان يبكي أم يضحك، ولا ماذا يقول في صراخه. كل ما كان بالإمكان رؤيته هو أنه، هو أيضاً، انطلق يعدو في إثر حارسه الأمين على الدرب القمري.

- وأنا أيضاً إلى هناك، في إثره؟ - سأل المعلم بقلق وأمسك بلجام حصانه.

- لا، أجاب فولند، - لمَ اقتفاء أثر ما قد انتهى؟

- فإلى هناك إذاً؟ - سأل المعلّم واستدار مشيراً إلى الخلف، إلى حيث كانت تلوح المدينة التي غادروها منذ فترة طويلة، بأبراج ديرها الشبيهة بكعكات الدبس وبشمسها المتشظية على زجاج النوافذ.

- أيضاً لا، أيها المعلّم الرومنسي! - أجاب فولند وتكثّف صوته وراح يتدحرج على الصخور، - فذاك الذي يتحرّق بطللك المختلق، الذي أطلقت سراحه للتو، لرؤيته قد قرأ روايتك. - وهنا استدار فولند نحو مرغريتا وقال: - لا يمكن، يا مرغريتا نيكولاييفنا، عدم تصديق أنكِ حاولت تأمين أفضل مستقبل للمعلم، لكن ما أعرضه عليكما وما طلبه يشوع من أجلكما، من أجلكما بالذات، لهو أفضل حقاً. - ثم مال فولند على المعلّم من على حصانه وأشار في إثر الحاكم السائر وقال: - دعوهما بمفردهما. دعونا لا نزعجهما، فقد يتفقان على شيء ما، - وهنا لوّح بيده باتجاه أورشليم فانطفأت.

- وليس إلى هناك أيضاً، - وأشار فولند إلى الخلف، - إذ ماذا ستفعل في القبو؟ - وهنا انطفات الشمس المتكسّرة على الزجاج، وتابع فولند يقول بصوتٍ مقنع لطيف: - لماذا أيها المعلّم الغارق في الرومنسية؟ هل يعقل أنك لا تريد التنزّه نهاراً مع صديقتك تحت أشجار الكرز المزهرة، والاستماع إلى موسيقى شوبرت في المساء؟ وهل يعقل أن لا تستمتع بالكتابة على أضواء الشموع بريشة إوزّ؟ ألا تريد حقاً أن تجلس، كفاوست، فوق أنبيق على أمل أن تتمكّن من خلق إنسانٍ جديد؟ إلى هناك، إلى هناك. فهناك ينتظركما بيت وخادم قديم، الشموع مشتعلة، وستنطفئ قريباً، لأنكما ستستقبلان الفجر قريباً. في هذا الطريق يا معلّم، في هذا الطريق. وداعاً، فقد آن أوان الرحيل!

- الوداع، - أجابه المعلّم ومرغريتا بصيحة واحدة. وعندها، ودون أن يسلك أيّاً من الطرق، ألقى فولند الأسود بنفسه في الهاوية،

وهوت في إثره حاشيته في جلبة، واختفى كل شيء حولهما، الصخور والفسحة الصغيرة والدرب القمري وأورشليم، واختفت الخيول السود أيضاً. ورأى المعلم ومرغريتا الفجر الموعود، الذي بزغ بعد قمر منتصف الليل مباشرةً. سار المعلم وصديقته مع شروق أشعة الفجر الأولى عبر جسرٍ حجري تغطّيه الطحالب. وعبر العاشقان المخلصان الجسر، مخلّفين جدول الماء وراءهما، ومضيا في طريقٍ رملي.

قالت مرغريتا للمعلم والرمل يخشخش تحت قدميها الحافيتين:

- أنصت إلى السكون؛ أنصت واستمتع بما لم تُعطَه في الحياة: السكينة. انظر، ها هو ذاك أمامنا بيتك الأبدي الذي مُنِحتَه مكافأةً لك. إني أرى النافذة الفينيسية والدالية المعرّشة التي تبلغ السطح في ارتفاعها. ها هو بيتك، ها هو بيتك الأبدي. أعرف أنْ سيزورك في المساء أولئك الذين تحبهم، الذين يعنيك أمرهم والذين لا يكدّرونك. سوف يعزفون لك، وسترى مدى سطوع الضوء في الغرفة حين تُشعَل الشموع. ولسوف تغفو معتمراً طاقيتك الأبدية المبقّعة بالزيت، وتنام وعلى شفتيك ابتسامة. سيقوّيك النوم، وستأخذ في محاكمة الأمور بحكمة، ولن تعود قادراً على طردي، فأنا من سيحرس نومك.

على هذا النحو كانت مرغريتا تتكلم أثناء توجهها مع المعلم نحو بيتهما الأبدي، وبدا للمعلم أن كلماتها تنساب كالجدول الذي خلّفاه وراءهما، وأخذت ذاكرة المعلم المضطربة والمليئة بالندوب تخبو شيئاً فشيئاً. لقد أطلق أحدهم سراح المعلّم، كما أطلق هو للتو سراح البطل الذي خلقه. هذا البطل غار في هاوية لا قرار لها، فقد ذهب إلى غير رجعة، ابن الملك المنجّم الذي غفر له ليلة الأحد، حاكم اليهودية الخامس القاسي، الفارس بيلاطس البنطي.

خاتمة

لكن مع ذلك، ماذا جرى لاحقاً في موسكو، بعد أن غادرها فولند مع غروب شمس السبت واختفى مع حشايته من تلال فوروبيوفي؟

لاحاجة للقول إن همهمات مزعجة حول شائعات بمنتهى الغرابة قد سرت في العاصمة كلها ولفترة طويلة، وأنها امتدت إلى المناطق القصية والبعيدة في الريف بسرعة فائقة، وأن مجرد تكرار هذه الشائعات أمر يثير الغثيان.

فقد سمع كاتب هذه السطور الصادقة شخصياً، في القطار أثناء توجهه إلى فيودوسيا، قصة عن خروج ألفي شخص من مسرح في موسكو وهم عراة بالمعنى الحرفي للكلمة، وأنهم توجهوا إلى بيوتهم بسيارات الأجرة وهم في هذا المظهر.

كانت همسة «قوة شريرة. . .» تُسمع في الطوابير الواقفة أمام أكشاك بيع الألبان وفي عربات الترام والمتاجر والبيوت والمطابخ والقطارات، قطارات الضواحي وقطارات المسافات البعيدة، وفي المحطات والمواقف، وفي المصايف و«البلاجات».

من البديهي أن الناس الأعلى ثقافةً والأكثر تمدّناً لم يكونوا ينخرطون مطلقاً في هذه الحكايات عن القوى الشريرة التي زارت

موسكو، بل كانوا يسخرون منها ويحاولون إعادة رواتها إلى جادة الصواب. لكن الواقع يبقى واقعاً مع ذلك، ويستحيل إنكاره دون تقديم أي تفسير: كان هناك أحد ما في العاصمة. إذ إن الفحم المتبقّي من بيت غريبوييدوف، ناهيكم عن أشياء أخرى كثيرة، لهو أبلغ تأكيد لذلك.

أخذ الناس المثقفون والمتعلمون بوجهة نظر التحقيق: هذا من عمل عصابة من المنوّمين المغناطيسيين والمتكلمين من بطونهم البارعين في فنّهم.

بطبيعة الحال تمّ اتخاذ الإجراءات اللازمة، بنشاط ودون إبطاء، في موسكو وبعيداً خارج حدودها، للقبض على العصابة، لكنها لم تؤدِّ إلى أي نتيجة للأسف الشديد. فقد اختفى المدعو فولند مع أتباعه ولم يعد إلى موسكو بعد ذلك، ولم يظهر ولم يترك ما يدلّ على وجوده في أي مكان آخر على الإطلاق. ومن الطبيعي تماماً أن تظهر فرضية تقول بهروبه إلى خارج البلاد، لكنه حتى هناك لم يظهر في أي مكان.

استمر التحقيق في قضيته طويلاً. فهذه القضية كانت غريبة وعجيبة كيفما نظر إليها المرء! ناهيكم عن احتراق أربعة بيوت وفقدان مئات الناس عقولهم، كما كان هناك قتلى. على الأقل يمكن التأكيد على مقتل شخصين بكل دقة: برلوز وذاك الموظف سيئ الحظ في مكتب تعريف الأجانب بمعالم موسكو، البارون السابق ميغيل، فهما قد قُتلا، وتمّ العثور على عظام الثاني المحترقة في الشقة رقم ٥٠ بشارع سادوفايا بعد إخماد الحريق. نعم، كان هناك ضحايا، وكان هذا يستدعي التحقيق.

لكن كانت هناك ضحايا أخرى أيضاً، إنما بعد أن كان فولند قد

غادر العاصمة، وكانت هذه الضحايا - على ما في ذلك من أسى - القطط السود. فقد قُتل بالرصاص أو أُبيد بطرق أخرى نحو مئة من هذه الحيوانات المسالمة، المخلصة والمفيدة للإنسان، في أماكن مختلفة من البلاد، وتمّ إحضار قرابة خمسة عشر قطّاً، بعضها كان مشوهاً جداً، إلى أقسام الشرطة في مدن مختلفة. على سبيل المثال، أحضر أحد المواطنين إلى قسم الشرطة في أرمافير قطاً لم يقترف أي جريرة مطلقاً وقد أوثق قائمتيه الخلفيتين. فقد كَمَنَ المواطن لهذا القط لحظة كان الحيوان بمنظره المتلصص (لكن ما ذنب القطط إن كان لها هذا المنظر؟ فهذا ليس لأن القطط كائنات خسيسة بل لأنها تخشى أن يؤذيها أو يسيء إليها كائنٌ ما من الكائنات الأقوى منها، كالكلاب أو البشر. وهذا وذاك ليسا بالأمر العسير، لكني أؤكد لكما أن ما من فخر في ذلك، نعم لا فخر على الإطلاق)، وهكذا، كان القط بمنظره المتلصص يهمّ بالانقضاض على نبتة راعي الحمام، فارتمى المواطن عليه وأخذ يغمغم بلؤم وهو ينزع ربطة عنقه ليوثقه به:

- آها! شرّفتنا في أرمافير إذاً أيها السيد المنوّم؟ لكننا هنا لم نخف منك. هيا، لا تتظاهر بالبكم، فنحن نعرف حقيقتك!

واقتاد المواطن القط إلى الشرطة مجرجراً الحيوان المسكين من قائمتيه الأماميتين المربوطتين بربطة العنق الخضراء، وهو يرفسه رفسات خفيفة كي يجعله يمشي على قائمتيه الخلفيتين. وكان المواطن يصرخ فيه يرافقه صفير الأولاد:

- هيه أنت، دعك من التباله، فهذا لن يجدي! تفضّل امشِ كما يمشي الجميع!

كان القط الأسود يتلفّت حوله بعينين تنضحان بالعذاب، فهو المحروم بطبيعته من نعمة النطق لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه

بأي شكل. والقط مدين بنجاته للشرطة أولاً، فضلاً عن صاحبته، وهي أرملة عجوز محترمة. إذ ما إن سلّم المواطن القط لقسم الشرطة حتى تأكّدوا من أن رائحة كحول قوية تفوح من الرجل، وعلى الفور تمّ التشكيك في شهادته. وفي هذه الأثناء هرعت العجوز، التي علمت من الجيران أن قطّها قد اعتُقل، إلى قسم الشرطة ووصلت في الوقت المناسبة. أغدقت العجوز على قطها أفضل الأوصاف، وقالت إنها تعرفه منذ خمس سنوات، عندما كان قطيطاً صغيراً، وأنها تكفله كما تكفل نفسها، وأثبتت أن أحداً لم يلحظه ارتكب سوءاً وأنه لم يسافر يوماً إلى موسكو؛ فهو لم يغادر أرمافير منذ أن ولد فيها وتعلّم اصطياد الفئران.

تمّ حُلّ وثاق القط وأُعيد إلى صاحبته، ولكن بعد أن ذاق مرارة الألم وأدرك عملياً ما معنى الخطأ والافتراء.

عدا عن القطط، لحق بعض الأذى الطفيف ببعض الناس أيضاً. فقد جرت عدة اعتقالات، ومن بين الذين اعتقلوا لفترة قصيرة نذكر: في لينينغراد المواطنان فولمان وفولبير، وفي ساراتوف وكييف وخاركوف ثلاثة بكنية فولودين، وفي قازان فولوخ، وفي بينزا، ولسبب مجهول تماماً، اعتُقل أستاذ علوم الكيمياء فيتشينكيفيتش... الحقيقة أنه كان فارع الطول وبشرته شديدة السمرة.

وفضلاً عن ذلك، وقع في قبضة الشرطة وفي أماكن مختلفة تسعة بكنية كوروفين وثلاثة بكنية كوروفينكا واثنان بكنية كارافاييف.

وفي القطار المتجه إلى سيفاستوبول قيّد بعض المواطنين شخصاً وأنزلوه في محطة بيلغورود. فقد خطر لهذا المواطن تسلية المسافرين ببعض حيل ورق اللعب.

وفي ياروسلافل ظهر في أحد المطاعم، في فترة الغداء تماماً،

مواطن في يده وابور كان قد أخذه من محلّ التصليح للتو. وما إن رآه اثنان من البوابين حتى تركا مكان عملهما في غرفة تعليق المعاطف وفرّا هاربين من المطعم، فلحق بهما كل روّاد المطعم والعاملين فيه هاربين. وأثناء ذلك اختفى عند عاملة الصندوق، بشكل غير مفهوم، كل الإيراد من الصندوق.

كما حدثت أشياء أخرى كثيرة يتعذّر تذكّرها كلها. فقد تبلبل الكثير من العقول.

ولا بدّ من إنصاف المحققين مرة وأخرى وثالثة. فقد قاموا بكل ما يمكن القيام به ليس فقط للقبض على المجرمين بل ولتفسير ما اقترفوه. وقد تمّ تفسير كل ذلك، ولا بد من الإقرار بأن هذه التفسيرات كانت منطقية ودامغة.

فقد أثبت المحققون والأطباء النفسيون الخبيرون أن أعضاء العصابة الإجرامية، أو واحد منهم على الأقل (وقد انصبّ الاشتباه على كوروفيف بصورة رئيسة)، كانوا منوّمين مغناطيسيين لا نظير لهم، وقادرين على إظهار أنفسهم في مكان آخر غير الذي هم فيهم فعلياً، وفي مواقف وهمية تثير البلبلة. فضلاً عن أنهم كانوا قادرين على الإيحاء بسهولة للأشخاص الذين يحتكون بهم بأن بعض الأشياء، أو الأشخاص، ليست موجودة حيث هي بالفعل، وبالعكس، كانوا يحجبون عن الرؤية الأشياء والأشخاص الموجودين في مرمى النظر.

في ضوء هذه التفسيرات بات كل شيء مفهوماً تماماً، بما في ذلك مناعة القط ضد الرصاص، التي أثارت اضطراب المواطنين أكثر من أي شيء آخر وبدت غير قابلة للتفسير مطلقاً، وذلك حين أُطلقت عليه النار عند محاولة اعتقاله في الشقة رقم ٥٠.

لم يوجد أي قط على الثريا حقيقةً، ولم يفكّر أحد بحدوث تبادل

إطلاق النار معه، بل كانوا يطلقون النار في الفراغ، بينما كان بمقدور كوروفييف، الواقف خلف مطلقي النار، أن يوهمهم أن القط يقلّل الأدب على الثريا وهو يتمايل مستمعتاً بقدراته الهائلة لكن المستخدمة بصورة إجرامية. وهو طبعاً من صبّ البنزين على السجادة وأضرم فيها النار.

وطبعاً لم يطر ستيبان ليخودييف إلى أي يالطا (فحتى كوروفييف يعجز عن ذلك) ولم يرسل أي برقيات من هناك. فبعد أن أُغمي عليه في شقة زوجة الصائغ، مذعوراً من ملعوب كوروفييف الذي أراه قطّاً يأكل فطراً مخللاً بالشوكة، ظل قابعاً فيها إلى أن ألبسه كوروفييف، ساخراً منه، طاقية من اللبّاد وأرسله إلى مطار موسكو، بعد أن أوعز لمحققي المباحث الجنائية مسبقاً، الذي جاؤوا لاستقباله، أنّ ستيوبا سينزل من الطائرة القادمة من سيفاستوبول.

صحيح أن المباحث الجنائية في يالطا أكّدت أنها استقبلت ستيوبا حافي القدمين وأنها أرسلت برقيات بشأنه إلى موسكو، لكن لم يُعثر على أيٍّ من هذه البرقيات في ملفات القضية، الأمر الذي جعلهم يصلون إلى استنتاج مؤسف، لكن غير قابل للدحض مطلقاً، بأن عصابة المنومّين المغناطيسيين يتمتعون بالقدرة على التنويم من مسافات هائلة، وليس تنويم الناس فرادى بل مجموعات كاملة منهم. وفي ظل هذه الظروف كان بمقدور المجرمين إيصال أكثر الناس توازناً من الناحية النفسية إلى حافة الجنون.

فهل من داعٍ للحديث، بعد هذا، عن ألاعيب تافهة كدسّ ورق اللعب في جيب أحدهم في صالة المسرح أو اختفاء ملابس السيدات أو القبعة التي تموء وأشياء أخرى من هذا القبيل! إذ يمكن لأي منوّم مغناطيسي محترف متوسط القدرة القيام بمثل هذه الألاعيب، بما في

ذلك خدعة قطع رأس عريف الحفلة التافهة. أما القط المتكلّم فكذلك هراء محض، إذ يكفي أن يكون المرء ملمّاً بالمبادئ الأولية للتكلم من البطن ليكون قادراً على إظهار قطّ كهذا أمام الناس، ولا أعتقد أن هناك من يشكّ في أنّ فنّ كوروفييف كان يتعدّى هذه المبادئ بكثير.

أجل، القضية هنا ليست مطلقاً قضية دستات ورق اللعب والرسائل المزيفة في حقيبة نيكانور إيفانوفيتش، فهذه كلها أمور تافهة. القضية أن كوروفييف هو من دفع برلوز تحت الترام ليلقى حتفه الأكيد، وهو من جنّن الشاعر المسكين إيفان بيزدومني، وهو من جعله يتوهّم ويرى في أحلامه المريعة أورشليم القديمة والجبل الأقرع المجدب والمكتوي بحرارة الشمس وعليه المصلوبون الثلاثة. إنه هو وعصابته من جعل مرغريتا نيكولاييفنا وخادمتها ناتاشا تختفيان من موسكو. وبالمناسبة: اهتمّ المحققون بهذه المسألة بالذات اهتماماً خاصاً. فقد توجّب الأمر تبيان ما إن كانت عصابة القتلة ومضرمي الحرائق قد اختطفوا هاتين المرأتين أم أنهما هربتا مع العصابة بمحض إرادتهما؟ بالاستناد إلى شهادة نيكانور إيفانوفيتش المبلبلة والمتناقضة، ومع الأخذ بالحسبان الرسالة الغريبة والمجنونة التي تركتها مرغريتا نيكولاييفنا لزوجها والتي قالت فيها إنها ذاهبة لتصبح جنّية، ومع الأخذ بعين الاعتبار كون ناتاشا اختفت تاركةً كل ملابسها وأغراضها في مكانها، توصّل المحققون إلى أن سيدة البيت وخادمتها قد تمّ تنويمهما، ككثيرٍ من الآخرين، وعلى هذا النحو خطفتهما العصابة. كما برزت فكرة، وهي فكرة صائبة تماماً، أن المجرمين ربما فتنهم جمال المرأتين.

لكن هاكم ما ظلّ دون تفسير بالنسبة للمحققين: الدافع الذي جعل العصابة تخطف المريض النفسي الذي يسمّي نفسه المعلّم من

عيادة الأمراض النفسية. إذ لم يتمكّن المحققون من جلاء هذا الأمر، كما لم يتمكّنوا من معرفة كنية المريض المختطف. وهكذا اختفى إلى الأبد المريض الملقّب باللقب الميت: «الرقم ١١٨ من الجناح الأول».

وهكذا انجلى كل شيء، وانتهى التحقيق كما ينتهي كل شيء عموماً.

وبعد مرور بضع سنوات بدأ المواطنون ينسون فولند وكوروفييف والآخرين جميعاً، وحدثت تغييرات كثيرة في حياة أولئك الذين عانوا من فولند وأعوانه، وعلى الرغم من تفاهة هذه التغييرات وعدم أهميتها إلا أنه ينبغي الإشارة إليها.

جورج بينغالسكي، مثلاً، الذي رقد في المستشفى أربعة أشهر، أبلّ من مرضه وخرج، لكنه اضطر لترك العمل في الفاريتيه، وفي ذروة الموسم، عندما كان الجمهور يتهافت على التذاكر، تبيّن أنّ ذكرى السحر الأسود وكشف خدعه ما زالت حية جداً. لقد ترك بينغالسكي الفاريتيه لأنه كان يدرك أن ظهوره أمام ألفي شخص لا بدّ أن يتعرّفوه حتماً وسيتعرض باستمرار للسؤال الساخر حول كيف يبدو أفضل: برأس أم دون رأس؟ وهذا أمر موجع جداً.

فضلاً عن أن عريف الحفلات قد فقد قدراً كبيراً من مرحه الضروري جداً لمهنته، وبقيت لديه عادة ثقيلة مزعجة وهي أنه يقع صريع حالة من القلق عند اكتمال البدر ربيع كل عام، حيث يمسك برقبته فجأةً ويتلفت حوله في فزع ويبكي. كانت هذه النوبات تمرّ، ومع هذا كان يستحيل عليه، مع حدوثها، العودة إلى ممارسة عمله السابق، فتقاعد وبدأ يعيش على مدّخراته التي يجب أن تكفيه خمسة عشر عاماً وفق حساباته المتواضعة.

لقد غادر ولم يلتقِ بعد ذلك قط فارينوخا الذي اكتسب شهرةً واسعة ومحبةً لعطفه ولطفه البالغين حتى بين الإداريين المسرحيين. فباعة البطاقات في السوق السوداء، مثلاً، لم يكونوا يدعونه إلا «الأب المحسن»، وفي أي وقت إذا اتصل أيٌّ كان بالفاريتيه كان دائماً يسمع في السماعة صوتاً رخيماً لكنه حزين يردّ: «أنا أسمعك»، وردّاً على طلبه استدعاء فارينوخا إلى الهاتف كان ذاك الصوت نفسه يجيب بسرعة: «أنا في خدمتك». لكن إيفان سافيليفيتش، بالمقابل، عانى كثيراً جرّاء أدبه الجمّ!

أما ستيوبا ليخودييف فلن يضطر بعد الآن للتحدث بالهاتف في الفاريتيه، إذ فور خروجه من المصحّ، الذي أمضى فيه ثمانية أيام، نُقل إلى روستوف، حيث عُيّن في منصب مدير مخزن كبير للمواد الغذائية. وسرت شائعات بأنه كفّ عن شرب «البورتفين» وأنه لا يشرب إلا الفودكا المنقوعة في براعم العنب الأسود، مما أكسبه صحةً جيدة جداً. ويقال إنه صار صموتاً ويتجنّب النساء.

لم يثر إبعاد ستيبان من الفاريتيه في نفس ريمسكي تلك الفرحة التي طالما حلم بها بقوة طوال سنوات. فبعد المستشفى وكيسلوفودسك قدّم المدير المالي، الذي دبّت فيه الشيخوخة وأخذ رأسه يرتعش، استقالته من الفاريتيه. والطريف أن زوجة ريمسكي هي التي حملت طلب استقالته إلى الفاريتيه. فغريغوري دانيلوفيتش لم يجد في نفسه القوة للتواجد حتى في النهار في ذلك المبنى الذي رأى فيه زجاج النافذة المتصدع المغمور بضوء القمر واليد الطويلة الممتدة إلى مزلاج النافذة السفلي.

بعد مغادرته الفاريتيه التحق المدير المالي بمسرح العرائس في زاموسكفوريتشي. وفي هذا المسرح لم يعد مضطراً للتصادم مع

أركادي أبولونوفيتش سيمبلاروف بخصوص أجهزة الصوت، فالأخير نُقل إلى بريانسك وعُيّن مديراً لقسم إعداد الفطر. والآن يأكل الموسكوفيون الفطر المملّح والفطر الأبيض المخلّل ولا يملّون من الثناء عليه، ويعبّرون عن سعادتهم البالغة بعملية النقل هذه. ما فات مات، لكن يمكن القول إن أركادي أبولونوفيتش لم ينجح قط في التعامل مع أجهزة الصوت، فعلى الرغم من كل محاولاته لتحسينها فإنّ الأمور ظلت كسابق عهدها.

ومن الأشخاص الذين قطعوا صلتهم بالمسرح، إضافةً إلى أركادي أبولونوفيش، ينبغي أيضاً ذكر نيكانور إيفانوفيتش بَسوي، رغم أنه لم يكن يربطه شيء بالمسرح سوى حبه للبطاقات المجانية. فنيكانور إيفانوفيتش ليس فقط لم يعد يتردد على المسرح، لا بالبطاقات مدفوعة الثمن ولا مجاناً، بل وصارت ملامحه تتغير عند أي حديث عن المسرح. وكان يكره، إلى جانب المسرح، الشاعر بوشكين والفنان الموهوب سافا بوتابوفيتش كوروليسوف، ليس أقل من كرهه للمسرح بل أكثر. وبلغ كرهه للأخير إلى درجة أنه حين قرأ في الصحيفة، في العام الماضي، إعلاناً بحاشية سوداء ينعي الفنان الذي قضى بنوبة قلبية وهو في أوج عطائه احتدّ واضطرم حتى كاد يلحق بسافا بوتابوفيتش وجأر: «هذا ما يستحقه!». فضلاً عن أن نيكانور إيفانوفيتش، الذي أيقظ لديه موت الفنان المشهور الكثير من الذكريات المؤلمة، شرب حتى الثمالة في ذلك المساء بمفرده لا يرافقه سوى القمر الذي كان ينير شارع سادوفايا. ومع كل قدح كان يشربه كانت تمتد أمامه سلسلة من شخصيات لا يطيقها، وكان في هذه السلسلة دونتشيل سيرغي غيراردوفيتش والحسناء إيدا غيركولاروفنا وذاك الأصهب صاحب إوزات المصارعة ونيكولاي كانافكين الصريح.

لكن هؤلاء ماذا جرى لهم يا ترى؟ العفو! لم يحدث لهم شيء مطلقاً، ولا يمكن أن يحدث لهم شيء، لأنهم لم يكن لهم وجود في الحقيقة، كما لم يكن من وجود للفنان الجذّاب عريف الحفلات، ولا للمسرح نفسه ولا للعجوز الشمطاء البخيلة عمة بوروخفنيكوف، التي تركت العملة الأجنبية تتعفن في القبو، وطبعاً لم يكن هناك وجود أيضاً للأبواق الذهبية ولا للطباخين الوقحين، فقد حلم نيكانور إيفانوفيتش بهذا كله بتأثير كوروفييف اللعين. الشخص الوحيد الحي، الذي كان يطوف في هذا الحلم، كان الفنان سافا بوتابوفيتش بالذات، وذلك لأنه انغرز في ذاكرة نيكانور إيفانوفيتش بفضل بثّ تمثيلياته الدائم في الراديو. هو كان موجوداً، أما الآخرون فلا.

ولعل ألويزي موغاريتش أيضاً لم يكن له وجود؟ أوه لا، فهذا لم يكن موجوداً وحسب بل ولا يزال موجوداً، وبالضبط في المنصب الذي تخلى عنه ريمسكي، أي منصب مدير الفاريتيه المالي.

حين استيقظ ألويزي في القطار، في مكانٍ ما قرب فياتكا، بعد مضي قرابة يوم كامل على زيارته لفولند، أدرك أنه نسي ارتداء بنطاله عندما غادر موسكو مبلبل العقل، لكنه لم يفهم سبب سرقته دفتر المستأجرين الخاص بالمقاول الذي لا لزوم له على الإطلاق. دفع ألويزي مبلغاً طائلاً من المال للكُمساري لقاء زوجٍ عتيقٍ من السراويل الملطّخة بالزيت وعاد أدراجه من فياتكا. لكنه، للأسف، لم يجد بيت المقاول، فقد أتت النار على البيت القديم برمّته. لكن ألويزي كان شخصاً هماماً ذا مراس وخلال أسبوعين كان يقيم في غرفة رائعة في زقاق بروسوفسكي، وبعد بضعة أشهر كان يجلس في مكتب ريمسكي. وكما كان ريمسكي يعاني من ستيوبا، صار فارينوخا يعاني الآن من ألويزي، وكان إيفان سافيليفيتش لا يحلم الآن إلا بشيء

واحد، وهو أن يتم إبعاد ألويزي هذا بعيداً عن عينيه لأنه، كما يهمس فارينوخا أحياناً في مجالسه الخاصة، «لم يصادق وغداً كألويزي هذا مطلقاً في حياته، وأنه يتوقّع أي شيء من ألويزي هذا».

لكن الأغلب أن المدير الإداري يتحامل على ألويزي، إذ لم يلحظ أحد ما يريب بخصوصه، ولا أي شيء آخر عموماً، باستثناء تعيينه شخصاً آخر مكان مدير البوفيه سوكوف. أما أندريه فوكيتش فقد توفي من سرطان الكلية في مستشفى معهد الطب الأول في جامعة موسكو الحكومية بعد تسعة أشهر على ظهور فولند في موسكو. . .

كل عام، ما إن يهلّ بدر العيد في الربيع، يظهر عند المساء تحت أشجار الزيزفون في «بتريرشيه برودي» شخص في الثلاثين من العمر أو يزيد قليلاً: إنه الأستاذ المساعد في كلية التاريخ والفلسفة البروفيسور إيفان نيكولاييفيتش بونيريف.

حين يمرّ من تحت أشجار الزيزفون يجلس على ذلك المقعد بالذات، الذي جلس عليه في ذلك المساء برلوز، الذي نسيه الجميع منذ زمنٍ بعيد، عندما شاهد قطع القمر المتساقطة للمرة الأخيرة في حياته.

القمر مكتمل الآن، أبيض في أول المساء، ومن ثم ذهبي، يرتسم على صفحته تنّين داكن اللون، يسبح فوق الشاعر السابق إيفان نيكولاييفيتش، ويقف في الوقت نفسه في مكانه وفي عليائه.

إيفان نيكولاييفيتش يعلم كل شيء، فهو يدرك ويفهم كل شيء. فهو يعرف أنه في شبابه كان ضحية منوّمين مغناطسين مجرمين، وأنه عولج بعد ذلك وشُفي. لكنه يعرف أيضاً أن هناك ما هو عاجز عن التحكم به. إنه عاجز عن التحكم بهذا البدر الربيعي، فما إن يبدأ بالاقتراب، وما إن يبدأ هذا الكوكب، الذي كان معلّقاً يوماً فوق

الشمعدان ذي الشموع الخمس، يكبر ويسكب ضوءه الذهبي، حتى يغدو إيفان نيكولاييفيتش قلقاً وعصبياً، ويفقد شهيته للطعام ويجافيه النوم، وينتظر حتى يكتمل البدر. وما إن يكتمل البدر لا يعود شيء قادراً على جعله يمكث في البيت، إذ يخرج عند المساء ويجلس في «بتريرشيه برودي».

جالساً على المقعد كان إيفان نيكولاييفيتش يحدّث نفسه بصوتٍ عالٍ، يدخّن ويضيّق عينيه ناظراً إلى القمر تارةً وإلى الباب الدوّار الذي يذكره جيداً تارةً أخرى.

يمضي إيفان ساعة أو ساعتين على هذا النحو ثم ينهض من مكانه ويسير في خط السير ذاته دائماً، يعبر سبيريدونوفكا إلى أزقة أربات بعينين فارغتين لا تبصران.

يمرّ بجوار محطة المحروقات وينعطف حيث يتدلى مائلاً مصباح الغاز القديم، ثم يتسلل إلى السياج الشبكي الذي يرى خلفه الحديقة الفخمة لكن غير المكتسية بعد، وفيها الدار القوطية التي يزيّنها القمر من ذلك «الجانب»، حيث يبرز المنور مع النافذة ذات الدرفات الثلاث، وحيث الجانب الآخر مظلم.

لا يعرف البروفيسور ما الذي يجذبه إلى السياج، ولا من يعيش في هذه الدار، لكن يعرف أنْ ليس عليه منازعة نفسه في ذلك. فضلاً عنه أنه يعرف أنه سيرى في الحديقة خلف السياج الشيء نفسه حتماً.

سيرى كهلاً وقوراً ملتحياً، يضع نظارة أنفية، ملامح وجهه تشبه ملامح الخنّوص بعض الشيء، جالساً على مقعدٍ صغير. إيفان نيكولاييفيتش يصادف دائماً ساكن هذه الدار في نفس الوضعية الحالمة، ونظره مسمّر على القمر. يعرف إيفان نيكولاييفيتش أن هذا الجالس، عاشق القمر، سيحوّل نظره حتماً إلى نوافذ المنور ويركّزه

عليه، كأنما يتوقع أنها ستُفتح الآن على مصاريعها ويظهر على حافة النافذة شيء ما غير عادي.

كل الأمور اللاحقة يعرفها إيفان نيكولاييفيتش عن ظهر قلب. وهنا لا بدّ من الاختفاء عميقاً خلف السور، إذ سيبدأ الجالس الآن يدير رأسه بقلق ويحاول التقاط شيء ما في الهواء بعينيه التائهتين، والابتسام بابتهاج حتماً، ثم سيضرب فجأةً كفاً بكف بشيءٍ من الكآبة اللذيذة، وبعد ذلك سيغمغم ببساطة وبصوتٍ عالٍ بعض الشيء:

- فينوس! فينوس!.. إيخ، يا لي من أحمق!..

- أيتها الآلهة، أيتها الآلهة! - يبدأ إيفان نيكولاييفيتش بالهمس متوارياً خلف السياج دون أن يبعد عينيه عن المجهول الغامض، - ها هي ضحية أخرى من ضحايا القمر... نعم، إنه ضحية أخرى، مثلي.

أما الجالس فسيواصل كلامه:

- إيخ، يا لي من أحمق! لماذا، لماذا لم أطر معها؟ ممَّ خفت، حمار عتيق! كنت أرتّب الأوراق! إيخ، تحمّل الآن أيها المغفّل العتيق!

سيستمر الأمر على هذا النحو إلى أن تصطفق النافذة في الجانب المظلم من الدار وتظهر فيها امرأة مسربلة بالبياض ويتردد صوت نسائي مزعج:

- أين أنت يا نيكولاي إيفانوفيتش؟ ما هذه النزوات؟ أتريد أن تصاب بالملاريا؟ تعال اشرب الشاي!

هنا سيثوب الجالس إلى رشده ويجيب بصوت كاذب:

- أردت تنشّق الهواء يا روحي! الهواء منعش جداً!

وهنا سينهض عن مقعده واقفاً ويلوّح بقبضته خلسةً متوعداً النافذة التي تُغلق في الأسفل ويجرّ قدميه إلى البيت.

- إنه يكذب، يكذب! أوه أيتها الآلهة، كم يكذب! - يغمغم إيفان نيكولاييفيتش مبتعداً عن السياج، - ليس الهواء مطلقاً ما يجذبه إلى الحديقة، بل هو يرى شيئاً ما في القمر في هذه الليلة الربيعية المكتملة البدر، وفي الحديقة، وفي الأعلى. آخ، لكنت بذلت الغالي والنفيس للنفاذ إلى سرّه، ولمعرفة أي فينوس تلك التي ضيّعها ويطوّح الآن بيديه في الهواء دون جدوى للإمساك بها؟

ويعود البروفيسور إلى بيته مريضاً تماماً. تتظاهر زوجته أنها لا تلحظ حالته وتحثّه على الهجوع للنوم، لكن هي نفسها لا تستلقي وتجلس قرب المصباح وبيدها كتاب، وترنو بدموع حرّى إلى النائم. هي تعلم أن إيفان نيكولايفيتش سيصحو عند الفجر مطلقاً صرخة معذّبة ويبدأ بالبكاء متقلّباً على الأرض. لهذا توجد أمامها على غطاء الطاولة محقنة موضوعة في الكحول وأمبولة فيها سائل كثيف بلون الشاي.

المرأة المسكينة، المرتبطة بهذا المريض المصاب بمرض عصي، حرة الآن ويمكنها النوم دون خوف. سينام إيفان نيكولاييفيتش حتى الصباح بوجهٍ سعيد وسيحلم أحلاماً سعيدة لا تعرف ما هي.

ما يوقظ العالِم ويوصله إلى إطلاق الصراخ اليائس ليلة اكتمال القمر هو الشيء ذاته لا يتغير. فهو يرى جلاّداً غير طبيعي بلا أنف يطعن برمحه، وهو يتقافز ويصرخ بصوتٍ عالٍ، قلب هيستاس المصلوب على عمود والفاقد عقله. لكن الجلاد لم يكن مخيفاً بقدر الإضاءة غير الطبيعية في الحلم المنبعثة من غيمة ما تغلي وتهوي على الأرض كما يحدث في الكوارث العالمية.

بعد حقنه بالإبرة يتغيّر كل شيء أمام النائم، حيث يمتد من السرير إلى النافذة درب قمري واسع يرتقيه شخص في بردة بيضاء ذات بطانة

دموية نحو القمر، ويسير إلى جانبه شاب مشوّه الملامح في رداء ممزق. السائران يتحدثان عن أمرٍ ما بحرارة، يتجادلان ويريدان الاتفاق على مسألة ما.

يقول صاحب البردة ملتفتاً إلى رفيقه بوجهٍ متغطرس:

- يا للهول، يا للهول، يا للميتة الشنيعة! لكن قل لي، من فضلك، إن هذا هذا لم يحدث! - هنا يتحول الوجه المتغطرس إلى الرجاء، - أتوسّل إليك، هذا لم يحدث، أليس كذلك؟

- طبعاً لم يحدث. لقد تهيّأ لك ذلك، يجيب رفيقه بصوت متحشرج.

- وهل تقسم على ذلك؟ - يسأله صاحب البردة مستعطفاً.

- أقسم، - يجيب رفيقه وعيناه تبتسمان لسببٍ ما.

- لا أحتاج إلى شيء أكثر من هذا! - يصيح صاحب البردة بصوت متقطع ويرتقي أعلى إلى القمر جارّاً رفيقه، ويتبعهما كلب ضخم هادئ مرهف الأذنين.

عندها يبدأ الدرب القمري بالغليان ويتدفق منه نهر قمري يفيض على الأنحاء كلها. القمر يهيمن ويلعب؛ القمر يرقص ويتشاقى. حينئذٍ تتشكّل في التيار امرأة لا مثيل لجمالها تقود إلى إيفان من يده شخصاً نامي اللحية يتلفت حوله في ذعر. يتعرّفه إيفان نيكولايفيتش على الفور: إنه الرقم ١١٨، ضيفه الليلي. يمدّ إيفان نيكولاييفيتش يده إليه بلهفة في الحلم ويسأل:

- بهذا ينتهي الأمر إذاً؟

- بهذا انتهى يا تلميذي، - يجيب الرقم ١١٨، أما المرأة فتدنو من إيفان وتقول:

- طبعاً بهذا. لقد انتهى كل شيء، ولكل شيء نهاية... وسأقبّلك في جبينك، وسيكون كل شيء عندك كما ينبغي.

تنحني المرأة على إيفان وتقبّله في جبينه، وإيفان ينجذب إليها ويحدّق في عينيها، لكنها تتراجع، تتراجع وتغادر مع رفيقها إلى القمر.

حينئذٍ يبدأ القمر بالهيجان ويُهيل أشعته على إيفان مباشرةً، وينثر ضوءه في كل الاتجاهات، وفي الغرفة يبدأ فيضان قمري، يترجرج الضوء ويعلو ويغمر السرير، وفي هذه اللحظة بالذات يغفو إيفان بوجهٍ سعيد.

وفي الصباح يصحو صامتاً، لكن هادئاً ومعافى تماماً. تخبو ذاكرته المكلومة، ولن يزعج أحد البروفيسور بعد ذلك إلى أن يكتمل البدر مرةً أخرى، لا القاتل هيستاس المجدوع الأنف ولا حاكم اليهودية الخامس القاسي بيلاطس البنطي.

هذا الكتاب

تنحني المرأة على إيفان وتقبّله في جبينه، وإيفان ينجذب إليها ويحدّق في عينيها، لكنها تتراجع، تتراجع وتغادر مع رفيقها إلى القمر.

حينئذٍ يبدأ القمر بالهيجان ويُهيل أشعته على إيفان مباشرةً، وينثر ضوءه في كل الاتجاهات، وفي الغرفة يبدأ فيضان قمري، يترجرج الضوء ويعلو ويغمر السرير، وفي هذه اللحظة بالذات يغفو إيفان بوجهٍ سعيد.

وفي الصباح يصحو صامتاً، لكن هادئاً ومعافى تماماً. تخبو ذاكرته المكلومة، ولن يزعج أحد البروفيسور بعد ذلك إلى أن يكتمل البدر مرةً أخرى، لا القاتل هيستاس المجدوع الأنف ولا حاكم اليهودية الخامس القاسي بيلاطس البنطي.

ISBN 978-9933351052
9 789933 351052